

مذكرات
كازنتزاكي

٢-١

تقرير إلى غريكو



ترجمة: ممدوح عدوان

مذکرات کا زنتوا کی

تقریریں عنریکو

مذكرات كازنتزاي

تقرير عن بيكو

ترجمة: ممدوح عدوان



كتابة « تقرير الى غريكو »

كان نيكوس كازانتزاكي يطلب من ربه ان يمد في عمره عشر سنوات اخرى يكمل بها عمله - يقول فيها ما كان عليه ان يقول و « يفرغ نفسه » . وكان يريد ان ياتيه الموت فلا ياخذ منه الا كيسا من العظام . عشر سنوات تكفي . او هذا ما كان يظنه .

الا ان كازانتزاكي لم يكن من النوع الذي يمكن ان « يفرغ » . دون احساس بالشيخوخة او التعب في الرابعة والسبعين من عمره كان يعتبر نفسه متجدد الشباب حتى بعد مغامرته الاخيرة ، والحقنة المفجعة . وتبادر الي ذهنه المتخصصان العظيمان في (فريبيرغ) : اختصاصي الدم هيلمير والجراح كراوس .

طوال الشهر الاخير كان البروفسور هيلمير يهتف بعد كل زيارة « اقول لكم ان هذا الرجل معافي . ودمه اصبح سليما مثل دمى » . وكنت اعنف نيكوس دائما : « لم تركض هكذا ؟ » خشية ان ينزلق على الارضية الحجرية ويكسر عظما من عظامه .

وكان يجيب : « لا تقلقي يا لينوتسكا . ان لدي اجنحة » . وكان في وسع المرء ان يحس بالثقة التي لديه في تكوينته وفي روحه ، تلك الثقة التي كانت ترفض ان تمرغ .

كان ، احيانا ، يتنهذ : « آه . لو انني ، فقط ، استطيع ان املسي عليك » ثم يحاول ان يكتب وهو يمسك بالقلم بيده اليسرى . - لم العجلة ؟ من يطاردك ؟ لقد فات الاسوأ ، وخلال ايام قليلة ستكون قادرا على الكتابة بما يرضي قلبك .

وكان يلفت رأسه ويحدق الي طويلا دون ان يتكلم . وبعد ذلك يتنهذ

ويقول : « لدي الكثير جدا مما يجب ان اقول ، تعذبني مرة اخرى ثلاثة موضوعات ، ثلاث روايات جديدة ، ولكن علي ان انهي غريكو أولا .

- سنهيه ، لا تقلق .

- انني أخطط لتغييره ، اتناوليني ورقة وقلما ؟ دعينا نر ان كنت
استطيع التدبر ، الا ان عملنا المشترك لم يكن يستغرق اكثر من خمس
دقائق .

« مستحيل الا اعرف كيف أملني ، لا استطيع ان افكر الا والقلم في
يدي » . الاسلاف ، الابوان ، سنوات الطفولة ... اثينا ، كريت ، الرحلات
... سيكيانوس ، فيينا ، برلين ، بريفيلاكيس ، موسكو .

أتذكر الان لحظة دقيقة اخرى من حياتنا ، في مستشفى اخرى . وهذه
المرة في باريس . كان نيكوس مريضا ودرجة حرارته ١٠٤ والاطباء
مضطربون ، لقد فقد الجميع أملهم . نيكوس ، ظل متماسكا .

« أتعطينني قلما يا لينوتسكا ؟ »

وبصوت متهدج ، وهو غائب في رؤياه ، أملى علي ، الكلمات التي
ينطق بها القديس الفرنسيكاني : « قلت لشجرة اللوز : حدثيني عن
الله يا أخت ، فأزهرت شجرة اللوز » .

وقبل ان نرحل الى الصين ترك « تقرير الى غريكو » بين يدي رسام
شاب هو « قابلته » - كما كان يسميه - لانه كان يأتي مع الفجر ويصعد
الى مكتبة نيكوس مشوشا بمشكلات عظيمة - عن الله والناس والفن -
ويبدأ اسئلته اللامتناهية عن « متى » و « فيما اذا » و « كيف » بينما
نيكوس « مستسلم » وهو يضحك معجبا بحرارة الشاب وحبه الجارف
لفنه . كان يلقي بأفكاره ويريح نفسه . قال له نيكوس : « قد يحترق البيت
ولذا سأترك المخطوطة معك . فلو انها احترقت وهي في هذه المرحلة فأنني
لن استطيع إعادة كتابتها ابدا ، ان خلجي كبير لأنني لم انها » .

ولكن كيف كان من الممكن ان ينهيها ؟ وما الذي تركه غير منجز في
تلك الأشهر القليلة السابقة للرحلة ؟

لقد بدأ « التقرير » في خريف ١٩٥٦ ابان عودتنا من فيينا ، وحين كان
يحتاج لتغيير الجو كان يتناول « أولديسة » هوميروس التي كان يعمل بها
بالتعاون مع البروفسور كاكريديس .

« علينا ان ننهئها في الوقت المناسب بحيث لا انزل الى « هيدس (1) »
 « برجل عرجاء » • هي العبارة التي اعتاد ترديدها بشيء من السخرية ، وشيء
 من الخوف • وخلال تلك الاشهر ذاتها واطبت مقاطع من ترجمته الانكليزية
 للاوديسة على الوصول في فترات متعددة مصحوبة بصفحات كاملة من
 الكلمات العصية على الترجمة • كم من الوقت وكم من الجهد استهلكت
 الاوديسة من جديد • هذا بغض النظر عن الطبقات المتعددة لاعماله الاخرى
 اليونانية • كانت هناك نصوص يجب ان تصحح او يضاف لها ، و « روسيا »
 المخطوط الذي ضاع وببير سيبريو في الاذاعة الفرنسية الذي انهكه
 باحاديثه ، والفيلم ، ورحلة الى الهند بدعوة من نهرو تهيانا لها ولكننا
 لم نقم بها لاننا خفنا من اللقاحات التي تتطلبها •

لا • انه لم يبتغ انهاء « التقرير الى غريكو » في الوقت المحدد • اذ لم
 يكن قادرا على كتابة مسودة ثانية • كما كانت عادته • كان يبتغي ان
 يعيد كتابة الفصل الاول بكامله واحد المقاطع الختامية « حين اثمرت بذرة
 الاوديسة في داخلي » الذي أرسله قبل وفاته لكي ينشر في دورية « نياستيا
 Neaestia » • بالاضافة الى ذلك كان يبتغي انهاء قراءة مخطوطته
 واجراء تنقيحات او اضافات بالقلم هنا وهناك •

استعيد وانا وحدي الان فجر الخريف الذي كان يهبط بغاية الهدوء
 واللف كطفل صغير مع الفصل الاول •

« اقرئي يا لينوتسكا • اقرئي ودعيني اسمع » •

« اجمع ادواتي : النظر والشم واللمس والذوق والسمع والعقل • خيم
 الظلام وانتهى عمل النهار • اعود كخلد الى بيتي ، الارض ، ليس لانني
 تعبت وعجزت عن العمل • انا لم اتعب لكن الشمس قد غربت ••• » •

لم استطع المتابعة • برز نتوء في حلقي ، كانت هذه هي المرة الاولى
 التي يتحدث فيها نيكوس عن الموت •

– لم تكتب وكانك تستعد للموت ؟

هكذا صرخت بيأس حقيقي ، وقلت لنفسي : « لم قبل الموت اليوم ؟ » •

– « لا تقلقي يا زوجتي فأنا لن اموت » اجاب دون اي تردد « ألم اقل

انني سأعيش عشر سنين اخرى ؟ » اصبح صوته الان اخفت • ثم مد يده
 ليلمس ركبتي « هيا بنا الان • اقرئي ، دعينا نر ما كتبت » •

(1) هيدس : مثنى الاموات في الميثولوجيا اليونانية •

لقد انكر امامي ولكن ربما كان يعرف به في اعماقه . لانه في تلك الليلة ذاتها وضع الفصل في مغلف رسالته لصديقه باننديليس بريفلاكيس : « هيلين لم تستطع ان تقرأه ، فقد اخذت تبكي ، الا ان من الخير لها - ولي ايضا - ان تتعود ... » .

ويبدو ان شيطانه الداخلي قد حثه على ترك (فاوست : الجزء الثالث) الذي كان يرغب في كتابته وان يطلق بدلا منه سيرته الذاتية .

« التقرير » مزيج من الواقع والخيال : كمية كبيرة من الحقيقة والحد الأدنى من التخيل . لقد تم تغيير عدة تواريخ ، وحين يتحدث عن الاخرين فانها الحقيقة دون تغيير : ما رآه تماما وما سمعه وحين يتحدث عن مغامراته الشخصية فان هناك بعض التعديلات .

الا ان هناك شيئا واحدا مؤكدا وهو انه لو استطاع اعادة كتابة هذا « التقرير » لغيره . اما كيف ؟ فهذا لا نعرفه . كان سيفنيه ، ذلك انه كل يوم كان يتذكر احداثا جديدة كان قد نسيها . كما انه ، ايضا ، كان سيسكبه ، كما اعتقد ، في قالب الحقيقة ، فقد كانت حياته الفعلية مليئة بالمادة والالم والفرح والعذاب ، وبكلمة واحدة كانت حياته مليئة بالعزة . لم كان سيغير حياته ؟ ليس بسبب اللحظات الصعبة من الضعف والانطلاق والالم . بل على العكس من ذلك ان هذه اللحظات الصعبة ذاتها هي التي كانت تتحول لدى كازانتراكي الى درجات جديدة تساعده على الصعود أعلى فاعلى - الصعود حتى الوصول الى القمة التي وعد نفسه بالتسلق اليها قبل هجر ادوات العمل بسبب هبوط الليل . لقد توسل الي مكافح اخر قائلا : « لا تحكموا علي بأعمالي ولا تحكموا علي من وجهة نظر الانسان بل احكموا علي من وجهة نظر الله - ومن الهدف المختصر وراء أعمالي » .

هكذا كان يجب ان نحكم على كازانتراكي . ليس بما فعله وبما اذا كان ما فعله ذا قيمة سامية أم لا ، بل علينا ان نحكم عليه بما أراد ان يقوم به ، وبما اذا كان لما أراد ان يقوم به قيمة سامية له ولنا ايضا .

بالنسبة لي اعتقد انه كانت له هذه القيمة ، وفي السنوات الثلاث والثلاثين التي قضيتها الى جانبه لا اذكر انني فجلت من تصرف واحد من جانبه ، كان نقيًا ودون مكر وبريئا وعذبا ، بلا حدود ، مع الاخرين ، وقاسيا مع نفسه فقط . وحين ينسحب الى عزلته فانه كان يفعل ذلك لاهساسه ان الاعمال المطلوبة منه قاسية وان ساعاته محدودة .

لقد اعتاد ان يقول لي وعيناه الفاحمتان المدورتان ، المدورتان ،

غارقتان في الظلمة ومليتان بالدموع « أحس كأنني سأفعل ما يتحدث عنه
برغسون - الذهاب الى ناصية الشارع ومد يدي للتبول من العابرين :
زكاة يا اخوان ، ربع ساعة من كل منكم ، أه على بعض الوقت ، ما يكفي
فقط لانتهاء عملي ، وبعدها فليات شيرون (٢) »

وجاء كيرون - عليه اللعنة ا - وحصد نيكوس في زهرة شبابه . نعم
ايها القاريء العزيز ، لا تضحك ، فقد كان ذلك هو الوقت المناسب للازدهار
والاثمار بالنسبة لكل ما بدأه ذلك الرجل الذي احببته والذي احبك ، صديقك
نيكوس كازانتزاكي .

جنيف ، ١٥ حزيران ١٩٦١
هيلين ، ن . كازانتزاكي

(٢) شيرون او كيرون نقل ارواح الموتى الى هيدس .

تقديم

« تقريرى الى غريكو » ليس سيرة ذاتية • فحياتى الشخصية لها بعض القيمة ، وبشكل نسبي تماما ، وبالنسبة لى وليس بالنسبة لاي شخص اخر • والقيمة الوحيدة التى اعرفها فيها كانت فى الجهود من اجل الصعود من درجة الى اخرى للوصول الى اعلى نقطة يمكن ان توصلها اليها قوتها وعنادها ، القمة التى سميتها تسمية اعنباطية بـ « الاطلالة الكريتية » •

ولذلك فانك ، ايها القارئ ، ستجد فى هذه الصفحات الاثر الاحمر الذى خلفته قطرات من دمي ، الاثر الذى يشير الى رحلتى بين الناس والعواطف والافكار • كل انسان ، يستحق ان يدعى بابن الانسان ، عليه ان يحمل صليبه ويصعد جلجته • كثيرون ، والحقيقة معظمهم ، يصلون الى الدرجة الاولى او الثانية ثم ينهارون لاهئين فى منتصف الرحلة ولا يصلون الى ذروة الجلجلة ، بمعنى اخر ذروة واجبهم • ان يصلوا ، وان يبعثوا ، وان يخلصوا ارواحهم • تضعف قلوبهم لخوفهم من الصلب ، وهم لا يدرون ان الصليب هو الطريق الوحيد للبعث ، ولا طريق غيره •

كانت هناك اربع درجات حاسمة فى صعودي وتحمل كل منها اسما مقدسا : المسيح ، بوذا ، لينين ، اوليس • ورحلتى الدامية بين كل من هذه الارواح العظيمة والاخرى هي ما سوف أحاول جاهدا ان ابين معالجه فى هذه « اليوميات » بعد ان اوشكت الشمس على المغيب - انها رحلة انسان يحمل قلبه فى فمه وهو يصعد جبل مصيره النوعر والقاسي • ان روحي كلها صرخة واعمالى كلها تعقيب على هذه الصرخة •

طوال حياتى كانت هناك كلمة تعذبني وتجددني وهى كلمة

« الصعود » • وسأقدم هذا الصعود ، وأنا امزج هنا الواقع بالخيال ، مع آثار الخطى الحمراء التي خلفتها ورائي وأنا اصعد • وانني حريص على الانتهاء بسرعة قبل ان اعتمر « خوذي السوداء » واعدو على التراب ، لان هذا الاثر الدامي هو العلامة الوحيدة التي ستبقى من عبوري الى الارض • فكل ما كتبته او فعلته كان مكتوبا او محققا على الماء ، وقد تلاشى •

انني اوقف ذاكرتي لاتذكر ، أحشد حياتي من الهواء ، واضع نفسي كجندي امام جنراله • لكي اكتب تقريري الى غريكو. ذلك ان غريكو معجون في التربة الكريمية ذاتها التي عجت ، أنا ، منها • وهو قادر على فهمي أكثر من مكافحي الماضي والحاضر كلهم • ألم يخلف الآثار الحمراء نفسها على الصخور ؟•



ثلاثة انواع من الارواح ، ثلاث صلوات :

- ١ - انا قوس بين يديك يا الهي فشدني لئلا اتفسخ •
- ٢ - لا تشدني كثيرا يا الهي لئلا اتحطم •
- ٣ - شدني كثيرا يا الهي فمن سيهتم لتحطمي ؟•

تمهيد

اجمع ادواتي : النظر والشم واللمس والذوق والسمع والعقل . خيم
الظلام وقد انتهى عمل النهار . اعود ، كالخلد ، الى بيتي ، الارض ،
ليس لانني تعبت وعجزت عن العمل ، فانا لم اتعب ، لكن الشمس قد
غربت .

لقد غربت الشمس والتلال اصبحت معتمة . وما تزال حواف جبال
عقلي تحتفظ بالقليل من الضوء على قممها . لكن الليل المقدس يهبط .
انه ينهض من الارض وينزل من السماء وقد اقسم الضوء ان لا يستسلم غير
انه يدرك ان لا خلاص . لن يستسلم لكنه سيخمد .

القي نظرة اخيرة حولي . لمن ساقول وداعا ؟ والى اي الاشياء ؟ الجبال؟
البحر ؟ العريشة المحملة بالعناقيد على شرفتي ؟ للفضيلة أم للخطيئة ؟
سواء العذب ؟ عبثا ، عبثا . فكلها ستنزل معي الى القبر

لمن أبت أفراسي واحزاني - اشواق الشباب السرية والوهمية ؟ الصدام
العنيف مع الله والناس ؟ واخيرا الكبرياء الوحشية في الشيخوخة ، التي
تحترق وترفض ، حتى الموت ، ان تتحول الى رماد ؟ ولمن احكي المرات
العديدة التي فيها انزلت وسقطت وانا اتسلق اربعات (1) في صعودي
الوعر الشاق الى الله ، المرات التي نهضت فيها مضرجا بالدم وعدت مرة
اخرى الى الصعود ؟ اين استطيع ان اجد روحا عنيدة بألاف الجراح مثل
روهي ، لكي تستمع لاعترافي ؟ بهدوء واشفاق اعتصر كمشة من التراب
الكريتي في راحتي . كنت احتفظ بهذه التربة معي دائما ، خلال تجوالي ،

(1) يقصد كل اربع درجات في قفزة واحدة .

وانا اضغطها في كفي لحظات الالم العظيم فاستمد منها القوة ، القوة العظيمة ، كأنني استمدها من الضغط على يد صديق حبيب وغال ، اما الان وقد غربت الشمس وانجز العمل فما الذي استطيع ان افعله بالقوة ؟ لم أعد بحاجة اليها . انني امسك بهذه التربة الكريتية واعتصرها بفرح جليل وبرقة وامتنان وكأنني اعتصر في كفي نهد امرأة احببتها لاودعها . هذه التربة التي هي ما كنته دائما وأبدا . وهذه التربة هي ما سأكونه دائما وأبدا . أه يا طين كريت القاسي !! لقد انزلت كومضة فريدة تلك اللحظة التي اعتصرت بها وتشكلت في هيئة انسان مكافح .

أي كفاح كان في هذه القبضة من الطين ؟ واي الم ؟ واية مطاردة لهذا الوحش اكل البشر غير المرئي ؟ واية قوى قدسية وشيطانية معا ؟ لقد جبلت بالدم والعرق والدموع ، اصبحت وحلا ، اصبحت انسانا وابتدأت صعودها .

- لتصل ماذا ؟ لقد تسلقت لاهثة نحو عظمة الله القاتمة ومدت ذراعها وتلمست . تلمست بجهد جهيد علها تجد وجهه .
وحينما يدرك هذا الانسان في سنواته الاخيرة ، وببأس ، ان هذه العظمة الغائمة ليس لها وجه ، اي كفاح جديد بكل صفاقة ورعب ، يعاني ليشق طريقه الى تلك القمة الشائكة ويعطيها وجهها ! وجهه هو !

ولكن الان وقد انجز عمل النهار فانذني اجمع ادواتي ، فلتأت كمشات اخرى من التراب ولتتابع الكفاح . فنحن ، الفانين ، جماعة عمل الخالدين .
دمنا مرجان احمر ، ونحن نبني جزيرة فوق الهاوية .

لقد أنجز الله . وأنا ايضا قد اسهمت بحصاتي الاحمرء الصغيرة ، قطرة الدم ، لكي اجعله صلبا ولكي لا يتلاشى - اعله يمنحني الصلابة فلا اتلاشى . لقد اديت واجبي .

رداعا !

أمد يدي وامسك مزلاج الارض لافتح الباب وامضي . غير انني اتردد لحظة صغيرة على العتبة النيرة : عيناى وأذناى واحشائى تجد انه من الصعب ، وانه لمن اقصى الاشياء ، ان تسلخ نفسها عن حجارة العالم وعشبه . يستطيع المرء ان يقول لنفسه انه مكتف وانه ينعم بالهدوء والسلام . ويستطيع القول انه لم يغد يحتاج اشياء وانه قد أدى واجبه وانه مهتعد للرحيل . لكن القلب يقاوم . يتمسك بالعشب والحجارة ويتزسل « ابق قليلا ! » .

وأجاهد لنعزية قلبي وجعله ينسجم مع اعلان الموافقة بحرية . يجب ان نغادر الارض ليس كعبيد ممزقين ومجلودين ، بل كملوك ينهضون عن المائدة وهم ليسوا في حاجة لشيء بعد ان أكلوا وشربوا حتى الامتلاء . ولكن القلب ما يزال يخفق داخل الصدر ويقاوم صارخا : « ابق قليلا ! » .

ابقى ، وألقي نظرة على الضوء . هو الآخر يقاوم ويصارع كقلب الانسان . الغيوم قد غطت السماء ورذاذ دافيء يتساقط على شفتي ورائحة الارض تعبق . ويصدر عن التراب صوت حلو مغو : « تعال . تعال . تعال . . . تعال . . . »

الرذاذ يغزر ، ويتنهد طائر الليل الاول ، ويتساقط الهه مع الهواء الملبل ، بحلاوة رائحة عن الخضرة الملمعة بالليل . سلام وحلاوة هائلة . لا أحد في البيت . وفي الخارج كانت المروج الضمأى تتشرب أول زخات الخريف بامتنان وسعادة صامتة ، لقد رفعت الارض نفسها كالرضيع نحو السماء لترضع .

أغمض عيني وانام ممسكا بكمشة التراب الكريتي ، كالعادة ، في كفي . لقد نمت وحلمت حلما ، كان يبدو وكان النهار قد بزغ . وكان نجم الصباح يتأرجح فوقى . وأنا ، الواثق من انه كان على وشك السقوط على رأسي ، ارتجفت وركضت . ركضت وحيدا عبر الجبال الموحشة المجدبة ، ومن أقصى المشرق ظهرت الشمس . لم تكن الشمس بل صحننا برونزيا مقمرا مليئا بالفحم المشتعل . بدأ الهواء يضطرب وبين الحين والحين كان جبل يندفع من الريف الصخري يضرب بجناعيه ويقوقى ساخرا منى بقهقهة . وطار غراب ، في اللحظة التي رأني ، من انحدار في الجبل ، لا شك انه كان ينتظر ظهوري . وطار ورائسي يتابعني وهو يتفجر بالضحك انحنيت غاضبا وانتقطت حجرا لارميه به ، لكن الغراب حول جسده وصار رجلا عجوزا صغير الجسم ينظر الي باسما .

ملجوما بالرعب بدأت اركض من جديد ، كانت الجبال منزوع وانسا اتزوبع معها في دوائر تضيق باستمرار . غلبنى الدوار . كانت الجبال تتواثب حولي ، وبغثة احسست انها ليست جبالا ، بل بقايا مستحاثات لدماغ حيوان مما قبل الطوفان ، وفوقى ، على يميني ، كان هناك صليبه مطوق بالصخور الهائلة وثمان برونزي هائل مصلوب عليه . وعبرت ذهني ومضة مضيئة أضاعت الجبال من حولي فرأيت . لقد دخلت الوادي المتعرج الرهيب الذي عبره العبرانيون بقيادة يهوه منذ آلاف السنين عند هربهم من ارض فرعون السعيدة ، هذا الوادي قد اسس الخدادة النارية التي تطرق بها بنو اسرائيل عبر الجوع والعطش والكفر .

تملكني الخوف • خوف ممزوج بفرح عظيم ، انحنيت على صخرة لكي اهدى جيشان افكاري واغمضت عيني • وبفتة تلاشي كل شيء من حولي وامتد امامي خط ساحلي يوناني : بحر نيلي الزرقة معتم وصخور حمراء • بين الصخور ممر منخفض يؤدي الى كهف مظلم • وامتدت يد من الهواء واوقدت مشعلا في يدي ، فهمت الامر • انحنيت وانزلت في الكهف • تجولت وتجولت في مياه سوداء متجمدة • نوازل زرقاء مدلاة فوق رأسي وصواعد صخرية هائلة تبرز من الارض متلاحقة ومتضاحكة تحت ضوء المصباح • هذا الكهف كان مجرى نهر كبير غير مجراه عبر العصور فهجره وتركه فارغا •

هسهس الثعبان البرونزي غاضبا • فتحت عيني فرأيت الجبال والوادي والمنحدرات الصخرية من جديد • توقف الدوار • ثبت كل شيء وامتلا بالضوء • فهمت : بالطريقة ذاتها استطاع يهود ان يشق طريقه بين الصخور الهائلة المحيطة بي • لقد دخلت المجرى الرهيب وكنت اتبع - اخطو - على آثاره •

صرخت في حلمي : « هذا هو الطريق • هذا طريق الانسان • وهو الطريق الوحيد ! » وما ان خرجت هذه الكلمات الجريئة من فمي حتى لفنتي زوبعة ورفعنتي أجنحة • وبفتة وجدت نفسي على قمة سيناء • كانت رائحة الكبريت تملأ الهواء • وكانت شفطاي تؤلماني وكان شرارات لا حصر لها تخرقهما • فتحت جفني • لم يسبق لعيني ولم يسبق لاهوائي ان استمتعت بمنظر لا انساني بهذه الحدة ومتوافق مع قلبي بهذا المقدار • بلا ماء ، ولا اشجار ولا كائن بشري ولا امل ، هنا تستطيع نفس الانسان الفخور او اليائس ان تجد السعادة المطلقة •

نظرت الى الصخرة التي اقف عليها • كان هناك تجويفان عميقان محفوران في الفرانيت لا بد انهما آثار قدمي النبي ذي البوق الذي كان ينتظر ظهور الاسد الجائع • ألم يأمر (أي الله) النبي ان ينتظر على قمة جبل سيناء ؟ لقد انتظر •

وانتظرت انا ايضا • انحنيت فوق حافة الجرف واصفيت بانتيابه • وبفتة سمعت الرعد الهادر لخطوات بعيدة • بعيدة جدا • شخص ما كان يقترب • واهتزت الجبال وابتدا منخراي يرتعشان • صار للهواء من حولي رائحة كرائحة الفحل الذي يقود القطيع « انه قادم ، انه قادم » تمتعت بهذه الكلمات وانا استعد • كنت اهيء نفسي للقتال • اه ، كم تقت للحظة التي ساجابه بها هذا الوحش الضاري القادم من الغابة الكبرى ، اجابه وجها لوجه دون ان يتدخل العالم المرئي الضيق ويفشلني ! متى ساجابه

ذلك (الاب) الامرئي النهم الطيب القلب الذي يلتهم ابناءه والذي تقطر
شفته ولحيته واطرافه دما ؟

سأتحدث اليه بجرأة ، سأهكي له عن معاناة الانسان ومعاناة الطير
والشجر والصخر . كنا جميعا مصممين ، برغبة ، على الموت وأمسكت
بيدي استرحاما وقعت عليه الاشجار والطيور والوحوش والبشر : « يا
أبانا ، لا نريدك ان تأكلنا ! » سأعطيه هذا الاسترحام ولن اخاف .

تحدثت وتوسلت بهذه الطريقة وانا استعد وارتعد .
وفيما انا منتظر كان يبدو ان الحجارة تتحرك . وسمعت انفاسا
عظيمة .
همست : « انظروا اليه لقد أتى » .

التفت مرتعشا لكنه لم يكن يهوه . لم يكن يهوه بل كنت انت ايها
الجد القادم من تربة كريت الحبيبة . كنت تقف امامي نبيلًا صارما
بلحيتك الصغيرة البيضاء كالثالج ، وبشفتيك الجافتين المضمومتين ونظرتك
المنتشية المليئة باللهب والاجنحة وجذور الصعتر متشابكة مع شعرك .

نظرت الي ، وحين نظرت الي أحسست ان هذا العالم كان غيمة ملفعة
بالريح والصواعق وان روح الانسان غيمة ملفعة بالريح والصواعق وان
الخلاص غير موجود .

رفعت عيني لانظر اليك . وكنت على وشك ان اسالك يا جدي ، أن
كان صحيحا ان الخلاص غير موجود ؟ لكن لساني التصق بحلقى . كنت على
وشك الاقتراب منك ولكن ركبتني ارتختا تحتني

عندها مددت يذك وكانني اغرق وكانك تريد ان تنقذني .

تمسكت بها ملهوفًا . كانت مزينة برسوم متعددة الالوان . يبدو انك
ما تزال ترسم . كانت الكف تحترق . اكتسبت قوة وزخما من لمسي لها
وصرت قادرا على الكلام .

- مرني ايها الجد الحبيب .
وانت تبتمس وضعت كفك على رأسي . لم تكن كفا بل نارا ملونة ،
وأخترق اللهب دماغى حتى الجذور .

- توصل الى ما تستطيعه يا بني .
كان صوتك حزينا وقاتما وكأنه خارج من حنجرة الارض العميقة .

وصل الصوت الى اعماق عقلي لكن قلبي لم يهتز ، وصرخت بصوت اعلى :

- اعطني امرا اكثر صعوبة ، اكثر كيرتية .

ولم أكد انهني كلامي حتى فلع الهواء لهب «مهسهس» • وتلاشى السلف العصي ذو الجذور الصغترية المشتبكة بخصلاته عن ناظري • وتبقت صرخة على قمة جبل سيناء • صرخة علوية مترعة بالامر : وارتعش الهواء : « توصل الى ما لا تستطيع » •



استيقظت مرعوبا ، كان النهار قد طلع • نهضت واتجهت الى الابواب الفرنسية وخرجت الى الشرفة ذات العريشة المثقلة بالعناقيد ، كان المطر قد توقف الان وكانت الحجارة تتلامع وتتضاحك والاوراق على الاشجار مثقلة بالدموع • « توصل الى ما لا تستطيعه » •

كان صوتك • ولم يكن في وسع احد في العالم غيرك ان ينطق بهذا الامر الرجولي . ألسنت القائد اليائس ، الذي لا يستسلم ، لعرقى المكافح ؟ السنا الجرحى والمتضورين والحمقى والعنيدى الذين خلفنا الضيق والثقة وراءنا من أجل ان نهاجم الحدود ، تحت امرتك ، لسحقهم ؟ •

الله هو الوجه الاكثر ألقا لليأس والوجه الاكثر ألقا للامل • وانت يا جدي تدفعني الى ما وراء الامل واليأس والى ما وراء حدود الكشيوخة • فالى اين ؟ اننى احدق فيما حولي واحدق في داخلي • لقد جنت الفضيلة • وكذلك جنت الهندسة والمادة • ويجب ان يعود من جديد العقل المانع للقوانين لتأسيس نظام جديد ووضع قوانين جديدة ، يجب ان يتحول العالم الى هارموني اغنى •

هذا ما تريده • وهذا ما تدفعني اليه وما كنت تدفعني اليه دائما • وكنت اسمع امرك ليلا نهارا • لقد كافحت بأقصى ما استطيع للوصول الى ما لم استطعه • وجعلت هذا واجبي • والامر متوقف عليك لكي تخبرني ما اذا كنت قد نجحت او فشلت • وما انا اقف منتصبا امامك وانتظر ا



يا سيدي الجنرال • ان المعركة تقترب من نهايتها وما انذا اعسد تقريرى • وفيه اين كافحت وكيف • لقد سقطت جريحا ووقعت في الحب

ولم اهرب ، ورغم ان اسناني كانت تصطك من الخوف ، فانني عصبه
جيني بمنديل اهر وانذفت مهاجما .

وقبل ان انتزع الريش الثمين من روعي الغرابية ، ريشة بعد اخرى
الى ان تبقى كتلة صغيرة من الطين مضمخة بالدم والعرق والدموع ، ساجدي
لك كفاهي - لاخفف عن نفسي ، سألقي بالفضيلة والجل والحقيقة -
لاخفف عن نفسي ، ان روعي تشبه خلقك « توليدو في العاصفة » المفسح
بالمصواعق الصفراء والفيوم السوداء الكثيفة والمكافح بيأس في معركة لا
ترجع فيها ضد كل من الضوء والظلمة ، ستري روعي ، وستزنها بين
حاجبيك الرمحين وستحكم ، أتذكر القول الكريتي الحزين « عد الى حيث
فشلت ، وغادر من حيث نجحت » ؟ فان فشلت ساعاود الهجوم حتى لو
لم يبق الا ساعة واحدة من العمر ، وان كنت قد نجحت فسأفتح الارض لكي
اتي واضطجع الى جانبك ، فاصغ ، اذن ، لتقريرتي ، يا سيدي الجنرال ،
اصغ الى حياتي ، فان كنت قد كافحت معك ، وان كنت قد سقطت جريحا
ولم اسمح لاحد ان يعرف بالامي ومعاناتي وان كنت لم ادرا ظهري للعدو :

فامنحني بركتك ا

١ - الأسلاف

اتطلع الى نفسي وارتعد • فالى جانب والدي كان أسلافي قراصنة متعطشين للدماء على الماء ، او عصابات على اليابسة ، لا يخافون الله ولا الانسان • والى جانب امي كانوا فلاحين طيبين وقذرين ينحنون بثقة على الارض طوال النهار : يبذرون وينتظرون واثقين المطر والشمس ، ويحصدون ، وفي المساء يجلسون على المقاعد الصخرية امام بيوتهم يعتقدون أذرعهم ويضعون أملهم في الله •

النار والتراب • كيف اوفق بين هذين السلفين المتناقضين في داخلي ؟ أحسست ان هذا واجبي : ان اصالح بين المتعادين ، ان اسحب الظلمة السلفية من جنبي واحولها ، بأقصى ما يمكنني ، الى ضوء •

ليس اسلوب الله هكذا ؟ أوليس واجبنا ان نطبق هذا الاسلوب مقتفين آثاره ؟ حياتنا ومضة سريعة لكنها كافية •

الكون كله يتبع هذا الاسلوب وهو لا يذري • وكل كائن حي مشغل يقوم فيه الاله سرا ، بعمله وتحويله للطين • لهذا تزهو الاشجار وتثمر ، ولهذا تتكاثر الحيوانات ، ولهذا تجاوز القرد قدره ووقف منتصبا على قدميه • والان للمرة الاولى منذ ان خلق العالم تمكن الانسان من دخول المشغل الالهي والعمل الى جانبه (الى جانب الله) • وكلما استطاع ان يهول اللحم الى حب وبسالة وحرية اصبح بحق ابنا لله •

انه واجب عات لا يشبع • ولقد كافحت عبر حياتي وما ازال اكافح • الا ان ذرة من الظلمة تظل موجودة في قلبي • وباستمرار يتجدد الصراع • ان الأسلاف العجائز الابويين مغروسون في اعماقي ويظلون في تموجهم ومن

الصعب علي ان اتميز وجوههم في الظلمة الحالكة . وكلما توغلت أكثر في بحثي عن أول سلف رهيب في اعماقي وانا اتغلغل في ركام روعي - الفرد ، القومية ، والاجناس البشرية ، كلما قهرني رعب مقدس . في البدء تبدو الوجوه كوجه أخ او وجه اب ، ثم ، ما ان اتعمق نحو الجذور حتى يبرز بين جنبي سلف كثيف الشعر كبير الفكين يجوع ويظما ويخور وعيناه مليتان بالدم . هذا السلف هو الوحش الضخم الاشعث الذي اعطي لي لكي احوله الى انسان - ولارفعه الى ما يسمو على الانسان ان استطعت في الوقت المخصص لي . فأني صعود مخيف من قرد الى انسان ومن انسان الى اله ا

ذات ليلة كنت اتمشي مع صديق على جبل عال مغطى بالثلوج . تهنا وخيم علينا الظلام . لم تكن هناك نجمة واحدة في السماء ، وكان القمر اخرس مكملا معلقا فوقنا . تلامع الثلج أزرق شاحبا طوال الطريق من قمة الجبل ، حيث وجدنا انفسنا ، الى السهول تحتنا . كان الصمت متحجرا ومقلقا - وغير محتمل . لا شك ان الليالي المفسولة بالقمر كانت مشابهة لهذه الليلة منذ آلاف الدهور . وذلك قبل ان يكون هذا الصمت غير محتمل فأخذ الخالق الطين وصنع منه انسانا .

كنت اتقدم صديقي بخطوات قليلة ، وكان عقلي يلغه دوار غريب . تعثرت كسكران. وانا امشي بدا لي كأنني امشي على القمر او انني قبل مجيء الانسان موجود على ارض مفرقة في القدم وغير مأهولة - ولكنها مألوفة جدا . وبغثة وعند احد المنعطفات لمحت اضواء خافتة تشع بشحوب من بعيد قرب قاع المسيل . لا بد انها قرية صغيرة ما يزال اهلها مستيقظين . عندها حدث لي شيء غريب ما زال ارتعد حين اتذكره . توقفت وأشرت بقبضتي المشدودة الى القرية وصرخت غاضبا : « سأذبحكم جميعا ! » .

صوت أجش ليس صوتي ا بدأ جسدي كله يرتعش خوفا حالما سمعت هذا الصوت . وركض صديقي الي وقبض على ذراعي بقلق . سألتني « ما بك ؟ ومن ستذبح ؟ » تراخت ركبتي واحسست بتعب لا يوصف ولكنني استعدت وعيي حين رأيت صديقي امامي . « ليس انا لم يكن انا ، كان شخصا اخر » قلت له هامسا .

كان فعلا شخصا اخر . ولكن من ؟ لم يسبق لاعضائي الحيوية ان فتحت بهذا العمق وهذا الكشف . فمنذ تلك الليلة صرت متأكدا مما تكهنت به منذ سنوات : في اعماقنا طبقة فوق طبقة من الظلمة : اصوات خشنة ووحوش جائعة كثيفة الشعر . الا يموت اي شيء اذن ؟ الا يستطيع شيء ان يموت في هذا العالم ؟ الجوع والعطش والبلاء البدائي وكل الليالي

والاقمار ، ما قبل مجيء الانسان ستستمر في الحياة والجوع في اعماقنا .
وستظما معنا - طالما نحن نعيش . لقد لجمني الرعب وانا اسمع الحمل
المخيف الذي احمله في اعماقي ، وقد ابتدا يجأر . ألن اتخلص ابدا ؟ ألن
تنظف اعماقي ابدا ؟

بين حين واخر ، وبشكل متقطع ، كان هناك صوت حلو يصدر من
اعماق القلب ، « لا تخف ، بأسن القوانين وارسي النظام . انا الله . فليكن
لديك ايمان » ولكن بغتة تصدر دممة من بين جنبي ، ويصمت الصوت
العذب : « كفك تباهيا ، ساقوض قوانينك وادمر نظامك وافنيك . انا
الهيولي ا » .

يقولون ان الشمس تتوقف ، احيانا ، في مجراها لكي تستمع لغناء
فتاة شابة . لو ان هذا صحيح ا لو ان الضرورة ، تسحرها مغنية عن هذه
الارض ، تجبرها على تغيير مجراها ا لو اننا ، نحن بالبكاء والضحك
والغناء نستطيع خلق قانون قادر على اقامة النظام فوق الفوضى ا لو ان
الصوت العذب في اعماقنا يستطيع ان يطغى على الهدير والدممة .

حين اكون سكران او غاضبا او حين ألمس المرأة التي احبب او حين
يخيفني الظلم وارفع يدي احتجاجا امام الشيطان على الارض اسمع هذه
العفاريت تجأر في اعماقي وتغير على باب المصيدة لكي تحطمه وتخرج
مرة اخرى الى النور وتتسلح مرة اخرى . انا اخر الاحفاد واجبهم في
النهاية . وغيري ليس لهم امل او ملاذ . وكل ما يتبقى لهم للانتقام او
الاستمتاع او المعاناة لا يستطيعون فعله الا من خلالي . فان فنيت فنوا
معي . وحين انقلب في القبر فان جيشا من الوحوش ذوات الشعر الكثيف
والبشر المحزونين سينقلبون معي . ربما كان هذا ما يجعلهم يعذبونني
بهذا الشكل وهذا سر عجلتهم . وربما كان هذا سبب كون شبابي قلقا
ورافضا وتعيسا .

لقد قتلوا وقتلوا دون احترام للروح ، سيان روحهم ام ارواح الاخرين .
كانوا يحبون الحياة ويحتقرون الموت بالازدراء المتطرف ذاته . كانوا
ياكلون كالغيلان ويشربون كالثيران وما كانوا يفرغون انفسهم مع النساء
حين يكون الامر متعلقا بالذهاب الى الحرب . كانت جذوعهم عارية صيفا
ومطعمة بجلود الاغنام شتاء . وفي الصيف والشتاء كانت رواثهم تفوح
كحيوانات تنزو .

احسن ان جدي الاكبر ما زال يعيش في دمي . واعتقد انه الوهيد
بينهم الذي يعيش بحيوية اعنف في سراييني . كان رأسه هليقا فوق الجبهة

وله جديلة طويلة من الخلف • وكان رفيقا للقراصنة الجزائريين ومعهم طاف
البحار القصية •

لقد بنوا مخابئهم في جزر غرابوسا Grabousa المهجورة في الطرف
الغربي من كريت • ومن هناك كانوا يحزمون اشرعتهم السوداء ويصادمون
السفن العابرة • بعضها كان يبحر الى مكة بحمولة من الحجاج المسلمين ،
وبعضها الى الديار المقدسة بحمولة من المسيحيين الذين كانوا سيصبحون
حجاجا ، وكان القراصنة يزعمون وهم يلقون كلاباتهم ويقفزون على
السفينة وبلطاتهم في ايديهم • ودون اي احترام للمسيح او محمد كانوا
يذبحون الشيوخ وبأخذون الشبان كأرقاء وينقلون على النساء ثم يعودون
للاختباء في غرابوسا وشواربهم مبللة بالدماء وانفاس النساء • وكانوا ، في
احيان اخرى ينقضون على الزوارق الغنية المحملة بالتوابل التي كانت تظهر
من الشرق • وما يزال العجائز يتذكرون ما يقال من ان جزيرة كريت بأسرها
كانت تفوح منها روائح القرفة وجوز الطيب لان سلفي ، الرجل ذا الجديلة
قد نهب سفينة محملة بالتوابل • ولما لم يجد وسيلة لتوزيعها فقد أرسلها
الى كافة قرى كريت كهدايا لابنائهم وبناته بالمعمودية •

وكم اثارني ان اسمع من عجوز كريتي تجاوز المئة عن هذا الحادث
منذ سنوات قليلة • ذلك انني ، دون ان اعرف السبب ، كنت دائما احب
ان احتفظ بأنبوب من القرفة وبعض بذور الطيب معي في رحلاتي ، وامامي
على طاولة الكتابة وبالاستماع الى الاصوات الخبيثة في اعماقي كلما
نجحت في متابعة الدم بدلا من العقل (الذي سرعان ما يلهث ويعوقف)
كنت اصل بيقين صوفي الى أقصى بداياتي السلفية • ومع الزمن تعزز
هذا اليقين الغامض بإشارات ملموسة من الحياة اليومية ، وعلى الرغم من
أنني ظننت في البداية ان هذه العلامات عرضية ، ولم ألق لها اهتماما ،
الا أنني اخيرا ، بالاثتلاف مع صوت العالم المرئي ومزجه مع اصواتي
الداخلية الخفية استطعت ان أخرق الظلمة البدائية الكامنة تحت عقلي
• وان أرفع باب المصيدة وأن أرى •

ومنذ اللحظة التي رأيت فيها بدأت روحي تتماسك وتزداد صلابة ،
ولم تعد تخفق وتضطرب كالمياه • لقد بدأ وجه يسلمك ويتكاثف حول
القلب المضيء ، وهو وجه روحي ، وبدلا من التقدم شمالا ثم يمينا في
الدروب دائمة التغيير لكي أكتشف أي وحش انحدرت منه ، فأنني تقدمت
بثقة كأنني أعرف وجهي الحقيقي وواجبي الوحيد : وهو أن أعمل هذا
الوجه بأكثر ما أستطيع من صبر وحب ومهارة • أن أعمله ؟ ما معنى هذا ؟
يعني أن أحوله الى لهب ، وان كان لدي الوقت ، قبل مجيء الموت ، أن

أحول هذا الذهب الى ضوء وبحيث أن شيرون لن يجد شيئا في يأخذه
وكان، طموحي الاعظم هو ألا أترك للموت شيئا يأخذه - لا شيء إلا الظلم
من العظام .

وما ساعدني على الوصول الى هذه الثقة أكثر من أي شيء آخر كافي
التراب الذي ولد عليه أسلافي وكبروا . لقد انحدر أهل والدي من قرية تدعى
« بارباري » ، على بعد ساعتين من ميفالوكاسترو . وحينما استعاد
الامبراطور الروماني تيسوفوروسر فوكاس « كريت » من العرب في القرن
العاشر وزع العرب الذين سلموا من الذبح في عدة قرى وقد سميت هذه
القرى « بارباري » وفي قرية كهذه مد ابائي جذورهم . ان فيهم جميعا
اثارا عربية . فهم فخرون وعنيدون ومشدودو الشفاه معتدلون في طعامهم
ومعادون للجميع ، كانوا يخزنون جبههم أو غضبهم سنوات عديدة في
صدورهم دون أن ينبسوا بكلمة ، ثم بغتة يفرشخ الشيطان فيهم
فينفجرون في سعار . والفائدة القصوى بالنسبة لهم ليست الحياة بل
العاطفة . وهم ليسوا طيبين ولا مجاملين ، حضورهم جائر دون عناء ، ليس
بسبب الاخرين بل بسببهم . هناك شيطان داخلي يخنقهم . وبينما هم
على وشك الاختناق يتحولون الى قراصنة أو يطعنون أذرعهم . وهم في
انشداه سكران لكي يسفحوا دما ويجدوا متنفسا ، والا فانهم يقتلون المرأة
التي يخبون خشية أن يصبحوا عبدا لها . أو يفعلون مثلي ، أنا حفيدهم
الخالى من النقي ، يجهدون لتحويل الثقل القاتم الى روح . وماذا يعني
ذلك : تحويل أسلافي الهمج الى روح ؟ هذا يعني أن أطمسهم بأخضاعهم
لامتحان علوي .

وما تزال أصوات أخرى تشير سرا الى الطريق المؤدي الى أسلافي .
قلبي يخفق فرحا حينما أصادف نخلة ، تظن كأنها تعود الى مسقط
رأسها ، الى القرية البدوية المليئة بالغبار والمجدبة التي فيها الزينة
الثمينة هي النخلة .

حينما دخلت مرة الى الصحراء العربية على ظهر جمل وتصفحت
بنظري أمواج الرمال اللامحدودة واليايسة أمامي - صفراء وزهرية ، وفي
المساء تصبح بنفسجية دون أثر لانسان - انتقلت بثمل غريب بعيدا جدا
وزعق قلبي كأنثى الصقر العائدة الى العش الذي هجرته منذ سنوات ،
آلاف السنوات وقبل ذلك .

ثم حدث هذا : كنت أعيش مرة وحيدا في كوخ مهجور قرب قرية يونانية
« أرعى الرياح » كما اعتاد أحد النساك البيزنطيين أن يسميها ، كنت
بمعنى آخر ، أكتب الشعر : وكان هذا الكوخ الصغير مدفونا بين أشجار

الزيتون والصنوبر . وكان بحر ايجه الازرق المترامي الاطراف يبدو لي من بين الاغصان أمامي . لم يكن أحد يمر بي الا فلوروس وهو راع بسيط مغطى بالشحوم وله لحية شقراء . كان يأتي بأغنامه كل صباح ويجلب لي زجاجة من الحليب وثمانى بيضات مسلوقة وبعض الخبز ثم يغادرني . وكان دائما حين يراني منكبا على أوراقى وأنا اكتب ، يهز برأسه ويدعو : « فليحفظنا القديسون . ما الذي تريده من كتابة هذه الرسائل كلها يا سيدي ؟ ألا تتعب ؟ » ثم يتبعها بضحكة مجلجلة . وذات يوم مر بي بسرعة كبيرة . كان مشغولا ومقطبا الى درجة أنه لم يلق تحية الصباح . « ماذا جرى يا فلوروس ؟ » ندهته . فلوح بقبضته الضخمة وقال : « اللعنة يا سيدي . دعني وشأني ، لم يغمض لي جفن ليلة أمس . ولكن ألم تسمع بذلك الراعي في الجبل هناك ، فليأخذه الشيطان ! لقد نسي أن يناغم أجراس قطيعه ! كيف استطيع النوم . . . أنا ذاهب . »

- الى أين يا فلوروس ؟

- لتنغميها طبعاً بحيث أستطيع أن ارتاح .

وكما قلت ، ذات يوم عند الغداء ذهبت الى الخزانة لجلب المملحة من أجل البيض فسقط قليل من الملح على الارض القذرة . توقف قلبي . طأطأت بسرعة وبدأت أجمع الملح حبة حبة ، وبغثة أدركت ما أفعله فخفت . فيم هذا الكدر كله من أجل قليل من الملح سقط على الارض ؟ وأية قيمة له ؟ لا شيء .

وبعد ذلك استخلصت من الرمال علامة أخرى سوف تمكنني من الوصول الى أسلافي اذا تبعتهم . وكانت نارا وماء .

ان اهتمامي يقفز دائما حين أستطلع نارا تحترق دون جدوى . ذلك أنني لا أريد أن أراها تتلاشى . وأنا أسرع دائما لاغلاق صنوبر حين أرى ماءه يجري ولا جرة تملأ منه أو شخصا يشرب أو حديقة تسقى .

ولقد جربت هذه الاشياء الغريبة كلها دون أن أجمعها بوضوح في ذهنى لكي أكتشف وحدتها السرية . ان قلبي لا يستطيع أن يحتمل رؤية الماء والنار والملح وهي تبدد . وأبتهج كلما رأيت شجرة نخيل ، وصين دخلت الصحراء لم أكن أريد أن أغادرها ، لكن ذهني لم يتقدم اكثر . لقد دام ذلك سنوات كثيرة . وفي المشغل المعتم في داخلي ظل الاهتمام يشغل سرا . وهذه الاحداث الغامضة كلها قد اتصل واحدها بالآخر في أعماقي . وحينما أتى واحدها ليقف الى جانب الآخر بدأت بالتدريج تأخذ معنى . وذات يوم ، بغثة ، وبينما كنت أسير متمهلا دون عمل في مدينة واسعة

يكون تفكير بهذا المعنى على الاطلاق اكتشفته ، فالملح والنار والماء كانته
ثلاث ملكيات ثمينة من ملكيات الصحراء . لا شك أذن أن سلفا ما في
فاخلي - بدويا - قد قفز على قدميه واندفع الى الانقاذ حين رأى الملح
أو النار أو الماء وهي تبدد .

يومها كان هناك خطر خفيف في تلك المدينة الواسعة . وأتذكر أنني
رأيت فتاة صغيرة التجأت تحت ظلّة باب دار . كانت تبيع باقات صغيرة
من البنفسج المبلل . توقفت ونظرت اليها ولكن فكري - الذي كان الآن
بعيدا ومرتاحا وسعيدا جدا - كان يتشرد في الصحراء .

ربما كان هذا كله خيالا وافتراضات ذاتية ، أو توقفا رومانسيا للبعيد
والغريب . والحوادث الغريبة التي ذكرتها يمكن أن لا تكون غريبة أبدا
وربما لم يكن لها المعنى الذي أعطيتها اياه . نعم . هذا ممكن . ومع ذلك
فان تأثير هذه الخدعة المنظمة والمرتبّة ، أو هذا الوهم (فيما اذا كان
وهما) : هذا التيار المزدوج من الدم ، اليوناني من جهة أمي والعربي من جهة
أبي كان يجري في عروقي ، كان ايجابيا ومثمرا وقد منحني القوة والفبطة
والغنى .

وجهودي لصنع فرضية من هذين الدافعين المتنافرين هي التي منحت
حياتي هدفها ووحدتها . وفي اللحظة التي أصبح فيها هذا الحدس الغامض
مؤكدا فان العالم المرئي من حولي تساوى في انتظام ، وحياتي الداخلية
والخارجية ، بعد ايجاد الجذر السلفي المزدوج ، تلاامت كل منهما مع
الأخرى . وهكذا ، بعد سنوات كثيرة فان الكراهية الغامضة التي كنت
أحس بها نحو أبي استطعت أن أحولها ، بعد موته ، الى حب .

٢ - الأب

لم يكن أبني يتحدث الا نادرا ولم يكن يضحك ولم يشترك أبدا في نجار . كان ، ببساطة ، يصر على أسنانه أو يشد قبضته في أوقات حددة . وإذا صدف أن كان يمسك بلوزة قاسية فركها بين أصابعه طحنها . وقد رأى مرة أغا يضع سرج التحميل على ظهر مسيحي ويحمله مثل حمار ، غلب عليه الغضب تماما حتى أنه هجم على التركي . كان يريد أن يوجه اليه اهانة لكن شفثيه كاننا مزومتين بحددة . ولما عجز عن لنطق بأية كلمة بشرية بدأ يصهل كالجواد . كنت ما أزال طفلا . وقفت رحت أراقب وأنا أرتعد خوفا . وذات يوم بينما كان يمر عند الظهيرة في قاق ضيق عائدا الى بيته سمع امرأة تصرخ وأبوابا تصفق . كان هناك ركي سكران قد امتشق يطاقانه (١) وراح يطارد المسيحيين . واندفع نحو بي في اللحظة التي رآه فيها . كان الحراهبنا وكان أبني متعبا من العمل . م يكن راغبا في التشاجر . وخطر له بغتة أن يتحول الى زقاق آخر وأن هرب - لم يكن أحد يراه . لكن هذا سيكون مخجلا . فك المئزر الذي كان رتيه ولفه على قبضته ، وفي اللحظة التي بدأ فيها التركي الجبار يرفع يطاقان فوق رأسه وجه اليه ضربة عنيفة في بطنه وألقى به الى الارض . م انحنى وخلص اليطاقان من قبضة التركي وسار الى البيت . جلبت له بي قميصا نظيفا لكي يرتديه . . . فقد كان مبللا بالعرق وأنا (الذي كنت الثالثة تقريبا) كنت أجلس على الأريكة وأحدق اليه . كان صدره مغطى لشعر ويتبخر . وما أن غير قميصه واستبرد حتى ألقى باليطاقان على ريكة بجانبني ثم التفت الى زوجته وقال :

- حين يكبر ابنك ويذهب الى المدرسة أعطيه هذا مبراة لاقلامه .

(١) اليطاقان : سيف تركي محدد .

لا أستطيع أن أتذكر أنني سمعت منه كلمة الطف - باستثناء مرة واحدة حين كان في ناكسوس أيام الثورة . كنت أداوم في المدرسة الفرنسية التي يديرها الكهان الكاثوليك وكنت قد حزت على جوائز عديدة في الامتحانات : كتب كبيرة بربطات مذهبة . وبما أنني لم استطع حملها بنفسى فقد حمل والدي نصفها . ولم يتكلم طوال الطريق الى البيت . فقد كان يحاول اخفاء الغبطة التي أحسها لأنه لم يخجل بأبنه . ولم يفتح فمه حتى دخلنا الدار . قال بشيء شبيه باللفظ ، ودون أن ينظر الي « انك لم تخز كريت » .

ولكنه غضب من نفسه فورا ، فقد كان اظهاره للعاطف خيانة للنفس وظل مقطباً بقية المساء وهو يتجنب عيني .

كان كالحا لا يحتمل . وحين كان الاقارب والحيوان الذين يصدق ان يزوروا البيت يبدؤون بالضحك وتبادل الاحاديث الصغيرة ، ويفتح الباب بغتة ويدخل كانت الاحاديث والضحكات تتوقف دائما ويخيم ظل ثقيل على الغرفة . كان يلقي التحية بفتور ويجلس في مكانه المعتاد في زاوية الارىكة قرب النافذة المطلة على ساحة الدار ثم يخفض عينيه ويفتح كيس تبغه ويبرج لفافة دون أن ينبس بكلمة . ويتنحج الزوار ندهات جافة ويتبادلون نظرات سرية قلقة وبعد فترة من الهدوء ينهضون ويتجهون الى باب الدار على رؤوس أصابعهم .

وكان يكره القسس . كلما صادف أحدهم في الشارع كان يصلب نفسه ليتطهر من هذه المصادفة التعيسة . واذا ما حياه القس الخائف بعبارة « نهارا طيبا يا كابتن ميخائيل » كان يجيب : « امنحني لعنتك » . ولم يؤد في حياته صلاة القربان المقدس - لكي يتجنب رؤية القسس . ولكنه في كل أحد حين تنتهي الصلاة ويغادر الجميع كان يدخل الى الكنيسة ويشعل شمعة أملم ايقونة القديس ميناس المتقنة الصنع . كان يتعبد للقديس ميناس أكثر من أي مسيح أو مريم عذراء لأن القديس ميناس كان كابتن ميغالوكاسترو .

كان صدره منقبضا وقلبه ثقيلاً . لماذا ؟ صحته جيدة وأموره تسير على ما يرام وليس لديه ما يشكو منه فيما يتعلق بزوجته واطفاله . وكان الناس يحترمونه . والبعض ، الادنون ، ينهضون وينحنون له حين يمر بهم . يضعون أكفهم على صدورهم ويخاطبونه بالكابتن ميخائيل ، وفي عيد الفصح كان المطران يدعوه الى قصر الاسقف بعد « القيامة » مع أعيان المدينة ويقدم له القهوة وكعكة الفصح مع بيضة حمراء . وفي عيد القديس

ميناس في الحادي عشر من نوفمبر (تشرين الثاني) كان يقف أمام بيته ويتلو صلاة حينما يمر به الموكب .

ولكن قلبه لم يكن يبتهج . ذات يوم تجرأ الكابتن الياس ، من ميسارا ، أن يسأله : « لم لا توجد أبدا بسمة على شفتيك يا كابتن ميخائيل ؟ » فأجاب والدي : « لم الغراب أسود يا كابتن الياس ؟ » وهو يبصق عقب اللقافة الذي كان يمضغه . وسمعته في يوم اخر يقول لقندلفت القديس ميناس « كان عليك أن تنظر الى أبي ، ليس الي بل الى أبي . لقد كان غولا حقيقيا . ما أنا بالنسبة له ؟ قنديل بحر ! » فعلى الرغم من تقدمه في السن واقترابه من العمى فان جدي قد عد الى السلاح وشارك في ثورة ١٨٧٨ . وذهب الى الجبال لكي يقاتل لكن الاتراك حاصروه وأمسكوا به بالقاء الانشوطات ثم ذبحوه خارج دير سافاتيانا . واحتفظ الكهان بجمجمته في الحرم ، ذات يوم تطلعت من النافذة الصغيرة ورأيتها لامعة مزينة بالزيت المقدس من المصباح مشقوقة شقوفا عميقة بضربات سيف .

سألت أمي : كيف كان جدي ؟

- مثل أبيك . وأشد قتامة .

- وما كانت صنعته ؟

- القتال .

- وماذا كان يفعل أيام السلم ؟

- كان يدخل الشبق (١) ويخدق الى الجبال .

ولأنني كنت تقيا في شبابي سألت سؤالا اخر : « أكان يذهب الى

الكنيسة ؟ »

- لا . لكنه كان في مطلع كل شهر يجلب معه الى البيت قسا ويجعله

يصلي أن تثور كريت مرة أخرى . كان جدك يفتاظ طبعاً حين لا يجد

ما يفعله . مرة حين كان يتسلح من جديد سألته : ألا تخاف أن تموت يا

أبي ؟ الا أنه لم يجب ولم يلتفت الي « »

وعندما كبرت كنت أود أن أسأل أمي : « هل سبق له أن أحب امرأة ؟ »

لكني خجلت من طرحه ، ولم أجد أبدا جوابا عليه . الا أنه لا بد قد أحب

نساء كثيرات ، لأنه حين قتل وفتحت العائلة خزنته وجدت وسادة محشوة

بضفائر سوداء ورمادية .

(١) الشبق : بنية للتدخين طولها أربعة اقدام .

٣ - الام

كانت أمي قديسة . كيف استطاعت ان تحس الى جانبها شهيق الاسد وتنهداته خمسين عاما دون أن يتحطم قلبها ؟ كان لها صبر الارض واحتمالها وعذوبتها ، كان أجدادي من جهة أمي فلاحين - ينحنون على التراب . . . يلتصقون بالتراب وأيديهم وأقدامهم وعقولهم مليئة بالتراب . كانوا يحبون الارض ويضعون آمالهم كلها فيها . وخلال أجيال صاروا هم والارض واحدا . في أيام الجفاف كانوا يسودون مرضا من العطش مثلها . وحين تحتدم أولى أمطار الخريف كانت عظامهم تططق وتنتفخ كالقصب . وحين كانوا يحرقون أخاديد عميقة في رحمها بمشاركة من صدورهم وأفخاذهم كانوا يستعيدون ذكرى الليلة الاولى التي ناموا فيها مع زوجاتهم .

مرتين في العام ، في عيد الفصح وفي عيد الميلاد ، كان جدي ينطلق من قريته البعيدة ويأتي الى ميغالوكاسترو لكي يرى ابنته وأحفاده . وبحسابات دقيقة دائما كان يأتي ويقرق الباب في الساعة التي يكون فيها متأكدا أن صهره - الوحش البري - ليس في البيت . كان عجوزا قويا مفعما بالصبوية بشعر أبيض مشعث وعينين زرقاوين ضاحكتين وكفين ضفميتين ثقيلتين مغطاتين بالندوب . وكان جلدي يقشعر حين يأتي للتربيت علي . كان يلبس دائما حذائين أسودين وسروال الاحد Foufoula الذي كان نيلي اللون ومنديلا أبيض ذا بقع زرقاء . وكان يحمل في يده دائما الهدية ذاتها حلوفا محمرا في التنور وملفوفا بأوراق الليمون . وحين كان يكشف عنه ضاحكا كان البيت كله يعبق بالرائحة . وهكذا توحد جدي نهائيا بالختزير المحمر وأوراق الليمون بحيث أنني منذ ذلك الحين لم أستطع أن أشم خنزيرا محمرا أو أدخل في حديقة ليمون دون أن يبرز في ذهني مرحا وخالدا والخلوف المحمر في يديه . وأنا سعيد لأنه سيعيش في أعماقي طالما أنا حي على

الرغم من أن أحدا غيري في العالم لم يعد يتذكره . سنموت معا . كان هذا الجد أول من جعلني أتمنى أن لا أموت - لكي لا يموت الميت الذي أحمله في أعماقي ، ومنذ ذلك الحين غرق أعزاء راحلون كثيرون ، ولكن ليس في القبر ، بل في ذاكرتي وأنا الان أعرف أنهم سيعيشون طالما أنا حي .

وكلما تذكرته يتدعم قلبي بادراك أنه يستطيع أن يقهر الموت . اذ أنني لم ألتق في حياتي كلها بانسان له هذا الوجه المحاط بهذا الألق الهادىء الودود وكأنه يشع من مصباح . لقد صرخت حين رأيته يدخل البيت أول مرة ، ففي سرواله العريض Vrakes وحزامه الاحمر ووجهه القمري المضيء وطباعه المرحة بدا لي مثل جنى الماء أو كروح أرضية ظهرت للتو في البساتين وما تزال روائح العشب الندي عالقة بها . كان يخرج كيس التبغ الجلدي من تحت قميصه ويدرج لفافة ويتناول الصوان والزناد ويشعل لفافته ثم يدخنها وهو يحرق راضيا الى ابنته وأحفاده والبيت . قليلا ما كان يفتح فمه ويتحدث عن فرسه التي ولدت مهرا وعن المطر والبرد والارانب الولود التي تدمر له حديقة الخضراوات . وكنت وأنا جالس على ركبتيه أمد ذراعي وأطوق عنقه وأنا أصغي . كان عالم مجهول يفتح في ذهني - حقول وأمطار وأرانب - وأنا نفسي كنت أتحوّل الى أرنب أتسلل الى دار جدي والنهم ملفوفاته .

كانت أمي تسأل عن هذا الشخص أو ذاك من القرية - كيف كانت أحوالهم ؟ أما زالوا أحياء ؟ - وكان جدي يجيب أحيانا أنهم ما يزالون أحياء وأن لديهم أطفالا وأن أحوالهم تتحسن ، وأحيانا أنهم ماتوا - « واحد اخر مات . العمر لك ا » كان يتحدث عن الموت كما يتحدث عن الولادة - بهدوء وبالصوت ذاته تماما كما يتحدث عن الخضراوات والارانب . كان يقول : « لقد رحل يا ابنتي . دفناه . واعطيناه برتقالة يضعها في يده من أجل شارون وبعض الرسائل أيضا لأقربائنا في هيدس ، كل شيء حسب المألوف الحمد لله . » ثم كان يمج لفافته ويخرج بعض الدخان من منخريه ويبتسم . كانت زوجته بين الراحلين . لقد ماتت قبل سنوات عديدة . وكلما جاء جدي الى البيت كان يتذكرها وعيناه مليئتان بالدموع . كان يحبها أكثر من حقوله وأكثر من فرسه . وكان يحترمها أيضا . ورغم أنه كان فقيرا حين تزوج فقد تماسك . واعتاد أن يقول : « الفقر والعري لا شيء حين تكون لك زوجة طيبة » . في تلك الايام كانت العادة العريقة في القرى الكريمية تقضي أن تحضر الزوجة ماء ساخنا للزوج حين يعود من الحقول وأن تقوم هي بغسل رجليه .

وذاذ مساء عاد جدي من العمل منهكا . فجلس في باحة الدار وجاءت زوجته بسطل الماء الساخن وركعت أمامه ومدت يديها لتغسل قدميه

المغربتين • نظر اليها بمحبة ورأى كفيها المتاكلتين بالعمل المنزلي وشعرها الذي بدأ يشيب • لقد أصبحت الآن عجوزا مسكينة • هكذا فكر بينه وبين نفسه • فرفع قدمه ورفس سطل الماء وقلبه وقال : « ابتداء من اليوم يا زوجتي لن تغسلي قدمي • أنت لست عبدتي على أية حال • أنت زوجتي وأنت سيده » •

وذات يوم سمعته يقول : « لم تخييني في شيء أبدا ••• الا مرة واحدة • فلتحل على روحها رحمة الله • »

وتنهذ وغرق في الصيمنت • ولكن بعد لحظة قال : « كانت تقف طبعاً كل مساء بباب الدار تنتظر عودتي من الحقول • وكانت تركض وتريحني بأخذ الادوات عن كتفي ثم ندخل البيت معا • ولكنها ذات مساء نسيت • لم تركض الي فحطمت فؤادي » •

صلب نفسه وهمس : « الله كبير • انني اضع امالي فيه ، سوف يسامحها » والتمعت عيناه من جديد ثم نظر الى أمي وابتمسم •

وفي مناسبة أخرى سألته : « ألا تكره أن تقتل الخنازير الصغيرة يا جدي ؟ ألا تحس بالاسف حين تأكلها ؟ » •

وأجابني وهو ينفجر بالضحك « صحيح يا ولدي • الله يعلم أن هذا صحيح • لكنها لذيدة تلك الانذال الصغيرة » •

وكلما تذكرت هذا الفلاح العجوز ذا الوجنتين الموردين يتزايد ايماني بالانسان وبعمله في التراب • كان واحدا من الاعمدة التي يقف العالم على أكتافها فتحفظه من السقوط •

كان ابي هو الوحيد الذي لا يريده • وكان ينزعج حين يدمل (الجد) بيته ويتحدث الى ابنه ، وكأنه كان يخشى ان دمي سيتلوث • وحين كانت توضع المائدة في عيد الميلاد او عيد الفصح لم يكن يمد يده الى الحلوف المقمر • وكان يترك المائدة اشمئزازا- من رائحته بأسرع ما يستطيع ثم يبدأ بالتدخين لكي يطرد رائحة النتن • ولم يكن يقول شيئاً • الا مرة واحدة حين غادرنا جدي قطب حاجبيه وتمتم باحتقار « أف • يا للعيون الزرقاء » •

وعلمت ، فيما بعد أن والدي كان يحتقر العيون الزرقاء اكثر من اي شيء اخر في العالم وقد اعتاد ان يقول : « للشيطان عينان زرقاوان وشعر أحمر » • أي سلام كنا نحس به وابي ليس في البيت ا وكم كان الوقت

يمر بسرعة وسعادة في الحديقة الصغيرة في باحة دارنا المسورة ، العريضة على الجدار ، والاكاسيا الفواحة الطويلة في الزاوية ، واصص الحبق ، والقطيفة ، والياسمين العربي حول الاطراف ٠٠٠ كانت أمي تجلس امام النافذة ترفو الجوارب أو تنظف الخضراوات أو تمشط شعر أختي الصغيرة أو تساعدنا على أن نخطو خطواتها الاولى . وفيما كنت أصغي الى العابرين خارج الباب المغلق واستنشق عبير الياسمين والتربة الرطبة ، كانت عظام رأسي تطقق وتنفتح وتحتوي العالم الذي يدخل جسدي .

كانت الساعات التي أقضيها مع امي مليئة بالغموض لقد تعودنا أن نجلس متواجهين - هي على الكرسي قرب النافذة وأنا على مقعدي - وكنت احس بصدري ممتلئا حتى الكفاية وسط هذا الصمت وكان الهواء بيننا قد تحول الى حليب وأنا كنت أرضع .

كانت الاكاسيا تمتد فوق رؤوسنا ، وحين كانت تزهر كانت الدار تمتلئ بالاريج ، كم كنت احب براعمها الصفراء ذات الروائح العذبة! كانت أمي تضعها في صناديقنا وفي ملابسنا الداخلية وقمصاننا . كانت طفولتي كلها تعبق بالاكاسيا .

وكنا نتحدث . كانت بيننا احاديث هادئة عديدة . أمي احيانا تحكي لي عن ابيها وعن القرية التي ولدت فيها . وانا احيانا احكي لها عن حياة القديسين الذين قرأت عنهم وكنت أزين بخيالي حياتهم . لم تكن محن الشهداء تكفيني . كنت اضيف لهم محنا جديدة من عندي حتى تنتحب أمي . ثم اشفق عليها واجلس على ركبتها وابدأ بالمسح على شعرها ومواساتها .

« لقد ذهبوا الى الجنة يا امي . لا تحزني . انهم يتمشون الان تحت اشجار مزهرة ويتحدثون مع الملائكة وقد نسوا عذاباتهم كلها ، وهم يلبسون كل أحد ملابس ذهبية وقبعات حمراء مزينة بالريش ثم يذهبون لزيارة الله » . وتعودت أمي ان تمسح دموعها ثم تنظر الي مبتسمة وكأنها تستال : أهذا صحيح فعلا ؟ وقد اعتاد الكناري في قفصه أن يسمعنا وأن يمد رقبته ليزقزق بنشوة ثملة وكأنه قد نزل من الجنة مغادرا القديسين لحظات قليلة وجاء الى الارض ليبهج قلوب البشر .

لقد امتزجت في ذاكرتي أمي بالاكاسيا بالكناري وبشكل خالد ولا يقبل الانفصام ، وانا لا استطيع ان اشم رائحة الاكاسيا أو اسمع صوت الكناري دون أن احس امي تنهض من قبرها - في أعماقي - وتتحد بالاريج وزقزقة الكناري .

لم ار امي تضحك ابدا كانت لتبتسم ببساطة وتنظر الى اي شخص بعينين عميقتين ممتلئتين بالصبر والالطف . كانت تروح وتجيء في البيت كشبح لطيف تؤدي لنا حاجاتنا دون ضجة او جهد وكأنها يداها تمتلكان قوة سحرية خيرة وتمارسان تحكما خيرا بحاجاتنا اليومية . وبينما كنت اجلس بصمت أرقبها كان يخطر لي أنها ربما كانت « نيريد » (1) المذكورة في قصص الجنيات ، وكان خيالي يعمل حسب عقلية الطفولة : لقد راها ابي ترقص على ضوء القمر ذات ليلة بينما كان يعبر النهر . فهجم وأمسك بمنديلها وهذا ما كان حين جلبها الى البيت وتزوجها . وامي الان تروح وتجيء في البيت طوال النهار تبحث عن منديلها لتضعه على شعرها وتتحول من جديد الى نيريد وترحل . وتعودت أن أراقبها وهي تروح وتجيء وتفتح الخزن والصناديق وتكشف عن الجرار وتنحني لتتنظر تحت الاسرة وكنت أرتعد لفكرة أنها قد تجد صدفه منديلها السحري وتخفي . وقد لارمني هذا الخوف سنوات عديدة وكان يجرح روحي الوليدة بعمق . وظل معي حتى هذا اليوم . وما يزال اشد غموضا . انني اراقب الناس او الافكار التي احبها بالأم لانني اعرف انهم يبحثون عن مناديلهم لكي يرحلوا .

ولا اذكر الا مناسبة واحدة التمعت فيها عينا امي بضوء غريب وضحكت واستمعت كما في ايام خطبتها او كما في ايام حريتها وعزوبتها . كان ذلك في أول ايار وكنا قد ذهبنا الى فودهيل Phodhele ، وهي قرية مليئة بالمياه وبيارات البرتقال ، لكي يكفل ابي طفلا في معموديته . حينما انهمر المطر عنيفا ومفاجئا . تحولت السماء الى ماء ينسكب على الارض التي كانت تتفتح ضاحكة وتلقى المياه المذكورة في اعماق صدرها . كان اعيان القرية قد اجتمعوا مع زوجاتهم وبناتهم في غرفة كبيرة في بيت الطفل المعمد . المطر والبرق يتسربان من النوافذ وعبر شقوق الباب وكان الهواء مشبعا بروائح البرتقال والتراب . وكانت الهدايا والخمر والراكي والميتريد (2) تدخل وتخرج . وبدأ الظلام يحل فأشعلت الاضواء وتزايد مرح الرجال وتخلصت النساء من نظراتهن المنخفضة التي تعودن عليها وبدأن يقوقن كالحجال . كان الله ما يزال يزار خارج البيت . وتزايد الرعد وتحولت أزقة القرية الضيقة الى أنهار . كانت الحجارة تنهار فيها وهي تضحك بوحشية لقد تحول الغيث الى سيل جارف ، كان يعانق الارض ويسقيها ويخصبها .

(1) نوع من الحوريات . تقول الاسطورة اليونانية ان نيريوس الذي ولد ن زواج بوفتوس ، البحر ، وغايا الارض ، قد تزوج من دوريس ، ابنة المحيط ورزقا بخمسين ابنة هن النيريدات .
(2) مقبلات يونانية .

التفت ابي الى امي . كانت المرة الاولى في حياتي التي اراه فيها ينظر اليها بود والمرة الاولى التي اسمع فيها العذوبة في صوته . وقال لها : « غني يا مارغي » . كان يمنحها الاذن بالغناء امام جميع الرجال . غضبت رغم انني لا اعرف السبب . نهضت مهتاجا لاركض نحو امي وكأني اريد ان احميها لكن ابي لمس كتفي باصبعه وأجلسني . كانت امي تبدو وكأنها تتلاشى . توهج وجهها وكان المطر كله والبرق كله يعانقانها . رمت براسها الى الوراء . أتذكر ان شعرها الطويل الاسود قد تحلل بغتة وترامى على كتفيها ووصل الى ردفها . بدأت . . . اي صوت كان ذلك : عميقا وعذبا وحلقيا ومشعبا بالعاطفة . وبدأت ، وهي تحول عينيها نصف المغضتين نحو ابي ، تغني مانتينادا *mantinadha* التي لن انساها ما حييت . لم افهم في ذلك الحين لماذا غنتها او لمن . ولكنني فيما بعد ، حين كبرت فهمت . كان صوتها العذب مشعبا بالعاطفة وهي تنظر الى ابي وتغني :

(يدهشتني ان الشوارع لا تزهر حين تسير عليها

وانك لا تتحول الى نسر بجناحين من ذهب)

حولت نظري لاتجنب رؤية ابي ولاتجنب رؤية امي . ذهبت الى النافذة وضغطت جبيني على الزجاج اراقب المطر وهو ينهمر وينهش التراب .

استمر الطوفان طوال اليوم . هبط الليل علينا وصار العالم في الخارج مظلما وامتزجت السماء بالارض وتحولت الاثنتان الى وحل . أشعلت مصابيح اخرى وتحرك الجميع نحو الجدران وازيحت الطاولات والمقاعد لافساح المجال . كان الشباب والكبار يتهاون للرقص . وجلس عازف الربابة على مقعد عام وسط الغرفة وامسك بقوسه وكأنه سيف ، ثم همهم بمقطع من تحت شاربيه وبدأ يعزف . راحت الاقدام توقع والاجساد تصفق بأجنتها . وراح الرجال والنساء يتبادلون النظرات ويقفزون على اقدامهم . وكان أول من تقدم امرأة شاحبة ممشوقة في الاربعين من عمرها وكانت شعفتها برتقالتين لانها فركتهما بأوراق الجوز ، وكان شعرها الاسود مزيتا بزيت الغار ومصقولا ولامعا . لقد خفت حين التفت ورأيتها ، ذلك لان عينيها محاطتان بدائرتين ررقاوين قاتمتين ولان بؤبؤيها الحالكين يلتمعان بعمق . لا ، ما كانا يلتمعان بل كانا يحترقان . خيل لي للحظة انها كانت تنظر الي فتمسكت بثوب امي وانا احس ان هذه المرأة تريد ان تقبض على ذراعي وتأخذني معها .

« براقو يا سور ميلينا » هتف عجوز قوي ذو لحية صغيرة . وازاح منديله

الاسود وهو يقفز أمامها وقدم احد طرفيه للمرأة وابقى الاخر في يده ، ثم
نسلم الاثنان نفسيهما للرقص ورأساهما شامخان وجسداهما منتصبان
وممشوقان كشمعتين .

كانت المرأة تلبس في قدميها قبقابا خشبيا . وراحت تضربه على
الارض بقوة فيهتز البيت كله معها . وانحل خمارها الابيض فكشف من
القطع الذهبية (فلورين) التي تزين عنقها . وتوسع منخراها وراحا
يستنشقان الهواء وكانت انفاس الذكور من حولها عابقة . لوت ركبتيها
وراحت تدور فأوشكت على السقوط على الرجل الذي أمامها ولكنها بغتة
وبهزة من ردفها تلاشت من أمامه . وراح هاوي الرقص العجوز يصل
كالحصان وأمسك بها من وسطها وشدها بقوة لكنها أفلتت منه . كانا
يلعبان ويطاردا كل منهما الاخر وغاب الرعد والمطر وغرق العالم ولم يبق
فوق الهوة الا هذه المرأة ، سورميلينا ، التي كانت ترقص . ولما لم يعد
عازف الربابة قادرا على البقاء فوق مقعده قفز على قدميه . وتوحش
القوس ولم يعد تحت السيطرة بل راح يتابع قدمي سورميلينا وهو يتهدد
ويجأر ككائن بشري .

وتوحش وجه العجوز . ورمق المرأة وهو محمر وارتعشت شفتاه
وشعرت أنه على وشك أن ينقض عليها ويمزقها اربا . ولا شك أن
عازف الربابة قد تملكه الشعور ذاته فتوقف قوسه بشكل مفاجئ . وتوقف
الرقص . وتوقف الراقصان دون حراك ، قدم في الهواء والعرق يتصبب
منهما . وركض الرجال الى الراقص العجوز وانتحوا به جانبا وراحوا
يدلكونه بالراكي (٣) . وأحاطت النسوة بسورميلينا ليمنعن الرجال من
رؤيتها . وشققت طريقي بينهن . لم أكن رجلا بعد ولذا لم يمنعني فتحن
صدارها ورششن ماء الورد البرتقالي على رقبتها وتحت ابطيها وصدغيها
وكانت المرأة تغمض عينيها وهي تبتسم .

في تلك اللحظة اتحدت في داخلي الرقصة وسورميلينا والخوف - الرقص
والمرأة والموت - وصارت شيئا واحدا . بعد أربعين سنة نهضت امرأة هندية
للرقص في شرفة فندق أوريانت العالية في تيفليس . كانت النجوم تلتمع
فوقها وكان السقف معتما . وكان يقف حولها قرابة اثني عشر رجلا وأنت
لا ترى الا الاضواء الحمراء من لفافاتهم . وراحت المرأة ترقص ببطء وهي
مدججة بالاساور والجواهر والاقراط والخلاخيل الذهبية ، وكان يهيمن عليها
خوف غامض وكأنها ترقص على حافة هاوية ، كانت تقترب وتبتعد بينما

(٣) مشروب يوناني شمعي شبيه بالعرق .

هي ترتعد من رأسها حتى قدميها خشية السقوط . كانت أحيانا تجعل
جسدها ثابتا بينما ذراعاها يدور كل منهما حول الآخر كحيتين تزدوجان
بشهوانية في الهواء . خمدت الاضواء الحمراء الصغيرة ولم يبق شيء في
الليل الفسيح الا المرأة الراقصة والنجوم من فوقها ؛ وبثبات راحت النجوم
ترقص أيضا . حبسنا أنفاسنا جميعا . بغتة تملكني الرعب . أكانت
هذه المرأة ترقص على حافة الهاوية ؟ لا . بل أن أرواحنا نفسها كانت
تداعب الموت وتلاعبه .



٤ - الابن

كل ما ترسب في عقل طفولتي قد تجذر فيه بعمق كبير وكنت قد تلقيته
بقديسية الى درجة أنني وأنا في هذا العمر المتقدم لا أتعب ، أبدا ، من
تذكره واعادة احيائه . بدقة متناهية أتذكر لقائي الاول بالبحر والنار
والمرأة وبروائح العالم .

ان أقدم ذكرى في حياتي هي هذه : كنت لم أزل غير هادر على
الوقوف ، وقد حبوت على أربع نحو العتبة خائفا وتواقا ، ومددت رأسي
الواهية في هواء الدار الطلق . حتى الان لم أكن قد نظرت عبر زجاج
النافذة ولم أكن قد رأيت شيئا . أما الان فأني لم أتطلع فقط ، رأيت
العالم للمرة الاولى . ويا له من منظر مدهش ! كانت حديقة الدار تبدو
بلا حدود . وكان هناك طنين من آلاف النحللات غير المرئية ، وشذى مسكر ،
وشمس دافئة بكثافة العسل . وكان الهواء يلسع وكأنه مسلح بسيوف ،
وكانت هناك حشرات ملائكية متحفزة بجوانح ملونة ثابتة تتقدم نحوي
مباشرة . زعقت خائفا وعيناي مليئتان بالدموع ثم تلاشى العالم .

وأذكر في يوم آخر ، ان رجلا بلحية شائكة أخذني بين ذراعيه وأنزلني
الى الميناء . وحين اقتربنا سمعت وحشا برياً يتنهذ ويزأر وكأنه جريح أو
كأنه يتوعد . ولخوفي انتصبت قافرا بين ذراعي الرجل ورحت ارتعش
كالعصفور ، كنت أرغب في الابتعاد . وبغثة - الرائحة اللاذعة لحبات
الخروب والقار والكباد المتعفن . وتفتحت أعضائي ، التي تصر ،
لاستقبالها . وظللت أقفز وأتأرجح بين الذراعين المكسوتين بالشعر اللتين
كانتا تمسكان بي ، الى أن ، في عطفة شارع - نيلي قاتم ، وهائج ، وكل
الروائح والصرخات (أي وحش كان هذا ! أبة عذوبة ! وأية نهدة لا حدود

لها !) - انصب البحر كله في داخلي مزيدا . وتداعى صدغاي الواهنان ،
وامتلا رأسي بالضحك والملح والخوف .

بعد هذا أذكر ، امرأة ، اسمها أنيكا ، جارة لنا متزوجة حديثا وهي أم
منذ زمن قريب ، ممتلئة وجميلة ذات شعر طويل أشقر وعينين واسعتين .
في ذلك المساء كنت ألعب في الدار ولا بد أنني كنت في حوالي الثالثة من
العمر . كانت الحديقة الصغيرة تفوح بروائح الصيف . وانحنيت علي المرأة
ووضعتني في حضنها . وأغمضت عيني لاسقط على صدرها البارز وأنشهم
جسدها . الأريج الحار الكثيف والرائحة اللاذعة للحليب والعرق . كان البخار
يتصاعد من الجسد حديث الزواج . وكنت أستنشق العبير بنشوة متبهجة
وأنا أتدلى عن صدرها النافر . وبغته أحسست بالدوار وغبت عن وعيي .
ووضعتني الجارة المذعورة ، أرضا وهي محمرة رعبا وتركتني بين أصين من
الحبى . ولم تضعني بعد ذلك اليوم في حضنها أبدا . بل صارت تكثفي
بالنظر الي بمودة فائقة من خلال عينيها الواسعتين وهي تبتسم .

وفي احدى ليالي الصيف كنت ، مرة اخرى ، جالسا في دارنا على كرسي
الصغير . وأتذكر انني رفعت عيني وأبصرت النجوم لأول مرة . صرخت ،
وأنا أقفز على قدمي ، خائفا : « شرر ، شرر » وبدت لي السماء حريقا
هائلا ، وبدا لي ان النار قد وصلت الى جسدي الصغير .

كانت هذه اتصالاتي الاولى بالارض والبحر والمرأة والسماء المليئة
بالنجوم . وحتى الان ، وفي اعماق لحظات حياتي ، فانني أواجه هذه العناصر
الرهيبية تماما بالحماس ذاته الذي واجهتها به في طفولتي . وعندها فقط ،
عندما نجحت في إعادة مواجهتها بالدهشة ذاتها ، والخوف ذاته والغبطة
ذاتها التي منحتني اياها حين كنت طفلا ، أستطيع أن أشعر - وحتى
اليوم - أنني أواجه هذه العناصر الاربعة المخيفة بعمق ، وبالعمق الذي
يستطيع جسدي وروحي أن يفوصا اليه . وطالما أن هذه قد كانت القوى
الاولى التي أحسست ، بوحي ، أنها تواكب روحي ، فان هذه العناصر
الاربعة قد اتحدت في اعماقي اتحادا لا انفصام له وصارت واحدا . وهي
تشبه وجهها مفردا يظل يغير أقنعتة . وحين أنظر الى السماء المليئة بالنجوم
فانني ، أحيانا ، أتخيل أنها حديقة مزهرة ، وأحيانا أنها بحر قاتم خطير ،
وأحيانا أنها وجه صامت تنسكب عليه الدموع .

ان كل عاطفة من عواظي ، وأكثر من ذلك ، ان كل فكرة من أفكارني ،
وحتى أكثرها تجريدا ، انما تتشكل من هذه المقومات الاربعة الاولى . وفي
اعماقي حتى أكثر المشكلات ميتافيزيقية تتخذ هيئة فيزيقية (مادية)
حارة لها رائحة البحر والتراب والعرق الانساني . والكلمة ، لكي تمسني ،

يجب أن تصبح لحما حارا • وعندها فقط أفهم - عندها استطيع أن اسمها وأراها والمسها •

واضافة الى هذه اللقاءات الاربعة الاولى كانت روجي متأثرة ، ايضا ، وبعمق بحادث عرضي • عرضي ؟ هذه هي الضبابيات الجبابة الخدرة التي يصف بها العقل الرعديد ، الذي يرتعد خشية التفوه بأية ترهات أو يجرح كرامته ، كل ما يعجز عن شرحه • لا بد انني كنت في الرابعة من عمري • وفي رأس السنة أعطاني والذي كناريا وكرة دوارة كهدية ، « يد طيبة » كما نقول في كريت • وقد اعتدت ، بعد اغلاق الابواب والنوافذ ، أن أفتح القفص وأطلق الكناري • وهذا ما نمى لديه - عادة الوقوف على قبة الكرة والغناء ساعات متوالية بينما أنا أحبس أنفاسي وأصغي •

أعتقد أن هذا الحادث المغرق في بساطته قد أثر في حياتي أكثر من كافة الكتب وكافة الناس الذين عرفتهم فيما بعد • فبتجوالي الدائم في الارض سنوات عديدة محييا ومفارقا كل شيء شعرت أن رأسي كانت هي الكرة وان الكناري كان يقف في عليائه على قبة عقلي ويغني •



انني أتذكر سنوات طفولتي بالتفصيل ، ليس لان للذكريات الاولى هذا السحر العظيم ، بل ، لأن حدثا يبدو غير هام ، في تلك الفترة وكما في الاحلام ، يكشف عن وجه الروح الحقيقي غير المصبوغ أكثر مما يستطيع أن يفعله التحليل النفسي فيما بعد • وبما أن وسائل التعبير في الطفولة أو في الاحلام بسيطة ، فان أعقد ما في الغنى الداخلي يتخلص من الشوائب كلها وبحيث لا يبقى الا الجوهر •

عقل الطفل هش ولحمه غض • ولذلك فان الشمس والقمر والمطر والرياح والصمت كلها تهبط عليه • انه لين العريكة ، وهي تدعكه • الطفل يتجرع العالم بشراهة ، ويتلقاه بمنخريه ويتمثله ، ويحوله الى طفل •

أتذكر انني كنت أجلس غالبا على درجات العتبة في بيتنا بينما الشمس تتوهج والهواء يشتعلّ والعناقيد تهرس في بيت كبير في الجوار والعالم يعبق بالضباب • وتعودت أن أمسك راحتي وأنتظر وأنا مغمض عيني بسرور • كان الله يأتي دائما - طالما بقيت طفلا ولم يخذلني ابدا - وكان يأتي دائما ، طفلا مثلي تماما يودع العابه في كفي : الشمس والقمر والرياح • وكان يقول : « انها هدايا • العب بها • عندي الكثير غيرها • » وكنت أفتح عيني • ويغيب الله ولكن العابه تظلّ في كفي • ورغم انني لم اكن اعرف ذلك (لم اكن اعرفه لانني كنت امارسه)

فانني كنت امتلك قدرة الله الكلية : كنت اخلق العالم كما كنت اريده . كنت عجيبة لينة وهكذا كان العالم . واذكر انني كنت احب الكرز اكثر من اية فاكهة اخرى في صغري . وتعودت أن املأ جعبتي قرب النبع وان القيها فيها - حمراء او سوداء وقاسية عند المضغ - وانحني فوقها واندهش كيف كانت تنتفخ بمجرد ان تدخل الماء . ولكن حين استرددتها لاحظت بخيبة كبيرة انها تقلصت . ولذلك فانني اغمضت عيني ، لتجنب رؤيتها وهي تنقلص ، وانا ألقياها - وظلت اتصورها هائلة الحجم - في فمي .

هذا التفصيل العادي يبين ، في كليته ، الطريقة التي اواجه بها الواقع حتى الان في شيخوختي . انني اعيد خلقه - ابهى وافضل واكثر ملاءمة لغايتي . ان العقل يصرخ ويشرح ويبرهن ويحتج ، ولكن في اعماقي يبرز صوت ويصرخ به « اهدأ أيها العقل ! ودعنا نسمع القلب . » أي قلب ؟ انه الجنون ، جوهر الحياة . ويبدأ القلب بالشدو .

كان واحد من المتصوفين الارثوذكس المفضلين لدي يقول دائما : « طالما أننا لا نستطيع أن نغير الواقع ، فلنغير العيون التي ترى الواقع » . وكنت افعل ذلك في طفولتي ، وانني افعل ذلك الان ايضا في اكثر لحظات حياتي ابداعا وخالقا .

بالحقيقة ان عقل الطفل وعينيه واذنيه معجزات . واية معجزات !! وبأي نهم تلتهم هذا العالم وتملاً نفسها . ان العالم عصفور بريش احمر واخضر واصفر . فكيف يقوم الطفل باصطياد هذا العصفور وكيف يحاول الامساك به .

والحقيقة انه ما من شيء يشابه عيني الله الا عينا الطفل . انهما تريان العالم لأول مرة وتخلقانه . وقبل ذلك يكون العالم هيولى . ان المخلوقات كلها - الحيوانات والاشجار والبشر والحجارة ، كل شيء : الاشكال والالوان والاصوات والروائح والومضات البراقة - تندفق أمام عينيه غامضة (لا ، ليس أمام عينيه بل فيهما) وهو لا يستطيع تثبيتها ولا يستطيع أن ينظمها . ان عالم الطفل ليس مصنوعا من الطين ، لكي يبقى ، بل من الغيوم . نسمة باردة تهب عبر صدغيه وينكشف العالم ثم يرق ويتلاشى . لا بد أن الهيولى قد مرت أمام عيني الله بالطريقة ذاتها قبل الخلق .

حين كنت طفلا توحدت بالسماء والحشرات والبحر والريح - بكل ما كنت أراه والمسه . في ذلك الحين كان للريح صدر وكان لها كفان وكانت تداعبني . كانت ، أحيانا ، تغضب وتعاندني ولا تسمح لي بالمسير ، واذكر انها كانت تلقيني ارضا . وكانت تنتزع الاوراق عن الدالية . وتعبت بشعري

الذي سرحته امي بعناية ، وتنزع الوشاح عن رأس جارنا ديمترو ، وترفع تنورة زوجته بينيلوب .
ولم نفترق ، بعد ، أنا والعالم . الا انني بدأت اسحب نفسي ، شيئا فشيئا من عناقه ، هوقفت انا في جانب ، وهو في جانب وبدأت المعركة .

وبينما كان الطفل جالسا على عتبة المنزل يتلقى طوفان العالم الكثيف والعكر بغثة صار يرى ذات يوم وقويت حواسه الخمس . وكل منها حفرت طريقها واخذت نصيبها من مملكة العالم . واذكر ان اول حاسة قويت في داخلي وتماسكت هي حاسة الشم وهي الاولى التي بدأت باقامة النظام على الهبولي المشوشة .

كان لكل شخص ، بالنسبة لي ، أريجه الخاص ومنذ ان كان عمري سنتين او ثلاث سنوات . وقبل ان ارفع عيني لرؤيته كنت اعرفه بالرائحة التي تصدر عنه . كانت لامي رائحة خاصة ولابي رائحة غيرها . وكان لكل عم او خال رائحته الخاصة وكذلك لكل امرأة في الجوار . وحينما كان ياخذني بين ذراعيه او ذراعيها ، كنت دائما وبسبب الرائحة اما ان احبه او ابدأ برفسه ورهضه . ولقد تلاشت هذه القدرة مع الزمن . واختلطت الروائح المختلفة ، وغرق الجميع في نتن العرق والتبغ والبنزين .

كنت أميز ، كل شيء ، بين روائح المسيحيين والأتراك . كانت هناك عائلة تركية لطيفة تعيش في الشارع المقابل لنا . وحين كانت الزوجة تزور بيتنا كانت الرائحة التي تصدر عنها تصبيني بالقرف وكنت اكسر عودا من الحبق واشمه أو اضع في كل من منخري زهرة من الاكاسيا . لكن كان لهذه السيدة ، فطوم ، طفلة في الرابعة من عمرها (لا بد انني كنت في الثالثة) كانت تفوح منها رائحة غريبة ليست بالتركية ولا باليونانية ، كنت اراها رائحة طيبة . كانت أمينة بيضاء وريانة براحتين وقدمين مدهونة بالكينا ، وشعر مجدول بجداول صغيرة جدا وبكل جديلة تعلقت صدفة أو حصة زرقاء صغيرة لاتقاء العين الشريرة . كانت رائحتها مثل جوزة الطيب .

كنت أعرف الساعات التي تغيب فيها أمها عن البيت . وتعودت ان اذهب الى باب دارنا في هذه الاوقات واراغب امينة وهي جالسة على عتبة بيتها وهي تمضغ اللبان . كنت اشير لها انني قادم . لكن لبابها ثلاث درجات ولذلك كان يبدو عاليا جدا بالنسبة لي . كيف يمكنني التغلب عليها ؟ كنت اعرق واجهد نفسي وكنت بعد جهد اصعد الدرجة الاولى . وبعد ذلك يبدأ كفاح اخر لتسلق الثانية . واتوقف قليلا لالتقط انفاسي ثم ارفع عيني لاتطلع اليها . كانت تجلس على العتبة لا مبالية على الاطلاق . وبدل أن تمد يدها لمساعدتي كانت تكتفي بالنظر الي والانتظار دون أن تتزحزح .

وكان يبدو انها تقول : ان استطعت قهر العقبات فسيكون كل شيء على ما يرام . ستصل الي وسنلعب معا ، وان لم تستطع فعد ا لكنني استطعت قهر العقبات ، أخيرا وبعد كفاح عظيم وصلت الى العتبة حيث كانت تجلس . عندئذ نهضت وامسكت بيدي وادخلتني . كانت امها غائبة طوال ذلك الصباح تعمل في تنظيف البيوت . ودون أن نضيع لحظة خلعتنا احدثنا واستلقينا على ظهرينا ولاصقنا اقدامنا العارية . لم نكن ننبس بكلمة . كنت اغمض عيني واحس بدفء امينة يمر من قدمها الى قدمي ثم يصعد شيئا فشيئا الى ركبتي وبطني وصدري الى أن يملأني كليا . وكانت الغبطة التي احس بها عميقة حتى خيل الي انني سوف يغمى علي . ولم يحدث في حياتي كلها ان اعطتني امرأة اخرى غبطة اكبر وامتعة اشمل . ولم يحدث ان شعرت بلغز حرارة جسد الانثى بهذا العمق . وحتى الان ، وبعد سبعين عاما ، فانني اغمض عيني واحس بدفء امينة يصعد من قدمي ثم ينتشر عبر جسدي كله وروحي كلها .

وبالتدريج تخليت عن خوفي من المشي والتسلق وصرت ادخل البيوت القريبة لالعب مع اطفال الجيران . وصار العالم يتوسع .

وحين صرت في الخامسة اتخذت من احدى النساء معلمة لتعلمني كيف ارسوم حروف (ا) وكولوريا (١) على اللوح . وكان المفروض ان هذا سيمرن يدي بحيث استطيع كتابة الابجدية حين اكبر . كانت ذات طابع فلاحي بسيط ، قصيرة وبدينة ومحدبة قليلا وعلى الجانب الايمن من ذقنها ثؤلول . كان اسمها مدام اريتي . وراحت ترشد يدي (ورائحتها قهوة) وتشرح لي كيف يجب ان امسك بالحكك واسيطر على اصابعي .

ولم تكن تعني لي شيئا في البدء . ولم اكن احب نفسها ولا حديثها . ولكن بعد ذلك ، ورغم انني لا اعرف كيف ، بدأت تتحول شيئا فشيئا امام عيني . اختفى الثؤلول واستقام ظهرها وامتشق جسدها المكتنز وصار جميلا ، واخيرا وبعد اسابيع قليلة تحولت الى ملاك اهيف يرتدي ثوبا ابيض كالثلج ويمسك ببوق نحاسي هائل . لا بد انني رأيت هذا الملاك على ايقونة ما في كنيسة القديس ميناس . ومرة اخرى حققت عينا الطفولة معجزتهما : الملاك والمدام المعلمة صارا واحدا .

مرت السنوات وارتحلت خارجا ثم عدت مرة اخرى الى كريت . وقمت بزيارة الى بيت معلمتي ، كانت سيدة ضئيلة عجوز تجلس على درجات

(١) كرات عجينة مرشوشة بالسهم . اكلة يونانية تباع في الشوارع .

الباب لتشمس • وعرفتها من التؤلؤل في ذقنها • وحين اقتربت وعرفتها بنفسي بكت فرحا • كنت قد جلبت لها بعض الهدايا : قهوة وسكر وعلبة من Loukoussns • ترددت قليلا خجلا من ان اسألها لكن صورة الملاك مع البوق كانت قد أصبحت عميقة في النفس بحيث انني لم استطع ان اضبط نفسي •

- مدام ارיתי • هل سبق لك أن ارتديت ثوبا ابيض وامسكت ببوق نحاسي كبير بين يديك ؟

وشهقت السيدة العجوز المسكينة « فليحفظنا القديسون » ثم رسمت الصليب على نفسها وقالت « أنا بثوب ابيض ومع بوق ؟ لا سمح الله • أنا مغنية ! »

وبدأت عيناها تدفقان •

لقد أعيد عجن كافة الاشياء سحريا في عقلي الطفولي الفج ، ولقد استحضرت الى ما وراء العقل واقتربت من حافة الجنون • الا ان هذا الجنين هو ذرة الملح التي تحفظ الوعي من التعفن • كنت اعيش واتكلم واتحرك في حكاية للجنيات كنت اخلقها بنفسي في كل لحظة شاقا الطريق فيها لكي افسح لنفسي ممرا • لم أر شيئا واحدا مرتين ابدا لانني كنت أمنحه وجها جديدا في كل مرة واجعله غير معروف • وهكذا فان عذرية العالم كانت تجدد نفسها في كل لحظة •

كان لبعض الفاكهة ، بشكل خاص ، نوع من السحر الغامض بالنسبة لي كالكرز والتين بشكل خاص • ليس التين نفسه كفاكهة بهذه البساطة بل الاوراق ونكهتها • ولقد تعودت أن أغمض عيني واتنشقها حتى يشحب لوني من الحبور الجسدي المفعم • لا ، ليس الحبور - بل الاثارة والخوف والعرشة وكانني كنت ادخل غابة خطيرة معتمة •

اخذتني أمي معها ذات يوم وسافرنا الى شاطيء مهجور خارج ميغالو كاسترو حيث كانت النساء يذهبن للسباحة ، وكان ذهني مليئا بالبحر الواسع المضطرب • كانت الاجساد تبرز من هذا النيلبي الناري شاحبة وضعيفة وغريبة ، مثلما كانت تبدو لي ، وكأنها مريضة • كن يطلقن صيحات حادة ويتقاذفن بحففات من الماء • ولم اكن ، استطيع ان ارى منهن الا حتى الخصر • أما ما تحت الخصر فكان في البحر • وقررت انهن لا بد ان يكن تحت الخصر اسماكا • لا بد انهن حوريات البحر التي كان الناس يتحدثون عنها • واتذكر الحكاية الخرافية التي حكتها لي جدتي عن حورية البحر التي كانت أخت الاسكتدر الكبير • كانت ، وهي تجوب البحار بحثا عن اخيها ، تسأل

كل السفن التي تمر بها : « هل الملك الاسكندر حي ؟ » وينحني الربان على حافة المركب ويصرخ : « انه حي يا سيدتي ، حي ونراه » . ويا لسوء الحظ ان اجابها بان الملك ميت ، لانها عندئذ ستضرب البحر بذنبها وتثير عاصفة وتمزق السفن .

نهضت احدي هذه الحوريات اللواتي يسبحن امامي من البحر و اشارت . هتفت لي بشيء ما الا ان ضجة البحر كانت عالية فلم افهمها . كنت قد دخلت لتوي عالم الجنيات وخطر لي انها تسأل عن اخيها ، فصرخت خائفا « انه حي . حي ونراه » فتمايلت الحوريات بغتة وهن يضحكن . ولخجلي هربت غاضبا . ورحت اتمتم : « عليهن اللعنة . انهن نساء ولسن حوريات » ثم جلست على صخرة صغيرة واحساس بالخزي يغمرني وانا ادير ظهري للبحر .

وانني لاحمد الله ان هذه الرؤيا الطفولية العذبة ما تزال حية في داخلي بكل امتلائها باللون والصوت . وهذا ما يبقي عقلي بعيدا عن الضياع ويحفظه من الذبول والجفاف . انها القطرة المقدسة من الماء الخالد التي تمنعني من الموت . وحين تكون لدي الرغبة في الحديث عن البحر والمرأة أو الله في كتاباتي فانني اغوص في صدري محملا ثم اصغي بعناية لما يقوله الطفل في داخلي . انه يملي علي واذا حدث أن اقتربت من هذه القوى العظيمة ، البحر والمرأة والله واستطعت ان اتعامل معها بالكلمات وان اصفها فانني مدين بذلك للطفل الذي ما يزال يعيش في داخلي . انني اعود من جديد طفلا لكي امكن نفسي من رؤية العالمة للمرة الاولى دائما وبعينين عذراوين .

ان كلا من ابوي يتجول في دمي . الاول قاس وصلب ومناكد والاخر ودود ولطيف ووقدي . لقد حملتهما طوال عمري ولم يمض اي منهما . وطالما انا اعيش سيطلان يعيشان في داخلي وسيظلان يتصارعان بهذا التضاد من أجل السيطرة على افكاري واعمالي . ولقد انصرف جهدي طوال عمري لمصالحتهما . لعل الاول يعطيني قوته والثاني لطفه . ولكي احول النزاع القائم بينهما ، والذي يتفجر دون توقف في داخلي ، الى توافق وانسجام في قلب ابنتهما .

وهذه واقعة اخرى لا تصدق . ان حضور والدي متجسد بوضوح في ساعدي . فساعدي الايمن قوي جدا وخال من الحساسية ورجولي بشكل مطلق اما ساعدي الايسر فيتمتع بحساسية مفرطة ومرضية . وكلما تذكرت صدر امرأة احببتها احسست بالالم وبوخز بسيط في راحة يدي اليسرى . حتى انها تصبح على وشك التحول الى زرقاء وسوداء من الالم ، وعلى وشك ان يظهر فيها جرح حقيقي . وكلما كنت وحيدا اراقب عصفورا يحلق في

الجو احس بحرارة بطنه في راحتي اليسرى • ففي يدي فقط ، وفي يدي
وهدما ، هجر كل من والدي الاخر واستقل كل منهما بملكته : ابي في يدي
اليمنى وامي في يدي اليسرى •

ويجب ان اضيف هنا حادثا كان له اثر عميق في حياتي • وهو اول جرح
نفسي تلقيته وعلى الرغم من انني قد شخت الان الا ان هذا الجرح لم يشف
بعد •

ربما كنت في الرابعة من عمري • اخذني احد اعمامي بين ذراعيه •
وكان من الواضح اننا سنذهب لزيارة جار قرب مقبرة القديس ماتيو الواقعة
داخل اسوار المدينة •

الربيع : كان البابونج يعطي القبور وكانت شجيرة زهر في الزاوية مليئة
بازهار نيسانية • لا بد ان الوقت كان ظهرا • الشمس قد سخنت الارض
والعشب فواح • وكان باب الكنيسة مفتوحا والكاهن قد وضع بخورا في
المبخرة وارتدى بطرشيلا (١) • اجتاز العتبة واتجه نحو القبور •

وسألت عمي وانا استنشق ، بعمق ، أريج البخور والتراب : « لم
يلوح بالمبخرة ؟ » •
كان أريجا حارا وبدا لي أنه مقزز الى حد ما وذكرني برائحة الحمام
التركي الذي زرته مع امي في السبت الماضي •
« لماذا يلوح بالمبخرة ؟ » سألت مرة اخرى عمي الذي كان ما يزال يتقدم
بين القبور بصمت •

- اهدأ • ستعرف بعد قليل • اتبعني •

وحين درنا وراء الكنيسة سمعنا حديثا • كانت هناك خمسة او ست
نسوة متشحات بالسواد وهن واقفات حول قبر • رفع رجلان بلاطة الضريح
ثم نزل احدهما في القبر وبدأ يحفر • اقتربنا ووقفنا الى جانب الحفرة •

سألت : ماذا يفعلون ؟

- ينبشون العظام

- أية عظام ؟

- ستري بعد قليل •

(١) البطرشيلا : نسيجة طويلة يجعلها الكاهن في عنقه وعلى صدره عند
الخدمة .

كان الكاهن واقفا على رأس الضريح وهو يلوح بالمبخرة ويتمتم بالصلوات هامسا • انحنيت على التربة المحفورة مجددا • عفن وبتن : وضغطت منخري • ورغم انني قرفت حتى القيء فانني لم ابتعد • انتظرت • عظام ؟ اية عظام ؟ رحت اسأل نفسي وانتظر •

وبغثة استقام الرجل الذي كان يحفر منحنيا • وظهر جذعه خارج الحفرة • كان يمسك بين يديه جمجمة • مسح عنها الاقدار وهو يمد اصبعه ليدفع الوحل من حفرتي العينين ثم وضعها على حافة القبر وانحنى من جديد وتابع حفره •

سألت عمي وانا ارتعد خوفا : ما هذا ؟
- الاترى ؟ انها رأس انسان ميت • جمجمة •
- جمجمة من ؟ •
- ألا تتذكرها ؟ جمجمة جارتنا أنيكا •
- انيكا ؟

وانفجرت في البكاء وبدأت اولول : « انيكا ! انيكا ! » والقيت بنفسي على الارض وجمعت ما استطعت ان اجده من الحجارة وبدأت اكدف بها حفار القبور •

وفيما انا ابكي واندب رحت اصرخ ! كم كانت جميلة وكم كانت رائحتها جميلة ! وانها اعتادت ان تأتي الى بيتنا وتضعني على ركبتيها وتسرح خصلات شعري بالمشط الذي تنتزعه من شعرها • واعتادت ان تدغدغني تحت ذراعي وانا اقهقه وازقزق كالعصفور •

اخذني عمي بين ذراعيه وابعدني قليلا ثم راح يكلمني غاضبا : « لماذا تبكي ، ماذا كنت تتوقع ؟ لقد ماتت • ونحن جميعا سنموت • »
لكنني كنت أفكر بشعرها الاشقر وعينيها الواسعتين وشفثيها الحمراوين اللتين اعتادتنا ان تقبلاني • والان •••••

وزعقت : « وشعرها ، وشفثاها وعيناها ؟ »
- ذهبت • ذهبت • اكلتها الارض •
هز عمي كتفيه وقال : « حينما تكبر ستعرف لماذا • »
- لماذا ؟ لماذا ؟ أنا لا اريد ان يموت الناس !
ولم اعرف ابدا • لقد كبرت وصرت عجوزا ولم اعرف ابدا •

٥ - المدرسة الابتدائية

بعيني السحرية أبدا ، وبذهني المليء بطنين النحل والعسل وبقبة خشبية حمراء على رأسي وحذاء موشى بكرتين حمراوين في قدمي ، انطلقت ذات صباح نصف مسرور ونصف منزعج ، كان أبي يمسك بيدي ، وقد اعطتني امي قطعة من الحبق (كان من المفروض ان استمد الشجاعة من تشمها) وعلقت حول رقبتني صليب معموديتي الذهبي ، وقد تمتعت وهي تنظر الي بفخر « عليك بركات الله ، وبركاتي أيضا » .

كنت مثل أضحية صغيرة مثقلة بالزينات ، وكنت أحس في أعماقي بالفخر والخوف معا ولكن كفي كانت مثبتة بعمق داخل قبضة والدي وأنا أثقل نفسي بشجاعة الرجال . وظللنا نسير ونسير في الازقة الضيقة حتى وصلنا الى كنيسة القديس مينا ثم انعطفنا ودخلنا بناء قديما ذا باحة واسعة ، كانت هنا أربع غرف كبيرة في الزوايا وفي الوسط شجرة الدلب المغطاة بالغبار.وقفت مترددا وقد فقدت شجاعتي وبدأت كفي ترتعش داخل الراحة الدافئة الكبيرة .

انحنى والدي ليلمس شعري ويربت عليه ، ارتعشت ، لأنني ، على ما أذكر ، كانت المرة الاولى التي يربت فيها علي ، رفعت عيني ونظرت اليه خائفا ، وحين رأى خوفي سحب يده وقال : « سوف تتعلم القراءة والكتابة هنا وبهذا ستصبح رجلا » .

وظهر المعلم في الباب ، كان يمسك بقضيب طويل وقد بدا لي متوحشا ، متوحشا بأنياب طويلة واسترقت النظر الى قمة رأسه لارى ما

إذا كان له قرون لكنني لم أستطع أن أرى لانه كان يضع على رأسه قبعة .
قال والدي : « هذا ابني » وحولني الى المعلم وهو يفلت كفي من كفه .

– « عظامه لنا واللحم لك . لا تشفق عليه . اجلده واصنع منه رجلا . »
فأجاب المعلم وهو يشير الى عصاه : « لا تقلق يا كابتن ميخائيل . هذه هي
الأداة التي تصنع الرجال » .

تظل من أيام الدراسة الابتدائية هذه كومة من الرؤوس ثابتة في
ذاكرتي ، كومة من الرؤوس الملتصقة احداها بالآخرى كالجماجم . ولا بد
أن معظمها قد تحول الان الى جماجم . الا ان ما يبقى في متجاوزا هذه
الرؤوس وخالدا هو المعلمون الاربعة .

باتيروبولوس في الصف الاول : عجوز صغير وقصير جدا ذو عينين
حادتين وشاربين متدليين والعصا في يده دائما . كان يبحث عنا دائما ويجمعنا
ثم يرتبنا في رتل كما لو كنا بظا وكان يأخذنا الى السوق لبيعنا . وكان كل
أب يقول له وهو يقدم له ابنه – العنزة البرية : « العظام لي واللحم لك
يا معلم . فاجلده ، اجلده الى أن يصبح رجلا » . وكان يجلدنا بلا شفقة .
وكان جميعا ، معلما وتلاميذ ، ننتظر اليوم الذي ستحولنا فيه هذه الضربات
العديدة الى رجال ، وبعد أن كبرت وراحت النظريات الخيرة تضلل عقلي
بدأت أصنف هذا الاسلوب على أنه همجي . ولكن بعد أن عرفت الطبيعة
البشرية بشكل أفضل رحمت أبارك ، وما زلت ، عصا باتيروبولوس المقدسة ،
فهي التي علمتنا ان المعاناة هي المرشد الاعظم في ذلك الصعود الذي يقود
من الحيوان الى الانسان .

وكان تيتايروس – « أية جينة » – يتحكم بالصف الثاني . كان ، ذلك
المسكين يتحكم ولكنه لا يحكم . كان شاحبا يضع نظارتين ويرتدي قبعة
منشأة وقميصا وحذاءين جلديين مفتوحين ومحببين عند الكعب . وله انف
ضخم مشعر واصابع نحيلة مصفرة من التبغ . ولم يكن اسمه الحقيقي
« أية جينة » بل كان باباداكيس . الا ان والده الذي كان قسا لقرية نائية
جاء ذات يوم الى المدينة وجلب له قرصا كبيرا من الجبن كهدية « أية جينة
هذه يا ابي ؟ » صاح الابن (مستخدما صيغة تايروس بدلا من تاييري
ليتباهى بمعرفته الكاتاريغوسا (1)) . وصدف ان كانت في البيت احدى
الجارات سمعت الحديث ونشرت الكلمة فتم قلبي المعلم المسكين على الفهم
واعطاؤه هذا اللقب . ولم يكن « أية جينة » يجلد بل كان يتودد . لقد اعتاد

(1) اللغة اليونانية الاصلية وهي لفظة محذقة ومتعمرة .

ان يقرأ علينا « روبنسن كروزو » وهو يشرح لنا كل كلمة . ثم كان ينظر
الينا بعطف وآلم وكأنه يتوسل الينا ان نفهم ، بينما كنا ندل بأصابعنا:
ونحرق منتشين الى الصور السيئة الطبع للغابات المدارية ، والاشجار ذات
الاوراق الكبيرة والسميكة وروبينسون بقبعته القشبية ذات الاطار الواسع
وامتداد المحيط الخاوي من كافة الجهات . وكان « اية جينة » المسكين يخرج
كيس تبغه ويدرج لفافة ليدخنها اثناء الفرصة وهو ينظر الينا متوسلا
وينتظر .

وذات يوم بينما كنا في درس (التاريخ المقدس) وصلنا الى ايساو
Esau الذي باع حق ميلاده ليعقوب Jacob لقاء حساء العدس .
وحين ذهب الى البيت للغداء سألت والدي عما يعنيه « حق ميلاده » فأجابني
وهو يهرش رأسه ويسعل : « اذهب واسأل الخال نيكولاكي » .

كان هذا الخال قد أنهى دراسته الابتدائية الامر الذي جعله العنصر
الاكثر ثقافة في الاسرة . كان ابا لامي . نوع من (توم ثومب) قصير وصغير
وأصلع ذو عينين مذعورتين واسعتين ويدين كبيرتين مغطاتين بالشعر . لقد
تزوج من فوق مستواه . وزوجته العداوية ذات الانف الحاقد لم تكن تحس
نحوه الا بالاحتقار . وازدانة الى ذلك كانت غيورج ولذلك فانها كانت في كل
ليلة تقوم بربط قدمه الى عمود السرير بحبل لكي تمنعه من النهوض ليلا
والذهاب لزيارة الخادم الممتلئة ذات الصدر الكبير التي كانت تنام في الطابق
السفلي . وفي الصباح كانت تطلق سراحه . وقد تحمل خالي المسكين هذا
الاستشهاد خمس سنوات ثم شاء الله ان تموت ذات الانف الحاقد (من اجل
هذا نصف الله بالخير المطلق) فتزوج خالي هذه المرة فتاة ريفية قوية وطيبة
القلب وبذينة اللسان لم تكن تقيدته . واعتاد ان يأتي الى بيتنا متباهيا
لزيارة والدي .

وكانت تسأله : « كيف تسير امورك الان مع زوجتك الجديدة يا
نيكولاكي ؟ » .
- لا حاجة لان تسأليني عن مقدار سعادتي يا مارغي ، انها لا تقيدني .

ولخوفه من والدي لم يكن يرفع عينيه للنظر الى وجهه بل كان يحدق
دائما الى باب الدار وهو يفرك كفيه المكسوتين بالشعر . وفي ذلك اليوم ،
ما ان سمع ان الكابتن ميخائيل يطلبه حتى نهض عن المائدة وقمعه مليء
بالطعام وتوجه الى بيتنا .

ما الذي يمكن ان يريده مني الغول ؟ سال نفسه مفتاظا وهو يبتلع اهر
لقمة . كيف تتحملة اختي المسكينة ؟ وحين تذكر زوجته الاولى ابتسم
بارتياح وتمتم « اما انا فقد نجوت على الاقل . الحمد لله » .

وما ان راه والدي حتى ناداه : « تعال . انت قد ذهبت الى المدرسة .
فاشرح هذه » .

وشكل الاثنان مجلسا وهما منكبان على الكتاب . وبعد تأمل طويل قال
والدي « حق الميلاد يعني بذلة الصيد » وهز خالبي رأسه معترضا وقال :
« اظن انه يعني المسكيت (١) » ولكن صوته كان يرتجف . وزار والدي « بذلة
صيد » وهو يعقد حاجبيه بينما كان خالي يرتجف .

وفي اليوم التالي سألنا المعلم : « ماذا يعني حق الميلاد » فقفزت صائحا :
« بذلة صيد » .
- يا للسخافة . اي احمق جاهل قال لك ذلك ؟
- والسدي .

وجبن المعلم . وبما انه كضيره يخاف من والدي فكيف يمكن له ان يحلم
بمخالفته ؟ ابتلع ريقه بصعوبة وقال : « نعم بالتأكيد . ولكن هذا نادر جدا .
انها يمكن ان تعني بذلة صيد . ولكن هنا . . . » كان التاريخ المقدس
موضوعي المفضل . فقد كان حكاية خرافية غريبة ومعقدة فيها ثعابين تتكلم
وفياضانات واقواس قرح وسرقات وجرائم قتل . الاخ يقتل اخاه والاب يريد
ذبح ابنه الوحيد والله يتدخل مرة كل دقيقتين ويقوم بدوره في القتل والناس
يعبرون البحر دون ان تبتل اقدامهم .

لم نكن نفهم . وكنا نسأل المعلم وهو يسعل ويرفع عصاه غاضبا وهو
يصرخ : « اوقفوا هذه الوقاحة اكم مرة قلت لكم ان لا تتكلموا » .

وكنا نجيب بصوت كالانين : « لكننا لا نفهم يا سيدي » وهو يجيب :
« هذه افعال الله . وليس من المفترض بكم ان تفهموا . انها خطيئة » .

خطيئة اكننا نسمع هذه الكلمة المخيفة وننكمش مرعوبين . لم تكن كلمة
بل ثعبانا . الثعبان نفسه الذي اغوى حواء . كان يأتي من منصة المعلم
وهو يفتح فمه لالتهامنا ، كنا ننكمش في مقاعدنا ولا ننبس .

والكلمة الاخرى التي اربعتني حين سمعتها لأول مرة هي كلمة « ابراهام »
كان حرفا الالف يرتعشان في داخلي وكان يبدو انهما يأتيان من مكان بعيد ،
من بئر عميقة مظلمة مخيفة . وكنت اهمس لنفسي « ابراهام . ابراهام »
بسرية تامة واسمع الخطوات واللهاث ورائي - كان هناك شخص ما يتبعني
بقدمين جبارتين عاريتين . وحين عرفت انه اخذ ابنه ذات يوم لذبحه جمدني

(١) بندقية قديمة الطراز .

الرب • لا شك انه هو الذي يذبح الأطفال • وصرت اختبئ وراء مقعدي لكي لا يكتشفني ويأخذني • وحين قال لنا المعلم ان من يتبع وصايا الله يذهب الى بطن ابراهيم اقسمت ببني وبين نفسي ان اخالف الوصايا كلها لكي انقذ نفسي من ذلك البطن •

ولقد احسست بالاثارة ذاتها حين سمعت للمرة الاولى ، في موضوع التاريخ المقدس ذاته ، بكلمة هاباكوك Habakkuk • فقد بدت لي هي الاخرى غامضة • فالهاباكوك هو البعبع الذي يتسلل الى الدار كلما هبط الظلام (كنت اعرف المكان الذي يجثم فيه : وراء البئر) وذات مرة حين تجرات على المغامرة بالخروج وحيدا الى الدار ليلا قفز من وراء البئر ومد يده وصرخ بي : « هاباكوك ا » وبمعنى اخر « قف • ساكلك ! » •

كان صوت بعض الكلمات يثيرني بشكل رهيب - وعلى الغالب كنت احس بالخوف وليس بالغبطة • وبشكل خاص الكلمات العبرية • فقد علمت من جدتي ان اليهود في (الجمعة الحزينة) كانوا يأخذون الاطفال المسيحيين ثم يلقونهم في قناة مفروشة بالمسامير ويشربون دماغهم • وكثيرا ما كانت تبدو لي كلمة عبرية ما من (العهد القديم) - وخاصة كلمة يهوه - كقناة مفروشة بالمسامير وكأن شخصا ما يريد ان يلقيني فيها •

وفي الصف الثالث كان هناك برياندر كراساكيس • اي عراب عديم الرحمة اعطى اسم طاغية كورنت المتوحش لهذا القزم المريض بياقته المرتفعة لكي تخفي الغدة في رقبته وساقيه الجندبيتين الهزلتين ومحرمته الصغيرة دائما في فمه لكي يتمكن من البصاق والبصاق والبصاق وكأنه يلفظ اخر انفاسه ؟ كان هذا الرجل مهووسا بالنظافة ولذا كان يتفقد اكفنا كل يوم وآذاننا وانوفنا واسناننا واطافرنا • ولم يكن يضرب او يتوسل بل كان يهز رأسه الضخمة التي كانت مغطاة بالبثور ويصرخ بنا : « وحوش ! خنازير ! ان لم تغتسلوا كل يوم بالصابون فلن تصيروا بشرا ابدا • اتعرفون ماذا يعني ان يصير المرء انسانا ؟ يعني ان يغتسل بالصابون • العقل ليس كافيا ، ايها الشياطين المساكين ، لا بد من الصابون ايضا • كيف ستظهرون امام الله بأيد كهذه ؟ هيا اذهبوا الى الباحة واغسلوا ا » •

وفي النهاية كان يجعلنا نصاب بالخجل ساعات عديدة - اي الحروف الصوتية طويل وايها قصير وهل نستخدم عليها علامة حادة ام منحنية (١) بهنما نحن ننصت الى الاصوات في الشارع - باعة الخضار ، والصبيان الذين

(١) العلامات التي توضع على الحروف الصوتية لتؤثر في طريقة نطقها • وهذا محروف في اللغة الفرنسية مثلا •

يبيعون الكولوري ، ونهيق الحمير وضحكات النساء - وننتظر ان يقرع الجرس لكي نفر . وكنا نراقب المعلم وهو يتعرق في مقعده بينما هو يعيد نقاط القواعد مرة بعد اخرى بغاية تثبيتها في اذهاننا لكن افكارنا كانت هناك خارجا في الشمس وفي حرب الحجارة . فقد كنا نعبد هذه اللعبة وكثيرا ما اتينا الى المدرسة برؤوس مجروحة .

وذات يوم ربيعي مقدس فتحت النوافذ . كانت شجرة المندرين مزدهرة في الجانب الاخر من الشارع ودخلت رائحتها الصف . وتحول كل عقل من عقولنا الى شجرة مندريين مزدهرة ولم نعد نقوى على احتمال سماع اي شيء اخر حول الحركات والعلامات الحادة والمنحنية . وفي اللحظة ذاتها جاء عصفور وحط على شجرة الدلب في باحة المدرسة وبدأ يزقزق . عند هذا الحد كان تلميذ شاحب احمر الرأس ، وصل هذا العام من قريته واسمه نيكولويس ، قد فقد القدرة على السيطرة على نفسه ، فرفع اصبعه وقال : « اهدأ يا استاذ . اهدأ قليلا ودعنا نسمع العصفور » .

يا لبرياندن كراساكيس المسكين ! لقد قمنا بدفنه ذات يوم . كان قد ارخى رأسه بهدوء على مقعده وارتجف قليلا مثل سمكة ثم أسلم الروح . مصعوقين خوفا من رؤية الموت امامنا مباشرة اندفعنا الى الباحة نزق . وفي اليوم الثاني جئنا بملابس الاحد وقد غسلنا ايدينا بعناية (لكي لا ننكر عليه شيئا في هذه المسألة) واخذناه الى المقبرة القديمة قرب البحر . كان الطقس ربيعا وكانت السماء تضحك ورائحة البابونج تنبعث من الارض . وضع التابوت مكشوبا ، وكان وجه الميت مليئا بالبثور المتقيحة التي بدأت تتحول الى خضراء وصفراء . وحين راح تلامذته ينحنون عليه واحدا بعد الاخر لاخذ قبلة الوداع لم تعد للربيع رائحة البابونج بل رائحة اللحم المتعفن .

وفي الصف الرابع كان هناك مدير المدرسة . الذي كان يحكم ويتحكم معا . كان قصيرا وبدينا مثل جرة المؤونة وله لحية صغيرة مدببة وعينان رماديتان غاضبتان دائما وساقان مقوستان . وكنا نتهامس فيما بيننا بحيث لا يسمعنا « يا الله ، انظر الى ساقيه . انظر كيف تلتفت كل منهما حول الاخرى . واسمعه وهو يسعل . انه ليس كيرتيا » . لقد جاء الينا من اثينا حديث الثقافة جالبا معه بشكل واضح بيداغوجيا (1) جديدة . وخيل الينا ان هذا يعني امرأة شابة اسمها بيداغوجيا (فكلمة جديدة في اليونانية تعني ايضا امرأة شابة) غير اننا حين تقابلنا معه لأول مرة كان وحيدا .

(1) علم اصول التدريس .

ولم تكن بيداغوجيا هناك • لا بد انها ظلت في البيت ، كان يمسك بسوط مجدول من جلد البقر • رتبنا على رتل وبدأ يحاضر فينا • قال لنا ان علينا ان نرى ونلمس كل ما نتعلمه او ان نرسمه على ورق مغطى بالنقاط • وان علينا ان نعمن النظر فهو لن يتوقف من اجل اي هراء ولا حتى من اجل الضحك او الصراخ اثناء الفرصة • كان علينا ان نبقي اذعنا مكتفة وكلما رأينا قسا في الشارع علينا ان نقبل يده « أمعنوا النظر ايها الشياطين والا - اترون هذا ؟ » وأشار الى سوطه « انا لا احكي فقط • سترون انني اعني الفعل ا » وقد رأينا فعلا • فحين كانت تدب الفوضى بيننا او حين كان يحس انه في مزاج سيء كان يفك ازرار ملابسنا وينزل سراويلنا القصيرة ثم يسوط جلدا العاري بسوطه • وحين كان يتكاسل عن فك ازرارنا كان يسوطنا على اذاننا حتى يتدفق الدم •

مرة قويت قلبي ورفعت اصبعي وسألته : « استاذ ا ما هي البيداغوجيا الجديدة ؟ ولماذا لا تأتي الى المدرسة ؟ » •
فوثب عن كرسيه وتناول السوط من علاقته على الجدار وصاح : « تعالب هنا ايها المشاغب الوقح • فك سروالك » كان أكسل من ان يفعل ذلك بنفسه « هنا ا هنا ا هنا ا » وهو ينزل بضرباته • وحين تصبب منه العرق توقف : « هنا البيداغوجيا ، مرة ثانية ا خرس » •

غير انه كان بدوره ، شيطانا صغيرا ماكرا زوج البيداغوجيا الجديدة هذا • ذات يوم قال لنا « غدا سأحدثكم عن كريستوف كولومبس وكيف اكتشف امريكا • ولكن لكي تفهموا افضل اريد من كل منكم ان يكون ممسكا ببيضة في يده ومن ليس لديه بيضة في البيت فليجلب بعض الزبدة » •

كانت لديه ابنة في سن الزواج اسمها تيريسيكور : قصيرة ومبتهجة • وعلى الرغم من وجود العديد من الخاطبين الا انه لم يكن يريد ان يتزوج : « لن اسمح لشيء بغيض كهذا ان يحدث في بيتي » كما اعتاد ان يقول • وحين جاءت القطط في كانون الثاني وبدأت تموء على القرמיד جلب سلما وصعد الى السطح وهو يطاردها متمتما « اللعنة على الطبيعة • ليس لديها اخلاق » •

وفي (الجمعة الحزينة) اخذنا الى الكنيسة لكي نقدم احترامنا للمصلوب • وبعد ذلك عاد بنا الى المدرسة لكي نشرح ما رأيناه وما يعنيه الصلب • انهددنا في مقاعدنا متعبين ومشمئزين لاننا لم نكن قد أكلنا شيئا ذلك اليوم الا الليمون الحامض ولم نكن قد شربنا شيئا الا الخل لكي نتحسس معاناة المسيح • بينما بدأ زوج البيداغوجيا بصوت عميق ووقور يشرح كيف نزل الله على الارض وكيف أصبح المسيح وعانى ثم صلب لكي يخلصنا

من الخطيئة • ولم نفهم بوضوح ما كانت تعنيه تلك الخطيئة غير اننا فهمنا بوضوح انه كان لديه اثنا عشر تلميذا احدهم (يهوذا) قد خانه •
- « ويهوذا كان مثل ٠٠ مثل من ؟ » •

ترك المعلم منصبه وبدأ يتقدم ببطء مهددا من مقعد الى مقعد وهو ينظر الينا الواحد بعد الاخر • « يهوذا • كان مثل ٠٠٠ مثل ٠٠٠ » كانت سبابتها ممدودة وهو ينقلها من تلميذ الى اخر لكي يرى ايا منا كان يشبه يهوذا • وجمنا جميعا ونحن نرتجف خشية ان تستقر علينا الاصبع الرهيبة • وبغته اطلق المعلم صرخة وتوقفت اصبعه على صبي شاحب ملابسه رديئة وله شعر جميل اشقر مائل للاحمرار • كان هذا نيكوليوس الصبي نفسه الذي هتف في العام الماضي ، في الصف الثالث ، « اهدأ يا استاذ ودعنا نسمع العصفور » •

« ها هو • مثل نيكوليوس » صرخ المعلم « مطابق تماما • الشحوب نفسه والملابس ذاتها • ويهوذا ايضا كان له شعر احمر • احمر غامق كلهيب الجحيم » •

وحين سمع نيكوليوس المسكين ذلك انفجر بالبكاء • والبقية ، وقد زال عنها الخطر ، توجهت اليه بنظرات حاقدة ضارية وبدأت الكلمة تنتقل سرا من مقعد الى مقعد بحيث انه ما ان انتهى الدوام حتى كنا قد قررنا ان نضربه ضربا مبرحا لانه خان المسيح •

وبعد ان اقتنع باتباعه البيداغوجيا الحديثة وبتقديم شبيه ليهوذا صرف المعلم الصف • وطوقنا نيكوليوس حالما وصلنا الى الشارع وبدأنا نبصق عليه ونضربه • ركض وهو يبكي لكننا طاردناه بالحجارة ساخرين « يهوذا يهوذا » الى ان وصل بيته ودخله •

ولم يظهر نيكوليوس مرة اخرى في الصف ولم يأت الى المدرسة مطلقا • وبعد ثلاثين عاما كنت عائدا الى كريت بعد اقامتي في اوربا قرع بابي • كان سبت النور • وكان والدي قد طلب لنا جميعا احذية جديدة من اجل الفصح • ووقف بالعتبة رجل شاحب ضعيف بشعر احمر ولحية حمراء • كان يقدم لنا الاحذية التي لفت بعناية بقماش ملون • كان يقف بخجل على الباب وهو ينظر الي ويهز رأسه : « ألم تعرفني ؟ الا تتذكرني ؟ » عرفته حين قال ذلك • فصرخت وانا احتضنه بين ذراعي « نيكوليوس » فأجاب وهو يبتسم بمرارة « يهوذا ! » •

اني كثيرا ما اتذكر جيراننا مسن الرجال والنساء ودائما اتذكرهم برعب • فقد كان معظمهم انصاف مجانيين وذوي نزوات غريبة • ان عقولهم

تنهار ، ربما لانهم يعزلون طوال العام داخل الجدران الاربعة لبيوتهم ، وهم يغلقون في طاقاتهم ، وربما لخوفهم من الاتراك وحرصهم على حياتهم فقد سمعوا العجائز وهم يحكون الحكايات عن المجازر والحروب وعن تعذيب المسيحيين حتى يقف شعر رؤوسهم ، فاذا جاء احد ووقف امام ابواب بيوتهم فانهم يقفزون واقفين وقد صعقهم الخوف ، فكيف ينامون ليلا ؟ عيونهم مفتوحة وآذانهم متربصة ، انهم ينتظرون ساعة الشر التي لا بد ان تأتي ،

برعب ، فعلا ، ا تذكر رجال جبراني ونساءهم ، مدام فكتوريا ، تحت بيتنا مباشرة ، تحييك احيانا بعدوبة مع وابل من الاحاديث اللطيفة من المستحيل ايقافه ، و احيانا تصفق الباب في وجهك وتلعنك من ورائه .

بمواجهتها كانت هناك مدام بنلوب ، بدينة مترهلة متقدمة في السن ، دائما تمضغ القرنفل لتحسن من رائحة انفاسها ، كانت تضحك دائما كأن هناك من يدغدغها ، وكان زوجها ، السيد ديميتروس ، من النوع الصموت والمصاب بوسواس من المرض يحمل مظلته معه دائما ويذهب الى الجبال ، وبعد شهرين او ثلاثة اشهر يعود بثياب ممزقة ويكاد ان يموت جوعا وبنطاله معلق ومتدل حوله ، وحين كانت مدام بنلوب تراه يظهر من بعيد وهو يمسك بمظلته المفتوحة فوّهه كانت تنفجر بالضحك « ها قد عاد ليملأ سراويله » هكذا تصرخ منادية الجيران الذين يسندون خواصرهم من الضحك .

وعلى مبعده في اسفل الشارع كان يعيش السيد مانووسوس وهو تاجر مرموق ممسوس قليلا وكلما ترك منزله صباحا كان يرسم بقطعة من الحكك صليبيا على مدخل منزله ، وعند عودته ظهرا لكسي يأكل كان يجلد اخته - بانتظام ودائما في الساعة ذاتها تماما ، وحين كنا نسمع صرخاتها كنا نعرف انه قد حان وقت الغداء ولذا كنا نتوجه الى المائدة ، ولم يكن السيد مانووسوس يفتح شفتيه ليلقي تحية الصباح بل كان يكتفي بالنظر اليك بمزيج من الوحشية والخوف .

وكان السيد اندرياس (الطليعي) يقطن بيتا فوق بيتنا بقليل في رأس الشارع ، كان غنيا مليئا بالبثور وكان له أنف ضخمة بمنخرين واسعين يجعله يبدو شبيها بالعجل ، وكلما اغلق بابه كان يقف ويتحسس ساعة من الزمان ليتأكد من انه لم يتركه مفتوحا وهو يردد طوال الوقت التعاويذ لكي يطرد عنه اللصوص والنار والمرض ، واخيرا كان يرسم الصليب على نفسه ثلاث مرات ثم يتابع طريقه وهو يتلفت ورائه ، وقد لاحظ اطفال الجوار انه كان يدوس دائما على الحجارة ذاتها فاعتادوا ان يكوموا الوحل او روث الخيول على الحجارة لاستفزازه ، الا انه كان يزيح الاوساخ بعصاه جانبا ثم يخطو كما اعتاد .

وكان لدينا جار آخر هو الدكتور بيركليس الرائع مفخرة الشارع • كان طبيبا جديدا قد عاد مؤخرا من دراسته في باريس • اشقر وانيق يحمل نظارتين من الذهب ويرتدي قبة رسمية • وهو بالتأكيد اول طبيب يقطن في ميغالوكاسترو ويزور المرضى بالخفسين لان قدميه (كما قال) كانتا متورمتين • وكان هذان الخفان مطرزين بيدي اخته العانس التي استهلكت مهرها لكي تنفق على تعليمه • كان طبيب عائلتنا • ولقد اعتدت ان انحني على الخفين وابدي اعجابي بالتطريز الذين كان عبارة عن ورود حريرية محاطة بأوراق خضراء • وذات مرة كنت مصابا بالحمى وجاء ليراني فقلت له متوسلا انه ان كان يريدني ان اشفى فليمنحني الخفين • فقام بجديفة تامة - لم يكن يتنازل بالضحك ابدا - بوضعهما على قدمي ليري ان كانا ملائمين • الا انهما كانا كبيرين جدا • ولكي اغزي نفسي حككت انفي بالزهرات المطرزة لارى ان كانت لها رائحة : كانت لها رائحة ولكنها لم تكن رائحة زهور •

لا استطيع تذكر جيرانى دون ان انفجر بالضحك الممزوج بالدموع • في ذلك الحين لم يكن الناس بالذريعات على نمط واحد • كان كل منهم عالما مستقلا • كان يضحك ويتحدث بشكل مختلف عن جيرانه ، وكان يغلق على نفسه باب بيته ليحتفظ برغباته السرية مخبوءة بدافع الخجل او الخوف وكانت هذه الرغبات تتوالد في داخله حتى تخنقه • غير انه لم يكن يفوه بشيء وكانت حياته تأخذ طابع الجدية المأساوية • وازافة الى ذلك كان هناك الفقر • وكان ذلك لم يكن كافيا فقد كانت هناك الكبرياء التي تطالب بأن لا يكتشف احد هذا الفقر • كان الناس يعيشون على الخبز والزيتون وجذوع الخردل لتجنب الخروج بملابسهم المرقعة • وقد سمعت احد الجيران يقول ذات مرة : « الفقير هو ذلك الذي يخاف من الفقر • وانا لا اخاف منه » •

٦ - موت جدي

كنت ما ازال في المدرسة الابتدائية حين جاء راع يعدو من القرية لياخذني الى جدي الذي كان من الواضح انه يلفظ انفاسه الاخيرة . لقد طالب بي لكي يمنحني بركاته . كان ذلك في آب على ما اذكر والحر كان شديدا . ركبت على حمار بينما كان الراعي يسير ورائي وهو يمسك بعصا مشعبة وقد ثبت مسمارا في طرفها . وكان يهزم الحيوان بين حين واخر فيفجر منه الدم فيرفس الحمار المتألم ثم يبدأ الركض . ورحت التفت الى السائق وارجوه : «لكن لديك الشفقة . الا تعطف على هذا الحيوان ؟ انك تؤذيه » فأجابني : « البشر وحدهم يحسون بالالم . الحمير حمير » الا انني نسيت الام الحمار حالما وصلنا الى الكروم وغابات الزيتون . كانت النساء ما زلن يقطن العنب وينشرن العناقيد على اماكن جافة مغطاة بالقماش لتتحول الى زبيب . كان العالم يعج بالروائح والجنادب تصم الاذان . وقد رأتنا احدى القاطفات وضحكت فسألت سائق الحمار : « لماذا تضحك هذه المرأة يا كيرياكوس ؟ » (كنت قد عرفت اسمه الان) .

- « هناك ما يدغدغها ولذلك فهي تضحك » . ثم بصق .
- دغدغة ؟ من الذي يدغدغها يا كيرياكوس ؟
- الشياطين .

ولم افهم غير انني خفت . اغمضت عيني لكي اتحاشى رؤية الشياطين ولكمت الحمار بقبضتي لكي أجعله يبتعد بنا بسرعة .

عمالقة مكسوون بالشعر كانوا يسحقون عناقيد العنب بأقدامهم في احدى القرى التي مررنا بها . كانوا عراة حتى الخصر وهم يرقصون لعصر الخمر ويحكون النكات التي كانت تجعلهم يتلون من الضحك . كانت رائحة

التخمر تفوح من الارض • وكانت النسوة يخرجن الارغفة الطرية من التنانير
وكانت الكلاب تنبح والنحل والدبابير تطن والشمس الغارقة تنحدر بوجه
ضارب الى الحمرة وكأنها تدوس العناقيد مع الاخرين وهي ثملة تماما •
انا الاخر بدأت اضحك • وبصفرة اخذت العصا المشعبة من الراعي وبدأت
اهمز الحمار غارزا المسمار عميقا في ردفه •

حين وصلنا الى بيت جدي كنت قد دخت من التعب والشمس والجنادب •
حين وصلنا ورأيتة مستلقيا وسط الدار ومحاطا بأبنائه واحفاده احسست
بالراحة • فالظلام كان قد حل والحرارة كانت قد خفت وجدي كان يستلقي
بعينين مغمضتين غير مدرك لوجودي • وبهذا تجنبت الكف الضخمة التي
كانت تجعل جلدي يحمر كلما لامستني •

قلت للمرأة التي اخذتني بين ذراعيها وانزلتني عن الحمار : « انني
تعب » • فأجابت : « عليك ان تصبر • فجدك قد يسلم الروح في اية لحظة •
الافضل ان تبقى الى جانبه لعلك تكون اول من ينال بركاته » •

لقد بدت لي هذه البركات التي قطعت هذه المسافة الطويلة لنيلها
كمنحة اعجازية او لعبة غالية الثمن • شعرة الغول المذكور في قصص الجنيات
- هذه هي البركات ! انك تحتفظ بهذه الشعرة كتعويذة ثم تحرقها في اوقات
الحاجة الماسة فيأتي الغول لانقاذك • وهكذا بدأت انتظر ان يفتح جدي عينيه
ويمنحني شعرة الغول •

وفي اللحظة ذاتها اطلق صرخة وراح يتقلب كالكرة على جلد الخروف
الممدود تحته • قالت عجوز : « لقد رأى ملاكه • انه سيسلم الروح في اية
لحظة » ثم صلبت نفسها وتناولت قطعة من الشمع راحت تدفئها بأنفاسها
وتعجنها بين اصابعها وحولتها الى صليب لتختم به شفتي الميت •

نهض أحد ابنائهم • كانت له لحية سوداء شائكة • دخل المنزل واخرج
منه رمانة وضعها في كف والده ليأخذها معه الى (هيدس) •
اقتربنا منه جميعا ورحنا نحقق اليه • وابتدأت احدي النساء تغني
الترنيمة الجنائزية الا ان الابن ذا اللحية الشائكة وضع يده على فمها •
- اهدئي !

في هذه اللحظة فتح جدي عينيه وأشار بهما • اقترب الجميع منه وكان
ابناؤه في الدائرة الاولى والاقراب منه ثم احفاده الذكور بعدهم ووراء الجميع
بناته وكناته • ومد المحتضر يديه ووضعت احدي العجايز وسادة خلف
رقبته • وهنا سمعنا صوته ، قال :

« وداعا ايها الفتيان لقد اكلت نصيبي من الخبز وانا راحل الان .
لقد ملأت داري بالاولاد والاحفاد وعبأت جراري بالزيت والعسل وبراميلي
بالخمر - ليس لدي ما اشكو منه . وداعا ا » .

حرك يديه مودعا . ثم استدار ببطء ونظر الى كل منا واحدا بعد
الاخر . نسيت كل ما له صلة بالبركات . كنت اختبىء وراء اثنين او ثلاثة
من ابناء عمومتي فلم يرني . لم يتكلم احد . وفتح العجوز شفثيه مرة
اخرى :

« اسمعوا يا فتيان . وانتبهوا لتعليماتي الاخيرة . اعتنوا بالحيوانات
- الثيران والاعنام والحمير . لا تخذعوا انفسكم . ان لها ارواحا مثلنا تماما .
انها بشر لكنها تلبس جلود الحيوانات ولا تعرف كيف تتكلم . انها بشر
بطريقة معكوسة فامنحوها كفايتها . . . الطعام . واعتنوا بأشجار الزيتون
والكرمة . واحرصوا على تسميدها وسقايتها وتشذيبها ان كنتم تريدون
لها ان تحمل ثمرا . انها بشر ايضا بطريقة معكوسة . لكنها معكوسة منذ
زمن بعيد ولم تعد تتذكر . لكن الانسان يتذكر . ولهذا انتم بشر . هل
تسمعون ؟ أم انني اتحدث الى قطع من الصم البكم ؟ » .

- اننا نسمع . اننا نسمع .

اجابت اصوات متعددة . فمد العجوز كفه الضخمة وطلب ابنه الاكبر
« انت . . يا كوستانديس » . وتقدم كوستانديس العملاق ذو الشعر
الاجعد واللحية المبيضة والعينين البقريتين ولمس يد والده .

- ها انا يا سيدي . قل لي ما تشاء .

- لدي قمح منتقى في الجرة الصغيرة . انني احتفظ به منذ زمن طويل
من اجل (التقدمة في ذكري (1)) اسلقوه في اليوم التاسع واحرصوا على
وضع كمية كبيرة من اللوز (لدينا منه ما يكفي والحمد لله) ولا تقثروا
بالسكر كما تفعلون عادة . اتسمع ؟ انك بخيل وانا لا اثق فيك .

- « انني احترم رغباتك » . قال الابن الاكبر وهو يهز رأسه . « نعم .
انني احترم رغباتك . ولكن دع الاخرين يشاركوا في النفقات . الكل يعملون
على ان يشارك كل منهم في النفقات . اننا نتعامل مع (تقدمة الذكرى)
وهذا يعني المال . ليست مزحة . ثم هناك الشموع والقس الذي يجب ان
يدفع له ثم حفار القبور ، لا تنس ذلك ثم فطائر الجنازة والمآزة والخمر

(1) اتفاق خاص عن روح الميت او في ذكراه .

• وأدام الذكرى وهذا غير القهوة التي ستشربها النسوة ، هذا يعني المال
قلت لك انها ليست مزحة • نحن جميعا سنشارك في النفقات « •

• والتفت الى اخوته على جانبيه : « هل تسمعون ؟ كلنا • لكل نصيبه
فليكن هذا واضحا » •

• وغمغم الاخوة من بين اسنانهم • ثم رفع احداهم صوته « حسن • يا
كوستانديس • حسن • لن نتشاجر من اجل ذلك » •

• كنت قد انزلت الى الدائرة الاولى • وكما كنت قد اشرت منذ قليل ،
كان الموت دائما لغزا غريبا يغويني • اقتربت لكي القى نظرة عن قرب على
والد امي وهو يموت •

• ووقعت عينه علي •

• « ايه • اهلا • اهلا بصديقي الصغير من كاسترو • انحن لكي امنحك
بركاتي » •

• وأمسكت السيدة العجوز التي كانت تعجن الشمع بيدي وخفضتها •
وأحسست بكف جدي الضخمة والثقيلة تحيط بفرولة رأسي كلها : « بوركت
يا حفيدي من كاسترو • وان شاء الله ستصبح رجلا ذات يوم » • وحرك
شفتيه ليقول شيئا اخر الا انه كان قد انهك فأغمض عينيه •

وسألهم بصوت واهن :

– « من اية جهة تغرب الشمس ؟ اديروني نحوها » •

• وأمسك به اثنان من ابنائهم وأداراه نحو الغرب • فهمس « وداعا •
انا ذاهب » •

• وأطلق تنهيدة عميقة ثم توترت ساقاه • وسقط رأسه على الوسادة
فاصطدم بحجارة الدار • وسألت واحدا من ابناء عمومتي : هل مات ؟

• فأجاب : اف • هذه نهايته • فلنذهب للطعام •

٧ - كريت تواجه تركيا

الا ان ما اثر في حياتي الى ابعد الحدود - واكثر بكثير من المدارس والمعلمين واكثر من المتع والمخاوف الاولى التي انتابتني من رؤيتي للعالم ، والذي هزني بطريقة فريدة : الصراع بين كريت وتركيا .

فلولا هذا الصراع لاتخذت حياتي مجرى مختلفا ولاتخذ الله وجهها مختلفا .
فمنذ يوم ميلادي كنت استنشق هذه المعركة المرثية او المتخفية حتى في الهواء الذي اتنفسه . كنت ارى المسيحيين والترك ينظر كل منهم الى الاخر شذرا بنظراته القاسية ثم يقتل كل منهما شاربيه بغضب . وكنت ارى المسيحيين يدعمون ابوابهم بالمباريس واللعنات بينما تعبر الشوارع قوات الاحتلال المسلحة بالمسكيت . . . وكنت اسمع العجائز وهم يحكون عن الحروب والمذابح والاعمال البطولية وعن الحرية وعن اليونان . وكنت اعيش ذلك كله بعمق وبصمت وانا انتظر ان اكبر وافهم ما يعنيه ذلك كله بحيث انني ، انا ايضا ، استطيع ان اشمر عن ذراعي واذهب الى الحرب .

ومع الايام صرت ارى بوضوح . كان المتخاصمان هما كريت وتركيا . وكانت كريت تقاتل لكي تنال حريتها وكان الآخرون يربضون على صدرها ويمنعونها . وبعد ذلك صار لكل ما حولي وجهه : وجه كريت أو وجه تركيا . . . في خيالي - ليس فقط بل وفي لحمي ايضا - صار كل شيء رمزا يذكرني بالقتال . وذات صيف جلبت ايقونة ارتقاء (١) السيدة العذراء الى الكنيسة في الخامس عشر من آب ووضعت على منصة الركوع . وكانت أم المسيح

(١) رفع السيدة العذراء الى السماء بعد موتها ، مناسبة يحتفل بها في ١٥ اب من كل عام .

ممددة بذراعين متصلبتين • وكان ملاك قد تقدم الى يمينها بينما الشيطان الى يسارها والاثنان يطمحان الى نيل روحها • وقد استل الملاك سيفه وقطع كفي الشيطان من الرسغ - وكانتا ممدودتين في الهواء وهما تنزفان • وحين حذقت الى الايقونة امتلأ قلبي بالسعادة • ان العذراء هي كريت ، كما قلت لنفسي ، والشيطان الاسود هو تركيا والملاك الابيض كالثلج هو الملك اليوناني • ذات يوم سوف يقوم الملك اليوناني بقطع كفي تركيا • متى ؟ حالما اصبح كبيرا • هكذا فكرت مع نفسي ، وامتلاً من جديد قلبي الطفل •

ابتدا قلبي الطفولي الناعم هذا يمتلئ بالمحبة والكراهية ، وانا الاخر بدأت اشد قبضتي متحمسا للدخول في الصراع • وكنت اعرف تماما اين هو واجبي • ومع من من الطرفين المتصارعين ، وكنت اتعجل ان اكبر لكي اسير في الطريق التي سار فيها جدي وابي واحارب •

كانت هذه هي البذرة • ومنها راحت شجرة حياتي كلها تنمو وتبرعم وتزهر وتثمر • وما اثار نفسي في البدء لم يكن الخوف او الالم ولا المتعة او الالعب بل كان التوق للحرية • كان علي ان انال الحرية - ولكن الحرية ممن ؟ ومم ؟ وبالتدرج ، ومع مرور الايام ، تسلقت قمة الحرية الصعبة الشاقة - الحصول على الحرية ، اولاً ، من الاتراك • هذه هي الخطوة الاولى • وبعد ذلك بدأ هذا الصراع الجديد : الحصول على الحرية من الاتراك الداخليين - من الجهل والحقد والحسد من الخوف والكسل ومن الافكار الخادعة المضللة ، واخيراً من الاصنام ، كلها ، حتى اكثرها محبة واحتراماً •

ومع الايام ، وبعد ان كبرت وتوسعت مداركي توسع الصراع ايضا • فاض عن حدود كريت واليونان وتغجر في الازمنة والامكنة كلها - غزا تاريخ البشر • والصراع الان لم يعد دائراً بين كريت وتركيا بل بين الخير والشر ، وبين الضوء والظلمة ، بين الله والشيطان • لقد كانت دائماً المعركة ذاتها ، المعركة الابدية ، ووراء الخير وراء الضوء والله كانت تقف كريت بينما وراء الشر ووراء الظلمة والشيطان تركيا • وبهذا فان ولادتي ككريت في لحظة حاسمة ، حين كانت كريت تقاوت من اجل حريتها جعلتني ادرك منذ طفولتي المبكرة ان هذا العالم يحتوي على خير اعز على النفس من الحياة وأعلى من السعادة - هو الحرية •

كان لوالدي صديق ، كابتن أشيب معروف باسم بوليماتيلياس - « عدة مناديل » - لانه كان دائماً يحمل العديد منها • واحد يغطي شعره وأخر تحت ابطه اليسر واثنان متدليان من حزامه وواحد يمسك به في كفه يمسح جبينه الذي كان يتعرق دائماً • كان يتردد دائماً لزيارة متجر والدي • وكان والدي يطلب له فتجان قهوة ونرجيلة وبعد ان يتحلق الاحداث

هوله كان يفتح كيس تبغه ويحشو منخريه بالتبغ ثم يعطس ويبدأ الكلام .
كنت انتحي جانبا وانصت . الحروب ، الهجمات ، المذابح ، وكانت
ميغالو كاسترو تتلاشى وتتسامى امامي جبال كريت . الهواء مليء
بالصرخات : صرخات المسيحيين وصرخات الاتراك . وتلتهم امام عيني
المسدسات ذوات القبضات الفضية . كريت وتركيا تتقاتلان . تصرخ الاولى
« الحرية ا » فتجيبها الاخرى « الموت ا » ويمتلئ ذهني بالدم .

وذات يوم حول عينيه نحوي وبدأ يزيني بنظرته . ثم قال : « الغرابان
لا تفقس حماما . اتفهم ايها القبضي الصغير ؟ »
احمر وجهي واجبت : « كلا يا كابتن » .
- والدك قبضي ، وان شئت أم ابيت فستكون قبضي .

شئت أم ابيت ا بدأت هذه الكلمات تطرق في رأسي كالمطارق . كانت
كريت تتحدث من فم الكابتن العجوز . ولم افهم كلماته في حينها ولم ادرك
الا بعد مرور زمن طويل انني احمل قوة علوية في اعماقي ، قوة ليست قوتي
وان هذه القوة تتحكم بي ، وعلى الرغم من انني كنت على وشك الاستسلام
مرات عديدة الا ان هذه القوة كانت تمنعني . واية قوة ؟ انها كريت !!

والحقيقة انني كنت اتغلب على الخوف منذ الطفولة - انطلاقا من
احترام النفس : وفكرة انني كويتي . ولانني ، ايضا ، كنت اخاف من
ابي . في البدء لم اكن اجرؤ على الخروج الى الدار ليلا . كان هناك شيطان
صغير ذو عين براقه يتلصص علي في كل زاوية ووراء كل أصيص وعند حافة
البئر . لكن والدي اعتاد ان يوبخني ويدفعني الى الدار ويوصلد الباب خلفي .

الخوف الوحيد الذي لم استطع التغلب عليه في تلك المرحلة كان الخوف
من الهزات الارضية . فكثيرا ما كانت ميغالو كاسترو تهتز من جذورها .
وكانت القعقة تسمع من اعماق العالم وقشرة الارض تتشقق ويفقد الناس
الذين فوقها عقولهم . وكلما هدأت الريح بشكل مفاجيء وسكنت الاوراق
على الاشجار وخيم على كل شيء صمت رهيب ، يقف له الشعر ، كان
سكان ميغالو كاسترو يندفعون من بيوتهم وحوالياتهم ويلقون النظرة
الاولى على السماء ثم ينظرون الى الارض . ولم يكونوا ينطقون بأية كلمة
لثلا يسمع الشر ويأتي . الا انهم ، بينهم وبين انفسهم ، كانوا يهجسون
بأن هزة ارضية ستحدث ، ويرسمون علامة الصليب .

وذات يوم حاول معلمنا ، باتيروبولوس العجوز ، ان يهدئنا . وشرح
لنا قائلا : « لا ينجم شيء عن الهزة الارضية . لا تخافوا منها . انها مجرد
ثور تحت الارض . انه يخور وينطح الارض بقرنيه فتتهتز . كان الكريتيون

القدامى يسمونه مينوتور Minotaur • ليس هناك ما يدعو للخوف
اطلاقا » •

الا اننا بعد ان تلقينا هذا العزاء من معلمنا اكتشفنا ان خوفنا قد تزايد
كثيرا • لقد اصبحت الهزة الارضية كائنا حيا ، وحشا ذا قرنين ، يخون
ويهتز تحت اقدامنا وكان يأكل البشر •

وسأل ستراتيس الصغير البدين ابن القنذلفت : « ولماذا لا يقتله القديس
ميناَس ؟ » ولكن المعلم غضب وصاح « كفاك هراء » وغادر مقعده ليشد
اذن ستراتيس ويسكته •

وذا ت يوم كنت مندفعا بأقصى سرعتي في الحي التركي ، لان الرائحة
التي تفوح من الاتراك كانت تثير قرفي ، بدأت الارض تهتز واصطفقت
النوافذ والابواب وسمعت قعقة عظيمة كأنما هي صادرة عن بيوت تتهدم •
وقفت وقد جمدني الرعب وسط الزقاق الضيق وعينا مسمرتان على الارض •
كنت انتظر ان تتشقق وان يظهر الثور منها ويأكلني ، حينما ، بغتة ،
انفتح باب ذو سرداب ليكشف عن حديقة ، واندفعت منه ثلاث فتيات
تركيات حافيات مشعثات الشعور وحاسرات • وتفرقن في اتجاهات متعددة
وهن يرتعدن من الخوف ويطلقن زعقات حادة كأصوات السنونو • وتضمخ
الزقاق كله برائحة المسك • ومنذ تلك اللحظة صار للهزة الارضية وجه مختلف
بالنسبة لي دام معي طوال حياتي • ولم يعد وجهها قاسيا لثور • وقفن
يصرخن ويزقزن كالعصافير • اتحدت الهزات الارضية والتركيات
الصغيرات • وكانت هذه هي المرة الاولى التي أرى فيها قوة قاتمة تظهر
للضوء وتصبح وضاعة •

مرات عديدة خلال حياتي ، احيانا باختيارى وحيانا مجبرا ، كنت
اضع قناعا ملائما على مخاوفي بالطريقة ذاتها - على الحب والفضيلة
والمرض - وبهذا جعلت الحياة محتملة •

٨ - أساطير القديسين

كانت الحرية اول رغباتي الكبيرة . اما الثانية ، والتي تظل خبيثة في اعماقي حتى اليوم وهي تعذبني ، فكانت الرغبة في الطهارة . البطل مع القديس هذا هو النموذج الامثل للانسان . وحتى في طفولتي كنت اثبت هذا النموذج فوقي في السماء الزرقاء .

في تلك الايام كان لكل شخص في ميغالو كاسترو جذور عميقة في كل من الارض والسماء . ولهذا ، منذ ان تعلمت قراءة المقاطع وتركيب الكلمات ، كان اول شيء طلبت من امي ان تشتريه لي هو اسطورة : « الرسالة الانجيلية المقدسة » . « ظهور الله معجزة مذهشة ! حجر سقط من السماء ٠٠٠ » وانكسر هذا الحجر ووجد مكتوبا في داخله : « ويل لمن يستخدم الزيت أو يشرب الخمر ايام الاربعاء والجمعة » . كنت أمسك بالرسالة الانجيلية مشرعة فوق رأسي كالعلم وأقرع ابواب الجيران كل اربعاء وجمعة - باب مدام بنلوب ومدام فكتوريا والعجوز كاترينا ديليفا سيلينا . وكنت اجول في البيت متقدا بالحماس ثم اشق طريقي مباشرة الى المطبخ واتشمم ما يطبخونه . ويسا لسوء اليوم الذي أشم فيه رائحة لحم او سمك . كنت اهز الرسالة مهددا وأصرخ : « الويل لكم ! الويل لكم ! » بينما الجيران المذعورون يربتون على كتفي ويحاولون تهدئتي . وذات يوم عندما سألت والدتي وعلمت انني كنت ارضع ايام الاربعاء والجمعة حين كنت رضيعا ، وهذا يعني انني كنت اشرب الحليب في تلك الايام المقدسة ، عندها انفجرت في البكاء متألما .

بعث العابي كلها لاصدقائي واشتريت حياة القديسين في طبعة شعبية ، نسخا بحجم الكراس . وكنت في كل مساء اجلس على كرسي الصغير بين الحبق والقطيفة في دارنا وانا اقرأ بصوت مرتفع العذابات

المختلفة التي قاساها القديسون لكي ينقذوا ارواحهم . وكانت الجارات يتجمعن حولي ومعهن خياطتهن او اعمالهن الاخرى - بعضهن يرفين الجوارب وبعضهن يطحن القهوة او ينظفن سويقات الخردل . كن يصفين : وشيئا فشيئا يبدأ دارنا يرن بالعويل لعذابات القديسين والامهم . وحين كان الكناري ، المعلق تحت الاكاسيا ، يسمع القراءة والعويل ، كان يلقي برأسه الى الوراء ثملا ويبدأ بالشدو . وكانت الحديقة الصغيرة بطبيعتها وعرائشها فوقنا - بعزلتها وحرارتها وشذاها - تبدو كشاهدة قبر محاطة بنساء يندبن : كضريح المسيح المحاط بالزهور . وكان العابرون يتلكأون ويقولون لانفسهم ان شخصا ما قد مات هنا وكانوا يذهبون الى والدي يحملون له هذه الانباء السيئة لكنه كان يهز رأسه ويقول لهم : « لا شيء » . ليس هناك الا ابني يحاول ان يعظ الجارات » .

كانت البحار تنكشف في خيالي الطفولي ، والقوارب تندفع خلسة ، والاديرة تتلامع بين الصخور الشاهقة والاسود تنقل الماء الى النساك . وكان عقلي يطفح بأشجار النخيل والابل وبغايا يقتحمن طريقهن الى الكنيسة ، ومركبات نارية ترقى الى السماء ، وصحارى تتلغف بطرقات قباقيب النساء وضحكاتهن وشيطان يأتي بهيئة سانتاكلوز (1) ومعه هبات الطعام والذهب والنساء للنساك . لكن اعينهم متعلقة بالله ، والشيطان يتلاشى .

كن صلبا ، كن صبورا ، احتقر السعادة ، لا تخشى الموت ، تطلع عبر هذا العالم الى الخير الاسمى . هكذا كان الصوت الذي لا يقمع ينطلق من تلك الطبقات الشعبية ويلعن قلبي الطفل . ومعها يبرز ظمأ عنيف للسفر المفاجيء والرحلات البعيدة والته المعبىء بالشهادة .

كنت اقرأ اساطير القديسين واستمع الى حكايا الجنيات واسترق السمع الى الاحاديث وكان هذا كله يتحول في اعماقي - او يتشبهه - الى كذبات مدوخة . وكنت اجمع زملاء المدرسة وأطفال الجيران وأمرر هذه الكذبات على انها مغامراتي الشخصية . وكنت اقول لهم انني عائد لتوي من الصحراء . وان لدي اسدا هناك حملت على ظهره جرتين وذهبت معه الى النبع لجلب الماء ، او انني منذ ايام رأيت عند باب دارنا ملاكا أنتزع ريشة من ريشاته واعطاني اياها . وحيانا تكون الريشة معي لاريها لهم (كنا قد ذبحنا ديكاً في بيتنا منذ ايام واحتفظت بريشته البيضاء الطويلة) . وكنت اضيف انني اخطط لتحويل الريشة الى قلم للكتابة .

(1) بلبا نويل .

● تكتب ؟ ما الذي ستكتبه ؟
 - حياة القديسين • وحياة جدي •
 - وهل كان جدك قديسا ؟ ألم تقل لنا أنه كان يحارب الاثراك ؟
 - ليس هذا الشيء نفسه ؟ أجيب وانا ابري طرف الريشة بسكينتي
 الصغيرة لتحويلها الى قلم •

و ذات يوم قرانا في المدرسة في الكتاب التمهيدي أن طفلا سقط في بئر
 فوجد نفسه في مدينة خرافية ذات كنائس لامعة وحدائق غناء وحوانيت
 ملأى بالكعك والحلويات وبنادق الالعاب . والتهب عقلي • ركضت الى المنزل
 والقيت بحقيبتني في الدار والقيت بنفسي على حافة البئر لكي اسقط فيها
 واصل الى المدينة الخرافية • وكانت أمي جالسة قرب النافذة المطلة على
 الدار تسرح شعر اختي الصغيرة وحين رأتنى اطلقت صرخة وركضت وامسكت
 بي من مريمتي بينما كنت اضرب قدمي بالارض لالقاء نفسي على رأسي
 في البئر •

وفي كل احد حين كنت اذهب الى الكنيسة كنت ارى ايقونة (معلقة
 في مكان منخفض من حامل الايقونات) يبدو فيها المسيح وهو يصعد من
 القبر يرفرف في الهواء وبیده راية بيضاء وفي الاسفل كان حراسه واقعين
 على اقفيتهم وهم يحدقون اليه برعب • لقد سمعت الكثير من القصص عن
 الانتفاضات الكريتيية وعن الحروب كما سمعت ان جدي (لابي) كان قائدا
 عسكريا عظيما • وفيما كنت احدق الى الايقونة كنت اقنع نفسي بالتدريج
 ان المسيح لم يكن الا جدي • ولذا جمعت زملائي حول الايقونة وقلت لهم :
 « انظروا الى جدي • انه يرفع الراية ذاهبا الى الحرب • اترون هناك في
 الاسفل انهم الاثراك ممددون على الارض » •

وما كنت أقوله لم يكن صحيحا ولا كذبا • انه شيء قد تجاوز المنطق
 والاخلاق ليخلق في جو الطف وأكثر حرية • ولو أن أحدا اتهمني بأنني ألق
 حكايات كاذبة لبكيت خجلا • لم تعد الريشة في يدي ريشة ديك بل هي
 الريشة التي أعطانيها الملاك • لم أكن أكذب • كان لدي ايمان لا يتزعزع
 بأن المسيح ذا الراية هو جدي وان الحراس الذين يصعقهم الرعب تحته هم
 الاثراك •

بعد ذلك بزمن طويل بدأت أكتب قصائد وروايات وبدأت أفهم بأن
 هذه الاستفاضة السرية هي ما يسمى بـ « الابداع » •

و ذات يوم كنت أقرأ قصة القديس يوحنا Saint John of the Hut قفزت
 على قدمي وقد قررت : « سأذهب الى جبل أئوس لأصبح قديسا • » ودون
 ان التفت لالقي نظرة على أمي (القديس يوحنا كم يلتفت ليلقي نظرة

على أمه) تجاوزت العتبة وانطلقت الى الشارع . اتبعت أكثر الارقعة
بعدا ورحت أركض طوال الطريق لثلا يراني احد اخوالي ويعيدني الى
البيت . وصلت الى الميناء حيث اقتربت من أحد الزوارق ، الزورق الذي
كان على وشك زفع مرساته . كان هناك بحار قمّرته الشمس منحني على
المربط الحديدي وهو يحاول ان يفك الكابل . اتجهت اليه وأنا أرتعش من
الانفعال .

١ - تستطيع أن تأخذني معك يا كابتن ؟

-الى اين تريد الذهاب ؟

- الى جبل آثوس ؟

- الى اين ؟ الى جبل آثوس ، وما الذي ستفعله هناك ؟

- سأصبح قديسا .

وانفجر البحار ضاحكا ثم صفق بيديه وكأنه يطرد دجاجة وهو يصرخ :

« الى البيت ! الى البيت ! »

ركضت عائدا الى البيت مخزيا وتجمعت تحت الاريكة دون ان انبس
بكلمة لاحد . اليوم أعترف بالامر للمرة الاولى : لقد أجهضت محاولتي الاولى
لأن اصبح قديسا .

دام حزني اعواما عديدة وربما الى اليوم . انني من مواليد يوم الجمعة
الثامن عشر من شباط وهو يوم الارواح ، يوم مقدس فعلا ، امسكت بي
القابلة العجوز بين يديها وقربتني من الصنوبر ونظرت الي بحرص شديد .
كان يبدو أنها ترى نوعا من العلامات السرية في . ثم رفعتني عاليا وقالت :
« علموا على كلامي . هذا الطفل سيصبح ذات يوم مطرانا » .

وحين علمت ، مع الايام ، بنبوذة القابلة امننت بها وهي التي اجبت
رغباتي السرية ووجهتها . ورحت احس بمسؤولية كبيرة فلم اعد اقوم بأي
عمل ما كان المطران يقوم به . وبعد ذلك بزمان طويل ، حين رأيت ما يفعله
المطرانة فعلا ، غيرت رأبي . ومنذ ذلك الحين ، ولكي استحق القداسة التي
كنت ابحت عنها ، لم اعد اقوم بأي عمل يقوم به المطارنة .

٩ - التوق الى الطيران

كانت الايام ، في ذلك الحين ، بطيئة ورتيبة ، لم يكن الناس يقرأون الصحف ، وكانت الراديو والتلفون والسينما لم تولد بعد ، وكانت الحياة تكرر بهدوء - جادة وقليلة الكلام ، كان كل انسان عالما مغلقا ، وكان كل بيت مغلقا ومرتجا معا ، والطيبون داخل البيوت كانوا يشيخون يوما بعد يوم ، وكانوا يحتفلون ويسكرون همسا لئلا يسمعون احد . ويتشاجرون سرا او يمرضون ويموتون صامتين ، عندها يفتح الباب وتظهر البقايا وتكشف الجدران الاربعة مؤقتا عن اسرارها لكن الباب يوصد فوراً من جديد وتعود الحياة مرة اخرى الى حركتها الثقيلة دون صوت .

في العطل السنوية - عيد ميلاد المسيح وموته وقيامته كان الناس جميعا يرتدون ملابسهم ويتزينون بمجوهراتهم ويغادرون منازلهم ويتدفقون في الازقة ، ثم يتوجهون نحو الكاتدرائية التي كانت تنتظرهم بأبواب مفتوحة ، وكانت شمعداناتها وثرياتها مضاءة ، وكان فارس البيت وسيده ، القديس ميناكس واقفا على العتبة لاستقبال اصدقائه الاعزاء سكان ميغالو كاسترو . وتفتح القلوب ، وتنسى التعاسات والاسماء ويصبح الجميع كلا واحدا . لا يعودون ، بهذا ، عبيدا ، والنزاعات والاتراك لا يعود لهم وجود ، وحتى الموت لا يعود له وجود ، وكان كل واحد ، في الكنيسة ، بقيادة الفارس الكابن ميناكس ، يحس بانفصاله عن الحشد الفاني .

كانت الحياة في تلك السنوات عميقة وساكنة ، والضحكات اقل ما تكون في تلك الايام في ميغالو كاسترو ، والدموع وافرة . كما كانت غصات القلوب المكنومة اكثر وفرة ، كان الاهالي القساة جديسين مهتمين دائما بشؤونهم الخاصة : حشدا من الغوغاء المطواعين : كلما مر بهم غني وقفوا

له احتراماً ، الا انهم جميعاً كانوا متحدين بعاطفة مشتركة واحدة تجعلهم ينسون اهتماماتهم وخصوصياتهم وتجعلهم يتقاربون بروح اخوية . ولم يكونوا يكشفون عن هذه العاطفة لانهم كانوا يخافون الاتراك .

ولكن اذات يوم بدأت المياه الراكدة تتحرك . فقد شوهدت سفينة تجارية مدججة بالاعلام وهي تدخل المرفأ ذات صباح . ووقف اهالي كاسترو الذين كانوا قريبين من الشط فاغري الافواه . اذ ما هذا القارب ذو الالوان المتعددة والزينات المتعددة الذي انسل بين البرجين الفنيسيين (١) في مدخل المرفأ ؟ وكان القارب يقترب . ليحفظنا القديسون . قال الاول انه رف من الطيور وقال اخر انه مجموعة من المتكركين وقال ثالث انها حديقة عائمة وقال اخدهم انه السندباد البحري قد ظهر من البحار الحارة البعيدة . وفي هذه الاثناء انطلق صوت هائل متوحش من مقهى الميناء « مرحبا بالبلدين (٢) ا » . وتنفس المتفرجون جميعاً الصعداء : لقد فهموا اخيراً . واقتربت السفينة اكثر فأكثر وظهرت حمولتها للعيان : نساء بملابس مبهجة وقد اعتمرن القبعات المريشة وتوشحن البلدين ، وخدودهن ممسوحة بمكياج احمر اللون . وعند رؤيتهن رسم الكريتيون العجائز علامة الصليب وتمتموا : « قف ورائي يا شيطان ا » وهم يبصقون في اعبابهم . ما الذي تفعله المومسات هنا ؟ هذه ميغالو كاسترو الشهيرة . وهي لن تسكت على اهانات كهذه .

وبعد ساعة وضعت برامج قرمزية على كافة جدران المدينة وعلمت المدينة أن هؤلاء ليسوا الا فرقة من الممثلين والممثلات . يبدو انهم جاؤوا لتسلية الكريتيين ...

وحتى اليوم لم استطع ان افهم كيف تمت المعجزة غير أن ابي اخذني بيدي وهو يقول : « دعنا نذهب الى المسرح ونرى ما هذا الامر ا » كان الظلام قد حل . أمسكني من يدي وذهبتنا باتجاه المرفأ نحو حي فقير لم اكن اعرفه من قبل . كانت هناك حظائر كبيرة وقليل من البيوت . وكانت احدى الحظائر متلائثة الاضواء وصوت كلارينيت وطبلة ينطلق من داخلها وكان شراع سفينة معلقا على مدخلها بحيث تحتاج الى رهعة لكي تدخل . ووجدنا بدخولنا ، مقاعد وكراسي وعليها جلس رجال ونساء يحذقون الى ستارة امامهم وينتظرون ان تفتح . كانت هناك نسمة لطيفة تهب من جهة البحر . وكان الهواء منعشاً والرجال والنساء يتحدثون ويضحكون ويطلقون الفول السوداني أو بذور اليقطين .

(١) نسبة الى البندقية .
(٢) وشاح نسوي طويل الاطراف .

« أين هو المسرح ؟ » سال والدي (فهو ايضا كان يذهب الى مهرجان كهذا للمرة الاولى في حياته) . واشير له نحو الستارة . كان مكتوبا على القماش بحروف كبيرة « اللصوص لئشير تمثيلية مسلية جدا » وتحتها مباشرة « لا اهمية لما تراه . لا تنزعج . فهو خيالي » .

وسالت والدي : ما معنى خيالي ؟

فاجاب : هواء ساخن .

كانت لوالدي مشكلاته الخاصة . فقد التفت ليسال جاره عن يكون هؤلاء اللصوص ولكن بعد قوات الاوان . سمعت ثلاث دقات وفتحت الستارة . وحدقت مدهوشا جاحظ العينين . وانفتحت امامي جنة . ملائكة ذكور واناث ياتون ويذهبون يرتدون الملابس الزاهية مع الريش والذهب وخدودهم ملونة بالابيض والبرتقالي . كانوا يرفعون اصواتهم ويصرخون بشكل مفاجيء . كان يبدو انهما اخوان وبدأ يتجادلان ويتبادلان الالهات ويلاحق كل منهما الاخر بغية قتله .

ارهب والدي اذنيه وراح يستمع مغمغما بانزعاج . ثم راح يتامل على كرسيه وكأنه جالس على الحجر . واخرج منديله ومسح العرق الذي كان قد بدأ يتصبب على حاجبيه غير انه حين عرف في النهاية ان سويقتي الفاصولياء المتشابكتين اخوان متخاصمان قفز على قدميه هائجا . وصرخ بصوت مرتفع : « أي تهريج هذا ؟ فلنذهب الى بيوتنا » ثم قبض على يدي وخرجنا قلوبين بضعة كراسي في عجلتنا .

ثم هزني واضعا يده على كتفي وقال : « اياك ان تخطو داخل مسرح بعد الان ايها الشقي . اتسمع ؟ لانك ان فعلت فسوف اسلخ جلدك » . وكان هذا اول لقاء لي بالمسرح .



هبث نسمة دافئة فأنبت ذهني الزرع وامتلأ منخراي بشقائق النعمان . جاء (ت) الربيع (١) مع خطيبها القديس جورج ممتطيا جواده المطهم الابيض ، ثم رحلت وجاء الصيف فاضطجعت العذراء المقدسة على الارض الخصبة لكي ترتاح هي الاخرى بعد ان حبلت بابن كهذا (٢) ووصل القديس ديمتريس ممتطيا جوادا اسمر محمرا وسط الامطار وهو يسحب وراءه الخريف الملجلل بالبلاب واوراق الدوالي الذابلة . وكبس علينا الشتاء . كنا في البيت

(١) يعامل الكاتب الربيع محللة المؤنث .

(٢) يقصد المسيح .

(حين يغيب والدي) انا واختي وامي نشعل الكانون ونجلس حوله لنشوي الكستناء او الحمص على الجمر . كنا ننتظر أن يولد المسيح لعل جدي ذا الوجنتين المتوردتين يأتي ومعه الحلوف المحمر الملفوف بأوراق الليمون . هكذا كنا نتخيل الشتاء : مثل جدي له حذاءان ثقيلاان وشاربان أبيضان ويحمل حلولا محمرا بين يديه .

ومرت الايام وكبرت . وصغرت في الدار اصص الحبق والقطيفة وصرت اصعد درجات امينة بخطوة واحدة الان دون حاجة اليها لان تمد يدها . كبرت وكبرت في داخلي رغباتي القديمة في الوقت الذي راحت تنمو فيه رغبات اخرى جديدة الى جانبها . اما اساطير القديسين فقد كانت معيقة لانها كانت تكبحني . وليست المسألة انني لم اعد أؤمن بها . كنت أؤمن بها : الا ان القديسين صاروا الان اكثر اذعانا . انهم يحنون رؤوسهم دائما امام الله ويقولون نعم . لقد استيقظ في اعماقي الدم الكريتي . ومن قبل ان تتوضح تلك الفكرة في رأسي مبكرا فقد كان لدي حدس بأن الرجل الحقيقي هو ذلك الذي يقاوم ويكافح ولا يخاف عندما يقتضي الامر ان يقول « لا » حتى لله .

ولم استطع ان اعبر عن اي من هذه الهواجس الجديدة بكلمات ولكن في تلك المرحلة من حياتي لم تكن بي حاجة الى الكلمات . كنت افهم دون لبس ودون حاجة للعقول او الكلمات . كان يخيم علي الاسى حين أرى القديسين جالسين بأذرع ممدودة امام الفردوس يدعون ويتوسلون وينتظرون ان يفتح الباب . كانوا يذكرونني بالمجذومين المنبوذين الذين كنت أراهم كلما ذهبت الى كرمناء . كانوا يجلسون ازاء باب المدينة بأنوفهم المتأكلة وأصابعهم الضائعة وشفاهم المتبيسة وهم يمدون اذرعهم المبتورة للعابرين طالبين الصدقات . لم اكن احس بأي اسف تجاههم بل كانوا يثيرون قرفي وكنت دائما احول وجهي عنهم واسرع في تجاوزهم قدر ما استطيع . هذه هي الحالة التي بدأ القديسون ينحدرون اليها في عقلي الطفولي . الم تكن هناك طريقة اخرى لدخول الفردوس ؟ وبعد ان هجرت الجنيات واميرات الحكايات ودخلت صحراء طيبة مع القديسين المتسولين كان علي الان ان اهرب منهم ايضا .

كانت امي تعد الحلويات في كل عطلة هامة . احيانا كورابيدس Kourabiédhes و احيانا لوكومس Loukoums وفي عيد الفصح فطيرة خاصة . ولقد تعودت ان ارتدي افضل بذلاتي وان اذهب لتوزيع تلك الحلويات لاخوالي وخالاتي كطريقة للتعبير عن تحياتنا . وهم ، بدورهم ، كانوا يرحبون بي بحرارة ويقدمون لي قطعة فضية مفترضين انني سأشتري سكاكر . الا انني في اليوم التالي كنت اسرع الى مكتبة السيد لوكاس واشتري مخطوطات عن الاراضي البعيدة والمستكشفين العظماء . لقد نزلت في قلبي بذرة روبنسن كروزو بشكل واضح . وها هي تثمر الان .

لم أكن أفهم الأجزاء يسيرا من « خرافات القديسين » لكن جوهرها ترسب في أعماق روحي . ابتداءً عقلي يتفتح الان ويمتلئ بأبراج العصور الوسطى والمناطق الغريبة والجزر الغامضة التي تفوح منها روائح القرفة والقرنفل . وكان متوحشون بريش أحمر يتخطون عتبة نفسي ويشعلون النار ليشبوا عليها بشرًا. وللجزر المحيطة بهم روائح اطفال حديثي الولادة . هؤلاء القديسون الجدد لم يكونوا يتسولون الصدقات لانهم كانوا يأخذون كل ما يرغبون فيه بالسيف . وفكرت لنفسي : آه لو ان شخصا واحدا فقط يستطيع دخول الجنة بهذه الطريقة ، على ظهر جواده مثل هؤلاء الفرسان البطل ممتزج بالقديس : ذاك هو الانسان الكامل .

بدأ بيت اهلي يضيق ، وبدأت ميغالو كاسترو تضيق وصارت الارض الان تبدو كغابة استوائية مليئة بالعصافير الملونة والوحوش وفاكهة ناضجة حلوة كالشهد. وكنت أريد (هكذا خيل لي) ان اجتاز هذه الغابة الاستوائية كلها لكي أقدم الحماية لآنسة شاحبة واقعة في مازق . وذات يوم بينما كنت أمر قرب مقهى رأيتها . كان اسمها جنيفيف .

لقد اندمج القديسون في خيالي الان بالفرسان الاقوياء الذين انطلقوا لتخليص العالم او المذبح المقدس او فتاة ما كما امتزجوا بالمستكشفين العظماء ، وسفن كولومبوس التي انطلقت من ميناء اسباني صغير - تملأ الريح ذاتها اشروعها - مثل السفن التي حتى هذه اللحظة تنطلق في اعماقي نحو الصحراء محملة بالقديسين .

حين قرأت سرفانتس ، وحتى بعد ذلك ، كان بطله دون كيشوت يبدو لي قديسا عظيما وشهيدا انطلق محاطا بالضحكات والسخرية ليكتشف ، وراء حياتنا اليومية المتواضعة الجوهر الذي يختفي خلف المظاهر . اي جوهر ؟ لم أكن اعرف في ذلك الحين لكنني عرفت فيما بعد . هناك جوهر واحد فقط وهو نفسه دائما . فطالما ان الانسان لم يجد وسيلة اخرى ليعلم بنفسه ، لم يجد الا اخضاع المادة واخضاع الذات لغاية تتجاوز الفرد حتى لو كانت هذه الغاية وهمية . حين يؤمن القلب ويحب لا يظل هناك شيء وهمي . لا يبقى الا الشجاعة والثقة والعمل المثمر .

مرت سنوات ، وحاولت ان انظم فوضى خيالي . الا ان هذا الجوهر ، الجوهر ذاته الذي كان يقدم نفسه لي بشكل غامض حين كنت طفلا ، كان يفاجئني دائما على انه قلب الحقيقة . ان من واجبا ان نحدد لانفسنا هدفا ابعد من اهتماماتنا الفردية وابعد من عاداتنا المريحة والمقبولة واسمى من نفوسنا ومن الضحك الساخر والجوع وحتى الموت ، وان نجد ليلا ونهاراً لتحقيق هذا الهدف . لا ، ليس لتحقيقه . ان النفس التي تحترم ذاتها ،

حالما تصل الى غايتها ، تضع هذا الهدف ابعـد مرة اخرى ، ليس تحقيقه بل عدم التوقف في الصعود . بهذه الطريقة فقط تنجز الحياة نبـلها ووحدايتها .

هذا هو اللهب الذي قضيت فيه طفولتي . وادركت ان التقلبات العديدة للقديسين والابطال هي ايسـط طريق للانسان واكثرها واقعية . لكن هذا اللهب انضم للهب اخر اعظم منه وهو ما كان يحرق ميغالو كاسترو وكريت في تلك المرحلة من عبوديتهما .

في تلك الازمنة البطولية القديمة لم تكن ميغالو كاسترو مجموعة صغيرة من البيوت والحوانيت والارقة متجمعة بمحاذاة شاطئ كريتـي وبمواجهة بحر لا يهدأ غضبه . ولم يكن سكانها مجموعة من البشر الفوضويين دون قيادة (او بقيادات متعددة) رجالاً ونساء واطفالا يصرفون جهودهم كلها في الاهتمامات اليومية : الطعام والاطفال والنساء . كان هناك نظام صارم وغير مكتوب يحكمهم . ما من احد يرفع يده متمردا على القانون القاسي فوقهم . فهناك شخص ما فوق رأسه يصدر أوامره . لقد كانت المدينة بأكملها موقعا عسكريا . وكل قاطن فيها كان هو نفسه موقعا عسكريا محاصرا الى الابد ، والكابتن بالنسبة له قديسا ، القديس ميناس ، حامـي ميغالو كاسترو . ممتطيا جوادا أصهب مشرعا رمحا احمر نحو السماء ، كان القديس يظل دون حراك طوال النهار في كنيسة الصغيرة على ايقونته - بعينين قاسيتين ووجه لوحته الشمس ولحية قصيرة مجمدة . طوال النهار وهو يزين بالنذر الفضية - بالايدي والاقدام والعيون والقلوب - التي كان أهالي ميغالو كاسترو يقدمونها له لعل بركته تشفيهم ، كان يظل دون حراك متظاهرا انه ليس أكثر من صورة مرسومة على قطعة من الخشب . ولكن ما ان يحل الليل ويتجمع المسيحيون في بيوتهم وتبدأ الاضواء بالانطفاء واحدا بعد الاخر حتى يدفع عنه الرسوم ونذور الفضة بحركة من يده ويهمز جواده وينطلق في جولة عبر الاحياء اليونانية ، ينطلق في دورية حراسة . كان يلق اي باب نسيه المسيحيون مفتوحا ، وكان يصفر لبوم الليل لكي تعود الى بيوتها وكان يقف قرب باب الدار ويستمع بعناية ورضى كلما سمع غناء . وكان يهمس لنفسه لا بد ان هناك عرسا . فلتحل البركة على الزوجين السعيدين ولينجبا اطفالا يعلون من شأن المسيحية . وبعد ذلك يقوم بجولة على الاستحكامات التي تحيط بميغالو كاسترو وعند ضياح الديك وقبل بزوغ الفجر كان يهمز جواده ويدخل الكنيسة بقفزة واحدة ثم يتسلىق الايقونة . ومرة اخرى يعود الى مظهر اللامبالي . الا ان جواده قد عرق وغطت قمه وجانبـيه طبقة من الزبد . وحين كان السيد هارا لامبـيس ، يأتي قبل الجميع صباحا ليزيل الغبار عن الشمعدانات ويلمعها كان يرى

جواد القديس ميناَس مبلًا بالعرق • ولم يكن هذا ليفاجئه لانه كان يعرفه (كما يعرف الجميع) ان القديس قد طاف الشوارع طوال الليل • وكلما شحذ الاتراك خناجرهم وتهيلوا للانقضاض على المسيحيين كان القديس ميناَس يقفز من ايقونته من جديد ليحمي لسكان ميغالو كاسترو • ولم يكن الاتراك يرونه لكنهم كانوا يسمعون جواده وهو يصهل ويميزون الصوت ويرون الشر الذي تطلقه حوافر الجواد وهي تضرب الحصى فيتوقعون في بيوتهم وقد جمدهم الرعب •

غير انهم ، منذ سنوات قليلة ، راوه بأمهات عيونهم • كانوا يهينون مذبة اخرى الا ان القديس ميناَس انطلق نحو الحي التركي على جواده • وبينما كان ينعطف عند زاوية احد الشوارع/لحظه الحاج مصطفى الذي كان نصف مجنون ، فانطلق هاربا وهو يصرخ « الله ، الله ، لقد نزل علينا القديس ميناَس » • وفتح الاتراك ابوابهم قليلا وتلصصوا منها • وبينما كانوا يتطلعون الى القديس ميناَس بدرعه الذهبية • ولحيته الصهباء المجددة ورمحه الاحمر ارتخت مفاصلهم تحتهم وأعادوا خناجرهم الى اعمادها •

لم يكن القديس ميناَس ، بالنسبة للكاستريين (١) ، مقدسا فقط • بل كان قائدهم • وكانوا ينادونه « كابتن ميناَس » ويجلبون أسلحتهم اليه سرا لكي يباركها • وحتى والدي كان يشعل له الشموع والله وحده يعلم ما الذي كان يقوله له واي لوم كان يلقيه عليه لتأخره الى هذا المدى في تحرير كرييت •

كان كابتن المسيحية • وكان حسن بك ، العدو اللدود للمسيحيين والمتعطش لدمائهم ، جاره • وكان حرمه متاخما للكنيسة • وذات يوم سمع قرعا على الجدار فوق سريره تماما • وفهم • كان هذا القديس ميناَس يهدده لانه في اليوم ذاته ضرب احد المسيحيين ضربا مبرحا • ولقد غضب الكابتن ميناَس لهذا الحادث وهو الان يدق جداره • ورفع حسن بك قبضته وراح يدق الجدار من جهته ويصرخ « هيه • انت هناك يا جار • معك حق • نعم • وحق ايماني معك حق • ولكن توقف عن قرع جداري وسأجلب لك جلدي ماعز مليئين بالزيت لمصايحك وعشرين أقة من الشمع كل سنة لمراضاتك • نحن جيران • ولا داعي للمشاجرة » • ومنذ ذلك الحين كان حسن بك (الكلب ا) يرسل خادمه كل سنة في عيد القديس ميناَس ، في (١ تشرين الثاني لينزل جلدي ماعز مليئين بالزيت وعشرين أقة من الشمع في باحة الكنيسة • ولم يعد القديس ميناَس لدق جداره مرة اخرى •

(١) نسبة الى ميغالو كاسترو •

هناك نوع من الذهب في كريت - ولنسمه « الروح » - شيء ما أقوى بكثير من الحياة او الموت . هناك كبرياء وعناد وبسالة ومعها جميعا شيء ما يجعلك تفرح لكونك انسانا وفي الوقت ذاته يجعلك ترتعش .

حينما كنت طفلا كان الهواء الكريني مشبعا بزفير الاتراك ، رائحة وحش بري . كان هناك يطقان تركي مشرع فوق رأسي . وبعد سنوات عديدة رأيت « توليدو في العاصفة » فعرفت أي نوع من الهواء كنت استنشق حينما كنت طفلا واية ملائكة تحوم حول كريت كالشهب .

كان أب أحب الشهور الى نفسي في طفولتي وما زال احبها الي حتى الان . فهو الذي يجلب لنا العنب والتين والقاوون والبطيخ الاحمر . وقد اطلقت عليه اسما مسيحيا هو القديس اوغست . ها هو ذا حامي ، كما كنت اقول لنفسي ، وله سوف اقدم صلواتي . وحينما ارغب في اي شيء سأطلبه من القديس اوغست وهو ، بدوره ، سوف يطلب من الله ، والله سوف يعطيني ما اريد . ومرة اخذت بعض الالوان المائية ورسمته وتبين انه قريب الشبه جدا من جدي الفلاح - الخدان المتوردان نفسهما والبسمة العريضة ذاتها - لكنه كان حافيا في معصرة الخمر يدوس العند ، شمر عن ساقيه حتى الركبتين او قريبا من الفخذين وقد رسمتهما حمراوين من عصير العنب وتوجت رأسه بتاج من اوراق الدوالي . وظل ينقص الصورة شيء ما . ما هو ؟ نظرت اليه بامعان ثم وضعت قرنين على رأسه بين اوراق الدوالي ، لان المنديل الذي يضعه جدي على رأسه كانت له عقدتان شبيهتان بالقرون ، واحدة الى اليمين والاخرى الى اليسار .

في اللحظة التي رسمت فيها اوغست وثبتت ملامحه في داخلي تثبتت ثقتي به ورحت انتظر كل سنة ان يأتي ويقطف كروم كريت ثم يعصر القطاف ثم يكمل معجزته باستخلاص الخمر من العناقيد . لانني اذكر كم كان هذا اللغز يعذبني . كيف يصبح العنب خمرا ؟ القديس اوغست وحده ، لديه القدرة على صنع معجزة كهذه . آه لو انني استطيت الالتقاء به صدفة ذات يوم في كرمنال الواقع خارج ميغالو كاسترو وأطلب منه ان يخبرني بالسرفانا لم استطع ان افهم هذه المعجزة . الثمر غير الناضج يتحول الى عنب والعنب الى خمر والناس يشربون الخمر ويسكرون لماذا ؟ لماذا يسكرون ؟ هذه الامور كانت تبدو لي الغازا مخيفة . وذات مرة حين سألت والذي عنها قطب حاجبيه واجابني « انتبه لشؤونك ا » .

وفي آب ايضا كانت العناقيد تسطح على ارض مغطاة بالقماش لكي تجف تحت الشمس وتحول الى زبيب . وفي احدى السنوات ذهبنا الى كرمنال وجلسنا في كوخنا الريفي الصغير . كان الهواء لطيفا وكانت الارض لاهبة

والجناب تحترق هي الاخرى • كان يبدو انها جالسة على فحم مشتعل • كان ذلك في الخامس عشر من آب ، عيد ارتقاء السيدة العذراء ، وكان العمال في عطلة • وجلس والدي عند جذع شجرة زيتون يدخن ، وجلس الى جانبه جيراننا يدخنون ، وكانوا قد سطحوا عنبهم ايضا ، كان القلق باديا عليهم • كل منهم قد سمر عينيه على عيمة صغيرة سوداء مشؤومة ظهرت صامتة على الافق وبدأت تتقدم • كنت جالسا قرب والدي مثل الاخرين وكنت اراقب العيمة ايضا ، وأحسست انني احبها • رقيقة ، ملونة بهذا اللون الرصاصي الخفيف ، وهي تكبر باستمرار وتغير وجهها وجسدها • مرة تشبه جلد ماعز مليء ، ومرة تشبه عقابا أسود الريش ، ومرة تشبه الفيل الذي رأيت في الصورة • وكانت تهز جذعها جيئة وذهابا وهي تحاول ان تجد الارض تحتها وتلامسها • وهبت نسمة دافئة • وارتعشت اوراق شجرة الزيتون فقفز واحد من الجيران واقفا ومد ذراعيه نحو العيمة المتقدمة : « لياخذها الشيطان • قولوا عني انني كذاب ان لم تجلب لنا زخة مطر » •

فأجابه عجوز ورع : « الافضل لك ان تأكل كلماتك • العذراء لن تسمح بذلك • هذا عيدها » ونخر والدي دون ان ينبس بكلمة • لقد كان مؤمنا بالعذراء الا انه كانت لديه شكوك حول قدرتها على التحكم في الغيوم •

وبينما هم يتحدثون صارت السماء كالحة تماما وبدأت القطرات الكبيرة الاولى الحارة بالتساقط • واقتربت الغيوم من الارض ، وبدأت ومضات البرق الصفراء تشق السماء بصمت • وصرخ الجيران : « ايتها العذراء المقدسة • ساعدينا » •

قفزوا جميعا وتفرقوا في كل اتجاه كل نحو كرمه حيث مؤونة العام كلها من الزبيب مسطوحة ، وصار الجو أشد قتامة وهم يركضون • وتهذلت خصلات سوداء من الغيوم واندفعت الريح مجنونة • وفاضت السواقي وبدأت المياه تجري في الدروب كالانهار • وانطلقت اصوات نادبة من كل كرم • بعضها كان يلعن وبعضها يسرحم العذراء ان تأخذها بهم الرأفة وان تتدخل • واخيرا ، ومن كل كرم ، ومن وراء أشجار الزيتون ، انطلق البكاء •

انسللت من كوخنا ورحمت أركض تحت المطر وقد تماكنتني غبطة كالسكر • كانت المرة الاولى التي اكتشفت بها الاكتشاف الرهيب بأنه ما ان تحدث المصائب الكبرى حتى تملكني غبطة لا انسانية غامضة • حين رأيت النار أول مرة ، وذلك عندما احترق بيت عمتي كاليوب ، قفزت ورقصت امام اللهب حتى أمسك بي احدهم من نقرتي ودفعني بعيدا • وحين مات معلمنا كراساكيس كان علي ان امع نفسي قسرا من الضحك • كان الامر

كما لو ان معلمي وبيت عمتي كانا ثقلين قد ازيحا عن كاهلي وتحررت
منهما • فالنار والطوفان والموت كلها كانت بالنسبة لي ارواحا صديقتي
وودودة • واحسست انني روح من العائلة ذاتها • كنا شياطين متوحدين
نجاهد لتخليص الارض من بيوتها وسكانها •

وصلت الى الطريق لكنها كانت سيلا جارفا لم استطع عبوره • فوقفت
جانبا ورحت اتفرج بينما العناقيد نصف الجافة - جهد العام كله - تعوم
على السيل الذي يجرفها بسرعة نحو البحر • وتصاعد البكاء • وغاصت
عدة نساء حتى الركب في الماء وهن يجاهدن لانقاذ بعض الزبيب • واخريرات،
تساقطت المناديل عن رؤوسهن ، كن واقفات على جانب الطريق يشددن
شعورهن •

كنت مبلا حتى العظم وانا اجاهد لاختفاء غبطني • ركضت عائدا نحو
البيت شغوفاً برؤية رد فعل والدي • هل سيبكي ؟ هل سيلعن أم
سيصرخ ؟ وحين عبرت المنطقة الجافة رأيت ان عنبنا كله قد راح •

وجدته واقفا بلا حراك على العتبة وهو يعرض شفته • وكانت امي واقفة
وراءه وهي تبكي •

وصرخت : ابي • لقد راح عنبنا •

فأجاب : نحن لم نرح • اخرس •

لم انس هذه اللحظة طوال حياتي • واعتقد انها نفعني كدرس
عظيم في ازمات حياتي • كنت دائما اتذكر ابي وهو واقف بهدوء ، دون
حراك على العتبة ، دون ان يلحن او يتوسل او يبكي • بلا حراك كان يقف
يرقب الخراب و - وحده بين الجيران كلهم - ظل محافظا على كرامته
البشرية •

١٠ - مجزة

نقول في كريت : مرحبا بالمصيبة حين تأتي وحدها • ذلك انها نادرا ما تجيء وحدها • ففي اليوم التالي كانت السماء صافية تماما • بالامس كانت غاضبة وقد اهلكت معظم الناس • اما اليوم فتضحك • وطاف المالكون بكرومهم • العنب كله قد تلف • وهنا وهناك ما تزال تظهر كمشات منه غارقة في الطين • وعند الظهر تماما عاد والدي مسرعا من كاسترو • لقد جاءه احد اصدقائه في الصباح الباكر وهمس شيئا ما في اذنه ثم رحل • وانتقل الكلام بأن المسيحيين قد قتلوا احد الاغوات البارزين في احدي القرى • كان الاتراك ثائرين والمسيحيون يسلمون أنفسهم • كنا على أبواب ثورة اخرى • وراح الاتراك يتسابقون الى ميغالو كاسترو بحثا عن الامان وراء الجدران الفينيسية •

كنت أمشي في كرمنا مع أمي واختي نجتمع اخر العناقيد التي كانت ما تزال على الدوالي وكان الحر في عزه والهواء يلفح • وبغثة سمعنا صرخات واصوات نباح من الطريق • كان هناك حشد هائل يعبر • الحمير محملة بقصع العجين والاباريق والنساء التركيات • ووراءها كان الرجال المغممون يخبون مسرعين في الاحوال بعضهم حفاة وبعضهم بأحذية دون نعال وهم يخورون دون كلام في سيرهم الحثيث نحو كاسترو •

وغمغمت امي : « الكلاب التركية ! » وحملتنا تحت ابطيها وادخلتنا • وتشبثت بركبتها وسألتها : « لم يركضون يا أمي ؟ ماذا يريدون ؟ ولم ترتجفين ؟ » •
فربت على شعري : « يا الهي • فلتشمل ابني بنظرتك • ما ارهب ان يولد المرء كريتيا » •

فتحنا النافذة قليلا ورحنا نتطلع . كان الحشد يسرع من بعيد ثم
اختفى وراء أشجار الزيتون . وعاد الطريق الى هدوئه .

« فلنذهب » قال والدي « بسرعة . علينا ان نصل قبل المغيب » .

أمسكت أمي بأيدينا . واخرج والدي مسدسه من تحت الوسادة .
تفحصه . كان محشوا . القاه في جيبه ثم سار وراعنا .

كانت الشمس على وشك ان تغرب حين مررنا من البوابة الحصينة .
ولكن في الازقة كان يبدو كأن الظلام قد حل . كان الناس يركضون مسرعين
والابواب توصد والامهات يظهرن لينادين اطفالهن من الشوارع . ورأتنا
جارتنا فطوم ولم تلق علينا تحية المساء .

جلس والدي في مكانه المعهود على الاريكة في الزاوية قرب النافذة المطلة
على الدار ووقفت امي امامه تنتظر . كانت تعلم انه سيصدر الاوامر .
اخرج كيس تبغه ودرج لفافته ببطء وتكاسل . ثم ، ودون ان يرفع عينيه ،
قال : « لا يخرج احد من البيت » .

والفتت الي عابسا : « أنت خائف ؟ » .

فاجبته : لا .

- وماذا لو حطم الاتراك الباب ؟ ماذا لو اقتحموا البيت وذبحوك ؟

ارتعشت ، واستطعت ان احس بالشفرة على حلقي . كنت اريد ان
اصرخ ان نعم انا خائف لكن عيني والدي كانتا مثبتتين علي فخجلت .
وبغثة انتفخ صدري . واحسست ان قلبي يمتليء ببسالة الرجال . فقلت :
« حتى لو ذبحوني لن اخاف » .

« عظيم » قال والدي واشعل لفافته .

في الصيف الماضي حين ذهبت الى قريتنا لرؤية جدي وهو يموت ،
نمت مع احد اخوالي في حقل بطيخ . وبغثة قبل ان اغفو بقليل سمعت صوت
« كرررر . كرررر . كرررر » من حولي صوت تكسر اشياء غريبة . التصقت
بخالي خائفا وسألته : « ما الذي يصدر هذا الصوت المتكسر ؟ انا خائف . »
فادار خالي ظهره لي حانقا لانني ايقظته وقال : « نم يا ابن المدينة اهي
المره الاولى التي تسمع فيها صوتا كهذا ؟ انه البطيخ وهو يكبر » وبشكل
مشابه في هذا اليوم حين تركزت عينا والدي علي احسست بقلبي يكبر
ويطقطق .

لميفالو كاسترو اربع بوابات حصينة . كان الاتراك يغلقونها كل يوم

عند الغروب ويفتونها مع الشروق . وما من احد كان يستطيع الدخول او الخروج من المدينة طوال الليل . وبهذا وقع المسيحيون الذين فيها في المصيدة . كان في وسع الاتراك ان يقوموا بمجزرة خلال الليل طالما ان البوابات مغلقة ومرتجة . ذلك انهم الاكثرية في المدينة ولديهم ايضا الحامية التركية .

كانت هذه خبرتي مع أول مجزرة . فبعد ايام قليلة ، وللمرة الاولى ، رأى عقلي الطفولي وجه الحياة الحقيقي وراء القناع الجميل للبحر وللحقول الخضراء والدوالي المثقلة بالعناقيد ، وخبز القمح وابتسامة الام . وجه الحياة الحقيقي : الجمجمة .

وفي هذا الوقت ايضا سقطت سرا بذرة في احشائي ، بذرة قدر لها فيما بعد ان تزهر وتثمر عيني الثالثة : العين الداخلية : عين صافية مفتوحة ليلا نهارا لا تعرف خوفا او أملا .

جلست وامي واختي متلاصقين ومتمترسين داخل بيتنا . ركنا نسمع الاتراك الهائجين في الشارع يشتمون ويهددون ويحطمون الابواب ويذبحون المسيحيين . سمعنا نباح الكلاب وصرخات الجرحى وحشرجات الموت وهديرا في السماء كما لو ان الهزة الارضية تتقدم . وقف والدي وراء الباب ينتظر والمسكيت معه محشو . واذكر انه كان يمسك بيده حجرا مستطيلا كان يسميه « المسن » او المشخذ . كان يشد عليه سكيننا طويلة ذات قبضة سوداء . ورحنا ننتظر . قال لنا : « اذا حطم الاتراك الباب ودخلوا فان في نيتي ان اذبحكم بنفسي قبل ان تقعوا في ايديهم » . امي واختي وانا : جميعنا ، وافقنا . ونحن الان ننتظر .

اعتقد انني كنت سأرى روحي وهي تنضج خلال تلك الساعات لو ان اللامرئي صار مرثيا . وأدركت انني في غضون ساعات قليلة بدأت اتحول مباغثة من طفل الى رجل .

وهكذا مر الليل . وجاء الصباح . وهذا الهدير وانسحب الموت مبتعدا . فتحنا بابنا بهدوء ومددنا رؤوسنا خارجا . عدد من نساء البيوت المجاورة فتحن نوافذهن بهدوء وتلصصن . كن يتفحصن الشارع . وفي تلك اللحظة مر بائع الكولوري التركي ، ذلك الذي له صوت صغير وحاد ولا شعر في وجهه . كان ينادي بنغمه الرتيب على كهكاته المرشوشة بالسمنسم والقرفة التي يحملها على صينية تنكية واسعة فوق رأسه . اية فرحة تلك !! بدا كأن كل شيء يولد من جديد : وبدا ، اننا نرى للمرة الاولى ، السماء والفيوم والصينية التنكية المحملة بالكولوري الشهية . اشتجرت لي امي واحدة ومضفتها بمتعة لا توصف .

وسألت امي : هل ذهبت المجزرة ؟
واخافها سؤالي فقالت : « اهدأ • اهدأ يا بني • لا تذكر اسمها • فقد
تسمعك وترجع » •

انني اكتب الان كلمة « مجزرة » ويقف لها شعر رأسي لانني حين كنت
طفلا لم تكن هذه الكلمة عبارة عن عدد من الاحرف الابدجية المتجاورة بل
كانت هديرا هائلا واقداما ترفس ابوابا ووجوها كالحة تحمل السكاكين بين
اسنانها ونساء يرتجفن في كل مكان من الجوار ، ورجالا يحشون الاسلحة
وهم راكعون وراء الابواب • بالنسبة لنا نحن الذين كنا اطفالا في كريت في
ذلك الحين هناك كلمات اخرى عديدة تمتزج ايضا بالدم والدموع ، كلمات
صلب عليها شعب بأكمله : الحرية ، القديس ميناس ، المسيح ، الثورة •

مصير الانسان الذي يكتب مصير قسري وتعييس وذلك عائد لطبيعة
عمله التي تجبره على استخدام الكلمات • وهذا يعني ان يحول جيشانه
الداخلي الى سكون • فكل كلمة صلبة تحتوي على قوة انفجارية
عظيمة • ولكي تكتشف معناها يجب ان تدعها تنفجر في داخلك كقنبلة
لكي تحرر الروح التي تحتجزها •

مرة كان هناك حاخام يدلي بوصيته ويودع زوجته واطفاله بالدموع
كلما ذهب الى الكنيس ليصلي لانه لم يكن يعرف ما اذا كان سيخرج من
الصلاة حيا • وقد اعتاد ان يقول : « حين الفظ كلمة ما ، ولتكن يا رب ، فان
هذه الكلمة تمزق قلبي • يجمدني الرعب فلا اعرف ما اذا كنت سأستطيع
القفز الى الكلمات التالية : ارحمني » •

اه من يستطيع قراءة قصيدة بهذه الطريقة ، او قراءة كلمة
« مذبحه » او حرف من اسم المرأة التي يحب - او هذا (التقرير) الذي كتبه
انسان كافح طويلا في حياته ولم يستطع ان ينجز الا القليل •



في الصباح الباكر من اليوم التالي اخذني والدي من يدي • قال :
« تعال » • وخافت امي • « الى اين تأخذ الصبي ؟ لم يغادر مسيحي بيته
بعد » •

وكرر والدي امره : « تعال » وفتح الباب وخرج
وسألته : « الى اين نذهب ؟ » وكانت يدي ترتجف في راحته الضخمة •
تطلعت الى الشارع طويلا وعرضا • كان خاليا الا من امرأتين قرب الزاوية
تغسلان على (الفيحة) • كان الماء قد صار احمر •

- هل انت خائف ؟

- نعم .

- ليس هذا هاما . ستعود .

درنا عند المنعطف وتوجهنا نحو بوابة الميناء . ومررنا بببيت كان الدخان ما يزال يتصاعد منه وبيوت اخرى كانت ابوابها محطمة والدماء ماتزال على العتبات وحين وصلنا الى الساحة الرئيسية ذات النبع المنحوت في هيئة أسد وشجرة الدلب الضخمة على حافته ، وقف والدي وقال : « انظر » وأشار بيده .

نظرت الى شجرة الدلب واطلقت صرخة . كان هناك ثلاثة رجال مشنوقين ما زالوا معلقين عليها يتأرجحون واحدا قرب الاخر . كانوا حفاة ولا لباس عليهم الا مناماتهم والسنة خضراء قاتمة كانت تتدلى من افواههم . ولعجزي عن تحمل المنظر حولت رأسي وتشبثت بركبة والدي . الا انه أمسك رأسي بيده وحوله نحو شجرة الدلب .

« انظر » قال أمرا من جديد .

وامتلات عيناى بالمشنوقين .

- طالما انت حي - اتسمع ؟ - لا تجعل هؤلاء المشنوقين يغيبون عن

نظرك .

- من قتلهم ؟

- الحرية ، فليباركها الله .

لم أفهم . وبعينين جاحظتين حملقت وحملقت الى الاجساد الثلاثة التي كانت تتأرجح ببطء بين الاوراق الصفراء على شجرة الدلب .

لقى والدي نظرة حوله وأنصت . كانت الشوارع خالية . فالتفت الي :

- أتستطيع ان تلمسهم ؟

- لا . صحت خائفا .

- تستطيع . . . تعال !

اقتربنا . ورسم والدي شارة الصليب بسرعة اكثر من مرة . ثم قال لي أمرا « المس أقدامهم » . ولمست برؤوس أصابعي جلودهم الباردة القاسية . كان ندى الليل ما يزال عالقا عليها .

وجاءني امر والدي من جديد : « قبلهم . قدم احترامك » . وحين رأى محاولتي للافلات والهرب حملتني تحت ذراعيه ورفعني ثم احنى رأسي وقسرتني على الالتصاق بالقدم الصلبة .

أنزلني . ولم تقو ركبتي على حملي فانحنى ونظر الي قائلا : « كان

هذا لمساعدتك على التعود « .
 ثم اخذني ، من جديد ، بيدي وعدنا الى البيت . كانت امي واقفة وراء
 الباب تنتظر بقلق .
 « اين ذهبتما بحق الله ؟ » سألت وهي تمسك بي بشغف وتقبلني .
 فأجاب والدي : « ذهبنا لنقدم فروض الاحترام » وألقى علي نظرة
 واثقة .



ظلت البوابات الحصينة مغلقة ثلاثة ايام ثم فتحت في اليوم الرابع .
 غير ان الاتراك كانوا يجوبون الشوارع ويملاؤون المقاهي ويتجمعون في
 المساجد . لم يكن الهياج قد هدأ بعد في اعماقهم وكانت عيونهم ما تزال
 مليئة بالقتل . كانت كريت مهيأة لان تشتعل ، ولم يكن يلزم الا شرارة
 واحدة . وركب جميع المسيحيين الذين لديهم اطفال في السفن التجارية
 والقوارب للرحيل الى اليونان الحرة . وكل من ليس لديهم اطفال هجروا
 ميغالو كاسترو واتجهوا الى الجبال .

كنا بين من ذهبوا الى المرفأ من اجل الرحيل . منهن والدي يتقدمنا
 ووراءه امي واختي ، وانا في المؤخرة .
 لقد قال لي والدي - ولم اكن قد اكملت الثامنة بعد - « يجب ان نحمي
 النساء . سأسير انا في المقدمة وانت تظل في الخلف . وانتبه جيدا ! » .
 مررنا بالجوار الذي كان محترقا . بعض الضحايا لم تكن قد ازويحت
 بعد . والجثث بدأت تتعفن . وانحنى والدي على أحد الابواب والتقط حجرا
 مضمخة بالدم . قال لي : « احتفظ بها » .

فهمت اخيرا لم كان والدي يتصرف بهذه الطريقة الضارية . لم يكن
 يطبق اساليب البيداغوجيا الحديثة بل كان يتبع الاسلوب القديم الشرس
 الذي كان وحده قادرا على الحفاظ على الجنس . هكذا يدرب الذئب
 دغفله (1) المفضل ، الابن الاول - يعلمه الصيد والقتل ، ويعلمه بالحيلة او
 البسالة كيف ينجو من الافخاخ . ولبيداغوجيا والدي الضارية ادين باحتمالي
 وعنادي للذين لازماني في الاوقات العصبية . ولهذه الضراوة ادين بكافة
 الافكار العصية التي تتحكم بي الان في نهاية حياتي والتي نم تكن ترضى
 بقبول الرعاية من الله او من الشيطان .

« دعنا نصعد الى غرفتك لنقرر أمرنا » قال لي والدي قبل ان يغادر

(1) الدغفل : ابن الذئب .

• البيت

وقف في وسط الغرفة وأشار الى خارطة اليونان الكبيرة التي كانت معلقة على الجدار •

● لا اريد ايا من بيرايوس Piraeus أو اثينا • هناك سيحتشد الجميع • ثم سيبدأون بالتسول وطلب المعونة • ليس هذا العمل المقرف من شاني • اختر جزيرة ما !

- اية جزيرة اشاء ؟

● نعم • اية جزيرة نشاء •

صعدت على كرسي والقيت نظرة على كل الجزر الايجية (٢) : كانت نقاطا خضراء في البحر الازرق • ثم بدأت بسانتوريني ورحت انقل اصبعي الى مليوس وسيفنوس وميكونوس وباروس • وتوقفت عند ناكسوس •

قلت : « ناكسوس ا » • أحببت شكلها واسمها • كيف كان لي ان اتنبأ في تلك اللحظة بالاثر الحاسم الذي سيكون لهذا الاختيار العرضي المصري على حياتي بأكملها •

« ناكسوس » كررت قولي وانا انظر الى ابي •

فأجاب : « جميل • فلنذهب الى ناكسوس » •

(٢) نسبة الى بحر ايجة •

١١ - ناكسوس

كان لهذه الجزيرة حلاوة وهدوء عظيمان . اينما توجهت تشاهد اكوام البطيخ والوخ والتين يحيط بها البحر الساكن . رحبت اطلع الى الاهالي . كانت وجوههم ودودة ، لم يتعودوا على الخوف من الاتراك او الهزات الارضية ولم تكن عيونهم تشتعل . لقد اطفأت الحرية التوق الى الحرية ، وتمددت الحياة كالماء الهاديء المسترخي الذي ، رغم انه يضطرب احيانا ، الا انه لم يتسبب ابدا في اثاره اعصار . وحينما كنت اتجول في ناكسوس كانت الطمانينة هبتها الاولى التي وعيتها . الطمانينة ، وبعد ايام ، السأم . تعارفنا مع شخص اسمه السيد لازاروس ، وهو ناكسوسي ثري يملك بستانا رائعا في انفاريس ، على بعد ساعة عن البلدة الرئيسية . دعانا فمكثنا اسبوعين هناك . اية وفرة ، اية اشجار مثقلة بالفاكهة واية غبطة . لقد تحولت كريت الى خرافة ، الى غيمة متوعدة موعلة في البعد دون انذار بخطر ولا سفك لدم ولا كفاح لحرية . هذا كله ذاب وتلاشى في الرفاه الناكسوسي الوسنان .

وجدت كومة من الكتب في احدى خزائن قصر العزبة . كانت مصفرة لقدمها فاخذتها وصرت اجلس كل يوم تحت شجرة زيتون واقلمها بشرامة . وكنت احدق بشغف الى الرسومات الباهتة القديمة للمحاربين والسيدات والوحوش وغابات الموز . وفي كتاب اخر بحار متجمدة ، وسفن محاصرة بالجليد ، ودياسم (١) تتدحرج على الثلج ككرات من القطن . وفي غيره مدن بعيدة ذات مداخن عالية وعمال ونيران متأججة .

(١) صغار الدببة .

توسع عقلي وتوسع العالم معه • وامتلأ خيالي بأشجار عملاقة وحيوانات غريبة وبشر سود وصفر • وكثير من الأشعار التي كنت أقرأها كانت تهيج قلبي • وفي احد هذه الكتب المصفرة صادفت هذه الكلمات : « سعيد هو الانسان الذي يرى اكثر البحار واكثر القارات » وفي اخر « عجل ليوم افضل من ثور لسنة » ولم أفهم هذه العبارة جيدا لكنني عرفت شيئا واحدا هو انني لا اريد ان اكون ثورا • اغلقت الكتاب وعبيت الهواء العذب وتركزت عيني على الاشجار المثقلة بالمشمش والخوخ • كنت حشرة بأجنحة لم تنم بعد تخطب على الارض بأقدامها الصغيرة في محاولة منها للطيران رغم ان قلبها يخفق • هل ستنجح ام تفشل ؟ يفضل الصبر : فترة قصيرة اخرى •

كنت صبورا • ودون ادنى شك كنت ، سرا ، انتظر في اعماقي اليوم الذي سوف تكبر فيه اجنحتي وعندها سأرحل •

لكن بنت اخ السيد لازاروس ، غلامية (1) في الثانية عشرة من العمر اسمها ستيللا ، كانت قد علقت ارجوحة على شجرة الزيتون المجاورة لشجرتي • كانت تتأرجح في الهواء وتغني • وكانت الحركة ترفع ثوبها فتتلامع ركبتيها البيضاء كالثلج والمُدورتان بشكل مذهل تحت الشمس • لم استطع البقاء لسماع اغنياتها او للنظر الى ركبتيها • وذات يوم القيت بكتبي غاضبا الى الارض • ولم تفعل اكثر من النظر اليها ثم الانفجار بالضحك وهي تمضغ لبانها • وكثيرا ما كانت تثيرني بأغنياتها الساخرة • لقد نسيتها كلها الا واحدة :

• اخفض هاتين العينين السوداوين اللتين تنظران الي
• اخفضهما ، يا جوهرتي ، انهما تجلدانني •

« ستيللا ! » صرخت غاضبا وانا اقفز على قدمي « اما ان تنصرفي من هنا او انصرف » • فقلبت ارجوحتها • « فلننصرف معا ! » قالت ولم تعد تضحك • ثم خفضت صوتها وقالت « فلننصرف معا ، يا صديقي المسكين ، لانك ستسجن نهار الاثنين في المدرسة الكاثوليكية • لقد سمعت اباك يتحدث مع عمي » •

في برج ناكسوس الرئيسي ، الذي كان يقيم فيها لقرون خلت الفاتحون الفرنكيون Frankish ، كانت الان المدرسة الفرنسية الشهيرة التي كان يديرها قسس كاثوليكيون • لقد سعدت اليها ذات يوم مع والدي • فنظر اليها بامعان لبعض الوقت ثم هز رأسه « هنا يستطيع الولد ان يتلقى

(1) فتاة تتشبه بالصبيان وتلعب العابهم •

علوما • لكن المعلمين قسس كاثوليكيون • لياخذهم الشيطان ! ربما تحولت الى كاثوليكي ا » •

وعلى الرغم من انه لم يعد الى ذكر المدرسة بعد ذلك فقد كنت اعرف ان الفكرة كانت تنخر في رأسه وانه لا يعرف كيف يتخذ قراره • وبعد العشاء في اليوم ذاته الذي نبهتني فيه ستيليا ، اخذني والدي معه في نزهة في البستان • كان القمر قد بزغ وكل شيء كان هادئا وعطرا •

مر وقت دون ان يتكلم ، واخيرا حين حانت عودتنا الى البيت توقف وقال « ستطول الثورة في كريت • سأعود الى هناك • لا استطيع ان اترك رفاقي المسيحيين يقاتلون هناك بينما انا اتنزه في البساتين • انني ارى جدك في نومي كل يوم ، وهو يوبخني يجب علي ان اذهب • ولكن في الوقت نفسه يجب ان لا تضيع وقتك • اريدك ان تصبح رجلا » • عاد الى صمته من جديد ومشى بضع خطوات ثم توقف مرة ثانية وسألني : « هل فهمت ؟ رجل - هذا يعني ان تكون مفيدا لوطنك • من المؤسف انك ولدت للدراسة وليس للسلاح • ولكن لسوء الحظ ليس في اليد حيلة • هذا طريقك فاسلكه • اتفهم ؟ ثق نفسك لكي تساعد كريت في الحصول على حريتها • فليكن هذا هدفك • والا فلتذهب الثقافة الى الشيطان • انا لا اريدك ان تصبح معلما او راهبا او سليمان الحكيم • فليكن هذا واضحا • لقد اتخذت قراري والان عليك ان تتخذ قرارك • ان لم تستطع مساعدة كريت بالسلاح او بالحروف فالفضل ان تضطجع وتموت •

قلت : انا خائف من الآباء الكاثوليكين •

- وانا ايضا • الرجل الحقيقي يخاف لكنه يتغلب على خوفه • انني اثق بك ، فكر قليلا ثم اصلح قوله : « لا • انا اثق بك • انني اثق بالدم الذي يجري في عروfk - دم كريت • كن جاهزا الان ، وارسم شارة الصليب على نفسك ، وضم قبضتيك • ونهار الاثنين ، ان شاء الله ، سوف نذهب لتسجيلك عند الكاثوليكين •

كانت تمطر يوم بدأت ، ووالدي ، نصد نحو البرج - زخة خريفية خفيفة اعتمت الشارع • كان البحر يتهدد وراعنا • وما تزال نسمة لطيفة تسقط الاوراق عن الاشجار : كانت تسقط واحدة بعد الاخرى صفراء ورمادية تزين المرتفع المبتل • وكانت الغيوم تتسابق فوق رؤوسنا تطاردها ريح قوية لا بد انها كانت تهب في الاعالي • رفعت رأسي وحدقت نحوها بنهم وهي تركض وتتلاصق وتتفرق وبعضها يرخي حواشيه مجاهدا أن يلمس الارض • منذ طفولتي وانا أحب أن استلقي على ظهري في دارنا لمراقبة الغيوم ، وكلما مر عصفور طائر أو غراب أو سنونو أو حمامة ، أتوحد معه

حتى اني احس حرارة صدره في راحتي المفتوحة . « مارغي . اظن ان ابنك سيصبح حالما او ذا رؤيا » قالت جارتنا مدام بنلوب ذات يوم لامي « انه ينظر الى الغيوم دائما »

وأجابتها امي : « اطمئني يا بنلوب . ستاتيه الحياة وتجعله يخفض نظره » .

لكن الايام لم تأت بعد ، وفي ذلك اليوم كنت ما ازال معجبا بالغيوم وانا اصعد نحو البرج . وبغثة تعثرت وانزلقت . وامسك والدي بكتفي وكأنه يريد ان يثبتنسي :

« انس الغيوم وابق عينيك على الحجارة تحتك ان كنت لا تريد ان تسقط وتقتل نفسك » وظهرت فتاة شابة ذات نظرات ذابلة من الباب ذي القنطرة المفضي الى البيت الكبير نصف المتهم . نظرت هي الاخرى الى السماء . كانت شديدة الشحوب والنحول ولها وجه يتميز بنبل عظيم وكانت ملفعة بازار رث وهي ترتعش . علمت فيما بعد انها تنحدر من احدى العائلات الكاثوليكية المعروفة ذات العز الغابر ، وكل افرادها اما ذوق او دوقة ، فتحت ناكسوس منذ قرون وبننت هذا البرج لاقامتها - بنته على أعلى موقع في المدينة بحيث ان افرادها يستطيعون ان يطلوا ويراقبوا عامة الارثوذكس وهم يشغلون لمصلحتهم في الميناء او في السهول . الا ان هذه الاسرة قد فقدت امجادها واصبحت فقيرة جدا وقد تحولت قصورها الى دمار حتى صارت حفيدات احفادها جائعات وشاحيات ولم تكن هذه الفتيات قادرات على العثور على ازواج لان الرجال الذين من طبقتهم قد فقدوا نفوذهم ، وهم اما انهم فقدوا الرغبة في الزواج او اصبحوا عاجزين عن اعالة زوجة واطفال . اما الزواج من العامة الارثوذكسية المتواضعة ، من جهة اخرى ، فهو امر لم تكن تلك السيدات النبيلات تتنازلن لفعله . ان لديهن كبرياءهن الشامخة ابدا ذلك ان الكبرياء هي كل ما بقي لهن . نظرت الفتاة الى السماء قليلا ثم هزت رأسها وعادت الى الداخل .

انني اتذكر كل شيء . كل شيء تماما مما حدث وانا اصعد الى البرج في ذلك اليوم لدخول المدرسة الكاثوليكية . وما ازال قادرا على رؤية القطة الجالسة على العتبة تحت المطر . كانت بيضاء ببقع برتقالية . وفتاة صغيرة حافية تحمل مجمره مليئة بالفحم المشتعل وهي تركض ووجهها أحمر مشرق من الوهج . . .

« ها قد وصلنا » قال والدي . ورفع يده وقرع الباب الضخم . كانت هذه اول قفزة ، واكثرها اهمية ، في حياتي الثقافية . وانفتح مدخل سحري

داخل عقلي وقادني الى عالم مدهش . حتى الان كانت كريت واليونان هما الطبعة المحدودة التي تحتجز روحي المكافحة في داخلها . أما الان فقد اتسع العالم . وتعددت تقسيمات البشر ، وطقق صدري اليافع مجاهدا لاحتوائها كلها . قبل تلك اللحظة كنت قد تكهنت لكنني لم اكن اعرف بهذا الشكل الملموس ان العالم واسع جدا وان المعاناة والتعب هما الملازمان ورفيقا السلاح ، ليس فقط للكريتيين ، بل لكل انسان . وفوق كل شيء ، الان فقط بدأت احس بالسر العظيم : انه عن طريق الشعر يمكن تحويل هذه المعاناة كلها وهذا الجهد كله الى حلم . ولا اهمية لكمية الاستياء الزائلة الموجودة ، فان الشعر يستطيع ان يخلدها بتحويلها الى اغنية . عاطفتان او ثلاث عواطف ، فقط ، كانت تتحكم في حتى ذلك الحين : الخوف ، الكفاح التغلب على الخوف . والتوق الى الحرية . أما الان فقد اصبحت في داخلي رغبتان جديدتان هما الجمال والتعطش للعلم . صرت أريد أن اقرأ وأن اتعلم . ان ارى اراضي بعيدة وان تكون لي تجارب شخصية من المعاناة والغبطة . كان العالم اكبر من اليونان ، وآلام العالم اكبر من الامنا . والتوجه الى الحرية لم يكن امتيازا مقصورا على الكريتيين ، بل هو النضال الابدي للبشر . ولم تتلاش كريت من ذهني رغم ذلك . بل ان العالم كله قد انتشر في اعماقي ليصبح كريتا واحدة جبارة يضطهدها كافة أنواع الاتراك لكنها دائما تقفز واقفة على قدميها وتبحث عن الحرية . وبهذه الطريقة ، بتحويل العالم كله الى كريت ، استطعت منذ السنوات الاولى لنضجي ان احس بعذابات البشر كلهم والامهم .

في هذه المدرسة الفرنسية طلاب جمعوا من كافة انحاء اليونان . وبما انني كنت كريتي ، وكريت كانت في ذلك الحين تقاتل الاتراك ، اعتبرت ان من واجبي الا اشوه سمعة بلدي . كانت لدي مسؤولية أن أكون الاول في صفي . وهذه القناعة ، التي اعتقد انها لم تنبع من الكبرياء الفردية بل من الاحساس بالالتزام الوطني ، زادت من قواي . وفي وقت بسيط استطعت ان ابرز زملائي كلهم - لا . ليس أنا ، بل كريت . وهكذا مرت الايام بنشوة لم تكن معروفة لدي من قبل . رغبة ثملة في ان اتعلم واتقدم وأن اطارد الطائر الازرق الذي (اكتشفت فيما بعد) يدعى الروح .

هكذا اكتسب عقلي الجرأة حتى انني اتخذت ذات يوم قرارا طائشا بأن اكتب مقابل كل كلمة فرنسية مرادفتها اليونانية . اخذ مني هذا العمل شهورا وقد احتجت الى معونة قواميس عديدة اخرى ، وحين انتهيت اخيرا . وتمت ترجمة القاموس الفرنسي كله ، اخذته فخورا لاريه للاب لوران ، مدير المدرسة . كان قسا كاثوليكيا متعلما قليل الكلام ذا عينين رماديتين وابتسامة صفراء ولحية كبيرة نصفها ابيض ونصفها اشقر . اخذ مني القاموس وقلب

اوراقه ثم نظر الي باعجاب ووضع يده على رأسي ، كأنه يريد ان يباركني .
وقال : « ما فعلته ، ايها الكريتي الصغير ، يدل على انك ستصبح ذات
يوم انسانا هاما . انك محظوظ لانك اكتشفت طريقك بهذه السن المبكرة
العلم والبحث - هذا هو طريقك . بارك الله فيك . »

ركضت ، وانا مترع بالفخر ، الى مساعد المدير الاب ليليفر ، وهو راهب
حسن التغذية محب للنكتة ذو عينين مرحتين ، تعود ان يضحك وان يحكي
النكات الريفية . ويلعب معنا . وفي كل عطلة اسبوعية كان يأخذنا في نزهة
الى أحد بسابين المدرسة في الريف . وهناك ، بتحررنا من الاب لوران ، كنا
نتصارع ونضحك وناكل الفاكهة وتندرج على العشب ونريح انفسنا من
عناء الاسبوع .

لذلك ركضت ابحت عن الاب ليليفر لاريه انجازي . ووجدته في الباحة
يسقي صفا من ازهار الليك . اخذ القاموس وقلب صفحاته ببطء شديد
جدا وتصفحها . وكلما امعن النظر التهبت قسماته اكثر . وبغته رفع
القاموس وقذف به في وجهي . وصرخ :

« عيب عليك . هل أنت ولد ؟ أم عجوز خرف اشيب اللحية ؟ ما عمل
العجائز هذا الذي ضيعت وقتك من أجله ؟ بدل ان تضحك وتلعب وتتلصص
على الفتيات العابرات تجلس كالاھبل وترجم قواميس !! هيا انصرف
من هنا ، واغرب عن وجهي . خذها عني . انك ان اتبعته هذا الطريق فلن
ترتقي الى اي شيء - ابدا !! وستنتهي الى معلم صغير كادح بئس
بنظارتين . ان كنت كريتيا فعلا احرق هذا القاموس اللعين واجلب لي الرماد
وعندها سامنحك بركتي . فكر في الامر وتصرف . هيا من هنا !! »

ابتعدت جبلا . من منهما كان على حق ؟ وماذا علي أن أفعل ، واي
الطريقين هو الصحيح ؟ عذبني هذا السؤال سنوات وحين اكتشفت ، أخيرا ،
أي الطريقين هو الصحيح كان شعري قد شاب . ومثل حمار بوريدان ، كانت
روحي تتأرجح مترددة بين الاب لوران والاب ليليفر . كنت انظر الى القاموس
والكلمات اللاتينية المكتوبة بخط صغير جدا على الهامش بالحبر الاحمر وحين
اتذكر نصيحة الاب ليليفر كان قلبي يتمزق . لا ، لم تكن لدي الشجاعة
لاحراقه وجلب الرماد له . بعد سنوات عديدة ، حين بدأت افهم أخيرا ، القيت
به الى النار غير انني لم اجمع الرماد لان الاب ليليفر كان قد مات منذ زمن
طويل .

بعد ان وضعني والدي في المدرسة ، مباشرة ، ورآني وقد استقر مقامي
ركب قاربا ورحل سريرا الى كريتي لكي يقاتل . وذات يوم ارسل لي ملحوظة
موجزة على ورقة ملوثة بالبارود :

« انني اؤدي واجبي بقتال الاتراك . وانت تقاتل ايضا . قف بصمود ولا تدع هؤلاء الكاثوليكين يسربوا افكارا في رأسك . انهم كلاب ، مثل الاتراك تماما . انت من كريت . لا تنس ذلك . ان عقلك ليس ملكك بل هو لكريت . فاجعله متيقظا قدر ما تستطيع بحيث انك ، ذات يوم ، تستطيع ان تستخدمه لتحرير كريت . وطالما انك لا تستطيع ان تعين بالسلاح فلم لا تعين بعقلك ؟ فهو ، ايضا ، سلاح (١) ، هل تفهم ما اطلبه منك ؟ اجب بالايجاب . وهذا كل شيء لليوم وللغد والى الابد . لا تخجلني ! »

احسست بكريت كلها على كتفي . فان فشلت في تعلم دروسي جيدا ، او في فهم مسألة في الحساب ، او في ان اكون الاول في الامتحانات ، فان كريت ستخزي . لقد فقدت عبث الطفولة وعذوبتها وطيبتها . وحين كنت أرى زملائي يضحكون ويلعبون كنت اعجب بهم . لا بد انني كنت أود لو اضحك والعب ايضا لكن كريت كانت تحارب وكانت في خطر . والاضرار من هذا كله ان المعلمين والطلاب لم يعودوا ينادونني باسمي بل كانوا يدعونني بـ « الكريتي » وكان هذا تذكيرا دائما واكثر الحاحا بالتزامي .

لم يكن هناك خوف من تحولي الى كاثوليكي . ليس لانني كنت اعني اي الاديان هو الاصح بل بسبب عامل اخر ورغم انه يبدو ان لا اهمية له فانه كان مؤثرا في روعي الشابة بعمق اكبر من اي مبدأ لاهوتي . كان لدينا كل صباح قداس الزامي في المصلى الكاثوليكي ، وهو عبارة عن غرفة صغيرة عارية الجدران وسط بناء المدرسة ، شديدة الحر صيفا ، شديدة البرد شتاء وفيها تمثالان ملونان من الجص احدهما للمسيح والآخر للعدراء وكانت كميات كبيرة من ازهار اليليك توضع على المذبح في المياه ذاتها فتصبح قذرة الى درجة انني حين ادخل المصلى كل صباح كانت رائحتها تكاد تجعلني اتقيأ . واذكر انه قد اغمي علي في احدى المرات . وهكذا فان هذه الزهور اليلكية المتعفنة والكنيسة الكاثوليكية قد اتحدت في اعماقي اتحادا لا ينقسم . ومنذ ذلك الحين فان فكرة التحول الى كاثوليكي كانت تجعلني اقرف .

غير ان اللحظة جاءت (وحتى اليوم اتذكرها بخجل) حين، كنت على وشك ان اخون معتقدي . لماذا ؟ اي شيطان دفعني ؟ كم في هذا الشيطان الداخلي من الدهاء بحيث انه يكمن منتظرا وراء فضائلنا ، لابسا لبوس الفضيلة هو نفسه ؟ وهو واثق ان ساعته ستجيء ، عاجلا أم اجلا ، ودون شك .

(١) نبي الاصل موسكيت .

وبالفعل هان ساعته قد جاءت ذات يوم • وصل الكاردينال الذي يفتش على المدارس الكاثوليكية في المشرق ذات صباح قادما من روما • كان يرتدي بذلة حريرية سوداء ذات بطانة قرمزية وقلنسوة قرمزية ذات حواف عريضة، وجوارب قرمزية شفافة وفي اصبعه خاتم كبير وعليه حجر قرمزي • كان الجو من حوله مشعا وملينًا بالعبير • وفي اللحظة التي ظهر فيها ووقف امامنا ، كنا على ثقة تامة من انه وردة هائلة غريبة خرجت لتوها من الفردوس • ورفع يده النقية البيضاء البضة ، اليد التي تحمل الخاتم الذهبي ، وباركنا • واحسسنا جميعا بقوة غامضة تتغلغل فينا من قمة الرأس حتى الكعب كاننا احتسينا خمرة معتقة وصارت عقولنا ملونة بالقرمزي الغامق •

لا بد ان الاب لوران قد اخبره عني لانه فيما هو يغادرنا أشار لي أن اتبعه • ذهبنا الى غرفته وجلس على كرسي صغير •

« هل تحب ان تأتي معي ؟ » سألني بصوت بدا لي حلوا كالعسل •

- الى اين ؟ سألته مندهشا : انا كريتتي •

ضحك الكاردينال ، وأفتح صندوقا اخرج منه حبة سكاكر وضعها في فمي • كان فمه صغيرا ومدورا ومحلوفا بعناية وله شفتان سميكتان براقتان حمراوان • وكلما حرك يده فاحت في الجو رائحة الخزامى • قال :

- اعرف • اعرف • اعرف عنك كل شيء • انت كريتتي وهذا يعني انك ما عز بري • ولكن اصبر واستمع الي • سنذهب الى روما ، المدينة المقدسة • وستدخل مدرسة كبيرة لتتابع تعليمك بحيث تصبح عظيما وهاما • من يدري - ربما لبست ذات يوم قلنسوة الكاردينال ذاتها التي البسها انا ولا تنس ان واحدا من جزيرتكم ، كريتيا ، قد اصبح ذات يوم بابا - قائد المسيحية اي انه كان اكبر من امبراطور ! عندها سيكون في وسعك ان تعمل وان تحرر كريت •• هل تسمع ما اقول ؟

تمتت : « نعم • نعم » • كنت ارفع رأسي واصغي بشغف •

- في هذه اللحظة ، يا بني ، حياتك على مفترق طرق • ان قلت « نعم » نجوت • وان قلت « لا » ضعت • ما الذي ستصير اليه ان بقيت هنا ؟ ماذا يعمل ابوك ؟

- انه تاجر •

- طيب • ستصبح تاجرا انت الاخر وفي الحد الاقصى ستكون محاميا أو طبيبا • اي لا شيء • اليونان مقاطعة صغيرة • اخرج من المقاطعات يا بني • لقد حكوا لي الكثير عنك وانني اكره ان اراك تضيع •

كان قلبي يخفق بصوت مرتفع • مرة اخرى ينفتح امامي طريقان
فايهما اختار ؟ ولمن الجأ طلبا للمساعدة • سيدفعني الاب لوران في طريق
وسيدفعني الاب ليليفر في الاخر • ايهما الصحيح ؟ وماذا لو انني سألت
والدي ؟

حين تذكرت والديارتعبت • كان قد عاد لتوه من كريت ملوثا بالبارودا
وفي ذراعه جرح بليغ • لقد سككت البنادق الان • بعد هذه القرون العديدة
وهذه الدماء الغزيرة وضعت الحرية قدمها المضرجة في الارض الكريتيية •
سيصل الامير جورج اليوناني ويقدم خاتم الخطبة عربونا للوقت الذي
ستتوحد فيه كريت واليونان الى الابد •

لقد جاء والدي لرؤيتي فور عودته من كريت • ولم اعرفه في البدء •
كانت بشرته اشد سوادا من قبل • وكانت ابتسامة (أراها لأول مرة) تشع
على شفثيه « كيف تسير الامور ؟ هل حولوك؟ » ،سألني وهو يضحك • صار
لونى احمر قانيا • فوضع كفه الضخمة على رأسي « أنا امزح فقط • انني
اثق بك »

حين تذكرت والدي الان في حضرة الكاردينال لا بد ان لونى قد شحب
لان الاسقف وضع يده الممتلئة بلطف على شعري وسألني : « بم تفكر ؟ »
فتمتت : « ماذا سيقول والدي ؟ »
- ليس من الضروري ان يعرف • لا احد يجب ان يعرف • سنرحل سرا
خلال الليل • »

- « من ينكر اباه وامه لا يستطيع ان يتبعني » • هذه كلمات المسيح •
ظلت صامتا • كان وجه المسيح يذهلني بشكل لا يوصف منذ طفولتي •
كنت اتبعه في الايقونات حيث ولد ثم بلغ عامه الثاني عشر وحيث وقف في
القارب ورفع يده ليهديء البحر، ثم حين جلد وصلب وحين هتف على الصليب:
« الهى • الهى ، لم تخليت عني ؟ » وبعد ذلك حين قام ذات صباح من قبره
وصعد الى السماء وهو يمسك الراية البيضاء بيده • برؤيته كنت أجلا ايضا
واصلب وابعث • وحين كنت اقرأ الانجيل كانت الحياة تدب في الحكايات
القديمة : كانت روح الانسان تبدو همجية : وحش وسنان يشخر في نومه •
وبغثة تنفتح السماء وينزل المسيح • يقبل هذا الوحش فيتنفس الوحش
عذوبة ويستيقظ ويصبح ما كانه دائما : أميرة سامية جميلة •

« طيب » قلت للكاردينال وأنا أقبل يده « سأهجر أبى وأمي • »
- « في هذه اللحظة ، يا ابني ، رأيت الروح القدس ينزل على رأسك •
قد نجوت • » قال ذلك ومد الخاتم الكريم الذي كان يلبسه لكي أقبّله •

كان علينا أن نرحل بعد ثلاثة أيام • وكنت أريد أن أرى والدي لأودعهما
ضمنيا دون أن ابوح لهما بالسِر • لكن الكاردينال رفض • وقال : « الانسان
الحقيقي هو الذي يغادر احبائه دون وداع » • ولرغبتني في ان أكون انسانا
حقيقيا جعلت قلبي يقسو وظللت صامتا • ألم أقرأ في الاساطير مرارا ان
الزاهدين كانوا يفعلون ذلك حين يرحلون الى الصحراء ؟ لم يكونوا ينظرون
الى الوراء لرؤية امهاتهم او يلوحون تلويحة وداع • وانا سأفعل مثلهم •

أعطيت العديد من الكتب الثقيلة المغلفة بالذهب • قرأت عن روما
الخالدة وعن الاب المقدس ، البابا • سكرت وانا اتفرج على الصور : القديس
بطرس والفاتيكان والرسوم والتماثيل •

كان كل شيء يسير على ما يرام • وكنت ، في خيالي ، قد رحلت
وعبرت البحر ووصلت الى المدينة المقدسة وانتهيت دراستي ، كنت ارتدي
قلنسوة قرمزية كبيرة ذات اطار حريري وحين نظرت الى الاصبع الوسطي
في كفي اليمنى رأيت الخاتم الكريم الغامض يلمع في الظلام ••• عند هذا
الحد تحرك القدر فجأة ومد يده فسد طريقي • همس احدهم في اذن والدي :
« الكاثوليك يأخذون ابنك » حدث هذا ليلا • وقفز الكريتي الضاري من
سريره وأيقظ عددا من البحارة والصيادين الذين كان يعرفهم • اشعلوا
المشاعل واخذوا معهم صفيحة من الكازولين بالاضافة الى المخول والمعاول
واستلموا الطريق صعودا الى البرج ، وهناك راحوا يدقون باب المدرسة
وهم يصرخون بأنهم سيحرقون المكان • ذعر الرهبان • واخرج الاب لوران
رأسه من النافذة ، وهو يضع قلنسوة النوم ، وصرخ وهدد بنصف فرنسية
ونصف يونانية •

وصرخ والدي وهو يلوح بالمشعل : « ابني • ابني • ايتها الكلاب
البابوية • والا فالنار والفأس ا » •

أيقظوني • ولبست بأسرع ما استطعت ثم انزلوني من النافذة في
سلة فسقطت بين ذراعي والدي • أمسكني من ياقتي ودقنني بالارض ثلاث
مرات ثم التفت الى مرافقيه : « اطفئوا المشاعل • ولنذهب » •

مرت ثلاثة ايام قبل ان يكلمني والدي لكنه اهتم بأن أستحم وأرتدي
ملابس نظيفة وان يزيث شعري بزيت من قنديل العذراء • وجلب القس
ليرش علي الماء المقدس ويقرأ علي تعويذة ليخلصني من الدنس الكاثوليكي •
وبعدها التفت الي وغمغم بين اسنانه « يهوذا ا » ثم بصق ثلاث مرات
في الهواء •

لكن الله تطف فجات الاخبار الطيبة بعد اسابيع قليلة : الامير جورج الهيليني في طريقه الى كريت لاستلامها . قفز والدي ثم استلقى على الارض ثلاث مرات لكي يلمس التراب ورسم الصليب على نفسه وتوجه من فورهِ الى الحلاق . لم يسبق له ان وضع آلة حلاقة على خده بل كان قد ترك لحيته تطول وتنزل على صدره لانه كان في حداد ، حداد على كريت ، المستعبدة . وكان هذا سببا في انه لم يكن يضحك وانه كان يغضب كلما رأى مسيحيا يضحك . لقد انحدر الضحك في ذهنه الى حيث اصبح تصرفا غير وطني . اما الان ، ولله الحمد ، فقد تحررت كريت . ولذلك توجه الى الحلاق مباشرة وحين عاد الى البيت كان وجهه الحليق متجدد الشباب مضيئا وامتلأ البيت برائحة العطر الذي سكبهُ الحلاق على شعره .

التفت الى أمي و اشار الي وهو يضحك . « كريت قد تحررت .
وسننسى الماضي . فدعينا نسامح يهوذا ! »

بعد ايام رحلنا الى كريت . اية رحلة نشوى بالنصر وكيف اخترقت الشمس في ذلك اليوم الخريفي اعماق قلوبنا . ولكن . آه . كم طال الوقت والسفينة تعبر بحر ايجة . وجاء الفجر ليجد والدي منحنيا على مقدم السفينة وهو ينظر الى الجنوب . ولو ان عيون الناس تستطيع ان تزيح الجبال لرأينا كريت مثل حراقة (1) تنحدر علينا .

(1) سفينة حربية شراعية .

١٢ - الحرية

ما تزال عيناي ، حتى بعد مرور سنوات كثيرة ، تفيضان بالدموع حين أتذكر ذلك اليوم : اليوم الذي خطا فيه الأمير جورج الهليني ، اي الحرية ، على ارض كريت . ان نضال الجنس البشري ، فعلا ، سر مقدس متواصل . اذ ما هذه القشرة الارضية - الزائفة القلقة المتصدعة - التي يدب فوقها البشر ، اولئك المشاعبون المتلفعون بالوحل والدم المتخثر ، بحثا عن حريتهم ؟ وكم هو مؤثر ان ترى اليونانيين في الطبيعة - اليونانيين ا - يتسلقون ذلك المرتقى اللامتناهي ويشقون الطريق اما بالكلامس (١) والرمح ، او بسترات الافزون والموسكيت - (٢) ، او بسر او يلهم الكريتية .

أتذكر الكابتن الكريتي ، ذلك الراعي الذي يعبق بروث الماعز والفحول . كان قد عاد لتوه من الحرب حيث قاتل كالا سود . صدف ان كنت في حظيرته ، عصر احد الايام ، حين تلقى ثناء مطبوعا على رق بحروف كبيرة حمراء وسوداء ، من « الاخوة الكريتية » في اثينا . كانت تهنئة على أعماله الباسلة تصفه بالبطل .

فسأل المراسل محتدا : « ما هذه الورقة ؟ هل تناول ماعزي على حقل احدهم من جديد ؟ هل علي ان ادفع تعويضا عن الاضرار ؟ » .
وفتح المراسل الثناء بفرح وقرأه بصوت مرتفع .
- قلبه بلغة عادية لكي أفهم . ماذا يعني ؟

● يعني انك بطل . ان وطنك يرسل لك هذا الثناء وتستطيع ان تحفظه لاولادك ومد الكابتن يده الضخمة : « هاته » . وأمسك بالرق ومزقه

(١) معطف تصير يطرح على الكتف كان يرتديه جنود الاغريق وفرسانهم .

اربا ثم ألقاه في النار تحت وعاء الحليب . « رح وقل لهم انني لم احارب لكي أتلقى قطعة من الورق . لقد قاتلت لكي اصنع تاريخا » .

صنع التاريخ ! لقد أحس الراعي الجاهل بدقة بما كان يريد ان يقوله . لكنه لم يعرف كيف يقوله . او ربما انه قاله بأفضل طريقة ممكنة ؟ .

حزن المراسل لرؤية الرق الممزق في النار . ونهض الكابتن . ملأ وعاء صغيرا بالحليب وقسم نصف قرص من الجبن وجلب رغيفين من الشعير ثم التفت الى الاخر وقال : « تعال يا اخي لا تغضب . كل واشرب وليأخذ الشيطان الثناعات . قل لهم - أسمع ؟ - قل لهم انني لا اريد اي جزاء . لقد حاربت لانني كنت اريد ذلك . قل لهم ذلك . . افعل ما اقوله لك : كل ! » .

كان في حياتي يومان ساميان . اولهما يوم وطىء الامير جورج ارض كريت والثاني في موسكو بعد ذلك بسنوات عديدة - الاحتفال بالذكرى العاشرة للثورة الروسية . في هذين اليومين احسست ان اجزاء البشر - الاجساد والعقول والارواح - قابلة للدمار وان الانسانية يمكن ان تعود من جديد ، بعد تجوال دموي رهيب ، الى وحدتها البلائية المقدسة . في حالة كهذه لا يكون هناك اشياء مثل « انا » و « وانت » و « هو » . كل شيء متحد ، وهذا الاتحاد نشوة صوفية عميقة يفقد الموت فيها منجله ولا يعود موجودا . نحن نموت ، فرادى ، واحدا بعد الاخر لكننا ، مجتمعين ، خالدون . كالابناء المسرفين ، بعد الكثير من الجوع والظما والعصيان ، نمد أذرعنا ونعانق ابوينا : الارض والسماء .

بدموع فائضة حفرت طريقها بين لعاهم الحربية ، قذفت القباطنة الكريتيون بمناديلهم في الهواء ، ورفعت الامهات ابناءهن عاليا لكي يتمكنوا من رؤية العملاق الاشقر ، هذا الامير الاسطوري الذي سمع الام كريت منذ قرون ، فامتطى جواده الابيض مثل القديس جورج ، وانطلق ليحرر الجزيرة . كانت العيون الكريتيية بيضاء زجاجية بعد ترقبها قرونا على البحر . هذا هو ! لا . لم يظهر بعد لكنه قد يظهر في اية لحظة . . . احيانا يكون ما يرونه غيمة ربيعية او شراعا ابيض خدعهم ، و احيانا في منتصف الليل يكون حلما . لكن الغيمة تتبعثر والشراع يغب . ويتبخر الحلم . ومرة اخرى يثبت الكريتيون عيونهم شمالا على اليونان على موسكوفي على الاله القاسي بطيء الحركة .

والان ، انظروا . زلزلت كريت بأكملها ، وانفتحت قبورها واندفع الصوت من قمة بسيلوريتي « انه أت ، لقد وصل ، تطلعوا اليه » . وتدرج العجايز بجراحهم العميقة ومسدساتهم الفضية من الجبال ، وجاء الشبان

بخناجرهم ذات القبضات السوداء ورباباتهم الرنانة ، وقرعت الاجراس من
الاجراج المرتعشة . وزينت المدينة في كل مكان بسعف النخيل وأغصان
الريحان ، ووقف القديس جورج بشعره الجميل على محفة مكللة والبحر
الكريتي كله يتلأأ وراء كتفيه .

رقص الكريتيون وغنوا في العانات : شربوا وعزفوا على الربابات
لكنهم لم يرتاحوا . ولعجزهم عن التواؤم اكثر من ذلك داخل اجسادهم
أمسكوا بالسكاكين وراحوا يطعنون انفسهم في الاذرع والافخاذ لكي يتدفق
الدم ويرتاحوا . وفي الكنيسة وقف المطران بيدين مرفوعتين تحت القبة
وهدق الى البانتوكريتر Pantocrator كان يريد ان يعظ لكن حنجرته
تحشرجت . فتح شفثيه وصاح : « المسيح قام يا ابنائي » ، ولم يستطع
ان يقول شيئا اخر . « حقا قام ا » وتردد الصوت من كل صدر واهتزت
الشمعدانات العظيمة في الكاتدرائية كأنما بتأثير هزة أرضية .

كنت صغيرا وساذجا في ذلك الحين : ولم تتلاش النشوة المقدسة في
داخلي حتى مرور وقت طويل - وربما لم تتناقص الى اليوم . فحتى الان ،
في اعماق لحظات سعادتي - حين ارى البحر او السماء المليئة بالنجوم او
شجرة لوز مزهرة او حين استعيد تجربتي الاولى مع الحب - فان التاسع من
كانون اول ١٨٩٨ ، اليوم الذي وطئ فيه امير اليونان ، الذي وضعت كريت
ثقتها به ، التراب الكريتي ، يسطع في اعماقي ذون توقف ، وتترين اعماق
القلب بالغار والرياحين مثل كريت كلها في ذلك اليوم .

اخذني والذي من يدي بعد الظهر بقليل بينما كانت ميغالو كاسترو ما
تزال تزار مغتبطة . ونحن ندوس الرياحين والغار اجتزنا الشارع الرئيسي
بطوله ثم مررنا بالبوابة الحصينة وانطلقنا الى الحقول . كان الفصل شتاء ،
لكن النهار كان لطيفا ودافئا وكانت شجرة لوز وراء السياج قد تفتحت عن
اولى زهورها . وبدأت الحقول تخضر ، مخدوعة بحلاوة الطقس ، بينما من
بعيد على يسارنا كانت جبال سيلينا تتلامع بذرى مغطاة بالثلج . وعلى
الرغم من ان الدوالي كانت ما تزال اغصانا مشدبة فان زهرة اللوز ، المتفتحة
ببهاء في الطبيعة ، كانت قد بدأت تعلن قدوم الربيع ، وان الاغصان المشدبة
سوف تتفتح مرة ثانية لتحرر العناقيد البيضاء والسوداء من داخلها .

مر بنا رجل ضخم محمل بأغصان الغار . وحين رأى والذي توقف وهتف :
« المسيح قام يا كابتن ميخائيل ا » .
فأجاب والذي وهو يضع يده على قلبه « كريت قامت ا » .
وتابعنا طريقنا . كان والذي على عجل وكان علي ان اركض
للحاق به .

سألته وانا ألتقط أنفاسي : « الى اين نذهب يا ابي ؟ »
- لنرى جددك • امش •

وصلنا الى المقبرة • دفع والدي البوابة وفتحها • فوق البوابة رسمت
جمجمة فوق عظمين متقاطعين يشكلان حرف X الحرف الاول من الكلمة
اليونانية - المسيح - الذي قام من الموت • تقدمنا يمينا تحت اشجار السرو ،
ونحن ندوس القبور الواطئة ذات الصلبان المكسورة والتي لا قناديل عليها •
كنع خائفا من الموتى فتمسكت بسترة والدي ولحقت به وانا اتعثر •

وقف والدي قرب احد القبور الواطئة - كومة صغيرة من التراب وعليها
صليب خشبي كان الاسم ممحوا بفعل الزمن • ازاح منديله ونزل بوجهه على
الارض • نبش التراب بأظافره وفتح كوة صغيرة على هيئة بوق • ادخل
فمه فيها الى اعماق ما استطاع وصرخ ثلاث مرات : « ابي • لقد جاء ابي
لقد جاء ابي لقد جاء ا » •

وارتفع صوته اكثر فأكثر حتى تحول الى خوار • ثم تناول زجاجة خمر
صغيرة من جيبه وسكبها قطرة بعد قطرة في الفتحة وهو ينتظر كل قطرة ان
تنزل وان تشربها الارض ثم قفز واقفا ورسم شارة الصليب على نفسه
ونظر الي • كانت عيناه تلتمعان • سألتني : « هل سمعت ؟ » • كان صوته
أجش من الانفعال : « هل سمعت ؟ » •

ظلت صامتا اذ انني لم أسمع شيئا •
وقال والدي غاضبا : « ألم تسمع ؟ لقد طقطقت عظامه » •



كلما تذكرت ذلك اليوم أشكر الله على انه سمح بولادتي • واشكره
على انه سمح بولادتي كريتيا وفي وقت استطعت فيه ان أرى ، بعيني ،
الحرية وهي تسير فوق الغار وتصعد من بوابة الميناء الى مذبح القديس
ميناس • كم هو مخجل ان عيني الانسان من طين فلا تستطيعان اكتنايه
اللامرئي • في ذلك اليوم كنت سأرى القديس ميناس وهو يقفز من ايقونته
ويقف بباب الكنيسة ثم يمتطي جواده ، والدموع تنهمر على خديه اللذين
لوحتهما الشمس ولحيته البيضاء وهو ينتظر امير اليونان •

بعد ان تم كبح جماح الغبطة ، وبعد ان جاءت ريح جنوبية قوية بعد
ايام قلائل وكنت ، كما اذكر ، أوراق الغار من الشوارع ، وبعد ان هطل
المطر المنعش وغسل الخمر المهذور عن الارصفة ، عادت الحياة الى تعقلها
من جديد ، وانكمشت عقولنا عائدة داخل حدودها : أزال الحلاقون اللحي عن
اراضي حوانيتهم وصارت وجوه المسيحيين الحليقة لمساء ولامعة • وبين

الحين والحين ظلت بعض الصرخات المتأخرة تصعد بخشونة من الحانات .
اما انا فكنت اجوب الازقة مبلا بالمطر وكلما رأيت الشوارع امامي خالية
صرخت وزعقت لكي ارتاح . وكانت آلاف من الاجيال في داخلي تصرخ وتزعق
لترتاح .

لم يسبق لي ان احسست بهذا العمق ان اسلافنا الراحلين لم يموتوا ،
وانهم في اللحظات الحاسمة يصرخون ويقفزون على اقدامهم ويستولون على
عيوننا وأيدينا وعقولنا . وخلال تلك الايام كان كل اجدادي الذين قتلهم الاتراك
وكل جداتي اللواتي عذبهن الاتراك بتمزيق صدورهن ، يصرخون
مفتبين كلما خلا الشارع وحيث لا يراني احد . كنت سعيدا لانه كان لدي
حدس ، لم اكن استطيع التعبير عنه بوضوح كما انا الان ، بأنني ، انا
ايضا ، سوف اعيش وسوف استطيع ان افكر وان ارى حتى بعد أن اموت .
كل ما كان مطلوبا هو الوجود المستمر لقلوب تتذكرني .



من خلال ذلك المدخل ، تلك البوابة المزينة بالغار وبعضام الاسلاف
دخلت سنوات نضجي . ولم أعد طفلا .

١٣ - متاعب النضوج

قضيت سنوات نضجي تكتنفي المتاعب المألوفة للشباب . استيقظ في داخلي وحشان هائلان : ذلك النمر الذي اسمه اللحم ، وذلك النسر النهم الذي يلتهم احشاء الانسان وكلما اكل ازداد جوعه - العقل .

حين كنت ما ازال صغيرا جدا ، لم اتجاوز الثالثة او الرابعة من العمر ، كان يهيمن علي فضول عنيف لعل لغز الولادة . سألت امي وخالاتي : « كيف يولد الاطفال ؟ وكيف يدخلون البيوت بغتة ؟ من اين يأتون ؟ » وخبنت انه لا بد من وجود بلد اخضر ، ربما الفردوس ، حيث ينتشر الاطفال مثل الخشخاش (١) . وبين حين واخر يدخل اب الى الفردوس ويلتقط واحدا ويجلبه الى البيت . قلبت هذه الفكرة في رأسي مرارا وتكرارا دون ان اثق بها كثيرا . اما امي وخالاتي فاما انهن لم يعرفن كيف يجبنني واما ان يحكين لي خرافات ، لكنني كنت افهم اكثر مما ظنن ، وأكثر مما ظننت انا نفسي ، ولم اصدق حكاياتهن .

وذات يوم ، في تلك الفترة ذاتها ، ماتت جارتنا مدام كاتينا رغم انها كانت ما تزال شابة . وحين رأيتها تخرج من بيتها ممددة على ظهرها ووراءها مجموعة كبيرة من الناس تحلوا بسرعة الى زقاق واختفوا ، تملكني الرعب . « لماذا يأخذونها ؟ » سألت « الى أين يجلبونها ؟ » وقيل لي : « لقد ماتت » . « ماتت ؟ ما معنى هذا ؟ » لكن احدا لم يقدم لي تفسيراً . جثمت في الزاوية وراء الارايكة وغطيت وجهي بوسادة ثم رحمت ابكي ، لا حزنا او خوفا ، بل لانني لم افهم . وحين مات معلمنا كراساكيس بعد

(١) نبات مخدر يصنع منه الاميون او يزرع للزينة .

سنوات لم يكن الموت يدهشني في ذلك الحين . أحسست انني فهمت ما هو ولم اسأل .

• هذان الامران : الولادة والموت ، كانا اول الالغاز التي اقلقت روحي .
• وظللت اضرب بقبضتي الصغيرة على هذين البابين المغلقين لافتحهما .
• ورأيت انني لا استطيع ان اتوقع العون من احد . كلهم اما ان يظلوا صامتين
• واما ان يضحكوا مني . كل ما كان علي ان اتعلمه يجب ان اتعلمه بنفسني .

بالتدريج بدأ اللحم يستيقظ ايضا . ومملكتي ، التي كانت مؤلفة
من الغيوم والهواجس ، بدأت تتصلب . كنت التفت حديث الشارع ، ورغم
انني لم أكن افهم ، بوضوح ، ما كانت تعنيه هذه التعابير التي النقطة ،
فان بعضها كان يبدو مليئا بالسر وبالمادة المحرمة . وهكذا كنت ابعثرها
واثبتها في عقلي واعيدها مرة بعد اخرى - لنفسني دائما - لكي لا انسائها .
ولكن احدها ، ذات يوم ، افلتت مني ، تلفظت به بصوت مرتفع امام والدتي ،
فأجفلت خائفة . وصرخت :

● من علمك هذه الكلمة البذيئة ؟ لا تقلها بعد الان .

• ثم ذهبت الى المطبخ وجلبت بعض الفلفل المطحون وفركت فمي به .
• بدأت ازعق . التهاب فمي ولكن بين لحظة واخرى ، نكايه بها ، كنت اقسام
سرا انني سوف اتابع التلفظ بهذه الكلمات ولو بيني وبين نفسي ذلك انني
احسنت بمتعة كبيرة من لفظها .

ومنذ ذلك الحين صارت كل كلمة ممنوعة تحرق شفتي وتفوح منها رائحة
الفلفل - وحتى الان بعد سنوات كثيرة وخطايا كثيرة .



تلك الايام الموهلة في القدم في كريت كان البلوغ يتأخر كثيرا . فللاحمرار
خجلا في الاعماق كان البلوغ يجهد ان يتخفى وراء مختلف انواع الاقنعة .
• وأول هذه الاقنعة ، بالنسبة لي ، كان الصداقة ، عاطفة نحو زميل مدرسة
غير متميز ، والحقيقة انه كان اقل زملائي تميزا . ولد صغير وبدين ومقوس
الساقين بجسد قوي وثقيل دون اية ذرة من الفضول العقلي . كنا نتبادل
يوميا رسائل لاهبة . وان مر يوم واحد دون ان أتلقى منه رسالة كنت احس
بالتأنيب واحيانا ابكي . وتعودت ان اتسكع حول بيته واختلس النظر اليه
ويخفق قلبي كلما رأيته يظهر . لقد استيقظ لحمي الا انه لم يعرف بعد
الملامح التي سيعطيها لرغباته ولم يكن يعرف بعد بشكل جيد ما يميز
الذكر من الانثى . اضافة الى ان الترافق مع ولد كان اقل خطورة بكثير من

الترافق مع فتاة وأكثر منطقية • وكلما واجهت امرأة كنت احس بنفور غريب ممزوج بالخوف • واذا هبت الريح ورفعت طرف ثوبها قليلا كنت اجول وجهي عنها فورا وانا احمر من الخجل والسخط •

وذات يوم - لا بد ان الوقت كان ظهرا لان الشمس كانت لاهية - كنت اسير في زقاق ضيق ومظلل متجهه الى البيت • وبغته ظهرت امرأة تركية في الجانب الاخر من الشارع • وحين مرت امامي فتحت قميصها قليلا واطهرت نهديها العاريين • وخارت ركبتاي تحتي • وفيما انا اجر خطواتي نحو البيت اتكأت على الحوض وتقيأت •

بعد سنوات عديدة عثرت على رسائل صديقي في درج مهمل فحفت • يا الهي اية حماسة وأي هراء • دون ارادة مني ودون وعي للمسألة كان هذا الزميل الإليف المتشكل بجلافة قد اصبح قناعا يخفي النساء عني عددا من السنوات • ولا شك انني كنت الشيء ذاته بالنسبة له مؤخراً ، قليلا ، اللحظة الحاسمة التي سيسقط فيها في فخ رهيب لامرأة • وعلمت انه قد سقط صدفة - سقط وتلاشي •

وذات صيف خلال العطلة ، شكلت وهذا الصديق بالاضافة الى زميل آخر : فتى مزوم الشفتين بعينين خضراوين مزرقتين وأطراف دقيقة ، « جماعة صداقة » جديدة • كنا نعقد اجتماعات سرية ، ونتبادل الأيمان ونوقع على قائمة من القوانين ، وننذر حياتنا لهذا الهدف : ان نشن حربا عنيدة ضد الزيف والعبودية والظلم لا ينتهي الا بالموت • كان العالم يبدو لنا زائفا وظالما ومضللا • والتزمنا بانقاذه - نحن الثلاثة • عزلنا أنفسنا عن زملائنا الاخرين ورحنا نتجول معا • رسمنا خططا لتحقيق هدفنا وتوزعنا قطاعات الحرب • كان المفروض انني سأكتب تمثيلات ، وصديقي سيعمل ممثلا ويقدمها اما الثالث ، الذي كان موبوءا بالرياضيات ، فسيدرس الهندسة ويخترع اختراعا عظيما ليزيد من ثروة « الجماعة » ويمكننا من مساعدة الفقراء والمضطهدين •

وفي الوقت ذاته ، والى ان تحين تلك اللحظة العظيمة ، كنا نبذل ما في وسعنا للبقاء ملتزمين بأيماننا • لم نكن نكذب وكنا نضرب كل الاولاد الاتراك الذين نصادفهم في الازقة النائبة • واستبدلنا ياقاتنا وربطاتنا بقمصان داخلية مخططة بالازرق والابيض ، ألوان العلم اليوناني •

في الميناء ، مساء احد ايام الشتاء ، لمحنا عامل تحميل تركيا عجوزا منزويا في زاوية وهو يرتجف • كان الظلام قد هبط ولم يكن احد يرانا • خلع احدنا قميصه الداخلي ، والاخر قميصه الخارجي والثالث صدرته •

واعطيناها للرجل . كما اننا كنا نريد ان نعانقه غير اننا لم نجرؤ . ثم مضينا
مزعجين وخجلين لاننا لم نؤد واجبنا كاملا .

اقترح صديقي : « فلنرجع لنجده » .

- عظيم . فلنذهب .

رجعنا راكضين وبحثنا عن الحمال العجوز بغية معانقته لكنه كان قد
ذهب .

وفي يوم اخر سمعنا ان محاميا كاستريا شهيرا قد خطب صبية ثرية ،
وكان الزواج سيتم يوم الاحد . وفي الوقت ذاته وصلت سيدة اخرى من
اثينا . كانت فقيرة لكنها جميلة جدا . وكانت حبيبة المحامي ايام دراسته
في الجامعة وقد وعداها بالزواج . ما ان سمعت بهذه الفضيحة حتى دعوت
اعضاء « جماعة الصداقة » الى اجتماع . اجتمعنا ، نحن الثلاثة ، في غرفتي
ونحن نغلي غضبا . وبناء على قوانين جمعيتنا وجدنا انه من المستحيل ان
نتساهل مع ظلم من هذا النوع . وبعد نقاش ساعات حول الاجراءات التي
سنخذها وصلنا اخيرا الى قرار : ثلاثتنا سنقدم أنفسنا امام المطران
وسنشجب مقترف هذا الالم . وبالإضافة الى ذلك وجهنا رسالة الى المحامي
بتوقيع « جماعة الصداقة » نهدده فيها انه ان لم يتزوج دوروثي (كان هذا
هو اسم الاثينية) فسيذفع ثمن ذلك امام الله وأمامنا .

مرتدين أجمل ملابس الاحد قدمنا انفسنا للمطران ، كان عجوزا ضعيفا
مصدورا لكنه كان كتوما كما يليق به . وعلى الرغم من ان جهد الكلام كان
يجعله يشهق كي يتنفس فان عينيه توهجتا كالجمر . كانت الايقونة المعلقة
فوق مقعده تحمل صورة مسيح متورد الوجنتين حسن التغذية ذا شعر
مفروق . وكانت صورة منقوشة في الحجر كبيرة تمثل القديسة صوفيا معلقة
على الجدار المقابل .

سألنا : « ما الذي يدور في رؤوسكم يا اولاد؟ » وهو يتطلع الينا مدهوشا .
« ظلم كبير يا محترم » ثلاثتنا رحنا نصرخ لاهتين بصوت واحد لكي
نتشجع « ظلم كبير يحدث » .

سئل المطران وبصق في منديله وقال بلهجة ساخرة : « ظلم كبير ؟ وهل
هذا من شأنكم ؟ انتم تلاميذ . اليس كذلك ؟ يجب ان تنتبهوا لدروسكم » .
« يا محترم . . . » بدأ صديقي الذي كان افضل خطيب في المجموعة ،
ثم حكى الفضيحة المعروفة بأكملها . وختم كلامه بقوله : « لن نستطيع النوم
ولن نستطيع الانتباه لدروسنا يا محترم ما لم تتم ازالة هذا الظلم . المحامي
يجب ان يتزوج دوروثي » .

سعل المطران ثانية ولبس نظارتيه وتأملنا طويلا . بدا لنا ان حزنا غريبا قد ارتسم على وجهه . وانتظرنا ، نحن الثلاثة ، بالأم . واخيرا فتح شفتيه وقال : « انتم صغار . ما تزالون اطفالا ولا ادري ما اذا كان الله سيمد في عمري لأرى كيف ستنظرون الى الظالم بعد خمسة عشر او عشرين عاما » .

ثم صمت قليلا وبعدها تمتم وكأنه يحدث نفسه « بهذه الطريقة بدأنا كلنا » .

وعلقت على هذه النقطة وقد رأيت انه يغير الموضوع : « يا محترم . ما الذي علينا ان نفعله لنحول دون وقوع هذا الظلم ؟ قدنا . حتى لو طلبت الينا ان نلقي انفسنا في فرن مضطرم فانني وصديقي سنفعل ذلك طالما ان هذا ينصر العدل » .

نهض المطران . وقال وهو يناولنا يده لنقبلها : « اذهبوا الان ومعكم بركاتي . لقد اديتم واجبكم . وهذا يكفي . الباقي علي » .

انصرفنا كاسعد ما نكون . وهتف صديقي : « انجاز عظيم يا جماعة الصداقة » . وهو يلف بذراعيه العضو الثالث وانا ، وكنا نسير على جانبيه .

ذلك الاحد تزوج المحامي الصبية الثرية . وعلمنا فيما بعد ان المطران قد حكى عن زيارتنا وسخطنا لاصدقائه كلهم بحديث ممزوج بالضحك .



قرأنا الروايات التي وقعت بين ايدينا كلها . والتهمت عقولنا . وتلاشت الحدود بين الواقع والخيال وبين الحقيقة والشعر . وبدا لنا ان روح الانسان قادرة على الالتزام بكل شيء وانجاز كل شيء .

ولكن كلما احسست ان عقلي يتفتح ويزيح حدود الحقيقة ، احسست ان قلبي يمتلئ ويفيض بالالم . كانت الحياة تبدو لي ضاغطة بشدة . ولعجزي عن التلاؤم معها صرت اتوق للموت . هذا هو الشيء الوحيد الذي بدا لي بلا حدود وبالتالي فهو قادر على احتوائي . وذات يوم ، اذكر انه كان يوما مشمسا واحسست ان جسدي معافى ومرتاح اقترحت على صديقي ان نقتل انفسنا . كنت قد كتبت رسالة مليئة باليأس ، نوعا من الوصية ودعت فيها العالم . لكن صديقي رفض ولم تكن لدي الرغبة في الرحيل بمفردي .

هيمن علي هذا الالم غير المحدد وغير المفهوم حتى جاء يوم أصبح فيه

صديقي لا يحتمل بالنسبة لي . صرت اخرج وحيدا في المساء الباكر للتمشي
قرب الجدران الفينيسية المطلة على الامواج .

كم الطقس رائع اوتيا له من نسيم يجري منعش ا والصبايا اللواتي
يتمشين بأحمرطتهن الحريرية المتدلية من شعورهن المنسابة ، والتركيات
الصفيرات الحفايا ينادين لبيع الياسمين والبزر المحمص Passatempo
باصوات فتيات لطيفات ، وباربالايس يرتب الموائد والكراسي في المقهى
فوق البحر حيث يستطيع الرجال المحترمون ان يجيئوا مع زوجاتهم ،
والمخطوبون مع خطيباتهم ، لطلب القهوة وشراب اللوز (1) Orgeat
ومعلقة من المربي ، وهم في اتم راحة وهناء يرقبون مغيب الشمس .

لكنني لم اكن ارى شيئا - لا البحر الواسع الهاديء ولا القمة البهية
لجبل اغيا بيلاغيا البعيد ولا سترومبولاس ، الجبل الهرمي الذي فيه
(كنيسة المصلوب) ، كالبليضة البيضاء الصغيرة في قمته . ولا الشبان مع
خطيباتهم ، كانت عيناى غائمتين بالدمع ، دمع لا علاقة له بأي حزن
شخصي ، لان روعي كانت مهتاجة بالسرين الذين افصح لنا عنهما معلم
الفيزياء ذلك العام ، واظن ان الجروح التي اوقعها قد قرحت منذ ذلك الحين .

كان السر الاول ، السر الرهيب بحق ، هو ان الارض ، على عكس ما
كنا نعتقد ، ليست مركز الكون ، فالشمس والسماوات المليئة بالنجوم لا
تدور مذعنة حول الارض . فكوكبنا ليس شيئا . انه مجرد نجم صغير تافه
ملقى دون اكتراث في المجرة ، وهو يدور حول الشمس بعبودية . ان التاج
الملكي قد سقط عن رأس الارض ، أمنا .

هيمن علي الخزي والمرارة . فنحن ، مع امنا ، قد سقطنا من مكاننا
المتصدر في السماء . بمعنى اخر ان ارضنا لا تقف كسيدة ثابتة وسط
السماوات ، والنجوم تحوم حولها باجلال . بل هي التي تجول وسط اللهب
العظيم في الهيولى وضيفة ومطاردة الى الابد . فالى اين تذهب ؟ الى حيث
تقاد ، مشدودة الى سيدها ، الشمس (2) ، وتتبعه . ونحن ايضا مشدودون .
نحن ، ايضا ، عبيد . ونحن ايضا نتبع . كذلك الشمس : هو الاخر مشدود
ويتبع . يتبع من ؟

باختصار ، اية خرافة كان معلمونا ، دون حياء ، يهذرون بها حتى

(1) شراب غير مسكر .

(2) الشمس مذكر .

الان - ان الله قد خلق الشمس والقمر زينة للارض وانه علق السماء ذات النجوم فوقنا كمشكل يمنحنا الضوء .

كان هذا الجرح الاول . اما الثاني فهو ان الانسان ليس الاثير عند الله ، وليس مخلوقه المفضل . فالله لم ينفخ في منخريه نفس الحياة ، ولم يعطه الروح الخالدة . انه ، مثل بقية المخلوقات ، حلقة في السلسلة اللامتناهية من الحيوانات ، هو حفيد او حفيد احفاد القرد . فان انت قشطت قناعنا قليلا ، ان قشطت روحنا قليلا ، ستجد تحتها جدتنا القردة .

كان سخطي ومرارتي لا يحتملان وبدأت اقوم بمشاوير وحدي على الشاطيء او عبر الحقول ، اسير فيها بسرعة لكي اتعب نفسي واحاول ان انسى . ولكن كيف لي ان انسى ؟ كنت اسير واسير حاسر الرأس وقميصي مفتوح الصدر ذلك انني كنت اختنق . لم خدعنا طوال تلك السنوات ؟ كنت اسأل نفسي وانا اسير . ولم اقيمت العروش الملكية للبشر ولانما الارض ثم لتسحب من تحتنا بعد ذلك ؟ اكان هذا يعني ان الارض لا قيمة لها واننا نحن البشر لا قيمة لنا وان يوما سيأتي سوف نتلاشى فيه كلنا ؟ لا . لا . كنت اصرح لنفسي ، انا ارفض قبول هذه الفكرة . يجب ان ندق باب مصيرنا وندقه الى ان يفتح ، وتتم نجاتنا .

ولعجزي عن تحمل الامر اكثر من ذلك بحثت ذات مساء عن استاذ الفيزياء الذي افضى لنا بهذه الاسرار . ذهبت الى بيته . كان ذا ملامح مشتمزة ولا يتحدث الا بقدر ، ولكن بطريقة جارحة ولاذعة دائما . كان فطنا دائما وحاقدا دائما بعينين باردتين وشفيتين مطبقتين مليئتين بالسخرية . وكان بجبهته الضيقة وشعره الذي يكاد ان يصل الى حاجبيه شبيهها ، فعلا ، بالقرد - بقرد مريض . وجدته متمددا في كرسي مخلع وهو يقرأ . نظر الي وبدا انه قد فهم مشكلتي ذلك انه قابلني بابتسامة ساخرة . وسأل :

« فيم هذه الزيارة ؟ لا بد ان لديك امرا هاما في رأسك ؟ »

فقلت لاهنا : « اعذرني لازعاجك لكنني اريد ان اعرف الحقيقة » .

- « الحقيقة ا » اجاب المعلم ساخرا . « اهذا كل شيء انك تطلب الكثير ايها الشاب . اية حقيقة؟ »

- انه اخذ التراب ونفخ ...

● من ؟

- الله .

وامتشقت نفسها من بين شفثيه الضيقتين الرقيقتين ضحكة حاقدة
جافة وعاجلة . ورحت انتظر . لكن المعلم فتح صندوقا صغيرا واخرج منه
قطعة من الحلوى ثم راح يمضغها . وخاطرت بسؤاله : « ألن تجيبني
يا سيدي ؟ » .

- نعم . سأجيبك . زد علي وهو ينقل الحلوى من حنك الى حنك .
ومر وقت . ثم غامرت من جديد : « متى ؟ » .

- بعد عشر سنوات وربما عشرين سنة . بعد ان يكون عقلك القزم
قد اصبح دماغا حقيقيا . اما الان فما يزال الوقت باكرا جدا . هيا الى بيتك !
ووددت لو اصرخ ان اشفق عليا سيدي وقل لي الحقيقة ، الحقيقة
كلها . لكن حلقي كان مسدودا .
وأعاد المعلم كلامه « هيا الى بيتك » وأشار الى الباب .

في طريق عودتي قابلت عند منعطف الشارع الارشمنديريت الذي كان
معلنا في الديانة . وهو رجل ساذج ومقوس بدين وثقيل السمع . وكان
منغمسا في حب امه العجوز التي كانت تعيش في قرية صغيرة بعيدة عن
كاسترو . وكان يحكي لنا دائما بعينين دامعتين انه قد رآها في حلمه . لم
يكن لديه الكثير من العقل المتزن وبسبب براءته العظيمة فقد قل هذا القليل
الذي لديه فكان كلما قرع الجرس معلنا نهاية الحصاة يتردد عند المخرج
قليلًا ثم يستدير ويطلب منا راجيا بصوت عذب « قبل كل شيء ، يا
ابنائى ، اجهدوا ان تخلصوا جنسكم » وكنا ، ونحن نتقلب من الضحك ، نرفع
أصواتنا عاليا لكي يسمع « لا تقلق يا سيدي لا تقلق » . لم أكن احب هذا
المعلم ابدا . كان أبله كالنعجة . وكان عقله يثغو مبتعدا وغير قادر على تهدئة
خوابنا المبلبل . وذات يوم كان يشرح لنا قانون الايمان المسيحي فرفع
اصبعه واعلن بلهجة منتصرة : « هناك اله واحد - واا احد - ذلك ان العقيدة
تقول : « أؤمن بالله واحد » ولو كان هناك اثنان لقال العقيدة « أؤمن
بالهين اثنين » . حزنا من اجله ولم يكن لدى احدنا من الشراسة ما يدفعه
للاعتراض .

وفي يوم اخر وجدت انه من المستحيل ان اكبح نفسي . كان يعلمنا عن
قدرة الله الكلية . فرفعت قلمي وسألت : « استاذ . هل الله قادر على افناء
حقيقة ان هذا القلم كان موجودا ؟ »

وتحول وجه الارشمنديت المسكين الى احمر قان . فكر قليلا مجاهدا
للوصول الى جواب . واخيرا ، وقد عجز ، امسك بصندوق القرعة وقذف
به في وجهي . فقفزت واقفا وقلت له بجدية متغطرسة : « هذا ليس جوابا » .
طردني من الصف ثلاثة ايام وفي المساء ذاته ذهب لرؤية والدي . قال

له : ابنك وقع ومتحلل • ستكون لهذا الولد نهاية وخيمة • يفضل ان تشد
رسنه •

- وماذا فعل ؟

كذا وكذا • وحكى الارشمنديت القصة بكاملها • فهز ابي كتفيه •
« انا لا هتم الا اذا كذب او اكل قتلة • اما ما تبقى فهو الان رجل • فليفعل
ما يجب » •

كان هذا ، اذن ، الارشمنديت الذي التقيت به في الشارع • وحالما رأيتَه
التفت برأسي الى الاتجاه الاخر لكي لا اضطر لتحيته • ففي تلك اللحظة
كنت نائر الاعصاب • لقد عرفت الان اخيرا انه هو واشباهه كانوا يسخرون
منا منذ سنوات ، يسخرون منا في هذا الجانب من المسعى الانساني والذي
كان اكثرها قداسة •

يا لتلك الايام التي مزقت هاتان اللمعتان الخاطفتان عقلي - ويا لها
من ليالٍ لعجزني عن النوم كنت أقفز من فراشي في منتصف الليل وانزل
السلم بببطء شديد لئلا تطقطق درجاته وتفضحني وافتح باب الدار ثم اندفع
الى الشارع • لا احد على مرمى النظر والابواب مغلقة والاضواء تخفت •
كنت اتجول عبر ازقة كاسترو الضيقة مصفيا باهتمام الى الانفاس الهادئة
للمدينة النائمة • وكنت احيانا ارى بعض العشاق وهم يغنون السيراندا
على الغيتار والمزمار تحت النوافذ المغلقة ، اغاني الحرمان المترعة ،
بالشكوى والابتهاال وهي تنحدر من الأسطح • وتسمع الغناء كلاب الجيران
وتستيقظ وتبدأ بالنباح • لكنني كنت احتقر الحب والنساء ، وكنت اظن
اسأل نفسي ، كيف يستطيع الناس ان يغنوا وكيف يتأتى لهم ان لا تكون
قلوبهم منشغلة بما هي طبيعة الله ، ومن اين اتينا ، والى اين نحن
ذاهبون ؟ اعبرهم باسرع ما يستطيع حتى اصل الى المكمن حيث اعود الى
التنفس بحرية • البحر الفاحم السواد يرعد تحتي غاضبا ويندفع بوحشية
الى الاستحكامات ويلتهمهما • كان الرذاذ يعلو الجدار ويرش جبينني وشفتي
ويدي وينعشني • كنت اقف فوق المياه ساعات وانا احس انها ، هي وليست
الارض ، أمي وان البحر وحده يمكن ان يفهم قلقي لانه يشاركني القلق
ذاته فهو الاخر عاجز عن النوم • يضرب البحر صدره ويصدم الشواطئ
فيصدم بالمقابل • وفي بحثه عن الحرية يجاهد لتقويض الحواجز التي تبدو
امامه بغية تجاوزها • اما الارض الجافة فهادئة وامنة ، طيبة القلب
ومكافحة • انها تزهر وتحمل الفاكهة ثم تذوي لكنها لا تخاف فهي امنة
في معرفتها ان الربيع ، شاء ام ابى ، سوف ينهض من التراب • أمي البحر

ليست (1) ، بأية حال ، امانة • انها لا تزهر ولا تحمل فاكهة بل تتهدد وتناضل ليلا ونهارا •

كنت أسمعها وكانت تسمعني وكان كل منا يطيب خاطر الاخر ويشجعه حتى يقترب الفجر • وعندها ، وخشية ان يرانا الناس المستيقظون ، كنت أعود الى البيت مسرعا وأستلقي في سريري • وكانت غبطة مالحة ومرة تطوف في جسدي كله • فرحت لانني لم أكن مصنوعا من التراب بل من مياه البحر •

كان لدى احدي جاراتنا قردة : مخلوق وقع بمؤخرة حمراء وعينين انسانييتين • كانت هذه الجارة قد رافقت أحد البكوات في الاسكندرية وقد أعطاها هذه القردة للذكرى • كنت أراها جاثمة على كرسي قرب باب دارها كلما مررت وكانت دائما تقشر الفول وتهرش جسدها لتتخلص من القمل • في الماضي كنت أقف لاتفرج عليها وأضحك • كانت تبدو لي كاريكاتيرا عن الانسان ، ومخلوقا وقحا ومرحا وخاليا من الاسرار - وربما كان الناس ينظرون اليها دون اهتمام ثم يضحكون • أما الان فقد ارتعبت • صرت أغير طريقي لكي لا تقع عيني على هذا المخلوق • أكانت هذه جدتي ؟ انها تهين الانسان • وبخجل وغضب أحسست أن مملكة في أعماقي تتقوض وتصبح حطاما •

هذه جدتي الاولى ؟ هذه جذوري ؟ بمعنى اخر : أصحيح أن الله لم يحملني ولم يصغني بيديه وينفخ من أنفاسه في منخري ؟ وهل ولدت من قرد فنما سائله المنوي من قردة الى قردة ؟ بمعنى اخر : أنا لست ابن الله بل ابن قردة ؟

دام خزيي وتحريري من وهمي شهورا • ومن يدري ؟ ربما داما حتى الان • فعلى الطرف الاول من الهوة كان يقف القرد وعلى الطرف الثاني الارشمندرت وكان هناك خيط ممدود بينهما فوق الهاوية وأنا أسير على هذا الخيط خائفا محاولا أن أتوازن • كان ذلك وقتا صعبا بالنسبة لي • جاءت العطلة واعتزلت داخل البيت مع كمية كبيرة من الكتب المستعارة عن الحيوانات والنباتات والنجوم وظللت منكبا عليها ليلا ونهارا مثل انسان يقتله الظمأ ثم ينكب على ينبوع لكي يشرب • لم أكن أخرج من البيت • وبشكل مقصود كنت قد حلقت نصف شعر رأسي حين جاء أصدقائي يدعونني لنزهة معهم فأخرجت رأسي من النافذة وأشرت الى نصف الرأس المخلوق وقلت : « ألا ترونني ؟ كيف أستطيع الخروج بهذه الحالة ؟ » ثم عدت

(1) رأيت ان اهلل البحر كمؤنث في هذين المقطعين لانه يتحدث عنه هنا كام

الى دراستي من جديد وأنا أصغي بفرح لضحكات أصدقائي الساخرة وهم
يبتعدون .

كلما كنت أملاً نفسي بالعلم كان قلبي يفيض بالمرارة . وكنت أرفع
رأسي لأصغي للقردة جارتنا وهي تزرق . وذات يوم أفلتت من حبلها وجاءت
الى دارنا ثم تسلقت الاكاسيا . وحين رفعت عيني رأيتها بشكل مفاجيء
وهي تتلصص علي من بين الاغصان . ارتعدت . لم يسبق لي في حياتي
كلها ان رأيت عيوناً آدمية مثلها . كانت عيناها مزروعتين فوقى ، مليئتين
بالدهاء والمرح - مدورتين وسوداوين وثابتتين .

أبعدت كتبتي وأنا أنهض . صرخت « ليست هذه هي الطريقة . انني
أعكس الطبيعة البشرية . انني أترك اللحم من أجل الظل . الحياة
تحتوي على اللحم الحي واللحم الميت . وأنا جائع ! » انحنيت من النافذة
وقذفت للقردة بجوزة . فأمسكت بها وهي في الهواء وكسرتها بين أسنانها
وألقت بالقشر ثم راحت تمضغها بنهم . وهي تتطلع الي بسخرية وتهمهم .
لقد تدربت على شرب الخمر . فأسرعت الى المخزن وجلبت ملء كأس
ووضعت الكأس على حافة النافذة . وارتعش منخر القردة بحوية ثم قفرت
وجاست على الحافة ومدت بجيزومها في الكأس ثم راحت تشرب وتشرب
وهي تمصمص بلسانها راضية ثم ألقت بذراعيها حول كتفي وعانقتني
وكانها لم تكن تزيد الانفصال عني . كانت تفوح منها رائحة الخمر واللحم
المتسخ . وأحسست بحرارة جسدها في حلقي . ودخلت شعرات من شاربيها
في منخري فدغدغتني وجعلتني أضحك . كان جسدها كله يضغط على
جسدي بينما راحت تتنهد كأنها انسان . امتزجت حرارة جسدينا وراح
شهيق القردة يلحق بشهيقني : صرنا صديقين . وفي تلك الليلة حين غادرتني
عائدة الى حبلها ، بدت لي تلك المعانقة فألا سيئاً . لقد غادر نافذتي ملاك
قاتم ، رسول من اله ما ، مكسو بالشعر وله أربعة أقدام .

في اليوم الثاني نزلت الى الميناء قرابة وقت العشاء رغم ان خطة كهذه
لم تكن في رأسي من قبل . وقفت عند حانة يتردد عليها الصيادون وطلبت
خمراً مع صحن من الصحاحس (1) المقلي كمامة . ورحت أشرب . لم أكن
أعرف ما اذا كنت حزينا أم غاضباً أم سعيداً . كل شيء - القردة ، والله ،
والسماوات المشعة بالنجوم ، والكرامة الانسانية - كان مختلطاً في أعماقي ،
كما لو انني قد أوقفت آمالي على الكحول لكي يقوم بفرزها كلها من
أجلي .

(1) سيك صغير فضي الحراشف .

كان هناك عدد من الصيادين والحمالين يرتشفون خمرتهم بتكاسل في
احدى الزوايا وكلهم سكيرون مشهورون ضحكوا حين رأوني .

قال أحدهم : « ما يزال حليب أمه عالقا على شفثيه ومع ذلك فهو يمثل
دور الرجل في البلدة » .

قال آخر : « انه يقلد أباه . لكن طريقه طويلة » .
حين سمعت هذا الكلام اضطربت غضبا . فصرخت « هيه . يا اصدقاء .
تعالوا هنا لاسكركم » .

اقتربوا وهم يقهقهون . وتابعت املاء الكؤوس حتى الحافة ثم ابتلاعها
دفعة واحدة واحدا بعد الاخر ودون طعام الان . نظر الي الرجال مفتاضين .
لم تكن نتحدث أو نغني بل اكتفينا بشرب الكؤوس المترعة والتحديق كل
منا بالآخرين . منتظرين أن يخضع واحد منا الاخرين . لقد التهب اعترازهم
الكريتي . خجل هؤلاء المدمنون ذوو الشوارب ان يهزمهم شاب لم تنبت
لحيته بعد . ومع ذلك فقد تهاووا الى الارض واحدا بعد الاخر بينما أنا
وحدتي بقيت صاحيا . من الواضح أن الهى كان شديدا حتى استطاع أن
يتغلب على الخمر .

وحدث الامر ذاته في اليوم التالي والذي بعده . وصرت معروفا في كاسترو
كلها كسكير يصاحب في كل ليلة الصيادين العاطلين وحمالي الشاطيء .

فرح أصدقائي وهم يرونني أنزل الهضبة راكضا . فقد عجزوا منذ
فترة بعيدة عن هضم فكرة ان لا رغبة لي في مرافقتهم وعزلي لنفسي في
البيت للقراءة - أو انني فيما بعد أخرج للمشاورير وحيدا وفي جيبي كتاب .
لم أكن ألعب معهم أو أثرثر أو أخرج للغزل . وكانوا يقولون وهم ينظرون
الي بكراهية « سيرفع رأسه حتى النجوم ثم يحطمه ألف قطعة » أما وقد
رأوني الان أشرب وأمرغ نفسي مع رعاك كاسترو الحفاة فانهم سروا لذلك .
اقتربوا مني ، وربما بدأوا يحبونني ، وفي احدى ليالي السبت أخذوني بخدعة
ماكراة الى أحسن كباريه في البلدة ، يحمل اسما جريئا « مقاتلو الـ (٢) » .
وقد وصلت اليه منذ وقت قريب نمرة جديدة ، فرقة من السنوات
الفرنسيات والرومانيات اللواتي كن يجنن المواطنين المحترمين . كان أصحاب
البيوت المحترمون هؤلاء يتسللون سرا مساء كل سبت الى هذا الفردوس
المحرم خافت الاضواء ويجلسون بهدوء على المؤائد المنتحية وهم يتلفتون في
كل اتجاه ليتأكدوا من أن احدا من معارفهم لم يرههم ، ثم يصفقون ليطلبوا
عغنية معطرة ومترجة تجلس على ركبهم . بهذه الطريقة كان هؤلاء
المواطنون الشرفاء ، المساكين ، يستطيون للحظات ، ان ينسوا المشاحنات
والتعبيبات التي تواكب حياة الفضيلة .

جلبني أصدقائي الى الوسط تماما وطلبوا شرابا • وجاءت رومانية
 بدينة متموجة فاض ثدياها المتعرقان عن صدرها الحريري غير المززر ،
 امرأة في سن معينة تعرف كل شاردة وواردة في حرفتها • وتابع اصدقائي
 تعبئة قدحي ، ورحت اشرب واحسست بسعادة مريحة • وباستنشاقني
 عبر الانثى اللاذع احسست بالقرذ - الذكر - في اعماقي يستيقظ • امسكت
 بخف المغنية ورحت اعبئه بالشمبانيا مرة بعد اخرى ثم اشربه •

في اليوم التالي كانت كاسترو بأسرها تظن بالفضيحة : القديس ،
 سليمان الحكيم ذو الانف الشامخ - يا لحظه ! يا للاسف - قد قضى الليل
 يسكر في كباريه وهو يشرب من خف مغنية • نهاية العالم ! وأسرع احد
 اخوالي ، مخزيا بفعلته ابن اخته الشائنة ، الى والدي ونقل النبا له • لكن
 والدي اكتفى بهز كتفيه وأجاب : « هذا يعني انه رجل الان ، لقد ابتدا
 يصبح رجلا • كل ما عليه ان يفعله الان هو ان يشتري للمغنية خفين
 جديدين » •

اما انا فقد فرحت في اعماقي لانني تخطيت القانون ، لقد حررت نفسي
 من الارشمندرت ومن فراغات الوصايا العشر لانني كنت اتبع خطا سلفي
 ذي الشعر الكثيف ، الخطا الواثقة الثابتة •

لقد بدأت خطواتي على المنحدر ولقد احببته • كانت تلك سنتي الاخيرة
 في الجمنازيوم (١) وكنت انظر الى الارشمندرت بكراهية بينما يبتسم لي
 بوقار وهو غائص في فضيلته • كان هذا « الغنمة » الواثق من هذه الحياة
 والحياة الاخرى ، ينظر الينا ، نحن الذئاب ، يعطف • وهذا ما لم استطع
 احتماله • كان علي ان ادمر سلاحه وان اثير عاصفة في دمه ، وان امحو تلك
 البسمة البلهاء التي تغمر وجهه ولذلك فانني ذات صباح قمت بعمل شرير •
 أرسلت له مذكرة صغيرة « أمك مريضة جدا • انها تموت • اسرع اليها لعلها
 تمنحك بركتها » • دفعت بها وذهبت الى المدرسة لا مباليا ورحت انتظر •
 ولم يظهر الارشمندرت ذلك اليوم في الصف • ولا في اليوم التالي ولا اليوم
 الثالث • عاد بعد خمسة ايام وانت لا تكاد تعرفه • كان وجهه منتفخا
 ومشوها بأكزيما وصلت الى حلقة وابطيه • يهرش نفسه باستمرار ويتحول
 الى احمر قان • وكان يعجز عن الكلام ويترك الدرس قبل ان يقرع الجرس •
 ثم ظل طوال ثلاثة اشهر طريح الفراش • وعاد الينا ذات صباح متخلصا من
 انتفاخه لكنه كان منهارا او ما تزال اثار الجرب تغطي وجهه • راح ينظر
 الينا يعطف وعادت البسمة تغطي وجهه من جديد • وقد كانت كلماته الاولى

(١) مدرسة ثانوية لتعليم الرياضة •

: « حمدا لله يا اطفالي • لقد حفّر الله اليد التي كتبت لي المذكرة التي تقول ان امي مريضة جدا وبهذا منحني الفرصة لان ادفع ضريبة البشر بدوري - ان اقا سي » •

جعلتني كلماته هذه اجفل • اكان ، اذن ، من الصعوبة بمكان التغلب على الفضيلة ؟ للحظة شعرت انني اريد ان اقف واصرخ ان اغفر لي لقد اخطأت • لكن صوتا اخر برز فورا في اعماقي ، صوتا مليئا بالسخرية والحقد : انت كلب • كلب - ارشمندريت • انك تساط ثم تعلق اليد التي تسوطك ••• لا • ان ما فعلته صحيح • ويجب ان لا اندم •

في اليوم التالي دعوت اعضاء « جمعية الصداقة » • قلت لهم طالما ان عقولنا الان مستنيرة فان من واجبنا ان ننير عقل كل انسان اخر • ويجب ان تكون هذه الرسالة العظيمة لجمعية الصداقة • حينما ارتحلنا وايضا توقفنا ، فان كل كلمة من كلامنا وكل اعمالنا يجب ان يكون لها هدف وجيد - هو التنوير •

وهكذا بدأ التنوير • لقد انهينا الجمنازيوم ونحن الان احرار • وارسلني والدي ، الذي كان يريدني ان ادرس السياسة ، الى احدى القرى لكي اكفل طفلا في المعمودية ، اخذت صديقي معي : ها هي الفرصة السانحة لنا لتنوير قرية بأكملها • وحينما جلسنا على مائدة بعد التعميد مباشرة وبدأ الحفل ، راح صديقي الحميم يتحدث بتوتر واعظا القرويين وينورهم • قبل كل شيء تحدث اليهم عن اصل الانسان معلنا لهم ان سلفنا الاول قرده واننا يجب ان نكون مخدوعين الى درجة الايمان بمرتبنا الحالية ككائنات متميزة خلقها الله •

وطوال الفترة التي قضاهما صديقي وهو يلقي بخطابه كان القس القروي يحدق اليه بعينين جاحظتين وحين اقترب التنوير من نهايته هز رأسه بأسى وقال : « اعذرني يا بني لتحديقي اليك طوال حديثك • من المحتمل ، كما تقول ، ان البشر قد تحدروا من القرود • ولكن بالنسبة لك اعذرني لقول ذلك فانك خلف ووريت مباشر للحمار » •

عبرت جسدي رعشة • تطلعت الى صديقي : وكأنني كنت اراه لاول مرة • فبفكه الكبير المتدلي واذنيه الكبيرتين كالقربيط وبعينيه الهادئتين المضمليتين كان ، فعلا ، يشبه حمارا • كيف لم الحظ ذلك من قبل ؟ لقد انقطع خيط في اعماقي • بعد ذلك اليوم لم ارسل له اية رسالة اخرى ولم اعد احسده •

لقد تحملنا الكثير في محاولتنا لتنوير البشرية في الايام التالية ونحن

نطوف في ميغالوكاسترو او ونحن نتجول في القرى • وقد سمونا بالبلهدين
والماسونيين والمرتزة • وبالتدريج بدأنا نقاطع باستهجان وترمى بقشور
الليمون اينما ذهبنا لكننا تماسكنا بكبرياء واصررنا على طريقنا رغم
الاهانات والقشور مقتنعين بمعرفة اننا نشهد ونعاني الشهادة من اجل
الحقيقة • ولتعزية انفسنا كنا نقول لبعضنا : ألم يكن هذا يحدث دائما ؟
ما أمتع الموت من اجل فكرة عظيمة !

وفي مناسبة اخرى ذهبنا ، نحن الثلاثة ، في نزهة الى بلدة السوق التي
تبعد ساعتين عن ميغالوكاسترو • وكانت هذه القرية ، الشهيرة بكرومها ،
متدة على سفح جبل يوشتاس ، الجبل المقدس الذي يقال ان زيوس ، أب
الالهة والبشر ، قد دفن فيه • ولكن تحت الحجارة حيث يستلقي ما يزال
لدى هذا الاله الميت القوة لاعادة تشكيل الجبل فوقه • ولقد قام بتغيير مواقع
الصخور فأعطاهما شكل رأس هائل مقلوب • ولقد كان في وسع المرء ان يميز
بوضوح الحاجب والانف واللحية الكبيرة التي ، وهي مؤلفة من البلوط
والخرنوب والزيتون ، كانت تمتد بوضوح حتى السهل •

« حتى الالهة تموت » قال صديقي الثالث الذي كان يأمل ان يصبح
مخترعا لكي يمول جمعية الصداقة ويغنيها •
قلت : « الالهة تموت لكن الالوهة خالدة » •
وسأل الاخران : « ماذا تعني ؟ اننا لا نفهم » •
واجبت ضاحكا : « انا نفسي لا افهم جيدا » •
وعلى الرغم من انني كنت احس انني على حق الا انني عجزت عن
توضيح فكرتي • وعدت الى الضحك الذي كان دائما بمثابة باب النجاة
في لحظات الخطر •

وصلنا الى القرية • كان الهواء عابقا برائحة الراكي والتخمر • كان
القرويون قد انهوا القطاف وعبأوا الخميرة في البراميل واستخلصوا الراكي
من تفل القرب • ولذلك فانهم يجلسون الان في المقهى او خارجا على مصاطبهم
الحجرية او تحت اشجار الحور يشربون الراكي ويلعبون الورق ويسترخون •

نهض عدد منهم لتحيتنا • وأجلسونا الى مائدتهم ثم قدموا لنا ثلاثة
اكواب من عصير الكرز • وبدأنا الحديث • لقد فهمنا من قبل • بالتدريج
بدأنا نجر الحديث الى المعجزات التي يحققها العلم • وسألناهم : « هل
تستطيع عقولكم ان تستوعب كيفية صنع الورق او طبع الصحف ؟ يا لها
من معجزة عظيمة • غابة تقوض • والجذوع تنقل الى آلات تسحقها وتحولها
الى عجينة ثم تتحول العجينة الى ورق يدخل الى المطبعة من باب ويخرج
صحيفة من الباب الاخر •

انصت القرويون باهتمام وانضم الى مائدتنا جلساء الموائد القريبة ،
لقد نجحنا معهم • لقد تنوروا •• هكذا قلنا لانفسنا • ولكن عند هذه المرحلة
وصل رجل ضخم يستحق الشنق ومعه حمولة حمار من الخشب . ووقف يستمع
لما يقال •

وساله احدهم : « هيا يا ديميتروس • الى اين تنقل هذا الخشب ؟ »
- لأصنع جرايد •
وبغثة انفجر بالضحك اولئك القرويون الذين كانوا حتى الان يتمالكون
انفسهم ادبا • وارتجت القرية كلها بقهقهاتهم •
وهمست لصديقيّ « اظن انه من الافضل ان ننصرف • انني احس
بقشور الليمون آتية » •
وهتف القرويون : « اين تذهبون يا شباب ؟ » وهم يسندون خواصرهم •
« ابقوا ايضا واخبرونا بالمزيد - فنحن نريد ان نضحك » ثم تبعونا وهم
يصيحون :

- قولوا لنا ايهما جاء قبل الاخر الدجاجة ام البيضة ؟
- وكيف يجعل الله الاذنان تقف دون مسامير ؟
- وهل كان سليمان الحكيم رجلا ام امرأة ؟ دعونا نرى بضاعتكم •
- ولماذا تضحك العنزة المبرقعة - أتستطيعون الاجابة على هذا ؟
لكننا كنا قد انطلقنا هاربين •

في ذلك الحين كنا قد تعبنا من تنوير الناس بكلمات الفم • فقررنا
ذات يوم ان نطبع بيانا للجماهير ، وثيقة نقول فيها هدفنا بوضوح
وموضوعية ونحلل طبيعة الواجب الانساني • وجلب كل منا مذكراته وذهبنا
الى ماركوليس عامل المطبعة الذي كان يعرف باسم « البروليتاري » لانه
كان هو الاخر يصدر بيانات تهدف الى اثاره الفقراء وتوحيدهم - بهدف
جعلهم قوة كبيرة تنتخبه وتوصله الى المجلس النيابي • لذلك ذهبنا اليه
ووعدناه • كان متوسط السن ذا شعر شائب مجعد ونظارتين وجذع واسع
الصدر كالبرميل وساقين دقيقتين منحنتين قليلا • وكان مندبل ملوث
بالشحم ملفوف على رقبتة • اخذ مخطوطنا وبدأ يقرأه بصوت مرتفع
وبمبالغة انفجارية • وكلما استغرق في القراءة كلما ازداد حماسنا • كم كان
مكتوبا بفخامة وببساطة وبقوة ا ورفعنا ، نحن الثلاثة ، رقابنا بنشوة
مثل ديوك تتهيا للصياح •

« جميل يا اولاد » اعلن ماركوليس وهو يطوي المخطوط • « انتبهوا
لكلامي • ذات يوم ستنتخبون الى المجلس النيابي وسوف تنقذون شعبنا •
لم لا نوحّد قوانا اذن ؟ انا ايضا اطبع بيانات • فلنتعاهد » •

لكنني رفضت • قلت له : « انك لا تهتمس الا بالفقراء • تحن نهتم
بالجميع • هدفنا اكبر » •

فقال المطيعي مستاء : « ولكن عقولكم اصغر • تظنون انكم سترشدون
الاغنياء ايضا اتمتقدون ذلك ؟ ان غسيل الزنجي ليس الا هدرا للصابون •
اصفوا الي : الغني مستقر ومرتاح • وهو لا يريد ان يغير شيئاً ، لا الله ولا
الوطن ولا الحياة المترفة • فاقرعوا قدر ما تريدون على باب الاصم • عليكم
ان تبدأوا بالفقراء ، يا ديوكسي الصغيرة ، ابدأوا بأولئك الذين ليسوا
مستقرين ومرتاحين ، ابدأوا بالمضطهدين والا فاذهبوا للبحث عن طابع
غيري لانني معروف بالبروليتاري » •

انسحبنا ، نحن الثلاثة ، الى الباب لكي نتشاور • وبسرعة توصلنا
الى رأي جماعي • والتفت صديقي الى الطابع : « لا • اننا نرفض قبول
اقتراحك • لن نقدم اي تنازل • فعلى خلافك نحن لا نميز بين الاغنياء
والفقراء • الجميع يجب ان يتنوروا » •

وزأر ماركوليس « في هذه الحالة اذهبوا الى الشيطان » وقذف بالمخطوط
في جوهنا •

١٤ - الصبية الايرلندية

لم أكن قد توصلت الى القناعة بعد . كنت احب الطريق الذي سرت فيه لكنني كنت اريد الوصول الى حدوده القصوى . وصلت تلك السنة صبية ايرلندية الى كاسترو لتعطي دروسا انكليزية . وكان الظمّ للعلم ملتها في اعماقي كما هو دائما . وطلبت منها ان تعطيني دروسا . كنت اريد ان اتعلم اللغة وان اكتب بيانات بالانكليزية لتنوير اولئك الذين يعيشون خارج اليونان . لم نتركهم يعيشون في الظلام ؟ وهكذا انكبت بكل اهتمام على تعلم الانكليزية وغرقت في ذلك العالم السحري الغريب . وكم كان ممثعا ان اخطو خطواتي الاولى بين الشعر الانكليزي الغنائي مع تلك الفتاة الايرلندية ! اللغة بحروفها الصوتية وسواكها تحولت كلها الى عصافير مغردة . كنت اظل في بيتها حتى ساعة متأخرة من الليل . وكنا نتحدث عن الموسيقى ونقرأ الشعر فراح الجو بيننا يشتعل . وحينما كنت انحنى فوق كتفها لآتبع ابيات كيتس وبايرون كنت استنشق رائحة ابطيها الدافئة اللاذعة . وكان عقلي يتشوش . يختفي كيتس وبايرون ويظل في الغرفة الصغيرة حيوانان قلقان احدهما يلبس البتطلون والاخر فستانا .

وبما انني كنت قد انهيت الجمنازيوم فقد كنت اتيهيا للذهاب ، الى اثينا للتسجيل في الجامعة . ومن يستطيع ان يخمن ما اذا كنت سأراها مرة ثانية ، ذات العيتين الزرقاوين ، المنحنية قليلا والممتلئة الزغباء ابنة القس الايرلندي تلك ، وحينما اقترب موعد افتراقنا تزايد قلقي . وتاماما كما يحدث حين نرى تينة ناضجة يسيل العصير الحلو منها ، ونحن جائعون وظامئون فاننا نمد يدنا لنقشرها وبينما نحن نقشرها نتحلب ريقنا ، كذلك فانني كنت القي ، بالطريقة ذاتها ، نظرات ملتبهة على تلك الفتاة الايرلندية الناضجة ، واقشرها في خيالي - كالتينة .

وذات يوم من ايلول اتخذت قرارى .
سالتها : « اتحبين ان تتسلقى بسيلوريتي معي ؟ ان كريت بأسرها
تظهر من قمته . وهناك كنيسة صغيرة في القمة نستطيع ان نقضي فيها
للليل وادعك » .

احمرت اذناها لكنها قبلت . اي سر عميق اشتملت عليه تلك الرحلة .
واية حلاوة واي توقع قلق - كشهر العسل تماما ! انطلقنا ليلا . كان القمر
فوقنا فعلا ينقط عسلا . لم أر في حياتي بعد ذلك قمرا شبيها به . ذلك
الوجه ، الذي كان يبدو لي حزينا ، كان الان يضحك وينظر الينا بخبت
بينما هو يتقدم معنا من الشرق الى الغرب وينزل من فتحات قمصاننا الى
حلقينا ثم الى صدرينا وبطنينا .

ظلنا صامتين ، خوفا من ان تدمر الكلمات التفاهم الكامل الصامت الذي
حققه جسدانا وهما يسيران احدهما الى جانب الاخر . احيانا كان فخذانا
يتلامسان حين كنا نجتاز ممرا ضيقا ولكن كلا منا كان يبتعد عن الاخر فجأة
وفورا . كان يبدو اننا لا نريد ان نبدد رغبتنا المرهقة في متع صغيرة . كنا
نحتفظ بها بكرا بانتظار اللحظة العظيمة . فرحنا نسير مسرعين وبأنفاس
متقطعة لا كصديقين ، كما كان يبدو ، بل كعدوين حاقدين . كنا نتسابق
نحو الخلبة حيث سنتماسك صدرا لصدر .

ورغم اننا لم نفه بأية كلمة حب قبل ذلك الحين ، ورغم اننا الان ،
في الرحلة ، لم نتفق على شيء فان كلا منا كان يعرف تماما الى اين نحن
ذاهبان ولماذا . كنا متعطشين للوصول - وهي ، كما كنت اشعر ، اكثر
تعطشا مني .

باغتنا الفجر في قرية على سفح بسيلوريتي . كنا متعبين فذهبنا
لناوي في بيت كاهن القرية . اخبرته ان رفيقتي ابنة قس يقيم في جزيرة
بعيدة خضراء وانها ترغب في رؤية كريت كلها من قمة الجبل . وجاءت
الباباديا زوجة الكاهن ، الى المائدة . اكلنا . ثم جلسنا على الاريكة
وغرقنا في حديث صغير . ناقشنا في البدء القوى العظمى - انكلترا ، وفرنسا
وامريكا وروسيا . ثم تحدثنا عن العنب والزيتون وبعد ذلك تحدث الكاهن عن
المسيح الذي قال عنه انه كان ارثوذكسيا وانه صمم على عدم التحول الى
البروتستانت مهما فعلوا به . وراهن انه لو كان والد الفتاة معنا فانه كان
سيحواله الى الارثوذكسية في ليلة واحدة . لكن العينين الزرقاوين كانتا
قد نعستا وأشار الكاهن لزوجته .

« رتبي لها السرير لكي تنام قليلا . انها ، اخيرا ، امرأة وهي تعب »

وتابع متجها صوبي « اما بالنسبة لك فانك رجل ، كريتي قوي وان من المعيب ان ينام الكريتي في النهار . تعال معي ودعني أرك الكروم . ما تزال هناك بعض العناقيد غير المقطوفة يمكننا ان ناكلها » .

كنت على وشك التهاوي من التعب والنعاس ولكن ماذا استطيع ان افعل ؟ لقد كنت كريتي ولا استطيع ان اعيب كريت . ذهبنا الى الكروم واكلنا العناقيد غير المقطوفة ثم تمشينا في القرية . كانت الكركة (١) تغلي والسائل يستخلص . شربنا اكثر من اللازم من الراكي ، الساخن وعدنا وقد شبكنا ذراعينا ونحن نترنح . كان المساء قد حل وكانت الفتاة الايرلندية قد استيقظت والباباديا قد ذبحت دجاجة فاكلنا ثانية .

وأعلن الكاهن « لا حديث الليلة . ناموا . في منتصف الليل سأوقظكما واعطيكما الراعي الصغير دليلا لثلا تضيعا » .

وخرج الى الفناء فتفحص السماء كفلكي ثم عاد الى الداخل راضيا . قال : « انتما محظوظان . سيكون الغد رائعا . سلما كل شيء لله . تصبحون على خير » .

عند منتصف الليل امسكني الكاهن من ساقسي وأيقظني كما ايقظ الفتاة بالقرع على مقلاة نحاسية فوق رأسها . كان ينتظرنا في باحة الدار راع فتى ذو شعر اجعد واذنين مؤنفتين ونظرة حادة . وكانت تفوح منه رائحة الفحل والزوفا .

« جاهزان ! » قال الراعي وهو يرفع عصاه « اسرعوا الخطا ! نريد ان نصل الى القمة لحظة بزوغ الشمس » .

القمر في كماله ، ما يزال سعيدا وما يزال مليئا بالحلاوة . كان الطقس باردا في الخارج فتلفعنا بمعاطفنا . وابيض انف الفتاة الايرلندية الدقيق الا ان شفيتها كانتا ما تزالان حمراوين ومكتنزتين . فحولت نظري لثلا انظر اليهما .

جبل وعر . فبعد ان خلفنا وراعنا الكروم وبساتين الزيتون ثم السنديان والسرور وصلنا الى الصخور العارية . كانت احذيتنا تنقصها الرزات فصرنا نزلق . وسقطت الفتاة الايرلندية مرتين او ثلاث مرات لكنها نهضت دون مساعدة . لم نعد بردانيين بل تصبب العرق من اجسادنا . اطبقتنا شفاهنا

(١) اداة بدائية تظلى بها خميرة العناقيد ثم تقطر لتصبح خرا او عرنا .

لكي لا نلهث وتقدمنا بصمت : الراعي الصغير يقودنا والاييرلندية في الوسط وانا احفظ المؤخرة .

بدأت السماء تتحول الى بيضاء مزرققة وصارت الحروف واضحة . وحامت أول الصقور في الجو الاسود المزرق بحثا عن فريسة . لكننا حين وطئنا القمة اخيرا كان الشرق قد توهج احمر زهريا . غير اني لم استطع ان ارى شيئا من بعيد . هناك ضباب كثيف حولنا يغطي الارض والبحر . كان جسد كريت كله مغلفا وكنا نرتجف من البرد المخيف ففتحنا بوابة الكنيسة ودخلنا . وبدأ الراعي ، خلال ذلك ، يبحث فيما حولنا عن عيدان جافة لاشعار النار .

كانت الكنيسة مبنية بحجارة شيدت دون اسمنت . بقينا وحيدين في الداخل : الصبية الايرلندية وانا . وكان المسيح والعذراء يحدقان الينا من ايقونتيهما المتواضعتين لكننا لم ننظر اليهما . تصدى للمسيح وللعذراء شيطانان مضادان للمسيح ومضادان للعذراء برزا في اعماقنا . مددت يدي وامسكت بالصبية الايرلندية من قذالها فاستجابت مدعنة - كان هذا ما تنتظره - وتدحرجنا ، على الحجارة .

انفتح باب مصيدة مظلمة ليبتلعني وتلاشيت فيها . وحين رفعت عيني رايت ان المسيح يحدق الينا غاضبا من الايقونة وكان الصولجان الذي يمسك به في يده اليمنى يتأرجح وكأنه سيقدفه علي . خفت ، لكن ذراعي المرأة احاطتا بي وانغمرت مجددا في الهوى .

كانت ركبتي ترتجفان حين فتحنا الباب للخروج وارتجفت يدي وانا ارتج المزلاج . لقد هيمن علي بغتة خوف عريق : سينزل الله علينا صاعقة تمحقنا ، انا والفتاة الايرلندية - آدم وحواء - وتحيلنا رمادا . فالحقيقة ان لا حصانة لمن يدنس بيت الله امام عيني العذراء . دفعت بالباب وخرجت . قلت لنفسي مهما كان : ما سيحدث فليحدث بسرعة ولننته منه . ولكن حين خرجت ورايت : آه . اية غبطة هائلة واية معجزة تتمدد امامي اكانت الشمس قد ظهرت وانقشع الضباب وجزيرة كريت بأسرها من اقصاها الى اقصاها تتلامع بيضاء وخضراء ووردية - عارية تماما - محاطة ببحارها الاربعة ، ويقممها الثلاثة الشاهقة الجبال البيضاء وبسيلوريتي وديكتي كانت كريت سكوونة (١) مثلثة الصواري تبحر في الزبد . كانت غولا بحريا ، غرغونة (٢) بألاف الاثداء ، مسترخية ومعددة على الامواج

(١) قارب شراعي متعدد الاشرعة .

(٢) الغرغونة Gorgon : احدى اخوات ثلاث في الميثولوجيا اليونانية رؤوسهن مكسوة بالاناعي بدلا من الشعر وكان كل من ينظر اليهن يتحول الى حجر .

تشمس • تحت الشمس الصباحية رأيت بوضوح وجهها ويديها وقدميها
وذنبها واثداءها المتوثبة ٠٠٠ لقد هبطت علي افراح كثيرة العدد خلال حياتي
ولا داعي لدي للشكوى • ولكن هذا ، منظر جزيرة كرينت بأسرها على
الامواج ، كان واحدا من اهم الافراح واعظمها • التفت لانظر الى الفتاة
الاييرلندية • كانت تستند الى الكنيسة الصغيرة تمضغ قطعة من الشوكولاته
بهدوء ولا مبالاة وهي تلحس شفتيها اللتين كانتا مغطاتين بعضائتي •
كانت العودة الى كاسترو كئيبة • واخيرا اقتربنا • هناك تقوم الاسوار
الفينسية الشهيرة بأسودها الحجرية المجنحة • واقتربت الفتاة الايرلندية
لتستند على ذراعي لكنني لم استطع حمل رأتحتها او عينيها الرصاصيتين
- التفاحة التي اطعمتني اياها قد غطت شفتي واسناني بالرماد • رفضت
ان اسمح لها بالاقتراب فتراجعت خطوة الى الخلف دون كلام • وسمعت
نشيجه • كنت اريد ان التفت وانا احتضنها بين ذراعي وان اقول لها كلمة
لطيفة ولكنني ، بدلا من ذلك ، اسرعت الخطا واحتفظت بصمتي • واقتربنا
اخيرا من بيتها • سحبت المفتاح من جيبها وفتحت الباب • ثم وقفت تنتظر
بالعتبة • وقفت تنتظر وهي مطرقة • هل سأدخل ام لا ؟ وهب في اعماقي
حنو لا يقاوم وكمية هائلة من الكلمات المفرحة والمحنة وصلت حتى حلقي •
لكنني زممت شفتي ولم اتكلم • مددت لها يدي ، وافترقنا • في اليوم التالي
رحلت الى اثينا ولم تكن لدي قردة اعطيها اياها للذكرى ، ولكن مع احد
تلاميذها ارسلت اليها كلبا صغيرا كان يحب ان يعض ، وكنت احبه • كان
اسمه كارمن •

١٥ - اثينا

الشباب وحش متناقض واعى • يلتمس الطعام ولا يأكل • اجبن من ان يأكل • يريد ان يومية بالقبول للسعادة ، التي تتدرج في الشارع والتي تريد ان تتوقف راغبة ، لكنه لا يومية • يتحول الى الصنبور سامحا للزمن ان يتبدد هباء ويضيع وكان الزمن ماء • الوحش الذي لا يعرف انه وحش - ذلك هو الشباب •

يتحطم قلبي حين اتذكر تلك السنوات التي قضيتها كطالب جامعي في اثينا • فعلى الرغم من انني كنت انظر فائني لم اكن ارى شيئا • لقد كان العالم ، المغطى بضباب كثيف من الاخلاق ، والتصورات الخيالية ، والطيش ، محجوبا عن عيني • الشباب مرير ، مرير ومزدرع ، انه لا يفقه • وحين يبدأ المرء بالفهم يكون الشباب قد ولى ، من كان ذلك الحكيم الصيني الذي ولد عجوزا بشعر أشيب ولحية بيضاء وعيناه مليئتتان بالدموع ؟ ومع مرور السنوات تحول شعره الى أسود وبدأت عيناه تضحكان وتخلص قلبه من اعبائه ، وحين شارف على الموت في النهاية صارت وجنتاه كوجنتي العذراء يغطيها الزغب الطفولي الناعم ••• هكذا يجب ان تصير حياتنا ، هكذا يجب ان تصير لو أراد الله ان يشفق على البشر •

لقد ثرت على قدرتي في كريت • وللحظة اسلمت نفسي للخمر وفي لحظة اخرى لمست الفتاة الايرلندية • ولكن لم يكن هذا طريقي • احسست انني اخطأت • ولخجلي وندمي عدت الى عزلتي وكتبي •

منذ الشباب وحتى الشيخوخة كنت اعتبر كل كلمة او عمل يبعدني عن قدرتي معصية. فما هو قدرتي هذا ؟ والى اين كان يقودني ؟ ما يزال عقلي عاجزا عن حل اللغز • فسمحت لقلبي ان يقرر « افعل هذا - ولا تفعل ذلك •

أمش • لا تقف ولا تصرخ • عليك واجب واحد - ان تصل الى الطرف «
• « اي طرف ؟ » كنت اسأل • « لا تسأل اية اسئلة • تقدم ا » •

وبينما انا اصغي ، في عزلتي ، لنصيحة قلبي الحمقاء والمدعية نمت
رغباتي وصارت غاية في الترف ولم يعد اي شيء من كل ما أراه او اسمعه
حولي في اثينا ، المدينة الشهيرة ، قادرا على سد جوعي وحاجتي • وفشلت
المواد في مدرسة الحقوق ان تلبي حاجات روعي الى اقل حد ممكن كما انها
لم تشبع فضولي العقلي • ولم اعد اشعر بالمتعة في الحفلات التي يقيمها
زملائي مع الطالبات او مع الخياطات الصغيرات الساذجات . كان الرماد ما يزال
عالقا على اسناني من التفاحة التي اطعمتني اياها الصبية الايرنلندية •
بين حين واخر كنت اذهب الى المسرح او الى حفل موسيقي لأستمع • لكن
المتعة كانت سطحية لم تتمكن من تغيير الانسان الداخلي • كنت انسى
حالما اصل الى الشارع • وتابعت دراستي للغات الاجنبية • وادراكي لمسألة
ان ذهني يتوسع كان يسرني • ولكن كانت رياح الشباب السرية الحامية
تهب مباشرة دائما وكانت تلك المتع تذوي ووراء فم الفتاة السعيدة الضاحك
كنت أرى فكي مجمعتها العارية • كان العالم يأخذ امام عيني ايقاعا عنيفا
وسريعا ثم يتحول الى دمار • الشباب يبحث عن الخلود ولا يجده ولا يقبل
الطول الوسطى • وهكذا يرفض الكون بأسره - من قبيل الكبرياء • وهذا
لا ينطبق على حالات الشباب كلها بل ، فقط ، على ما تجرعه الحقيقة •

كنت احب ، ايام الآحاد ، ان اخرج الى النزهات في الضواحي وحيدا •
احس ان رفقة الاصدقاء - احاديثهم ونكاتهم وضحكاتهم - تحط من قيمة
الصمت المقدس • كانت الجبال متأججة بالصنوبر والعسل • وكنت ادخل
الى غابات الزيتون فأحس بعيني تنتعشان • كنت اتبادل كلمة او كلمتين مع
اي فلاح يصدف ان يمر - الباني ، مثلا ، بجبهة ضيقة وقبعة سوداء قذرة
تفوح منه رائحة الحليب والثوم • كلماته مبتذلة ومشوشة ومليئة بالفضول
القاتم • كان هؤلاء الفلاحون ينظرون الي من زوايا عيونهم الخبيثة الصغيرة
مجهدين عقولهم الصغيرة لمعرفة من اكون ولم اجوب الجبال • جاسوس ؟
مجدوب ؟ بائع جوال ؟ ويلقون بنظراتهم المفترسة على الحقيبة التي احملها
على ظهري •

وكانوا يسألونني : « ماذا تباع يا صديقي ؟ اناجيل ؟ أنت ماسوني ؟
هل الامر كذلك ؟ » •

وذات يوم سمعت زقزقة ورأيت عصفورا أزرق فولاذيا يطير فوقني
فاوقفت فلاحا كان يمر قربي وسألت بلهفة « اي نوع من العصفير هذا يا
صديقي ؟ ماذا يسمى ؟ » فأجاب بهزة من كتفه « المسكين • من يهتم له •
انه لا يؤكل » •

تعودت ان انهض عند الفجر • نجمة الصبح تقطر على الارض وضباب
ثفيف يحوم على « هيميتوس » ونسمة باردة تلمح وجهي والقبرات تغط
مفردة في الهواء ثم تغيب في الضوء • وذات احد في الربيع اذكر انني رأيت
شجرتين او ثلاث اشجار من الكرز المزهر في حقل احمر محروث حديثا •
ملأت السعادة قلبي • في تلك اللحظة بزغت الشمس وهي تتلامع كما كانت
يوم ان خرجت اول مرة من يدي الله • وتلافاً خليج سارونيك ، في بحر ايجه
البعيد ، معباً بالزهور في ضوء الصباح • وطار غرابان عن يميني واجنحتهما
تهتز كأوتار القوس - بشارة طيبة •

الى جانبي كانت الامواج البيضاء كالخيول الهومرية بقفزاتها العريضة
واشعار هوميروس المنعشة والى الجانب الاخر زيتون اثينا الزيتي والمليء
بالضوء ، وغار ابولو وعنب ديونيزوس صانع العجائب المليء بالخمر
والغناء • والارض الجافة البخسة ، وحجارتها المحمرة من الشمس والجبال
التي تخفق زرقاء في الجو ، والبخار يتصاعد منها في الضوء وهي تتشمس
براحة وسلام وكلها عارية كالرياضيين •

رحت امشي • وبينما انا امشي كنت احس ان الارض كلها والسماء
كلها تسيران معي • المعجزات المحيطة بي كلها اخترقتني • ازدهرت وضحكت
وارتعشت بدوري كوتر القوس • اه • كيف تلاشت روحي ذلك الاحد وغابت
وهي تغني في ضوء الصباح تماما كالقبرة !

تسلقت قمة هضبة ورحت اجيل النظر في الشواطئ الضيقة الوردية
والبحر والجزر الصغيرة • اية متعة كانت تلك ! اليونان بجسدها العذري
تسبح بين الامواج وترفع بنفسها فوقها والشمس تسقط عليها كعروس !
كيف كانت تروض الحجارة والماء وتخلص نفسها من اساس المادة وقساوتها
وتحتفظ بالجواهر وحده •

كنت اتجول بغية التألف مع اتيكيا ، او هكذا كنت اظن • لكنني ، في
الحقيقة ، كنت اتجول بغية التألف مع روحي • كنت اتمنى ان اجدها وان
اتعرف عليها في الاشجار والجبال والعزلة - ولكن دون جدوى ، لم يقفز قلبي
فرحاً • تلك العلاقة الاكيدة التي بينت لي انني لم اجد ما كنت ابحت عنه •

مرة واحدة فقط ، وكان الوقت ظهرا ، اعتقدت انني وجدت • كنت
قد تجولت وحيدا الى سونيون • وكان الصيف قد حل والراتينج يسيل من
شقوق اشجار الصنوبر مائلاً الهواء بالعطر • وحط جندب على كتفي ومكث
عليه • وسرنا معا لفترة • كانت لجسدي كله رائحة الصنوبر • لقد مرت
صنوبرة • ثم حين خرجت من غابة الصنوبر رأيت الاعمدة البيضاء لمبعد

جوزيبون ومن بينها بدا البحر الاقدس بزرقته العميقة المتلاثلة . تراخت
ركبتاي تحتي وتوقفت . رحمت اقول لنفسي ان هذا هو الجمال وهذا هو
النصر بلا اجنحة ، قمة الغبطة ، حيث لا يستطيع الانسان ان يسمو الى أعلى
منها . هذه هي اليونان .

كانت فرحتي عظيمة الى درجة ان خيل الي للحظة ، وانا اتطلع الى جمال
اليونان ، انني قد شفيت من جرحي وان هذا العالم ، على الرغم من انه
زائل - وربما لانه زائل - فان له قيمة . واعتقدت انني كنت مخطئا حين
كنت احاول ان ارى حيزبون المستقبل وراء وجه الفتاة الشابة ، بل ان علي
ان اعيد في وجه الحيزبون خلق وتجديد عذوبة الفتاة وشبابها وهي التي
لم تعد موجودة .

ان المشهد الاثيني خلاب بطريقة اخاذة لا يمكن التعبير عنها . هنا في
اليونان يحس المرء ان كل شيء قائم على ايقاع بسيط وقوي ومتوازن .
ولكل شيء هنا بهاؤه الارستقراطي وتلقائيته : الارض الجافة المقتصدة ،
والانحناءات البهية لهيميتوس وبنتيليكوس ، واشجار الزيتون ذات الاوراق
الفضية ، والسرو الممشوق الزاهد ولعان الصخور للعبوب تحت الشمس وقبل
كل شيء الضوء اللعوب الشفاف والروحي الذي يكسو الاشياء كلها ويعبرها .

المشهد الاثيني يحدد قسمات الرجل المثالي : بنيته القوية المشوقة ،
صموت ، متحرر من الثروة السطحية ، قوي الا انه من جهة اخرى قادر على
السيطرة على قوته وفرض حدود على خياله . ويصل المشهد الاثيني احيانا
الى حدود الصرامة . غير انه لا يتجاوزها بل يتوقف عن الجدية المرحية الطيبة .
ولا ينحدر بهاؤه الى الرومانسية ولا تنحدر قوته ، بالتميز ذاته ، الى
الخشونة . كل شيء متوازن ومحسوب بشكل جميل . حتى الفضائل لا تصل
الى المبالغة والافراط ولا تحطم المعنى الانساني بل تتوقف عند النقطة التي
اذا تجاوزوها ، يصبحون بعدها اما اشرارا لا انسانيين واما اليهين . والمشهد
الاثيني لا يتباهى ولا يفرق في البلاغة ولا ينحدر الى خطرات النشوة
الميلودرامية . انه يقول ما عليه ان يقوله بقوة هادئة ورجولة . وبأبسط
الوسائل الممكنة يقوم بتشكيل الجوهرى .

ولكن بين حين واخر ، وفي وسط هذه الجدية هناك بسمه - شجرتا
زيتون فضيتا الاغصان او ثلاث شجرات على منحدر قاحل ، بعض
الضنوبرات ذوات الخضرة المنعشة ، او شجيرات دفلى على حافة مجرى
نهر جاف ناصع البياض ، باقة من البنفسج البري بين الحجارة السوداء
المزرقعة الالهية . المتضادات كلها تتجاور وتمتزج وتتصالح هنا خالقة ذلك
التوافق المعجز السامي .

كيف حدثت هذه المعجزة ؟ واين وجد البهاء هذا القدر من الجدية ،
والجدية هذا القدر من البهاء ؟ وكيف استطاعت القوة ان تتجنب تحقير
القوة ؟ ان هذا كله لا بد ان يؤسس المعجزة اليونانية .

كانت تأتي لحظات ، وانا اجوب اتيكيا ، يبرز فيها لدي هاجس بأن
هذه الارض كان في وسعها ان تصبح اسمى درس في التحضر والنبيل والقوة .

بعد كل جولة من جولاتي عبر الريف الاثيني كنت ، دون ان اعرف
السبب في البداية ، اتسلق اكربوليس للتطلع واعادة النظر الى بارتينون
هذا المعبد لغز بالنسبة لي . لم استطع ابدا ان اراه مرتين بالطريقة ذاتها .
كان يبدو انه يتغير دائما ، ويحيا ، ويتموج وهو ثابت ويلعب مع الضوء
ويتلاعب بالعين البشرية . ولكن ، بعد الشوق لرؤيته سنوات عديدة ، حين
واجهته للمرة الاولى بدا لي ساكنا ، هيكل عظيم لوحش بدائي ولم يقفز
قلبي عندها مثل العجل الصغير . (كانت هذه بالنسبة لي دلالة لا تخطيء
عبر حياتي . حين اقابل شروق الشمس او لوحة او امرأة او فكرة تجعل قلبي
يقفز كعجل صغير اعرف عندها انني اقف امام السعادة) . واول مرة وقفت
فيها امام بارتينون لم يقفز قلبي . بدا لي البناء ماثرة من فعال العقل - من
الارقام والهندسة - تفكير مصيب ورخامي ، وانجاز سام للعقل ، فيه كل
فضيلة - كل فضيلة باستثناء واحدة وهي اكثرها قيمة ومحبة : كان عاجزا
عن لمس القلب البشري .

كنت احس ان بارتينون كان رقما زوجيا مثل الاثنين والاربعة . الارقام
الزوجية تجري معاكسة لقلبي : لا شأن لي بها . وحياتها مرتبة بشكل
مريح جدا . انها تقف على اقدامها بثبات كبير وليس لديها اية رغبة في
تغيير مكانها . قانعة ومحافطة ومستقرة . لقد حلت كل مشكلة وحولت كل
رغبة الى واقع وهذأت . والرقم الفردي هو الذي يتلاءم مع ايقاع قلبي فحياء
الرقم الفردي ليست مرتبة بشكل مريح ابدا . والرقم الفردي لا يحب العالم
بالشكل الذي يراه عليه بل يرغب في تغييره والاضافة اليه ودفعه الى
الامام . يقف على قدم واحدة والاخرى جاهزة في الهواء وهو راغب في الرحيل .
الى اين ؟ الى الرقم الزوجي التالي من اجل ان يتوقف قليلا يلتقط انفاسه
ويستحضر زخما جديدا .

اما هذه العقلانية الرخامية الواعية فقد كانت مزعجة لقلب الشاب
الرافض الذي يريد ان يدسحق كل شيء قديم ويعيد تجديد العالم . لقد كان
خرفا محترسا جدا يرغب من مستشاريه ان يقدموا لجاما قصيرا جدا لاندفاع
القلب . ادرت ظهري لبارتينون واغرقت نفسي في المنظر الرائع الذي يمتد
حتى البحر . كانت الشمس في قبة السماء وكان الوقت ظهرا : ساعة

النضج ، خالية من الظلال أو من اية لعبة للضوء . كمال وصمو وصراحه
تطلعت الى المدينة البيضاء الناصعة والمشعة والبحر المقدس المشعشع حول
سلاميس والجبال المحيطة التي تمشى عارية وسعيدة ، غرقت في هذه
الرؤيا ونسيت البارتيون الذي كان يقوم ورائي .

ولكن بعد كل عودة جديدة من غابات الزيتون الاثينية وخليج ساورنيك ،
كان التوافق المخبوء يلقي عنه بحجبه الواحد بعد الاخر ثم يكشف عن نفسه
لعقلي ببطء وانتظام . وفي كل مرة اعود بها الى تسلق اكروبوليس كان
البارتيون يبدو وكأنه يتأرجح قليلا ، كما لو انه في رقصة ثابتة - يتأرجح
ويتنفس .

دام هذا الاستهلال شهورا وربما سنوات . ولا اذكر بدقة اليوم الذي
وقفت فيه امام البارتيون مؤهلا تماما وقلبي يقفز كعجل صغير . هذا
المعبد الشامخ امامي ، أي نصب تذكاري كان ا واي مزيج من القلب والعقل
واية ثمرة سامية للجهد الانساني ! لقد تم قهر الفضاء . والفروق بين
الصغير والكبير قد تلاشت . ودخلت اللانهاية الى هذا المتوازي الاضلاع
السحري الضيق الذي حفره الانسان . دخلت ببسر واسترخت فيه . كما ان
الزمن ايضا قد تم قهره وتحولت اللحظة اللطيفة الى ابدية .

سمحت لنظرتي ان تزحف على الرخام الدافئ المشبع بالشمس .
فلامست الحجارة ونقبت بينها كي تكشف الاسرار الخبيثة والتصقت بها
رافضة تركها . ورأيت الاعمدة المتوازية ظاهريا تميل تيجانها بحركة غير
مرئية واحدها نحو الاخر بحيث انها بتصميم مسبق وبقوة ولطف تسند
الحفريات المقدسة المؤتمنة عليها . لم يسبق ابدا للتموجات ان ابدعت
خطوطا بهذه الاستقامة الكاملة ولم يسبق ابدا للارقام والموسيقى ان
تزاوجت بهذا التفاهم وهذا الحب .

اعتقد ان هذه التجربة هي اكبر متعة قابلتها في سنواتي الدراسية
الاربعة في اثينا . ولم تأت اية نشوة انلوية واحدة لتعكر الهواء الذي
كنت اتنفسه . لكن كان لدي عدة اصدقاء وكنت احبهم كثيرا . كنت اذهب
لتسلق الجبال معهم . وفي الصيف كنا نسبح معا في البحر . وكنا نتحدث
عن عرضية الاشياء اليومية ثم اقمنا حفلات كان بعضهم يجلبون صديقاتهم
اليها . كنا نضحك دون سبب لاننا شبان ، وكنا نحزن دون سبب لاننا شبان
ايضا . كنا كعجول قوية تتنهذ لان قوتها تخنقها .

كم من الفرص كانت امام كل منا ! كنت انظر الى عيون اصدقائي
واحدا بعد الاخر محاولا ان اخمن الاتجاه الذي فيه سوف تندلع طاقاتهم

فاتحة مبرا • كان احدهم يلتهب فوراً حينما يفتح شفثيه للنطق بأية فكرة او للتحدث عن حماقة مجنونة تستهويه • ولقد كان من الممتع جدا سماع القوة المحكمة العظيمة التي كان بها يعدد أفكاره دون تلثم • وحين استمع اليه كنت احس بالحسد لانني كلما فتحت فمي للكلام نذمت فوراً • الكلمات تاتيني بصعوبة • واذا حدث ان قدمت حجة لدعم رأي لي فان الحجة المناقضة ، والصحيحة بالمقدار ذاته ، كانت هي التي تقفز الى ذهني • ولخجلي من الكذب كنت اصمت فوراً ••• هناك صديق اخر متحفظ • كان متطرفاً في الاقلال من كلماته • فلم يكن يفتح فمه الا عند استظهار درس القانون • وعندها كان المدرس وكنا نحن جميعاً نصفي اليه باعجاب وهو يعقد عامداً مشكلات العدالة ثم يحلها بمهارة فائقة • واخر كان منظماً بارعاً في تنظيم الجماهير • انخرط في العمل السياسي وصار ينظم المظاهرات ويلقي الخطابات ويذهب الى السجون ويخرج منها ليعاود كفاحه • وقد قلنا عنه جميعاً انه ذات يوم سوف يصبح رجل دولة عظيماً • واخر كان نباتياً شاحباً ناعم الحديث بعينين زرقاوين واهنتين ويدين أشبه بأيدي النساء • استطاع بعد جهد كبير ان يؤسس نادياً شعاره زهرة ليلك و « الاقدام انظف من الايدي » • كان يحب القمر • وقد اعتاد ان يقول : « القمر هو المرأة الوحيدة التي احب » • وكان هناك اناخر كليكة لم تمس - كان شاحباً متشامماً له عينان زرقاوان واسعتان ویدان بأصابع طويلة • كان يكتب الشعر • ولم أستطع ان احفظ الا القليل من شعره • ولكن ما أن أردت هذه الابيات وحدي حتى تمتلئ عيناى بالدموع • ذلك ان هذا الشاب قد وجد ذات ليلة خارج دير كنساريانى مشقوقاً على غصن شجرة زيتون •

هناك اصدقاء اخرون عديدون • لكم منهم روحه المتميزة المليئة بالبراعم المغلقة • وكنت أسأل نفسي : متى ستفتح هذه البراعم ؟ ومتى ستثمر ؟ وكنت ادعو : يا الهي دعني اعش حتى اراها • ودعني أعش حتى أرى اية براعم ستفتح في داخلي انما واية ثمار ستعطي ا كنت انظر الى اصدقائى بقلق وحزن صامت وكأني اودعهم • فقد كنت اخاف ان يكون الزمن هو العاصفة التي ستهب حينما تتبرعم الطبيعة واخاف ان تهب بقسوة وان تعري هذه الارواح •

حين غادرت اثينا خلفت ورائي تاجين غاريين هما الوحيدان اللذان كوفئت بهما طوال حياتي • اخذت الاول من اجل المباراة • كان اكليلاً ثقيلاً محاكاً من اشربة بيضاء وزرقاء ومؤلفاً من الغار الذي يفترض ان يكون مجلوباً من دلفي • وكانت كذبة • كنت اعرف انها كذبة مثلما كان يعرف الجميع الا ان هذه الكذبة كانت تجعل الاوراق بهية • اما الثاني فأخذته في مسابقة لكتابة المسرحية • لا اعرف كيف ولكن ذات يوم احساست بدمي يلتهب

فكتبت مسرحية حماسية مليئة بالعواطف والتشاؤم . كانت حول الحب .
وسميتها « بزوغ النهار » ولقد كنت واثقا من انني أقدم للعالم اخلاقية
اسمى وحرية اعظم ونورا جديدا . الاستاذ ، الذي كان الحكم ، وهو رجل
حليق جاد يضع قبعة عالية ، حكم ان مسرحيتي هي افضل المسرحيات
المقدمة . ولكنه من قبيل الحرص ، وصمها (بكاتاريغوزية (1) بليغة)
بأن فيها عبارات جريئة واثارة جنسية جامحة . وقد قال في النهاية
« اننا نمنح الشاعر التاج الغاري الا اننا نطرده من هذه الرياض المقدسة » .
كنت في المدرج الكبير في الجامعة ، تلميذا غرا غير ملتج ، وسمعت ما قاله
فتضرجت ووقفت ثم اندفعت خارجا وقد تركت اكليل الغار على طاولة
الحكم .

كان لي صديق يعمل ملحقا في وزارة الخارجية . وكنا قد خططنا للسفر
معا الى أوروبا الغربية . فقال لي ذات يوم « يفضل ان تأخذ اكليل المبارزة .
اذ اننا لن نستطيع الحصول على اوراق الغار شمالا وسنحتاج اليها من اجل
الحمام » .

علقت الاكليل على الجدار واحتفظت به . ومرت السنوات . وحين تحقق
حلمنا اخيرا وانطلقت ، وصديقي ، الى ألمانيا ، اخذت الاكليل معي وخلال
عامين كنا قد استهلكنا اوراقه كلها في الحمام .

(1) اللغة الاغريقية الكلاسيكية .

١٦ - العودة الى كريت

كنوسوس

عدت الى كريت في الصيف الاخير من سنواتي الدراسية • وجدت امي جالسة في مكانها المعتاد قرب النافذة المطلة على الدار • كانت ترفو الجوارب • وكان الوقت مساء وقد بدأت اختي تسقي اصص الحبق والسمسق • وكانت العريشة فوق البئر مثقلة بالعناقيد الكبيرة غير الناضجة • بعد •

لم يتغير شيء في البيت • كان كل شيء في مكانه • الاريكة والمرآة والمصابيح وعلى الجدران ابطال عام (٢١ بشواربهم الكثيفة وصدورهم المشعرة والمسدسات على خصورهم : كانوا الارواح العنيفة المحكومة بعواطفها والقادرة على فعل - وقد فعلت - الخير والشر حسبما كانت تدفعهم كتاباتهم الداخلية • لقد كتب كاريسكاكيس للكاتب ستورناراس « ايها الاخ الباسل الكابتن نيكولاس • تلقيت رسالتك ورأيت كل ما كتبت • ان لمنحسي ابواقا وله ايضا توبوليكا • وانني اعزف على ما اريد » والتوبوليكا آلة موسيقية تركية بينما البوق يوناني • وهؤلاء الابطال لم يكونوا ارواحا نقية بل كانوا ارواحا عظيمة • والارواح العظيمة خطيرة دائما •

انني لاتسائل غالبا عن السر الذي يجعل زهرة الحرية الزرقاء تجد غذاءها في مزبلة كهذه وتطلق جذورها فيها : مزيج من الكراهية والخيانات والمنازعات والمآثر البطولية والحب الوهاج للوطن الام والرقص على زالونغون (١) •

(١) ريف صخري شديد في التاريخ اليوناني • وعلى هذا الريف فضلت (٥٧) امراة يونانية عام ١٨٠٣ (١٨ ديسمبر) الموت على الاستسلام للاتراك فآدين رقصة القين خلالها بأطفالهن من اعلى الريف ثم تفزن واحدة تلو الاخرى •

في الصباح التالي نهضت باكرا ومنتشطا وذهبت للبحث عن رفيقي اللذين لم اكن قد رأيتهما منذ أربع سنوات . لكن عضوي جمعية الصداقة السابقين لم يعد من الممكن التعرف عليهما . لقد مرت الحياة عليهما وسطحتهما . صارا ينفجران بالضحك حين يتحدثان عن جمعية الصداقة . كان لاحدهما صوت جميل وقد صار يدعى الى حفلات الزواج والتعميد واحتفالات العطل المدرسية . صار يأكل ويشرب ويغني . وصار الناس يعجبون بصوته الجميل وهو ، ايضا ، كان يشاركهم الاعجاب . لقد بدأ السير على المنحدر وصارت يده ترتجفان من الافراط في الشرب . أما الاخر فقد درس الفيتار وصار يعزف مقطوعات عاطفية واغنيات راقصة برفقة صديقه . وجدت كلا منهما حسن التغذية ومرتاحا وأنفه محمر . لقد وجدا عملا في مشغل الصابون : انهما يكسبان عيشهما ويتمتعان بالحياة ويرعيان زوجتيهما .

كنت أراقبهما وانا اصغي لكلماتهما دون ان اتكلم . لقد سدت حنجرتي . اكان من الممكن ، اذن ، ان يتحول اللهب الى رماد بهذه السرعة ؟ وهل كانت الروح متلاحمة مع اللحم ؟ كانا يعرفان مهر كل فتاة واين تستطيع ان تأكل اطرف المأكولات Loukoum واية حانة تقدم افضل الخمر .

غادرتهما وانا طعين كما لو انني كنت في جنازة . وخطر لي ان الفضائل الثانوية اخطر بكثير من الرذائل الثانوية . لولا ان هذين الاثنين يغنيان ويعزفان جيدا لما دعيا الى الحفلات ولما سكرا ولما هدرنا وقتيهما ولأمكن انقاذهما . ولكن بما انهما يغنيان جيدا ويعزفان على الفيتار جيدا فقد بدأ الانحدار .

وفي اليوم التالي حين لمحتهما عن بعد غيرت طريقي . لقد خجلت لان صداقات واشواقا عديدة قد تلاشت من اعماقي بهذه السرعة وتلاشت معها خطط عظيمة عديدة لانقاذ العالم . لقد هبت الرياح وتعرت نهائيا شجرة الشباب المزدهرة . وتساءلت أما كان من الممكن ان تحمل شجرة الشباب هذه اية ثمرة ؟ اكانت هذه هي الطريقة التي انطلق فيها الاسطول الصغير ليمخر المحيط ولا ينتهي الا الى الغرق في هذا الحوض العائلي .

رحت أفكر وحدي عبر الازقة وانا اعود مرة بعد الاخرى الى المرفأ لاستنشق من جديد رائحة الخروب والكباد المتعفن . كنت احمل دائما في يدي كتابا . دانتي احيانا واحيانا اخرى هوميروس وبينما أنا اقرأ الاشعار الخالدة كنت اشعر ان في وسع الانسان ان يكون خالجا وان السطح الغريب للعالم المؤلف من البيوت والناس والمتع والاهانات، تلك الفوضى غير المنسجمة التي ندعوها بالحياة - تستطيع ان تتوحد في صيغة منسجمة .

ذهبت ذات يوم الى بيت الفتاة الايرلندية . لكنها كانت قد رحلت .
 ومررت بالمنزل مرة ثانية وانا احس بمرارة واسى غريبيين لما فعلته .
 فشلت في فعله . كان يبدو كما لو انني قد اقررت جريمة وهانذا اعود مرة
 بعد اخرى للدوران حول الضحية . لم استطع النوم . وذات ليلة بينما كنت
 اعبر الصي التركي سمعت امرأة ، تغني موالا (١) شرقيا بصوت مليء بعاطفة
 حزينة متشنجة . كان الصوت عميقا واجش وكثيبا ينطلق من حنايا المرأة
 ويملا الليل بالياس والسوداوية الحزينة . وحين احسست انه من المستحيل
 علي ان اتابع السير وقفت انصت ورأسي مائل الى الجدار . لم استطع ان
 التقط انفاسي . ولما لم تعد روحي المختنقة قادرة على التلاؤم مع قفصها
 الطيني تدلت من قمة رأسي وراحت تتردد في ان تطير ام لا . لا . لم يكن
 الصدر الانثوي للمرأة التي تغني مترعا بالحب ، ليس ذلك السر الكلي
 الذي يزواج المرأة والرجل ، ولا بالغبطة ولا بالامل باين . بل كان مترعا
 بصرخة ، بامر موجه اليها لكي نحطم قضبان سجوننا المؤلفة من الاخلاق
 والفجل والامل وان نسلم انفسنا او نهذر انفسنا او نتوحد مع (العاشق)
 الرهيب المفوي الذي يكمن منتظرا في الظلام والذي نسميه الله . وانا اصغي
 الى اغنية المرأة المرتعشة الحزينة في تلك الليلة شعرت ان الحب والموت
 والله متوحدون او انهم شيء واحد . ومع مرور السنوات صرت اكثر وعيا
 بهذا الثالث الرهيب الذي يكمن في لجة الهيولي - في اللجة وفي قلوبنا .
 لم يكن ثالثا بل ما كان يسميه احد المتصوفين الارثوذكسيين « الجوهر
 المحارب » .

صمتت المغنية فابتعدت عن الجدار . لقد تخلص العالم من عذميته .
 وثبتت البيوت وانداحت الشوارع امامي بنعومة مرة اخرى وصرت قادرا على
 السير . رحمت اتجول طوال الليل لكن عقلي ظل اخرس ولم تاتني اية فكرة
 تخفف من اضطرابي او تغير من شكله . تركت جسدي يقودني وتنزهت على
 الجدران الفينيسية فوق البحر . كانت السماء مشعة وكل شيء يتلألأ .
 باتزاحت مجموعات النجوم منحدرة نحو الغرب ثم راحت تغيب وروحي
 تغيب معها . وهبت نسمة باردة جدا من الجبال ودخلت البيوت من خلل
 لشقوق المحيطة بالنوافذ فبردت النيام المتعرقين . وكنت استطيع ان اسمع
 لمدينة وهي تتنفس في الصمت العميق .

مررت ، تلك الليلة ، ببيت الفتاة الايرلندية مرة اخرى . كنت قد مشيت
 ساعات ودون أن أقصد ذلك أو اعيه وجدت نفسي أدور في دوائر متعارضة

(١) Amané : هي الاغنية التركية التي تتردد فيها كلمة « امان ... امان »

قربتني شيئاً فشيئاً من المركز ، بيتها • كأن هناك صرخة قد بقيت في ذلك البيت ، صرخة رهيبية مؤنبة كانت تدعوني ولم اكن استطيع مقاومتها • وقرابة الفجر وبينما كنت على وشك الوصول مرة اخرى امام نوافذها وابوابها الموصدة عبرت ذهني ومضة مشعة وانارته • لم تكن تلك صرخة بل هي اغنية المرأة الخشنة الكئيبة التي سمعتها ذلك المساء بينما كنت اعبر الصي التركي • لقد شوهدت الاغنية في داخلها وتحولت الى زعيق حيوان وحيد لا رفيق له وقد ترك مهجورا •

الاغنية والزعقة الوحشية والصرخة اليائسة من الفتاة الايرلندية - كلها تحولت الى انشودة حول عنقي وراحت تخنقني • تذكرت قولاً ماثورا سبق لي ان سمعته من شفتي مسلم عجوز : « ان دعتك امرأة للنوم معها ولم تفعل حلت عليك اللعنة • الله لا يغفر ذلك وستوضع مع يهوذا في قاع الجحيم » ارعبني ذلك • وتوجهت مسرعا الى البيت وانا اتصبب عرقا باردا واترنح كحيوان جريح •

نزلت الدرجات على رؤوس اصابعي لثلاث تطقق وتوقظ والدي ثم ارتميت على فراشي • كنت ارتعش • في لحظة احس ان جسدي صار كالنار وفي اللحظة التالية ارتعش بردا • كان من الواضح ان حمى قد اصابتني • وجاءني النوم مثل عنكبوت سام ينسج شبكته من حولي • وحين استيقظت عند ظهر اليوم التالي كنت ما ازال ارتعش •

استمر هذا الالم ثلاثة ايام • لم يكن الما بل كان جسما ثقيلًا في اعماق قلبي وكان في فمي طعم المرارة ، مرارة سامة • وبينما انا اتطلع من النافذة الى شجرة الاكاسيا في وسط الدار والى العريشة المثقلة بالعناقيد واختي تطرز وامي تروح وتغدو بصمت مقيدة الى نير خدمتها المنزلية المقدسة قفرت الكتلة الثقيلة من قلبي الى حلقي • كنت اختنق • احسست كأنني مطرود من الجنة • لا • لست مطرودا بل كان الامر كما لو انني بمحض اختياري قد قفزت من الشرفة السماوية وهربت ، تلك الفعلة التي اندم عليها الان وانا اجول دون عزاء خارج البوابات الموصدة •

قفزت من فراشي في اليوم الرابع منذ الصباح الباكر دون هدف واضح في رأسي ودون ان اعرف ما سافعله ، فأخذت قلمي وبدأت اكتب •

وتحولت تلك اللحظة الى منعطف خطير في حياتي • ربما ان الهي الداخلي في لحظة كهذه في صباح كهذا ، كان سيفتح لنفسه بابا ويهرب ومن يدري (لا بد انني فكرت بذلك ولكن دون ان اصوغه بوضوح) ربما لو ان الالم قد تجسد ولو ان الكلمات جسده لرأيت وجهه وبرؤيته اتخلص من خوئي

منه • لقد اقررت معصية كبرى • وربحاً طنني اجد العزاء حين اعترف بهذه المعصية •

لهذا بدأت احشد الكلمات واقذف بالقصائد وحكايات القديسين والروايات التي قرأتها • وبالذهب ، دون خيار ، من هذه وقلك بدأت اكتب • ولكن الكلمات الاولى التي سطرتها على الورق ادهشتني • لم يكن لدي شيء كهذا في ذهني • كنت ارفض ان اكتب شيئاً كهذا فلم كتبتة ؟ كاني لم احرر ابداً من اتصالي الجنسي الاول (رغم انني كنت متأكداً من تخلصي منه) وقد بدأت ابلور حكاية عن الفتاة الايرلندية ، حكاية مليئة بالعاطفة والتصورات الخيالية • لم يسبق لي ان تحدثت اليها بكلمات لطيفة كهذه ، ولم يسبق لي ان احسست بنشوة كهذه حينما لمستها مثلما اجد الان على الورق • كذب ، كذبات غير انني وانا اعدد هذه الكذبات ، امامي على الورق بدأت أفهم، لدهشتي ، انني كنت اجد بالفعل متعة كبيرة فيها ، اكانت حقيقية فعلا هذه الكذبات كلها ؟ ولم لم اكن اعرف بهذه المتعة خلال ممارستي لها ؟ ولم وانا اكتبها اعياها لاول مرة ؟

صرت احس بالزهو وانا اكتب • الم اكن إلها افعل ما اشاء معيدا صياغة الحقيقة ومشكلها كما احب ان تكون - كما كان يجب أن تكون ؟ كنت اجمع بين الكذب والحقيقة جمعا لا انفصام له • كان كل شيء عجينة اجبلها وادعكها بحرية حسب ما تمليه الرغبة ودون انتظار الاذن من احد • من الواضح ان هناك تشككا اكثر يقينا من اليقين ذاته • واحد جوانبه ايجاد قصة كاملة ارفع مستوى من ذلك البناء الواقعي الذي تعمل به الانسانية باسم الحقيقة •

تلك الفتاة الايرلندية التافهة المحنية قليلا صارت شخصية اخرى غير معروفة في كتابتي وبالنسبة لي ، انا الديك المنتوف ، فقد الصقت بنفسي ريشا هائلا متعدد الالوان لم يكن لي بالاصل •

انتهيت خلال ايام قليلة • جمعت المخطوطات وكتبت عليها « الافعى والليلك » بحروف حمراء بيزنطية ثم نهضت وتوجهت الى النافذة لاستنشاق الهواء • لم تعد الفتاة الايرلندية تعذبني الان • غادرتني لكي تستلقي على الورق ولم يعد في وسعها الانفصال عنه مرة اخرى • لقد نجوت !

كانت الغيوم تغطي السماء واصبح الجو معتما وكانت السماء تمطر • وتلاصقت الاوراق العريضة على الدالية وصارت العناقيد المكتنزة تتلامع كالزجاج • استنشقت عبر التراب المبلل ذلك العبير الذي يذكرني دائما بقبر محفور مجددا • لكن رائحة الموت قد تطهرت وامتلأ عقلي بشنوء عذب •

وجاءت سنونوة مبللة بالمطر والتجأت تحت النافذة • وكان الماء على السطح فوق يهدل وينقر كرف من الحمام •

كنت ما ازال امسك بالمخطوطة في يدي وكأنها مخلوق حي صغير لم اكن اريد له ان يهرب مني • وكأنني في قبضتي كنت امسك بالسنونوة المبللة - أو كأنني قد تصالحت مع الفتاة الايرلندية • لقد عاد الرماد من جديد الى تفاعهة وها انذا امسك بالتفاعهة في يدي •

خرجت الى الدار ورحت اتمشى جيئة وذهابا تحت المطر بين اصص الزهور متذوقا • ها هو حقي ، المتعة التي تحسها شجرة ظمأى مغبرة حينما تشفق عليها السماء ويبدأ المطر بالطول عليها • كان المطر ، دائما ، يمنحني تلك الغبطة التي لا يعبر عنها - ولولا انني اخجل لقلت انها غبطة جنسية • كنت احس كما لو انني الارض ، الارض العطشى ، والعنصر الانثوي في اعماقي ، المرأة المختبئة في اعماق احشائي تستيقظ وتتلقى السماء كما تتلقى رجلا ••• رخت اتمشى جدلا تحت المطر ، لقد تخفف قلبي • ولم اعد افكر بالصبية الايرلندية الا وانا اعيد تشكيلها وتجسيدها بالكلمات • لقد بدأت الان تضطجع لتستلقي على الورق • والحقيقة التي كانت تختزن الالم في قلبي طوال ذلك الوقت لم تكن الحقيقة الواقعية هي تلك المخلوقة المولودة حديثا من الخيال • فبواسطة الخيال قمت بطمس الحقيقة واحسست بالخلاص •

هذا الصراع بين الحقيقة والخيال ، بين الله الخالق وبين الانسان الخالق ، قد اسكر قلبي للخطة • « ها هو طريقي وهذا هو واجبي » صرخت بذلك في الدار وانا اروح واجيء تحت المطر • ان كل انسان يكتسب مكانة العدو الذي يصارعه • وقد سرتني ان اتصارع مع الله حتى لو كان في هذا دماري • لقد أخذ طينا وخلق منه العالم وانا اخذ كلمات • لقد صنع البشر كما نراهم (يضحقون على الارض) أما انا ، فبالهواء والخيال ، المادة التي تقوم عليها الاحلام ، فسأشكل بشرا اخرين بأرواح اقوى ، بشرا قادرين على مقاومة بلى الزمن • وبينما بشر الله يموتون فان بشري سوف يعيشون !

انني اخجل الان وانا استعيد هذه الفطرسة الشيطانية • ولكن في ذلك الحين كنت شابا • وان تكون شابا يعني ان تتعهد باخفاء العالم وان تكون لديك وقاحة الرغبة في اقامة عالم جديد وافضل مكانه •

كان صدري مثقلا بالالم • وعلى الرغم من ان التساؤلات القديمة قد تكورت بصمت في زاوية فان تساؤلات جديدة بدأت تبرز • والطريق الذي اضيء امامي بغتة كان طريقا خطرا وشديد الانحدار • كيف ظهر بهذه

التهجائية ذلك الطريق الذي لم يكن يخطر لي على بال ؟ ومن الذي فتح هذا الباب الداخلي و اثار لي نحوه على انه البوابة المفترضة للخلاص ؟ هل فعل ذلك ألم الجب الذي لم يتحقق ؟ ام ان من الممكن ان يكون القديسون قد فتحو الباب من الاساطير التي قرأتها وانا طفل ؟ أم فتحته كريت التي حين رأت انني لا استطيع مساعدتها بالقتال وضعت اسلحة اخرى بين يدي ؟

ولكي احول توجه افكاري فانني في الصباح التالي وبينما كانت اجراس الاحد تقرع والمسيحيون يتوجهون الى كنيسة القديس مينا للصلوة توجهت الى معبد اخر . ذهبت اقدم احترامامي الى القديسة كريت التي قامت من تراب كفوسوس العتيق .

ان سر كريت عميق جدا . وكل من يطأ هذه الجزيرة يحس بقوة سرية تتشعب بحرارة واحسان في اعصابه او يحس ان روحه تبدأ في النمو لكن هذا السر صار اعمق واغنى منذ اكتشاف هذه الحضارة المتعددة الفوائد بشكل هائل والمتعددة الالوان والتي كانت حتى ذلك الحين مدفونة تحت التراب ، هذه الحضارة المليئة بهذا النبل العظيم والغبطة الفتية .

غادرت المدينة سالكا الطريق الساحر الذي يؤدي الى المقبرة الجديدة . سمعت ندبا ونواحا فأسرعت الخطا . كان هناك تاجر اصيل من جيراننا وواحد من وجهاء ميغالو كاسترو قد مات منذ يومين وكانوا يدفنونه في المقبرة المحدثه مجددا . لقد مات شابا . وبينما كان اصداقاه ينقلونه تشبثت زوجته بالتابوت ورفضت ان تتركه . كنت امر في تلك اللحظة . فحاولت وجهي لكي اتجنب رؤية الجثة ذلك انني منذ ذلك اليوم الذي كنت فيه في الرابعة من عمري حينما ، كما تذكرون ، رأيت عظام جارتنا انيكاتزال من قبرها صرت عاجزا عن رؤية جسد ميت . ان الخوف يهيمن علي . فأنيكا بلا شعر او عينين او شفتين تقفز امامي وتندفع للامسك بي بغية اجلاسي من جديد على ركبتيها . انا اعرف ، طبعاً ، ان هذا ليس حقيقيا لكنني اعرف ايضا ان هناك اشياء اكثر حقيقية من الحقيقة نفسها ولهذا السبب اخاف واسرع خطاي كلما رأيت جثة .

كنت محاطا بالكروم وغابات الزيتون . لم يكن القطاف قد بدأ بعد ، العناقيد تتدلى مثقلة وتلامس الارض ، والجو تملأه رائحة أوراق التين . جاءت سيده عجوز وتوقفت . رفعت أوراق التين التي تغطي السلة التي تحملها على ذراعها وأمسكت حبتي تين وقدمتهما لي .

سألتها : هل تعرفينني يا جدتي ؟
نظرت الي بدهشة وقالت : « لا . يا بني . اعلي ان اعرفك لكبي

أعطيك شيئاً ما ؟ أنت انسان . أليس كذلك ؟ وكذلك أنا . ألا يكفي هذا ؟ »

وضحكت ضحكة شابة عذبة ثم بدأت تعرج متجهة الى كاسترو . كانت التينتان تنقطان عسلا . أظن أنهما أطيب ما ذقته في حياتي . لقد أنعشتني كلمات العجوز وأنا أكل . أنت انسان وكذلك أنا . وهذا يكفي . وسقط قرب ظلي ظل . التفت فرأيت قسما كاثوليكيا . نظر اليّ وابتسم . قال :

« الاب مونير » وهو يمسك بيده « أليك ما يمنع من مرافقتي ؟ أنا لا أعرف اليونانية الحديثة ، أعرف القديمة فقط . »

فاكملت :

ضحكنا وتابعنا ترجيع الاشعار الخالدة ونحن نسير . وعرفت فيما بعد ان هذا الاب الذي يضحك ويستظهر ، وخصلة من الشعر الاشيب تتأرجح على جبهته ، كان مشهورا بورعه وذكائه . فقد نجح في اعادة عدد من الملحدين المشهورين في باريس الى الرعية . بعقله النير كان يجوب العالم وهو يتحدث ويمازح السيدات ، ولكن خلف هذا المظهر الخارجي اللاهي والديناميكي كان المسيح يتدلى مصلوبا كصخرة ثابتة حصينة . لا . ليس المسيح مصلوبا بل المسيح مبعوثا .

أسرع الحارس لتحيتنا وليشرح لنا عن الموقع . كان كريتيا بسيطا وفرحا يرتدي سروالا ويحمل عصا ضخمة وكان اسمه داوود . لقد تعلم الكثير خلال سنوات خدمته كحارس ودليل في كنوسوس . ولذا صار يتحدث عن القصر كما لو انه يتحدث عن بيته وقد استقبلنا كما لو أنه رب البيت .

وصار يمشي أمامنا وهو يشير بعصاه ليدل على المواقع : « أمامكم البلاط الملكي العظيم طوله ستون مترا وعرضه تسعة وعشرون مترا . هذه هي المخازن بجارها الهائلة المزينة . فيها كان الملك يخزن منتوجاته ليطعم شعبه . لقد وجدنا رسوبات الخمر وزيت الزيتون في الجرار وبذور الزيتون والفاصولياء والحمص والقمح والشعير والعدس . لقد تفحّم كل شيء بسبب الثيران الهائلة » .

صعدنا الى المخزن العلوي . من كافة الجهات كانت هناك أعمدة قصيرة وثخينة وملونة بالاسود والارجواني . رأينا في الممرات رسوما جدارية من الزهور والتروس والثيران . ووصلنا الى الشرفة العالية . وامتد من حولنا المشهد المنزلي السعيد . وفي مركز الافق يوكتناس ، رأس زيوس المسترخي ،

وكان القصر ، نصف القائم ونصف المتهدم ، يتلامح ببهاء بعد آلاف السنوات مستمتعا من جديد بشمس كريت المذكرة . في هذا القصر لا يرى المرء توازن فن العمارة اليوناني . بل هنا يرى الخيال والعظمة واللعب الحر لطاقة الانسان الخلاقة . لقد نما هذا القصر وتوالد مع مرور الزمن ، ببطء وكعضوية حية ، كشجرة . لم يبن نهائيا حسب مخطط ثابت مسبق التصميم بل نما بالاضافات المتلاحبة والمنسجمة مع الحاجات المتجددة دائما مع الايام . لم يقم المنطق الجامد والصارم ، هنا ، بتوجيه الانسان . هنا كان العقل مفيدا ولكن كخادم لا لسيد . كان السيد شيئا آخرا وشخصا آخر . أي اسم نستطيع أن نطلقه عليه ؟

التفت الى الاب وبحث له بأفكاري ثم سألته رأيه . فأجابني بابتسامة: « تريد أن تعرف من كان السيد ؟ من تتوقع أن يقول لك عنه قس الا الله ؟ الاله الكريتي هو السيد . كان يسيّر أيديهم وعقولهم وهم كانوا يبدعون . الله هو السيد الباني . وهذا الاله الكريتي كان نبيا وعابثا مثل البحر الذي يعانق الجزيرة . ولهذا ففي المشهد وفي القصر وفي الرسوم والبحر التوحد والانسجام الصحيحان » .

نزلنا السلم الحجري ورحنا نتطلع بصمت الى الرسوم على الجدران : عجول وزهور ليك وأسماك في البحر الأزرق ، والأسماك الطائرة التي تفتح زعانفها لكي تقفز فوق الامواج كما لو أن الماء ، عنصر الامومة لها ، يقيدها وهي تتوق لاستنشاق هواء أكثر نقاء . توقفنا على المسرح وهنا التهب الدليل حماسا . قال ووجهه يتوهج فحرا « هنا كانت تحدث مصارعة الثيران . لكن مصارعة الثيران الكريتي لم تكن مثل المصارعات الوحشية في أسبانيا . هناك ، كما قيل لي ، يتم قتل الثور وتنزع أحشاء الخيول . أما هنا فقد كانت المصارعة لعبة دون دماء . كان الثور والانسان يلعبان معا . مصارع الثيران يمسك الثور من قرنيه ، ويغضب الحيوان فيرفع رأسه في الهواء عاليا مما يعطي المصارع قوة دفع فيقفز بحركة بهلوانية بارعة الى ظهر الثور ثم يقوم بحركة بهلوانية أخرى لينزل وراء ذنب الثور حيث تنتظره صبية لتأخذه بين ذراعيها » .

كان الاب يركز نظره على الصفوف الحجرية للمسرح ، وكأنه يجاهد لسحب اللعبة المقدسة مجددا الى الضوء . شرحت له كلمات الحارس . فأخذني من ذراعي وتابعتنا السير . وتمتم لي : « من الصعب ان تلعب مع الاله لعبة غير دموية » .

توقفنا قرب عمود مربع من الجص المصقول كانت على قمته العلامة المقدسة منقوشة : الفأس ذات الحدين . ضم الاب كفيه وحنى ركبتيه لحظة ثم حرك شفتيه وكأنه يصلي .

استغربت وسألته : « ماذا - أتصلي ؟ »

- طبعا أصلي يا صديقي الشاب . كل شعب وكل عصر يمنحه الله قناعه الخاص به ، ولكن وراء الأقنعة كلها في كل عصر وفي كل عرق يبقى هو ذاته الله الدائم الذي لا يتغير .

صمت قليلا ثم أضاف : « ان لدينا الصليب شارة مقدسة لنا وأجدادك الأقدمون كانت لهم الفأس ذات الحدين . لكنني أنحي جانبا هذه الرموز الغانية وأتحسس الله وراء الصليب ووراء الفأس ذات الحدين ، أتحسسه وأنحني له احتراما . »

كنت فتيا جدا في ذلك الحين . لم أفهم في ذلك اليوم ولكن عقلي استطاع ، بعد سنوات ، أن يحتوي هذه الكلمات وان يجعلها تثمر . وعندها رحبت أنا أيضا أتحسس الوجه الخالد والابدي لله وراء الرموز الدينية . وبعد ذلك ، أيضا ، حين توسع عقلي أكثر وقوي قلبي ، بدأت أتحسس شيئا وراء وجه الله الهولي ، الظلمة الرهيبة غير المسكونة . ودون ان يقصد ذلك قام ذلك الاب بفتح طريق أمامي في ذلك اليوم في كنوسوس . وسلكت ذلك الطريق غير انني لم أتوقف حيث كان يشاء لي أن أتوقف . فقد توغلت أكثر ، مدفوعا بفضولي الشيطاني . واكتشفت الهوة .

جلسنا بين عمودين . كانت السماء النارية تتوهج كالفولاذ . وكانت الجنادب على اشجار الزيتون المحيطة بالقصر تصم الاذان . وانحني الدليل على العمود وأخرج كيس التبغ من تحت حزامه وراح يدرج لفافة . لم ينبس أي منا بكلمة . أحسنا بقداسة اللحظة والمكان وعرفنا أن الصمت هو الشيء الملائم الوحيد . وحلقت حمامتان فوق رؤوسنا وحطتا على أحد العمودين . هذان هما الطائران المقدسان للربة العظيمة التي يعبدها الكريتيون . تريان أحيانا على عمود وأحيانا أخرى تضمهما الربة بين ثدييهما المملئتين بالحليب .

قلت بهدوء : « حمامتان ... » وكأنني خفت أن تخافا من صوتي وتغادرا العمود . فوضع الاب اصبعه على شفثيه وهمس « اهدأ » .

وعلى الرغم من أن عقلي كان طافحا بالاسئلة فانني لم أتكلم . لقد مرت الصور الجدارية الغربية امام ناظري : عينان واسعتان لوزيتان ، شلالات من الضفائر السوداء ، وصيفات جليلات بنهود عارية وشفاة مليئة شهوانية وطيور - درج وهجل - وقرود زرقاء وأمراء مزينون بريش الطواويس في شعورهم ، وثيران هائجة مقدسة وكاهنات واهنات لفن الافاعي المقدسة على أذرعهن ، وصبيان ررق في حدائق مزدهرة . الغبطة

والقوة والثروة : عالم مليء بالغموض ، برزت اطلنتس (1) من اعماق
التربة الكريتية . وراح هذا العالم يحدق الينا بعينين كبيرتين سوداوين ،
لكن شفثيه ظلتا مطبقتين .

أي عالم هذا ؟ سألت نفسي . ومتى سيفتح شفثيه ويتكلم ؟ وأية
اعمال بطولية قام بها هؤلاء الاسلاف على الارض ذاتها التي نمشي
عليها ؟

كانت كريت هي الجسر الاوّل بين اوربا واسيا وافريقيا . وكانت كريت
اول مكان مستنير في اوربا المظلمة في تلك الايام . وهنا أيضا أنجرت الروح
اليونانية رسالتها المقدرة لها : لقد أنزلت الله الى مرتبة الانسان . وهنا
في كريت أيضا أصبحت النصب الهائلة الراسخة في مصر واشور صغيرة
ومجيدة ، بأجساد تتحرك وأفواه تبتسم : وتطابقت ملامح الله ومنزلته على
ملامح الانسان ومنزلته . انسانية جديدة وأصيلة مليئة بالرشاقة والبهاء
والترف الشرقي راحت تعيش وتلعب على الارض الكريتية ، انسانية
مختلفة عن اليونانيين الذين جاؤوا فيما بعد .

وفيما أنا اتطلع الى الهضاب الصغيرة الاليفة ، وأشجار الزيتون ذات
الاوراق المبعثرة والسرور الممشوق المتأرجح ببطء والناظر من بين الصخور ،
وفيما أنا أصغي الى الرنين الخفيف المنغم الصادر عن قطيع غير مرئي من
الماعز وأستنشق نسيم البحر العذب الذي ينتشر على الهضبة ، تغفل في
اعماقي السر اليوناني القديم وتوغل وأصبح ، على ما أعتقد ، أقل
غموضا . لم يكن هذا السر معنيا بالمشكلات العلوية بل بالمشكلات اليومية
بكل تفاصيلها العارة وبالمشكلات المستجدة دائما في حياة الانسان هنا
على الارض .

سألني الاب : « فيم تفكر ؟ »
فأجبته : في كريت .

فقال مرافقي : « أنا أيضا كنت افكر في كريت . كريت وروحي ...
ولو انني تمكنت من الولادة من جديد فانني كنت سأتمنى رؤية الضوء هنا
مرة أخرى ، على هذه الارض . هنا يكمن شيء من السحر غير المرئي ..
هيا بنا نذهب . »
نهضنا وألقينا نظرة أخيرة بطيئة الحركة على المشهد الرائع . كنت

(1) جزيرة خرائية في المحيط الاطلسي ، غربي جبل طارق ، زعموا انها غارت
في اعماق المحيط .

أرغب أن أراه ثانية ، ولكن الاب همس متنهدا : « وداعا .. وداعا للمرة
الاضيرة » .

ولوح بيده للاعمدة وللباحات وللوحات الجدارية . « وداعا . من أطراف
الارض جاء راهب كاثوليكي ليؤدي فروض الاحترام لك ولقد أداها .
فالوداع » .

توجهنا عائدين . ولكن الطريق الحار والمغبر أنهك الاب . فتوقفنا عند
دير صغير ينزل فيه دراويش يرقصون كل جمعة . كان الباب ذو القنطرة
اخضر وله كف مفتوحة من البرونز - الرمز المقدس لمحمد - فوق الباب .
وخافه الباحة النظيفة كانت مفروشة بحجارة بيضاء وكانت هناك أصص
الزهور والعرائش على الاطراف وفي الوسط شجرة غار كبيرة مثقلة بالثمر .
وقفنا في ظلها لنلتقط أنفاسنا . ورأنا أحد الدراويش من حجرته . فحيانا
وهو يقترب منا واضعا يده على صدره وشفتيه وجبهته . كان يرتدي ثوبا
أزرق طويلا وطربوشا طويلا من الصدف الابيض . وكانت لحيته سوداء
مؤنقة وقرط فضي يتدلى من أذنه اليمنى . صفق بيديه فجاء صبي بدين
حافي القدمين وجلب لنا مقاعد . جلسنا وتحدث الدراويش عن الزهور التي
كنا نراها حولنا ثم عن البحر الذي كنا نراه يشع من بين أوراق الغسار
الدقيقة . ثم بدأ يتحدث عن الرقص .

● لولا أن الانسان يستطيع الرقص لما استطاع الصلاة . الملائكة لها
أفواه ولكن تنقصها القدرة على الكلام ولذا فانها تحدث الله رقصا .
وسال الاب : أي اسم تطلقه على الله يا أبتى ؟
فأجاب الدراويش : ليس لله اسم . انه أكبر من أن تحتويه الاسماء .
الاسم سجن والله حر .

وأصر الاب : ولكن اذا شئت ان تناديه ، حين تكون هناك حاجة فاي
اسم تستخدم ؟

أطرق الدراويش مفكرا ثم افترقت شفتاه : « آه ! - هكذا أناديه .
ليُسم الله . بل آه .

وأربك هذا الكلام الاب فتمتم : انه على حق .

وظهر غلام الدراويش البدين مرة اخرى ومعه ، هذه المرة ، صينية فيها
قهوة وماء بارد وعنقودان كبيران من العنب . بدأت حمامتان تتناجيان
وتهدلان على السطح فوقنا . اكانتا الحمامتين اللتين رأيناها في كتوسوس؟
وحين صممتنا قليلا امتلأ الجو الديزي بنهدات الحب . التفت الى الاب .
كان يحدق الى الحمامتين والسماء التي وراءهما وعيناه مترعتان بالدموع .

وأحسن أنني أراقبه فقال مبتسما : « العالم جميل • نعم • انه جميل في بلاد الشمس - حيثما تجد سماء زرقاء وحماما وعنبا • وغارا فوق رأسك » •
كان يأكل العنب حبة حبة برضى تام • وتستطيع أن تخمن أنه كان يامل ان هذه اللحظة لن تنتهي • وقال : « حتى لو تأكدت من أنني ذاهب الى الجنة فأنني سأدعو الله بأن يجعلني اذهب من أبعد الطرق اليها » •
أحسنا في باحة ذلك الدير الاسلامي بسعادة جعلتنا لا نحتمل الانصراف •

وظهر دارويش آخرون من الحجرات المحيطة • كان للاصغر بينهم وجوه صفراء وعيون متقدة • كانوا يبدون في سعي يائس نحو الله • أما الكبار ، الذين لا بد أنهم وجدوا الله ، فقد كانت وجناتهم محمرة وعيونهم مليئة بالنور • قرفصوا من حولنا • وأخرج بعضهم السباحات من تحت الاحزمة الجلدية وبدأوا يسبحون بهدوء وهم يحدقون بفضول الى الراهب المسيحي • بينما أخرج آخرون الشبق (1) الطويل وبدأوا يدخنون بعيون نصف مغمضة وبصمت وارتياح •

وهمس الاب : « آية سعادة هذه ! وبأي بهاء يشع وجه الله هنا أيضا من وراء هذه الوجوه كلها • » ولمس كتفي متوسلا : « رجاء • ان للدراويش نظاما دينيا فاسألهم عن قواعدهم • »

ووضع اكبرهم سنا الشبق على ركبته ، وهو عجوز بلحية طويلة بيضاء ، وقال : « الفقر • الفقر : ان لا تملك شيئا وان لا تثقل نفسك بشيء وان تسير الى الله عبر ممر مزهر • الضحك والرقص والغبطة هي ملائكة الهداية التي تأخذ بأيدينا وتقود خطانا » •

والتفت الاب الي من جديد : « اسألهم كيف يستعدون للظهور أمام الله ؟ بالصيام ؟ » •

- « لا • لا • لا » • أحب درويش وهو يضحك • « نحن نأكل ونشرب ونشكر الله على ان منح الانسان الطعام والشراب • »
وأصر الاب : « كيف اذن ؟ »

وأجاب الدراويش العجوز ذو اللحية الطويلة البيضاء : « بالرقص • »
- بالرقص ؟ قال الاب • لماذا ؟

- لان الرقص يقتل الذات • وبمجرد ان تقتل الذات لا يبقى اي عائق يمنعك من الاتصال بالله •

(1) بية تدخين تركية طويلة - قد تكون النرجيلة •

وأبرقت عينا الاب ، وهتف وهويشد على يد الدرويش : « انه نظام القديس فرانسيس • هذا بالضبط ما كان يفعله القديس فرانسيس • كان يرقص في طريقه عبر الارض وهو يصعد الى السماء • وقد اعتاد ان يقول : (وما نحن الا مهرجين لله • ولدنا لتلطف قلوب الناس ونزرع فيها السرور) وهكذا فانك ترى يا صديقي الشاب ، مرة أخرى - ودائما دائما وجه الله الذي لا يتغير •

وتجرات على الاحتجاج : « ولكن في هذه الحالة لماذا تذهب البعثات الى أرجاء الارض كلها وتحاول ان تجعل سكانها ينكرون قناع الله الذي يناسبهم من اجل ان يضعوا قناعا اجنبيا - قناعا - مكانه ؟

ونهض الاب وقال : اجد الاجابة على هذا السؤال صعبة • ان شاء الله ستأتي الى باريس لاكمال دراستك فزرنى الى بيتي • ثم ابتسم بدهاء • - ربما حتى ذلك الحين اكون قد وجدت الجواب • ودعنا الدراويش • ورافقونا الى الباب الخارجي بالبسمات والانحناءات وهم يلمسون مرة اخرى الصدر والفم والجبين • وعلى العتبة قال لي الاب : قل لهم ، أرجوك ، اننا جميعا نعبد الله ذاته • قل لهم انني درويش في ثوب اسود •

١٧ - الحج عبر اليونان

وعدني والذي بسنة من الترحال الى حيث اريد اذا تخرجت بمرتبة الشرف العليا . كانت المكافأة عظيمة فانهمكت بكياني كله ، قلبا وروحا ، في الدراسة . وكان احد اصدقائي ، وهو كريتي بارع وشيطاني ، سيقدم امتحاناته معي . وجاء اليوم الحاسم فذهبنا معا الى الجامعة وكل منا في غاية القلق والتوتر . كنت اعرف كل شيء كما كنت قد نسيت كل شيء . كانت ذاكرتي خاوية وكنت خائفا . وسألني صديقي : هل تذكر شيئا ؟

ولا شيء .

- ولا أنا . دعنا نذهب الى حانة البيرة ونشرب حتى نسكر ونهل لسانينا . هكذا كان والذي يذهب الى الحرب - سكرانا .
هيا بنا .

شربنا ، ثم شربنا اكثر وبدأنا نشعر بالسعادة . وسألني صديقي :
- كيف يبدو العالم لك ؟

مزدوجا .

- وأنا ايضا . اتستطيع المشي ؟

نهضت وسرت عدة خطوات ثم اجبته : نعم .
فلنذهب اذن . القانون الروماني - ارتجف ا

انطلقنا متشابكي الذراعين في البداية ثم استمد كل منا شجاعته وسار وحده وعلى قدميه . وصرخت : « هيه . يا باخوس يا سندي . امسك جوستينيان ورواياته المسكة المطرقية (١) القديمة والقه على الارض »

(١) باب من ابواب المصارمة تلوى فيه ذراع الخصم خلف ظهره .

وسألني صديقي : لم تدعو باخوس ؟ لقد شربنا البيرة ولم نشرب خمرا .
- متأكد ؟

- الا تصدقني ؟ فلنرجع ونسأل
ورجعنا . فأكد لنا صاحب الحانة : « بيرة . بيرة » وهو يسند خاصرتيه
من الضحك « الى اين تتجهان ايها السيدان ؟ »
-لتقديم الفحص في مادة القانون .
- انتظرا ساتي معكما لكي اضحك .

نزع عنه صدريته وتبعنا . كان الاساتذة ينتظروننا وهم متوجون في
صف واحد فبدوا اشبه باسراب البعوض . كان دماغانا يتوهجان . وبحيوية
هائلة أجينا على استئلتهم . اجبنا عليها بلا مبالاة فيها شيء من الوقاحة
مازجين فيها الابيات اللاتينية بترديد عال . كان لسانانا يتحركان دون توقف
وخرج كل منا بأعلى درجات الشرف .

سررنا جدا . وخطط صديقي ان يفتح مكتبا للمحاماة في كريت وان يدخل
قسم السياسة . بينما أنا كنت مبتهجا لان هناك بابا للنجاة قد فتح لي .
لقد كانت احدي اهم رغباتي ، طوال عمري ، هي السفر - ان ارى والامس
البلدان المجهولة وان اسبح في البحار المجهولة وان ادور حول العالم متفرجا
على اراض وبحار وشعوب وافكار جديدة بشهية لا تعرف الاكتفاء ، وأن
ارى كل شيء لأول مرة ولآخر مرة ، ملقيا نظرة بطيئة وطويلة ثم اغمض
عيني واحس بالغنى يترسب في داخلي بهدوء او بشكل عاصف حسبما يشاء
الى ان يبدد الزمن اخيرا عبر منخله الجميل مصفيا الجوهر وحده من كل
المسرات والاحزان . ان كيمياء القلب ، كما أعتقد ، هي الغبطة العظيمة التي
يستحقها الناس كلهم .

الكناري الذي قدمه لي والدي كهدية في رأس السنة حين كنت طفلا ،
كان قد صار جثة منذ سنوات ، لا . لم « يصر جثة » - انني اخجل لان هذا
التعبير قد افلت مني - بل « رحل » . هذا ما عنيت ان اقلوه : رحل مثل
انسان . بل الافضل القول انه « قد اسلم اغنيته الى الله » . لقد دفناه في
حديقة دارنا وبكت اختي لكنني ظللت هادئا لانني كنت اعرف انني ، طالما
أنا حي ، لن اسمح له بالفناء « لن اسمح لك لن تفنى » همست له وانا اغطيته
بالتراب « سنعيش ونسافر معا » .

وحين كبرت وغادرت كريت وتجولت في الارض كنت احس دائما ان هذا
الكناري متعلق براسي وهو يزقزق - مرددا في زقزقته اللازمة المتميزة .
« فلتنهض ولترحل . لم نحن هنا ؟ نحن عصفوران ولسنا محارطين . فلتنهض

ولنرحل « • لقد تحول رأسي الى كرة ارضية والكناري متمسك بقطبها . افعا
عقيرته الحارة بالغناء نحو السماء •

كنت قد سمعت انه في الزمن القديم كانت المحظرات في (الحر)
يقفن كل مساء في صف واحد في الحديدية مسنحات و (ربهودها)
مكشوفة وان السلطان كان ينزل اليهن ليختار • وكان يمسك في يده مسديلا
يضعه تحت ابط كل منهن ثم يشمه • وكان يختار تلك التي كانت رائحتها
سره لذلك المساء •

وكان الامر شبيها بذلك معي حين كنت ارى البلدان المختلفة مصفوفة
امامي كالمحظيات •

جلت بنظري على الخريطة بسرعة وحيوية • الى اين اذهب ؟ أية
قارة واي محيط سأرى اولا ؟ كانت البلدان كلها تمتد أذرعها الي وتدعوني
اليها • كان العالم واسعا والحمد لله و - وليقل الكسالى ما شأؤوا - حياة
الانسان واسعة ايضا • سيكون لدينا الوقت لرؤية البلدان كلها والتمتع بها •
فلم لا نبدأ باليونان !



دام حجي في اليونان ثلاثة اشهر • وحتى الان ، بعد هذه السنوات
العديدة ، يخفق قلبي سعيدا ومضطربا كلما تذكرت الجبال والجزر والقرى
والاديرة والشواطىء • انها لمتعة كبيرة ان تجوب اليونان وان تراها • متعة
كبيرة وحزن •

جبت اليونان وبدأت ، بالتدريج ، ارى بعيني والمس بيدي ذلك الشيء
الذي لا يستطيع الفكر المجرد ان يراه أو يلمسه : الوسيلة التي يتحد بها
البهاء والقوة • وانني اشك ان عنصري الكمال ، أريز وافروديت (1) ،
قد سبق لهما ان اتحدا بهذه الاصاله في أي جزء اخر من العالم ، اتحدا بهذه
الاصالة كما هما متحدان في أرض اليونان القاحلة الباسمة ابدا • بعض
مناطقها قاسية ومتغطسة ومناطق اخرى مليئة باللطف الانثوي واخرى
جادة وفي الوقت ذاته مرحة وبهية • لكن الروح مرت عليها كلها ومن خلال
معبد أو اسطورة او بطل منحت لكل منها نفسا خاصة وملائمة • ولهذا فان
أي امرى يتجول في اليونان ، وتكون لديه عينان يرى بهما وعقل يفكر به ،
فانه يتجول في توحده سحري لا ينفصم من نصر روحي الى اخر • في اليونان

(1) أريز : اله الحرب عند الاغريق وافروديت الهة الحرب والجمال ومن
زواجهما ولدت هارمونيا •

يتأكد المرء من حقيقة ان الروح هي الاستمرار وهي زهرة المادة والاسطورة وهي التعبير البسيط والمركب عن الواقع الحقيقي . لقد سارت الروح على حجارة اليونان سنوات وسنوات وأينما ذهبت فانك تكتشف آثار خطاها الالهية .

للعديد من المناطق في اليونان طبيعة مزدوجة . وللانتقال الذي ينبع منها طبيعة مزدوجة ايضا . القسوة واللفظ يقفان جنبا الى جنب يكمل كل منهما الآخر ويتزاوجان كرجل وامرأة . اسبارطة هي النموذج للقسوة واللفظ . ينتصب امامك تايجيتوس المشرع القاسي والمحتقر ، المليء بالمنحدرات الصخرية والجروف بينما يمتد تحتك السهل المغوي والمثمر كامرأة في حالة حب . من الجهة الاولى تايجيتوس ، جبل سيناء اليوناني ، حيث الاله القاسي للشعب يملي الوصايا شديدة الصرامة : الحياة حرب ، والعالم ساحة قتال وواجبك الوحيد هو الانتصار ، لا تنم ، لا تتزين ، لا تضحك ، لا تتكلم ، هدفك الوحيد في الحياة هو القتال ، ولهذا قاتل اومن جهة أخرى وعلى سفح تايجيتوس - هيلين . وما أن تبدأ بالتوحش ويزداد معارض الارض حتى يأتي نفس هيلين بغتة ، كشجرة ليمون مزهرة ، ويجعل عقلك مضطربا .

كنت أتساءل :

هل هذا السهل الاسبارطي فعلا لطيف وشهواني الى هذا الحد ؟ وهل شذا الدفلى فيه فعلا مدوخ بهذا القدر - أم أن هذا السحر يبرز ، ربما ، من جسد هيلين الجواب والمغطى بالقبل ؟ لا شك أن ايوروتاس لم يكن ليمتلك بهاءه المغوي الحالي لو لم يجر كرافد في اسطورة هيلين الخالدة . فالارض والبحار والانهار ، كما نعرف جيدا ، ترتبط بأسماء عظيمة ومحبة ، وتلازمها هذه الاسماء أبديا دون انفصام ، ثم تجري في قلوبنا . سر على ضفاف اليوروتاس المنخفضة وستشعر أن يدك وشعرك وأفكارك قد تشابكت في عبير امرأة خيالية لكنها أكثر حقيقية وواقعية من المرأة التي تحبها وتلمسها . ان العالم اليوم يغرق في الدم ، والعواطف تضطرم في جحيمنا الفوضوي الحالي ، لكن هيلين ، خالدة ونظيفة ، تقف راسخة في جو أشعارها المتميزة بينما الزمن يمر من أمامها .

كانت الارض عبقة ، وقطرات الندى متعلقة على أزهار الليمون وهي تتماوج تحت أشعة الشمس . وبغثة يهب نسيم لطيف وتسقط على جبيني زهرة ترشني بالندى . وتمر بي رعشة كما لو أن يدا خفية قد مستني . كانت الارض كلها تبدو مثل هيلين المستحمة الضاحكة الباكية . كانت تزيع حجبها المزداة بزهور الليمون ، ويدها على قمها ، وعذريتها متجددة دائما

وهي تعلق برجل ، أقوى رجل يمكن ان يوجد . وحينما رفعت ساقها بكاحلين
أبيضين كالثلج ، التمع باطن قدميها بالدم .

ما الذي كانت هذه الهيلين ستؤول اليه لو لم يمر عليها نفس
هوميروس ؟ مجرد امرأة جميلة مثل أخريات لا يحصى عددهن مررن على
هذه الارض ثم فنين . وكانت ستختطف مثلما تختطف الفتيات الجميلات
في قرانا الجبلية حتى الان . وحتى لو أدى هذا الاختطاف الى اشعال حرب
فان أي شيء - الحرب والمرأة والمذبحة - كان سيتلاشى ويفنى لو ان
الشاعر لم يمد يده لانقاذه . ان هيلين مدينة بخلاصها للشاعر . وهذا المجرى
النهرى الصغير ، يوروتاس ، يدين بخلوده الى هوميروس . وابتسامة
هيلين تلون الجو الاسبارطي كله . ولكن حتى ما هو أبعد من ذلك . انها قد
تغلقت الى مجرى الدماء فينا . وكل انسان قد شارك فيها بالتوارد ، والى
يومنا هذا ما تزال كل امرأة تعكس فتنتها . لقد أصبحت هيلين صرخة حب .
انها تتجاوز البلدان وتوقظ في كل رجل التوق الى القبل والقتل . وتحول كل
امرأة نضمها الى صدورنا ، حتى أكثرهن ابتذالا ، الى هيلين .

وبفضل هذه الملكة الاسبارطية فان الرغبة الجنسية تتخذ لنفسها
أسماء رفيعة من النبل . والفوستالجيا السرية لعناق ما مفقود يحلي ويلطف
الجانب الوحشي فينا . وحين نبكي أو نصرخ فان هيلين تلقي قيئارة
سحرية في الجرعة المرة التي نتجرعها فننسى ألمنا نهائيا . وبيدها تمسك
زهرة يطرد عبرها الثعابين . بلمستها يستحيل الاطفال البشعون الى أطفال
جميلين . وهي تفسخ عنزة الطقوس الباخوسية العريقة وتهز قدمها ذات
الحذاء المربوط فيستحيل العالم كله الى كرم . ذات يوم حين تلفظ الشاعر
القديم ستيزيكوروس Stesichorus بكلمة غير لائقة في حقها في أحد أناشيده
أصيب بالعمى على الفور . فأمسك الشاعر بقيئارته ووقف أمام الاغريق
في حقل كبير وهو يرتجف نادما وغنى قصيدته التراجعية (1) الشهيرة :

ما قلته عنك ليس صحيحا يا هيلين ،
فأنت لم تعلمي السفن السريعة
ولم تصلي الى أسوار طروادة

ثم بكى وهو يرفع يده وبغثة نزل النور ، ممتزجا بالدموع ، الى
عينيه .

(1) القصيدة التراجعية هي القصيدة الاعتذارية Palinode التي يظن
فيها الفاسم تراجعه عن موقف سابق معروف عنه .

كان أسلافنا يعتقدون مباريات الجمال على شرفها « هيلينيا Heleneia » .
لا شك أن الأرض حلبة صراع وهيلين هي الانجاز الذي لا يمكن تحقيقه ،
انجاز ما بعد الحياة وربما كان غير موجود ربما كان مجرد خيال . في أحد
المذاهب السرية يتقلص التراث الى تلقين أن الآكيين لم يحاربوا عند طروادة
من أجل هيلين الحقيقية ، بل أن صورتها فقط اكتشفت في طروادة وأن
هيلين الحقيقية قد التجأت الى مصر واختبأت في معبد مقدس وبقيت هناك
دون أن يمسه نفس بشري . ومن يدري - ربما كنا نحارب نحن أيضا
ويبكي كل منا الآخر هنا على الأرض من أجل صورة هيلين فقط . ولكن من
جهة أخرى من يدري (ان الظلال في هيدز قد عادت الى الحياة حينما شربت
دم انسان حي) - بكل هذه الدماء التي شربها ظل هيلين عبر آلاف السنين
ربما صارت عاجزة عن العودة الى الحياة ؟

هذا ما أسأل نفسي عنه . وأتساءل ان لم يكن الظل سوف يندمج بلحمه
على نحو مفاجيء فيساعدنا بذلك على أن نعانق ذات يوم الجسد الحقيقي
الحرار لهيلين الحقيقية !؟

تايجيتوس هو المحارب القاسي وهيلين زوجته . وحين استنشقت عبر
هيلين من بين دفلى إيوروتاس نسيت نفسي . احسست بالخجل . ومن أجل
استنشاق هواء أكثر رطوبة انطلقت ذات صباح لتسلق تايجيتوس .

بهجة الجبل وعبق الصنوبر والصخور النارية والصقور المحلقة فوق
والعزلة المنيعه - هذه الامور كلها أعادت القوة الى قلبي . ظلمت اتسلق
سعيدا ساعات عديدة . وقبيل الظهر تجمعت غيوم سوداء فوقى . وجاء
هزيم كتيم من الرعد فعدت راكضا وأنا أشعر بالعاصفة تتبعني . رحلت
أقفز من حجر الى حجر وأنا أسابقها وأنافسها لكي لا تلحق بي . ولكن بغتة
اهتزت أشجار الصنوبر وأظلمت الدنيا وحوصرت بومضات البرق . لقد
لحقت بي العاصفة . غمرت وجهي بالأرض لكي لا أسقط وأغمضت عيني
ورحلت انتظر . راح الجبل كله يهتز والى جوارى انقصفت شجرتا صنوبر
وتهاوتا ترعدان في انحدارهما . صرت أشم رائحة الكبريت في الهواء . وبغتة
هجم السيل . هدأت الريح وراحت عقود هائلة من الماء تنسكب من السماء .
بدأ الصعتر والندغ والقصعين والنعناع باطلاق الروائح تحت وقع المطر . وبدأ
الجبل كله يطلق بخارا .

نهضت واستأنفت نزولي مسرورا بالماء الذي ينهمر على وجهي
وشعري ويدي . كان زيوس الهابط Zeus The Descender يسقط بكل قوته على
الأرض ، زوجته المختنقة التي فتحت بضحكة مجلجلة لتلقى الميساه
الذكرية .

وسرعان ما انجلت السماء . لقد كانت العاصفة هبوطا عنيفا للروح القدس ، والان انتهى هذا الهبوط كما بدأ الكوكو بالاعلان . وفي اللحظة ذاتها غابت الشمس . وفي الوادي البعيد تحتي لمحت الخرائب المستحمة للقاعة الفرانكية فيليهاردوينز على قمة هضبتها فوق ميسترا . وتحولت السماء كلها الى ذهبية وخضراء .

وفي اليوم الثاني ذهبت كحاج عبر البساتين وغابات السرو الى ميسترا ، بومباي الاغريق . تمتلك هذه الهضبة المقدسة ، مسقط رأس اليونان الحديثة ، كل المفاتن الظاهرة والسرية التي تلزم لانغواء اقوى الارواح ، اشجار الليمون والبرتقال ، والارقة الضيقة الملتوية ، الاطفال أنصاف عراة يلعبون في الشوارع ، والنساء الذاهبات لجلب الماء ، والفتيات الجالسات تحت الاشجار المزهرة وهن يطرزن . لقد عادت الحياة للتشبث بهذه التربة من جديد وهي تجهد للعودة الى تسلق الهضبة العريقة كلها . هذه اول منطقة في ميسترا ، المنطقة الخضراء والمسكونة . بعد قليل يبدأ الصعود المغبر والقاحل ، وبالمسير بين البيوت المتقوضة تصل الى الكنائس البيزنطية الفاتنة المقمرة بالشمس - بيريفليبتوس . ميتروبولي ، اغيوي تيودوروي ، افينديكو وبانداناسا . هذه هي المنطقة الثانية في ميسترا وهي مكتظة بالكنائس .

عطشت فدخلت دير بانداناسا لاطلب من الراهبات كأس ماء . كانت الباحة مضاءة والغرف مبيضة وتظيفة والارائك مغطاة بأستار صوفية ملونة . أسرع الراهبات لاستقبالي . كان بعضهن شابات وأخريات متيبسات بالروماتيزم وكلهن شديداً الشحوب لان عليهن العمل بجدية وقسوة لكي يعشن . انهن يسهرن ويصلين ولا يحصلن على طعام يكفي لتهدئة جوعهن . وحين تكون لديهن ساعة فراغ فانهن ينكبن فيها علي عملهن اليدوي لتطريز رسوم تقليدية - زهور حمراء بخيطان حريرية حمراء ، وصلبان وأديرة وأصص مليئة بالقرنفل واشجار سرو صغيرة . وحين يقمن بفرش هذه المطرقات أمامك بفخر يستولي عليك الحزن وكانهن يعرضن أمامك مهورهن . يبتسمن ولا يقلن شيئاً ولكنك تعرف ان العريس غير موجود .

كانت بانداناسا تلتمع في الشفق الاخضر العسلي مثل جن بيزنطي من العاج مشغول بالاناة والحب لتعبثته بأنفاس العذراء الطلوة والدافة . اية وحدة واي تركيز واي بهاء تمتلك هذه الكنيسة ابتداء من حجر الزاوية في الاساس الى الانحناءات الشهوانية في القبة . كان المعبد الساحر كله يحيا ويتنفس بسلام مثل كائن حار وحيواني . الحجارة كلها والتقوش والرسوم

والراهبات تتواجد مثل قوائم عضوية لهذا الدير وكأنها كلها ذات ظهيرة قد ولدت في وقت واحد ومن الرعشة التناسلية ذاتها .

لم اتوقع ابدا ان اجد نعومة كهذه وفهما انسانيا دافئا كهذا في الرسوم البيزنطية . قبل ذلك لم اكن ارى سوى الاشكال القاسية والمتقشفة ممسكة برقوق مغطاة بحروف حمراء تدعونا لاحتقار الطبيعة والهرب الى الصحراء ، والى الموت من اجل الخلاص . ولكن هنا ارى الوانا زاهية ووجوها فيها الحد الاقصى من الحلاوة . المسيح يدخل القدس على حيوانه المتواضع لطيفا ومبتسما والتلاميذ يتبعونه بسعف النخيل والناس يحدقون اليهم بأعين مغتبطة كما يحدقون الى غيمة عابرة تمر وتتلاشى . كان الملاك الذي رأيته في افنديكو ، ذلك القوي الجميل بلونه الاخضر المستمد من النحاس المتأكسد وبشعره الاجعد المربوط بشريطة كبيرة ، وبخطوته النابضة وركبتيه القويتين المدورتين يشبه عريسا يتقدم - ولكن الى اين يتقدم بهذه السرعة وهذه الغبطة ؟

في هذه اللحظة بدأت الاجراس تدق بنعومة وحلاوة معلنة عشية الجمعة الحزينة . دخلت الى مدخل الكنيسة الدافئ والمقبى (١) . في الوسط كان هناك الابيتافايوس (٢) مغطى بأزهار الليمون والظلة الضريحية ، وعلى ازهار الليمون كان يستقي مينا ، (هو) ذلك الذي يموت دائما ويبعث دائما . سمي مرة ادونيس والان يسمى المسيح . كانت النساء الشاحبات المتشحات بالسواد راكعات من حوله منحنيات عليه يندبنه . وكانت رائحة الشمع تملأ الكنيسة وتجعلها اشبه بخلية النحل . فكرت بالراهبات الاخريات ، « المهيليسيات » (٣) في معبد افيزيان ارتميس (٤) وفي معبد ابولو في دلفي المبني من الشمع والريش .

وبغثة انفجر نحيب النساء في ثرنيمة لا تحتمل وبقوة كبيرة . كنت اعرف ان المعاناة الانسانية هي القوة التي ستبعث الله ، اما هنا ، في مملكة هيلين ، فان قلبي لم يكن متهيئا ابدا للنحيب . لم تكن الظلمة قد حلت بعد . فنهضت واستأنفت صعود الهضبة ببيوتها الخربة وابراجها الممددة على الارض ، وكما لو انها تاج حجري على القمة كانت قلعة فليهار ،

(١) مستوف بقية .

(٢) نطمة من الازهار تمثل المسيح مهددا في القبر . توضع في الكنيسة يوم الجمعة الحزينة .

(٣) نسبة الى بنتي ميليسوس ادراستيا وادا ، اللتين ربنا زيوس عند تخفيه في طفولته .

(٤) ارتميس ربة خصب لها معبد في افيزيوس .

دوينز الشهيرة • البوابة الكبيرة المحصنة مفتوحة والباحات خالية • صعدت الدرج المكسر ووصلت الى الشرفة فجعلت مجموعة من الغربان تطير وقد هوجئت بي • نظرت الى السهل الخصب الممتد تحتي والى الدخان الذي يتصاعد من الاكواخ الواطئة • كنت استطيع سماع قرقعة عربية واغنية مليئة بالعاطفة واطلق الجو المحيط بي تنهيدة • كانت الاشباح تملأ الهواء • نهضت بنات السادة الفرنكيين الشقراوات من القبر ونهض معهن الفرسان المدججون بالسلاح الذين جاؤوا الى بيلوبونيسوس بهيئة فاتحين وتزوجوا فتيات اغريقيات فتمازجوا مع الدم الاغريقي ونسوا مسقط رأسهم • وبفضل نساينا ذوات البشرات السوداء وشعورهن السوداء الغامقة وغيونهن الواسعة تم التغلب على المنتصرين •

بعد ايام قليلة استمتعت بمنظر اخر • تعبر مجرى نهر جاف مظلل بأشجار الدلب ومطرز بالصفصاف ، وتتسلق جبلا اجرد تفوح منه روائح الصعتر والندغ خاليا من القرى والناس والماعز والغنم - مهجورا تماما • وبغثة ، وراء عطفة في التضاريس يلوح لك مفاجئا معبد ابولو الشهير في باساي في قلب بيلوبونيسوس • انه مبني من الحجارة الرمادية ذاتها التي تشكل الجبل • وما ان تواجهه حتى تحس بالتواصل العميق القائم بين المعبد والموقع • يبدو كأنه قطعة من الجبل ، صخرة من صخوره ، محشور دون تمييز بين منحدراته - هو نفسه جرف ، لكنه الجرف الذي مرت فوقه الروح • واعمدة هذا المعبد ، بنقوشها وموقعها تعبر عن الجوهر الفعلي لهذه القسوة وهذه الوحشة • كان يبدو كما لو ان المعبد هو جمجمة المشهد المحيط به ، او دائرة الاستحكام المقدسة التي يحتمي داخنها الفناء ويقوم العقل بدور الحارس اليقظ • هنا تبرز فنية الاقدمين مستمرة ومعبرة عن المشهد بكماله ولا تجعلك تشفق دهشة بل ترفعك الى القمة في طريق بشري بلطف وبراعة بحيث لا يضيق نفسك ، انما يمكنك القول ان الجبل كله كان يتوق ، منذ دهور ، في اعماق جسده القائم لأن يجد التعبير عن نفسه و في اللحظة التي حصل فيها على معبد ابولو ارتاح • ارتاح - او بمعنى اخر توصل الى معنى ، معنى خاص به وفرح •

كل يوم وانا اسير على الارض اليونانية ، كنت ازداد ادراكا ان الحضارة الاغريقية القديمة لم تكن زهرة (فوق طبيعية) معلقة في الفراغ ، بل كانت شجرة مدت جذورها عميقة في الارض ، وامتصت الطين ثم حولت هذا الطين الى ازهار • وكلما اكثر من امتصاص الطين كلما كان ازدهارها اكثر غنى واتقانا • ان بساطة الاقدمين الغنية وموازنتهم للامور وصفاءهم لم تكن فضائل طبيعية تم التوصل اليها بسهولة ويسر من قبل شعب متزن وبسيط • بل هي مآثر صعبة ونتائج سعي مؤلم وخطر • الصفاء اليوناني هو صفاء

سحري ومعقد • وهو الموازنة بين القوى المتناقضة بشدة ، بعد تعب شديد وكفاح طويل تم التوصل الى السلام والوئام فيما بينها ووصلت الى النقطة التي وصفها صوفي بيزنطي بالتلقائية Effortlessness وبمعنى اخر انها قمة الجهد •

والعامل الذي جعل جبال اليونان وقراها وتربتها ألقه بهذا المقدار هو الضوء • الضوء في ايطاليا ناعم وانثوي وفي ايونيا لطيف جدا ومليء بالتوق الشرقي ، وفي مصر كثيف وحسي اما في اليونان فالضوء روحاني خالص • لقد نجح الانسان ، بقدرته على الرؤية الواضحة في هذا الضوء ، في فرض النظام على الفوضى وفي اقامة « كون منظم » Cosmos - والكون يعني التناغم •

ظهرت سيدة صغيرة الجسم وطاعنة في السن من كوخ الحارس القريب من المعبد • كانت تمسك بتينتين وعنقود من العنب في يدها • كانت اول ما نضج في هذا السهل المرتفع وهي راغبة في تقديمهما الي كهديّة • كانت عجوزا نحيلة وعذبة ولا شك انها كانت تشع بهاء في شبابها • سألتها :

- ما اسمك ؟

● ماريّا

ولكنها حين رأتني امسك قلمي لاسجل اسمها مدت يدها المجددة لتوقفني ، وقالت بدلع فتى « ماريّسا » • فطالما ان اسمها سيخلد بالكتابة فقد كانت تبدو راغبة في انقاذ اسمها الاخر : اسم الدلع • انه سيوقظ احلى اللحظات في ذاكرتها • « ماريّسا » كررت الاسم وكأنها خافت ان لا اكون قد سمعته •

كنت سعيدا ان ارى الانوثة الابدية عميقة الجذور حتى في اكثر الاجساد تداعيا • وسألتها :

● ما هذا الذي حولنا ؟

- الا ترى ؟ حجارة ؟

● ولم يأت الناس من اطراف الارض لرؤيتها ؟

ترددت العجوز لحظة ثم سألتني وهي تخفض صوتها : « أنت

اجنبي ؟ » •

- لا • يوناني •

فهزت كتفيها متشجعة وهتفت «الاجانب بلهاء» ثم انفجرت بالضحك • لم تكن هذه المرة الاولى التي ارى فيها هؤلاء العجائز ، اللواتي يرعين المعابد القديمة والكنائس الشهيرة التي تحتوي على الايقونات المتقنة

الصنع ، وهن يضحكن ساخرات من القديسين او من القديسين الرخاميين
القدامى الذين يحرسنهم . انهن يعاشرنهم يوميا والالفة لا بد ان تولد
الاستهتار .

كانت ماريتسا العجوز تراقبني بارتياح وانا اكل من العنب الحامض
اللذيذ الذي اعطتني اياه . وسألتها وانا احاول اثارتها :
● وما هو رأيك في السياسة ؟

- ايه يا ولدي . اجابتنى بكبرياء مفاجئة . « نحن هنا على علو
كبير ، مفصولون عن العالم ولا نسمع عربدته » .

« نحن » - وكانت تعني « انا والمعبد » . وقد لفظت كلمة « مفصولون »
بلهجة متعالية تحمل معنى « اسمى » . سررت . فاشارة هذه العجوز قد
افعمت قلبي بالسرور اكثر مما فعل المعبد .

رحت اتمشى جيئة وذهابا تحت الاعمدة ، كان المطر قد هطل منذ يومين
وما تزال برك الماء هادئة وصافية في تجاويف الرخام المكسور . انحنيت
فوقها فرايت الغيوم البيضاء الخفيفة تعبر كالاشباح سطح الماء . لقد
قرأت مرة ان الاله كان يعبد بهذه الطريقة في الشرق الاقصى : في تجاويف
مليئة بالماء تمر فوقها الغيوم .

وبينما كنت عائدا الى السهل رأيت رجلا عجوزاً راكعاً على الحجارة .
كان منحنيا على قناة يراقب الماء يجري فيها ووجهه مغسول بغبطة معجزة .
كان يبدو وكما لو ان انفه وقمه وخديه قد تلاشت ولم يبق شيء الا العينان
اللتان تتابعان الماء في جريانه بين الصخور . صعدت اليه . وسألته :
- ماذا ترى هناك ايها العجوز ؟

واجابني دون ان يرفع رأسه او يزيح عينيه عن الماء « حياتي .. حياتي
تجري » .



في اليونان تتأنسن الاشياء كلها - الجبال والانهار والبحار والوديان -
انها تتحدث الى الانسان بلغة هي على الاغلب بشرية . انها لا تعذبه ولا
تهيمن عليه بشكل ساحق ، بل تصادقه وتزامله في العمل . وصرخة الشرف
القلقة المشوشة تصبح صافية حالما تمر عبر ضوء اليونان : تؤنسن . تتحول
الى لوغوس Logos : عقل . فاليونان هي المصفاة التي تنقي ، بجهد
كبير ، الوحش وتصفيه انسانا . والعبودية الشرقية تجعلها حرة والنشوة
الهمجية عقلانية « حكيمة » . ان اصباغ الملامح على ما لا ملامح له والبعد

الى ما لا ابعاد له والموازنة بين القوى المتصارعة العمياء . . تلك هي رسالة
البحر المكافح والارض المعروفة باليونان .

الترحال عبر اليونان فرح حقيقي واغتناء عظيم . لقد كانت الارض
اليونانية المشبعة بالدم والعرق والدموع ، والجبال اليونانية ترى الكثير
من الكفاح البشري الى درجة انك ترتجف حين تفكر في انه ، هنا ، وعلى
هذه الجبال والشواطىء تقرر مصير العرق الابيض - والبشرية كلها ، ولا
بد انه على واحد من هذه الشواطىء المليئة بالبهاء والمرح قد حدث التحول
المعجز من الوحش الى الانسان . ولا بد انه على شط يوناني كهذا القت
عشروت ذات الاثداء الخنزيرية المتعددة مرساتها من آسيا الوسطى .
واليونانيون الذين استلموا التمثال الخشبي المحفور دون اتقان قاموا
بتخليصه من وحشيته ولم يبقوا عليه الا الثديين البشريين ومنحوه جسدا
بشرياً مليئاً بالنبل . من آسيا الوسطى اخذ اليونانيون الغريزة البدائية
والنشوة العربية والصرخة الوحشية - عشروت ، وقاموا بتحويل الغريزة
الى حب والعض الى قبل والعريضة الى عبادة دينية والصرخة الى هدهدة
عاشق . جولوا عشروت الى افروديت .

ان موقع اليونان الروحي والجغرافي يحمل معه احساسا غامضا بالرسالة
والمسؤولية : ذلك ان تيارين دائمي النشاط يتصادمان على ارضها وبحارها .
لقد كانت المكان المعرض دائما ، جغرافيا وروحيا ، لدوامات عاصفة لا
تتوقف . وهذا الموقع المقدور قد اثر تأثيرا عميقا على مصير اليونان وعلى
مصير العالم بأسره .

لقد رأيت اليونان وشممتها ولمستها وانا اسير على قدمي حاملا قضيبا
من الزيتون في يدي وخرجا على كتفي . وفيما كانت اليونان تتغلغل اعمق
فأعمق في داخلي كنت احس من اعماقي ان الجوهر السري لارضها وبحرها
موسيقي . وفي كل لحظة يتغير المشهد اليوناني قليلا لكنه يبقى ذاته .
تموج جمالها وتجدد نفسها . ان فيها وحدة عميقة وفيها في الوقت ذاته
تنوعا دائم التجدد . وانني لاتساءل ما اذا لم يكن الايقاع ذاته هو الذي
يحكم فن اليونانيين القدامى ، ذلك الفن الذي ولد من التأمل والحب والفهم
واعطاء التعبير المحدد للعالم المرئي من حوله . انظر الى عمل من الفترة
الكلاسيكية العظيمة . انه ليس جامدا بل ان رعشة غير ظاهرة تعبره تماما
كالصقر الذي يتردد في أعلى تحليقه ، جناحه يصفقان لكنه يبدو لنا ثابتا
وهكذا بالطريقة ذاتها يتحرك التمثال القديم بشكل غير مرئي وحييا . وفي
لحظة خالدة واحدة يستمر فيها التراث الفني ويجهز المضمير لمستقبل
الفن ، تمسك المجرى الثلاثي للزمن في توازن كامل .

بكفاحهم طهر اليونانيون كل منطقة واخضعوا كلا منها للمعنى السامي الذي يشكل جوهرها المحدد . وبالجمال والعواطف المنظمة حولوا الطبيعة لمادية لكل منطقة الى ميتافيزيق . ازالوا العشب والتراب والحجارة واكتشفوا الروح الباردة في اعماق المنطقة وتحت ارضها . كانوا يجسدون هذه الروح احيانا في هيئة معبد فخم و احيانا في اسطورة و احيانا اخرى في له طبيعي .

ساعات وانا احدق الى فسحة اولمبيا المقدسة ، نبلها وهدوءها المتأمل والوادي المبهج المرعب بين سفوح التلال الاليفة التي تحميه من الريح لشمالية القاسية والريح الجنوبية الحارقة وتتركه معرضا في جانبه الغربي نقت للماء حيث يصل نسيم البحر البارد هابطا اليه من الفيوس . ليس هناك من مكان اخرى في اليونان يثير فيك هذا الشعور بالسلام والانسجام بهذا اللطف وبهذه القوة . يعيونهم التي لا تخطيء حدد اليونانيون القدامى هذا الموقع لالتقاء سلالاتهم بأخوة مرة كل اربع سنوات وبتحديد هذه لوظيفة له ملأوه بالمعاني وزادوا في هدوئه وقوته لكي يوحى بالتصالح بالوئام .

لقد تمزقت اليونان بالفيرة والكراهية والحروب الاهلية . وتنازلت لديموقراطيات والارستقراطيات والاستبداديات يفني كل منها الاخرى . لحصون المغلقة والجزر المعزولة والشواطىء المهجورة والمدن - الدول الصغيرة لمستقلة خلقت ، كلها ، عضوية واحدة متعددة الرؤوس محكومة بالكراهية لمبتدالة وبالعواطف الجياشة في كل صدر . وبغثة في كل اربع سنوات مرة كان الرسل المكلاون Spondophoroi ينطلقون من هذا الوادي المقدس صيفا في عدو متواصل حتى اخر اطراف العالم اليوناني . فيعلنون الشهر المقدس Hibromenia للالعاب ويعلنون هدنة عامة ويدعون الاصدقاء والاعداء لمجيء الى اولمبيا للتنافس . من بيلو بونيسوس كلها ومن اليونان القارية من مكدونيا وتسلى و ابيروس وتريس ومن شواطىء البحر الاسود وآسيا لوسطى ومصر وسيرين ومن ماغنا غراشيا وصقلية كان الرياضيون والزوار يسارعون الى المهد الهليني المقدس للرياضة . ولم يكونوا يسمحون للعبيد ان يطأوا الارض هنا ولا المجرمين او الاجانب او النساء . اليونانيون الاحرار فقط .

لم يسبق لشعب اخر ان ادرك القيمة الواضحة والخبيثة للرياضة بهذا الكمال . حين تنجح الحياة بقوة الجهد اليومي في قهر الاعداء المحيطين بها - القوى الطبيعية والوحوش والجوع والعطش والمرض - فانه من حسن الحظ ان تكون هناك قوة متبقية فائضة . هذه القوة تحاول ان تبدد نفسها في الرياضة . الحضارة تبدأ في اللحظة التي تبدأ فيها الرياضة . وطالما ان

الحياة تناضل من اجل البقاء - حماية نفسها من الاعداء وتمكين نفسها من البقاء على وجه الارض - فان الحضارة لا يمكن ان تولد . انها تولد في اللحظة التي تشعب فيها الحياة حاجاتها الاولى وتبدأ في التمتع بقليل من الفراغ .

كيف يمكن استخدام هذا الفراغ ؟ وكيف يوزع بين الطبقات الاجتماعية المختلفة ؟ وكيف يزداد ويصفو حتى اقصى الحدود ؟ طبقا للكيفية التي يحل بها كل عرق وكل عصر هذه المشكلات يمكن الحكم على قيمة حضارته ونوعيتها ؟

كنت أتمشى بين خرائب الاليس Altis متمتعا برؤية الحجارة ذات القشور المجهزة لبناء المعابد . هذه الحجارة حطمتها المسيحيون وبعثرتها الهزات الارضية . الامطار والفيضانات الالفية (1) ازالته تقرحاتها اللونية المذهلة . كما ان التماثيل احرقت من اجل الكلس ولم يبق لنا الا القليل ولكن هذا القليل كاف لتعزية عقولنا . التقطت قطفتين او ثلاث قطفات من النعناع المتبرعم من الفتحة التي قيل ان تمثال فيدياس الذهبي والعاجي كان واقفا فيها وملأت كفي الرائحة الخالدة .

لقد صارع الانسان في هذا المكان الغامض غير ان الالهة صارعت قبله . قام زيوس (2) بقتال كرونوس ، والده ، لكي يأخذ منه مملكته . وابولو ، اله الضوء ، هزم هيريس (3) في العدو وهزم اريس (4) في الملاكمة - العقل هو الذي هزم الزمن ، والضوء هزم القوى المظلمة للخداع والعنف . كان على الابطال ان يتنافسوا هنا بعد الالهة . لقد جاء بيلوبس من اسيا وهزم اونيوماوس (5) المتوحش المتعطش للدماء واخذ ابنته ، مروضه الخيول ، هيبوداميا . ان الحضارة الايونية المتقدمة ، المليئة بالبهاء والصفاء ، قد هزمت المواطنين الهمج في المنطقة . هم اخضعوا الحصان وروضوه كما زادوا في قدرة الانسان . وبطل اخر ، هو هيراكليس (6) ، بعد ان قام باخلاء

(1) نسبة الى نهر الغي .

(2) كبير الالهة .

(3) هورسولور زيوس في الاودية وهو اله العاصفة واله النجر كما يشتقون اسمه من كلمات يونانية تعني الحجر او الصخر او الحباية .

(4) اله الحرب والشجاعة الوحشية المبياء والغضب الدموي والمذابح .

(5) ابن اديس من زواجه بربة النهر اسبوس منحه والده جوادا مجنحا وقرر ان لا يزوج ابنته هيبوداميا الا لمن يسبقه لان النبوة قالت له ان صهره سيقته وقد نجح بيلوبس بن تانالوس ملك نرجيبا في ذلك .

(6) هرقل .

الاسطبلات الالوجية جاء الى هنا ليقدم القرابين العظيمة الى زيوس ، الاله الجديد . ومن الرماد المتبقي من الضحايا التي قام باحراقها اقام مذبحا ودعا الى الالعب الالولبية الالولى . وراح هذا المذبح المقدس يزداد علوا بالرماد المتبقي من الالضحيات الجديدة وصارت الالولبيا المصنوع العظيم المتزايد باستمرار الذي كانت السلالات الاليونانية المختلفة تقوم فيه بتطريق اجسادها البرونزية .

ولم يكونوا يقومون بذلك لمجرد جعل اجسادهم جميلة . اذ لم يسبق لليونانيين ان خدموا الفن للفن . ان للجمال ، دائما ، هدفا : ان يكون في خدمة الحياة . كان القدماء يريدون ان تكون اجسادهم قوية وجميلة لكي تكون هذه الاجساد اوعية لعقول متزنة وصحيحة . واكثر من ذلك - فان الهدف الاسمى هو ان يستطيعوا الدفاع عن Polis الدولة - المدنية .

كانت الرياضة الجمنازية ، بالنسبة لليونانيين ، مطلوبة لتهيئة حياة كل مواطن كعضو في المجتمع . فال مواطن الكامل كان هو الرجل الذي ، بممارسة الجمنازيوم والمصارعة ، يستطيع ان ينمي جسدا قويا ومتناسقا في آن وبمعنى اخر جسدا جميلا وجسدا مستعدا للدفاع عن الشعب . انظر الى تمثال من العصر الكلاسيكي تعرف على الفور ما اذا كان الانسان المصور حرا ام عبدا . ان جسده يوضح حالته . العاطفة الصافية بمعنى الشكل الرياضي الجميل المتناسق : هذا ما يميز الرجل الحر . اما العبد فيصور دائما بلامح فظة وغير منضبطة وجسد ، اما ان يكون نحिला او بدينا ، ان ديونيزوس ، اله النشوة ، يقف بهدوء بينما حوله الساتير وشياطين الغابات السكارى ، وعبيده ومن هم اقل منه مرتبة يتصرفون بشكل غير لائق ويقومون برقصاتهم الداعرة .

الانسجام بين العقل والجسم - هو المثل الاعلى لليونان . وكانوا يعتبرون تضخم احدهما للاحاق الاذى بالآخر امرا وحشيا . وحين بدأت اليونان بالانحطاط بدأ جسم الرياضي في الوقت نفسه يتضخم ويقتل عقله . وكان يوريبديدس (1) من اوائل المحتجين وقد نبه الى الالخطار التي تواجهها الروح على ايدي الرياضة . وقد اضاف : غالن فيما بعد استنكاره : « انهم يأكلون ويشربون وينامون ثم يفرغون بطونهم ويتمرغون بالتراب والطين - انظر اية حياة يعيشها الرياضي » كما ان هيراكليس ، الشهيد العظيم الذي كان في سنوات المجد ينتقل من ماثرة الى ماثرة موازنا بين العقل والجسد ، بدأ ينحدر تدريجيا الى « اكل ثيران ومدمن خمر » ذي جسد ضخم وثقافة

(1) الشاعر الكاتب المسرحي .

ضحلة • وراح الفنانون ، الذين كانوا في فترات الازدهار قد خلقوا النموذج الامثل للشكل الشاب ، يتجهون الان الى تقديم الاجساد الرياضية التي صاروا يرونها حولهم بواقعية فجأة وصارت الاجساد وحشية وثقيلة •

في اليونان ، كما في اي مكان اخر ، ما ان تبدأ الواقعية بالسيطرة حتى تبدأ الحضارة بالانحدار • وهكذا نصل الى المرحلة الهلينية الواقعية الفخمة وعديمة الهدف والتي كانت خالية من المثل فوق الشخصية • من الفوضى الى البارثينون (١) ثم من بارثينون الى الفوضى - الايقاع العظيم القاسي • توحشت العواطف والانفعالات • وبدأ الفرد يفقد قوى مبادئه ، فاللجام الذي كان يتحكم بالغريزة ويوازنها بصرامة أفلت من يديه • الانفعال والعاطفية والواقعية ••• بدأ توق غامض سوداوي يشوب الوجوه • وصارت الرؤى الميثولوجية المخيفة تتحول الى ديكور مجرد • وراحت افروديت تعري نفسها كامرأة عادية وصار زيوس يطلب الخبث والاناقة وهيراكليس ينحدر الى نذل • وبعد الحرب البيلوبونية بدأت اليونان تتفسخ • وفقد الايمان بأرض الآباء وانتصرت الكفاية الفردية • ولم يعد البطل الايجابي على المسرح هو الاله الشاب المثالي بل صار مواطننا ثريا بتمعه وعواطفه الداعرة - مواطننا ماديا متشككا ومتحلا • لقد حلت الموهبة محل العبقرية ثم حل الذوق محل الموهبة • وامتلأ الفن بالأطفال والنساء المتبرجات والمشاهد الواقعية ورجال اما انهم مثقفون او وحشيون •

تسلقت الهضبة متجها الى المتحف ومسرعا لرؤية هرميز رسول براكسيتيل ومآثر هيراكليس والشرفتين المدهشتين اللتين بقيتا - كنت اسرع الخطا وكأنني اخشى ان الارض سوف تبتلع هذه البقايا قبل ان أصل • لماذا ؟ ربما لان عمل الانسان يتخطى القوانين اللاانسانية للخلود (ولهذا فان حياتنا وانجازاتنا تحتاج الى قوة سحرية وبطولية • ليس تحت تصرفنا الا دقيقة واحدة فلنحول هذه الدقيقة الى ابدية • اذ لا وجود لاي نوع اخر من الخلود) •

اطمان قلبي حين واجهت القاعة الكبرى في المتحف • كان ابولو وهيراكليس ونيكه (النصر) والقنطور (٢) والليبيتون (٣) كلهم يتلامعون بهدوء في ضوء الصباح وكلهم ما زالوا احياء • سررت • عالمنا هذا يسير على قوانين انسانية متميزة • نحن نحس ، في ايامنا الحاسمة التي قدر لنا ان نعيشها ، ان هناك قنبلة قد تسقط في اية لحظة وتحيل اغنى الآثار الانسانية الى

(١) هيكل الربة اثينا في اثينا •

(٢) Centaur كائن خرافي نصفه رجل ونصفه نرس •

(٣) الثعب الذي حارب بقيادة بيرثوس لاستعادة هيوداميا من زعيم القنطور

يوريتيون (انظر ص ١٧٣) •

رماد • وحين نحتفي الان بعمل فني فان متعتنا تمتزج بخطر الفراق الابدي الذي يحوم فوق هذا العمل •

وانك اذ تنظر الى هاتين الشرفتين العظيمتين هنا تدرك بأية دقة صاغ الحكيم الشرق اقصى غاية للفن حين قال : « ليس الفن تمثالا للجسد بل للقوى التي خلقت الجسد » وهذه القوى الخلاقة تضطرم بشكل واضح تحت السطح الشفاف هنا وخاصة في الشرفة الغربية • لقد انتهت المأدبة لتوها • والقنطورون النشوانون قد اندفعوا للامساك بالنساء اللبينييات • احدهم يسرع ويعانق امرأة وفي الوقت ذاته يعتصر صدرها بكفه الضخمة وتبدو المرأة وقد اغمي عليها من الالم ، وايضا ، من متعة غامضة لا توصف • في مكان اخر يطعن المتصارعون واحدهم الاخر ويعضه • لقد انطلق الوحش في انفجارية ضارية للعواطف العنيفة ! مشاهد مفرقة في القدم تعود الى ما بين الانسان والقرد تنبعث امام أعيننا • الا ان هناك مسحة من الهدوء تمتد على هذه العواطف البدائية المدهشة كلها • لانه في وسط هؤلاء المسعورين يقف ابولو ببنيته المتكاملة ، غير مرئي من قبل المتصارعين وذراعه اليمنى ، وحدها ، ممدودة افقيا •

وعلى الرغم من ان النحات الذي ابدع هذا المشهد العظيم قبل البارتيون بسنوات قليلة ، قد تجاوز الغرابة العذرية للفنان القديم ، الا انه لم يصل ، بعد ، الى الكمال الفني للحظة الكلاسيكية • كان ما يزال في حمى الهجوم ولم يلمس الذروة بعد وهو ما يزال يتحرق برغبة انفعالية متأججة لتحقيق النصر • لقد حطم التوازن الاول الا انه لم يصل الى الثاني • انه بامتلائه بهذا الاندفاع اللاهث يسرع الى الغاية النهائية • فان كانت الشرقة تؤثر فينا بهذا العمق فمرد ذلك الى انها لم تصل الى الذروة الانسانية العليا ، ذروة الكمال • والمرء ما يزال قادرا على تبين البطل المتألم المكافح •

وهنا متعة اخرى • فعلى هذه الشرفة تميز المراتب كلها : الله ، الاحرار ، النساء والعبيد والوحوش • ان الله يقف في الوسط متنصبا وهادئا وواثقا من قوته • ورغم انه يرى الرعب من حوله الا انه ليس قلقا • انه يسيطر على غضبه وعواطفه دون ان يكون ، من جهة اخرى ، لا مباليا ، ذلك انه ، بهدوء ، يمد ذراعه ويمنح النصر الى الفريق الذي يشاء • اما الاحرار - الليبيتون - فان لديهم الطابع الانساني على وجوههم ويحتفظون به بقدر ما يستطيعون من ثبات • انهم لا يصرخون ولا يقعون فريسة الالم • فهم ، اخيرا ، بشر وليسوا آلهة • وان ارتعاشة خفيفة على شفاههم ، بالاضافة الى تجعيده على الحاجب تبين انهم يتألمون ، والنساء يتألن أكثر لكن المهن يمتزج بصمت مع رغبة غامضة ، ورغم انهن يبدون سعيدات بأن تمتلكهن الشهوات الذكورية الوحشية ، وسعيدات بأن تسفح الدماء

لجلهين ، والعبيد ، من جهة اخرى ، يسترخون بنوع من الالفة الجريئة وهم يتطلعون الى الاخرين . ان ما ينقصهم هو الكبح الصارم . ففي فترة خلق هذه الشرفة لم تكن هذه الاشكال المحنية على الحواف تستطيع ان تمثل الالهة . ان الالهة ما كانت لتتمرغ بهذه الطريقة ، وما كانت لتنسى قداستها الالهية . واخيرا لدينا القنطورات ، الوحوش الفاسقة السكيرة تنقض على النساء والاطفال وهي تزعق وتعض . العقل غائب ولذا فانه ليست هناك قوة تستطيع ان تفرض النظام على قوتها او تفرض النبل على عواطفها .

انها لحظة نادرة . تلك اللحظة التي تحتفظ فيها كل مراتب الحياة المتغيرة بعلامتها بكرا . في تلك اللحظة الرخامية تتعايش العناصر كلها ، رباطة جأش الالهة ومبدأ الانسان الحر وتفجر الوحش والتمثل الواقعي عند العبد . بعد اجيال قليلة سيتمكن هذان الاخيران ، احط العناصر ، من ان يحكما . ستنتشر العاطفة الواقعية وتهشم كلا من الانسان الحر والالهة . سيفلت الزمام وسينحط الفن ويسكن . ومن فاجعية هذه الشرفة الاولمبية والهدوء الالهي في البارتيون سنصل الى لفظية بيرغاموم (1) التي لا تحدها حدود .

عن هذه الشرفة نستمتع برؤية بذور الذروة والأثروية وما بعدها تتعايش في ومضة متوحدة . فالكمال توافق خاطف يبرق فوق الفوضى ، وهو توازن عصي وخطر . ما ان تلقي اقل وزن على احد طرفيه حتى يسقط .

وتمنحنا تلك الشرفة ايضا متعة اخرى . حين ننظر اليها تبرز عدة اسئلة . لقد ظهرت فور ان هزمت القوات اليونانية الفرس واندفعت موجة سعيدة من الراحة والفخر والقوة على الارض كلها . احست اليونان بعظمتها . كان العالم من حولها وفيها يتجدد وكان الالهة والبشر يشعون بضوء جديد . ولا بد ان يتجدد كل شيء بالمقدار ذاته : المعابد والتماثيل والرسوم والقصائد . لا بد من تخليد ابدي للانتصارات اليونانية على البرارة . فأى شكل نحتي سيأخذه هذا التخليد .

ينظر الفنان تحت مجرى الواقع اليومي ويرى الرموز الخالدة اللامتغيرة . ووراء النشاطات التشنجية المتناقضة دائما للانسان الحي يميز « الفنان » التيارات العظيمة التي تدفع الروح البشرية . يأخذ الاحداث العرضية ويعيد وضعها في مناخ لا يموت . ان الفنان العظيم يتطلع الى التمثل الواقعي والى كاريكاتير (الخطوط العريضة) للخلود .

(1) رمز للقوة ومكان فينيقي .

ولهذا ليس فقط النحاتون بل وجميع الفنانين العظماء في اليونان القديمة ، لرغبتهم في ضمان الديمومة لكل نصب معاصر لانتصار ، كانوا يعيدون وضع التاريخ في مناخ الاسطورة السامي والرمزي . وبدلا من تقديم اليونانيين المعاصرين وهم يحاربون الفرس قدموا لنا اللابيت والقنطورات (١) . ووراء اللابيت والقنطور نستطيع ان نرى الخصمين الكبارين الابديين : العقل والوحش ، الحضارة والهمجية . وهكذا فان حدثا تاريخيا يحدث في زمن محدد يتخلص من الزمن وينتمي الى الشعب كله والى رؤى هذا الشعب القديمة . وفي النهاية يتخلص من الشعب ويصبح ذكرى خالدة للبشرية . وبفضل التسامي الرمزي تسامت الانتصارات اليونانية لتصبح انتصارات للبشر كلهم .

وهذا كله ينطبق ايضا على الميثوبات (٢) الاثني عشر التي تزين معبد زيوس . انها تمثل مآثر هرقل الاثني عشر . وحتى في حالتها الخربة المبعثرة التي بقيت لنا وتعلقت على جدران المتحف فبكم من العمق تؤثر بنا! والى اي علاء فخور تسمو بالعقل ؟ انظر كيف ان اثينا ، الفطنة البشرية ، فتية لكنها مليئة بالقوة ، تقف الى جانب البطل الرياضي وتعاونه . بطريقة مشابهة ، وقبل ذلك بوقت قصير ، لا بد انها قد قفزت من اكربوليس الى ماراثون وسالاميز لمساعدة اليونانيين . وعلى الميثوبات فيما بعد تجلس على صخرة ، متعبة قليلا للجهود التي بذلتها ، غير انها فخورة . انظر كيف تحدد الى البطل وهو عائد منتصرا يقدم لها طيور ستيمفالوس (٣) كغنائم . وبعد ذلك بقليل ، انظر كيف ترفع يديها بحنو وهي تقف ورائه لتساعده على حمل عبء العالم .

وعلى الرغم من ان الفنان كان يرغب ، بالتاكيد ، في تمجيد يوناني عصره الا انه حول المديح الى هرقل السلف العظيم وكبير جنسه . وتبدو ترنيمة المديح وكأنها تقول اننا نحن ابناء هذا الجيل لم نحقق هذا النصر بل حققته عبقرية شعبنا . لقد حققه سلفنا البطل المصمم والعنيد . وبهذا فان الترنيمة ، المصاغة رمزيا ، تتسع اكثر فاكثر لتشمل جميع شعوب الانسان الحر . نحن اليونانيين لم نحقق النصر ولم يحققه عرقنا وحده بل ،

(١) اللابيت شعب خرافي من تيسلي . في عرس ملكهم بيرثوس على هيبوداميا دعي القنطور بوريوتون الذي حاول ، بعد سكره ، ان يختطف العروس . وحين فشل في ذلك عاد مع شعب القنطور في هجوم كبير ولكن اللابيت استطاعوا تهزمهم ودرهم الى حدود ابروس حيث التجأوا الى جبل بندوس .

(٢) الميتوب : الفسحة الفاصلة بين واجهتين في افريز .

(٣) ستيمفالوس بحيرة تحميها طيور مرعبة قامت اثينا باعطاء صنوج نحاسية لهرقل لاختافه هذه الطيور ثم تلتها بالسهم . وهي طيور تأكل لحم البشر ولها منقار واجنحة ومخالب من حديد .

كما تقول الاغنية ، حققه كل انسان يتقدم من ماثرة الى ماثرة وهو يكافح
ليقهر الوحوش والهمج والموت .

عبرت باب المتحف وتمشيت في الفناء المظلل بالصنوبر . وهنا تملكنتني
كآبة مفاجئة . تساءلت عما اذا كنا نحن المحدثين ، سنستطيع بدورنا ان
ننجز الرؤيا البطولية المتوازنة والمفعمة بالتناغم التي انجزها اليونانيون
القدامى ؟ ان كل حاج بعد ان يخلص نفسه من الحلم الاولمبي وبعد ان يخرج
من باب المتحف ويواجه شمس ايامنا لا بد انه ، بأسى ، سوف يطرح
هذا السؤال على نفسه . ان الكابة بالنسبة لنا نحن اليونانيين ، مزدوجة :
ذلك لاننا نعتبر انفسنا احفادا لقدماء . ولذلك فاننا ، شئنا ام ابينا ،
نتعهد بواجب ان نتساوى مع اسلافنا - وحتى ان نتجاوزهم . ان واجب
كل ابن ان يتخطى والديه .

كم هو ممتع ان يتمشى اليوناني في بلده ولا يسمع اصواتا غاضبة قاسية
تحت الارض ! فالرحلة عبر اليونان تتحول ، بالنسبة لليوناني الى عذاب
منهك وأسر . انك تقف على نقطة من ارض اليونان وتجد نفسك وقد غلبك
الاسى . انها قبر عميق يضم طبقات متتالية من الجثث التي ترفع اصواتها
وتناديك ، ذلك ان الصوت هو الجزء الوحيد من الجثة الذي يظل خالدا ،
فأي من هذه الاصوات ستختار ؟ كل منها روح . وكل روح تتلهف على جسد
يخصها . وقلبك يصغي وهو مضطرب ايما اضطراب . انه يتردد في اتخاذ
قرار لان اعز الارواح ليست على الاغلب هي الارواح التي تستحق اكثر من
غيرها .

اتذكر انني شعرت بهذا الصراع الرهيب والعريق بين القلب والعقل
ظهيرة ذات يوم حين وقفت تحت شجرة دفلى مزهرة على طريق يوروتاس
بين اسبارطة وميسترنا اندفع قلبي الجامح ليبعث الجثة الشاحبة والمختومة
بالموت لامبراطورنا البيزنطي كونستانتين بالبولوغوس وليعيد عجلة الزمن
الى ٢ كانون الثاني ١٤٤٩ حيث قبل هنا ، وعلى مرتفعات ميسترنا ، العرش
البيزنطي قصير العمر والمضخم بالدم . ومضات لا تحصى من التسوق
السلفي ومن التوق العرقي تحثنا لاتباع رغبات القلب غير ان العقل يقاوم
بعناد . يحول العقل وجهه صوب اسبارطة غاضبا . انه يرغب في ان يرمي
بالامبراطور الشاحب الى غياهب الزمن وان يرى انسجامه مع الشباب
الاسبارطيين الشجعان - ذلك ان رغبة العقل هي بالضبط ما تتطلبه منا
هذه اللحظة الرهيبه ، اللحظة الرهيبه التي قدر لنا ان نولد فيها ، فان
أردنا لحياتنا ان تثمر علينا ان نتخذ القرار الذي ينسجم مع الايقاع المخيف
لعمسنا .

حين يرتحل اليوناني في اليونان تتحول رحلته بهذه الطريقة المصرية الى بحث مضمّن عن واجبه . كيف سيصبح مستحقاً لاسلافه ؟ كيف يستطيع ان يتابع تراثه الوطني دون ان يشينه ؟ ان مسؤولية قاسية لا تعرف السكوت تجثم على كاهله وعلى كاهل كل يوناني حي . ان للاسم ذاته قوة سحرية لا تقهر . وعلى كل انسان ولد في اليونان واجب متابعة الاسطورة اليونانية الخالدة .

وليست هناك منطقة في الوطن تدعو اليوناني المعاصر الى رعشة لا مبالية من التقدير الجمالي . ان للمنطقة اسما . واسمها ماراثون او سالاميز او اوليمبيا او تير موبيلاي او ميسترا وهي مرتبطة بذاكرة . هنا أمنك وهناك حققنا مجدا . بغتة تتحول المنطقة الى تاريخ قبكي عليه وشاهك . وتقع روح الحاج اليوناني في بلبلة . كل منطقة يونانية مشبعة بالنجاحات والاحباطات التي كان لها اصدااء ملء العالم ، كل منطقة مليئة بالكفاح الانساني بحيث انها تسمو الى درس صارم لا نستطيع الهروب منه . انها تصبح صرخة وواجبنا هو ان نسمع هذه الصرخة .

موقع اليونان مأساوي فعلا . وعلى كاهل كل يوناني معاصر تلقي بواجب خطر وصعب التنفيذ في أن . اننا نحمل مسؤولية ثقيلة . قوى جديدة تظهر في الشرق وقوى جديدة تظهر في الغرب . واليونان ، الواقعة ابدا بين الدافعين والمتعارضين ، تقع مرة اخرى في دوامة . الغرب يتقدم لقهق العالم متتبعا تراث العقل والبحث الامبراطوري . والشرق ، تحته قوى مخفية غير مدركة ، يندفع هو الاخر لقهق العالم . واليونان في الوسط . انها نقطة تقاطع العالم جغرافيا وروحيا . ومرة اخرى عليها ان تصالح بين هذين الدافعين الوحشيين بايجاد تركيبة جامعة . فهل ستنجح ؟

انه مصرير مقدس ومريير . في نهاية رحلتي عبر اليونان امتلأت بأسئلة مأساوية ومفاجئة . بدانا بالجمال وانتهينا بالأم عصرنا وبالواجب المعاصر الملحق على كل يوناني . ولم يعد الان في وسع الانسان الذي يحيا - الذي يفكر ويحب ويكافح - ان يتمشى في طريق بهيج وهو يستمتع بالجمال . ان الكفاح يتوسع ، في ايامنا ، كالحريق ، ليست هناك اية فرقة اطفاء يمكن ان تضمن سلامتنا ، كل انسان يكافح ويحترق مع الانسانية كلها . والامة اليونانية تكافح وتحترق اكثر من البقية . وهذا قدرها .

اغلقت الدائرة . امتلأت عيناى باليونان . يبدو لي ان عقلي قد نضج في هذه الاشهر الثلاثة ، ما هي ائمن الغنائم في حملتي العقلية هذه ؟ اعتقد انها : لقد رايت بوضوح اشد الرسالة التاريخية لليونان وهي الواقعة بين الشرق والغرب ، وادركت ان مآثرتها الاسمي ليست الجمال بل الكفاح

من اجل الحرية : وشعرت بقدر اليونان المأساوي بعمق اكبر كما شعرت
بالواجب الثقيل الملقى على كاهل كل يوناني .

أعتقد انني بعد رحلتي عبر اليونان فورا أصبحت ناضجا بها فيه
الكفاية للبدء بسنوات النضوج . ولم يكن الجمال هو الذي دلني على الطريق
وادخلني في الرجولة بل المسؤولية .

تلك هي الثمرة المرة التي كنت امسك بها في يدي وانا ادخل بيت
ابي بعد عودتي من رحلة الاشهر الثلاثة .

١٨ - ايطاليا

عدت الى بيت ابي . وهناك ، وسط الصمت المؤثر الذي تفرق فيه امي وتحت نظرة ابي القاسية ساعيش رحلتي من جديد مرتباً بعض الشيء افراحها واحزانها . لن اتهرب من مسؤوليتي بعد الان . لقد كسبت صوتاً في داخلي ، تكلمت الارض ونهض الموتى وانكشفت اليونان امامي كريتاً هائلة - هي الاخرى تقاتل من اجل حريتها (وهذا قدرها) منذ بدء الزمن . فما هو واجبي اذن ؟ واجبي ان اعمل معها ، ان اقي بحياتي وبروحي في الكفاح الى جانبها .

ولكن ممن ؟ ومم ابحت عن الحرية ؟ كانت هذه اسئلة صعبة ولم أستطع الاجابة عليها . الشيء الوحيد الذي شعرت به هو ان دوري لا يكمن في الذهاب الى الجبال والبنديقية في يدبيلقتال ضد الاتراك . كانت اسلحتي مختلفة . اضافة الى انني لم أستطع بعد ان احدد هوية اعدائي . الشيء الوحيد الذي كنت اراه بوضوح هو انني مهما كان القرار الذي سأأخذه فان علي ان اؤدي واجبي بأشرف ما يمكنني . ولقد كنت واثقاً من ذلك - من وفائي وشرفي . كنت واثقاً من ذلك ، ولا شيء غيره .

اتذكر حين جاء الارشمندرت الى والدي واشتكى له انني لا اسمع كلام اساتذتي ؟ لقد اجابه والدي : « وكنت هناك وسمعت ، : « انا لا اهتم الا اذا كان يكذب او ياكل قتلة . هذان هما الشيطان الهامان . أما بشأن أي امر اخر فليفعل ما يشاء ! » لقد تغلفت هذه الكلمات في اعماق عقلي . واعتقد ان حياتي ما كانت لتصبح ما هي عليه لو انني لم اسمع هذه الكلمات . كان يبدو ان هناك غريزة غامضة لا تخطيء تسير والدي في تربيته لابنه ، غريزة الذئب وهو يربي دغفله الاول .

لم ابرح البيت اذ ليس لدي الان اصدقاء . كانت جمعية الصداقة طائفة ورقية ولادية ولقد تبعثت اجزاؤها مع الرياح الاربعة . نحتت جانبا الاهتمامات الجديدة التي كانت تعذبني منذ حجي عبر اليونان وحولت افكاري لدراسة النهضة الايطالية والارواح العظيمة التي ولدتها . فلقد صممت على القيام برحلة الى ايطاليا مستهلكا ما تبقى من منحة والدي لعام الترحال .

وهكذا اخرجت نفسي ذات صباح من بيت اسرتي مرة اخرى وسالنتني امي المنتحبة : « الى متى ستظل ترحل ؟ الى متى ؟ » وأردت ان اجيب (كم الشباب عديمو الشعور) : « طالما انا حي يا امي . طالما انا حي » . لكنني تماكنت نفسي وقبلت يدها . ثم حملني البحر بعيدا .

ان تكون شابامعافى وعمرك خمسة وعشرون عاما ، وان لا تحب اي شخص محدد ذكرا ام انثى (هذا امر يضيق قلبك ويبعدك عن حب كل الاشياء بالالهتمام ذاته وبالحماسة ذاتها) وان ترحل على قدميك وحيدا من طرف ايطاليا الى طرفها الاخر وحقيبة جلدية على كتفك ، وان يكون الطقس ربيعيا ثم ان ياتي الصيف وبعده الخريف فالشتاء محملا بالفاكهة والمطر - اية وقاحة يتمتع بها الانسان ليطمع في سعادة اعظم !!

كنت اعتقد انه لا ينقصني شيء . تهلت الوحوش الثلاثة بالمقدار ذاته : الجسد والعقل والروح . وكان الثلاثة راضين . فلقد اشبع جوعها تماما . وللحد الأقصى من شهر العسل هذا مع روحي كنت اشعر ، اكثر من اي وقت اخر في حياتي ، ان الجسد والعقل والروح قد صنعت من طينة واحدة . حين يهرم المزمء أو يسقط بين برائن المرض او التعاسة يحدث عندها فقط ان تفترق او تتعارض فيما بينها . وقد يرغب الجسد احيانا ان يتولى القيادة وقد ترفع الروح راية عصيانها وتتمنى الفرار . ويقف العقل عاجزا وهو يراقب ويدون التحلل . ولكن حين يكون المزمء شابا وقويا كم يكون هذا الثلاثي متحدا بأخوة حبيبة وكيف يعيش الثلاثة على الحليب ذاته !

أغض عيني . يعود الشباب ، ويعود التوافق في داخلي . تمر الشواطىء والجبال طازجة امام عيني ، والقرى بأجراسها الهزيلة وساحاتها الصغيرة المظلة - شجرة الدلب ، الينبوع المتدفق والمقاعد الحجرية على الاطراف والعجائز الذين يجلسون ، في المساء ، منحنين على عكازاتهم وهم يتحدثون بهدوء ، الاشياء ذاتها منذ سنوات عديدة . ومنذ قرون عديدة . وحتى الهواء من حولهم ومن فوقهم قديم قدم الزمن ، كم ارتعش قلبي حين رأيت اللوحات الشهيرة لأول مرة . وقفت بالعتبة وركبتاي مثنيتان ،

لمدة طويلة ، الى ان هذا قلبي المضطرب اخيرا واستطعت ان اتحمل هذا الجمال كله . فالجمال ، كما تنبأت وكان صحيحا ، لا يرحم . انك لا تنظر الى الجمال بل هو الذي ينظر اليك ولا يسامحك .

انطلقت من مدينة الى مدينة . رسوم وتمائيل وكنائس وقصور . اي شره واي توق ! لم يكن من الممكن ارواء ظمئي وجوعي . ظل نسيم فاتن يهب بين حنايائي . لم تتكرر ابدا تلك الغبطة الجسدية الصافية في حياتي لا من النساء ولا من الافكار ولا من الاتصال بالله . وبما انه لم يسبق ان سيطر علي اهتمام خالص كهذا فقد كنت اجد المتعة في الرؤية والسمع واللمس . لقد اتحد العالم الداخلي بالعالم الخارجي . لمسته وكان دافئا وله عبير كعبير جسدي . ولو قيض لي في تلك الفترة ان اخلق ربي لصنعته بجسد مراهق ، مثل كوروس القديم بزغب كثيف على خديه وركبتين قويتين وخصر اهيف وهو يحمل العالم على كتفيه كما لو انه ثور .

هنا في ايطاليا كانت تفاع الحياة متينة ومتناسقة . اما اليونان فمختلفة تماما . لقد كانت رحلتي عبر اليونان مؤلمة لان تلك التربة كانت قريبة جدا مني وكانت لي . ولمعرفتي الجيدة بمعاناة اليونان كنت ارى معاناتها بوضوح وراء وجهها الجميل وكنت اعاني معها . لكن ايطاليا كانت تربة مغرية . ان لها ، ايضا ، الامها لكنني لا اعرفها ولو انني عرفتها لما استطاعت ان تقلقني الى ذلك الحد . هنا لم يكن لوجه الجمال بالنسبة لي اي جرح ، او هكذا خيل لي .

كنت ريفيا غير معقد ما يزال مغطى بزغب المراهقة ، يمشي للمرة الاولى وحده وبحريته في بلد اجنبي . ولقد كانت فرحتي عظيمة الى درجة انني احيانا كنت احس بالرعب يملكني . ذلك انني اعرف تماما ان الالهة مخلوقات حسودة وانه من الخطر (والخطيئة) ان تكون سعيدا وان تعرف انك سعيد . ولكي ابعد اذى عينها الشريرة التجأت الى خطط مضحكة للتقليل من سعادتي . واذكر انني كنت تياها في فلورنسه لدرجة انني ادركت ان الحقوق الممنوحة لبني البشر قد تم تجاوزها . كان علي ان اجد طريقة ما لكي اتألم وهكذا اشتريت حذاء ضيقا جدا . لبسته في الصباح والمشي جدا حتى انني لم استطع المشي - كنت اعرج كغراب . طوال ذلك الصباح وحتى الظهر كنت في حالة بائسة ، ولكنني حين غيرت حذائي وخرجت في نزهة عصر ذلك اليوم احسست بمتعة كبيرة ، كنت اسير كأنني بلا وزن . كنت اطيير . عاد العالم واصبح فردوسا تنزهت على صفة أرنود عبرت الجسور وصعدت الى سان مينيئاتو . هب نسيم بارد حين اقترب المساء وكان الناس يرتدون ملابس من الذهب وهم يسيرون تحت اخر اشعة الشمس . ولكنني في الصباح التالي لبست الحذاء الضيق وابتأست !

من جديد • غير ان الالهة لم تعد لديها حجة للتدخل الآن. لقد دفعت الجزية التي فرضوها على البشر •

كان كل شيء بسيطا بشكل طفولي • لم تزعجني اية مشكلة ولم يكن في تفاحة الحياة اية دودة ؟ كانت المظاهر كافية • ولم اكن ابحت لاكتشاف ما اذا كان هناك اي شيء وراءها • ذات يوم قام رسام يوناني برسم ستارة ودعا رساما يناقسه ليراها ويحكم على عمله • « طيب • ازح الستارة ودعني ار اللوحة » وكان جواب الفنان : « الستارة هي اللوحة » • ستارة الجبال والاشجار والمحيطات والبشر التي كنت اراها امامي الان ، تلك هي اللوحة وكنت استمتع بها بغبطة اصيلة وشرهة •

لقد قام العصيان الداخلي لسنوات المراهقة بتصريف طاقته • هضمت الافكار المخزية حول ان الارض ليست مركز الكون وان الانسان متحدر من الوحوش ، وانه ، نفسه ، وحش اكثر ذكاء واكثر بعدا عن الاخلاق من اسلافه • اما بالنسبة للانثى التي جاءت واثارت دمي لوهلة ، فانها لم تعد لافساد سعادتي المتناغمة منذ ان وضعتها على الورق • ودون اهتمام بما يمكن ان يمليه العقل ليثبت ان للنساء قيمة الرجال وأرواحهم ، فان قلبي العجوز في اعماقي ، القلب الافريقي الذي يحتقر العقل المتأورب (1) ولا يهتم له ، هذا القلب يستنكر النساء ويرفض ان يثق بهن او ان يسمح لهن بالتغلغل في اعماقي بغية التملك • النساء ببساطة ، زينة للرجال وفي اغلب الاحيان هن مرض وضرورة •

أفكر في كوستانديس حارس الحقول الضاري في كريت الذي كان يعيش كناسك ولا يسمح لانثى ان تقترب منه • وبغثة انتشار الكلام حول ان كوستانديس سيتزوج • قلت له : « كوستانديس يا الهي • ما هذا الذي اسمعه ؟ هل ستتزوج حقا ؟ » فأجابني : « طيب وما الذي استطيع ان افعله يا معلم ؟ لقد فكرت ، افترض انني اصبت بالزكام فمن سيجلب لي كؤوس الهواء (2) » • وقال لي شخص اخر يبرر زواجه في الخمسين : « وما الذي افعله يا بني ؟ انت ترى • لقد قررت انني اريد جدائل جميلة على ونهادتي مثل عمري » •

كما قلنا : احيانا ضرورة واهيانا اخرى زينة •
طوال شهر العسل ذاك في ايطاليا كنت حرا دون مشاكل ميتافيزيقية

(1) النزعة الاوربية .

(2) كؤوس يفرغ الهواء من داخلها باحراق ورقة وهي موضوعة على جلد المريض • علاج شعبي •

ودون قلق حول الحب • افراحي لم تكن تشوبها هائبة •
وحين احاول ان استرجع هذه الافراح بعد مرور سنوات طويلة اندهش
ببعض الافكار التي دخلت في واتحدث معي ولم يعد من الممكن تحديدها كذكريات
لقد تسربت من ذاكرتي الى دورتي الدموية حيث تعيش وتعمل
كفرائز طبيعية • وحين اقرر امرا ما اتذكر فيما بعد انه لم يكن انا من
اتخذ القرار بل الاثر الذي احدثته بي اللوحة الفلانية ، او البرج الفلاني
من عصر النهضة او البيت الفلاني عند دانتي الذي رأيته محفوراً في احد
الشوارع الضيقة في القسم القديم من فلورنسة •

ليست المتع الذهبية ، بل متع اكثر مادية واقرب الى الحرارة
الانسانية ، تلك التي تبقى ثابتة في ذاكرتي وتحقق الي بمحبة وحزن •
والنتيجة النهائية هي انني من مغامرة الشباب تلك كلها لم أعد الامع
غنيمة هزيلة : غنيمة هزيلة ومتواضعة جدا بالفعل : زهرة رأيتهما ذابلة على
سياج في باليرمو ، وفتاة صغيرة حافية تبكي في احد حواري نابولي القذرة
وقطة سوداء مرقطة ببقع بيضاء جالسة على النافذة القوطية (1) في
فيرونا • انه لسر عجيب • ما الذي تختاره الذاكرة البشرية للاحتفاظ به من
كل ما يقدم لها • من كان ذلك الفاتح العظيم الذي تنهد على فراش
الموت : « طوال حياتي وانا اتوق الى ثلاثة اشياء لم اجد الفرصة للاستمتاع
بها : بيت صغير على شاطيء البحر ، وكناري في قفص ، وحق من
الحب » ؟ فمن مجمل رحلتي في ايطاليا استقرت في ذاكرتي حادثتان
ميررتان اكثر من كل ما مر بي ، وستظلان تطاردانني بالتأنيب حتى الموت
رغم انني بريء تماما تجاههما •

تلك هي الاولى :

الوقت قبيل حلول الظلام • كان النهار بطوله مطرا وعواصف ضطرية •
وصلت الى قرية كالايرية صغيرة وانا مبلل حتى العظام • كان علي أن
اجد موقدا أجفف نفسي عليه وزاوية أنام فيها • الشوارع مهجورة
والابواب موصدة • والكلاب وحدها التي تشم رائحة الغريب بدأت بالنباح من
الدور • الفلاحون في تلك المنطقة أجلاف وانعزاليون ومتشككون بالغرباء •
توقفت مترددا عند كل باب ومددت يدي ولم أجرؤ على الدق •

آه • يا لجدي المرحوم في كريت الذي كان يأخذ قنديله كل مساء ويتجول
في القرية ليرى ان كان قد جاءها غريب • كان يأخذه الى البيت ويطعمه ويمد
له فراشا للنوم ثم يودعه في الصباح بكأس من الخمر وقطعة من الخبز •
هنا في القرى الكالايرية لا يوجد اجداد مثله •

(1) المصممة على الطراز القوطي •

وبفتة رأيت باباً مفتوحاً في طرف القرية . مددت رأسي وتطلعت
 فرأيت ممرًا معتماً وناراً مشتعلة في الطرف الأقصى وامرأة عجوزاً تنحني
 فوقها . كان يبدو أنها تطبخ . لا صوت . لا شيء إلا احتراق الخشب .
 كان ذا رائحة . لا بد أنه خشب صنوبر . اجتزت العتبة ودخلت فاضطمدت
 بطاولة طويلة في وسط الغرفة . ووصلت أخيراً إلى النار وجلست على
 كرسي وجدته قرب الموقد . كانت العجوز قابعة على كرسي آخر وهي
 تحرك الطبخة بملعقة خشبية أحسست أنها نظرت إلي بسرعة ودون أن
 تلتفت . لكنها لم تقل شيئاً . خلعت سترتي وبدأت أجفها وأحسست
 بالسعادة تتصاعد في كالحرارة من قدمي إلى ساقي إلى فخذي فصدري .
 وبجوع وبشره رحت استنشيق رائحة البخار المتصاعد من القدر . لا بد أن
 الطبخة فاصولياء مقلية . وكانت الرائحة مهيمنة على كل شيء . ومرة
 أخرى أدركت كم أن السعادة الأرضية مصنوعة على مقياس الإنسان
 ليست السعادة طائراً نادراً علينا أن نطارده في لحظة محددة في السماء وفي
 اللحظة التالية في عقولنا . السعادة طائر أليف موجود في باحة دارنا .

نهضت العجوز وتناولت صحنين للحساء عن رف قريب منها . ملأتهما
 فامتلاً العالم برائحة الفاصولياء . أشعلت مصباحاً ووضعت على المائدة
 الطاولة ثم جلبت ملعقتين خشبيتين ورغيفاً من الخبز الأسود . جلسنا
 متقابلين . رسمت علامة الصليب ثم نظرت إلي بسرعة ففهمت . صلبت
 نفسي وبدأنا نأكل . كان كل منا جائعاً . فلم ننيس بكلمة . قررت أن لا
 أتكلم لأرى ما سيحدث . أيمن أن تكون خرساء ؟ هكذا سألت نفسي - أم
 لعلها مجنونة ، واحدة من أولئك المجاذيب الهادئين اللطفاء الشبهيين
 بالقدسين .

وحالما انتهينا هيات لي فراشاً على مقعد طويل قرب الطاولة
 استلقيت واستلقت على المقعد الآخر المواجه لي . في الخارج كان المطر
 ينهمر بغزارة . وبعد مدة سمعت الماء يبقب على السطح ممتزجاً مع
 تنفس العجوز اللطيف والهادئ . لا بد أنها متعبة لأنها نامت بمجرد أن
 أراحت رأسها . وشيئاً فشيئاً مع المطر وتنفس العجوز المنتظم رحت بدوري
 في نوم عميق . وحين استيقظت رأيت ضوء النهار يتسرب من شقوق
 الباب .

كانت العجوز قد نهضت ووضعت على النار قدراً لتهيئة حليب
 الصباح . تطلعت إليها الآن في ضوء النهار الخفيف . متغضنة ومحدودة
 تستطيع أن تحملها في راحة يدك . قدماها منتفختان بحيث أنها تضطر
 للتوقف عند كل خطوة والتقاط أنفاسها . ولكن عينيها ، عينيها الواسعتين
 السوداوين فقط ، كانتا تشعان ببريق فتي لم يعجز . كم كانت جميلة

في صباحها . رحبت أفكر بيني وبين نفسي وأنا أقدر مصير الانسان وهرمه
القدري . جلسنا كل في مواجهة الآخر مرة أخرى وشربنا الحليب . ثم
نهضت وألقيت بحقيبتى الجلدية على كتفي . أخرجت محفظتي ولكن
العجوز تلونت وتمتمت وهي تمد يدها : « لا . لا . » وحين نظرت اليها
مندهشا أضاء وجهها المجدد كله بفتحة وقالت : « مع السلامة . وليباركك
الله . وليكافئك الله على الجميل الذي أسديته الي . منذ أن مات زوجي
لم أنم بهذا العمق » .

وما هي الذكرى الثانية والاكثـر مرارة بينهما :

قـرابة بدء الربيع وصلت الى أسيسي ، أكثر المدن الايطالية قداسة .
حدائق وسقوف وباحات والهواء ذاته . كل شيء كان مليئا بالحضور
اللامرئي لفقر الله الصغير (1) . كان يوم أحد . وكانت الاجراس الهائلة
في كنيسة تفرغ والاجراس الفضية ذات الصوت العذب في دير سانت كلير
وسانت فرانسيس ، يلتحمان في الهواء ، يتحدان بلا انقصاص الى الابد
والاصوات الخالدة التي تمنحهما اياها القداسة مع الموت : « يا أبانا
فرانسيس ، متى ، أخيرا ، ستأتي لترانا نحن الاخوات المسكينات في
ديرنا ؟ » . « حين تزهر الاشواك بأزهار بيضاء . . . » وبفتحة ازهر
الاشواك الى الابد . وحمامتا الله الاليفتان ، المتحدتان الى الابد ، تصفقان
أجنحتهما الى الابد فوق أسيسي .

صعدت الشوارع الضيقة . أبواب تظل تفتح ونساء يظهرن . حديثات
الاستحمام ، معطرات بالخزامى وشعورهن مسرحة بعناية ينطلقن مسرعات
مرحات نحو الكنيسة - يرين ويرين . في الربيع ، في بلاد الشمس ، تصبح
الكنيسة غرفة الجلوس الخاصة بالله . اصدقاءه ، من رجال ونساء ،
يذهبون اليها ويجلسون على صفوف الكراسي ثم ينهمكون في أحاديث
قصيرة مع الله للحظة ومع جيرانهم للحظة أخرى . وخدام الله يروح ويجيء
مشدودا بهشدا أبيض وثوب أسود أو أحمر . يقرع الجرس الصغير ويغني
بصوت عذب مدائحـه للقديس فرانسيس ، سيد المنزل . ثم ينهض الضيوف
ويودعون وهم يتجهون الى الباب . لقد قاموا بزيارتهم للقديس ، والان
انتهت الزيارة ، وتضحك السماء راضية . أما تحت على الارض فتفتح
الخمارات أبوابها .

كانت لدي رسالة تعريف الى الكونتيسة ايريشيتا سوف تمكنني من
المكوث في قصرها . وكانت قد وصفت لي بأنها ارستقراطية عجوز تعيش

(1) القديس فرانسيس .

وحيدة مع خادم موثوقة اسمها ايرميلاندا وانها ستكون سعيدة برفقتي .
كانت فيما مضى الحسنة الاولى في اسيسي ثم تزلزلت في السادسة
والعشرين ومنذ ذلك الحين لم تعرف رجلا . انها تملك غابات شاسعة من
الزيتون والكروم . وكانت فيما مضى تمتطي مهرتها كل صباح وتنطلق
لمراقبة املاتها اما وقد أصبحت الان عجوزا ، وتحسن دائما بالبرد ، فانها
تكتفي بالجلوس امام موقدها صامتة وحزينة وكانها تأسف على حياة
الطهارة التي قضتها . وقيل لي تحدث اليها وانظر اليها وكانها ما تزال
في السادسة والعشرين وامنحها بعض المتعة حتى ولو كانت متأخرة كثيرا .

كان يوما ربيعيا لطيفا . السنونو قد عاد والحقول مليئة بزهور
المارغريت البيضاء الصغيرة والنسيم دافئ وعابق . لكن النار كانت
مشتعلة في البيت الكبير والكونتيسة العجوز جالسة على كرسي واطىء
امام النار وعلى شعرها الابيض منديل من الحرير الازرق . وضعت رسالتي
على ركبتيها والتفت لتتطلع الي . كنت محمرا وعرقانا من الصعود وقميصي
مفتوح الصدر . وركبتي - كنت ارتدي سروالا قصيرا - تلتصقان في ضوء
النار . كنت في الخامسة والعشرين من عمري .

قالت العجوز وهي تبسّم لي : « طيب ؟ اليونان كلها قد دخلت بيتي
بغثة . اهلا وسهلا » .

جاءت ايرميلاندا - « البنت المنتقاة » الفتية التي ستأخذ مهرا من
سيدتها . جلبت صينية وهيات مجلسا على المائدة المنخفضة ثم ربت
الحليب والزبدة والخبز المقرم وعليه فاكهة .

قالت الكونتيسة : « أنا سعيدة جدا . لم أعد وحيدة الان » .
فاجبت : « ولا أنا . وبينما أنا جالس هنا أستطيع أن أفهم معنى
النبيل والجمال واللفظ » .

وتوهجت وجنتا الكونتيسة الشاحبتان لكنها لم تقل شيئا . ورأيت
ومضة تلتصق في عينيها . لا بد انها قالت لنفسها بغضب وضيق : فليأخذ
الشيطان النبيل والجمال واللفظ ، ما يهم الشباب ، الشباب ولا شيء
سواه .

فرزت لي غرفة واسعة تحتوي على سرير كبير وعليه ظلة مخملية .
نافذتان واسعتان تطلان على الشارع كنت أستطيع رؤية باحة دير سانت
كلير أمامي والراهبات يرحن ويجئن بصمت وعلى جانبي الرأس لكل منهما
يتدلى طرفا القبعة البيضاء . كان البرج والسطح والباحة مليئة بالحمام .
والدير كله يتنهد بمودة كهديل حمامة هائلة ، « ماذا تفعل الراهبات بهذا
الحمام كله ؟ » هكذا سألتني الكونتيسة ذات يوم . « يا للفلج ! الا يرينه

ويسمعه ؟ الا يعرفن كم هو مفر ا يجتأ ان يطردنه او لعله من الافضل ان يذبحنه وياكلنه - فيتخلصن منه لكي يتخلصن منهنه » .

بقيت في أسيسي ثلاثة أشهر . القديس فرانسيس والكونتيسة امريشيتا هما اللذان أبقياني ولم يسمحا لي بالرحيل . وأين سأذهب ؟ ان كانت السعادة هي غاية الحياة فلم ارحل ؟ واين سأستطيع ان اجد رفيقا أعز وأوثق من القديس فرانسيس الذي كنت أذهب لزيارته في بيته كل يوم ؟ أو رفقة أجمل من الكونتيسة تلك القديسة كليل الحية ؟ طوال النهار كنت أظل أتمشى في اوجريا البهية مقتفيا آثار القديس عبر غابات الزيتون والكروم . ورأيت الربيع كله موكبا فرانسيسكانيا من الفيوريتي الحمراء والصفراء والبيضاء الناصعة : القديس فرانسيس مع حاشية من الورود ينهض مرة ثانية من أرض أسيسي ليحيي أخاه الشمس (١) . والاخ الريح والاخت النار وأخانا المرح الصغير الماء ... والفتى الكريتي السعيد الى جانبها .

كنت أعود كل مساء الى البيت متعبا وسعيدا . ستكون النار مشتعله والكونتيسة منتظرة بذراعين مفتوحتين على كرسيها الواطئ مرتدية ملابسها ومزينة شعرها وعلى وجهها بعض المساحيق . كانت تجلس ، حزينة وصامتة كعادتها ، وعيناها مغمضتان ولكنها ما ان تسمع الباب وتحس بخطواتي حتى تفتح عينيها . تشير الى الكرسي المجاور لها وتلمس ركبتي بيدها الممدودة .

« تحدث . تحدث . افتح فمك ولا تتوقف . هذه هي متعتي الوحيدة » .
وافتح فمي وحدثها عن كريت وعن والدي ونساء جيراننا وعن الحروب الكريتية من اجل الاستقلال والامير جورج حين خطا على الارض الكريتية . الجزيرة كلها مزينة بالريحان والغار والمحاربون القديماء - بلحاهم البيضاء الطويلة واجسادهم المندوبة بضربات السيوف - ينجنون ليقبلوا يد الامير . كانوا يدوس احدهم فوق الاخر لانهم لم يكونوا يستطيعون ان يروا فقد كانت عيونهم مليئة بالدموع ... وفي مناسبات اخرى حكيت لها عن الصبية الايرلندية وعن صعودنا الى بسيلوريتي وما فعلناه هناك حين كنا وحيدين في الكنيسة الصغيرة وفراننا الذي تبع ذلك .

وسألت الكونتيسة المدهوشة : « ولكن لماذا ؟ لماذا ؟ ألم تسعدك تلك العزيزة المسكينة ؟ » .

● نعم كنت سعيدا جدا .

(١) تعامل الشمس معاملة الذكر .

- اذن ؟
- من اجل ذلك بالتحديد يا كونتيسة .
- لم افهم .
- سعادة اكثر مما يحتاج اليها شاب . كنت في خطر .
- خطر من ماذا ؟

● من احد الاحتمالين التاليين : اما ان اتعود على هذه السعادة بحيث انها تفقد جدتها وبهاؤها واما ان لا اتعود عليها واعتبرها دائما بالعظمة نفسها . وفي هذه الحالة سأضيع نهائيا . لقد رأيت ذات مرة نخلة تغرق في عسلها وتعلمت درسا .

وغرقت الكونتيسة في تأمل طويل ثم قالت اخيرا : « انت رجل . انك لا تحمل هذا وحده في عقلك . لديك امور اخرى . اما بالنسبة لنا نحن النساء ... » .
 ذلك المساء لم نقل شيئا اخر ، راح كل منا يحدق الى النار بصمت حتى منتصف الليل .

كانت ، احيانا ، ترسل لي ايرميلاندا لتسألني : « هل تستطيع الكونتيسة ان تأتي لزيارتك عصر اليوم ؟ » فأخرج فورا لشراء الحلويات والزهور واعدت لانتظارها . وفي الساعة المحددة كانت تقرق الباب بلطف وتردد . واهرع لفتحه لها فتدخل وهي مضربة بحمرة الخجل وكأنها فتاة في الخامسة عشرة خارجة للمرة الاولى مع فتى . كانت تظل فترة طويلة وهي مشوشة وعاجزة عن الكلام ، ثم تبدأ في التجاوب معي بكلمات موجزة وعيناها مطرقتان وصوتها متردد . وكان قلبي ينفطر الى نصفين . يكفي ان ترى كيف يعود الخجل والعذرية من جديد وكيف ينتعشان وينبعشان في المرأة الحقيقية . لا يموتان بل يمنحانها القا يائسا ومريرا في أرذل العمر .

وفي اليوم الذي كان علي فيه ان ارحل القت الكونتيسة بذراعها على عنقي وجعلتني اقسم ان اعود لزيارة اسيسي لرؤيتها .

« وبأسرع ما تستطيع » وحاولت ان تضحك فلم تستطع واندفعت الدموع من عينيها . « بسرعة لانني ربما كنت رحلت في ذلك الحين » لم تكن تقوت « مت » بل كانت تقول « رحلت » .

وحافظت على وعدي . وبعد عدة سنوات استلمت رسالة من متلقي اعترافها دون ديونيجي : « تعال . الكونتيسة ترحل » .
 كنت في اسبانيا : أرسلت برقية وسافرت فورا .
 قرعت باب مقرها بيد مرتعشة وانا احمل باقة من الزهور البيضاء .

هل هي حية أم ميتة ؟ فتحت ارميلاندا الباب ولكنني لم اجرؤ على سؤالها
فقدت لها الزهور .

قالت : « الكونتيسة تنتظرك . انها في سريرها . لا تستطيع ان تمشي
الان » .

رايتها جالسة في سريرها شعرها مسرح ومجوهراتها عليها وقليل من
المساحيق الحمراء على وجنتيها الشاحبتين وشريطة قرمزية مربوطة حول
رقبتها لاختفاء التجاعيد . وكانت قد لمعت اظافرها . وكانت هذه اول مرة
اراهها تفعل ذلك . مدت ذراعيها وارتميت بينهما . ثم جلست على جانب
السرير ورحت انظر اليها . كم كانت محافظة على جمالها وهي في الثمانين
واية حلاوة وأسى في عينيها . .

قالت بصوت هامس : « انني راحلة . راحلة » .
وكنت على وشك ان افتح فمي لكي اعترض واريحها لكنها أمسكت
بيدي وكأنها تستاذنني . وتمتمت من جديد : « انني راحلة . . . » .
حل الليل . ودخلت ارميلاندا لتشغل المصباح لكن الكونتيسة لم تسمع
لها .

كنت استطيع رؤية الومضة الباهتة على وجهها في الغسق : صارت
عيناها حفرتين واسعتين مليئتين بالليل وحين تكاثف السواد ادركت ان
الكونتيسة قد رحلت بصمت ويأس .
بعد بضع ساعات وقرابة منتصف الليل كانت قد رحلت .

١٩ - صديقي الشاعر جبل أتوس

كم يصعب على الروح ، وكم يشق عليها ان تفصل نفسها عن جسدها ،
العالم : عن الجبال والبحار والمدن والناس . ان الروح اخبطوط وهذه
الموجودات كلها أذرة .

لقد هيمنت ايطاليا على روعي كما هيمنت روعي على ايطاليا . اتحدنا
الان اتحادا لا انقسام بعده . ليست هناك قوة على الارض أكثر استعمارية
من الروح البشرية . انها تحتل وتعرض بدورها للاحتلال غير انها دائما
ترى امبراطوريتها ضعيفة . ولانها تحس بالاختناق فانها ترغب في ان تفتح
العالم لكي تتنفس بحرية .

هكذا كانت رحلتي الاولى ، البكر ، الى اوربا الغربية . وعلى الرغم
من انني لم ادرك ذلك في حينه ، الا ان الحدود الاقليمية في داخلي بدأت
تتلاشى . رأيت ان العالم اغنى واوسع من اليونان . وان الجمال والمعاناة
والقوة يمكن ان تظهر بلامح اخرى الى جانب تلك الملامح التي اعطتها
اياها كريت واليونان . وكم من المرات ، بينما كنت احق الى الاجسام
الجميلة في رسومات عصر النهضة ، الاجسام المتألقة بخلود ظاهري ، كان
يهيمن علي حزن لا يحتمل ونقمة عارمة لان الاشكال الالهية التي كانت ستار
تلك الرسوم قد تفسخت واستحالت الى تراب ، لان الجمال والبهاء البشريين
لا يستطيعان ان يعرضا نفسيهما تحت الشمس لاكثر من وهلة . وانفتح
الجرحان العظيمان في داخلي . ومنذ تلك الرحلة الاولى صار الجمال يترك
على شفتي مذاق الموت . وكانت النتيجة ان روعي ازدادت غنى ، لقد وجدت
مصدرا اخر للعصيان . ذلك ان روح الشباب البسيطة لا تستطيع ان تتسامح

مع منظر الجمال وهو يتناقص الى لا شيء بينما يقف الاله جانبا ولا يرفع يده ليجعل الجمال خالدا . لو كنت الها ، هكذا يفكر الشاب ، لوزعت الخلود بلا حساب دون ان اسمع ولو مرة واحدة لجسد جميل او لروح شجاعة ان تموت . اي نوع من الالهة ذلك الذي يقذف بالجميل والقيح ، بالشجاع والجبان في الحماة ذاتها ويدوس عليها بقدمه دون تمييز ويحولها كلها الى وحل ؟ اما انه ليس عادلا واما انه القادر على كل شيء - والا فانه ، ببساطة ، لا يفهم . ودون ان يعترف الشاب يكون ، على الاغلب ، قد بدأ سرا في صنع اله في داخله ، اله لا يخجل قلبه .

حين سئل إرنست رينان ذات مرة عما اذا كان يؤمن بخلود الروح ، اجاب ذلك المشعوذ العجوز الداهية : « لا ارى سببا لجعل بقالنا خالدا او لجعلي انا . لكنني ارى سببا لضرورة عدم موت الارواح العظيمة حين تغادر اجسادها » .

هكذا عدت الى اليونان - مجروحا . كنت مضطربا بثورة ذهنية واضطراب روحي ، وكل شيء في داخلي متضارب ومتردد . لم أكن اعرف ما الذي سأفعله بحياتي . قبل كل شيء كنت اريد ان اجد جوابا ، جوابي ، على الاسئلة الابدية وبعد ذلك اقرر ما الذي سأصير اليه . قلت لنفسي ان لم ابدأ باكتشاف الهدف الاسمي للحياة على الارض فكيف سأتمكن من وضع هدف لحياتي القصيرة الغانية ! وكيف سأنهمك في العمل ؟ لم أكن منشغلا في اكتشاف الهدف من الحياة موضوعيا - لقد تكهنت بأن هذا مستحيل ولا طائل تحته - بل ببساطة في اكتشاف الهدف الذي يستطيع انا ، وبارادتي الحرة ، ان امنحه للحياة وبما يتلاءم مع حاجاتي الروحية والعقلية . وفي ذلك الحين لم يكن يعنيني كثيرا ما اذا كان هذا الهدف هو الهدف الحقيقي أم لا ، كان الامر الهام بالنسبة لي ، انني يجب ان اجد (او اخلق) هدفا منسجما مع نفسي ذاتها ، وباتباعه استطيع اثارة امكانياتي ورغباتي الخاصة الى اقصى حد ممكن . وعندها اخيرا سأكون متعاوننا بانسجام تام مع كلية الكون .

وان كان الانشغال بهذه الاهتمامات الميتافيزيقية في السبب مرضا فقد كنت ، في ذلك الوقت ، مريضا جدا .
لم يكن هناك احد في اثينا . اما اصدقائي فقد استطاعت اهتمامات الحياة اليومية ان ترجع عقولهم وتهدئ قلوبهم .
قال لي احدهم : « ليس لدينا الوقت للتفكير » .
واعلن اخر : « ليس لدينا الوقت للحب » .
وقال لي ثالث وهو يضحك : « انت منشغل اذن بالهدف من الحياة ليس كذلك ؟ يا لك من مسكين ! لم تنشغل بذلك ؟ » .

تذكرت الجواب الذي قدمه لي الفلاح حين حلق طائر فوق رؤوسنا
وانشغلت بالسؤال عن اسمه • نظر الي ساخرا وقال : « يا لك من مسكين •
لم تنشغل بذلك ؟ انه لا يؤكل » •
وتقدم صديق من المدينة فألقى علي نظرة ساخرة ثم غنى :
« ساعني لك اغنية ، من اجمل ما استطيع :
ان تتبرز وتاكل وان تتبول وتشرب •
تلك هي حياة الانسان » •

بالنسبة للمفكرين : غيرات صغيرة، وخصومات صغيرة ، وثرثرة
وعجرفة • بدأت اكتب لكي احول صرختي الداخلية ، وامنع نفسي من
الانفجار • تعودت ان اصعد الى عش الدبابير الادبي الخطير والعظيم في
ساحة ديكساميني اجلس في زاوية واصغي • لم اكن اثرثر ولا اتردد علي
الحانات ولا العب الورق • كنت شخصا لا يطاق • وكانت مآسي الثلاث قد
بدأت تكتسي اللحم بالحم في اعماقي • واشعار المستقبل لم تكن ، بعد ،
الا موسيقى تكافح لكي تتجاوز كونها مجرد اصوات وان تصبح كلاما •

كانت هناك ثلاث شخصيات - اوليس ونيسيفوروس فوكاس والمسيح -
تجاهد في اعماقي لكي يصبح لها وجوه ولكي تفتزع انفسها من احشائي
وتتحرر لاستطيع ، بدوري ، ان اتحرر • طوال حياتي وانا واقع تحت سيطرة
الشخصيات البطولية العظيمة • ربما لانني قرأت حياة القديسين بكثير من
التأثر في طفولتي وكنت اتوق لان اصبح قديسا بدوري • ثم بعد ذلك كرسيت
نفسي ، بالانفعال ذاته ، للكتب التي تتحدث عن الابطال : الفاتحين
والمكتشفين والدون كيشوتيين • وحالما يصدق ان تجمع شخصية ما بين
البطولة والطهارة احوز على نموذجي من الكائن البشري • وبما انني لم
استطع ان اكون قديسا او بطلا فلقد حاولت ، عن طريق الكتابة ، ان اجد
بعض العزاء عن عجزتي •

وكنت غالبا ما اقول لنفسي : انت معزة • وانا احاول ان اضحك لئلا
انفجر بالبكاء • نعم ، معزة • روح عجوز مسكينة • انت تحس بالجوع
ولكن بدلا من ان تشرب الخمر وتاكل اللحم والخبز تاخذ قطعة من الورق
الابيض وتضع عليها كلمات الخمر واللحم والخبز ثم تاكل الورقة •

وذات يوم بزغ ضوء في الظلام • كنت قد انعزلت في مخبأ في كيفيسيا ،
في بيت صغير محاط بأشجار الصنوبر • لم اكن يوما حاقدا علي البشر ، بل
الحقيقة انني كنت ، دائما ، احب الناس (عن بعد) وكلما جاء شخص
لزيارتي ، يستيقظ الكريتي في اعماقي ، وامنع نفسي اجازة لكي ارحب
بهذا الانسان في بيتي • ولفترة لا بأس بها كنت استمتع وانا اصغي اليه

وادخل افكاره • وان استطعت مساعدته بأية طريقة فانني افعل ذلك
بفرح • ولكن ما ان تطول المحادثة او الصلة حتى انسحب الى نفسي واتمنى
ان اترك وحيدا • ويحس الناس ان لا حاجة لي بهم وانني استطيع العيش
دون التحدث اليهم وهذا ما رأوا من المستحيل التسامح معي به • هناك قلة
من الناس استطيع العيش معهم مهما طال الوقت دون ان احس بالانزعاج •

ولكن ذات يوم بزغ الضوء • في ذلك اليوم التقيت بنشاب من عمري في
كيفيسيا • احببته واحترمته دون حدود • هو واحد من القلة الذين كنت احس
انهم مقبولون في حضورهم اكثر مما هم مقبولون في غيابهم • كان حسن
المظهر الى درجة كبيرة وكان يعرف بذلك وكان شاعرا غنائيا كبيرا وكان
يعرف بذلك • كان قد كتب قصيدة طويلة مدهشة قرأتها اكثر من مرة وانا
اكتشف متعة لا تهدأ في نظمها ولغتها وجوها الشعري وانسياقها السحري •
كان هذا الشاعر من فصيلة النسور • وصل القمة من اول خفقة بجناحيه وبعد
ذلك الحين حاول ان يكتب النثر رأيت انه نسر حقيقي • ذلك انه حين توقف
عن الطيران وحاول ، بدلا منه ، ان يسير على الارض كان ثقيلًا وغريبا كنسر
يمشي • الجو عالمه • لديه جناحان وليس لديه عقل ارضي جامد • كان يرى
بعيدا او بشكل مبهم ، ويفكر بالصور • وكانت الشخصوس الشعرية بالنسبة
له حججا منطقية لا تتزعزع • وكلما شوشه الاستدلال المنطقي ولم يستطع
ان يجد مخرجا اما ان تومض صورة براققة في عقله واما ان يهتز ضاحكا
ويهرب بهذه الطريقة •

غير ان لديه كرامة سامية عظيمة وفتنة نادرة ونبلا • حين تراقبه وهو
يتكلم وعينه الزرقاوان تشعان نشوة ، او حين تسمعه وهو يوقع على النافذة
عند قراءة قصائده تفهم كيف كان الشعراء الملحميون اليونانيون الغدامي ،
والشعراء الذين يتجولون من قصر الى قصر مكللين بأوراق الكرمة او بالبنفسج
وهم يروضون مستمعيهم الذين ما يزالون متوحشين بواسطة الشعر •
والحقيقة انني منذ اللحظة الاولى التي رأيت فيها هذا الشاعر الشاب ،
احسنت انه شرف للجنس البشري •

صرنا صديقين بشكل مفاجيء وفوري • كنا مختلفين كثيرا • وتكهنا
ان كلا منا في حاجة للاخر • واننا ، معا ، سنشكل الانسان الكامل • وبسبب
امتلائي بالاسئلة والكفاحات الميتافيزيقية ظلمت محصنا ضد الانخداع
بالمظاهر الباهرة لانني تكهنت بالجمجمة تحت الوجه الجميل • كنت خاليا
من السذاجة وغير واثق من اي شيء • لم اولد اميرا ولكنني كنت اجاهد لكي
اصبح اميرا • اما هو فكان مرحا وعظيما وواثقا من نفسه • يمتلك لحما
نبيلًا وایمانا واضحا ومولدا للقوة بأنه خالد • لا شك انه ولد اميرا وليس عليه
ان يعاني او ان يكافح لكي يصبح اميرا • وليس عليه ان يتوق الى القمة

طالما انه - وكان واثقا من هذا ايضا - قد وصل اليها • كان مقتنعا انه فريد من نوعه وليس هناك من يحل محله • ولن يتنازل لمقارنة نفسه بأي فنان عظيم اخر ، حيا كان أم ميتا • وقد منحته هذه السذاجة قوة وثقة في النفس عظيمنتين •

حكيت له ذات مرة كيف تطير ملكة النحل في الجو يوم زفافها يتبعها جيش من اليعاسيب التي تحاول اللحاق بها • وينجح واحد - هو العريس • يتزوجها ثم يسقط ميتا على الارض • قلت له : « الخاطبون كلهم يموتون راضين • لأن كلا منهم يحس بمتعة العريس في عرسه - وكأنما قد توحدوا كلهم في واحد » •

لكن صديقي انفجر في ضحكة مدوية : « لا افهم ما تقوله ابدا • العريس يجب ان يكون انا • انا ولا اي شخص اخر » •

وأجبتة ضاحكا : « لا تسمى الروح « انا » بل تسمى « كلنا » وذكرته بكلمات صوفي حبيب : « احس انني المتزوج رغم ان الاخرين هم المنتصرون » •

وفيما بعد • حين عرفته اكثر • قلت ذات يوم : « الفارق الكبير بيننا يا انجيلوس ، هو انك تؤمن بأنك قد وجدت خلاصك وباعتقادك هذا نجوت • اما انا فأؤمن ان الخلاص غير موجود وباعتقادي هذا نجوت » •

فيمكن في اعماق نفسه ، كان هناك ضعف لطيف للغاية وملزم للغاية • كانت لديه حاجة ماسة لان يكون موضع حب واعجاب • فان استطعت ان تخترق وجهه المزهو بالانتصار ولهفته الواثقة الصادحة ترى ارسطوقراطية قلقا يمد يده لكل عابر • قال لي واحد من اصدقائه ذات مرة ، وهو شخص ساخر : « انه يمثل دور السلطان ولكنه في الحقيقة سلطانة » •

كان الكثيرويعتبرونه ممثلا او منافقا وذلك انطلاقا من الغيرة منه او من الكره للتيه الملزوم لحياته الخارجية • وكانوا يدعون انه لا يؤمن بشيء وان اقواله كلها وافعاله كلها كذب وتباه ، وانه طاووس دائم العرض لريشه الزاهي ولكن لو نفثته لن تجد الا دجاجة عادية لا اهمية لها •

لا • لم يكن منافقا • حياته الخارجية - الكلام الكبير والعجرفة والمباهاة والتأكيد على انه فريد زمانه وعلى قدرته على القيام بالمعجزات - هذا كله كان منسجما مع الصدق المطلق ومع الثقة الداخلية العميقة • لم يكن يتظاهر انه فريد بل كان يؤمن بذلك فعلا • كان يستطيع ان يضع يده في النار واثقا انه لن يحترق • وكان يستطيع ان يزج بنفسه دون حذر في معركة مع ثقته

التامة بأنه لن تصيبه رصاصة • يأكل الكثير ويتباهى بذلك لأنه كان واثقا
ان كل ما يأكله سوف يتحول الى روح • وقد اعتاد ان يقول : « اما الآخرون
•• اما الآخرون ••• » •

وذات يوم بينما كنا نتمشى في الحي القديم من اثينا قال : « احس
الله كثيرا في داخلي بحيث انك لو لمست يدي في هذه اللحظة لانبعث منها
الشرر » •

لم أقل شيئا • وحين لاحظ صمتي سألتني : « ماذا ؟ الا تصدقني ؟
حاول • المسها » • ومد لي يده • ولم اشأ ان امينه • قلت له : « طيب انا
اصدقك • فلم علي ان اجرب ؟ » •

كنت واثقا ، بالطبع ، ان الشرر ينبعث منها • ولكن هل كنت واثقا
حقا ؟ من يدري ؟••• احس الان بالاسف لانني لم اجرب •

انجيلوس منافق ؟ ربما كان كذلك لو انه اتخذ مظهر البساطة
والكياسة • لكنه كان اصدق انسان في العالم • ولقد تأكدت من ذلك ذات يوم
حين رأيت حادثا تجاوز حدود الفكاهة ودخل حدود الصماقة الخطرة المحرقة •

كنا نقيم في منزل ريفي تحيط به اشجار الصنوبر على الشاطئ • وكنا
نتمشى لمسافات طويلة معا ، نقرأ دانتي والعهد القديم وهوميروس وهو
يتلو اتنعاره علي بصوته الراعد • تلك كانت الايام الاولى لتألفنا ، ايام
الخطبة • كنت مفتبطا جدا لانني وجدت شخصا عاجزا عن التنفس في أي
مكان الا على أعلى مستويات الرغبة • ورحنا نذمر العالم ونعيد بناءه •
وكان كل منا يعرف ان الروح خارقة القوة ، مع فارق بسيط انه كان يؤمن بأن
هذا خاص بروحه بينما كنت ارى ان هذا لأرواح الجنس البشري كله •

وبعد عصر احد الايام بينما كنا نتهيا للقيام بمشوارنا المسائي وكنا
ما نزال نقف على العتبة ونحن ننظر الى البحر ، ومن سيصل عدوا الا وموزع
بريد القرية ، اخرج من حقيبته رسالة واعطاها لصديقي ثم انحنى على
اذنه وقال بصوت حزين وخائف : « لديك ايضا رزمة كبيرة » • لكن صديقي
لم يسمع • راح يقرأ الرسالة ووجهه يصبح قرمزيا ثم ناولني اياها :
« اقرأ ••• » •

اخذت الرسالة وقرأت : « العزيز بوداكي •• جارنا الخياط قد مات •
يا للمسكين • انني ارسله اليك • ارجوك ان تحييه » وكانت الرسالة تحمل
توقيع زوجته •

نظر الي نظرة قلقة وقال : « اتظن انني ... هل الامر صعب ؟ »
 هزرت كتفي وقلت : « لا ادري ، الحوادث كلها ... نعم ، صعب جدا »
 لكن ساعي البريد كان على عجلة ، فسأل وهو ينهض على قدميه : « ماذا
 افعل بالرزمة ؟ »

- « حوكها » اجاب صديقي بجفاف واسع بيتطلع الي من جديد وكأنه
 يتوقع مني التشجيع ، لكنني احسست بارتباك شديد ولم اقل شيئا .
 وقفنا صامتين ورحنا ننتظر ، كانت الشمس على وشك المغيب والبحر
 قد اصبح ورديا غامقا وصديقي ينتظر وهو يعرض شفتيه ، وسرعان ما ظهر
 قرويان يحملان نعشا متواضعا يحتوي على الخياط في داخله .

وامر صديقي : « اجلبوه الي الطابق العلوي » وقد اسود وجهه الزاهي .
 ثم التفت مرة اخرى ونظر الي قائلا : « ماذا تظن ؟ » وهو يحدد مباشرة في
 بؤبؤ عيني . « اتعتقد انني استطيع ان افعل ذلك ؟ » فاجبته : « حاول
 ، سأتشمس »

تمشيت على الشاطيء ، ورحت استنشق عير الصنوبر والبحر وقلت
 لنفسي الان سنرى ما اذا كان منافقا أم انه روح مغامرة ومجازفة مستعدة
 لان ترغب في المستحيل وان تحاول تحقيقه ، ما الذي سيفعله ؟ هل سيحاول
 ان يبعث الجثة حية ؟ أم انه سيخاف من ان يبدو مضحكا ولذا سيتسلل
 كالثعلب الماكر ويزحف بهدوء الى سريره ؟ سنرى الليلة ... رحمت امشي
 بأسرع ما استطيع وقلبي هائج ، وانا ارتعش لفكرة ان روح صديقي يجب
 ان تخضع للاختبار بهذه الطريقة امامي .

كانت الشمس قد غطست لتوها وراء الافق وجاء النعيب الاول والحزين
 والناعم لليوم من غابة الصنوبر ، وبدأت قمم الجبال البعيدة تذوب في
 الظلام .

اطلت مشواري متعمدا لانزعاجي من فكرة العودة الى البيت ، فوجدت
 المهنة كان يزعجني كتحصيل حاصل ، ولم يسبق لي ان استطعت مواجهة
 جهة دون ان اهتز خوفا وقرقا ، وكنت ، من جهة اخرى ، راغبا في تأجيل
 ضرورة رؤية الكيفية التي سيتصرف بها صديقي في هذه اللحظة الحاسمة
 قدر ما استطيع .

وحين وصلت الى البيت ، كانت غرفة صديقي ، التي تقع فوق غرفتي ،
 تشع بالاضواء ، ولانني لم احس برغبة في العشاء توجهت الى سريري .
 ولكن كيف سانام طوال الليل وانا اسمع من فوقي خوارا اخرس وقرقرة

السرير تتبعها مباشرة خطوات ثقيلة تروح وتجيء في الغرفة لمدة طويلة ثم الانين والقرقرة من جديد . واستمرت الحال طوال الليل . بين حين وآخر كنت اسمع صديقي يتنهد بعمق ويفتح النافذة وكأنه يطلب الهواء لئلا يختنق . وعند الفجر نمت اعياء . وحين استيقظت ونزلت الى الطابق السفلي كان الوقت متأخرا . صديقي يجلس على المائدة والطيب امامه لم يمس . حين رأته خفت . كان شاحبا كالموتى وشفتاه كرماد الموتى وهالتان زرقاوان كبيرتان حول عينيه . لم أكلمه . جلست الى جانبه وانتظرت والقلق يأكلني .

قال اخيرا وكأنه يرغب في تبرير نفسه : « لقد فعلت ما استطعت . اذكر كيف احيا النبي اليساع (1) الميت ؟ استلقى بكل جسده فوق الميت ووضع فمه على فم الميت ونفخ فيه زفيرا . لقد فعلت مثله » . وصمت للحظة ثم قال : « طوال الليل . الليل بطوله . ولا فائدة » .

حدقت الى صديقي باعجاب ودهشة . لقد دخل بالفعل في حدود المضحك لكنه عبره ليصل الى الحدود المأساوية للحماقة ما هو يعود الان ويجلس قربي منهكا . والتفت الي يسألني : « وما العمل الان ؟ » اجبته : « ادع القس لدفنه . اما نحن هسنتمشى على الشاطئ » .

ناولته ذراعي الذي يرتعش . حلعنا اذيتنا وجواربنا ورحنا نخوض على الشاطئ لننعش انفسنا . ورغم انه لم يتكلم الا انني احسنت به يهدأ ببرودة الماء والامواج الخفيفة . وهمس اخيرا : « انني خجل . اعني هذا . ان الروح عاجزة ؟ » اجبته : « ليست بعد . ولكنها ستصير هكذا . لقد قمت بعمل مدهش في شجاعته ل مجرد ان ترغب في تجاوز الحدود البشرية غير انه عمل مدهش في شجاعته ايضا ان تعترف بهذه الحدود دون خوف ودون يأس . سنضرب الجدران برؤوسنا ثم نعود الى ضربها . ستتحطم رؤوس عديدة ولكن ذات يوم ستنهار الجدران » .

فاعلان لي بعناد وهو يلقي بحجر كبير الى البحر « الرأس الذي سيحطمها يجب ان يكون رأسي - هذا ما اريده . رأسي » . وعلا صراخه « رأسي وليس رأس أي شخص آخر » .

ابتسمت . هذه الـ « بيا » و « البيا » والانا والانا كانت سجن صديقي، زنزانة دون ابواب او نوافذ .

(1) نبي عبراني من اتباع اليجا . واليجا نبي كبير يعود الى القرن التاسع قبل الميلاد .

سألته محاولا ان اريحه : « اتعرف أعلى ذروة يستطيع ان يصل اليها الانسان ؟ انها قهر النفس . الانا . حين نصل الى هذه الذروة ، وعندها فقط سوف ننجو يا انجيلوس » .
لم يقل شيئا . لكنه راح يضرب الامواج بكعبه مهووسا . وصار الجو بيننا ثقيلًا .
قال : فلنعد الى البيت . لقد تعبت .

الحقيقة انه كان غاضبا ولم يكن متعبا . ولم نتبادل كلمة واحدة طوال طريق العودة . سرنا مسرعين . كان النسيم يهب والبحر يتنهد وكان الهواء رطبا ومالحا . وحين وصلنا الى البيت اشرت الى مكتبة صديقي الضخمة باذلا جهدي للتخلص من الحادث السيء . قلت له : « اسمع . سأغمض عيني وأخذ كتابا . والكتاب سيقرر » .
سألني صديقي مفتاظا : « ماذا سيقرر ؟ » .
- ما سنفعله غدا .

اغمضت عيني وتلمست بيدي حتى امسكت كتابا . اختطفه صديقي من اصابعي وفتحه . كان اليوم صور : اديرة وكهنة وابراج واشجار سرو وكهوف فوق صخور هاوية منحدره على البحر ، والبحر يضطرم تحتها .

هتفت : « جبل اثوس » ، واضاء وجه صديقي وصرخ : « هذا ما اردته بالضبط . انني اتمناه منذ سنين وسنين . فلنذهب » . ومد ذراعيه وضمني الى صدره بعنف . ثم سألني : « أنت مستعد ؟ هل نلبس احدثنا ذات السبعة فراسخ - نحن اغوال اليس كذلك ؟ اليبس حذاءك ذا السبعة فراسخ لكي تطأ الجبل المقدس » .

المطر يهطل . وقمة اثوس تختفي وراء ضباب كثيف شامل . والبحر هادى وموحد وهلامي . ودير يتلامع ابيض ناصعا وسط اشجار الكستناء المسودة بالمطر . لقد نزلت السماء الى ذرى الاشجار وكان المطر منهرا وصامتا ذلك النوع الذي تنتشره الارض وخمسة رهبان او ستة مبللون يقفون على الرصيف كاشجار السرو .

كان الى جوارنا راهبان يتحدثان وهما جالسان في قارب تجذيف ينقلنا الى داخل المرفأ الصغير في الجبل المقدس . كان اصغرهما ذو اللحية السوداء قليلة الشعر يتأبط كيسا ثقيلًا ويقول : « مجرد سماعة وهو يغني ينسيك العالم . صوته احلى من أب او أم » .

اجاب الاخر : ما الذي تحاول ان تقوله لي ؟ لدينا في ديرنا شحورور يغني : « أبانا انني اناديك ! » و « المسيح قام » انه يدير رؤوسنا ونحن نسقيه

الاب الشحرور • انه يذهب معنا الى الكنيسة ويصوم طوال الصوم الكبير »
فقال الراهب الشاب بعد فترة تأمل : « لا يمكن اذن ان يكون شحرورا
يا اب لافرينديوس • ابدا • لا يمكن ان يكون شحرورا » •

ترجلنا على الارض المقدسة • وألقى الراهبان ، وهما يقفان على رصيف
الميناء ، بنظرات خبيرة على كل شخص ينزل من القارب كأنما يبحثان عن
امرأة متنكرة بثياب رجال ومتخفية بين المسافرين • خلال الالف سنة ، منذ
ان نذر الجبل المقدس للعدراء ، لم تدس امرأة تلك المنطقة ولم يدنس
الهواء بنفس انثوي ولا حتى اناث الحيوانات - نعاج او ماعز او دجاجات
او هررة • الهواء مشبع فقط بأنفاس الذكور •

انطلق مرافقنا المسافرين وراعنا محملين كبغليين وراحا يوسعان خطاهما
لكي يلحقا بنا • وسألنا الراهب الشاب مبتسما : « حجاج ؟ فلتكن بركتها
في عونكم » •

القديسون دائما شغوفون بالكلام • وهذان الاثنان اللذان يتصاعد منهما
البخار يتحدثان عن المعجزات والآثار المقدسة والزهاد الذين رفعوا اذرعهم
مصلين على قمم الجروف الهائلة • قال الفتى : « وطالما انهم يرفعون اذرعهم
لا داعي للخوف من انهيار العالم • انهم يسندون العالم ويمنعونه من
الانهيار » •

وسألته : « أصبح انه لم يسبق ان داست امرأة هذا الجبل المقدس ؟ »
« ابدا • ابدا » • اجاب الاكبر وهو يبصق في الهواء ويغمغم :
« ابق ورائي يا شيطان ! احيانا تبلغ الوقاحة ببعض النساء ان يأتين الى
الشاطيء متنكرات بثياب الرجال • ولكن الرهبان المراقبين يكتشفونهن
فورا ويعيدونهن » •

« وكيف يعرفون ؟ » • سال صديقي وهو يضحك •
« من الرائحة » • اجاب الراهب الشاب • « هو ذا • اسأله • لقد كان
ذات مرة خفيرا على الرصيف » •
« والتفت صديقي الى الراهب الكبير : « هل للنساء رائحة مختلفة يا
ابانا المقدس ؟ كيف هي رائحتهن ؟ » •
« مثل الظربان (1) المنتن » اجاب العجوز وهو يوسع خطاه •
بدأ المطر يخف • لا بد ان ريحا قد هبت في طبقات الجو العليا • وتفرقت
الغيوم وظهر شيء من ضوء الشمس • بغتة ابتسمت الارض وهي ما تزال

(1) حيوان ثديي صغير منتن الرائحة •

تستحم بالدموع وبرز قوس قزح شاحب في الجو الى جانب الشمس مجددا
الصداقة بين السماء والارض المبللة . « زار العذراء ! » هتف الراهبان وهما
يرسمان الصليب .

وتابعنا تسلقنا على ذلك الطريق المرصوف بالحصى والمؤدي الى
كاريسي ، ونحن نتعزز على عصينا القوية المقطوعة من السنديان وحقائبنا
على ظهورنا . مررنا بغابة كثيفة من اشجار الكستناء خفيفة الخضرة .
وأشجار الفستق والغار ذي الورق العريض . كان الهواء مشبعاً برائحة
البخور ، او هذا ما خيل لنا . وأحسنا وكأننا ندخل كنيسة هائلة مركبة من
البحر والجبال وغابات الكستناء وسقفها السماء الصافية بديلاً عن القبة .
التفت الى صديقي راغباً في تبديد الصمت الذي بدأ يثقل علي . واقترحت
عليه : « لم لا نتحدث قليلاً ؟ » .

« اننا نفعل » أجاب صديقي وهو يلمس كتفي لمسة خفيفة . « اننا
نتحدث ولكن بالصمت ! بلسان الملائكة » . ثم ، بغتة ، بدا عليه انه بدأ
يغضب « وماذا تنتظر منا ان نقول ؟ ان هذا جميل وان قلوبنا قد نبتت لها
أجنحة وانها تريد ان تطير ؟ واننا قد بدأنا نسير على طريق يوصل الى
الفردوس ؟ كلمات . كلمات . كلمات . ابق صامتاً » .

اندفع شحروران من شجرة جوز فاهتزت الاغصان المبللة ورشقت
وجوهنا قطرات من المطر .
قال الراهب العجوز : « لملكة العصفير رهبانها ايضاً - الشحارير ، ان
الجبيل المقدس مليء بها » .
وسأله الراهب الشاب : « وماذا عن النجوم يا اب لافرنديوس . هل لها
رهبانها ايضاً ؟ » .
- « سبق لها ان كانت رهبانا . كلها يا اخي . هنا على الارض شهدوا
على ايمان المسيح ثم استشهدوا وسموا الى حضن ابراهيم . فالجنة ، ان
كنت لا تعرف ، هي حضن ابراهيم » .

كنت اصغي اليهما معجبا بروح الانسان ، تلك القوة التي في عز قوتها
كانت قادرة على تحويل الاشياء كلها واخضاعها لاحلامها . الروح المؤمنة
جعلت كلا من الارض والسماء تدور حول نجم قطب واحد هو المسيح ،
الشخصية الثابتة ، واجبرت كلا منهما على الدخول في خدمته . المسيح ،
بالنسبة لهذ هالارواح ، هو الجواب الاكبر لكل تساؤل . الاشياء كلها يتم
شرحها واضاعتها وتنظيمها وبذلك تستريح الروح . ولا يطرح الاسئلة الا
اولئك الذين لا ايمان لديهم . وهم وحدهم يجاهدون ويضلون ويقعون فريسة
اليأس .

ولكن بعد أيام قليلة وصلنا الى الجبل المقدس . وقال زاهد نصف معتوه شيئاً بلبلني . كان يعيش في حالة من السعار المنتشي وهو منزو في كهف مطل على البحر . قلت له ، لاغيظه ، « ايها المسكين . ايها المسكين ، لقد فقدت عقلك » .

فضحك وقال : « لقد تنازلت عن عقلي واخذت الله عوضاً عنه . وبمعنى آخر لقد تنازلت عن فارذنج (1) مزيف واشتريت الفردوس . فما رأيك يا بني ؟ أليست صفقة رائعة ؟ » وبعد قليل من الصمت تابع : « ودعني أقبل لك شيئاً آخر لمعلوماتك . مرة كان هناك ملك عظيم لديه ثلاثمائة وخمس وستون زوجة في جناح حريمه . كان جميلاً يحب ان يأكل ويستمتع بوقته . وذات يوم ذهب الى دير رأى فيه زاهداً . نظر الى الزاهد مشفقاً وقال : « اية تضحية عظيمة تقوم بها ! » فأجاب الزاهد : « تضحيتك اعظم » . « وكيف ذلك ؟ » « لانني قد تخليت عن العالم الفاني وانت تخليت عن العالم الخالد » .

وبدا جرس قريب يقرع لصلاة المساء من مكان ما وراء أشجار الجوز . وظهرت قرية الراهبين حين درنا منعطفاً في الطريق فأسرعنا الخطا .

البقالون وباعة الخضار والطباخون والباعة الجوالون ومنظفو الشوارع - كلهم رهبان . كانت قرية محزنة لا تحتمل، كلها من الذكور دونما امرأة واحدة ودون طفل ودون ضحكة . لا شيء الا الطيور : سوداء وصفراء ورمادية وشهباء وبيضاء ناصعة ، بعضها منقط وبعضها مشعث كالمكانس التي هي على هيئة الجرس وبعضها مجعد وكثيف ومغلق كزهور القرنبيط .

ذهبنا الى البروتاتون ، محل الاقامة الذي تنزل فيه وفود العشرين ديرا . وهم متربعون على مقاعدهم بعيون كتومة سريعة الحركة مليئة بالشك . عرفنا عن أنفسنا - مسيحيان يخافان الله يملأهما الحماس لله وقادمان لتقديم فروض الطاعة . قلنا اننا ما نزال في سن الشباب ، وقبل ان نبدأ في تذوق مشكلات العالم ، وقبل الزواج ، جئنا الى هنا الى حديقة العذراء لعل بركتها تنورنا وترينا الطريق الصحيح . لقد جئنا الى رحمتها كمنذورين .

وبدا صديقي يصبح أكثر حماسا وهو يتحدث بصوته الداوي والقائه الشعري . استمع الينا الرهبان بأفواه فاغرة وبعضهم يشد لحيته . وكلما أفاض صديقي في الحديث استطعت ، انا نفسي ، ان اسبر معانيه وان افهم

(1) عملة فضيلة القيمة .

السبب الحقيقي الذي جعلنا نأتي الى الجبل المقدس . ولا شك ان صديقي نفسه لم يكن يعرف السبب الا انه اكتشفه في سياق الحديث .

تهامس الرهبان وكل منهم ينحني على الاخر ثم نهضوا كرجل واحد ومنجونا اذنا مكتوبا بالتجوال في الدير وفي الصوامع كلها لنؤدي فروضنا في كل منها وللبقاء الى ان تمنحنا العذراء من رحمتها اشارة الى ان نذرنا قد انتهى .

بدأت رحلتنا . وتجولنا ، مليئين بالنشوة ، من دير الى دير ومن معجزة الى معجزة ونحن نتحدث بأصوات خرساء كالحجاج القدماء ، عن الله ، ومصير الانسان ، وواجبنا الخاص بنا - الموضوعات الدائمة لرحلتنا كلها . كنت احمل دفتر مذكرات اسجل فيه حصيلة اليوم كل مساء . والان ، بعد اربعين عاما ، أراها مصفرة لطول العهد بها ولكنني حين اقلب صفحاتها اعيد احياء تلك الايام الالهية التي لا تصدق . اية كلمة ، حتى غير الهامة ، تعيد الفرح والاشواق الى الحياة في داخلي وكذلك تعيد هواجس الشباب ، والمشاريع الالهية التي وضعتها وصديقي لتخليص ارواحنا - عجرفة الشباب ونبله وسذاجته كلها .

دير ايفيرون / ١٩ نوفمبر / مشوار صباحي على الشاطئ . نبع صغير من الماء المقدس وكنيسة صغيرة الى جانبه وايقونة العذراء داخلها والدم يكاد ان ينفر من خديها . راهبان صيادا سمك يسحبان الشباك . والسمك يتراقص فيها .

عودة الى الدير . البور تاييتيسا - سيدة البوابة - اية معجزة ا عينان حزينتان واسعتان ، فم صغير متموج ، ذقن ثابتة - فرح وحزن . غبطة البشر والامهم كلها .

وفي الليل . اية لحظة قدسية حين رأينا البحر ابيض بهيا يتهدد والقمر فوقه هائل في كبره . قال صديقي ان القمر الليلة يملا فعلا مركزه . كان يضيء الابدية .

تحدثنا بأصوات منخفضة ونحن متقاربان . قلنا ان علينا ان نتخذ قرارا جذريا . علينا ان نتعرف على الابدية في كل لحظة .

اينما ذهبنا كان يتبعنا راهب شاحب وصامت . مخلوق مريض كان يسعل ويبصق ويحك نفسه دون توقف . لكن وجهه كان يشع بالسعادة . قال صديقي : « لا بد انه مجذوب » .

وقلت : « لا بد انه قديس . الا ترى وجهه كيف يضيء ؟ تماما كما لو ان شمسا مسلطة عليه » .

وذات مرة توقفنا فانضم الينا . قال : « انا الاب لافرينديوس المعتوه ،
ربما كنتم قد سمعتم عني » .

اجاب صديقي : « أنت محظوظ . لانك قد دخلت الجنة وانت ما تزال
حيا . وجه منور . »

« الحمد لله » قال الراهب وهو يرسم اشارة الصليب . « ما يسميه
الاخرون جنونا انا اسميه فردوسا . لكنني عانيت طويلا حتى فتحت
الباب .

- أي باب ؟

- الباب الى الجنة يا اخي . حين دخلت الى الدير ، في البدء ، كنت
ارتعش وابكي خوفا . كنت انتحب لفكرة الجنة وانتحب لفكرة الجحيم .
ولكنني ذات صباح نهضت وقلت لنفسي ، لم البكاء ؟ الله هو ابونا اليس
كذلك ؟ ونحن ابناؤه . اليس كذلك ، حسن اذن لم الخوف ؟ ومنذ ذلك
اليوم سميت بالمعتوه . »

وتناول كسرة خبز يابسة من تحت قميصه وناولني اياها . قال :
« خبز الملائكة . كلاً كلاً . ايها الشيطانان المسكينان لكي تنمو لكما ايضا
اجنحة ... »

دير سترافرونيكيئا - (٢ نوفمبر . مكان شاهق فوق البحر . بواب
عجوز من حطام كريت القديم . امسكني من يدي .

- ايه . من انت ؟

. كريتي .

- ادخل .

في احدى الحجرات كان بعض المبتدئين يتعلمون الموسيقى البيزنطية
وهم يلتقطون النغمات الاولى باصوات مرتفعة . كانوا يمسكون بالترات
كقنديل مشتعل بأيديهم القذرة والطفولية .

البحر ظاهر من برج الدير . كم يبدو كقوس هائل الكبر . قوس هائل
مشدود .

بعد ذلك في الدير نفسه رأس المسيح ابن الاثنى عشر عاما مليء
بالفهم والجدية الالهية . مندفع ، جبهة عالية ، صدر ابيض ريان ، عينان
عميقتان وغارقتان في التفكير . ابن بورتا تيسيا فعلا ايقونة اخرى .
صورة كبيرة للقديس نيكولا من اويسترز . لديه محارة ضخمة على جبينه
وماء البحر ينقط من كفيه .

تحدثت مع البواب الكريتي :

- ما الذي جعلك تصبح راهبا

• ذات يوم قرأت لي عمتي في الانجيل وقالت لي ان العالم لا قيمة له •
يجب ان لا انسى الاب فيليمون الذي كان يخدمنا على المائدة • جسد
ممشوق كسيف من الفولاذ الدمشقي (١) ، مثل ملاك بين اللهب • كان
يتطلع الى تلقي الاوامر • تملأه الغبطة حين يخدم ويلبي • كانت فرحته
كبيرة الى درجة لم يستطع معها ان يمنع نفسه من الضحك • كان يضحك
باستمرار •

سألته : متى يأتي دوري في رؤية الله ؟

فاجاب : الامر سهل • سهل جدا • افتح عينيك فقط وستراه •
دير بانثو كراتوروس : سمعت ، قبل الفجر ، نغمة ساحرة من باحة الدير •
اعلى الاصوات • هرعت الى نافذتي فرأيت راهبا في غسق الفجر • كان
يعتمر قبعة الرهبان والكاميافكو (٢) الاسود معتدل على ظهره • كان يحمل
وضما مستطيلا من الخشب ، سيمانتزون يمكن حمله ، يوقع عليه بمطرقته •
كان يتقدم ببطء في الباحة وهو يتنقل من حجرة الى اخرى مناديا الاخوة
لصلاة الصبح • كان صديقي ، الذي استيقظ بدوره ، ينحني من النافذة
الى جانبي • وكنا ، معا ، نصغي برضى واستفراق • وبعد ان انتهى
السيما نثرون لبسنا وذهبنا الى الكنيسة • ظلام مطبق ، باستثناء مشعلين
يشتعان على الحامل (٣) امام ايقونتي المسيح والام العذراء • كان الهواء
مشبعاً برائحة الشمع والبخور الزهري •

بدأت ترنيمه الصلاة الصباحية بنعومة ولطف كحفيف الاشجار وتنهيدات
البحر • وجاء رئيس الدير يحمل شمعة بيده واقترب من كل مقعد لكي يرى
ان كان الاخوة كلهم قد نزلوا ثم غطس المنضحة في الماء المقدس المتجمد
وراح يرش جباه الرهبان بنشاط واضح • وحين تمشيننا في الدير فيما بعد ،
رحنا نعلق على الحياة هنا ، اي ايقاع قدسي ، واية صدفة مكتملة الزينة
وساحرتها : نتاج اجيال مجهولة - ولكن الان ، في داخلها ، المحارة التي
خلقت الصدفة وزينتها قد ماتت • وقلنا : « يجب ان نعيد النظر في التنسك
المسيحي » •

واقسمنا على ان نفعل ذلك : « وهذا ما جئنا من اجله الى الجبل
المقدس » •

دير فاتو بيدي : اقتربنا من فاتو بيدي الشهير ذات صباح

(١) فولاذ مزدان بخطوط متوجة •

(٢) وشاح اسود يضعه الرهبان الارثوذكس فوق القبعة ويتدلى حتى الخصر •
ياخذ احيانا شكل الهرم على الرأس • يشبه الخمار من حيث الغاية • انه يتخذ
الراهب من رؤية « العالم » •

(٣) حاجز مزدان بالايقونات يفصل المذبح عن الجزء الاساسي من الكنيسة •

منعش مترع بمحبة الله اللطيفة ا صباح قادم لتوه من السماء ، وكان هذا هو اليوم الخامس للخلق والله لم ينه بعد صنع الانسان ليفسد عليه عمله . تفتح الشرق على مراحل كما تفتح الزهرة ، وظهرت الغيوم الصغيرة ذات الخدود المحمرة ، كالملائكة الاطفال ، من وراء الافق ، وراحت تكبر تدريجيا فبدت وكأنها تنزل الى الارض . حط شحرور في وسط الطريق وتطلع الينا والندى ما يزال عالقا على جناحيه . ولكن ، كما لو انه لم يكن شحرورا ، كما لو انه روح لطيفة تعرفت علينا ، لم يخف ولم يتنح من طريقنا . وكانت هناك بومة صغيرة جائمة على صخرة وقد دوخها الضوء . ظلت في مكانها بهدوء وصمت تنتظر ان يعود الظلام .

لم نتكلم . كان كل منا يحس ان الصوت البشري ، مهما بلغت حلاوته وبلغ خفوته ، سوف يثير الصخب ويكون نشازا هنا . وسوف يتمزق الستار السحري الذي يشملنا . كانت ايدينا ووجهانا تبرق بندى الصباح ونحن نزيح اغصان الصنوبر الواطئة . ورحنا نتابع سيرنا .

سعادتي تخنقني . التفتت الى صديقي وكنت على وشك ان افتح فمي لاهتف ، اية غبطة هذه الكني لم اجرؤ . لقد عرفت ان السحر سوف يتبدد حالما اتكلم . ا تذكر أنني رأيت ثعلبا في عصر احد الايام في تايجيتوس فوق اسبارطة . كان يتقدم بحذر شديد عنقه ممدود وذنبه الاشعث منتصب بقوة ملقيا ظلا ارجوانيا طويلا على الحجارة . حبست انفاسي لئلا يشم الحيوان رائحتي ويهرب لكن هدوئي لم يكن كافيا لمنعني من التهليل . ورغمما عني هربت مني صرخة صغيرة جدا . سمعها الثعلب وقبل أن اجد الفرصة لمعرفة الاتجاه الذي سلكه كان قد اختفى احسست ان السعادة في حياة الانسان هي نفسها دائما .

وبغته سمعنا كلاما وضحكا . لقد وصلنا اخيرا الى الدير . كان هناك راهبان حسنا التغذية يجلسان على مقعد حجري أمام الباب الخارجي وهما ينكتان مع البواب .

توقفنا بغته وكأننا رأينا افعى . نظر صديقي الي وقال : « لقد كان حلما . » وهز رأسه وتابع : « لوهله خيل الينا ان البشر غير موجودين » واجبته : « يا للخبيل ! لقد كان هذا هو الفردوس الحقيقي وهو اسمى بكثير من الفردوس الاخر . وبدلا من رجل وزوجته يتمشيان تحت اشجار الله كان هناك صديقان . والان . انظر . لقد طردنا . لم يطردنا ملاك يأتي مهرولا بسيفه بل طردنا انسان مسلح بصوت . »

كان الراهبان يصرخان بصوت مرتفع وينفجران في ضحك متدفق وهما يغيظان البواب . لكنهما صمتا حين رأيتنا . ونهضا وهما يربتان على

بطنيهما ومدا لنا يديهما لنقبلهما .

قالا : « أهلا . الله معكم » .

وأجاب صديقي وهو ينظر الى خدودهما المحمرة وكرشيهما : « يبدو ان اموركما تسير على افضل وجه يا ابوانا المقدسين » . كان ما يزال عاجزا عن مسامحتهما على طردنا من الفردوس .

قال الاول ذو اللحية الشقراء : « لقد هجرنا العالم الزائف ومتعه » . ظللنا صامتين . غير ان الاخر ، الراهب ذا اللحية السوداء قال : « لم تنظران الينا بهذه الدهشة ؟ الصلاة مغذية اكثر من اللحم » .

كانا قد اقتربا منا . وكانت رائحة الثوم تفوح منهما بشكل لا يمكن احتماله . فقلنا : « لندخل ونقدم احترامنا » ونحن تواقان الى الهرب من هذين الراهبين الثوميين .

وجاء المضيف . وهو راهب نظيف ازرق العينين ذو لحية بيضاء حريرية وبشرة متوردة يعيش برحاء واضح . وبعد ان رحب بنا سارا امامنا وتبعناه . كان ديرا مترفا . مدينة باكملها . غرف للزوار وابواب ونوافذ مدهونة حديثا وازواء كهربائية وحدائق مطنة على البحر . كان الرهبان قد غادروا غرفة الطعام لتوهم وجلسوا خارج حجراتهم ليهضموا طعامهم في الشمس . دخلنا الكنيسة وقدمنا احترامنا امام ايقونات العذراء الشهيرة : الباراميثيا ، الكنيغوريسا ، البيجاتاريسا ، الانتيغونتيريا ، والاسفاغمينه ، والاليابروتيدا . فتح امامنا مذخر ثمين وقبلنا حزام العذراء المقدس . وتذكرت الراهبين الذين جلباه الى كريت حين كنت طفلا . تسابق الناس يومها الى ايقونة القديس ميناس ليقدموا احترامهم وهم يملأون حقيبة الرهبان الصغيرة بالمتيزيت الفضية والسيرات الذهبية والحلق واطواق الزفاف . لم يكن لدي ما اقدمه من اجل بركتها فبحثت في جيبتي ووجدت قلم رصاص فالقيته في الحقيبة .

خرجنا الى الباحة وصعدنا الى غرفة الضيوف . اعدت لنا وجبة فاخرة مليئة بنعم الله كلها . وقال صديقي الذي يحب الطعام الجيد : « أمورنا هنا لا تسير بشكل سيء . ليست سيئة ابدا - حتى لتظن اننا رهبان فأتوبيدي » .

واقترحت عليه : « لنشرب نخب برمودوس الفقير المسكين . برمودوس المسكين الجائع . اه كم كان يمتلىء بالفيرة وهو يفكر في رؤساء الديرية وهم يتناولون وجباتهم في الديرية . وكم كان ريقه يشط ا وكم كان يشتكي لامبراطوره . ا تذكر الابيات ؟ » .

- طبعا اذكّر :

حين افكر في رؤساء الاديرة يا صاحب الجلالة
اخرج من نفسي واخرج من عقلي
يحشون انفسهم بسمك النخب الممتاز
بينما يعطونني التن (1) المنتن
يغرّون خمور كيوس الى ان ينتفخوا
بينما يتيبس بطني المسكين من الخل

وضحك صديقي ولكن ظلا مفاجئا ارتمى على وجهه . قال : « عيب
علينا ان نضحك . هذا الدير يسحق قلبي . هل رأيت الرهبان ؟ كل منهم
حسن التغذية . لو عاد المسيح الى الارض وصدف له ان توقف بفاتويدي ،
اه كم كان سيجعل السوط يغني فوق رؤوسهم . هيا بنا . دعنا نذهب .

- نذهب الى أين ؟ ان قلوبنا لا يسحقها هذا الدير فقط بل العالم
كله - الا تشعر بذلك ؟ في كل مكان يجوع بعضهم بينما يتخم الآخرون
ويلعقون شرحتهم . الذئب والغنم في كل مكان . قانون واحد في العالم ما يزال
مصانا : كل وإلا أكلت - قانون الغاب . »

ولكن هل يعني هذا ان الخلاص غير موجود ؟ اليس هناك اي حيوان
طيب بما فيه الكفاية وقوي بما فيه الكفاية بحيث انه لا يأكل الآخرين ولا
يسمح ان يأكله الآخرون .

- ولا أحد . ولكن قد يأتي يوم . لقد انطلق حيوان ما منذ الاف السنين
لتحقيق هذا الهدف لكنه لم يصل اليه بعد .
• أي حيوان ؟

- القرد . نحن ما نزال في منتصف الطريق - البيتيكا نتروبوس (2) .
فاصبر .

• الله يستطيع ان يصبر . هو خالد . ما الذي يخسره بالزمن ؟ ولكن
الانسان ؟

أجيبته : الانسان خالد ايضا . ورغم انه ليس ، كله ، خالدا . ولكن
الجذر الخالد منه يستطيع ان يصبر .

نهضنا عن المائدة ونزلنا الى الشاطيء . كانت الشمس على وشك

(1) نوع من السمك .

(2) انسان جاوة : انسان بدائي منقرض .

الغروب ولم تكن ورقة تهتز • كان هناك نورسان يفردان اجنحتهما ويضربان البحر بصدريهما الابيضين سعيدين •

قال صديقي وهو ينظر اليهما باعجاب : « لا بد انهما رجل وزوجته »
فقلت : « أو صديقان » والتقطت حصة عن الشاطئ ورميتها لتفريقيهما •



حين أستغرق في هذه المذكرات القديمة الان في شيخوختي وارى جملاتنا الدونكيشوتية في ذلك الحين - الرمح المطعوج ، والترس المنخور والخوذة التنكية والعقل المليء بالنبل والريح - أعجز عن أن أبتسم • ما أسعد الشاب الذي يؤمن أن واجبه هو إعادة صنع العالم وجعله أكثر انسجاما مع الفضيلة والعدالة وأكثر انسجاما مع قلبه • وما أبأس من يبدأ حياته دون جنون •

تجولنا في الجبل المقدس وكلما استنشقتنا هواءه ومناخه التهبت قلوبنا واشتعلت حماسا • يا الهي أية قرارات اتخذنا ! أية عهود قطعنا ! وبأية خفة كنا نقفز فوق الصخور ونحن نتقدم من دير الى دير ونحن نشعر ، ليس بخيالنا فقط ، بل بجسدنا بأكملها اننا مزودان بأجنحة ملائكية ! هذا هو ، بالضبط ، المناخ الذي يولد الجنون أحيانا ، وأحيانا أخرى الورع والبطولة • وفي السنوات التي أناخت علينا فيما بعد لم نعد ، أنا وصديقي ، نذكر تلك الساعات الكيشوتية المقدسة • كنا نحس بالخجل • ليس لان اللهب قد خبا - وأسفاه ، انه لم يخب - بل لان قوتنا قد أثبتت انها رخوة وانها أقل من رغباتنا • اننا ما زلنا - كما كنا دائما - نريد أن نخلق عالما جديدا وأفضل • ولكننا رأينا اننا لا نستطيع أن نفعل ذلك • لقد اعترفت بالامر ولكن صديقي أبقاها مخفيا طوال حياته • وهذا هو السبب الذي جعله يذوي سرا ويعاني أكثر مما أعاني •

مرة واحدة فقط ، ذات مساء بعد سنوات عديدة حين أشرق البدر الهائل من البحر حزينا ونحن نغادر الدير في سبيستاي التفت الى صديقي وقلت له : « للذكر يا أنجيلوس ؟ » الا انه شحب • فقد أدرك انني تذكرت القمر في أثوس • وضع يده على فمي وأمرني أن أصمت ثم أسرع خطاه •

الان ، مرة أخرى ، أتحني على دفترتي القديم وأقلب الصفحات •
دير كاراكالو :

غطت الغيوم سفوح أثوس وقمته تاركة منطقة واسعة من الثلج المشعشع في وسطه . بدأت تمطر - زخات شمسية . ركض دليلنا وأطلق طلقة من بندقيته ، وجاءت أصوات أجراس الدير احتفالية من وراء أجمة من أشجار التنوب . وظهر رئيس الدير ممسكا صليبا طويلا يرمز الى وظيفته ، وهو يقف على العتبة يرحب بنا ومعه حاشيته .

دخلنا غرفة الطعام . كانت طويلة وضيقة بأعمدة مدهونة بالازرق والاسود . جلس الرئيس على رأس المائدة صارما وصموتا وملتحيا . فوقه مسيح قاس مقطب الحاجبين مرسوم بالاخضر والاسود . وعن منبر عال وصغير يقرأ القارىء (١) ، وهو راهب شاحب صغير السن ، ملقيا فصولا من حياة القديسين بصوت رتيب منغم . انكب كل على صحفه دون كلام . وقليل ما لمس الرئيس طعامه او ذقنه ولكنه ، بغتة ، امسك بجرس صغير على يمينه وقرعه ثلاث مرات . وهب الرهبان جميعا واقفين وهم ما زالوا يمشغون طعامهم الذي لم ينته . وركض الراهب الذي يخدم على المائدة يقدم نفسه امام الرئيس ويتلقى بركته . ثم فعل القارىء مثله وطلب العفوان كانت قراءته سيئة . ودخل خبز القربان على صينية صغيرة . خبزة صغيرة اخذ كل راهب منها قطعة صغيرة راح يقضمها كانتيدور (٢) مقدس .

في تلك الليلة استلقينا ورحنا نتحدث . قال كل منا ان الوقت ملائم والعالم مهيا لطريقة جديدة في حب المسيح . في وقت مبكر من ذلك اليوم كنا قد قابلنا راهبا يقف خارج مقبرة الدير . وحين سألناه عن سبب وجود الرسوم على مداخل المقبرة وهي دائما تمثل المسيح مصلوبا وليس ، كما هو أكثر ملاءمة ، المسيح ناهضا من قبره . غضب الراهب واجاب : « مسيحا هو المسيح المصلوب . هل رأيت في الاناجيل مسيحا يضحك ؟ انه يتنهد دائما تحت السياط ويبكي - انه مصلوب ابدا » .

ونحن عاجزان عن النوم الان قلنا : « لقد جاء الوقت الذي يجب ان نجعل المسيح فيه يضحك . نعم . يجب . لا جلد بعد الان ولا بكاء ولا صلب . يجب ان يجمع المسيح في اعماقه الالهة اليونان الاقوياء والسعداء . يجب ان يتمثلهم جميعا . لقد ان الاوان الذي يصبح فيه المسيح اليهودي يونانيا » .

- « والذي سيحقق ذلك هو نحن » هتف صديقي وهو يرفع يده وكأنه

(١) الذي يقرأ من الكتاب المقدس في القداس .

(٢) الخبز الذي يوزع على المصلين عند الارثوذكس وهو بديل عن « نعمة

يقسم على ذلك •

وهتفت بدوري : « نعم • نحن ا » وأحسست في تلك اللحظة ان لا شيء
في العالم كله يستطيع ان يقاوم الروح البشرية •

صاح صديقي : « لن نفرق ابدا • سنلزم انفسنا معا مثل ثورين
يفلحان الارض » •

بعد سنوات فهمنا • لقد الزمنا انفسنا معا كالثيران ولكننا فحلنا
الهواء •

دير فيلوثيو

مشوار ساحر في الضباب • حور بهي طويل مغطى بالبلابل • راهب
ثائر اسمه ايونيوكوس - احمر الرأس ، بارز العظام مهذار الكلام • لا يتوقف
عن اخبارنا بقصة اخته كاليرهو التي تلبستها الشياطين • كان من الواضح
انه هو نفسه يحمل في اعماقيه شياطين • اثنان منهما • واحد اسمه هوجا
والثاني اسمه اسماعيل • تلك المخلوقات اللطيفة تعارض الله دائما وتعارض
ايونيوكوس • كانت تريد ان تأكل اللحم ايام الصيام وكانت تحت ايونيوكوس
على النزول على رؤوس اصابعه ليلا والذهاب الى المطبخ لالتهام اي طعام
متبق من العشاء • وازافة الى ذلك في كل صباح حين يسمع اسماعيل وهوجا
الدعوة للصلاة يصرخ كل منهما : « لست ذاهبا • لست ذاهبا » •

تقدمنا الى باحة الدير • كان العشب ناميا في كل مكان ، بين الفحم
الحجري وعلى الجدران المحيطة وكانست الحجرات سوداء من الرطوبة
والعفونة • وكان المصلى في الوسط • دخلناه لتقديم صلاتنا امام الايقونة
مدهشة الصنع ، للعدراء ذات القبلة الناعمة • كان خدحا مائلا بحنان لا
يوصف على خد المسيح الطفل وعيناها الحزینتان جدا تحديقان الى البعيد •

قال الراهب الذي يرافقنا : « انظرا بتمعن الى عيني العدراء • ما
الذي تريانه فيهما ؟ » •

اقتربنا وحدقنا • ثم اجبنا : « لا شيء » •

قال الراهب وهو يلقي علينا نظرة قاسية : « كل من لديه ايمان يرى
المسيح مصلوبا » • ثم فتح مدخرا فضيا يحتوي على عظم طويل • « اديا
صلاتكما • انها ذراع كريستوستوم (١) اليمنى • ارسما إشارة الصليب » •

(١) القديس جون (٣٤٥ - ٤٠٧) اب يوناني للكنيسة ولد في سورية .

دير اغيلاس لافراس

رحلنا في الصباح الباكر يدفعنا الشوق لرؤية دير لافرا العظيم والشهير الذي بناه الامبراطور الحزين نيسيفوروس فوكاس الذي كان يرغب في القاء تاجه عنه واللجوء هنا ليعيش حياة النساك . لكن توقه الاخر - للنساء - لم يسمح له بذلك . ولذا ظل يماطل ويماطل ويمنتظر . الى ان جاءه اعز اصدقائه يحمل سيفاً قطع رأسه به .

وصلنا . هناك صنوبرتان كبيرتان . الاولى زرعتها متلقي اعترافات نيسيفوروس فوكاس ، القديس اتاناسيوس ، وزرع الثانية تلميذه جوتيميوس . وكان آتوس المكلل بالثلوج معلقاً فوق الدير وكأنه ضابط الكل (١) .

ادخلنا الى الموهف (٢) وبفخر اظهرت لنا كنوز الدير - جمجمة باسيل الكبير وفك تيودور ستراتيلاتيس ، والذراع اليسرى لكريسوستوم وكومة من العظام الاخرى . وفتحت لنا حقيبة ضخمة مزينة من نواحيها كلها بالحجارة الثمينة والالء . وفي داخلها قطعة كبيرة من الصليب الحقيقي . وارتعش صوت الراهب بانفعال حقيقي لكن هذا ذكرني بما قاله ذات مرة مسيحي حقيقي مؤمن : « كل قطعة من الخشب حقيقية لانه من كل قطعة يمكن ان يصنع صليب . ثم لباس نيسيفوروس فوكاس وكله من الذهب ومزين بزهور ليلك من الحرير ، وتاجه الذهبي مرصع بجواهر حمراء وخضراء هائلة الحجم ، والانجيل المكتوب بيده وبعدئذ كمية كبيرة من الكتب البالية » .

تطلعت وصديقي باعجاب . . . لكن هذا كله لم ينجح في لمس قلوبنا ، وأكثر ما اتذكره من هذا كله ، واتذكره بامتنان كبير ، شذا شجرتي مشملة (٣) مزدهرتين في مدخل المكتبة . انتعش جسدي كله وهو يستنشق عطر المشملة الذي اعبدته ، ذلك العبير الحلو الحاد اكثر تخديراً واسكاراً من الخمر والنساء وكل روائع العالم .

في الصباح التالي انطلقنا الى قمة آتوس قبل الفجر . كان المنادي (للصلاة) لم يرتل بعد في الرواق ولم تستيقظ العصافير . السماء حلبيبة

-
- (١) المسيح الذي يبارك العالم ممسكا بيده اليسرى الكرة الارضية في الكنائس الشرقية . (مرت في مكان اخر باسم البانوكريتور) .
 - (٢) غرفة المقدسات وملابس الكهنة .
 - (٣) شجر من الفصيلة الوردية .

وصافية ونجمة الصبح تشع في الشرق كسارون (١) سداسي الاجنحة .

كان الاب لوكاس ، القصير محني الرجلين ، وهو مهر بسابق ، يقودنا في الطريق . وبين حين واخر كان يقف ليتحدث معنا عن البحار والعربيات والمشاجرات مع الاتراك . لقد ظل وجوده السابق في العالم كقصة خرافية في اعماقه . كان يبدو وكأن تلك الحياة السابقة قد حدثت على كوكب اهر اكثر خطرا واكثر بدائية ووحشية ، كوكب مليء بالصرخات واللعنات والنساء . كان يحكي ويعيد حكاياته الخرافية ويعيد احياءها ليحس بالسعادة . وعلى الرغم من انه كان يتنكر لكل جانب من جوانب حياته السابقة فانه حملها كلها معه ، مصرورة داخل قفطانه .

وتوقف تحت شجرة تنوب كبيرة تواقا للكلام : « سنتوقف لنرتاح قليلا يا شباب - موافقون ؟ فلنتبادل بعض الكلمات . انني على وشك الانفجار » واخرج كيس تبغ مخبأ تحت طوقه ودرج لفاقة ثم فتح الحديث .

« انا ، الشخص الذي تريانه مردتيا الطوق اعتادوا ان ينادوني ليونيداس - كابتن ليونيداس من كاليمنوس مصدر رعب الاتراك . كنت مهريا ومؤذيا بمقدار ما يستطيع المرء ان يكون ، فكيف جئت لارتدي الطوق ! هذا ، سأحكيه لكم في وقت اخر ويكفي ان اقول الان ان المهرب في اعماقي لم يتذمر ابدا . وكيف يستطيع ان يتذمر وانا احشوه بالطعام والشراب كما لو انه بيك . ولا اهمية لكونه مربوطا في داخلي ككلب في قارب . لوكاس يأكل الخبز والزيتون في غرفة طعام الدير مع الرهبان الاخرين لكنه حين يعود الى حجرته ويوصد الباب ، يعد المائدة لليونيداس ويأكل اللحم . وكما ترون نحن لسنا واحدا بل اثنين . مفهوم ؟ هذا ما اردت ان احكيه لكم . الخطيئة التي يعترف بها هي الخطيئة التي يتم اصلاحها . لقد تكلمت وانا أحس انني صرت افضل . والان فلنذهب . »

هتف صديقي وهو ينفجر بالضحك : « برفو يا كابتن لوكاس ! لقد كنت بارعا في تدبير ما لا يدبر . ولكن ألم يداخلك الشك ابدا في ان هذا كلة قد يكون من عمل المغوي (٢) ؟ »

- طبعا ، طبعا . قال الراهب وهو يغمز بدهاء . هذا الشك يداخلني كل صباح - لكنني عند العشاء انساه .
واقترحت عليه : اربط منديلا بيدك للتذكير .

(١) أحد الملائكة الحارسة لعرش الله في المعتقدات اليهودية القديمة .
(٢) الشيطان .

مج من لغافته بعمق وأخرج الدخان من منخريه موقال : ليس لدي منديل ،
وعاودنا صعودنا • صنوبر وجروف شاهقة • كان البحر ، الهادئ هذا
اليوم ، يمتد في الاسفل تحت ضوء الصباح اللطيف • وحين تزايد الضوء
استطعنا ان نميز الجزر المقدسة ، ليمنوس وساموتراس ، عن بعد • كانت
تبدو وكأنها تقوم وسط الجو دون ان تلمس الماء •

وصلنا خط الثلج • وكان الاب لوكاس يتقدمنا ببطء وبخطوات حذرة •
انزلقنا وسقطنا ونحن نتقدم بصعوبة على الثلج الجليدي • كان الجبل شديد
الانحدار ووحشيا وقاسيا • وبغته توقف صديقي ، الذي كان يمشي امامي ،
وانضى محدقا الى الهوة العميقة التي لا قرار لها • اصيب بدوار جعله
يشحب فالتفت الي هامسا : « دعنا نرجع » •

قلت له : « ولكن ألن يكون هذا مخجلا ؟ » وانا انظر اليه مؤنبا • كنت
شديد الرغبة في الوصول الى القمة •

« نعم • نعم » قال خجلا « فلنتقدم ا » وبدأ الصعود من جديد •
كانت الشمس مرتفعة حين وصلنا الى القمة وكان كل منا يلهث تعباً •
لكن وجوهنا كانت متألقة لاننا وصلنا الى هدفنا •

ذهبنا الى الكنيسة الصغيرة لتقديم صلاة قصيرة لتجلي المسيح • وفي
ذلك الحين كان الاب لوكاس قد اشعل نارا من العيدان والاعصان التي جمعها
خلال الطريق ثم اخرج من حقيبتة قهوة واعدها • تكومنا معا وراء صخرة
كبيرة لان الريح كانت قد بدأت تهب وبدانا نحس بالبرد • رحنا نحديق
الى البحر الصامت اللامحدود الممتد امامنا والجزر المبحرة فيه ببياض
ناصع وبعيدا جدا الجبال الغامضة التي اعطت الجو هيئة رصاصية •

أعلن لوكاس : « يقولون انك تستطيع ان ترى القسطنطينية من القمة
المقدسة » • ثم راح بعينيه الجاحظتين يحدق نحو الشرق جاهدا ان يرى
العاصمة الملكية •

- هل سبق لك ان رأيتها يا كابتن لوكاس ؟
تنهد الراهب وقال : « لا • لم استحق ذلك • يبدو ان اعيننا المادية
غير كافية • يلزم عيون اخرى ، عيون الروح وا اسفاه ؟ ان روحي مصابة
بقصر النظر •

قلت : لكنك تستطيع ان ترى الله •

اجاب الراهب : « ايه ! لا حاجة للعيون من اجل ذلك • الله اقرب الينا
من كبدنا ورئتينا » •

كان صديقي مكتئبا وصامتا • لا شك انه لا يستطيع ان يجبر نفسه على مسامحة جسده الذي جبن للحظة • وبغته لم يعد قادرا على السيطرة على نفسه أكثر من ذلك ، مد يده وضغط على يدي بقوة •

قال : « أرجوك • انسن ذلك • اقسم انني لن افعلها ثانية » •

ايوزافايوي / ١٦ كانون-الاول - ديسمبر

قضينا هذا اليوم ، يوم شفيعي (١) ، في الاستديو الشهير لايوزافايوي • هناك عشرة رهبان رسامين • كل اسبوع يجيء الذور على واحد لادارة شؤون المنزل - يمسح ويغسل ويطبخ - بينما ينصرف الآخرون انى الرسم • ويخرج من هذا الاستديو افضل لوحات المسيح ، حسن الصحة وحسن التسريحة ، لتوزع في كافة ارجاء العالم الارثوذكسي ، وكذلك لوحات العذراء الجميلة 6 والمترفة والمكلمة ، ولوحات القديسين ذوي الوجنات المتوردة والوجوه الرضية والذين تنقصهم الطهارة • وكلها لوحات معاد رسمها • الرهبان بسطاء حسنو المظهر ، محترمون وكرماء • يحيون الطعام الجيد والخمرة الجيدة والقطط المخصية • جلسنا بعد العشاء ساعات ونحن نتحدث امام النار ، نحن عن هذا العالم وهم عن العالم الالهي في السماء • لقد قضى الاب اكاكيوس ، وهو راهب قصير مستدير ذو قدمين متورمتين ، النهار بطوله وهو يرسم القديس انطونيوس وهو الان يربت على قطة سوداء مكتنزة على ركبتيه • كان يتحدث بأسلوب مؤثر عن الناسك المقدس • يبدو ان فتاة قد جاءت اليه ذات يوم وقالت : « لقد التزمت بوصايا الله كلها وانا اضع ثقتي كلها بالله ، وبأنه سيفتح لي ابواب الجنة » وعندها سألها القديس انطونيوس : « هل صار الفقر ثروة لك ؟ » ، « لا يا ابانا » ، « ولم يصبح العيب شرفا ؟ » ، « لا يا ابانا » ، « ولم يصبح الاعداء اصدقاء ؟ » ، « لا يا ابانا » ، « اذهبي يا فتاتي المسكينة اذن واشتغلي لانك حتى الان لا تملكين شيئا » •

وبينما كنت انظر الى اكاكيوس البسيط ، الذي كان يتعرق من كثرة الطعام ، ومن حرارة النار ومن ذكرى الناسك المخيف ، رحمت افكر بهذا الانطونيوس ذي الوجنتين الموردين الذي ظل يرسمه طوال النهار وتملكتني رغبة شيطانية في ان اقول له اذهب واشتغل يا صديقي المسكين لانك الان لا تملك شيئا • لكنني لم أتكلم • طبقة من الشحم والعادة والجبن تحيط بالروح ، ومهما كان ما تطمح اليه من اعماق سجنها ، فان الشحم والعادة والجبن تنفذ شيئا مختلفا تماما • لم أتكلم - جينا •

(١) عيد القديس الذي يحمل اسمه •

حين ذهبنا الى النوم تلك الليلة اعترفت لصديقي . فقال ليعزيني .
« لا بد انك احجمت أدبا وليس جينا . بل شفقة لانك لم تثنأ ان تحزن
شخصا لطيفا كهذا . وربما لقناعتك بان كلماتك لن تحقق شيئا » .

واعترضت قائلا : « لا ، لا . وحتى لو كان الامر كما تظن فان علينا ان
نقهر الفضائل الصغيرة التي تتحدث عنها - الادب والشفقة والتلاؤم . انني
أقل خوفا امام الخطايا الكبيرة مني امام الفضائل الصغيرة لان لهذه وجوها
لطيفة تخدمنا بسهولة فائقة . اما انا فانني اريد ان اقدم التفسير الاسوأ :
اقول بأنني فعلت ذلك جينا لانني اريد ان احجل روحي وامنعها من تكرار
ذلك مرة اخرى » .

في الصباح التالي ونحن جالسان مع الفنانين العشرة المطوقين في شرفة
الصومعة الزجاجية وبين القديسين المرسومين بوجوه متوردة وبين العذراوات
الريانات رحنا نشرب حلينا ونمضغ الرصك (1) القمحي الطيب مع التوابل
التي ترافقه . دخلت شمس الشتاء بلطف زائد من خلال النوافذ الكبيرة
مزروجة بعبير الصنوبر العذب . تحدثنا وضحكنا . لم يكن هذا الجبل
المقدس . لقد بعث المسيح هنا وكان يضحك معنا . وحين راح الرهبان يعدون
معاجز القديسين ارتعشت عيونهم ايمانا (او عدمه) والتمعت وجوههم
ببريق بعيد .

مد الاب اغابوس يده ولفت انتباهنا الى احدى لوحاته ، التي كانت
معلقة امامنا على الجدار . كان أصغر الفنانين وله لحية سوداء لامعة
وشفتان حمراوان .

« انه ارسينيوس الناسك العظيم » قال وهو يتأمل عمله باعجاب .
« والمرأة التي ترونها راکعة عند قدميه ارسقراطية رومانية جميلة عبرت
الجبال والبحار لتلقي بنفسها امامه . ولكن انظروا كيف ان الناسك يقطب
حاجبيه وهو يشير الى البحر (اريد ان اظهر انه يرفضها بغضب) ويقول
لها : « ابتعدي . ولا تخبري احدا انك رأيتني - لان البحر سيتحول الى طريق
وستبدأ النساء بنقل انفسهن لاقتحام عزلتي » . وتتوسل المرأة : « صل
لاجلي يا ابي » ويجيب الناسك : « ايتها المرأة ، سأصلي لله لكي يجعلني
انسك » .

والتفت الرسام ملقيا علينا نظرة مأكرة ثم سألنا : « ماذا يعني ذلك ؟
سأصلي لله لكي يجعلني انسك ؟ » .

(1) نوع من البسكويت .

ظللتنا صامتتين لاننا لم نعرف ما يدور في ذهن الراهب .
« يعني ان الناسك قد اخترقه جمال المرأة : وهذا ما يفسر السبب
الذي يجعله يطلب عون الله ليحمله ينساها » .

وسأل صديقي وهو يغمز الراهب : « وهل نسيتها ؟ »
فأجاب : « وهل يمكن نسيان أشياء كهذه ؟ » ولكنه حين رأى هاباكوك
يسدد اليه نظرات نارية اعتذر عن كلماته وعض على شفثيه الحمراء
المكتنزتين .

دير القديس بول

مشوار رائع في قارب تجذيف الى دير القديس بول . البحر بألوان
الالوان - ازرق شاحب واخضر وكعرق اللؤلؤ . صخور ناتئة حمراء كالدم
القاني ، وأمواج سوداء ، وحمام بري ثم بغتة امتداد افقي من الرمل
الابيض اللامع .

كان مزاج صديقي اليوم حسنا . وكان القارب كله يهتز من قهقهاته .
طلبت منه ان يغضب كصيني . وباستعداد مدهش بدأ فوراً يهدر بتيار
صاخب من الكلمات الصينية الوهمية ، كنت سعيدا الى درجة انني لم
اعرف كيف استقر في القارب . « والان مارس الجنس كعربي » قلت له
ذلك فبدأ بعاطفة فياضة يبوح بحبه لسيدة عربية . وهكذا ، وكأنما بلمح
البصر ، وصلنا الى ميناء القديس بول وبدانا الصعود الشاق الى الدير .

كان البواب سيفالونيا (1) . عجوز ماكر كثير المزاح . ولتمضية
الوقت كان يقضي ايامه وراء الباب ممسكا بمطواة وهو يحفر ما يبدو انه
صور خشبية للمسيح والقديسين والشياطين . تطلع الينا متمعنا وسألنا
وهو يضحك : « ما الذي تريدانه هنا ايها الغبيان ؟ »

- نريد ان نصلي ايها العجوز .

● تصليان لمن ؟ هل انتما بكامل قواكما العقلية ؟

- نصلي للدير .

● أي دير ؟ ليس هناك دير - لقد انتهى العالم هو الدير . اسمعيا

نصيحتي وعودا الى العالم ا

حدقنا اليه فاغرين . كان يبدو انه فعلا آسف لوضعنا .

(1) من سكان سيفالونيا الجزيرة التي سميت باسم سيفالوس وله قصة طويلة
مع زوجته بوركريس حول الشك والخيرة تنتهي بقتلها ونفيه .

عند ذلك قال : « ليس الامزاحا • ادخلا • اهلا بكما » •
دخلنا وتفرجنا على الحجرات التي تحيط بالباحة • مد الراهب يده
وقال ساخرا : « انظرا الى خلية نحل الله • انظرا الى الحجرات • لقد كانت
ذات يوم مسكونة بالنحل الذي يصنع العسل • اما الان فباليعاسيب ويا
للسعها ••• فليحمننا الله » اضاف ذلك وهو يتفجر بالضحك •

لم ننبس بكلمة ولكننا كنا مشمئزين • هل تفرغ الدير المقدس من
محتوياته القدسية الى هذا الحد ؟ ألم يخلف الرهبان الا الحجرات الفارغة
الى هذا الحد وقد طارت الفراشة المقدسة من داخلها •

بأقدام متعبة صعدا الدرج الحجري المؤدي الى الغرفة المعدة للضيوف •
امسك صديقي بيدي متأثرا وقال : « اصبر • لا تنزعج • طالما ان ارواحنا
محتفظة بقوتها فان شيئا غير ذلك لا يهم • المهم ان لا تنحط ارواحنا ••
لان سقوط ارواح معينة في هذا العالم سيؤدي الى ان ينهار العالم نفسه •
انها الاعمدة التي تسنده • قليلة غير انها كافية » • وهزني بقوة وقال وهو
يضحك : « تماسك يا مسيو لونغي المسكين » •

دخلنا الغرفة • كان الاعضاء ، خمسة رجال او ستة ضخام الاجساد
ايديهم متصالبة على بطونهم ، جالسين حول الرئيس ، وهو متربع في
الوسط • شخص ذكي ذو لحية سوداء مجعدة ووجه انثوي ويدين بيضاوين
وعمره من الحرير الاسود • مد لنا يده بكثير من الغندرة لتقبيلها ثم سالنا
عن احوال العالم واما اذا كنا قد جلبنا معنا اية صحف •

وسال احد الاعضاء : « ما الذي يجري في انكلترا ؟ وما الذي يجري في
المانيا ؟ اتظنان ان الحرب ستقع ؟ » •
قال اخر : « ستقع ان شاء الله » وغمز لجاره • « وآمل ان الالمان
سيمرغسون » •

وعند سماع هذه الكلمات رفس اخر بدين يبلغ سبعة اقدام كرسية ثم
هب واقفا على قدميه : « سيلتهمهم الالمان .الجميع بلقمة واحدة - الانكليز
والفرنسيين والروس • واجدعوا انفي ان كنت مخطئا • الالمانى هو مسيح
هذه الايام • انه سوف ينقذ العالم ا » •

فقال الرئيس : « اجلس يا جرمانوس » ووضع يده البيضاء على فمه
لكي يمنع نفسه من الضحك • ثم التفت اليها : « لا تصفيا اليه • اسمه
جيرمانوس وهذا يفسر كونه مناصرا للالمان • ان الاخوة يستفزون » •
ولكن ما ان بدأ الحديث يأخذ منحى هادئا حتى دفع الباب ودخل راهب

نحيل اخرق متاجج برأس مجروح والدم يسيل على لحيته وردائه الممزق •
وصاح : « يا أبانا المقدس • انظر • ان اعداء المسيح قد حاولوا قتلي لانني
صوت لك يوم الانتخاب » •

نهض الرئيس شاحبا وصرخ : « اخرج من هنا • الا ترى ان لدينا
ضيوقا ؟ » •

لكن الراهب لم يبد عليه انه سيخرج بل خلع قبعته التي كانت ممزقة
والدم يقطر منها وقال : « سأعلقها امام ايقونة القديس بول لكي يرى
الى اي درك سقط ديره » •

ونهض الراهب مهتاجين وبدأوا يلاطفونه ويهدئونه • وراح يقاومهم
ولكن بالتدريج استطاعوا ان يحملوه خارجا • اما نحن فقد اغتصمنا الفرصة
في ذلك الحين • انزلقنا بين الراهب وخرجنا من الغرفة •

نزلنا الى الرواق حيث رحنا نتمشى جيئة وذهابا ونحن صامتان •
ورأنا البواب فهمم • تخلى عن قديسيه وشياطينه وجاء الينا متفجرا
بالبهجة • قال : « لا تستاء يا صديقي » • لقد رأيتما الاب انوسنت (1)
أليس كذلك ؟ لقد حطمت رأسه لكنه سيشفى • لا داعي للخوف • ليست
هذه اول مرة » •

وسأل صديقي : « ولكن هل تحدث امور كهذه دائما في الدير ؟ بمعنى
اخر أيدخل الشيطان حتى الى هنا ؟ » •

- واين اذن سيدخل يا بني ! مهما فعلت فانه سيدخل بطريقة ما ،
ذات يوم كان هناك دير يحتوي على ثلاثمئة وخمسة وستين راهبا • ولكل
راهب ثلاث عدد من السلاح وثلاثة خيول • الاول ابيض والثاني احمر والثالث
أسود • كانوا يحرسون الدير في ثلاث نوبات يوميا لكي يمنعوا الشيطان
من الدخول : في الصباح على الخيول البيضاء ، وعلى الحمراء ظهرا وعلى
السوداء ليلا •

- وهل دخل الشيطان ؟

ضحك الراهب الماكر وقال : « هل تمزح ؟ طوال الوقت الذي كانوا فيه
ممتطين جيادهم حول الدير كان الشيطان جالسا على عرش رئيس الدير في
الداخل • كان هو الرئيس » •

(1) البريء •

وسأل صديقي : « وماذا عنك ايها البواب القديس ؟ هل سبق لك ان رايت الشيطان ؟ »

- طبعاً . لا شك انني رايت الشيطان .
- وكيف هو ؟

- ريان وأمرد ، جميل واهيف . عمره اثنا عشر عاماً . ونظر الينا ثم غمز بعينه : « لقد رايت رئيسنا المقدس كما اظن . كيف اثر فيك ؟ فلتحل بركاتة عليكما معا » .

ثم انفجر بالضحك وتحصن وراء الباب .
جاء خمسة او ستة رهبان واحاطوا بنا . ومن اجل ان ننسى رأس انوسنت المحطم اخذونا لنقدم احترامنا للرفات المقدس المحفوظ بعناية في مذخر فضي - عظام متنوعة وهبات المجوس : ذهب وبخور ومر (1) . جعلونا ننحني فوقها لكي نشمها . قالوا ان قرونا عديدة قد مرت دون ان تفقد الهبات راثحتها - انها معجزة عظيمة !

حين خرجنا الى الباحة وبقينا وهدنا اشار لنا البواب برأسه فذهبنا اليه .

قال لنا وسط قهقهته : « لها رائحة . آه ؟ معجزة عظيمة ! حين نسكب الكولونيا فوقها فان راثحتها ستصبح كولونيا . واذا سكبت فوقها البتشمول (2) فان راثحتها ستصبح بتشمول . واذا رششت فوقها الكازولين فان راثحتها ستصبح كازولين . اقول لكما انها معجزة عظيمة . كيف كانت راثحتها اليوم ؟ » .

- كالزهور . قال صديقي .
- حسن . هذا يعني انهم قد رشوا فوقها ماء الزهر . اتري ؟ وانحنى على قطعة الخشب التي كان ينحتها وهو غارق في الضحك .
- ابتعدا الان والا رأوا انني اتحدث اليكما وعندها سأوضع في ماء ساخن . انهم يعتبرونني مجنوناً وانا اعتبرهم حمقى اما الشيطان فسيأخذنا جميعاً .

دير ديونيزيو :

انطلقنا في الصباح الباكر في قارب تجذيف وتوجهنا الى ديونيزيو .

(1) صمغ راينجي يستخرج من ساق شجر المر .

(2) عشب ذو رائحة عطرية .

خبرنا صاحب القارب ، الاب بينيديكت ، انه اشد الاذيرة صرامة في
الجهل المقدس . فهمما كنت مرحا لا تستطيع ان تضحك ومهما شربت من
خمور في ذلك الدير لا تستطيع ان تسكر . وهناك غار مزروع في الباحة فاذا
تطلعت اليه بعناية سترى المسيح مصلوبا على كل ورقة . كان معنا مطران
يريد الذهاب الى ميناء دافنه لكي يسافر .

- العالم كله ، يا اب بينيديكت ، صليب صلب عليه المسيح . وليست
اوراق الغار وحدها بل انا وانت وحجارة الارض ذاتها .
كان هذا أكثر مما أحتمل .
- أرجو عفوك يا مطران ، انني ارى المسيح مبعوثا في كل مكان .

هز المطران رأسه واجابني : انك على عجلة . على عجلة يا بني . سنرى
المسيح المبعوث ولكن ليس قبل ان نموت . ممرنا الارضي هذا ، وطالما نحن
احياء ، هو الصلب .

ووثب على مقربة منا دلفين خارجا من المياه . والتمع ظهره القوي اللين
تحت الشمس . وغاص ثانية ثم عاد الى الظهور وراح يقفز فرحا - المحيط
كله مملكته . وبغثة ظهر دلفين اخر على بعد وراح كل منهما يندفع مسرعا
نحو الاخر . وحين التقيا راحا يلعبان وفجأة سبحا بعيدا عنا متجاورين وهما
يرقصان بذيليهما المشرعين .

تملكتني الغبطة فمددت ذراعي وأشرت الى الدلفين وانا اسأل بلهجة
المنتصر : « هل المسيح مصلوب أم مبعوث ؟ ما الذي يقوله لنا الدلفينان ؟ »
لكننا كنا قد وصلنا الى ديونيزيو ولم يجد المطران وقتا للاجابة .

في اللحظة التي خطونا فيها الى الباحة توقفنا مرعوبين . احسنا
اننا ندخل سحنا معتما وكثيبا . كانت الاعمدة المحيطة منخفضة وسوداء
والاقواس بينها مدهونة بالبرتقالي الغامق . وكل انش من الجدران مغطى
برسوم وحشية من سفر الرؤيا : شياطين ونار الجحيم وعاهرات يجري
نهران من الدم من نهودهن وأغوال مرعبة لها قرون - كان توجه الكنيسة
كله لارهاب الناس وجلبهم نحو السماء ، ليس بالحب ، بل بالرعب .

جاء المضيف ، الراهب المسؤول عن الزوار . حين رأنا نحدق الى الرسوم
مرعوبين فتح شففيه الصفراوين الضيقتين بحقد - كان يبدو مترعا بالكراهية
لرؤيته رجلين ثريين حسني الهندام في زهوة شبابهما .

قال : « افتحا أعينكما على اتساعها ولا تشيحا بوجهيكما مكشرين .
انظرا ا جسد الانسان مليء بالنيران والشياطين والعاهرات . الفحش الذي

تريانه ليس جهنم بل هو احشاء الانسان •
واعترض صديقي : لقد خلق الانسان على صورة الله • وهو ليس مجرد
فحش • انه شيء اخر •
وزعق الراهب : كان • كان ولم يعد كما كان • في العالم الذي تعيش
فيه تحولت الروح ايضا الى لحم • لقد ضمتها الخطيئة الى صدرها
وارضعتها •

وسالت : ما العمل اذن ؟ أليس هناك منفذ الى الخلاص ؟
- يوجد • يوجد • لكنه منفذ ضيق معتم وخطير • لا يدخله المرء بسهولة •
- أي منفذ تعني ؟
- انظرا

ومد يده مشيراً الى مدخل الدير •
- لم نتها بعد • قال صديقي الذي اعتبر كلام الراهب مغيظاً • « فيما
بعد • حين نعجز ونضعف • اللحم من صنع الله أيضاً » •
وارتسمت على شفتي الراهب ابتسامة حاقدة • وزعق : « اللحم من
صنع الشيطان • لقد حان الوقت لكي تتعلموا • انتم يا جواسيس العالم •
ان صنع الله هو الروح » •

والتم بردائه وكأنه يخاف ان نلمسه ثم اختفى تحت قنطرة برتقالية •
قال صديقي : دعنا نخرج • من الواضح ان المسيح لا يعيش هنا •
وانفتحت ابواب حجرتين او ثلاث حجرات • وظهر رهبان كالهياكل
العظمية وهم يتطلعون الينا ويتمتمون بشيء ما ثم اغلقوا الابواب من
جديد •

أصر صديقي : « لا حب هنا • دعنا نرحل » •
فسألته : « الا تحس بالشفقة عليهم ؟ افترض اننا بقينا هنا عدة
ايام ووعظناهم بحقيقة المسيح • ما رأيك ؟ » •
- لهم ؟ مستحيل اهدر للجهد •
- لا شيء يذهب هدرا • حتى لو لم يتم تخليصهم سنكون قد اخذنا
المستحيل على عاتقنا •

- هل انت جاد ؟ سأل صديقي وهو ينظر الي مدهوشا • فأجبت وقدمت
استولت علي كآبة مفاجئة : « لو انني اعرف فقط اهل سيكون هذا ما
استطيع القيام به فعلا ؟ قلبي يقول لي ان كنت رجلاً حقاً ابق هنا وشن
الحرب • ولكن وأسفاه فالعقل - الشيطان - لا يسمح لي •

تجراً راهبان على المجيء الينا لادخالنا • اخذانا حول الدير • ورأينا
لوحة جدارية لعلاق برأس خنزير بري • هو القديس كريستوفر • وقد اظهر
مخالبه الهائلة • ثم اخذانا لنصلي لليد اليمنى ليوحنا المعمدان • وفي غرفة

الطعام كان هناك ساروفان مشتعلان احمرارا وكل منهما يمسك بزوج من الريح المستقيمة في كل يد واقدامها البيضاء الناصعة مفروسة في الارض الخضراء . على الجدار الايسر صورة للعدراء جالسة بين ملاكين والى جانبيها اشجار خضراء زاهية وعصافير تحط على الاغصان ووراء كل من الملاكين شجرة سرو ممشوقة . فوقنا على القبة ضابط الكل تتدلى من فمه شريطة وعلى الشريطة حروف ضخمة حمراء . وأشار الراهبان الى البانتوكريتر مادين اذرعهما : « اتستطيعان قراءة هذه الحروف ؟ احبوا بعضكم بعضا . الفظا هذه الكلمات امام عصاميتة وستزدهر ولكن قولها لانسان فانه لا يزدهر . نحن كلنا موجهون الى جهنم » .

كانت المقبرة بسيطة وساحرة مثل شرفة مطلة على البحر وليس هنا اكثر من خمسة او ستة صلبان متأكلة بفعل الريح والملح .

وبغثة حلق فوقنا رف من الحمام الابيض متجها نحو الماء . ومد احد الراهبين يده بجشع ، وعيناه مليئتان بالقتل والجوع ، وكأنه يريد الامسك بالحمام . وتمتم وأسنانها تصر جوعا ونهما : « يا الهي لو ان معي بندقية » .



واخيرا وصلت رحلتنا الى نهايتها . وقبل رحيلنا بعدة ايام انطلقت وحدي لأصعد الى كاروليا ، الصومعة الموحشة المحاطة بصخرتين والمطلة على البحر . هناك يعيش اكثر النساك وحشية وقدسية في الجبل المقدس . كل منهم منزو في كهف ليصلي مستغفرا عن خطايا العالم ومبتعدا ما امكنه عن جاره لئلا يستمد الراحة من منظر بشري اخر . ولدى كل منهم سلة صغيرة مدلاة فوق الماء . والمراكب التي يصدف ان تمر بين وقت واخر تضع في هذه السلال كسرا من الخبز وحبات من الزيتون - او ما يمكن ان يكون لديها - لئلا يموت الزهاد جوعا . وكثير من هؤلاء الزهاد المتوحشين يفقد قواه العقلية ، وقد يعتقد احدهم انه قد تنبت له اجنحة صغيرة فيطير من فوق الجرف ويهوي الى الاسفل . ولذا فان خط الشاطئ السفلي مغطى بالعظام .

وكان يعيش بين هؤلاء الزاهدين ماكاريوس الكهف ، الراهب المشهور بطهارته . الرغبة في رؤيته هي التي دفعتني الى الرحيل الى كاروليا . وكنت قد قررت ذلك منذ ان وطئت الجبل المقدس . كنت اريد ان انحني واقبل يده واعترف له بخطايي . ليس خطايي - اذ انني لم اكن اعتقد بانني قد اقترفت الكثير منها الى هذا الحد - ليس خطايي بل الغطرسة الشيطانية التي كانت غالبا ما تحثني على التصددت بشكل مهين عن

الاسرار المقدسة السبع والوصايا العشر وتجعلني ، راغبا في ان انقش وصاياي .

قراءة الظهر وصلت الى الصوامع - الثقوب السوداء في الجرف وعلى كل منها صليبها الحديدي المغروز في الصخر ، وظهر من احدها هيكل اربعيني . كان يبدو وكان القيامة قد قامت وهذا الهيكل قد ظهر من تحت الارض قبل ان يكون لديه الوقت للاكتساء بلحمه كله . تملكني الخوف والقرف وفي الوقت نفسه سيطر علي اعجاب خبيء غير معلن . ولما لم اجرؤ على الاقتراب منه سألته الطريق عن بعد . ودون ان يتكلم مد ذراعا مقددة و اشار لي الى الاعلى نحو كهف اسود على حافة الجرف تماما . وبدأت ، مرة اخرى ، اتسلق الصخور التي جرحتني بحوائفها الحادة . وحين وصلت الى الكهف انحنيت عليه لاتطلع داخله . ظلام تام : ورائحة التراب والبخور . وبالتدرج بدأت اميز جرة صغيرة على اليمين في فلع في الصخر ولا شيء اخر . كنت على وشك ان انادي لكن الصمت داخل هذه الظلمة بدا لي مهيبا ومقلقا فلم اجرؤ على الصراخ . وشعرت ان الصوت البشري ، هنا ، كالخطيئة او السدنس .

وتعددت عيناى على الظلام . وحين تمعنت في الداخل بعيني الجاحظتين رأيت وميضاً فوسفوريا - وجها شاحبا ويدين هزيلتين - يتحرك في اعماق الكهف كما سمعت صوتا حلوا لاهتا :

- اهلا !

تشجعت ودخلت الكهف متقدما باتجاه الصوت . كان الناسك متكوما على الارض . رفع رأسه فاستطعت ان اتبين في العتمة وجهه الذي كان مضيئا في اعماق جمال لا يوصف - بلا شعر ، بعينين غارقتين في محاجرهما وقد ارقه الارق والجوع . لقد تساقط شعره كله وراح رأسه يلتمع كالجمجمة .

« باركني يا ابي » قلت ذلك وانجنيت لاقبل يده .
لم يتكلم اي منا خلال فترة طويلة . ورحت انظر بشغف الى هذه الروح التي محت جسدها والذي كان يثقل جناحها ويعيقها عن التحليق الى السماء . الروح التي تؤمن وحش اكل للبشر لا يرحم . لقد التهمته ، لحما وعينين وشعرا : كله .

لم أجد ما اقله ولم اعرف من اين ابداً كان الجسد الهزيل امامي يبدو كميدان اثر مذبحة رهيبه وعليه رأيت الجراح التي تركها (المغوي) وعضاته . واخيرا ، استجمعت شجاعتي فسألته :

- اما تزال تتصارع مع الشيطان يا أب مكاريوس ؟
 - ليس بعد يا بني . لقد شخت الان وهو الاخر قد شاخ معي . لم
 تعد لديه القوة . . . انني اتصارع مع الله .
 - مع الله ! هتفت مندهشا « وهل تأمل ان تنتصر ؟ »
 - انني آمل ان أهزم يا بني . ما تزال عظامي معي وهي
 التي تستمر في المقاومة .
 - حياتك صعبة يا ابي . انا ايضا اريد الخلاص ولكن أليس هناك
 طريق اخر ؟

- مقبول أكثر ؟ سأل الناسك وهو يبتسم متفهما .
- أكثر انسانية .
- طريق واحد . واحد فقط .
- وما هو ؟

● الصعود . ان تتسلق سلسلة من الخطوات . من المعدة المتخمة الى
 الجوع ومن الحلق المبلل الى الظمأ ومن المتعة الى المعاناة . الله يتربح على
 قمة الجوع والعطش والمعاناة . والشيطان يتربح على عرش الدعة . فاختر .
 - «أنا ما ازال شابا . والعالم جميل . لدي الوقت الكافي للاختيار » مدّ
 العظام الخمسة في كفه ولمس ركبتي ودفعني : استيقظ يا بني . استيقظ
 قبل ان يوقظك الموت .

ارتجفت . « انا شاب » كررت كلامي لكي استمد الشجاعة .
 - الموت يحب الشبان . وجهنم تحب الشبان . الحياة شمعة صغيرة
 مشتعلة من السهل اطفأوها . انتبه - استيقظ !
 وصمت قليلا ثم سألني : « مستعد ؟ »
 - تملكني العناد والسخط فهتفت : « لا »
 - عنجهية الشباب . انك تقول ذلك وانت تظن انه شيء يستحق ان
 تتباهى به . توقف عن الصراخ . ألسنت خائفا ؟

● ومن لا يخاف ؟ نعم . انا خائف . وماذا عنك يا أبانا المقدس . ألسنت
 خائفا ايضا ؟ لقد جعت وعطشت وقاسيت وها انت على وشك الوصول الى
 الدرجة العليا . ان باب الجنة يظهر امامك . ولكن هل سينفتح هذا الباب
 ويسمح لك بالدخول ؟ هل سيحدث هذا ؟ أنت واثق ؟

تدرجت دمعتان من طرفي عينيه وتنهذ . وبعد صمت قصير قال .
 انا واثق من طيبة الله . فهي التي تقهر خطايا الانسان وتغفرها .
 - وانا ايضا واثق من طيبة الله . بمعنى اخر انها قد تغفر ايضا عنجهية
 الشباب .
 - ويل لنا ان اعتمدنا على طيبة الله وحدها . ففي حالة كهذه ستدخل

الرذيلة والفضيلة معا الى الجنة متشابكتي الذراعين •

- اتعتقد يا ابي ان طيبة الله ليست كافية وواسعة لكي تسمح بذلك ؟
حين نطقت هذه الكلمات لمعت في رأسي فكرة - فكرة غير ورعة ربما
ولكن من يدري ربما كانت عظيمة القدسية - ان وقت الخلاص الكامل سيحين ،
وقت الصلح الكامل ، حين تنطفئ نيران جهنم ويصعد الشيطان ، الابن
العاق ، الى السماء ليقبل يد والده والدموع تنسكب من عينيه • وسيصرخ :
« لقد اخطأت » وسيقول الاب وهو يفتح ذراعيه على اتساعهما : « اهلا •
اهلا يا بني • سامحني لانني عذبتك بهذا القدر » • لكنني لم اجرؤ على
التعبير عن فكرتي مباشرة • وبدلا من ذلك اخترت طريقا ملتوية كوسيلة
لتمويهها : « قيل لي ، يا ابي ، ان هناك قديسا ما - لا اذكر من هو الان -
كان عاجزا عن ايجاد الراحة في السماء • وسمع الله تنهدياته فاستدعاه
وسأله : « ما الامر ؟ ما الذي يجعلك تنهتد ؟ لست سعيدا ؟ » فأجابه
القديس : « كيف تتوقع مني ان اكون سعيدا يا مولاي طالما ان وسط الجنة
هناك ينبوع يبكي ؟ »

- اي ينبوع ؟

- دموع الملعونين •

ورسم الناسك شارة الصليب بيدين راجفتين : « من انت ؟ » سألني
بصوت واهن ميت • « قف ورائي يا شيطان (1) ا » وصلب نفسه ثلاث
مرات اخرى ثم بصق في الهواء وكرر : « قف ورائي يا شيطان ا » واستعاد
صوته القوة •

لمست ركبته التي كانت تلمع عارية في العتمة • وتجمدت يدي • قلت :
- أبانا • لم ات الى هنا لاغويك • انا لست المغوي • انا شاب يريد ان
يؤمن مثلما كان جدي الفلاح يؤمن ببساطة وسذاجة ودون طرح اسئلة •
اريد ذلك ولكنني لا استطيع •

- الويل لك • الويل لك يا طفلي التعس • سيلتهمك العقل ، ستلتهمك
الذات ، الاتا ، النفس • اتعرف متى القي الملاك الاكبر ليو سيفر الى جهنم ،
هو نفسه الذي تدافع عنه وتريد انقاذه ؟ حدث ذلك حين التفت الى الله
وقال : انا • نعم • نعم • اسمع ايها الشاب وسجل هذا في عقلك جيدا • هناك
شيء واحد يعاقب في جهنم - الذات ، نعم • الذات • فلتحل عليها اللعنات
كلها !

(1) مرت هذه العبارة من قبل وهي تنيد الاستمادة .

هزرت رأسي بعناد : « بهذه الذات ، بهذا الوعي بالنفس ، ميز الانسان
عن الوحوش . لا تقلل من شأنها يا اب مكاريوس .

- بهذا الوعي بالنفس ميز الانسان عن الله . كان كل شيء في البدء
متحدا بالله وراضيا في احضانه . لم يكن هناك اشياء مثل انت وانا وهو ولا
اشياء مثل لي ولك . لم يكن هناك اثنان . كان هناك واحد . كون (1) واحد ،
كينونة واحدة . هذا هو الفردوس الذي تسمع عنه . هذا اولا شيء غيره .
من هنا بدأنا كلنا . وهذا ما تتذكره الروح واليه تتوق ان تعود . مبارك
هو الموت . اذ ما هو الموت برأيك ؟ انه بقل . ونحن نمتطي هذا البقل
ونرصل .

كان يتكلم . وكلما تكلم اصبحت ملامحه اكثر اشعاعا والقا . وطافت
على شفثيه ابتسامة حلوة رضية ثم كست الوجه كله حتى تظن انه قد
انغمر بالجنة . سألته : لم تبتسم يا ابي ؟
- وكيف امنع نفسي من الابتسام ؟ أنا سعيد يا بني . كل يوم وكل
ساعة اسمع وقع حوافر البقل ، اسمع الموت يقترب .

كنت قد تسلقت الصخور وغايتي الاعتراف امام هذا المنكر القاسي
للحياة ولكنني رأيت انه لم يحن الوقت بعد . فالحياة لم تتصعد بعد في
داخلي . كنت احب العالم المرئي كثيرا . وما يزال ليوسيفر يتلامع ببهاء في
عقلي . انه لم يتلاش بعد في وهج الله الاخذ للابصار . وقد قلت لنفسي فيما
بعد : « غدا حين اكبر واشيخ واضعف وحين يضعف ليوسيفر في اعماقي . »

نهضت فرفع العجوز رأسه وسألني : « أنت راحل ؟ حظا سعيدا .
الله معك . » وبعد لحظة قال ساخرا : « تحياتي الى العالم . » فرددت عليه :
« تحياتي الى السماء . وقل لله انه ليس خطانا بل خطاه - فهو الذي خلق
العالم جميلا . »



لم يكن الرهبان جميعا سعداء ولم يكونوا جميعا واثقين من انفسهم .
اتذكر بشكل خاص واحدا منهم : الاب اغناطيوس . كنت وصديقي نقضي
كل ليلة في الحديث بعد ان يغادرنا الرهبان الى النوم ويتركونا وحدنا في
غرفة الضيوف . كنا نناقش اهتماماتنا الروحية العظيمة والطرق المختلفة
التي يستطيع الانسان ان يسلكها للوصول الى الله . اضافة الى اننا كنا نجهد

(1) Cosmos الكون بوصفه نظاما متناظرا - المورد .

لاعطاء هذه الكلمة مضمونا اكثر عذرية بعد ان ابتذلت كثيرا في افواه الرهبان والكهنة . وذات مرة بينما نحن نتحدث ، لا بد انه كان منتصف الليل - انبغت بفتة صوت مغمم بالانفعال من زاوية معتمة .

- يا رب . مكني من البقاء هنا والاستماع اليك الى الابد . انني لا اريد جنة غير هذه .

كان هذا الاب اغناطيوس . لا شك انه لم يكن يفهم تماما ما كنا نقوله لكن كلمات مثل الله والحب والواجب كانت تؤثر فيه وكانت تتردد كثيرا في محادثاتنا وفوق كل شيء كانت تؤثر فيه حرارة أصواتنا . وربما ، ايضا ، شحوب وجهينا في ضوء الصباح .

تصادقنا . ومنذ تلك الليلة ظل يواظب على الحضور معنا دون ان يتكلم بل يكتفي بالاستماع . وانك تستطيع ان تحس بتعطشه لسماع الاحاديث التي كانت تتفوق على المحادثات التي يجريها الرهبان فيما بينهم . ومساء يوم رحيلنا دعاني الى حجرته . كان الوقت متأخرا وكان صديقي متعبا وقد ذهب لينام .

قال : اجلس . اريد ان اعترف لك .

قدم لي مقعدا جلست عليه . نظرت اليه . كانت لحيته البيضاء قليلة الشعر تشع في ضوء القمر ، وتحول رداؤه الاسود الى اخضر بفعل القدم . وكان القماش قد صار صقيلا لامعا من الاستخدام ومن البقع الشمعية . وكانت وجنتاه غائرتين ووجهه مغطى بالتجاعيد كحقل محروث . وكان حاجباه الكثيفان الاشعثان يبرزان فوق عينيه الغائرتين السوداوين الفاهمتين . ورائحة البخور تفوح منه ممزوجة برائحة زيت الزيتون الزنخة . ويبرز الابهام الكبير لقدمه اليمنى من خلال القشاط في حذائه الضخم المصنوع كيفما كان .

ظل صامتا لفترة طويلة وكأنه كان قد اتخذ قرارا ثم ندم عليه الان . واخيرا قال : « بحق الله اصبر واستمع الي . لا تتكلم او تنهض قبل ان انهي اعترافي . اشفق علي » كان صوته يرتجف . وسألني : « هل تشرب قهوة ؟ » وكأنه يرغب في تأجيل الوصول الى اللحظة الحرجة . لكنه قبل ان ينتظر الجواب جلس على سيريره المتواضع وامسك بلحيته وهو غارق في تأمله وتردده . احساست بالشفقة عليه وقلت : « لا حاجة بك الى التردد يا اب اغناطيوس . انا انسان طيب وانا اعرف شيئا ما عن معاناة الانسان تكلم بحرية وخفف عن نفسك . »

- « ليست مسألة معاناة » . قال ذلك وقد اكتسب صوته العجوز قوة مفاجئة . « ليست مسألة المعاناة بل المتعة . هل المتعة ملعونة ام مباركة ؟

انني اعذب نفسي منذ سنوات جاهدا لمعرفة ذلك دون ان استطيع . لهذا دعوتك . انني في حاجة للمساعدة . اتفهمني ؟
لم يكذب ينطق بهذه الكلمات حتى انفتح قلبه . لم يعد يتردد الان . صلب نفسه وركز عينيه ، ليس علي بل على المصباح المشتعل امامه قرب ايقونة المصلوب . وبدأ !

- حاولت منذ سنوات طويلة ، يا بني ، ان ارى الله . ولكنني لم انجح . سنوات طويلة وانا اسجد - انظر كيف تيبست يداي . وسنوات طويلة بعدها كنت اصرخ : طيب . دعني لا ارى الله طالما لا استحق ذلك . ولكن دعني اقوى على الاحساس بحضوره اللامرئي لكي احس انا ايضا بالغبطة ولو لطرفة عين ولكي اعرف انني مسيحي وان سنوات تنسكي لم تذهب عبثا . كنت اصرخ واصوم وابكي - دون جدوى . كان قلبي عاجزا عن ان يفتح ويسمح لله بالدخول في . لقد اقفله الشيطان وخبا مفاتيحه .

رفع حاجبيه ليراني جيدا ثم التفت وحدق ضوحي : « لم اخبرك بهذا كله ؟ » سال وكأنه يوبخ نفسه ، « من انت ؟ ومن اين اتيت ؟ وما الذي تفعله هنا على الجبل المقدس ؟ لم علي ان اثق بك ؟ وارغب في الافشاء لك بهذا السر الذي ستسمعه بعد قليل ، السر الذي لم اكشف عنه حتى لكاهني والذي يثقل علي ويغمسني في الجحيم ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ »

ونظر الي حائرا ينتظر الجواب . فاجبته : « لعلها ارادة الله . ربما ان الله قد ارسلني الى الجبل المقدس لكي استمع اليك . يا اب اغناطيوس كيف تتوقع ان يعرف العقل البشري الطرق التي يختارها الله لكي يجعلك تتخفف من العبء الذي كنت تتحدث عنه . »

اطرق الراهب برأسه وغرق في التفكير لوهلة . واخيرا قال : « ربما ... » ثم تشجع واكمل دون توقف . « كما ترى . لقد عذبت نفسي سنوات وسنوات واحسست ان حياتي تضيق هباء . لا الصلاة ولا الصوم ولا العزلة كانت قادرة على مساعدتي في اي شيء . ثم هيمن علي شك رهيب في انه قد لا يكون هذا هو الطريق . ليس الطريق الذي سيقودني الى الله . لا بد ان هناك طريقا اخر . الطريق الاخر !! ولكن ايها ؟ وذات يوم امرني رئيس الدير ان اذهب للعمل كمشرف على ملحق كان الدير يمتلكه قرب سالونيكيا . كان الوقت صيفا ، ايام الحصاد . وعلي ان اذهب الى هناك لكي امنع المحاصصين من خداعنا . »

منذ احدى وعشرين سنة لم اكن قد خطوت خارج الدير ولم اكن قد رأيت الناس مع اطفالهم او سمعت ضحكة او وقعت عيني على امرأة . كان السهل

في الخارج قائظا وكان عمري قرابة الاربعين عاما . احدى وعشرون سنة منها في السجن والان تنفتح الابواب وأستنشق الهواء النقي . كنت قد نسيت الاطفال وهم يتدحرجون على الارض ويلعبون ومنظر المرأة التي تذهب الى النبع وجرتها على كتفها ، والشباب الذين يشربون في الخمرات وقطفة الحبق وراء اذانهم . على باب الملحق رأيت امرأة تحمل طفلها بين ذراعيها وترضعه . لوهلة - سامحني يا رب - ظننت انها مريم العذراء وكنت على وشك الانحناء والصلاة لها . لم أكن قد رأيت امرأة منذ عشرين عاما ، كما قلت لك ، وكان عقلي مبلبلا .

أما هي فزررت قميصها واخفت ثديها حالما رأته . ثم انحنيت لتقبل يدي . قالت : « اهلا بك يا ابانا . امنحنا بركتك » لكنني غضبت دون ان اعرف السبب . سحبت يدي وصرخت : « لا ترضعي حيث يمكن ان يراك الرجال . ادخلي . »

احمرت خجلا فشدت الخمار الذي كان ملفوفا على رأسها وغطت فمها به . ثم دخلت مذعورة دون ان تنبس بكلمة . « اغمض الراهب عينيه ، محاولا بالتاكيد ان يرى المهر ويرى المرأة والقميص المفتوح . تابع . قلت له وقد لاحظت انه ظل صامتا طويلا .

- من هنا بدأ الصعود : اجاب الراهب « الدرج الصاعد - اعني الدرج النازل . لقد اتفقنا على ان تستمع الي دون ان تتكلم او تنهض للانصراف . ليس ذنبي . انه ذنب الشيطان - لا . حتى ليس ذنبه كل شي من صنع الله . يقول الكتاب المقدس انه اذا سقطت ورقة واحدة من شجرة فانه الله هو الذي يسقطها . فكيف يكون الامر حين الروح . . . اقول ذلك لاريح ضميري لكنه لا يمكن ان يرتاح خلال النهار لا يقول شيئا ولكنه في الليل ينهض ويصرخ بي . انها خطيئتك .

لقد حكيت لك عن المرأة التي كانت تقف على الباب وهي ترضع طفلها . منذ اللحظة التي رأيت فيها ثديها لم اعد اعرف الهدوء . هناك ناسك عظيم اسمه القديس انطونيوس ، يقول : ان كنت في راحة وسمعت زقزقة السنونو فان قلبك لا يظل محتفظا بهدوئه السابق . (حسن اذن ، ان كانت زقزقة السنونو تستطيع ان تلقي بقلوبنا في القلق فما الذي يستطيع ان يفعله ثدي عار لامرأة ؟ الا تنس : كنت ما ازال فتيا حين دخلت الدير ولم أكن قد عرفت امرأة من قبل . لم اقول : عرفت ؟ لم اكن قد لمست امرأة من قبل . ماذا افعل ؟ وكيف استطيع ان اتخلص من الشيطان ؟ القيت بنفسي الى الصيام والصلاة . اخذت السوط الذي يستخدم لضرب الثيران ايام الدراسة ورحت اسوط نفسي بسرعة الى ان يتحول جسدي كله الى جرح كبير . ومرة اخرى

لا جدوى • لا جدوى • ما ان ينخفض ضوء المصباح قليلا حتى ارى ثديا ابيض
يلمع في الظلام • وذات ليلة حلمت حلما رهيبا ما ازال ارتعش حين افكر فيه •
وبغثة ربط لسانه وجف فمه • لكنني طالبتة دون شفقة :

- وماذا كان الحلم ؟

جفف العرق عن جبينه والتقط انفاسه : حلمت بثدي ابيض - لم احلم
بجسد او بامرأة • ظلام حالك ووسطه ثدي ابيض وانا بردائي وقبعتي ولحيتي
مضغوط عليه ••• ارضع !

وتنهذ مثل عجل ثم صمت •

- تابع • تابع • قلت له دون شفقة ، لقد تغلبت لدي الرغبة في السماع
على اللطف والكياسة • لم يكن الامر فضولا بل كان تعاطفا مع هذا التعس
الذي كان تواقا للكلام وعاجزا عنه •

وسألني الراهب وهو يحدق الي مستطلعا : « لم انت ملحاح ؟ الا تشفق
علي ؟

- لا • اجبته لكنني بغثة احسست بالخجل • « نعم • نعم • انني اشفق
عليك ولهذا انا مصر • سترى • حالما تتحدث سترتاح » •

- صحيح ••• نعم • حالما اتحدث ساشعر بالراحة ، حسن اذن ، اسمع •
كل مساء كانت هذه المرأة التي رأيتها في اليوم الاول على عتبة الباب ، تجلب
لي صحننا من الطعام وكأسا من الخمر لعشائي ، في البدء كنت أكل لكنني
فيما بعد صرت اترك كل شيء دون ان امسه وطوال عدة ايام • وفي كل صباح
حين تأتي لاستعادة الاشياء كانت تتردد لحظة وكأنها راغبة في ان تسألني
لم لم أكل • لكنها لم تكن تجرؤ • وذات ليلة • على اية حال ••• كانت ليلة
احد وكانت مرتاحة • لم تكن قد اتعبت نفسها بالحصاد في الحقل • كانت
قد غسلت شعرها ولبست ملابس الاحد • صدارة مشدودة ذات تطريزة حمراء
كما اذكر • كان الطقس حارا في الخارج وكانت قد فتحت قميصها قليلا وظهر
انث من رقبتها • لا بد أنها كانت قد زيتت شعرها بزيت الغار حسب عادة
الريفيات • ذلك أن رائحته كانت حلوة • لا أعرف كيف • ولكنها ذكرتني
بالكنيسة يوم الفصح بعد أن كنا قد زينناها بالامس ورششنا أوراق الغار
على أرضها • كان الهباء مشبعا برائحة الغار والقيامة •

وضعت الصحن والخمرة على المائدة ثم استجمعت شجاعتها - من
يعرف لماذا ؟ لأنها كانت مستحمة ؟ لأنها كانت مرتاحة ؟ (حمام ، وبعض
الطور وزر مفتوح - هذا كله يعين المغوي على القاء شخص ما الى الجحيم)
على أية حال باستجماعها شجاعتها هذه المرة فأنها لم تخرج بل ظلت
واقفة حيث كانت •

- لم • لم • تأكل خلال الايام الاخيرة يا أب اغناطيوس ؟ سألتني وصوتها

مليء بالعطف والاهتمام • ولكي أقول الحق كانت كما لو ان ابنها لم يرضع منذ عدة أيام وكانت قلقة من انه قد يمرض •
لم أجب ، ولكنها لم تخرج ، أتعرف السبب ؟ انك ما تزال شابا ولذا فانت لا تعرف • لان الشيطان داخل رحم المرأة لا ينام • كان يشتغل •
قالت : ستدمر صحتك يا أب أغناطيوس • الجسد من صنع الله أيضا
وعلينا أن نغذيه •

تمتعت لنفسي : « ابق ورائي يا شيطان » ورفضت أن أرفع
عيني لانظر الى المرأة •
وبغثة أطلقت صرخة وكانني كفت أغرق : « اخرجي » •

خافت المرأة فركضت باتجاه الباب • ولكنني حين رأيتهما تقترب منه اتضح لي انني خائف أيضا • كنت خائفا من أن تتركني • اندفعت اليها وأمسكت بها من شعرها • كنت قد أطفأت المصباح لكي لا يراني المصلوب •
هرب الضوء • والظلمة هي مسكن الشيطان • وأنا ما أزال ممسكا بها من شعرها • ألقيت بها على السرير • كنت أخور كالعجل وكانت صامتة •
أمسكت بصدارها وسحبته وبحركة واحدة فتحت أزرار قميصها كلها •

كم من السنوات مرت منذ ذلك الحادث ؟ ثلاثون ؟ أربعون ؟ لا • ولا سنة • لقد توقف الزمن • هل سبق لك أن رأيت الزمن يتوقف ؟ وأنا رأيت •
ثلاثين عاما وأنا أفك أزرار قميصها ولا نهاية لذلك • هنالك دائما زر آخر •

أبقيتها معي حتى الفجر دون أن أسمح لها بالذهاب • يا الهي آية متعة كانت ! وأي تخفف ! وآية قيامة ! لقد كنت مصلوبا طوال حياتي وفي تلك الليلة قمت • لكن كان هناك شيء آخر • القسم الخفيف • القسم الذي اعتقد أنه يشكل خطيئتي • لهذا جلبتك هنا الى حجرتي ، لكي تحل لي اللغز • القسم المرعب هو هذا : للمرة الاولى في حياتي أحسست بالله يقترب مني ، يقترب بذراعين مفتوحتين • آية منة أحسست بها ! وآية صلوات أديتها طوال ذلك الليل حتى طلوع الفجر وبأي كمال انفتح قلبي وسمح لله بالدخول ! للمرة الاولى في حياتي - آه • لقد سبق لي أن قرأت ذلك في الكتاب المقدس من قبل ولكن تلك كانت مجرد كلمات - للمرة الاولى في حياتي اللانسانية الجافة فهمت الى آية درجة هو الله طيب ، والى آية درجة يحب الانسان ، وكلم لا بد أنه أشفق عليه لكي يخلق له المرأة ويخصها بفضل أن تقودنا الى الجنة عبر أقصر الطرق وأكثرها ضمانا • المرأة أقوى من الصلاة ومن الصوم و - سامحني - أقوى حتى من الفضيلة •

وتوقف مذعورا من الكلمات التي تلفظ بها • وانحدرت دمعتان من عينيهِ الغائرتين تحت حاجبيه وهو يلقي بنظرة متضرعة الى المصلوب •

« سامحني يا مسيحي » جأر ثم أغمض عينيه لكي لا يرى الايقونة لكنه بشكل ما استجمع نفسه فورا وفتح عينيه ونظر الي . كنت على وشك أن أفتح فمي لقول شيء ما . ولم تكن لدي فكرة عما سأقوله لكنني لم أستطع احتمال الصمت . والدموع التي ظلت تنحدر من العينين الشائختين كانت ترعيني . وقبل أن تسنح لي الفرصة للتلفظ بكلمة واحدة مد يده وكأنه سيضعها على شفتي ، قال : انتظر . لم أنته .

— عند الفجر نهضت المرأة مسرعة وارتدت ملابسها ثم فتحت الباب بهدوء وخرجت . أغلقت عيني وبدأت أبكي . وأنا مستلق في السرير على ظهري . لكن تلك الدموع لم تكن مثل الدموع المرة الحاقدة التي كنت أذرفها في حجرتي .

كان فيها شيء من الحلاوة التي لا توصف لانني أحسست بأن الله كان في حجرتي ، منحنيا على مخدتي ، وكنت واثقا من انني لو مددت يدي للمستته . لكنني لم أكن توماس المتشكك . . . لم أكن في حاجة الى ان أمد يدي لالمسه . امرأة هي التي منحتني هذا اليقين — أكرر : امرأة وليست صلاة أو صياما : امرأة ، ليباركها الله ، هي التي أدخلت الله الى غرفتي .

منذ تلك الليلة وطوال ثلاثين أو أربعين سنة أجلس وأفكر لنفسي أيمن ان تكون الخطيئة أيضا في خدمة الله ؟ ايه . أعرف ما ستقوله لي (انه ما يقوله الجميع) نعم بالتأكيد ان تبت . لكنني لم أتب . ولم أندم . أقول هذا بصراحة ووضوح — فلتنزل علي صاعقة الله ان أرادت ولتحلني الى رماد — لم أندم ولن أندم ولو أتيت لي الفرصة لفعل ذلك مرة أخرى فسأفعل .

أزاح قبعته وحك رأسه . وتحدر شعره الابيض مغطيا وجهه . وغرق في أفكاره لوهلة . وخمنت انه متردد في المضى أبعد من ذلك لكنه أخيرا اتخذ قراره .

« هل من الممكن ان لا يكون ما فعلته خطيئة ؟ وان لم يكن خطيئة فما معنى الخطيئة الاصلية ، الافعى والتفاحة المقطوفة من الشجرة المحرمة ؟ انا لا أعرف . ولهذا دعوتك الى هنا . ربما كنت تعرف . هذا ما دعوتك من أجله . انني متمسك بالحياة بما تبقى لدي من عظمين أو ثلاثة عظام . أريد ان أفهم قبل أن أموت . . . لم لا تقول شيئا ؟ يبدو لي أنك مشوش مثلي يا بني . »

ما الذي كنت أستطيع أن أقوله ؟ أكانت الخطيئة في خدمة الله ؟ هذه

أول مرة ينزل فيها علي هذا السؤال ليعذبني . أكان هناك بموازاة طريق
الفضيلة طريق آخر أعرض وأكثر يسرا هو طريق الخطيئة يمكن أن يقودنا
الى الله ؟

أجيبته : يا أب اغناطيوس . أنا ما أزال فتيا . ولم أجد بعد الوقت
لاقتراح خطايا عديدة أو للمعاناة كثيرا ولذا لا أستطيع أن أجيب على
سؤالك . ولا أريد أن أجعل عقلي قاضيا ، فأنا لا أثق به كما انني لا أثق
بقلبي . الواحد يدين دائما بينما الاخر يعفو دائما فكيف أستطيع أن أقرر
أيهما الصحيح ؟ يقول العقل ، يا أب اغناطيوس ، ان طريق الخطيئة ،
هذا الذي قلت انه يقودك الى الله ، هو أكثر امتاعا وملاءمة ، وأنا أرفض
قبوله . ومن جهة أخرى يقول القلب انه من المستحيل ان تبلغ شراسة الله
وظلمه أن يريد للانسان معاناة الشهادة والجوع والعري والضعف . بمعنى
آخر هل المجانين والمحطمون جسديا هم وحدهم القادرون على الدخول الى
بيته ؟ أنا أرفض قبول هذا . وهكذا فانك ترى يا أب اغناطيوس ايه
نتيجة أصل اليها حين أومن ان الرأيين صحيحان !

بينما كنت أتكلم كنت أفكر لنفسي دون النطق بأفكاري . المطلوب
وصايا جديدة ، وصايا جديدة ! أما كيف ستصنف هذه الوصايا الفضائل
والرذائل فهو ما لم أعرفه . وكان ما رحمت أقوله لنفسي مرة بعد أخرى :
وصايا جديدة . وصايا جديدة مسألة ضرورية جدا . ولكن من سيعطينا
اياها ؟

بدأت النافذة الصغيرة في الحجرة تضاء بضوء صغير ومن باحة الدير
بدأت تصل الضربات الايقاعية للسمانترون الخشبي وهو ينتقل من حجرة
الى أخرى داعيا الرهبان الى صلاة الصبح .

ونظر الاب اغناطيوس الى النافذة . ثم تتمم مندهشا : « بزغ الفجر ،
بزغ الفجر ... »

وانسحب الى زاوية وانحنى متأوها من الالم في ظهره وتناول ابريق
الزيت الصغير ثم توجه الى الصليب وسكب قليلا من الزيت في المصباح
الموجود أمامه . وتلقى اللهب الصغير دفعة جديدة من الحياة فتوهج وجه
المسيح وأضيئت القسامات الصفراء المتوجعة وقطرات الدم المتساقطة من
تاج الشوك على الحاجب والخدين .

وسمر الراهب عينيه على هذا الوجه مدة طويلة ثم تنهد والتفت الي :
« باختصار ، أليس لديك أي جواب لي ؟ لا شيء ؟ » كانت نبراته ساخرة

أو هكذا بدت لي • نهضت عن المقعد ووقفت الى جانب الراهب ورحت أحرق معه الى المصلوب • كنت متعبا ونعسانا أجبته : « لا شيء ا »

قال الراهب : « حسن • لا يهم • » وتناول أمتعته من الزاوية للذهاب الى صلاة الصبح • ثم عاد مرة أخرى الى مواجهة الايقونة ليقدم لها احترامه • وأضاء وجهه الداوي والخالى من الحياة تحت ضوء المصباح • ثم رفع اصبعه مشيرا لي نحو المصلوب وقال : « هو أعطى الجواب • »

وفي اللحظة ذاتها قرع باب الحجرة وجاء صوت ينادي : « يا أب اغناطيوس ا » وأجاب الراهب : « قادم يا أبانا المقدس » ثم سحب ثوبه •



حين أقلب صفحات دفترتي يتضح لي ان لا شيء يموت • كل شيء ينام في أعماقي • وما هو كل شيء يستيقظ الان وينهض من الصفحات الممزقة ونصف المطلسة ليصبح من جديد أديرة ورهبانا ولوحات وبحرا • وصديقي أيضا هو الآخر ينهض من التراب مثلما كان في ذلك الحين ، أنيقا في زهرة شبابه وضحكته الهوميرية وعيناه الزرقاوان الصقريتان وصدوره المليء بالقصائد ا كان يعطي الناس أكثر مما يستطيعون أن يأخذوا وكان يطلب منهم أكثر مما يستطيعون أن يعطوا • ومات مهجورا وحزينا حين لم يبق لديه شيء سوى الابتسامة المرة لروح جريحة ذات كبرياء • كان نيزكا قهر الظلمة لوهلة ثم تلاشى • هكذا سلتلاشى جميعا وهكذا سلتلاشى الارض أيضا • غير أن هذه الحقيقة لا تقدم أي عزاء كما انها ليست تبريرا له (لله) ذلك الذي يخلقنا ويدمرنا •

ظللنا نتجول في الجبل المقدس أربعين يوما وحين أكملنا دائرتنا عدنا اخيرا الى دافنة مساء عيد الميلاد لكي نرحل وكانت تنتظرنا اكثر المعجزات مفاجأة وحسما • فعلى الرغم من اننا كنا في عز الشتاء الا انه كانت هناك شجرة لوز مزهرة في حديقة صغيرة متواضعة •

أمسكت ذراع صديقي واشرت للشجرة المزهرة • قلت له : « انجيلوس ا طوال رحلتنا هذه كانت قلوبنا تتعذب بأسئلة معقدة • والان هاك الجواب ا • »

ثبت صديقي عينيه الزرقاوين على شجرة اللوز المزهرة ورسم على نفسه شارة الصليب وكأنه يقدم احترامه وصلاته امام ايقونة مقدسة صانعة للمعجزات • وظل فترة طويلة دون ان يتكلم • واخيرا قال ببطء شديد •

- « تصعد الى شفتي » ، قصيدة صغيرة موجزة ، هاي كاي ا »
• وتطلع ثانية الى شجرة اللوز .



قلت لشجرة اللوز:
حدثيني عن اله يا اخت
• فأزهرت شجرة اللوز .

٢٠ - القدس

حين عدت الى وحدتي من جديد اغمضت عيني وسألت نفسي عما تبقى لي اخيرا من الجبل المقدس . من المتع العديدة والتجارب المثيرة ومن الاسئلة الوفيرة التي عذبت صديقي وعذبتني ، ما الذي ترسب في اعماقي ؟ وما الذي كنت ابحت عنه حين ذهبت الى الجبل المقدس ؟ وما الذي وجدته هناك ؟

الجراح القديمة التي اصبت بها خلال بلوعي ، حينما افشى لي معلمي السرين العظيمين ان الارض ليست مركز الكون وان الانسان ليس مخلوقا متميزا نازلا مباشرة من يد الله ، تلك الجراح القديمة التي برئت سنوات طويلة نكثت من جديد على الجبل المقدس - العذابان الميتافيزيقيان : من اين جئنا ؟ والى اين نذهب ؟ احد الجوابين قدمه المسيح . جلب بلسما اشفى جراحا عديدة . ولكن اكان في وسع هذا البلسم ان يشفي جراحي ؟ لفترة قصيرة استطاعت صلوات الصباح والسمانترون والتراتيل والرسوم - الايقاع القدسي لحياة النساك - ان تهديء كربى . وبالتعرف على كفاح المسيح من جهة احسست ان كفاحي قد تزود بالشجاعة والحلاوة والامل . ولكن السحر سرعان ما تبدد ووجدت روحي نفسها مرة اخرى مهجورة . لماذا ؟ ما الذي كان ينقصها ؟ ومن الذي كان ينقصها ؟ وما الذي كانت روحي تبحث عنه حين ذهبت الى الجبل المقدس ؟ وما الذي فشلت في العثور عليه هناك ؟

بمرور السنين بدأت شيئا فشيئا اهمس بانني ذهبت الى الجبل المقدس بحثا عن شيء ما كنت ابحت عنه خلال حياتي : صديق عظيم او عدو عظيم ، ليس من مقامي بل اكبر مني ، يمكن ان يخوض الكفاح الى جانبي . ليس امرأة وليس فكرة . بل شيء اخر . شخص اخر . كان هذا هو الشيء ، او الشخص ، الذي ينقص روحي ولهذا كانت تحس بانها تفتنق .

وبعد ذلك فقط ، وليس اثناء وجودي هناك ، ادركت انني فشلت في العثور على هذا الشخص على الجبل المقدس . وانني لأتساءل عما اذا كانت هذه هي شجرة رحلني كلها على جبل آثوس ؟

الشيء الوحيد الذي وجدته وانا اطوف الجبل المقدس كان داعية متمرسا (او هكذا بدا لي في البداية) يمد كفيه المجرحتين للرهبان الذين يعبرونه . وكان الدم يقطر من قدميه الحافيتين ووجنتاه غائرتان جوعا ، وثبابه ممزقة يظهر منها جسده الهزيل . كان يقرع كل باب وهو يرتعش وعيناه مغرورقتان بالدموع ولكن احدا لم يقبله . كان يطرد من دير الى دير . والكلاب تجري في اثر رداءه الممزق وهي تنبح . رأيت ذات مساء جالسا على حجر وهو يحدق الى البحر المقفر . اختبأت وراء شجرة تنوب ورحت اتلصص عليه . ظل صامتا فترة طويلة وحين عجز عن السيطرة على نفسه اكثر من ذلك صرخ بغتة : « للثعالب جحور وانا لا املك مكانا اسند عليه رأسي » . واختارقت عقلي ومضة . لقد عرفته (١) وركضت لأقبل يده . لقد احببته حين كنت طفلا صغيرا واحببته منذ ذلك الحين . وانا الان ابحت عنه في كل مكان ولكنه اختفى . ولا حساسي بالغبن جلست على الحجر الذي كان يجلس عليه . اه لو انني ، فقط ، استطعت ان افتح له قلبي لعله يدخله ولا يظل يتشرد بردان دون بيته . فكرت في الفيلسوف بروكلوس ، الذي عاش في الوقت الذي لم يعد فيه الناس يؤمنون باللهة الاولمب وراحوا يتنكرون لها . نام بروكلوس في كوخ على سفح اكروبوليس . وبغثة سمع في منتصف الليل شخصا يقرع بابه . قفز وركض ليرى من الطارق فرأى اثينا واقفة بأبهتها الكاملة على عتبة . قالت له : « يا بروكلوس . اينما ذهبت يرفضون استقبالني . لقد جئت ملتحثة الى جبينك » .

كم ارغب لو ان هذا المسيح ، بطريقة مشابهة ، يستطيع ان يلتقي الى قلبي !

وبعودتي من جبل آثوس شعرت للمرة الاولى ان المسيح يتجول جائعا شريدا او اته في خطر وان دوره الان لكي يخلص - من قبل الانسان -

هيمز علي حزن وحنو شديدان . ولعدم رغبتني في العودة الى حياة الاعة والراحة سلكت طريقا ورحت امشي اياما واياما عبر الجبال المقدونية الى ان عثرت على قرية صغيرة كئيبة معتمة وبائسة - زرائب مغطاة بالروث ، وقطيع من الاطفال والخنازير الملوثة بالوحل . نظر الرجال الى بوجوه مقنبة وحين حييتهم لم يجيبوا . اما النساء فصفقن ابوابهن حاملا رأينني .

(١) الضمير مكتوب بحرف كبير HIM وهذا يعني انه المسيح او الله .

قلت لنفسي ان هذا هو المكان الملائم لي . هنا ، يا روجي ، في هذه القرية المخيفة وبين هؤلاء الناس المخيفين ستبتئين قدرتك على الاحتمال . لم يفارق الداعية الجريح بالي . ولانني كنت اريد ان اذل جسدي قررت ان اقضي الشتاء في هذه القرية .

وبعد مشكلات لا نهاية لها نجحت اخيرا في جعل راع عجوز يفهم انني لست مجرما ولا ماسونيا ولا مجنونا . وقبل ان يؤجرني زاوية من كوخه وان يقدم لي بعض الحليب والخبز كل يوم . وهناك لتوفر الكثير من الخشب جلست اقرا امام النار . لم يكن معي اي شيء باستثناء الاناجيل وهو ميروس . ورحت اقرا كلمات المسيح عن الحب والتواضع حينما واقرا حينما احر الاشعار الخالدة لشيخ اليونانيين وابيهم . يجب ان تكون طيبا ومسالما وصبوراً ، واذا صفتت على خذك يجب ان تدبر الاخر ، لا قيمة للحياة على هذه الارض ، الحياة الحقيقية هي تلك التي في السماء - هكذا كان الاول يامر . يجب ان تكون قويا ، ويجب ان تحب الخمر والنساء والحرب . يجب ان تقتل وتقتل لكي ترفع عالما كرامة الانسان وكبرياءه . احب هذه الحياة الدنيا ، عبد حي افضل من ملك في هيدس - هكذا كان يامر الثاني ، جد اليونان .

وبرز الاكيون (١) على حافة عقلي ، الاكيون بانوفهم الضخمة ، بدروع سيقانهم ، باقدامهم الكبيرة القاسية ، وبافخاذهم المتسعة ، بلحاهم المدببة ، بشعورهم كثرة الطويلة المزفرة ، بروائح الخمر واليوم التي تفوح منهم . وكانت هناك مياين تنجون خالدة غير بدنة على الجدران بهيئة ونقية في الضوء وأخمصا قدميها المنوستين فقط مضرجان بالدم ، والكلية ، المتوجون بجلال في الغيوم ، يتخضون وقتهم بالتفرج على البشر وكل منهم يذبح الاخر .

هنا في عزلتي هذه اتلعت اذني ورحت اصغي الى السيرانتين (٢) . كنت استمع اليهما معا . برائتهما متفرزة في احشائي . وكل منهما كانت تسحرني واكنني لم اكن اعرف اني من شبحي مائين السيرانتين ساقدم عقامسي .

التلج في الخارج وانا اتطلع من النافذة الصغيرة واراقب نتف الثلج المتساقطة على قبح القرية . كل صباح تمر قطعان الغنم وتوقظني

(١) Achacans اهالي اكايا او اليونان القديمة .

(٢) كائنات اسطورية لها اجساد طيور ورؤوس نسوة كانت تسحر الملاحين بغنائها ... وهنا يقصد المسيح وهو ميروس .

بأجراسها • وكنت أقفز من الفراش وأتسلق معها الدروب المغطاة بالثلج متبادلا بضع كلمات مع الراعي حول موضوعات الفقر والبرد والاعناب التي تموت • عمري لم أسمع راعيا يتحدث عن أي شيء بهذا الرضى ، لا شيء أكثر من الفقر والبرد والاعناب التي تموت •

ذات يوم كان كل شيء مغطى بفراش ناصع من الثلج وبدأت أجراس القرية تدق حدادا • لا بد أن شخصا ما قد مات • كان القرويون معتصمين داخل بيوتهم وقد اوضدوا ابوابهم • وبين حين وآخر يحرك الهواء الساكن جرس بغل • ومن نافذتي استطيت أن أرى الغربان الجائعة وهي تطير جيئةً وذهابا • كنت قد أشعلت ناري وضمني الدفاء ، في عناق حنون مثل أم • أحسست أن سعادتي كاملة • ولكن عند ذلك ، بغتة ، وكان الفرخ خيانة وخطيئة كبرى تفجر البكاء في داخلي - بكاء هادئ يائس وحنون مثل أم تغني تهويدة لابنها الميت •

لم تكن هذه المرة الأولى التي اسمع فيها هذا البكاء الداخلي • كلما أحسست بالحزن ازداد لطفا حتى ليبدو لي كظنين النحل البعيد • وكلما أحسست بالسعادة تفجر هائجا • وقد اعتدت أن اصرخ خائفا : « من الذي يبكي في داخلي ؟ ولأي سبب ؟ وبماذا أخطأت ؟ » •

حل الليل • وبينما كنت أهدق إلى النار راح قلبي يقاوم • لقد رفض أن ينضم للمناحة • لم علي أن أبدأ العويل والنواح ؟ لم يكن هناك حزن كبير يسحق روحي • لدي الهدوء والدفاء ، والهواء الفلاحي في البيت تفوح منه رائحة السفرجل والقصعين • وكنت جالسا امام الموقد أقرأ هوميروس - كنت سعيدا • وصرخت « أنا سعيد • ما الذي ينقصني ؟ لا شيء ! أذن فمن أو ما الذي يبكي في داخلي ؟ وماذا يريد ؟ وماذا يريد مني ؟ » •

للحظة خيل الي انني سمعت قرعا على الباب • نهضت فلم أجد احدا • كانت السماء صافية تماما والنجوم تلتمع كالقلم المشتعل • انحنيت وتفحصت الطريق المغطى بالثلج تحت ضوء النجوم لأرى ان كنت استطيت ان اتبين بالصدفة آثار اقدام بشرية • لا شيء • اتلعت اذني ورحت اصغي • كان هناك كلب ينبج مكتئبا في طرف القرية • لا بد انه رأى كارون يطوف على الثلج • لقد سقط منذ يومين في المسيل راع عجوز ولكنه قوي ويبدو انه خالد وظل طوال هذا اليوم وهو يسلم الروح والقرية كلها تخور متوجعة من الغرغرة الراجعة لنزاعه الاخير • انه الان صامت • ولا شيء يسمع الا النواح النابح لكلبه •

لا بد انه مات ، قلت ذلك لنفسى وانا ارتجف • اغضبني الموت •

فالكلمات المعزية حول المجيء الثاني والوجود في المستقبل ما تزال عاجزة عن
خداعي . ولكن ، من جهة اخرى ، لم تصبح لدي القوة بعد على محابته
الموت دون خوف .

غرقت مرة اخرى في هوميروس وكأنتني ابحت عن الامان عند ركبتي
الجد العجوز . وبدأت الاشعار الخالدة تتدحرج كالامواج من جديد وتتكسر
على صدغي . عبر القرون رحلت اسمع الضجة التي يثيرها الآلهة والبشر
وهم يغيرون برماحهم . ورأيت هيلين وهي تمشي الهوينا على الاسوار
الطروادية يحيط بها عجايز المدينة ، وحين رأيتها رحلت اجاهد لانسى . ولكن
افكاري كانت مركزة على الموت . قلت لنفسني : أه لو أن قلب الانسان يكون
كلّي القدرة ، قويا الى درجة يستطيع معها مصارعة الموت لو انه كان
مثل مريم المجدلية - مريم المجدلية البغي - ويستطيع ان يبعث الجثة
المحبوبة .

أحسست بقلبي مترعا . وأسفاه ا كيف استطيع انا ، بدوري ، ان
ابعثه (1) وأجد الراحة ! وادركت ان المهدد ميتا في احشائي ، هو الذي يظل
يبكي . كان يجاهد لكي ينهض لكنه لا يستطيع دون معونة الانسان وعلى
هذا الاساس يحس بمقت كبير نحوي . كيف استطيع ان اخلصه - واخلص
نفسي ؟

لو كان جدي لنشر شرع مركبه وابحر الى المضائق ليصادم مراكب
الأتراك ذلك لانه يرى ان الأتراك واليهود يشتركون في مسؤولية صلب
المسيح . كان بهذه الطريقة سينفت من غضبه ويجد الراحة . ولو كان ابي
لامتطى فرسه وهاجم بالطريقة ذاتها الكفرة وعاد من المعركة ليلا ليعلق
العمامات الملتخة بالدم لاعداء المسيحية على الفاصل الايقوني في بيتنا
تحت ايقونة المصلوب . بهذه الطريقة كان ، ايضا ، سيجد الراحة . وعلى
طريقته سيحس بالمسيح وقد بعث في قلبه . نهاية الامر ان ابي كان
مجاربا وكانت الحرب طريقته في تحقيق الخلاص وتلقيه .
ولكن ما الذي استطيع انا ، حثالة الذرية ، ان افعله ؟

عاليا في جبال كريت يحدث احيانا ، ونادرا جدا ، ان يولد مخنث في
عائلة من الغيلان . ويتطلع اليه الاب العجوز ثم يتطلع اليه ثانية ولا يستطيع
ان يفقه شيئا . كيف استطاع الشيطان ان يخرج هذه النفاية ، هذه
الهشاشة ، من صلبه ؟ ويدعو ابناؤه الوحوش الاخرى التي انجبها ، الى

(1) الضمير بحرف كبير ، الحديث عن المسيح او الله .

اجتماع لكي يروا رأيهم فيه . « انه عار على ذريتنا » يزار العجوز « ما الذي سنفعله يا اولاد ؟ لن يستطيع ان يكون راعيا ، اذ كيف له ان يثب على القطعان الاخرى ليسرق ؟ ولن يستطيع ان يكون محاربا فسيشوق عليه ان يقتل . انه وصمة على صلاتنا فلنعمل منه استاذ مدرسة ! » .

وانا للاسف ، كنت استاذ المدرسة في عائلتنا . ولكن لم الاحتجاج ؟ يمكنني ان اتاقلم مع الامر . ومهما بالغ اسلافي في احتقاري فان لدي انا الاخر اسلحتي وسوف اذهب الى الحرب .

كان الثلج يهطل خارجا . وكان الله لرحمته يغطي عدم اتساق العالم بثلجه . والخرق التي علقها على السياج المحيط بالزريبة المقدونية التي كنت اقطن فيها قد تحولت الى فرو ابيض ثمين . والاشواك الوسنانة قد ازهرت كلها . بين حين واخر تسمع بكاء طفل او نباح كلب او صوت رجل ، غير ان كل شيء يفرق في الصمت من جديد ثم لا تعود تسمع شيئا الا الصمت ، صوت الله .

القيت يعود في النار وكمشة من أوراق الغار لكي اعطر الهواء ثم انكبت على هوميروس من جديد . لكن افكاري لم تعد متعلقة بالاكيين او الطرواديين او آلهة الاولب . كان المشهد المغسول بالشمس يرفرف امام عيني كالفراشة ثم يختفي . ومرة اخرى سمعت احشائي تبكي .

كان يستلقي في القبر منتظرا ان يهرع الحواريون ويدخلوا الضخرة ويجثموا في القمة وينادوه بينما هو ينهض ثانية الى الارض . لكن احدا لم يأت . ولا حساسه بالغبن بدأ يبكي .

وبينما انا احق الى اللهب المتفائل رأيت الحواريين المشبعين بالالم محتشدين في العلية « مات الربان . مات » . كانوا ينتظرون هبوط الليل لكي يغادروا القدس ويتفرقوا . لكن امرأة قفزت . هي وحدها رفضت موته لأن المسيح قد قام في قلبها . وحافية القدمين شعثناء الشعر نصف عارية راحت تركض نحو القبر مع بزوغ الفجر ولانها متأكدة من انها ستسرى المسيح فقد رآته . ولثقتها بأن المسيح قد بعث فانها بعثته وصرخت : « يا ربان » وسمع الربان صوتها في قبره ، انحنت على قدميه ورآته عند الفجر يمشي على عشب الربيع .

امتلا عقلي بصورة البعث هذه . واثقلت جفني حمى خفيفة بالغة الحلاوة وبدأ الدم يتدفق حاميا الى صدغي . وكما يحدث حين تهب الرياح قوية وتبعثر الغيوم ثم تتوحد من جديد وتتشكل بشرا وحيوانات وسفنا ،

كذلك وبالطريقة ذاتها ، في اعماقي وبينما انا جالس قرب النار هب عقلي
فتفككت الرؤيا في داخلي ثم تحولت الى وجوه بشرية ملفعة بالتوق والريح •
لكن هذه الوجوه سرعان ما تتبعثر في حلقات كالدخان داخل رأسي ما لم
تات الكلمات - في البدء مرتعدة ومتردة ثم بالتدرج تصبح اكثر عظمة
وثقة - لتبلور ما يمكن بلورته ، وفهمت : الريح المنوية المولدة التي هبت
في اعماقي اصبحت مادية وصارت جنينا وهو الان يرفس رغبة في الظهور •

أخذت قلبي وبدأت اكتب لكي اريح نفسي - لكي الـ
لم أبدا من البداية • المجذلية اول من قفز ، كانت خائفة مبللة بالدموع
وشعرها مشعث • لقد استيقظت مذعورة قبل الفجر • لا بد انها رأت الثبان
في حلمها • وكما يجذب الصياد فريسته بدأت تناديه :

آه ، كم هو مدهش ، لا أستطيع
ان ارفع رأسي • الهواء مفعم بالشذى
انهض ، يا قلبي ، واضرب الارض لتجبرها على ان تفتح
كتفاهي الدنيويتان تطفران كجنحين
لكن الفجر يبطن في المجيء ، والجسد ، آه ، ثقيل جدا •
لا تتعجلي يا روح قبل ان ارتدي ملابسي واذهب
انظري • انني البس كعروس وأتأنق
لقد حنيت راحتني وقدمي
وكحلت عيني بكحل مشعشع
وبقعة جمال تصل حاجبي
لانني كما احب الارض
فان السماء المجلجلة
تضرب صدري بلطف
وحين انحنى
اقبل (الكلمة) بفرح وهزن
كما لو انها رجل
وعندما اصل الى قبرك الحبيب اخيرا
عبر دروب مشكولة بالورد
يا مسيحي
مثل امرأة هجرها حبيبها
سأتمسك بركبتيك الشاحبتين
لكي لا تتركني ابدا •••
سأتحدث وانا امسك بركبتيك الشاحبتين
ورغم ان الجميع ينكرونك ، يا مسيحي
لكنك لن تموت

لانني احتفظ في صدري بماء الخلود
 اقدمه لك
 فتصعد مرة اخرى الى الارض
 وتتمشى معي على المروج
 ساغني كعصفورة ملتاعة حبا
 تحط على غصن شجرة اللوز
 ايام الثلج وهي تغرد منتشية
 ومنقارها مرفوع نحو السماء
 الى ان تزهو البراعم على اغصانها .

لم استطع النوم . كنت على غاية من العجلة . فطالما ان الوجوه قد
 تصلبت لوهلة قانني كنت اريد ان اخذها في وقتها - الحواريون والمجدلية
 والمسيح ، الضباب الذي يصبح ماديا ، والكذبة التي تصبح حقيقية ، والروح
 التي تغني من عشها القائم على أعلى اغصان الامل - وأثبتتها الى الابد
 بكلمات متينة وقوية .

وفي نهاية ايام وليالي قليلة كانت مخطوطة المسرحية كلها على ركبتي .
 أمسكتها بقوة ، تماما كما تمسك الام ابنها بعد ولادته .
 بدأ الصوم الكبير واقترب عيد الفصح . وبدأت اتمشى في الحقول .
 لقد تحول العالم الى جنة وراحت ثلوج الالوب تتلامع تحت الشمس بينما
 الحقول من تحت خضراء زاهية والسننونات العائدة ، مثل مكوك النول ،
 تنسج الربيع في الجو . وبدأت زهور برية صغيرة صفراء وبيضاء ، تدفع
 التراب برؤوسها الدقيقة ، وتظهر تحت ضوء الشمس لكي ترى العالم
 الذي فوقها . لا بد ان شخصا ما قد أزاح عنها حجارة القبور الارضية : كانت
 تحقق قيامتها . شخص ما ؟ من ؟ لا بد انه الله ، الله ذو الوجوه التي
 لا تحصى : احيانا هو وردة و احيانا عصفور او زغف طازج من دالية و احيانا
 اخرى قمح .

وبينما حس اتمشى عبر الحقول المزدهرة قام دوار لطيف بتحويل
 الزمان والمكان من حولي . بدا لي انني اسير في فلسطين وليس في اليونان .
 واستطعت ان اتبين الآثار الطرية التي تركتها قدما المسيح على تراب الربيع
 الخفيف وحولي تسمو جبال الكرمل وجيلبوا (1) وتابور المقدسة . ولم تكن
 هذه سويقات القمح الناهضة من الارض الى ان تصبح بطول الرجل بل هي
 المسيح ينهض من قبرة . وهذه ليست شقائق النعمان الحمراء بل هي الدم
 المقدس للمسيح .

(1) Gilboa.

سأل احدهم مرة الربابي نعمان : « ما الذي تعنيه حين تعظ بأننا يجب ان نذهب الى فلسطين ؟ لا شك ان فلسطين مجرد فكرة ومثل أعلى يجب ان تبلغه ارواح اليهود ذات يوم » . غضب نعمان فالقى بأمتعته على الارض وصرخ : « لا ، لا ، لا . حين اقول فلسطين فأنا اعني حجارتها وخضرتها وترابها . فلسطين ليست فكرة . انها حجارة وخضرة وتراب . والى هناك يجب ان نذهب ! » .

قلت لنفسى والى هناك يجب ان اذهب . لكي ارى وأمس جسدي فلسطين الحار وليس الاكتفاء بالاستمتاع بها في حياتي وانا اتمشى على جبال اليونان وحقولها ، ان اتنفس الهواء وأدوس على الارض وأمس الحجارة ، التي تنفسها المسيح وداسها ولمسها ، ان اتبع قطرات الدم التي رسمت طريقه بين البشر . نعم يجب ان ارحل . ربما استطعت ان اجد هناك ، في فلسطين ، ما كنت ابحث عنه عبثا في الجبل المقدس .

مرة اخرى هبت رياح الرحيل في عقلي . الى متى ستظل تهب ؟ حتى الموت ان شاء الله ؟ اية متعة ان تنطلق من ارض جافة وترحل . ان نقطع الخيط الذي يربطنا باليقين ونرحل . ان نتطلع وراءنا ونرى الجبال والناس الذين نصبهم يتضاءلون في البعد .

اسبوع الآلام يقترب . وفي المسيحية كلها سوف يصلب المسيح وسوف تنكأ الجراح الخمسة الخالدة وسوف يأتي القلب - مريم المجدلية - مرة اخرى للصراع مع الموت . ما الذي يحدث حين يكون لرجل قلب طفل ويستطيع ان يقاسي خلال هذه الايام : يعجز عن الأكل او النوم او كفكفة دموعه حين يرى في صلوات العيد جسد شجرة الليمون المزهرة لالهة تذوي على الصليب ؟ واية سعادة اكبر مما لديه حين يحب فتاة والربيع يدخل من نوافذ الكنيسة المفتوحة ، وقد تواعدا على اللقاء ظهر الجمعة الحزينة لكي يتباركا معا بتقبيل قدمي المصلوب ثم لكونه ما يزال فتيا يرتعش خوفا لانه يعتقد انه يقترب اثما باجتماع شفثيه بشفتي امرأة على جسد الله .

اغلقت هوميروس وقيلت يد الجد الخالد دون ان اجرؤ على رفع رأسي والتطلع في عينيه . كنت خجلا وخائفا امامه لانني كنت اعرف تماما انني اخونه في تلك اللحظة بتركه ورائي واخذ عدوه الكبير معي : الانجيل .

لم تكن الارض قد استيقظت بعد ولا السماء - ديك على السطح فقط يمد رقبتة الى الشرق وينادي الشمس (لقد طال الليل كثيرا !) داعيا اياها للظهور .

وكما لو انني كنت خائفا من ان يسمعي الجد العجوز فتحت الباب
متسلا كلكم وسلكت الطريق الى المرفأ لكي ابصر . كانت قد وصلت
حشود من الرجال والنساء قادمة من قراها لكي ترحل ، مثلي ، الى فلسطين
ولكي تؤدي فروضها على القبر المقدس . ولن أنسى مساء يوم الرجيل -
العذوبة والحلاوة والحنو ! كان هناك رذاذ خفيف رحيم . ولو انك رفعت
رأسك ونظرت الى السماء لرأيت وجه الله مغطى بالدموع .

وعلى القارب نفسه مدت بطانيات ولحف ملطخة بالشحم وبالوان
متعددة على أرضه . ومجموعات من العجائز اللواتي يفتحن سلالهن
ويمضغن . كان الهواء مشبعاً برائحة بيوض السمك والبصل . وفي الوسط
وقف رجل عجوز بخدين متوردين وشعر طويل أشيب . وبينما هو يؤرجح جذعه
الى الامام والوراء كان يقرأ قصة المسيح بصوت عال منغم - حياة المسيح
والآمه : كيف جاء العريس الى القدس ، وبعد ذلك كيف أكل المسيح وتلاميذه
من العشاء الرباني المر وكيف غادر التلميذ الخائن مسرعا وكيف تسلق يسوع
جبل الزيتون والعرق يتصبب من جبينه « كقطع من الدم المتخثر » .

وتنهدت النسوة العجائز صغيرات الحجم والملفات بالسواد وهززن
رؤوسهن بتأثر عميق دون ان يتوقفن عن المضح بهدوء وصمت كالأغنام .
كان الله في قلوبهن البسيطة يكتسي مرآة اخرى باللحم ويصلب وينقذ البشر .
وكان راع فتي ، يدير ظهره للعجائز يصفى باهتمام وهو ينحني وسكينه
في يده لينحت رأس عصفور على مقبض عصاه .

وبغثة حين جفف الظمأ خلق المسيح الى درجة لا تحتمل وصرخ :
« عطشان ! » قفزت امرأة ، فتية ممتلئة قليلا ، بهياج مسعور وصرخت :
« آه يا ولدي ! » كم انفعلت حين سمعت صرخة المرأة العميقة الامومية ،
حين سمعتها تدعو ربها نفسها ابنها .

تركنا بحر ايجة وراعنا ورحنا نقترب من الشرق الادنى . افريقيا ظاهرة
للعيان على يميننا وقبرص من يسارنا على الافق . وكان البحر المتأجج
يلتمع . حومت فراشتان على الاشرعة . وعصفور صغير جائع يتبعنا اندفيع
الى الامام واكل احدى الفراشتين . وحين بدأت فتاة شاحبة ضعيفة تصرخ
محجة قال لها أحدهم : « انسي ذلك . هكذا يجب ان تسير الامور . اتظنين
ان الله امرأة ضعيفة ؟ »

كنا نقترب من الارض المشوية بالشمس ، حيث ذات يوم شب لهب
من كوخ فقير في الناصرة ، لهب احرق قلب الانسان وجدده . الحياة اليوم
في دالة من التفسخ مرة اخرى تماما كما كانت قبل الفتي سنة ، لكن المشكلات

التي تبدد التوازن القائم بين العقل والقلب هي الآن أكثر تعقيدا والطلول
 أكثر صعوبة ودموية . في ذلك الحين وجدت رسالة بسيطة تتمتع بحلاوة
 هائلة . وبرز الخلاص على وجه الارض كفصل الربيع . لم يسبق ان وجدت
 رسالة ابسط منها ولا اهلئ . ربما كانت تلك الرسالة قادرة على تخليصنا
 حتى اليوم - من يدري ؟ لهذا نحن ذاهبون الى القدس : لكي نستمع مرة
 اخرى الى ابن مريم .

كان الوقت ليلا . وتمددت على سطح القارب لكي انام ، ولكن جدلا
 عنيفا بدأ يحتدم في العنبر واعطيت اذني . شخص ما ، يبدو من صوته انه
 شاب ، كان يدين بعنف الحياة الاقتصادية والاجتماعية الحالية بظلمها
 وتضليلها . الجماهير تجوع بينما العظماء والاقوياء يكدسون الثروات .
 النساء يبعن انفسهن ، والكهنة لا يصدقون . الجنة والجحيم كلاهما هنا على
 الارض . الحياة الاخرى غير موجودة . هنا علينا أن نجد العدل والسعادة .
 وتصاعدت الصرخات : « نعم ، نعم ، انت على حق ا » « النار والفأس » .
 شخص واحد فقط حاول ان يعترض . استطعت ان اميزه من تنغيمات صوته
 فهو الشماس الذي يسافر معنا . لكن صوته كان يضيع وسط الصرخات
 والضحكات .

نهضت عن وسادتي ورحت استمع بشغف . عنبر هذه السفينة كان
 يبدو مثل مقبرة جديدة يجتمع فيها العبيد مرة اخرى - عبيد اليوم - يتأمر
 لنسف العالم من جديد . كان امرا مخيفا . فهدف رحلتنا هو ان نتعبد
 لوجه الله الحلو الليف - بلطف زائد وعذاب كبير وامتلاء بالامل في الحياة
 الخالدة . كانت النسوة الصغيرات العجائز قد جلبن له خبزا منذورا ، ونذورا
 فضية وشموعا ودموعا وصلوات . بينما في الدرجة الاولى كان عديمو الايمان
 السعداء يتحدثون في السياسة او ينامون . بينما هنا في الاسفل ، وفي اعماق
 العنبر ، كنا نحمل ، كهدية رهيبة ، بذور نظرية كونية (1) جديدة وخطرة
 وغير متشكلة نهائيا بعد .

كان العالم الحبيب المقدس في خطر ، وعالم اخر ، قاس مكون من الوحل
 والنار ينهض مليئا بالحياة من الارض ومن قلب الانسان . وهو مختبئ
 في اعماق العنبر من كل سفينة كان يشتريها ويرحل .

في صباح اليوم التالي بدأنا نرى الارض الموعودة - خط بعيد على الافق
 في البدء غير واضح بسبب الغيم الحليبي ثم الجبال المنخفضة في

(1) Cosmogony.

اليهودية (١) شهباء في البدء وبعد ذلك زرقاء فاتحة واخيرا تتلاشى غارقة في ضوء النهار القوي نهضت العجايز وجمعن صررهن معا ولففن مناديلهن على رؤوسهن ثم بدان يرسمن شارات الصليب ويبيكين .

رمل وحدائق غناء ونساء سمراوات بدينات وصبان ونخيل ، وصعود الى المدينة المقدسة في باصات لاهثة . وبغثة اخذ كل قلب يخفق بعنف . جدران وشرفات مفرجة (٢) وبوابات محصنة وروائح روث وتوابل وفواكه متعفنة . جلابيب بيضاء واصوات قاسية حلقيه . ونهضت من التراب ظلال الانبياء المقتولين كلهم ، وعادت الحجارة الى الحياة وراحت تصرخ وهي مضرجة بالدماء .

القدس ١ .

لا ارغب في تذكر اسبوع الالام ولا اجرؤ . خلال تلك الايام السبعة اتضحت اخيرا مغامرة الانسان المأساوية كلها - الامل والحب ، الخيانة والتضحية ، والصرخة : « الهي يا الهي لم تخليت عني ؟ » ليس المسيح بل الانسان - كل انسان عادل ونقي - يخان ويساط ويصلب دون ان يمد الله يده لمساعدته . والحقيقة انه لولا وجود قلب المرأة العطوف لكان الله قد ترك الانسان في القبر الى الابد . خلاصنا معلق بخيط ، بصرخة حب .

ليلة بعد اخرى حتى الوصول اخيرا الى الفجر المقدس ليوم الفصح . كانت كنيسة القيامة تضج كخلية نحل هائلة . وكان الجو مشبعا برائحة الشمع وعرق البشر - الابطاط المتعركة البيضاء والسمراء والسوداء لرجال ونساء ناموا تلك الليلة تحت قباب الكنيسة منتظرين اللحظة الخالقة للكون التي فيها سينبعث النور المقدس من ضريح المسيح . في كل مكان الرائحة الواخزة العميقة للشمع والزيت الزنخ . وتحت الايقونات المقدسة تغل القهوة في اوعية صغيرة والامهات يعرين صدورهن لارضاع اطفالهن . ولا بد ان الزنجيات قد زين شعورهن بالودك (٣) وقد ذاب الان فجعل لهن رائحة كرائحة الاغنام . وكان رجالهن يفرزون ما لا يطاق من نتن الفحول .

ووصلت موجة بعد اخرى من الحجاج حتى ضاقت الكنيسة بهم . تسلق بعضهم الاعمدة واخرون انتشروا على المقاعد بينما احتشد غيرهم في رواق

(١) ١٣ كم شمال يافا ، كانت تعرف سابقا باسم اليهودية ثم سميت العباسية نسبة الى ولي مخفون فيها (راجع : بلادنا فلسطين - مصطفى مراد الدين ص ٢٧٨) .

(٢) شمرات ذات فتحات لأطلاق النار .

(٣) شحم حيواني .

النساء بينما أعينهم المستثارة الجاحظة تتوجه نحو الهيكل الصغير في وسط الكنيسة الذي سيصعد منه النور في اية لحظة . أحباش وبدو وزنوج بالطرابيش والجلابيب متعددة الالوان والعيون اللاهبة الدامعة - بشر من كافة الاجناس - يصرخون ويضحكون ويتنهدون . واغمي على شاب فرفع ومدد في الباحة كاللوح . وسقط كاهن ماروني عجوز ونحيل ، مرتديا السوتان (1) الابيض الناصع والحزام الاحمر ، على الحجارة المرصوفة والزبد يصعد من فمه .

وبغثة صمت الحشد . وامتلاً الجو بالعيون المتوهجة . لقد ظهر البطريرك مرتديا ملابس موشاة بالذهب . ووحده سار خافض الرأس تحت الهيكل في وسط الكنيسة . ورفعت الامهات أبناءهن الى اكتافهن لكي يمكنهم من الرؤية . ووقف الفلاحون فاغري الافواه . كل ثانية كانت تسقط مثل قطرة كثيفة على رؤوسنا . وتوتر الجو حتى صار له صريف كجلد الطبل وهبت ومضة من الظلة المقدسة وظهر البطريرك وبيده حزمة كبيرة من الشموع البيضاء والمشتعلة وفي ومضة عين كانت الكنيسة تموج باللهب من ارضها حتى سقفها . المتفرجون جميعا كانوا قد اندفعوا نحو البطريرك وهم يمسكون بشموعهم البيضاء لكي يتلقوا النور . وراحوا يضعون ايديهم في اللهب ثم يفركون وجوههم وصدورهم . كانت النسوة يزعقن بينما بدأ الرجال بالرقص . وبهذا الضجيج تدفق الجميع الى الباب ، ليخرجوا .

وبقيت الكنيسة خالية . الضجة الرهيبة والحشد المسعور والاسمال متعددة الالوان - هذا كله بدأ وكأنه كان حلما غريبا . نظرت الى الارض فتأكدت ان تلك الرؤية كلها كانت حقيقة فتحتي على الحجارة المرصوفة رأيت بقايا معينة من النشوة : قشور برتقال ونوى زيتون وزجاجات مكسورة .

خرجت الى الفناء لاستنشاق الهواء النقي . كنت اتمنى ان ارحل ، ان اذهب الى الجبال الموحشة الجرداء المواجهة لي وأظل امشي وامشي دون ان ارى شيئا الا الشمس والقمر والصخور . فطوال الوقت الذي كان فيه الحشد المنتشي يضطرم من حولي والمؤمنون يندفعون في نشوتهم وهم يدعون المسيح - يأمرونه - بالقيام من قبره كنت اضبط نفسي وارفض ان أدع قلبي يتمل . فللروح ، كما للجسد ، حياؤها : انها ترفض ان تتعري امام الملائكة . ولكن ما ان صرت وحدي حتى رحمت أصرخ : بعيدا ! بعيدا الى البراري ! هناك يهب الله كالريح المحرقة ، هناك سأتعري وادعه يحرقني .

(1) ثوب الكاهن .

وقال الله : ابقني ايتها السيدة الروح • لا ترحلي •

- ما الذي تريده مني يا رب ؟

- أريدك أن تتعري ايتها السيدة الروح •

- يا رب • كيف تستطيع ان تطلب مني طلبا كهذا ؟ انني اخجل •

- أيتها السيدة الروح ، لا شيء يجب أن يقف حائلا بيننا ولا حتى

أرق الحجب • لهذا ايتها الروح يجب ان تتعري •

- هانذا يا رب • لقد تعريت • خذتي -

انطلقت الى البحر الميت وانا اغني هذه الكلمات الخائدة عن روح تعشق

الرب • كنت أريد ان أرى الهوة التي فتحتها المدينتان الخاططتان حين غارتا •

كانت الصخور الشهباء والصفراء والمتوردة تطلق البخار حين تسقط عليها

الشمس القاسية اللزجة • وبين حين وآخر تهب دفعة من الريح المحرقة فتملأ

فمي ونفسي بالرمال • كانت الحجارة لاهبة • لا زهرة ، ولا قطرة ماء ، ولا

عصفور يطلق صوتا يرحب به بعابر او يحاول ان يطرده • وكان الله معلقا

فوقي ، الله وحده - كالسيف •

هذا الرب ليس المسيح • خطرت لي الفكرة فارتعشت • ليس ابن مريم

اللطيف ذا الكلام الحلو • انه يهوه ، اكل البشر المخيف • لقد بحثت عن رب

ووجدت اخر • كيف استطيع الفرار في هذه النقطة من تخوم صمته المظلمة

المستغلقة ؟

كلما ابتلعتني الصحراء اكثر ، التهب رأسي أكثر • ورحت أدعو الله أن

يظهر ويكلمني • ألم يخلقني بشرا ؟ أو لم يكن الانسان الحيوان الذي يطرح

اسئلة ؟ حسن • انني اطرح اسئلتني وعليه ان يجيب • كنت اسأله بهدوء

في الريح اللاهبة • واعترفت « يا رب انني امر في لحظة حرجة • ما الذي علي

ان افعله ؟ ضع في فمي جمرة ، كلمة ، الكلمة البسيطة التي تحقق الخلاص •

لهذا نزلت في هذه البئر العميقة ، البئر التي يعميها النور الباهر - لكي

اتحدث اليك • فتجل • »

انتظرت وانتظرت • ولا جواب •

منذ سنوات طفولتي ، حين كنت اقرأ سير القديسين ، في دارنا كنت

احترق رغبة لان اضع قدمي على هذه الارض التي اخطو عليها الان ؟ احترق

رغبة لان اسير على الارض والحجارة التي سار عليها المسيح وأن أسمع

صوته • كان لدي دائما ما أقوله له (وما يزال لدي) ، لا بد ان يشفق علي

ألن يفعل ؟ نعم • سيجيب ! وبينما العالم يتحرك يقوم بتغيير اسئلته

وعذباته وشياطينه • ولربما كان لدى المسيح كلمة جديدة ما يشفي بها

الجراح الجديدة ويجعل للحب وجها جديدا وأكثر رجولة •

رحت أحدث نفسي بهذه الطريقة وأنا اتقدم واستنشق هواء الصحراء

المكون من لهيب ورمال ، والذي تنشقّه الانبياء وتلقوه في اعماقهم • وحين وصلت الى بطن الوادي فاجاني البحر الميت يلتصع أمامي ، ساكنا ورماديا كالرصاص الذائب وممتلئا بالمياه الموحلة الرجراجة القطرانية ، والتي منها يجري نحو فلسطين ، بين القصب والظرفاء ، نهر الاردن الأزرق المائل الى الخضرة • كان هناك العديد من الرجال الذين يرتدون القمصان الطويلة ويرسمون شارات الصليب • ووقف على ضفة النهر قس يغني بينما كان الآخرون يغطسون في المياه المطهرة ويتحولون الى حجاج •

أقيمت حانة على الضفة تحت سقف من القصب المحبوك • وفيه حاك عتيق يطلق « الامان » (1) العربي بصوت أجش بينما راح صاحب الحانة ، ذو الجلباب المبقع بالشحم يجار مع الحاكي وهو يقلب كبد الغنم •

أسرعت الخطى ملتفا حول ساحل البحر الميت ودخلت الصحراء من جديد وعيناى القلقتان الهائجتان مسمرتان على المياه الراكدة ، وكأنني اجهد لاستكشاف المدينتين الفائرتين في اعماقها • وبينما انا اتطلع ومضت في ذهني لمعة صفراء • رأيت - قدما جبارة قادرة قد تقدمت لتدوس مدينتي سدوم وعمورة وتسحقهما وتخفيهما • روعت • ذات يوم ستقوم قدم جبارة قادرة بسحق سدومنا وعمورانا وابادتهما • وهذا العالم الذي يضحك وينسى الله سيحول بدوره الى بحر ميت • في ختام كل مرحلة تأتي قدم الله بهذه الطريقة وتبيد المدن ذوات البطون المتخمة والعقول المتخفية •

خفت • (يبدو لي احيانا ان هذا العالم هو سدوم أخرى قبل مرور قدم الله عليه • واطن انه يمكن سماع القدم الرهيبة الان وهي تقترب) •

توقفت على كتيب رملي منخفض ورحت احدق الى هذه المياه الملعونة وهي تحاول ان ترفع المدينتين الفاتنتين الخاطئتين من أوعية القطران • كنت أريد لهما ان تنشعا من جديد ولو لوهلة بسيطة تحت اشعة الشمس وبما يكفي لان المحهما • ثم ارف جفني من جديد وتلاشيان •

كانت المدينتان نضطجعان على ضفة النهر كعاهرتين تتبادلان القبلات • رجال يتعانقون مع رجال ، ونساء مع نساء رجال مع خيول ونساء مع ثيران • يأكلون حتى التخمّة من (شجرة الحياة) ويأكلون ويتخمون من (شجرة المعرفة) • وحين حطموا اصنامهم المقدسة وجدوا انها ليست الا خشبا وحجارة • وحين حطموا افكارهم وجدوا انها كانت ملبئة بالهواء وحين اقتربوا من الله كثيرا قالوا : « هذا الله ليس ابا للخوف ، بل هو ابن الذوف » ففقدوا

(1) الغناء الذي يردد لازمة امان امان •

خوفهم • وكتبوا على البوابات الاربعة المؤدية الى المدينة بحروف صفراء كبيرة ، هنا لا يوجد اله • ماذا تعني عبارة لا يوجد اله ؟ تعني انه لا كوابح على غرائزنا ، لا ثواب على خير ولا عقاب على شر ، لا فضيلة ولا خجل ولا عدل - اننا نحن ، ذئابا وذئبات ، في حالة نزاع (1) .

غضب الله ونادى ابراهيم : يا ابراهيم

- مرني يا مولاي !

- يا ابراهيم ! خذ غنمك وابلك وكلابك وخدمك وجواريك وزوجتك

وابنك - وارحل ! ارحل • لقد وصلت الى رأي •

- يا مولاي • « وصلت الى رأي » على شفتيك تعني « سأقتل ا » •

- عقولهم صلفة وقلوبهم مترعة بالفرح وبطونهم متخمة - لقد ملكت

منهم • يبنون بيوتا من الحجر والحديد وكأنهم مخلصون • زودوا انفسهم

بالافران واشعلوا النيران وذوبوا المعادن • لقد سطعت الصحراء كالجذام على

وجه الارض لانني اريدها هكذا فقام هؤلاء البشر في سدوم وعمورة بسري

الصحراء وتسميدها وتحويلها الى جنة • ولم تعد العناصر الضالدة من ماء

وحديد وحجر ونار الا عبيدا لهم • لقد انتهيت منهم ا انهم اكلوا شجرة

المعرفة وقطفوا التفاح وسوف يموتون !

- كلهم يا مولاي ؟

- كلهم • الست القادر على كل شيء ؟

- لا يا مولاي ، لست القادر على كل شيء لانك عادل لست قادرا على

القيام بكل ما هو ظالم وخسيس ولا معقول •

- وما الذي يستطيع ان يعرفه أي منكم عن العادل والظالم والشريف

والخسيس ، المنطقي واللامعقول ايها الديدان المخلوقة من طين والتسي

تعيش على الطين ومصيرها ان تعود الى طين ؟ ان غاياتي لا تكتنه ، ولو

قدر لكم ان تواجهوها لاصابكم الرعب •

- أنت رب السموات والارض • أنت تمسك بالموت والحياة جنبا الى

جنب في راحة يدك وأنت الذي تختار • أنا دودة ، مجرد طين وماء ولكنك

نفخت في " فخلق الطين والماء روحا • ولهذا سأتكلم • هناك آلاف من البشر

في سدوم وعموره يأكلون ويشربون ويتبرجون ويضحكون ويسخرون ، وهناك

آلاف من العقول التي تشرئب كالشعابين لتنفث بسعومها نحو السماء وهي

تفح • ولكن ان كان بينها أربعون روحا فاضلة فهل ستحرقها يا مولاي ؟

(1) حدة الاهتياج الجنسي عند انثى الحيوان •

- أسماء ا أريد أسماء ا من هؤلاء الاربعون ؟
- وماذا لو كانوا عشرين ا عشرين روحا فاضلة يا مولاي ؟
- أنا أريد أسماء . انني أمد يدي لاعد .
- وماذا لو كانوا عشرة ، عشرة أرواح فاضلة يا مولاي ؟ وماذا لو
كانوا خمسة ؟
- أغلق فمك الصفيق يا ابراهيم .

- ارحمنا يا مولاي . لست عادلا فقط . أنت طيب أيضا . ولو كنت
عادلا فقط لحدث الويل . كنا ضعنا كلنا . لكنك طيب يا مولاي ولهذا
ما يزال الناس قادرين على الوقوف في الهواء .

- لا تركع وأنت تمد يدك للامسك بركبتي" . فليس لي ركبتان .
ولا تبدأ النواح لكي تمس قلبي اذ لا قلب لي . أنا صارم ، قطعة جامدة
من الفرانيت الاسود ولا يمكن ليد أن تطبع لمستها علي . لقد وصلت الى
قراري : سأحرق سدوم وعموره .

- لا تتسرع يا مولاي . لم العجلة حين تكون مسألة قتل ؟ انتظر لقد
وجدت واحدة ا

• ما الذي وجدته وأنت تنقب في التراب أيتها الدودة ؟
- روح فاضلة .
• من ؟
- لوط ، ابن أخي هرون .

ورحت أشعر بصدغي" ينبضان وأنا واقف على الكتيب الرملي .
سمعت في أعماقي صوت الله يصطرح مع صوت الانسان . وبدا لي لوهلة
أن الهواء يتخثر وان لوطا يقف أمامي - قاسيا وحافيا بلحية متدليلة ولهب
منتصب على جبينه . لم يكن لوط العهد القديم ، العبد ، بل كان لوطا
خاصا بي ، لوطا متمردا يرفض أن يطيع أمر ربه في أن يهرب وينجو
بنفسه وبدلا من ذلك فانه يحس بالشفقة على مدينتيه الفاتنتين الخاطئتين
وبملاء ارادته يلقي بنفسه الى النار ليحترق ويفنى معهما .

صرخ بابراهيم : قل له انني لن اذهب . أنا سدوم وعموره - قل له
ذلك - وأنا لست راحلا ، ألا يقول انني حر ؟ ألا يقول (ويتباهى) بأنه
خلقني حرا ؟ اذن أنا أفعل ما أريد . لست راحلا .

- انني أغسل يدي من الامر أيها العاصي . وداعا .
- وداعا يا بئر الفضيلة العجوز ، وداعا يا حمل الله ا وقل لمولايك

« تحيات من لوط العجوز » وقل له شيئاً آخر أيضاً ، انه ليس عادلا وليس طبيبا . انه القادر على كل شيء . انه القوي فقط ولا شيء آخر !

كانت الشمس قد غربت وصار الضوء أكثر لطفا بينما هدا صدغاي . شعرت وكأنني خارج لتوي من صراع يائس تنهدت ونظرت الى الورا . كيف خرج متمرد كهذا من أعماقي ؟ كان أمرا مرعبا . وأين كانت هذه الروح المتوحشة النفور مختبئة في أعماقي وراء الله ؟ لقد كنت مع ابراهيم الاب التقي المطيع . فكيف حدث انني الان قد هجرته ، ودست على الكتاب المقدس لاخلق لوطا كهذا وأتحد به ؟

لقد كان الشيطان الصفيق يجثم في أعماق نفسي منتظرا أن يتشوش رأسي لوهلة وأن يهمل عقلي الاقفال لكي يقوم بفتح باب الفخ والقفز الى النور ثم البدء بالتصرف بوقاحة مع الله عدوه الابدي .

لقد رأيت انه من الضروري لي ان أظهر أعماقي وأن أطرد الشياطين من داخلي - الذئاب والقردة والنساء ، والفضائل الصغيرة والمتع الصغيرة والنجاحات - لكي أبقى مجرد لهب صاعد نحو السماء . وبما أنني قد أصبحت رجلا فما الذي كنت سأفعله الا أن أقوم بما كنت أتوق اليه وأنا طفل في دار أسرتي ! يولد المرء مرة واحدة فقط ولن تكون لي فرصة أخرى أبدا .

كان الليل قد حل حين عدت الى القدس . وبدت النجوم مثل لقمات من النار معلقة فوق رؤوس البشر لكن أحدا في شوارع القدس المقدسة لم يكن يرفع رأسه لسيرها ويفنى خوفا . لقد تغلبت العواطف اليومية والاهتمامات الصغيرة والطعام والدخل المالي والنساء على الخوف . وبهذا استطاع الناس أن يثابروا على نسيانهم وان يتابعوا حياتهم .

وفيما كنت أتقلب على فراشي القاسي قلت لنفسي ، لقد أن لي أن اتخذ قرارا ، أن أكمل ما تنبأت به وأنا طفل ما يزال حليب الله على شفتي .

حين كنت في جبل آثوس أخذ أحد الرهبان يدي وحدق الى راحتني وقال انه سيقرا لي بختي . كان وجهه ، فعلا ، وجه عجري : أسود مذبوغا وله شفتان . كشفتي الماعز وعينان يتطاير منهما الشرر . قلت له ضاحكا : أنا لا أومن بسحرك . فأجاب : هذا لا يهم . ما يهم هو أن أومن أنا . تطلع الى خطوط كفي ونجومها ونشاطها وتجعداتنا . وبعد تمنع

قال : « لا تحشر نفسك في شؤون الناس • أنت لم تخلق للفعل • ابق على
بعيدة • انك لا تقوى على صراع الناس • ليس أنت • لانك وأنت تقاتل
تظل تفكر بأن عدوك قد يكون على حق • ومهما فعل لك بعد ذلك فانك
تسامحه • أتفهم ؟ »

قلت له : « تابع » • لقد تأثرت قليلا لانني رأيت، أنه على الرغم من
أن هذا الراهب لم يرني من قبل فإنه كان يقول الحق • تطلع الى يدي مرة
أخرى متفحفا وقال : « تتأكلك اهتمامات متعددة • تريد الكثير وتسال
أسئلة كثيرة • انك تفتك بقلبك • ولكن خذ نصيحتي ولا تبالغ في الاهتمام
بإيجاد الجواب • يجب أن لا تخرج لكي تجده • هو سيأتي لكي يجده •
استمع لما أقول وأرح نفسك • انه أت • ودعني أخبرك بما قاله لي معلمي
ذات مرة : « كان هناك كاهن يبحث طوال حياته عن الله • وحين كان يلفظ
أنفاسه الاخيرة أدرك أن الله كان يبحث عنه طوال ذلك الوقت » •

وانحنى على يدي من جديد ثم حدق الي بعينين منتفختين • وقال :
« في أواخر عمرك ستكون كاهنا • لا تضحك • ستصير كاهنا • »
ان النبوءة الكاذبة قد تتحقق أحيانا • ويجب على المرء أن يؤمن بها
ببساطة • وتذكرت النبوءة الاخرى التي تنبأت بها القابلة حين ولدت اذ
نظرت الي في الضوء وقالت : « ذات يوم سيكون أسقفا • »

صرخت وقد هيمن علي الرعب : « لا • لا • لا أريد أن أصبح راهبا »
وسحبت يدي وكأنني أحسست بالخطر •
ظننت أنني نسيت كلمات الكاهن بعد تلك السنوات الطويلة ثم بغتة
في هذه الليلة برزت الي ذاكرتي من جديد • حاولت أن أضحك فلم أستطع •
كان يبدو ان الكلمات تعمل فيّ سرا طوال تلك المدة وتدفعني تماما الى
حيث لا أريد أن أذهب • لم تعد المسألة مضحكة •

أغمضت عيني لكي أنام وأهرب ••• وبغتة تحولت الى عاص مطارد
في شوارع مدينة كبيرة • قبض علي وحوكمت وحكم علي بالموت • أخذني
الجلاد وجعلني أمشي أمامه بينما هو يتبعني والفأس على كتفه • بدأت
أركض ، فسألني الجلاد وهو يلهث : « لم تركض ؟ » فأجبته : « مستعجل • »
وحين قلت ذلك هبت نسمة دافئة واختفى الجلاد • لم يكن جلادا بل غيمة
سوداء وقد تلاشت • وأردت أن أتابع ولكنني لم أستطع • برز أمامي جبل
سد طريقي • صخرة قاسية من الصوان وعلى قمته علم أحمر يرفرف قلت
لنفسي ان كنت أريد التقدم أبعد من ذلك فان علي أن أتسلقها • حسن
إذن • باسم الله • رسمت شارة الصليب وبدأت الصعود • لكنني كنت
أبس بوطا بمسامير ضخمة وراح الشرر يتطاير من وقع المسامير على

الصوان • صعدت وصعدت وتزحلق وتسقطت واستعدت زحمتي وتسقنت
من جديد • وحينما اقتربت من القمة رأيت انه لم يكن علما ذلك الذي
يرفرف في الذروة بل لها • وتابعت صعودي وحامت عيناى على الذرة •
لا • لم يكن لها ايضا - وصار بوسعي أن أراه الان بوضوح - كان الله •
ليس الله الاب • بل الله الاخر ، يهوه الرهيب • وكان ينتظرنى •

تجمد الدم في عروقي • ولوهلة كنت على وشك أن أعود لكنني خجلت •
همست لنفسى : « فات الاوان على التوقف • الى الابد • » وسأل صوت
أنثوي في داخلي : « ألسنت خائفا ؟ » فصرخت : « نعم • أنا خائف • » صرخت
بصوت عال وبألم شديد الى درجة أنني استيقظت •

جلست في فراشى • كان الحلم ما يزال يلعب بين جفني • درسته مرة
أخرى لكنني لم أستطع أن أجد تفسيراً • لم عاص ؟ ولم الجلاذ ؟ ولم
العلم والذهب والله ؟ وهزرت رأسي • يأتي الجواب حين نتوقف عن طرح
السؤال • هكذا قلت لنفسى وهذأت • الجواب يأتي حين ينزل السؤال من
عقولنا المهذارة ويغزو قلوبنا وأصلابنا •

« الماء العذب لمن يظمأ • أنت مغلق على من يتكلم ومفتوح على من
يحفظ بهدوئه • ومن يظل صامتا يأتي ويجدك ، أيها النبع ، ويشرب • »
تلك كانت الكلمات القديمة الخالدة • وفي هذا اليوم همست بها شفتاي
امتنانا •

كان هناك موكب ديني يمر تحت نافذتي • وكان الجو مليئا بالبخور
والاغاني • وبغثة أحسست بالسعادة • قرار سري ما كان ينضج في العتمة
في أعماقي • وما زلت عاجزا عن تبين ملامحه لكن كان لدي الايمان •

نهضت وارتديت ملابسى ثم فتحت النافذة • كانت السماء متوهجة
والطريق تحتى يعج بكافة انواع البشر وكلهم على عجل • الهواء مشبع
بروائح البخور والفاكهة المتعفنة والنتن الثقيل الكريه المتصاعد من
البشر • وكانت امرأة عربية بدينة توازن سلة من الذرة المشوية على
رأسها وهي تنادي على سلعتها وأسنانها تلمع بيضاء ناصعة تحت
أشعة الشمس • بينما اليهود بشواربهم الطويلة المشحمة يتسللون
بمحاذاة جدران البيوت وأنوفهم المعقوفة تقطر سما • وعبر رهبان كاثوليك
وآرثوذكس وأرمن كل في طريق الاخر • دون أن يتبادلوا التحية • لقد انحدر
المسيح على أيديهم الى راية للكراهية •

نزلت الى الشارع وتجولت في المدينة • كنت أنظر الى كل شيء للمرة

الاخيرة وأودعه . رأيت في نافذة حانوت منحوتة قديمة لجبل سيناء
والقديسة كاترين تقف في الوسط وعلى رأسها تاج ملكي وعلى جانبيها
جبلان : سيناء والقديس ابستيم . كانت تمسك بيدها الاولى ريشة
وبالاخري كانت تربت بحنان على العجلة التي كانت أداة استشهادها
وتحتها كتب بيونانية قديمة : « ما الذي تساوينه ايتها الجبال الباقية ؟
ولم تتباهين بانك مغطاة بالنباتات وزاخرة بالاشجار ومعبأة بالحليب ؟ جبل
واحد وواحد فقط هو المكتظ بالاشجار والملفلح بالضباب والتقي الكثيف
المقدس الشريف النقي السماوي الروحي الملائكي والالهي : جبل سيناء
الذي وطئه الله . »

ظللت وقتا طويلا عاجزا عن رفع عيني عن هذه المنحوتة . وكلما
ازددت تحديقا اليها ازددت تأكدا من أنه لو استمر الحلم أكثر من ذلك
ولو لم أصرخ : « أنا خائف » وأستيقظ لتحول الجبل الذي كنت أتسلقه
الى جناحين . لان ذلك الجبل المصنوع من الصوان والشرر كان طريق
الصعود في كفاحي . ولو انني بلغت حدوده لتحول الكفاح الى جناحين
ولتوحدت بذلك الشيء المشع على الذروة سواء كان علما أحمر أم لهبا
أم الها .

وامتزجت الاحلام بالاشواق الطفولية بالنبوءات الغامضة مع واقع هذه
الصورة عن سيناء الموجودة أمام عيني وبغته وجد الحلم الذي كان ينضج
في أعماقي ملامحه . قلت بصوت مرتفع : « هذا هو طريقي » لقد وجدت
ما سوف أفعله . سأذهب الى سيناء . وهناك ستفتح عيني . »

٢١ - الصحراء سيناء

لسنوات عديدة كان سيناء الجبل الذي وطئه الله ، يلمع في ذهني كقمة لا ترتقى . وقبل الدير الشهير المبني على قمة العليقة التي « اشتعلت بالنار ولم تحترق » كان هناك البحر الاحمر والبتراء العربية وميناء رايثو (1) الصغير ، والرحلة الطويلة على الابل عبر الصحراء والمسيل الجرفي عبر الجبال الوحشية الرهيبة حيث قضى العبرانيون المعذبون سنوات عديدة .

الجليل ، ببهائه الغنائي ، وجباله المتناغمة ، وبحره الازرق والبحيرة الصغيرة الساحرة ، يمتد خلف ظهر يسوع ويشبهه كما تشبه الام ابنها . انه تعليق بسيط وواضح تحت نص الانجيل (العهد الجديد) . في الجليل كشف الله عن نفسه مسالما مكتفيا مرحا - كانسان جميل .

لكن العهد القديم كان دائما يثيرني ، فقد كان يتلاءم بعمق اكبر مع حاجات روحي . وفي كل مرة كنت فيها أتتبع هذا (الكتاب المقدس) المليء بالنقمة والصواعق ، هذا الكتاب الذي يتصاعد بخارا حين تلمسه تماما مثل الجبل الذي نزل عليه الله ، كنت أحس برغبة عارمة في أن أذهب وأرى هذه الذرى اللابشرية التي ولد عليها (الكتاب المقدس) أن أراها بعيني والمسها .

لن أنسى ما حييت ذلك النقاش الذي دار ذات مرة بيني وبين فتاة في حديقة .

(1) Raïtho.

قلت : لقد قرفت من الشعر والفن والكتب • تبدو لي كلها دون
جوهر ، كأنها مصنوعة من الكرتون • تماما كما لو انك جائعة وبدلا من أن
يقدم لك الخبز والخمر واللحم تقدم لك قائمة الطعام فتمضغينها كالعنزة •
ولا أدري ما الذي حدث لي فأغضبني ، ربما كان الامر أنني كنت
أرغب في الفتاة التي تقف أمامي ولكنني لا أستطيع أن ألمسها •

هي شبيهة بصبية من الفلاحات الروسيات : شاحبة بعظام بارزة
في الوجنتين وفم واسع • وفيما أنا اتطلع اليها تزايد غضبي • كنت امسك
بزهرة فبدأت انتزع وريقاتها •

« هكذا تشبع أرواحنا المنهكة جوعها - كالماعز »
غمزت الفتاة بعينها غمزة خبيثة واجابت ضاحكة : « انك تكلمني
بغضب مع انني اتفق معك • الكتاب الحقيقي الوحيد هو العهد القديم
فهو غير مصنوع من الكرتون ، كله من اللحم والعظم ، والدم يتقاطر منه •
بالنسبة لي تبدو الاناجيل مثل قذح من البابونج يقدم للبسطاء والمرضى •
كان المسيح حملا فعلا • وقد ذبحوه على العشب الاخضر في عيد الفصح أما
هو فقد ثغا مستسلما دون مقاومة • يهوه هو ربي - يهوه القاسي الفظ المتلفع
بجلود الوحوش التي قتلها كهمجي خارج من أدغاله ومن حزامه تتدلى
بلطة • وبهذه البلطة يفتح قلبي ويدخل • »

وصمتت للحظة وخداها يتوهجان • غير ان اللهب لم يخب فتابعته :
« اتذكر كيف يخاطب البشر ؟ رأيت كيف تذوب الجبال والبشر بين
يديه ؟ وكيف تغور الممالك تحت قدميه ؟ الانسان يصرخ ويبيكي ويتوسل
ويختبئ في الكهوف ويلطأ في الاخاديد - يحاول جاهدا ان يهرب • بينما يظل
يهوه مفروسا في قلبه كالخنجر » •

ومرة اخرى صمتت الفتاة مثلي • لكنني احسست بالخنجر في سويداء
قلبي •

كان ذلك اليوم نقطة البدء في اشتعال رغبتني في ان ارى والمس الوادي
الذي شقه الله وهو يعبر الصحراء ، رغبتني في ان ادخله كما يدخل المرء
عرين الاسد • وهأنذا الان ، والحمد لله ، قد جاءتني الساعة التي سأشبع
فيها هذا الجوع الجديد •

كانت رحلتي تبدو كالحلم الخاطف ، رؤيا نارية وفاتنة : من القدس الى
السويس ثم من السويس الى رايتو ميناء البتراء العربية التي منها
سأنتقل الى سيناء الذي وطنه الله • كانت الجبال شاهقة زرقاء والماء
اخضر والمرفأ واسع ومفتوح وبعض الزوارق الصغيرة الحمراء والصفراء

والسوداء في التجاويف العميقة ، وقلة من الاكواخ الفقيرة على طول الشاطئ .
سكون عظيم . وظهر جملان على رصيف المرفأ التفتا برأسيهما نحو البحر
قليلاً ثم تارجحا قليلا وبعدها بخطوات ايقاعية جبارة اختفيا بين البيوت .

وجاء قارب شراعي لاخذي . كان فيه راهب بدين صبياني . لقد
ارسل الابهاء السيناويون المقيمون في القاهرة اشارة بوصولي .

كان قلبي يتراقص حين وضعت قدمي على الرمل الخشن ، أيمكن
ان يكون هذا كله حلما ؟ كان خط الشاطئ مغطى بالاصداف الكبيرة . وكانت
البيوت مبنية من الشعاب الصخرية المستخرجة من البحر ، ومن الاسفنج
والمرجان المتحجر وقناديل البحر وتروس السلاحف الضخمة . وكان هناك
عدد من الفلاحين يقفون على المصطبة الترابية وهم يلتمعون بوجوههم
الداكنة وجلابيبهم البيضاء ، وفتاة صغيرة سمراء كالشوكولاته تلعب على
الرمل وهي مرتدية ثوبا رسم عليه بوغنفيلية (1) مظلة .

وعلى مبعده كانت هناك بعض البيوت الاوربية المبنية من الخشب
ولها شرفات ومظلات واسعة وملونة وحدائق غناء وعلب تنكية مرهية في
كل مكان . كانت هناك امرأتان انكليزيتان تجلسان على شرفة خضراء
وتبدوان في هذه الصحراء الحارة شاحبتين وكأنهما قد أعغم عليهما .

وشرح لي الراهب الصبياني الذي جاء لاخذي انه هنا في رايتو كان
محجر المسلمين العائدين من الحج في مكة . في اوقات كهذه يحتشد الشاطئ
المهجور بالاف الحجاج . كان هناك صخب هائل بالدقوف والمزامير ، والحجاج
يجلسون من بعيد على الرمل يقرأون القرآن بأصوات عالية منغمة .

وصلنا الى المنتجع الذي اقامه السيناويون في رايتو . من هنا سنأخذ
الجمال وننتقل الى الجبل الذي وطئه الله . كانت الباحة الواسعة محاطة
بغرف متعددة ، واجنحة للزوار ومدرسة للصبيان وأخرى للبنات ومخازن
ومطابخ واصطبلات . كانت الكنيسة في الوسط غير ان اكبر معجزة في هذه
الصحراء العربية كان قلب الارشمندرت تيودوسيوس الدافىء والمليء
بالحب ، سيد المنتجع . قلما يأتي اليونانيون الى هذه البرية . ولذا راح
الارشمندرت تيودوسيوس ، الطويل المتوقد حماسا واليوناني المبجل القادم
من تسيسميس في اسيا الوسطى يرحب بي وكأنه يرحب باليونان ذاتها .

أقيمت كافة الطقوس اللبقة للضيافة الدينية ، تلك الطقوس التي

(1) نبات معرث .

صارت مألوفة لدي ، ملققة من المربي ، شهوة تركية مع كأس من الماء الباردة ، مائدة مرتبة بشكل جميل وعليها سباط أبيض معطر ، واشعاع الفرح في وجوه من يقومون على خدمة الزائر .

كنت أستطيع أن أرى البحر الأحمر وهو يتلألأ من نافذتي وجبال ثيبايد متجمعة على بعد وغارقة في الضوء . تكلمت مع الرئيس عن « ثلاث عشريانات وعشر نخلات » (1) التي تقول الاناجيل ان العبرانيين وجدوها في هذه القرية الصغيرة . وسألت عن « اثنتي عشرة عين ماء » وكانني اسأل عن أقرباء اعزاء يعيشون في الخارج . وحين اخبرني ان غابة النخيل ما تزال موجودة وان الينابيع جارية فرحت .

كثيرا ما أحسست بسعادة مشابهة - بعد رحلة متعبة كأس من الماء البارد ، مأوى بسيط وملائم ، قلب انساني يعيش مجهولا في ركن مصطلى العالم ليقدّم الدفء والامان للغرباء . وحين يظهر الغريب في الطرف الاخر من الشارع يقفز قلبه فرحا لانه وجد انسانا . في الكرم ، كما هو الامر في الحب ، لا بد ان من يعطي يكون اكثر سعادة ممن يأخذ .

أكلت والارشمنديريت على مائدة الكرم والمحبة وتبادلنا الاحاديث كصديقين قديمين سعيدين لعودة شملهما . لقد ولدت فيه ، هنا في هذه الصحراء ، كمية كبيرة من الاسئلة وهو نواق لان يسمع مني الاجوبة . حكيت له عن المدن الكبيرة ، كفر الانسان المعاصر والامه ، غطرسة الاغنياء واملق الفقراء ، عجز الشرفاء ثم حكيت له عن القلاقل التي حدثت في روسيا .

وسألني الرئيس بتفهم : « وهل يؤمن هؤلاء الموسكوفيون بالله ؟ »

- كلا . انهم يؤمنون بالانسان .

- بهذه الدودة ؟ قال الرئيس باحتقار .

- نعم بهذه الدودة يا أب تيودوسيوس . اجبته بعناد وانا احس بفتة

ان علي ان اذافع عن هذه الدودة .

وبدأت تلح علي رغبة شيطانية . كانت الافعى تسلق شجرة المعرفة

وتفح . وكان الراهب يتقي شرها .

وهكذا ، بقيادةي لقلب الناسك المطمئن الي التجربة ، وهجولا طمانينته

الي ادراك ، رددت على حسن ضيافته بأحسن طريقة ممكنة .

وجاء طعنة ومنصور وعوا . كانوا يرتدون الجلابيب متعددة الالوان

(1) ثم جاؤوا الي ايليم وهناك اثنتا عشر عين ماء . ومن نخلة . فنزلوا هناك عند الماء . التوراة - الخزوج - الاصحاح الخامس عشر .

وعلى رؤوسهم عمام مصنوعة من وبر الجمال ويطقانات طهيلة فسي
 أوساطهم • هم رعاة الأبل الثلاثة - ثلاثة بداء بأرجل نحيلة لينة وعيون
 صقرية صغيرة - الذين سيرا فقونني في رحلة ثلاثة أيام وثلاث ليال الى الدير
 وسيحمونني في ساعات الخطر. ويقول تاريخ قديم ان البدو يرون ضعف
 المسافة التي تزاها عيوننا ويشمون رائحة الدخان عن بعد ثلاثة اميال
 ويميزون نوع الخشب المحروق كما يميزون بين الآثار التي يخلفها الرجال
 على الرمل وبين تلك التي تخلفها النساء ويعرفون ما اذا كانت النساء
 متزوجات أم عزبات أم حوامل •

حيونا دون كلام وهم يضعون راحتهم على صدورهم فأفواههم
 وجباههم • ووراءهم ظهرت ثلاثة جمال في باحة الدار محملة بأحمال عالية
 من لوازم الرحلة : مؤن وبطانيات وخيمة • كنت قد تعلمت حتى الان بعض
 الكلمات العربية ، الكلمات الاساسية التي تلزمني في الأيام الثلاثة التي
 سأعيشها مع البدو •• كلمات عن الخبز والماء والنار والله •

بركت الجمال • كانت عيونها اللمعة جميلة لكنها خالية من اللطف •
 وكانت أعنتها مزينة بشرابات سوداء وبرتقالية مصنوعة من الشعر •
 - أعط النوق قليلا من البلح لتحلية اسنانها • أمر الرئيس فخرج
 الراهب الشاب مسرعا وقبضتاه مليئتان بالبلح •

تعانقت والارشمنديريت وعيوننا على وشك ان تمتلىء بالدموع •
 وافترقنا • على مقربة من ملحق الدير تبدأ الصحراء - شهباء وصامتة
 وقاحلة •

ايقاع الأبل الواثق المتزوج ينقل جسده • ودمك يتعود على ايقاع
 هذا التزوج ومع دمك تتعود روحك • يحرر الزمن نفسه من التقسيمات
 الحسابية التي حشره فيها ، بأذلال ، العقل الوقور الصافي في الضرب •
 أما هنا ومع اهتزاز « سفينة الصحراء » فيتحرر الزمن من حدوده الرياضية
 الثابتة • يصبح الزمن مادة سائلة غير قابلة للتقسيم ، ودوامة خفيفة مسكرة
 تحول الافكار الى موسيقى ولحن خالم •

وباستغراق مع هذا الايقاع لساعات بدأت افهم لماذا يقرأ أبناء
 الاناضول القران وهم يتارجحون الى الامام والى الخلف وكأنهم على ظهور
 الأبل • بهذه الطريقة ينقلون لارواحهم الحركة الرتيبة المسكرة التي تقودهم
 الى الصحراء الكبيرة الغامضة - الى النشوة •

على مرمى النظر كان يمتد أمام عيوننا اتساع مغو زهري اللون وظننت
انه البحر • تجمع البداة الثلاثة وتهامسوا ثم افترقوا • وتابعنا السير ،
لم يكن ذلك بحرا • الامتداد الزهري كله كان صحراء اثارها عاصفة مخيفة
أعطت لغيوم الرمل المحترق لونها الزهري • وبعد قليل دخلنا في العاصفة
الرملية فكنا ان نختنق • قطع طعمة اغنيته • ولف البداة الثلاثة أنفسهم
بأحكام ببرانسهم وغطوا افواههم وانوفهم •

ارتفع الرمل ليضرب وجوهنا وأيدينا ويجرحها • وبدأت الجمال تدور
على نفسها عاجزة عن حفظ توازنها • ومع ان الطريق المتعرج استمر ثلاث
ساعات فقد فرحت سرا لانني استطعت ان اضيف هذه العاصفة الصحراوية
الرهيبة الى تجاربي •
بدأت الشمس تغرب • كنا قد خلفنا العاصفة وراءنا ورحنا ، أخيرا ،
تقترب من الجبال • وبالتدريج بدأت الصحراء تتحول الى اللون
البنفسجي وتتغطى بالظلال • ووقف طعمه الذي كان يسير في المقدمة ،
واعطى اشارة التخيم « كرر اكرر » راحت حلوق البدو تغرغر • ونخرت
الجمال • ركعت على ركبتها الامامية ثم سقطت الى الخلف على مؤخراتها
بصوت راعد مثل بيوت تتهدم •

انزلنا الاحمال ونصبنا الخيمة ونحن نعمل معا • وكوم عوا كومة من
العيدان التي جمعها بعناية فائقة في الطريق • ثم اشعل النار • واخرج
منصور الكاسرولة والرز والسمن من حقيبة مصنوعة من القش المجدول وبدأ
يطبخ بينما كان طعمة يمزج الطحين بالماء ثم راح يرشق العجين في المقلاة
بأصابعه الدقيقة فاعد فطائر صغيرة تشبه التورت • وفي اثناء ذلك كان
البيلاف (1) قد بدأ يطلق روائحه الشهية • جلسنا معا حول النار وأكلنا
ثم اعدنا الشاي واخرجنا غلاييننا ورحنا ندخن ونحن نحدق حيننا الى
الجمر المتلاشي وحيننا الى النجوم العديدة المتأججة والمعلقة فوق
رؤوسنا •

عم جسدي وروحي احساس غريب بالرفاه • لكنني حاولت أن اخضع
هذه الرومانسية كلها - الارض العربية ، والصحراء والبدو - فسخرت من
قلبي الذي كان يخفق مستثارا •

تمددت داخل الخيمة واغمضت عيني فانصبت في رأسي همهمات
الصحراء المكبوتة الغامضة • كانت الجمال تجتر طعامها خارجا وكنت
استطيع سماع احناكها وهي تمضغ • كانت الصحراء كلها تجتر مثل ناقة •

(1) طعام شرقي من رز ولحم وتوابل - المورد .

في فجر اليوم التالي بدأنا رحلتنا بين الجبال ، تلك الجبال المهجورة القاحلة التي تكره الناس وتنفر منهم ، بين حين وآخر كان جبل رمادي يصفق بجناحيه بصوت رنان بين تجاويف الصخور السوداء و احيانا كان غراب يدور محلقا فوق رؤوسنا وكأنه راغب في ان يتشمم ما اذا كنا قد بدأنا نتفسخ لكي ينقض علينا .

طوال النهار مع ايقاع الجمل واغنية طعمة الرتيبة الهادئة . كانت الشمس تنصب علينا نارا والهواء يمر راعشا على رؤوسنا وعلى الصخور .

مشينا الطريق ذاته الذي سلكه العبرانيون منذ ثلاثة الاف سنة في هربهم من أرض مصر الغنية . هذه البرية الموحشة التي كنا نجتازها كانت المشغل الذي جاع فيه بنو اسرائيل وعطشوا وتألموا وتشكلوا . ورحت اتطلع بعينين قلقتين الى الصخور الشاهقة واحدة بعد اخرى وادخل الوادي المتعرج واثبت ذرى الجبال الالهية في ذهني . وتذكرت كيف انني ذات يوم على الشاطئ اليوناني توغلت ساعات داخل كهف مليء بالنازل الهائلة والقضبان الحجرية العملاقة التي كانت تلتمع مشعة حمراء تحت ضوء المشعل . كان فيما مضى كهفا لنهر كبير ثم ظل فارغا لان النهر قد غير مجراه عبر القرون . ولمعت في ذهني فكرة ان الشيء نفسه قد حدث لهذا الوادي الذي كنا نجتازه الان تحت الشمس . الله - يهوه القاسي - هو الذي حفر هذه السلسلة من الجبال لكي يمر .

وقبل ان يعبر هذه المتاهة لم يكن يهوه قد حدد هويته بعد لان شعبه لم يكن قد تجدد بعد ، والالوهية (1) المتعددة لم تكن واحدا . كانوا ارواحا لا تحصى تهيم في الجو لا اسماء لها ولا يمكن رؤيتها . هم الذين نفخوا روح الحياة في العالم وانجبوا وهبطوا على النساء من الاعالي وقتلوا وبرقوا وارعدوا وجاؤوا الى الارض في هيئة صواعق . لم يكن لديهم موطن ولم يكونوا لاحد ولا لاية قبيلة . لكنهم بالتدريج اكتسبوا باللحم وصاروا مرتئين يفضلون الصخور الشاهقة . وفرضوا أماكنهم في مراكز سامية . وقام البشر بدهن الشحوم على هذه الصخور وبتقديم الاضحيات لها حتى غطوا الصخور بالدماء . ومهما كان الشيء عزيزا على المرء - وليده الاول او ابنته الوحيدة - فقد كان عليه أن يضحي به الى الاله لكي يستطيع الزحف الى فضل الله العظيم .

وعبر قرون من الرفاه . تنعم العرق البشري ببطء وصار متحفزا . وتنعم

(1) أو الربوبية Elohim جاء شرحها في قاموس ويبستر : اسم عبري لله استخدم في العهد القديم في مقاطع تمودالى مراحل متأخرة من التاريخ التوراتي .

الله ايضا وصار متحضرا • وصارت الحيوانات تقدم له كاضحيات بدلا من البشر • وصار يعطى مظاهر يمكن الوصول اليها : الافعى والصقر والعجل الذهبي والسفنكس المجنح (١) • وهكذا في هذه الارض المصرية الغنية والمنرفة بدأ رب العبرانيين ينفس من غيظه • ولكن بغتة جاء الفراعنة المعادون فاقتلعوا العبرانيين من الارض الغنية والقوا بهم الى الصحراء العربية • وبدأ الجوع والعطش مثلما بدأ التذمر والعصيان • ولا بد انهم في هذه المنطقة بالذات قد توقفوا ظهر احد الايام وهم ظمأى وجائعون وراحوا يصرخون : « كم نتمنى لو اننا متنا بيد الله في ارض مصر حين كنا نجلس حول قدور اللحم وحين كنا ناكل الخبز حتى التخمة » فقام موسى بتقديم البخور ورفع يديه الى الله في يأس ثم الصراخ : « ما الذي أستطيع فعله بهذا الشعب الجاحد ؟ بعد لحظة سيلتقطون الحجارة ويرجمونني » •

وانحنى الله على شعبه وسمع • احيانا كان ينزل عليهم المن والسلوى ليأكلوا • وحيانا كان يرسل عليهم سييفا يقطعهم • ويوما بعد يوم وكلما توغلوا في الصحراء اكثر ازدادت ملامحه قسوة وازدادت معاملته لهم ضراوة • في الليالي كان يصيح نارا ترحف الى رؤوسهم وفي النهار عمودا من دخان كان يحشو نفسه في تابوت العهد ، وكان اللاويون (٢) يحملونه مذعورين فاليد التي تلمسه تستحيل الى رماد •

وازدادت ملامحه صرامة • صارت فظة واخذت مظهر اسرائيل القاسي • لم يعد مجموعة من الارواح اللامرئية والتي لا اسماء لها والمبعثرة في الهواء دون ماوى كما لم يعد رب الارض كلها • لقد صار يهوه ، الرب القاسي المنتقم المتعطش للدماء لعرق واحد من البشر ، العبرانيين • كان عليه أن يكون قاسيا ومنتقما ومتعطشا للدماء لانه كان يمر في ظروف صعبة فقد كان يحارب العماليق والميديانيين والصحراء • وكان عليه ان ينتصر عليهم - بتحمل الالام وبالمكيدة والقتل - وينقذ نفسه •

هذا الوادي المجذب القاحل الموحش الذي كنا نتجازه كان الغمد الرهيب ليهوه • من هنا مر وهو يزار •

كيف يمكن لاي انسان ان يعرف العبرانيين معرفة حقيقية دون ان يعبر هذه الصحراء المخيفة ودون ان يجربها ؟ لثلاثة ايام مديدة رحنا نعبها

(١) كائن خرافي في الميثولوجيا اليونانية له جسم اسد واجنحة طائر ومدر امرأة ورأسها .
(٢) نسبة الى قبيلة لاوي العبرية .

على جمالنا • حنجرتك تطقطق من العطش ورأسك يدور وعقلك يهوم
وانت تلتف في هذا الوادي المتعرج الاملس • حين يتطرق (١) شعب طوال
أربعين عاماً في هذا الاتون فكيف يمكن لشعب كهذا ان يموت ؟ فرحت
لرؤية الحجارة الرهيبة التي ولدت عليها فضائل العبريين : دأبهم ، وقوة
ارادتهم وعنادهم وقدرتهم على الاحتمال وفوق كل شيء لحم الرب الذي
من لحمهم ولهبه الذي من لهيبهم ذلك الرب الذي نادوه : « أطعمنا واقتل
اعداءنا وقدنا الى الارض الموعودة » •

لهذه الصحراء يدين اليهود بقدرتهم الدائمة على البقاء وفضائلهم
ورذائلهم التي سيطروا بها على العالم • واليوم ، في فترة الغضب
القلقة ، والانتقام والعنف هذه التي نمر بها يبدو اليهود بالضرورة مرة
أخرى الشعب المختار لإله الخروج الرهيب من أرض البرق •

في تلك الظهيرة كنا سنصل أخيراً الى دير سيناء • لقد سعدنا الهضبة
الميدانية على علو أكثر من ٥٠٠٠ قدم • وكنا قد قضينا الليلة السابقة
في مقبرة اسلامية حيث نصبنا خيمتنا أمام ضريح الشيخ • استيقظنا
فجراً • كان البرد لاذعاً وقد غطى الثلج خيمتنا • وكان السهل الممتد أمامنا
كله أبيض ناصعاً • هدمنا سقف كوخ خرب في المقبرة وأشعلنا منه ناراً •
وتصاعدت ألسنة اللهب وتحلقنا حول النار التماساً للدفاء وكذلك اقتربت
الجمال ومدت أعناقها فوقنا •• شربنا منقوع التمر وأعدنا بعض الشاي •
ثم مد البدو بساطاً على الثلج وركعوا وراحوا يصلون ووجوههم النحيلة
التي لوحتها الشمس متوجهة صوب مكة •

التمعت وجوههم وهم غارقون في النشوة • ورحت ، باحترام كبير ،
أرقب هذه الاجساد الثلاثة الصبورة الجائعة الممتلئة بشكل مقبول • لقد
مارس منصور وطعمة وعوا نوعاً من الصعود ، فتحت الجنة أبوابها لهم
ودخلوها • تلك جنتهم الخاصة ، الجنة الاسلامية ، جنة بدوية من الشمس
والجمال البيضاء وقطعان ترعى في سهوب خضراء وخيام متعددة الالوان
وأمامها تتربع النساء ورؤوسهن مردودة الى الوراء مع الضحك وأساور
ذهبية على معاصمهن وكواهلهن ، وعيونهن مكحلة وشعر رؤوسهن محنى
وبقعتان تجميليتان على خدي كل منهن والطعام يتصاعد منه البخار ،
والمناسف (٢) مع اللبن ، وتمر ، وخبز أبيض ، وجرة من الماء البارد •

(١) المقصود كما يتطرق الحديد •

(٢) هي كلمة بيلاف : شرحها الموردي بانها طعام شرقي من ارز ولحم وتوابل •

وكانت هناك ثلاث خيام أكبر من بقية الخيام ، ثلاثة وثلاثون جملا أسرع من بقية الجمال وثلاثمئة وثلاث وثلاثون امرأة أكثر سحرا من بقية النساء : الخيام والجمال والنساء لطعمة ومنصور وعوا .

انتهت الصلاة وأغلقت الجنة أبوابها ونزل البدو الى الهضبة الميدانية واقتربوا من النار صامتين وعادوا الى أعمالهم الارضية المتواضعة مرحين . المهم كم ستطول هذه الحياة ؟ الجنة ستكون الختام ولذا فالصبر جميل .

مددت يدي الى طعمة الذي كان يجلس الى يميني واستظهرت له بالعربية الصرخة الاسلامية المقدسة : لا اله الا الله محمد رسول الله . اهتز مندهشا كما لو انني كشفت سره . شع وجهه بالفرح ونظر الي ثم ضغط على يدي .

انطلقنا . وتابعت على قدمي غير قادر على احتمال الايقاع البيئي المتأني للجمل . جبال من الغرانيت الاحمر والاخضر تنهض على الجانبين . وبين حين وآخر يمر فوق رؤوسنا طائر كالجوكي ، طائر صغير واسود بقلنسوة بيضاء صغيرة . وظهرت في الطرف الاخر من الطريق قافلة من الجمال . اطلق البدو صرخات الفرحة وتوقفنا « السلام عليكم (١) » هتف قائدا الجمالين المقتربين يحييان . تصافحا بالايدي مع أدلائنا وانحنى الزوجان كل زوج للآخر واقتربت الاوجه وبدأ الحديث بأصوات هامسة هادئة ليطول به السلام . وبدأت أسئلة التحية البسيطة القديمة . « كيف حالكم ؟ كيف حال زوجاتكم ؟ وجمالكم ؟ من أين تأتون ؟ والى أين تذهبون ؟ » وراحت كلمتا « سلام » و « الله » تتردد على شفاههم . وأخذ هذا اللقاء في الصحراء المعنى المقدس السامي الذي يجب أن يميز دائما لقاء الانسان بالانسان .

ان لدي أعجابا قلبيا عميقا بأبناء الصحراء هؤلاء . انظر كيف يعيشون - على تمرات قليلة وكمشة من القمح وقدح من القهوة . أجسادهم رشيقة وسيقانهم دقيقة كسيقان الماعز وعيونهم كعيون الصقور . انهم أفقر أهل الدنيا لكنهم أكثر أهل الدنيا كرما . مهما جاعوا لا يأكلون حتى الشبع أو التخمة . يحتفظون ببعض السكر وبعض القهوة وكمشة من التمر ليقدموه لغريب . في رايتو حكى لي الرئيس كيف أن بدوية صغيرة وقفت تحدد الى سائح انكليزي كان قد فتح معلبات الطعام المحفوظ وبدأ يأكل .

(١) موضوعة باللفظ العربي وبالمعنى الانكليزي معا .

وقدم لها الانكليزي لقمة لكنها رفضت بكبرياء ، ثم بغتة داخت من الجوع وانهارت الى الارض .

الحب الاول للبدوي هو جملة . ولقد اعتدت أن أرى آذان طعمه ومنصور وعوا تهتز قلقلًا كلما سمعوا أحد الجمال يطلق أضعف تنهيدة . يقومون ويوازنون السرج ثم يفحصون البطن والخف ويجمعون ما يمكن جمعه من عشب جاف ويطعمونه . في المساء يفكون الحمولة ثم يغطون الجمال ببطانيات من الصوف ثم يمدون على الارض قطعة من القماش وبعناية فائقة ينتقون الاقدار من طعامها .

هناك قصيدة عربية قديمة تمتدح رفيق البدوي المحبوب :

تمشي الناقة في الصحراء وتتقدم
قوية كأخشاب التابوت
فخذاها شبيهان ببوابة برج
وأثار الحزام على خاصرتها
كالبحيرات الجافة المليئة بالحصى
ان لمستها في هذا المكان
تظن انك تلمس ميردا
وهي شبيهة بقنطرة بناها اغريقي
وغطاها بالقرميد . (١)

كنا نحث الخطى في الجبال ونحن نتحرق رغبة للوصول الى الدير . قليل من الماء في حوض طبيعي نخلات قليلة ، كوخ حجري وبعد قليل صليب خشبي مركز على الصخور . وبغثة رفع طعمة ذراعه وصرخ : « الدير (٢) » .

تحتنا وعلى امتداد مكشوف بين جبلين ظهر دير سيناء الشهير محاطا بالجدران العالية . كنت تواقًا لهذه اللحظة ولكن ما أن جنيت ثمار هذا

(١) لنا أن نتصور من هذه الترجمة ما يصيب الشعر عند نقله عبر لفتين : الكلام المثلث هنا هو ترجمتي للترجمة الانكليزية في الشكل ويكون القارىء العربي في الصورة الصحيحة نشر الى انها آيات طرفة بن المدي في وصف الناقة . وهي :
وأني لامضي الهم عند احتضاره
أمون كالوواح الاران نصاتها
نفا فخذان اكمل النخض فيهما
لها مرفقان أتلان كأنها
كمنظرة الرومي اقسـم ربها
بالعربية . (٢)

الجهد الطويل حتى بدأت أحس بفرح هادئ دون صخب . لم أوسع خطاي . ولوهلة أحسست بدافع يدعوني للعودة ، وومضت في المنعة القاسية في حدها الأقصى ، متعة عدم جني ثمرة رغبتني والتمتع بها . ولكن بغتة هبت نسمة دافئة تحمل أريج الأشجار المزهرة ، وانتصر الانسان في فتقدمت .

لقد صار في وسعي الان أن أميز ملامح الدير بوضوح أكبر . جدرانہ وأبراجه وكنيسته وشجرة السرو . وصلنا الى حديقة الراهب التي تقع خارج الجدران . مددت نفسي الى حافة السياج فرأيت أشجار الزيتون والبرتقال والجوز والتين مع أشجار لوز مقدسة هائلة وكلها تلتمع في ضوء الشمس هنا في قلب الصحراء مع الدفاء اللطيف والعبير وصرير الحشرات الصغيرة كانت هنا الجنة !

تمتعت بهذا الوجه للرب لفترة طويلة ، الوجه المرح الذي يحب الناس والمصنوع من التراب والماء والعرق البشري . خلال الايام الثلاثة الماضية كنت أواجه وجهه الآخر : الوجه الرهيب القاتم المصنوع من الغرانيت فقط . لقد قلت لنفسي ان هذا (النار التي تحرق والغرانيت القاسي بما لا يسمح للرغبات البشرية ان تنقش عليه) هو الرب الحقيقي . ولكن الان وأنا انحني على السياج وأنطلع الى الحديقة المزهرة أتذكر بانفعال قول الناسك : « الله رعشة ودمعة لطيفة » .

يعلن بوذا : « هناك نوعان من المعجزات ، معجزات الجسد ومعجزات الروح : وأنا أو من بالثانية لا بالاولى » . ان دير سيناء معجزة للروح . فبني حول بئر وسط الصحراء الوحشية ومحاط بقبائل نهاية تدين بدين مختلف وتتكلم لغة مختلفة ، وظل هذا الدير أربعة عشر قرناً محصناً كالقلعة يقاوم القوى الطبيعية والبشرية التي تحاصره . وفكرت بفخر ان الضمير البشري الاسمى موجود هنا ، الفضيلة البشرية هنا قد أخضعت الصحراء .

لم أستطع كبح ابتهاجي الا بصعوبة . أنا ، هنا ، بين الذرى التوراتية وعلى هضاب العهد القديم المنبسطة ! الى الشرق جبل المعرفة حيث طمر موسى الثعبان النحاسي . والى الورا ارض العمالقة وجبال العموريين (١) والى الشمال جبال كيدار وأدوم وتيمان التي تصل الى صحراء مؤاب (٢) . والى الجنوب رأس فران والبحر الاحمر . واخيرا الى المغرب سلسلة جبال

(١) شعوب سامية متعددة عاشت في العراق وسورية وفلسطين خلال الالف الثالث والالف الثاني قبل الميلاد .
(٢) المؤابيون شعب سامي قديم .

سيناء والقمة المقدسة التي تكلم موسى من فوقها مع الله ، وعلى مبعده قمة القديسة كاترين . كانت حديقة الدير تتلامح بالشمس والثلج وأشجار الزيتون تحف اوراقها بهدوء وأشجار البرتقال تتوهج بخضرتها الزاهية وأشجار السرو تسمو متفردة سوداء وشاهقة . والعير المتصاعد من اشجار اللوز المزهرة يفوح بطيئا ومنظما ، كانفاس الله ، جاعلا منخريك وعقلك ترتعش غبطة .

كيف استطاع هذا الدير - القلعة ، فعلا ، ان يقاوم هبات نسيم الربيع الفاتنة هذه ؟ وكيف ، عبر القرون ، تماسك عن التهاوي الى الارض ذات ربيع ؟



دخلت الدير من بوابة الحصن العالية . وسط باحة واسعة كانت الكنيسة والى جانبها جامع صغير بمئذنة نحيلة . هنا ، اخيرا ، اجتمع الهلال والصليب . وحول الباحة حجرات مغطاة بالثلج ومتلامعة بياضها الناصع ، وكذلك اجنحة الزوار ومخازن المؤن . كان هناك ثلاثة رهبان يتشمسون ، وقفت طويلا وانا استمع اليهم باستغراق ، كان لكلماتهم صدى واضح في صمت الهواء . وكان كل منهم مهتما بان يتكلم ويريح باله . احدهم كان يتحدث عن المعيزات التي رآها في امريكا - سفن بخارية ، مناطحات سحب ونساء واغواء ، راهبة في الليل ، وتحدث الاخر عن تحمير الخروف على السفود في مسقط رأسه والثالث عن معجزات القديسة كاترين ، كيف اخذها الملائكة من الاسكندرية وجلبوها الى هنا على قمة الجبل وكيف انك تستطيع الى الآن ان ترى اثار جسدها على الصخور .

صعدت البرج لكي استطلع الجوار . ورآني راهب شاب صاحب فركض يرحب بي واذا به في الثامنة عشرة من العمر وكريتي ، ولان الشمس قد لوحته فان الزغب الاجعد الكثيف على خديه كان اشقر كستنائيا شخافا . وفيما نحن نتحدث عن موطننا البعيد ظهر رجل عجوز جميل ومسالم يقرب عمره من الثمانين اقترب منا لاهنا مقطوع الانفاس . ولان احدى قدميه قد صارت في القبر لم تعد لديه القوة لان يرغب في خير او شر . كانت احشاؤه ، كما يرغب بها بوذا ، خاوية .

جلسنا ، نحن الثلاثة ، على مقعد طويل في الشمس . واخرج الشاب كمشة من التمر من تحت قميصه وقدمها لي وهي ما تزال مليئة بحرارة جسده . ولمس العجوز ركبتي وبدأ يحكي لي كيف بني الدير وكيف صمد طوال قرون عديدة ، وبدت لي قصة الدير ، وانا جالس في الشمس بين الجبال طرية ، قصة بسيطة وحقيقية كآية قصة خرافية .

« الامبراطور جوستينيان بنى الدير حول البئر التي كانت بنات يترن . يردنه لسقي غنمهن ، وبالضبط في موقع العليقة التي التهمت بالنار ولم تحترق . وارسل جوستينيان مئتي عائلة من بونتوس ومصر للاقامة قرب الدير وخدمته وحمايته وليكونوا خدمه . بعد قرن جاء محمد . زار جبل سيناء وما تزال آثار خف ناقته محفوظة على بلاطة من الفرانيت الاحمر . وقد استقبله الرهبان بحفاوة كبيرة مما ابهجه وارضاه - فلتقل عظامه في جهنم - وجعله يمنح الدير امتيازات عظيمة . وهي مكتوبة بخط كوفي على جلد الرو (1) وقد وقع عليها براحة كفه اذ لم يكن يعرف الكتابة طبعا . وتقول الامتيازات : « اذا التجأ راهب من سيناء في السهل او الصحراء ، في الجبال او في كهف فساكون معه وساحميه من كل اذى . سادافع عن قاطني سيناء حيثما كانوا - في البر والبحر في الشرق او الغرب ، في الشمال او الجنوب . ولن يكون عليهم ان يدفعوا جزية ولن يستدعوا للتجنيد او لدفع الضرائب ولن يدفعوا عن محاصيلهم عشرا . وستخيم اجنحة الرحمة فوق رؤوسهم . . . »

وبينما كان العجوز يتكلم ، قام صوته البعيد عن اي اتصال انساني ، باحياء الجبال والجدران الينزنتية المحيطة بي ، وامتلا الجو بالقديسين والشهداء . وراح اليافع الكريتي بجانبني يستمع الى الاسطورة الاعجازية بفم فاغر وهو غارق في النشوة . تحتنا في الباحة كان الرهبان قد خرجوا من حجراتهم لوزن القمح الذي جلبه العرب . وكان باب المطبخ مفتوحا واستطعت من خلاله ان اري مائدة طويلة محملة بسرطانات بحرية ضخمة وحمراء ، وراهبا شاحبا متلفعا ببطانية بنية يرسم محارة بحرية كبيرة .

قال العجوز وهو يضحك : « هذا هو الاب باكوميوس . انه نصف مجنون . هذا الاهل المسكين يرسم ضورا »

قلت وانا راغب في الدفاع عن الفنانين جميعا : « الرسول لوقا كان رساما ايضا »

« انها غواية كبيرة يا بني - فليبعدك الله عنها . يجب ان تكون رسولا لكي تستطيع المقاومة »

كان على حق . فسكت . نهضت ونزلت الى الباحة . كان الرهبان يحملون الثلج ويلعبون به كالاولاد . لقد كانوا مشرورين لان الثلج قد هطل

(1) نوع من الايائل .

فذلك يعني ان الصحراء ستعشب وان الاغنام والماعز سوف تأكل والناس سوف يحصلون على كفايتهم من الخبز .

جاء عدد من العبيد وجلسوا عند جدار الدير . وراحوا يدخنون ويؤشرون ويتحدثون بأصوات مرتفعة . وكان بينهم بعض النساء القذرات الحافيات متلفعات بأرواب سوداء ، وشعورهن مدفوعة فوق جباههن على هيئة الكعك مثل قربوس السرج ، ووجوههن مغطاة من انوفهن وما تحت بسلاسل دقيقة في نهاية كل منها اصداق وقروش فضية صغيرة . فتحت كل امرأة رداءها واخرجت منه طفلا وضعته على الحجارة امامها . كان الجميع ينتظرون ان يظهر الرهبان ويلقوا لهم الحمص اليومية : ثلاثة ارغفة صغيرة مدورة لكل رجل ، وרגيفين لكل امرأة وطفل . والقاعدة هي ان يحضروا شخصيا لتلقي هذا الطعام ولقد غادروا خيمهم منذ ساعات لكي يصلوا في الوقت المناسب . غير ان هذه الارغفة الصغيرة لا تسد جوعهم ولذا فانهم يجمعون الجنادب (١) التي يجففونها ويطحنونها ثم يعجنونها ليصنعوها خبزا .

تأثرت كثيرا وانا ارى هؤلاء الاخوة البعيدين . قرونا وهم يحيطون بهذه الاسوار البيزنطية ، والارغفة الصغيرة (المعمولة في معظم الاحيان من النخالة) تلقى اليهم كالصخور . انهم يعيشون ويموتون بتهديدهم للدير ، واليوم تماما كما في ايام يترو البنات هن اللواتي يرعين الاغنام . لا أحد يزعجهم . حين يقع شابان في الحب يتسللان سرا ويذهبان الى الجبل . يقوم الشاب بالعزف على الناي والفتاة بالغناء دون ان يلمس احدهما الاخر . ثم ينزل الفتى فيلقي ببرنسه عليها ويغطيها . ويأتي والد الفتى وكذلك يأتي الشيخ . يمسك الابوان بسعف نخل ويقسمانه الى قسمين . وعندها يقول والد الفتاة : « أريد الف ليرة (٢) مقابل ابنتي » .

ويهتف الشيخ : « الف ليرة ! لكن ابنتك تستحق الفين . والعريس راغب في دفع هذا المبلغ . وعلى اية حال من اجل خاطري اخفض له خمسمئة ليرة .

ويجيب الاب : من اجل خاطر الشيخ اتنازل عن خمسمئة وفي الوقت ذاته يكون الاقارب قد توافدوا واحدا بعد الآخر وجلسوا متربعين امام الخيمة . وعند هذه المرحلة ينهضون :
- خفض له مئة اخرى من اجل خاطري .

(١) والجراد .

(٢) هو يذكر Pound وقد تكون جنيتها او ديناراً . انا استخدم هنا الليرة كوحدة نقدية .

- ومئة اخرى • يقول آخر •
- وخمسين ...
- وخمسة وعشرين اخرى ••
- الى ان يتم تخفيض المبلغ الى ليرة واحدة •
- وفي هذا اللحظة تبدأ النسوة اللواتي كن يطحنن القمح في زاوية بالزعرده
- « لو •• لو •• لو •• لو •• لو •• » •
- وينهض والد الفتاة •
- « ومن اجل خاطر النساء اللواتي يطحنن القمح اقدم ابنتي لقاء
- نصف ليرة •
- ياكلون ويشربون ويرقصون حساء العرس بأذلين كل ما يملكونه •
- وهكذا استمرت عادات الصحراء دون تغيير طوال آلاف السنين •



جاء الكريتي الشاب وقال لي : « الآباء المقدسون ينتظرونك في قاعة الاستقبال • فتفضل » •

ما يقرب من عشرين راهبا كانوا يجلسون في القاعة الكبيرة التي يتم فيها استقبال الضيوف ، راحوا يحدقون الي بفضل • كان علي ان اقبل ايديهم جميعا ولكن لوجود كثيرين منهم قررت ان ذلك سيكون مملا فلم اقبل الا يد رئيس الدير • كان يجلس في الوسط نحيلًا وقاسيا دون ان يتكلم • ومرة اخرى القهوة وملعقة المرعى وكأس من خمر التمر والكلمات اللطيفة العريقة - من اين انت ؟ من انت ؟ اهلا وسهلا !

الرئيس ، شجرة السنديان العتيقة المبخرة والمفحمة بصواعق الله ، كان ينظر الي لكنني كنت واثقا من انه لا يراني • بدأت عيناه تغيما • ما عادت تميزان العالم المرئي بوضوح ، كان ينظر الي ويرى وراء كتفي مدنا كبيرة : الـ « عالم » المتمرغ في الرذيلة والخلاء والصفافة والموت • قلت له انني امر في ازمة واستأذنت في المكوث في الدير عدة ايام ريثما تستقر روحي وتصل الي قرار •

وسألني الرئيس : « هل ترغب في ان نجد الله » • وادركت انه قد رآني الان للمرة الاولى ، اما قبل ذلك فكان ينظر الي فقط • واجبته : « اريد ان اسمع صوته • اريد منه ان يدلني على اي طريق نثار • فهنا ، في الصحراء فقط ، تستطيع الروح ان تسمعه » • وقال الرئيس : « الاصوات كلها يمكن ان تسمع هنا في الصحراء • خاصة صوتان من الصعب الفصل بينهما : صوت الله وصوت الشيطان •

فانتبه يا بني » •

دخل راهبان الى قاعة الاستقبال ليريا الحاج الجديد ويحيياه • كان اولهما المسؤول عن الضيافة ، وهو شخص بدين ذو لحية جعداء وعينين زرقاوين ضاحكتين : وعمله ان يعتني بالفرباء • اما الثاني فله ابتسامة حزينة ساخرة ، طويل له شاربان ولحية وحاجبان •• وكلها بيضاء كالثلج ، وكفان طويلتا الاصابع لونهما ابيض ايضا • لم يكلمني بل اكتفى بالتحديق الي وعيانه ترتعشان وتضحكان • تضحكان أم تسخران ؟ في هذه اللحظة لا اعرف • بعد ايام سوف اعرف •

نهض الرئيس • مد لي يده وقال : « فليأذن الله بأن تجد في الصحراء ما كنت تبحث عنه عبثا في العالم » •
ركض راهب ليفتح الباب له • ومشى بخطوات ثقيلة ثم اختفى •
وجاء الي مسؤول الضيافة وقال : « حان وقت الاكل • تعال الي حجرة الطعام من فضلك » •

كان الراهبان جالسين حول مائدة طويلة والرئيس في مقدمتها • وجلب الراهب الذي يقوم بالخدمة وجبة الطعام - سرطانات مسلوقة وخضراوات مع خبز وقدم من الخمر لكل شخص • وبدأ الآباء يأكلون • لم يتكلم احد •
وصعد القارئ منبرا صغيرا وبدأ يرتل تعليقه على درس اليوم : عودة الابن الضال •

مرات عديدة وفي عدة اديرة عرفت هذا الايقاع الطقسي للطعام • بهذه الطريقة تأخذ الوجبة اهميتها العظيمة والروحية الملائمة • قال الراي مرة :
« بالاكل يحرر الانسان الفاضل الله الموجود في الطعام » •

ورتل القارئ بتنغيمات اناقته البيانية عن الابن الضال : عذاباته وخزيه بعيدا عن بيت ابيه ، وكيف كان يأكل بذور الخروب مثل الخنزير وكيف انه ، ذات يوم ، لعجزه عن التحمل اكثر من ذلك ، عاد الى ابيه •••

ووسط هذا الجو العميق من الطاعة المسيحية رحلت افكر لنفسي • في دير اخر اكثر انسجاما مع قلق العصر الروحي وعصيانه كانوا سيقراون النتيجة الفاخرة التي صاغها معاصر خائف لهذه الامثلة • يعود الضال متعبا ومهزوما الى البيت الابوي الهادي • وفي تلك اللية التي اضطلع فيها على الفراش الناعم لكي ينام ، يفتح الباب بهدوء ويدخل اخوه الاصغر • يقول : « اريد ان ارحل • لقد صار بيت ابي سجنا خانقا ! » ويسر الاخ العائد لتوه مهزوما لسماع هذا الكلام • يعانق اخاه ويبدأ بتوجيه النصح له حول ما يجب ان يفعله والاتجاه الذي عليه ان يسلكه وهو يحثه على ان يثبت انه اكثر

شجاعة وثقة بالنفس مما كان مو ، وعلى ان لا يتنازل بالعودة الى « الاصطبل » الابوي (هكذا يسمي بيت ابيه) ، ويرافق اخاه الى الباب ويهز يده وهو يفكر ان اخي سيكون أقوى مما كنت ولن يعود .



كيف سأستطيع نسيان الليلة الاولى التي قضيتها في حصن الله الصحراوي ؟ اصبح الصمت مليئا بالاشباح ، وتحلق من حولي وكأنني قد سقطت الى قاع بئر جافة مظلمة . ثم تحول بغتة الى صوت وبدأت روعي ترتعد .

« ما الذي تريده هنا في بيتي ؟ أنت لست نقيًا ولا شريفًا . نظرتك تطير بهذا الاتجاه في البدء ثم في ذلك الاتجاه . انني لا اثق بك . انت مستعد للخيانة في اية لحظة . ايمانك خليط دنس من الالحادات المتعددة . انك لا تعرف ان الله يجلس منتظرا في نهاية كل طريق ، ستظل على عجلة دائما ، وستفقد شجاعتك دائما في منتصف الطريق وترجع لتسلك طريقا اخر . الناس العاديون لا يرون السيرانات (1) ولا يسمعون اغنيات في الجو . يجلسون عميانا وطرشانًا ، وهم محنيون في قبضة الارض وفي سبيلها . ولكن المصطفين ، القباطنة ، يسمعون سيرانة في اعماقهم - في روحهم - فيتبعون صوتها بشجاعة . ما الذي تظن انه يجعل للحياة قيمة غير ذلك ؟ اما القباطنة Captains المنسكين المهمومون فيسمعون السيرانة ولا يصدقون . يتحصنون وراء الحذر والجبن ويظلون طوال حياتهم وهم يزينون الحجج المؤيدة والحجج المعارضة بميزان تحليلي دقيق . والله ، الذي لا يعرف ان يلقي بهم ، والذي لا يرغب بهم زينة لجهم او دنسا للجنة يأمر بأن يظلوا مقلوبين في الهواء متأرجحين بين الفساد والطهر » .

توقف الصوت . وظللت انتظر ووجنتاي متهبتان احمرارا من الخجل والغضب . ثم من مكان ما - اتساءل ان كان من الصحراء نفسها - اكتسبت القوة لأرفع رأسي احتجاجا وعصيانا .

- لقد وصلت الى النهاية . وفي نهاية كل طريق وجدت الهاوية .
- لقد وجدت عجزك عن ان تتابع . الهاوية هي الاسم الذي نعطيه لكل ما لا نستطيع عبوره . ليست هناك هاوية . ولا نهاية للطريق . هناك روح

(1) السيرانة Siren : واحدة من مجموعة كائنات اسطورية (عند الاغريق) لها رؤوس نسوة وأجساد طيور ، كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم مورد الهلاك (المورد) .

الانسان فقط وهي التي تسمي كل شيء بما ينسجم وشجاعتها او جبنها .
المسيح وبوذا وموسى ، كلهم ، وجدوا الهاوية . لكنهم نصبوا جسورا وعبروا
من فوقها . ومنذ قرون الى الان وجماهير البشر تعبر وراءهم .
- بعض الناس يصبحون ابطالا بأمر الله . واخرون بكفاحهم . انسا
اكافح .

وتفجرت ضحكة مخيفة من حولي وفي اعماقي .

- ابطال ؟ ولكن ان تكون بطلا يعني ان تلحق نفسك بايقاع منظمتهم
يتخطى الفرد . اما انت فما تزال مليئا بالقلق والكسل . ولعجزك عن اخضاع
الفوضى التي تعتمل في داخلك وعن خلق الـ « كلمة » المتكاملة الواحدة تنتحب
بقناعة ذاتية : «الصيغ القديمة خانقة ٠٠٠ » ولكن لو انك تقدمت ابعد من
ذلك في الفكر او في الفعل لاستطعت ان تصل الى الحدود البطولية التي تتمكن
فيها عشرة ارواح مثل روحك ان تجد مكانا لها وان تعمل . ولو انك تلقيت
دوافعك من رموز سماوية معروفة لاستطعت ان تدفع نفسك في تجارب
دينية خاصة بك ، وان تعطي (هذا ما تبحث عنه لكنك لم تكتشفه بعد)
صيغة معاصرة للعواطف القديمة نحو الله والانسان .

- انك ظالم . قلبك لا يعرف الشفقة . كنت اسمعك من قبل ايها الصوت
القاسي - كلما وقفت على مفترق طرق لأختار سبيلي .
- وستظل تسمعني دائما كلما هربت .
● لم اهرب ابدا . انني اتقدم دائما متخليا عما احب وقلبي ينشط
نصفين .

- والى متى ستظل تفعل ذلك ؟

● الى ان اصل الى ذروتي . هناك سأرتاح .

- ليست هناك ذروة . هناك مرتفعات فقط . لا راحة . بل كفاح فقط .
لم انت مندهش ؟ ولم تحدد هكذا بعينين جاحظتين ؟ ألم تعرفني بعد ؟
تظن انني صوت الله . أليس كذلك ؟ لا . انا صوتك انت . انني اسير معك
دائما ولا اتركك ابدا . اسفي عليك لو انني تركتك لنفسك ! ذات مرة ،
تلك المرة التي قفرت فيها غاضبا من صلبك وسمتني اسما احتفظت به
لأنني احببته . انا (مرافقتك الجوابة - النمرة) .

توقف الصوت . ازددت ثقة حين عرفته . لم علي ان اخاف من هذه
النمرة ؟ اننا نرجل معا دائما . لقد رأينا كل شيء وتمتعنا معا بكل شيء .
ونحن ، الاثنين ، قد أكلنا وشربنا في اراض غريبة ، وقاسينا معا ، ومعا
استمتعنا بالمدن والنساء والافكار . وحين نعود الى حجرتنا الهادئة محملين
بالغنائم ومثخينين بالجراح ، تشق هذه (النمرة) طريقها بمخالبها الى

قمة رأسي حيث وجارها • وتمدد نفسها باحكام حول جمجمتي وتنشب
برائنها في دماغي ، وكل منا ، دون لجوء الى الكلمات ، يتأمل في ما رأيناه
ويتوق الى ما يجب ان نراه •

نبتهج لأن العالم المرئي والمخفي كله لغز عميق مبهم - لا يمكن ادراكه
ويتجاوز الفكر والرغبة واليقين • نتبادل الاحاديث ، انا ومرافقتي الجوابة
النمرة ، ونضحك لاننا قاسيان ولطيفان وقلقان • نضحك من عدم استقرارنا
على الرغم من اننا واثقان اننا ذات مساء سوف نتحول الى كمشة من
التراب ونستقر •

يا روح الانسان ، ايتها النمرة ، يا مرافقتي الجوابة : ما امتع ان نحيا
ونحب الارض وان ننظر الى الموت دون خوف •

نهضت في الفجر تواقا الى السير في الصحراء • كانت نجمة الصباح
ما تزال ظاهرة والضوء اخافت قد انتشر على ذرى الجبال • استيقظت
طيور الحجل ، والجبل كله بقمته المقدسة التي نزل عليها يهوه ، تردد اصداء
القوقاة • صفت السماء وذابت الثلوج المتراكمة في الاسفل وشربتها الرمال ،
ولكن الثلوج في اعالي الجبال ما تزال تتلامع بلونها القرنفلي تحت الاشعة
الاولى للشمس • لا صوت ، لا دليل على الماء ، لا عشبة خضراء • عزلة
وحشية مقتصرة على الرمل والله •

لا شك ان نوعين من البشر ، فقط ، يستطيعان ان يتحملا العيش في
صحراء كهذه : المجانين والانبياء • ان العقل يتداعى هنا ليس من الخوف بل
من الرهبة المقدسة • قد ينهار احيانا ، فيبدد طمأنينة الانسان. وقد يندفع
احيانا اخرى عاليا فيدخل السماء ويرى الله وجها لوجه ويلمس هذب رداؤه
اللاهب دون ان يحترق ، ويسمع ما يقوله الله ثم يأخذ ذلك ويلقيه في وعي
الناس • في الصحراء فقط نرى ولادة هذه الارواح العنيفة التي لا تنضب
والتي تثور عاصية رافضة حتى ضد الله ذاته وتقف امامه دون خوف وعقولها
من المادة البهية نفسها التي لحاشية الله • يراها اله فيحس بالفخر لأن
نفسه لم يتبدد فيها • ولم يتنازل الله كي يصبح انسانا •

نبيان كانا يسيران في الصحراء وهما يتخاصمان • ادعى الاول ان الله
نار وادعى الاخر ان الله قرص عسل • ورغم ان صوتيهما قد بح من الصراخ
فان احدا منهما لم يستطع ان يكسب الاخر الى صفه •

واخيرا اشار الاول غاضبا نحو الجبل المواجه له وقال : « ان كنت اقول
الحق فان الجبل سيرتجف » •

حين قال ذلك بدأ الجبل بالرجفان •
 فأجاب النبي الثاني باحتقار : « هذا ليس برهانا » •
 - ان كنت أقول الحق سينزل من السماء ملاك يغسل قدمي •
 وحين قال ذلك نزل ملاك من السماء وانحنى بذل وبدأ يغسل قدميه •
 لكن الاخر هز كتفيه وقال : « هذا ليس برهانا » •
 - ان كنت أقول الحق سيهتف الله : هذا صحيح •
 حين قال ذلك سمع من السماء صوت يهتف : « هذا صحيح » •
 لكن النبي الثاني اكتفى بهز كتفيه مرة اخرى والقول : « هذا ليس
 برهانا » •

في تلك اللحظة كان اليشاع ماراً بالسماء وحين رأى الله يضحك اقترب
 منه وسأله : لم تضحك يا رب ؟

فأجاب الرب : لانني مسرور يا اليشاع • على الارض تحتي ارى رجلين
 يتحدثان وهما ابناي الحقيقيان » •

وفيما انا اسير كنت افكر باعجاب بالنبيين العنيفين • وبدأ لي انني
 ما ازال قادرا على رؤية آثار خطاهما على الرمل • سعيد هو الاب الذي يستحق
 الحصول على أبناء كهؤلاء • وقلت لنفسى ايضا : سعيدة هي الصحراء التي
 رأت اسدين كهذين يمشيان عليها وهما خارجان من ادغال الله •

في اليوم التالي صعدت مع الاب اغابيوس والاب الرسام باكوميوس
 الى القمة المقدسة ، الحصن الشفاف الذي فيه رأى موسى ربه « وجها
 لوجه » وتحدث اليه • كان الخط الافقي المفاجيء يبدو عن بعد مثل عرف
 خنزير بري • يسأل اللوح : « ما الذي تساوينه ايتها الجبال الباقية ، ايتها
 الجبال المغطاة بالعشب والقطعان والاجبان ؟ جبل واحد ، واحد فقط هو
 الجبل الحقيقي ، جبل سيناء الذي نزل عليه الله وهو يقيم الان فيه » •

يهوه ، شيخ بني اسرائيل المخيف ، يجلس متربعا على قمة هذا
 الالوب العبري ، يتربع على قمته كالنار جاعلا الجبل يتبخر • لا احد
 يستطيع لمسه ولا احد يستطيع رؤيته وجها لوجه • كل من رآه مات • يهوه
 يعرف بالنار • كان يلتهم كل ما كان العبرانيون يلقون به الى اللهب •
 وفوق كل شيء اخر كان يحب التهام اطفالهم •

حين صعدنا الـ ٣١٠٠ درجة المؤدية من سفح الجبل الى قمته مررنا
 بباب منخفض مقوس محفور في الصخور • في الازمنة التي كان الناس يخافون
 فيها لمس القمة كان يجلس هنا من يتلقى اعترافاتهم • كل من يتسلق جبل
 الرب يجب ان تكون لديه يدان نظيفتان وقلب طاهر ، والا قتلته القمة •

اليوم يبدو الباب مهجورا ، تستطيع الايدي الملطخة والقلوب الخائطة ان تمر دون خوف • فالقمة لم تعد تقتل •

• مررنا •

فوقنا كان الكهف الذي رأى فيه النبي الإشاع رؤياه العظيمة • دخل الكهف فأرعد صوت الرب : « غدا تذهب وتقف امام الرب • ستهب عليك ريح قوية عاتية تقتلع الجبال وتحطم الصخور لكن الرب لن يكون في الريح • وبعد الريح ستأتي هزة ارضية لكن الله لن يكون في الهزة • وبعد الهزة نار لكن الرب لن يكون في النار • وبعد النار نسيم عليل بارد • وهناك يكون السرب » •

هكذا تأتي الروح ، بعد العاصفة والهزة والنار ، نسيم عليل بارد وهكذا ستأتي في ايامنا ايضا • اننا نمر في فترة الهزة ، والنار تقترب وفورا (متى ؟ بعدكم جيل ؟) سيهب النسيم العليل البارد •

وفوق هذا الكهف وقف باكوميوس و اشار الى رف صخري : « هنا وقف موسى يوم حارب العبرانيون العمالقة • وطالما ابقى ذراعه مرفوعة عاليا كان العبرانيون ينتصرون لكنه حين تعب واخفضها تحول العبرانيون الى دهماء فجاء قسان هما ، هرون وحور ، وثبتا ذراعي موسى مكانهما الى ان كان اخر الاعداء قد « طردوا بحد السيف » •

كانت لهذه الاساطير في روح باكوميوس الساذجة اهمية لا مثيل لها • كان يحدق مدهوشا بعينين جاхظتين وكأنه يحكي عن غيلان مقدسة - الديناصورات والبهاضم (1) - ما تزال تجوب الجبال ويمكن ان يراها كل من كان قلبه طاهرا •

كان الاب اغابيوس النحيل الهزيل يقودنا في الطريق برشاقة الشباب • لم يكن يتكلم بل كان تواقا الى الوصول للقمة لانزعاجه من ثرثرة الاب باكوميوس •

حين وضع قدمه على القمة المقدسة اضطرب قلبي • لم يسبق لعيني ان تمتعتا بمشهد اكثر مأساوية وروعة • تحتنا البتراء العربية بجبالها الارجوانية العميقة وعلى مبعده التخوم الزرقاء لبلاد العرب السعيدة والبحر لاخضر البراق يتلأأ مثل الفيروز • والى الغرب الصحراء التي ينطلق البخار

(1) البهضم بهيمة منقرضة من الدرداوات - المورد .

هنا تحت الشمس ووراءها بعيدا في خلفيتها جبال افريقيا • وفكرت : هب
تحد روح الانسان الواثق او اليائس سعادتها القصوى •

دخلنا كنيسة صغيرة على القمة • وبدأ باكوميوس يحك الجدران
بأظافر يديه باحثا عن بقايا اللوحات الجبسية القديمة • وأشار بلهجة
المنتصر الى الاعمدة البيزنطية الصغيرة للنافذة ودعاني بفخر لأرى رمزي
الروح القدس : حمامتان بيزنطيتان بمنقارين متصلين • كان يجهد نفسه
لاكتشاف الحياة القديمة واعادة بنائها دون ان يسمح للماضي بالعبور •
هنا على القمة ، حيث هبط الله مثل لهب متقد ، كانت روح المنقب الاثري
تزعجني • التفت الى الراهب وسألته : « كيف تتصور الله يا أب
باكوميوس ؟ » ألقى علي نظرة متحيرة وبعد ان فكر قليلا أجاب : « مثل
الاب الذي يحب ابنائه » فصرخت : « يا للعار ! هنا على جبل سيناء تجرؤ
على التحدث عن الله بهذه الطريقة ؟ ألم تقرأ الكتاب المقدس ؟ الرب الاله
(نار مهلكة) » •

- نم تقول لي ذلك ؟
- لكي تدعها تحرق هذا كله - اعني الماضي • اتبع نار الله يا باكوميوس
ولا تجمع الرماد •

وفتح الاب اغابيوس شففيه وقال : « استمع لنصيحتي وتوقف عن التعامل
مع نفسك فوق طبيعة الله • لا تلمس النار فتحترق • ولا ترغب في رؤية
الله لثلا نعلمي » •

وفتح الحقيبة التي كان يحملها على ظهره فأخرج زوجا من الحمام
المقلي وسرطانين بحريين وكمية من الجوز والتمر وحقا خشبيا مليئا براكبي
التمر ورغيفا كبيرا من خبز القمح •
- « الطعام جاهز ! » •

بغثة ادركنا كم كنا جائعين • مددنا الطعام على نضد صخري في النقطة
التي يقال ان آثار قدمي موسى ما تزال ظاهرة ، وهو منخفض شبيه بتابوت
طفل صغير • واسلم باكوميوس نفسه للحمام المقلي بشهية منفتحة ناسيا
الحمامتين اللتين تتبادلان القبل والحمامات الحجرية • لم يسبق لي أن رأيت
انسانا يشغل عينيه ويديه واسنانه بهذا الشره • حتى انه اخذ العظام
الصغيرة المتبقية وكومها امامه وبدأ يمصمصها •

قلت له ضاحكا : « لقد عادت الحمامتان الى الحياة يا اب باكوميوس •
ادخل الى الكنيسة وسترى انهما ما عادت موجودتين » •
فقال باكوميوس : ولم تضحك ؟ كل شيء ممكن •
وهتف اغابيوس الذي لم يكن يهتم ابدا بشره الاخر : « نعم ! ولو ان

الروح القدس كان حمامة لاكلته ايضا ا « ثم رسم الصليب على نفسه وتطلع الى الصحراء وهو يتنهد .
وسالته : « لم تتنهد يا أب اغابيوس ؟ » وقد كنت تواقا لمعرفة المزيد عن هذا الراهب الصارم الذي تسلق الجبل بهذه الحيوية على الرغم من كبر سنه .

فاجاب : « وكيف استطيع ان لا اتنهد ويديا وقدماي - وقلبي - مغطاة بالوحل ؟ لقد حلت اشيرا الساعة التي يجب ان اقدم نفسي فيها امام الله - ولكن بأية يد واية قدم واي وجه ؟ يديا ملطختان بالدم وقدماي موحلتان . من سينظفها لي ؟

فقال باكومبيوس لريحه : « المسيح سيقوم بذلك يا أب اغابيوس والا فلم نزل الى الارض ؟ يجب ان تقول له : ها هي يديا وقدماي يا مسيحي فاغسلها » .

ضحكت . اكان هذا عمل الله اذن ؟ ان يغسل اقدامنا ؟
وانزعج باكومبيوس فسأل : « لم تضحك ؟ » .

اجبته : بعد اذنك يا أب باكومبيوس ساجيبك بامثلة . ذات يوم كان يعيش ملك في الجزيرة العربية . وكان داهية ، يجمع عبده كل صباح قبل الفجر ولا يسمح لهم ان يبدأوا العمل قبل ان يأمر الشمس بالبروغ . وذات يوم جاءه حكيم اشيب وقال له : (الا تعرف ان الشمس لا تنتظر امرك ؟) ، (اعرف ، اعرف يا استاذنا العجوز ولكن قل لي اي نوع من الالهة لدينا اذا كان لا يستطيع ان يصبح اداة لي ؟) تفهمني يا أب باكومبيوس ؟

ولكن بينما كنت اتكلم كان باكومبيوس قد اكتشف عظمة صغيرة عليها قليل من اللحم فراح يقضمها ولم يجب . التفت الى اغابيوس لكي اغير الموضوع .

- كيف صرت راهبا يا أب اغابيوس ؟

- كيف صرت راهبا ؟ لم تكن رغبتني بل كانت رغبة الله . حين صرت في العشرين من عمري تملكني توق كبير لان البس الرداء . غير ان الشيطان وضع العوائق في طريقي . اية عوائق ؟ ستسألني . حسن . مجرد هذه : كانت اموري تسير بشكل حسن وكنت اكسب مالا . وماذا يعني كسب المال ؟ يعني نسيان الله . كنت متعهدا ابني الجسور والبيوت والطرق واكسب مالا وفيرا . وكنت اقول لنفسي دائما : حالما اخسر اموالي سأذهب لاصبح راهبا . واشفق الله علي . لعبت في البورصة وخسرت كل ما املك . قلت : الحمد لله . قطعت جبالي ورحلت . اتعرف كيف يقطعون جبال منطاد

فيرتفع للسماء ؟ هكذا تركت العالم » .
احمر وجهه الشاحب . لقد تذكر انه خلص نفسه من العالم وأحس
بالسعادة .

- « وهكذا جئت الى هنا . لم تكن لدي فكرة عن اين سأذهب . لكن
الله فضله شامل - امسك بيدي وجلبني الى هنا . جئت لكنني كنت ما ازال
شابا وجسورا . لا تنظر الي الان . لقد شخت ، وذبت ، وتيبست كالزبيب .
في تلك الايام كان دمي ما يزال يضطرم في داخلي . لم أكن استطيع الجلوس
بيدين مطوقتين دون ان افعل شيئا . لم تكن الصلاة تريحني فبدأت اعمل .
شقت طرقا . الطرق التي سلكنها كلها من شغلي . وشق الطريق هو العمل
المحدد لي هنا . هذا ما خلقت لأجله . وان ذهبت الى الجنة فعلى الطريق
التي شقتها » .

وضحك محاولا ان يسخر من آماله « بف !! الجنة ! ابهذه الطريقة يدخل
الانسان الى الجنة ؟ » .

كان باكوميوس ، الذي خدره الاكثار من الاكل ، نصف نائم وهو ملثف
ببطانية ثقيلة ، سمع كلمات اغابيوس الاخيرة ففتح عينيه وقال بصوت
عذب « ستدخلها يا اغابيوس . ستدخل . لا داعي للقلق » فضحك اغابيوس
وقال : « انت لديك كل شيء على ما يرام بالتأكيد . لا خوف على الاطلاق ،
انك تمسك فرشاتك والوانك وترسم الجنة ثم تدخلها . ولكن ماذا افعل
انا ؟ انا ، يا سلام ! ان ابني وابني وابني من الخارج للخارج . علي ان
اشق طريقا ملائما يصل الى بوابات الجنة والا فلن ادخل . كل بما فعل » .
والتفت الي : « وماذا عنك ؟ » .

- انا ؟ انا فيها الان . في خاطري ارى الجنة جبلا عاليا وعلى قمته
كنيسة صغيرة وخارج الكنيسة مقعد حجري وعليه حق من راكي التمر
وحمامتان مقلتان وبعض الجوز والتمر ويرافقني شخصان لطيفان وكلنا
نتحدث عن الجنة » .

لكن باكوميوس كان يرتعش . شد البطانية على جسمه ونهض . كانت
شفتاه قد ازرقتا فانحنى وامسك بحق الراكي وشرب ما تبقى فيه .
بحق الله دعونا نرجع . سنتجمد ونموت هنا .
قال ذلك وبدأ الهبوط .



في تلك الليلة بدأت اقلب صفحات العهد القديم في حجرتي وانا وحيد

محتفظا بصورة الصحراء في اعماق ذاكرتي ، لا شك ان الصحراء خالية الا من واحد ، وهذا الواحد لا يسامح ولا يبتسم ولا يشفق ، ليس الالم سيد الصحراء ولا الظلم او الجوع او الاعياء وليس ، كذلك ، اي اسد جائع ولا الموت ، الله هو السيد .

وبينما انا اقرأ في العهد القديم وصلت الى العليقة التي اشتعلت ولم تحترق ، وتصورت انني اعود الى دخول الوادي الرهيب الذي شقه يهوه بين الجبال لكي يعبره ، بدا لي الكتاب المقدس كسلسلة من الجبال متعددة الذرى حيث نزل الانبياء المولولون مربوطين بالحبال ومتلفعين بخرق بالية .

وبينما انا منحن على الكتاب المقدس قافزا من قمة الى قمة وانا اقلب صفحاته تذكرت الفتاة التي حدثتني ذات مرة بشكل مؤثر عن المراهق المتورد « ذي الملامح الجميلة » الذي اختاره الله ملكا رغم معارضة البشر .

وملا النبي الوقور صموئيل ، الذي اعترض فدعك بين يدي الله ، قلبي بالاسى ، ولكي اخفف من اساي اخذت ورقة وبدأت اكتب ، تلك هي وسائل الجبان التي تعودت ان الجأ اليها للتخفيف من احزاني :

- « صموئيل ! »

كان النبي الوقور بحزامه الجلدي واسماله المرقعة يحدق الى المدينة من عل فلم يسمع نداء الله ، ووقفت الشمس على علو ذراع فوق الافق ، وكان جيلغال الخاطيء يغمغم من تحت وهو محشور بين صخرتين حمراوين في جبل الكرم بنخيله الممشوق كالسيوف وتينه البري المثقل بالثمار .

« صموئيل » رن صوت الله مرة اخرى ، « لقد شخت يا صموئيل يا خادمي الامين ، الا تستطيع ان تسمعني ؟ »

وارتعش صموئيل ، وتقاطع حاجباه الكثيفان غضبا وارتجفت لحيته الطويلة المشعثة بعنف ورددت اذناه الاصداء كمحارتين ، وصهلت اللعنة في احشائه كمهرة غير مروضة .

« لعنتي » جار وهو يمد ذراعه النحيلة فوق المدينة التي كانت تضحك وتغني وتصخب كعش من الدبابير « لعنتي على كل من يضحك ، وعلى الاضحيات العاصية التي تلتخ وجه السماء ، وعلى المرأة التي تضرب قبقابها على حجارة الشوارع ا » .

الهي يا الهي ا هل انطفأت الصواعق في راحتك البرونزية لقد نفخت علتك المقدسة على الجسد النقي لمليكننا فسقط على الارض يرغي كالبزاق

ويفتح كسلفه • بلاندا • فلماذا ؟ ما الذي فعله لك ؟ انني اسالك - اجبني ،
سلط الطاعون ، اذن ، على البشر كلهم ان كنت عادلا ، واستخرج بذور
الرجال من اصلابهم وارشقه على الصخور ا •

وأرعد الرب للمرة الثالثة : « صموئيل اهدأ يا صموئيل واصغ الى
صوتي ا » •

بدأ جسد النبي يرتجف وحين انحنى ليستند على الصخرة الملتصقة
الدم ، حيث تذبح قرابين الله ، سمع صرخات الله الثلاثة دفعة واحدة •
رفع ذراعية عاليا ونادى : « انا هنا يا رب » •

- صموئيل • املا ابريقك بالزيت النبوي واذهب الى بيت لحم •
ولكن بيت لحم بعيدة • وقرن من ضرب الارض في خدمتك قد يبس
قدمي • امتط شخصا اخر يا الهي انا لم اعد استطيع •
- انا لا اكلم اللحم • هذا ما اهتقر وارفض ان المس • انا اتحدث الى
صموئيل ا

- تكلم يا الهي • انا هنا •
- املا ابريقك يا صموئيل بزيت النبوة واذهب الى بيت لحم • ودون •
ان تفتح فمك ، ودون ان تسمح لأحد بمرافقتك اقرع باب يسى •
- لم يسبق لي ان ذهبت الى بيت لحم • فكيف سأعرف باب يسى •
- لقد علمته ببصمة من الدم • اقرع باب يسوع • ومن ابنائه السبعة
اختر واحدا •

- أيهم يا ربي ؟ لقد حسر بصري ولا استطيع ان ارى جيدا •
- حين تقابله سيخور قلبك مثل عجل • هذا هو الذي عليك ان تختاره •
افرق شعره حتى ترى قمة رأسه وادهنه لتوجه ملكا على اسرائيل ••• لقد
تكلمت ا

- لكن شاؤول سيعرف • وخلال عودتي سينصب لي فخا ويقتلني •
- وماذا يهمني ؟ انني لا اقيم وزنا لحياة خدمي • اذهب •
- لا • انا ارفض •

- امسح العرق عن وجهك يا صموئيل • وتحكم بفكيك فلا يصطكان ثم
كلمني انا ربك • انك تتأتىء يا صموئيل ا تكلم بوضوح •
- انني لا اتأتىء • لقد قلت انني ارفض ان اذهب •
- تكلم بنعومة وهدوء ا انك تزعق وكأنك خائف • لم ترفض ان تذهب ؟
انني واثق من أن صموئيل سوف يتلطف باجابتي • هل أنت خائف ؟

- لا لست خائفا • الحب يمنعني من الذهاب • فأنا الذي دهنت شاؤول
ملكاً على اسرائيل • لقد احببته اكثر من اولادي • ولقد نفخت روحي بين
شفتيه الشاحبتين ، انها روح النبوة ، روحي ، التي جعلته شهيرا • انه
جسدي وروحي ، لن اخونه •

- لم تصمت ؟ هل فرغ قلب صموئيل بهذه السرعة ؟
 - يا رب • انك القادر على كل شيء • لا تلعب بي • اقتلني • لا خيار لك - اقتلني !
 امتلأت عيننا صموئيل بالدم • فتمسك بالصخرة وراح ينتظر •
 وزار قلبه مرة أخرى : « اقتلني ! اقتلني ! »
 - « يا صموئيل » صار صوت الرب هنونا الان • كان يبدو وكأنه يستغطفه • لكن النبي العجوز ازداد عنفا وضراوة •
 - اقتلني • اقتلني الا خيار لك !

لا جواب • عبرت الظهيرة وتحدرت الشمس • وظهر ولد داكن حافسي القدمين • صعد الطريق واقترب من النبي مرعوبا وكأنه يقترب من حافة هاوية • وضع وجبة النبي المؤلفة من التمر والعسل والخبز وجرة من الماء في ظل صخرة ثم انصرف مسرعا بانفاس لاهثة • ونزل الى المدينة وغاب في كوخ أهله المتواضع • وانحنى أمه عليه وهي تعانقه وسألته بصوت مرتجف :
 « أما يزال ؟ أما يزال ؟ »

فأجاب الولد : ما يزال • ما يزال يتصارع مع الرب •
 غابت الشمس وراء الجبل • وظهرت نجمة المساء معلقة فوق المدينة الخائثة كبذرة من نار • رأتها امرأة شاحبة من وراء حصيرة (1) النافذة فصرخت « ستسقط الإن وتحرق العالم !!! » •

وراحت النجوم تعوم متلاعبة متوهجة فوق جدائل النبي الطويلة وهي تدور مذعنة على عجلات غير مرئية • وبينما كان يقف في وسطها مرتعدا اندفعت في شعره واصطدمت بصدغيه مثل حبات ضخمة من البرد •
 وهمس مخاطبا : « يا رب • يا رب » ولم يستطع ان ينطق بشيء اكثر من ذلك •

أخذ الجرة وملاها بالزيت النبوي وأمسك بعكازه ذي العقد وبدأ نزوله • كانت لقدميه اجنحة نامية ، وكانت قطرات الندى تتلامع على لحيته البيضاء كالنجوم • كان طفلان يلعبان عند عتبة أول بيت انطلقا هاربين منذ أن لحا أسمال النبي المرقعة وعمامته الخضراء • وبدأ الصراخ : « انه قادم • انه قادم » •

وقبعت الكلاب في الزوايا واذنابها بين سيقانها • وخارت عجلة وهي

(1) حصيرة تسح للنور والهواء بدخول الحجرة وترد عنهما اذى الشمس المطر (المورد) •

تمد رقبته على الارض ، وهبت دفعة من الريح القوية فعبرت المدينة من طرفها الاول الى طرفها الاخير . اوصدت الابواب ، ودعت الامهات أطفالهن وأدخلتهم من الشوارع . وراح صموئيل ، وهو يدق عكازه على الحجارة ، يتقدم بخطوات واسعة ليعبر وتمتم : « أحس كأن حربا معلقة فوق رؤوس البشر ، كأنه الطاعون أو الله » .

وظهر في الطريق راعيان يحمل كل منهما عصا طويلة . وحالما رأيا النبي انبطحا على الارض . « مرني ان احطم جمجمتيهما يا رب . كلم قلبي ! أنا مستعد » لكن لم يأت أي صوت يهدىء باله فعبرهما وهو يتلفظ بلعناته الثقيلة على بذور الانسان . كانت الشمس حامية والغبار يثور من تحت قدميه ويلتف حوله مثل غيمة . واحس بظما مفاجيء فهتف : « يا رب أعطني ما أشربه » « اشرب » أجابه صوت لطيف الى جواره ، صوت مثل سقسقة المياه . التفت فرأى ماء يقطر من شق في صخرة . ويتجمع في تجويف فيها . انحنى وابتعد شاربيه ووضع فمه على الماء . فسرت البرودة حتى كعبيه وطققت عظامه العتيقة .

استأنف سيره . وغابت الشمس فارتاح على جذع نخلة واضعا كفه اليمنى تحت خده وراح في نوم عميق . وتجمعت حوله الثعالب ولكن حين شمت رائحته ولت مذعورة . وتعلقت النجوم فوقة كالسيوف . واستيقظ في الفجر فانطلق من جديد . وفي اليوم الثالث ظهر السهل من ممر في الجبال . ونهر الاردن يلتصق في مجراه مثل ثعبان ممدد بطيء الحركة . مرت ثلاثة أيام وعندئذ بغتة لمعت بيوت بيت لحم بيضاء ناصعة من وراء أشجار النخيل .

مر رف حمام فوق رأس النبي ، وتردد لحظة ثم اندفع بغتة مذعورا نحو المدينة .

عند البوابة الكبيرة الشمالية ، الملقبة بروائح القطعان النتنة ، وقربها العميان والمجدومون يتسولون الخبز ، كان العجايز يقفون بانتظار النبي . وهمموا فيما بينهم مرتعدين . « سيحل الجذام في قريتنا ! فالله لا ينزل الى الارض الا لكي يدمر مخلوقاته » .

تماسك اكبرهم عمرا وخطا الى الامام خطوة واحدة وقال : « أنا سأحدث اليه » .

وصل النبي مع غيمة الغبار وأسماله ترفرف مثل راية حرب ممزقة .
- ما الذي جلبته لنا ؟ سلاما أم مذبة ؟

أجاب النبي وهو يمد يديه : « السلام ! اذهبوا الى بيوتكم واخلوا الشوارع . أريد ان اعبرها بمفردي » .
أخلت الشوارع وأوصدت الابواب . تحرى صموئيل الابواب كلها بدقة

بتمرير اصابعه عليها وهو يدخل القرية • وعلى طرف القرية وعند اخر بيت فيها اكتشف بصمة الدم • قرع الباب فاهتز البيت كله ونهض يسي العجوز مرعوبا ليفتح الباب •

« السلام على بيتك يا يسي والصحة لابنائك السبعة ولتحمل كنانك بغلمان • معك الله •

اجاب يسي : « فلتتحقق مشيئته » وراح فكه السفلي يرتعش •

وظهر رجل يملا الباب • التفت صموئيل ، وحين راه انفجرت اساريه • كان الرجل عملاقا ذا شعر اسود مجعد وصدر واسع مشعر وفخذين قويين كعمودين من البرونز • قال يسي بفخر : « هذا ابني الياب » • لم يقل صموئيل شيئا • كان ينتظر من قلبه ان يجار • لا بد ان هذا هو • قال لنفسه • « لا بد ان هذا هو • لم لا تتكلم يا رب ؟ » انتظر طويلا ولكن بغتة تفجر الصوت الرهيب في داخله : « لم هذه الثرثرة ؟ روحك قد مالت اليه • اليس كذلك ؟ طيب ولكنني لا اريده • لا اريده • أنا أفحص القلب واغوص في الصلب وازين نقي العظام ••• لا اريده • »

وأمر صموئيل : « اجلب ابنك الثاني » وشحبت شفتاه •

جاء الابن الثاني لكن قلب النبي ظل صامتا وظلت اعماقه ساكنة « اليس هو ، ليس هو » راح يخور وهو يرفض الابناء الستة واحدا بعد الاخر وهو يثبت عينيه على جباههم وحواجبهم وأفواههم متفحفا ظهورهم وركبهم وجذوعهم واسنانهم كما لو انهم حملان • وتكوم منهكا على العتبة وصرخ متألما : « لقد خدعتني يا رب • انك ماكر دائما ودائما لا ترجم • انك لا تشفق على البشر • اظهر • انا صموئيل اناديك ••• لم لا تتكلم ؟ »

واضطرب يسي وجاء اليه • قال « ما يزال هناك داوود اصغرهم انه يرعى الغنم • »
- استدعه

وقال الاب : « الياب • اذهب وادع اخاك » •
قطب الياب حاجبيه فخطب الاب ابنه الثاني : « ابيناداب اذهب واستدع اخاك » •

لكن هذا رفض ايضا • ورفضوا كلهم •
نهض صموئيل عن العتبة : « افتح الباب ••• انا سأذهب بنفسي »
وسأل العجوز : « اأصف لك شكله لكي تستطيع التعرف عليه ؟ »
- لا • سأتعرف عليه اكثر من ابيه وأمه •

وفيما هو يتعثر على الحجارة بدأ يصب لعناته وهو يصعد الهضبة صارخا : « لا أريد • لا أريد » بينما راح يتقدم صعدا •
وفي اللحظة التي لمح فيها شابا واقفا بين غنمه ، شابا ذا شعر احمر

متوهج يشع كالشمس المشرقة توقف ، وخار مثل عجل .
 ناداه بلهجة أمرة : « تعال الي يا داؤود ! »
 فأجاب داؤود : بل تعال الي انت . انا لا اترك غنمي .
 وزار صموئيل وهو يتقدم مليئا بالنقمة : « انه هو ! هو ! »
 اقترب منه وأمسك بكتفه وغاص بأصابعه في ظهره وفحص ساقه ثم
 عاد الى الرأس .
 وابتعد الصبي رأسه غاضبا : « من أنت ؟ وماذا تعني بفحصك لي ؟ »
 - أنا صموئيل خادم الرب . لقد أمرني ان اذهب فذهبت وأمرني ان
 اصرخ فصرخت . انا قدمه وفمه ويده وظله على الارض . نحن .
 وبتلمس قمة رأس الصبي سكب الزيت المقدس .
 - انني اكرهك . لا اريدك . انا احب اخر . لكن رياح الرب تمر من
 فوقي وهاك ضد ارادتي ، أنا أرفع يدي وأسكب الزيت النبوي على قحفك
 . . . داؤود ملك اسرائيل المدهون ! داؤود ملك اسرائيل المدهون ! داؤود ملك
 اسرائيل المدهون ! « وضرب القارورة المقدسة على الحجارة فحطمها : « لقد
 حطمت قلبي بالطريقة ذاتها يا رب . لم أعد راغبا في العيش . »
 وانطلقت سبعة غربان من أعماق السماء وتحلقت في دائرة فوقه وراحت
 تنتظر . فك النبي عمايته الخضراء ونشرها على الارض مثل الكفن . اقتربت
 الغربان اكثر وتشجعت . غطى النبي وجهه بأسماله المرقعة ولم يتحرك بعد
 ذلك . (1)

(1) وردت القصة في التوراة (صموئيل الاول الاصحاح السادس عشر) على
 الشكل التالي : « فقال الرب لصموئيل : حتى متى تنوح على شاوول وأنا قد رفضته
 عن أن يملك على اسرائيل . املا قرنك دهنا وتعال أرسلك الى يسى البيتلحمي (نسبة
 الى بيت لحم) لاني قد رأيت لي في بيته ملكا . فقال صموئيل : كيف اذهب ؟ . ان
 سمع شاوول يقتلني . فقال الرب : اخذ بيدك عجلة من البقر وقل قد جئت لأذبح للرب .
 وادع يسى الى الذبيحة وأنا أعلمك ماذا تصنع وامسح لي الذي أقول لك عنه .
 ففعل صموئيل كما تكلم الرب وجاء الى بيت لحم . فارتعد شيوخ المدينة عند
 استقباله وقالوا : اسلام مجيبك ؟ فقال : سلام . قد جئت لأذبح للرب . تقدسوا
 وتعالوا معي الى الذبيحة . وقدس يسى وبنيه ودعاهم الى الذبيحة . وكان لسا
 جاؤوا انه رأى الباب . فقال ان امام الرب مسيحه . فقال الرب لصموئيل لا تنتظر
 الى منظره وطول قامته لاني قد رفضته . لانه ليس كما ينظر الانسان . لان الانسان
 ينظر الى العينين وأما الرب فانه ينظر الى القلب . فدعا يسى ابيناداب وعبره امام
 صموئيل فقال : وهذا ايضا لم يختره الرب . وعبر يسى شمه . فقال : وهذا ايضا
 لم يختره الرب . وعبر يسى بنيه السبعة امام صموئيل . فقال صموئيل ليسى : الرب
 لم يختر هؤلاء . وقال صموئيل ليسى : هل كملوا الغلمان ؟ فقال بقي بعد الصغير
 وهوذا يرعى الغنم . فقال صموئيل ليسى : ارسل وات به لاننا لا نجلس حتى يأتي
 الى ههنا . فارسل وأتى به وكان اشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر . فقال
 الرب : قم امسحه لان هذا هو . فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه في وسط
 اخوته . وحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعدا . »

بهذه الرؤيا عن الرجل الذي يحاول ، عبثا ، ان يعارض الله حملني النوم بعيدا ، وأسلمت نفسي دون مقاومة للايدي اللامرئية . وبهذا مر الليل، الذي كنت اخافه كثيرا ، بسعادة ومن دون احلام .

نزلت الى الباحة فجرا وانا مرتاح جدا . وكان الرهبان ينتقلون كالاشباح في العتمة ثم اختفوا واحدا اثر الاخر في الكنيسة . دخلت معهم لاسمع صلاة الصبح وانا جالس في احد المقاعد . كان هناك مشعلان يحترقان امام الفاصل الايقوني - ولم يكن هناك ضوء اخر - لكنني استطعت ان اتبين شكل المسيح الصارم في العتمة والى جانبه الوجه الحنون والحزين للعدراء المقدسة . وكان الهواء عابقا بروائح الشمع والبخور .

وفكرت لنفسي : « آية سعادة هنا وآية عزلة ! وكم هو بعيد العالم المضطرب الصاخب ا فلم الهرب من تحت جناح المسيح - والى أين ؟ ولم الفرق في اهتمامات اقل ومتع اصفر؟ المحارة هنا، وفيها الجوهرة الكبيرة . سأسيطر على جسدي وعلى روحي ، وسأشذب الاغصان الصغيرة كلها التي تخفف من قوة التاج ، لن ابقى الا على التاج وسوف انهض . أمامي مكافح عظيم سأتبغه . انه يكابد صعودا شاقا سأتسلقه معه .

ظللت احدثق الى شكل المسيح القوي الزاهد في ضوء المشعلين اللطيف ، متفحصا اليدين الرشيقتين اللتين تقبضان بقوة على العالم وتمنعانه من السقوط في العدم . لقد عرفت ان المسيح ، هنا على الارض وطوال حياتنا الكاملة ، لم يكن المرفا الذي يلقي فيه المرء بمرساته ، بل هو المرفا الذي ينطلق المرء منه راحلا ليكسب وسط البحر ويجابه بحرا عنيفا عاصفا ثم يكافح طوال العمر لكي يرسو في الله . المسيح ليس النهاية او الغاية . انه البدء . وهو ليس « الترحيب » Welcome بل هو الوداع ! Bon Voyage . وهو لا يسترخي وسط الغيوم الناعمة بل هو الذي تضربه الامواج ، مثلما تضربنا ، وعيناه مثبتتان على نجم القطب North Star ، ويداه مثبتتان على الدفة . لهذا أحببته ولهذا سأتبغه .)

كان ما جذبني وشجعني ، فوق كل شيء اخر ، هو باي كفاح وبأية جراءة بطولية ، انطلق الشخص الذي اكتشف نفسه في المسيح لكي يصل الى الله ويندمج فيه بحيث يصبح الاثنان واحدا لا يقبل الانفصام . لا طريقة للوصول الى الله الا هذه . باتباع اثار المسيح الدموية علينا ان نفاضل لتحويل الانسان فينا الى روح بحيث يمكن لنا ان نتحد بالله .

لقد كانت الطبيعة المزدوجة للمسيح ، دائما ، لغزا عميقا مبهما بالنسبة لي ، وخاصة توق المسيح ، الانسان ، هذا التوق البشري والالهي ، للوصول

الى الله ، أو بدقة اكبر للعودة الى الله والتطابق معه • هذه النوستالجيا (١) ، التي هي روحية جدا وواقعية جدا ، فتحت في جروحا عميقة لكنها ايضا فجرت في ينباع اضافية •

بدعا من شبابي كان ألمي الرئيسي ومنبع افراصي واحزاني كلها ، مستمدا من المعركة الدائمة الوحشية بين الروح واللحم •

في داخلي كانت القوى المظلمة الممعة في القدم للشخص الشرير : البشري وما قبل البشري ، وفي داخلي ايضا كانت القوى المضيئة ، البشرية وما قبل البشرية ، لله - وكانت روحي هي الحبة التي يلتقي فيها هذان الحيثان ويشتبكان •

كان الألم ممضا • كنت احب جسدي ولم اكن اريد له ان يفنى • وكنت احب روحي ولا اريد لها ان تتعفن • ورحت اجاهد لكي اصالح معا هاتين القوتين المتنازعتين والخالقتين للعالم ، واجعلهما تدركان انهما ليستا عدوين بل زميلتي عمل لكي تستمتعا بانسجامهما - واستمتع انا ايضا معهما •

كل انسان نصف اله ونصف انسان • انه روح ولحم معا • لهذا لا يعتبر لغز المسيح لغزا لمذهب معين بل هو شمولي وعام • يتفجر الصراع بين الله والانسان داخل كل شخص مصحوبا بالرغبة في الصلح • وكثيرا ما يكون هذا الصراع قصير الامد في الانواعي • والروح الضعيفة ليس لديها القدرة على احتمال مقاومة اللحم طويلا • انه يصبح ثقيلًا ويصبح هو ذاته لحما فينتهي النضال • لكن بين الناس المسؤولين ، الذين تظل عيونهم مثبتة ليلا ونهارا على الواجب الاسمي ، يتفجر بين اللحم والروح صراع لا مكان لرحمة فيه وقد يستمر حتى الموت •

وكلما ازدادت قوة الروح واللحم ، ازداد الصراع غنى في نتائجه وازداد غنى الانسجام النهائي • الله لا يحب الارواح العنيفة واللحم البرخو • ان الروح ترغب في الصراع مع لحم قوي ومليء بالمقاومة ، فهي طائر لاحم جائع أبدا ، ياكل اللحم ويتمثله يخفيه •

الكفاح والصراع بين اللحم والروح ، العصيان والمقاومة ، المصالحة والخضوع ، واخيرا - الهدف الاسمي للصراع - الاتحاد بالله ، هذا هو الصعود الذي التزم به المسيح ، الصعود الذي يدعوننا للالتزام به أيضا متتبعين اثاره (اثار المسيح) الدائمة •

(١) التوق المرذني •

- هذا هو الواجب الاسمى للانسان الذي يكافح - ان ينطلق باتجاه القمة الشاهقة التي وصل اليها المسيح ، الابن الاول للخلاص . فكيف نبدا ؟ اذا كان علينا ان نقوى على اللحاق به يجب ان نحصل على معرفة عميقة بصراعه (المسيح) ، يجب ان نعيش ألمه من جديد ، انتصاره على المكائد الفاتنة في الارض ، وتضحيته بمتع البشر الصغيرة والكبيرة ، وعوده من تضحية الى تضحية ، ومن ماثرة الى ماثرة حتى الوصول الى قمة الشهادة :
• الصليب •

لم يسبق لي ان تتبعت رحلة المسيح الدامية الى الجبلية بهذه الحدة ولم أعش من جديد حياته وعواطفه بهذا الفهم والحب مثلما حدث لي خلال أيامي ولياليّ في القدس والجليل والبحر الميت . ولم يسبق لي أن احسست ، بهذا القدر من الحلاوة وبهذا القدر من الألم ، بدم المسيح يتساقط قطرة فقطرة في قلبي •

ذلك أنه من أجل الصعود الى الصليب ، قمة التضحية ، والى الله ، قمة اللامادية ، مر المسيح بكل المراحل التي يمر بها الانسان المكافح • كلها - ولهذا تكون معاناته اليفة لنا ، لهذا نشفق عليه ولهذا يبدو لنا انتصاره النهائي انتصارنا الخاص بنا الذي سنحققه في المستقبل • هذا الجانب من طبيعة المسيح الذي كان بشريا بشكل عميق يساعدا في فهمه وجبه ومتابعة معاناته وكأنها معاناتنا • فلو لم يكن لديه ، في داخله ، هذا العنصر البشري الحار لما استطاع ان يلمس قلوبنا بهذا اليقين وهذا اللطف ، ولما استطاع ان يصبح نموذجا لحياتنا • اننا نكافح ، ونراه يكافح ايضا ، فنستمد منه القوة • نرى اننا لسنا وحدنا في العالم ، انه يناضل الى جانبنا •

كل لحظة عند المسيح هي صراع وانتصار • لقد تغلب على الفتنة اللامرية في المتع البشرية البسيطة • تغلب على الغواية وكان ، باستمرار ، يحول اللحم الى روح ويصعد • وصار كل عائق في رحلته فرصة لتحقيق انتصار اخر ثم علامة على هذا النصر • لدينا أمامنا نموذج ، نموذج يشق لنا الطريق ويمنحنا القوة •

ما يهب عبر السماء والارض ، في قلوبنا وقلب كل شيء حي ، هو نفس عات - صرخة عظيمة - نسيمه الله • كانت حياة النبات تتمنى ان تستمر في نومها الساكن قرب المياه الراكدة ، لكن الصرخة انبعثت فيها وهزت جذورها بعنف : « بعيدا ! انخلي من الارض ، سيري ! » ولو كانت الشجرة قادرة على ان تفكر وتحكم لصرخت : « لا اريد ! اما الذي تدفعيني للقيام به ؟ انك تطلبين المستحيل ! » لكن الصرخة لا ترحم فتتابع هز الجذور والصراخ « بعيدا ! انخلي من الارض ! امشي ! »

ظلت تصرخ بهذه الطريقة الاف الدهور ، وفي النهاية ، نتيجة للرغبة والكفاح هربت الحياة من الشجرة الساكنة وتحترت .

ظهرت الحيوانات - الديدان - لتعيش على راحتها في المياه والوحول .
وقالت : « نحن هنا على ما يرام . لدينا السلام والامان ، لن نترحزح من هنا » .

لكن الصرخة الرهيبة انهمرت بين اصلابها دون شفقة : « غادري الوحل ، قفي ، لدي ما هو افضل منك » .

- لا نريد الا نستطيع .

- انت لا تستطيعين اما انا فاستطيع . قفي ا

وبعد الاف الدهور ظهر الانسان يرتجف في وقفته على رجليه اللينتين .

الانسان قنطور ، حوافره الخيلية (1) مزروعة في الارض ، لكن في جسده من الصدر حتى الرأس تشبث الصرخة عديمة الشفقة وتعذبه . لقد كافح مرة اخرى طوال الاف الدهور لكي يسحب نفسه ، كالسيف ، من غمده الحيواني . وهو يكافح ايضا - وهذا كفاحه الجديد - لكي يمتشق نفسه من غمده البشري . وينادي الانسان يائسا : « الى أين تستطيع ان اذهب ؟ لقد وصلت الى الذروة ، وما بعدها فالحاوية » . وتجيبه الصرخة : « انا بعدها . قف ! كل شيء قنطور ، ولو لم تكن المالة هكذا لتعفن العالم في الخمول والعقم » .

وفيما انا امشي ساعة بعد ساعة في الصحراء المحيطة بالدير ، بدأ الله يحرق نفسه تدريجيا من القسس . ومنذئذ صار الله بالنسبة لي هو هذه الصرخة .

ومع مرور الايام في هذه العزلة الالهية هذا قلبي . وبدأ انه يمتلىء بالاجوبة . لم أعد اطرح أسئلة . صرت متيقنا . كل شيء - من أين جئنا ؟ والى أين نذهب ؟ وما الغاية من وجودنا على الارض ؟ - صار يجيئني بسيطا ويقينا في هذه العزلة التي وطئها الله . وبالتدريج تعود قلبي على الايقاع الالهي . صلوات الصبح ، القربان المقدس ، صلوات المساء ، المزامير ، شروق الشمس صباحا ، وغروبها مساء ، مجموعات النجوم المعلقة كل ليلة مثل ثريات فوق الدير . كل شيء كان يأتي ويروح مطيعا لقوانين خالدة ليسمح دم الانسان الى الايقاع الهادي ذاته . صرت ارى العالم مثل شجرة ، صورة هائلة ، وانا . مثل ورقة خضراء معلقة على غصن سويقة نحيلة . وحين كانت ريح الله تهب كنت اخفق واتراقص مع الشجرة كلها .

(1) نسبة الى الخيول

ظلت اتحدث الى روحي ، واسألها بالم : هل تؤمنين ؟ أنت على استعداد لبذل وجودك كله ؟ أنت مستعدة ؟

ما كنت أريده هو التوافق مع النظام القاسي ، الانخراط في جيش انطلق لتحقيق الامل الاسمي ، والصعود بدوري الى السفينة ذات (البرج المسيحي) جنبا الى جنب مع أبطالها القانعين المعوزين الاطهار - ولسوف نرفع الشراع الاحمر ، ولسوف تتبرعم كرمة القربان المقدسة من الصاري . ولسوف نطوف البحار كالقراصنة لكي نختطف جزء الخلود الذهبية عن كتفي الله . ما كنت أريده هو الانتصار ، بدوري ، على التفاهة والمتعة والموت .

كنت أجوب الصحراء كل يوم عدة ساعات مدركا ان قرارا خفيا كان ينضج في داخلي ببطء ، قرارا لم يجرؤ بعد على اعلان اسمه . وفي الاماسي بعد عودتي كنت اجد الرهبان خارج حجراتهم . لقد هدا قيظ النهار فراحوا يستنشقون برودة الليل القادم .

العزلة ضرورية لاية روح تفضل في ان تحترق بعاطفة عظيمة . فان لم يستطع راهب ، في عزلته ان يحب الله حتى الجنون فهو هالك . لقد تشوشت عقول العديد من الرهبان . هؤلاء الاخوة ليس لديهم ما يفكرون به او ما يرغبونه . يغمضون اعينهم نصف اغماضة ويجلسون صفا واحدا في الباحة وينتظرون الساعة التي سيدخلون فيها الى الكنيسة ثم قاعة الطعام فحجراتهم - وهذا كل شيء . لقد غامت ذاكرتهم وتساقطت اسنانهم وجاءهم وجع الظهر . لم يعودوا بشرا لكنهم ليسوا حيوانات ايضا . كما انهم ليسوا ملائكة . ليسوا ذكورا ولا اناثا ، ليسوا احياء او امواتا . يمدون اذرعهم في غيبوبتهم وينتظرون الموت تماما كما تنتظر البذور مجيء الربيع .

أحدهم كان يظل يتذكر زوجته ويبصق بلا توقف . وكان لدى الاخر دفتر ملاحظات ورزية من الاقلام تحت قميصه ، وبين حين واخر يخرجا وينهمك في رسم الصوة ذاتها - مسيخ ذو نهدين يرضع امه . وراهب ثالث عند يقظته في كل صباح ينزل الى الباحة ليفتسل في النبع ويدلل نفسه كالمهووس ليزيل الدنس الذي خلفته الاحلام التي جاءت في الليل . ويجلس دائما في المكان ذاته من الباحة وكتاب مغلق على ركبتيه ذلك الراهب الغريب الذي دخل الى مقر الرئيس مع مسؤول الضيافة في اليوم الاول . لم يكن يتكلم مع احد ابدا وكلما دخل الباحة رفع عينيه ورآني تفتر شفثاه عن ابتساماة لطيفة احيانا - هذا ما كان يبدو لي - وابتساماة ساخرة احيانا اخرى . وفي مناسبات عديدة ، حين كنت امر من امامه يتهيا للنهوض وتراه على وشك ان يتحدث الي لكنه ، دائما ، يعود للجلوس والابتساماة تتقلص على شفثيه .

استمتعت بهذه العزلة المقدسة سبعة ايام . وفي اليوم السابع جاء الى

• حجرتي مسؤول الضيافة مرحا كعادته •

- أرسلني الاب المقدس لاسالك اين تقف روحك ؟ وما هو القرار الذي توصلت اليه ؟

أجبتة : أقبل يديه • أفضل ان اعترف قبل أن أجيبه •

توقف مسؤول الضيافة للحظة واخيرا سألني : اتحب ان تبقى معنا ؟

- أحب أن أبقى مع الله • وهنا في الصحراء احسه اقرب الي منه في اي مكان اخر • ولكنني اخشى ان الجذور التي تربطني بالعالم لم تقطع كلها بعد • سأعترف للاب وهو الذي سيقدر •

- كن حذرا • الاب المقدس يتوقع الكثير من الناس •

- وأنا اتوقع الكثير من نفسي يا ابي • ولهذا اظل مترددا •

وتوقف في اللحظة التي فتح فيها الباب ليخرج •

- حملني الاب جواكيم رسالة • انه يود لو يراك •

- الاب جواكيم ؟

- العجوز الذي جاء معي الى قاعة الاستقبال للترحيب بك •

سررت • اخيرا سأعرف ماهية هذا الراهب الصامت الغريب •

سألته : متى ؟

- يقول : الليلة في حجرتي •

- جميل • قل له انني ساكون هناك •

- « لقد اعتاد أن يكون في مركز مرموق • انه لا يختلط بأحد ولا يتحدث إلا

مع الله • لقد عرف اسمك وهو يريد ان يراك • كلمة باحترام • » بهذه

الكلمات كان قد اجتاز العتبة دون ان ينتظر جوابي •

تأخرت حتى هبط الليل وغط الرهبان في نومهم • وانطفأت الاضواء في الحجرات واحدا بعد الآخر • مشيت على رؤوس أصابعي في الممر الطويل حتى وصلت الى حجرة الاب جواكيم • توقفت لالتقط انفاسي اذ كنت قد بدأت الهت وكانني كنت أركض • كانت الحجرة مضاءة • وضعت اذني على الباب واصغيت باهتمام • صمت • وفي الوقت الذي رفعت فيه يدي لاقرع الباب فتح باب الحجرة وظهر الاب جواكيم • كان حاسر الرأس وشعره الابيض منسدل على كتفيه • كان يلف حبلا معقدا كثيفا حول خصره • كما كان حافيا • قال :

- أهلا وسهلا • أمل ان احدا لم يرك • ادخل •

الجدران عارية • وفي الزاوية فراش ضيق من القش مدعوم بزوج من الهياكل السريرية المعدنية • كرسيان وطاولة صغيرة وجرة في كوة في الجدار • مجلد ضخم على الطاولة • واضح انه الاتاجيل • وصليب خشبي كبير على الجدار المقابل وليس عليه صورة المسيح المصلوب بل صورة المسيح في قيامته • ومن العوارض تتدلى صفوف من التفاح مربوطة معا كالسبحات •

الحجرة كلها عابقة بروائح الفاكهة المتعفنة .

مد الاب جواكيم ذراعيه ، وكانت الغرفة ضيقة الى درجة كاد معها ان يلمس الجدران وقال وهو يبتسم : « هذه هي شرنقتي ، انني احبس نفسي فيها مثل اليرقة وانتظر اليوم الذي سوف اخرج فيه فراشة . » هز رأسه واستطعت أن أراه يعض شفثيه الرفيقتين المشققتين وهو يقف قرب المصباح الذي كان يضيء وجهه الطويل الذابل . وصار صوته الان مليئا بالمرارة والسخرية : « ما الذي تتوقع ان تحلم به يرقة اكثر من ذلك ؟ اجنحة ! » .

وصمت . التفت يتطلع الي . تلاشت السخرية وصارت نظرتة نظرة انسان يطلب العون : « ما رأيك ؟ لماذا تحلم اليرقة بالاجنحة ؟ أهى براءتها الساذجة ؟ أم صلفها ؟ ام انه من الممكن ان كتفيها تحسان بوخر الاجنحة التي تهيتها ؟ »

قام بحركة سريعة من ذراعه وكان في كفه اسفنجة ينظف بها شيئا ما . وهتف : « حتى هنا وليس أبعد من ذلك . لقد وصلنا الى الاعماق بسرعة كبيرة . وهذا يكفي ٠٠٠ . خذ كرسيًا واجلس . لقد دعوتك لاخبرك بشيء اخر . حسن . اجلس . لا تهتم بي . انا لا استطيع الجلوس . » وضحك ثم قال : « اتعرف ان هناك بدعة تقول : على اقدامك دائما . لقد التزمت بهذه البدعة منذ سنوات ، منذ أيام طفولتي . »

- اما انا يا ابانا فانتمي الى بدعة اخرى : قلق دائما . انني اصارع منذ أيام طفولتي .
- ومع من تتصارع ؟
ترددت . بغتة تملكني الرعب . فكرر الراهب سؤاله : « مع من ؟ » ثم انحنى علي وخفض صوته : « مع الله ؟ » .
- نعم .

وثبت العجوز عينيه علي دون ان يتكلم .
- أيمكن ان يكون هذا مرضا يا ابانا ؟ وكيف أشفى منه ؟
- ارجو ان لا تشفى .
ورفع يديه وكأنه يريد ان يباركني - أو يلعنني .
- امر مؤسف ان تضطر للصراع مع ند لك او مع من هو اقل منك . ولكن بما انك تتصارع مع الله فالمؤسف ان تشفى من هذا المرض .
وصمت للحظة ثم تابع : « تأتي الغوايات الينا كثيرا هنا في الصحراء ذات يوم جاءتني غواية غريبة في نومي . رأيت نفسي حكيما عظيما في القدس .

استطعت ان اشفي من امراض عديدة مختلفة لكنني قبل كل شيء استطعت ان اخرج الشياطين من الممسوسين . صار الناس يجلبون الي المرضى

من كافة انحاء فلسطين . وذات يوم وصلت مريم ، زوجة يوسف ، من الناصرة ومعها ابنها يسوع البالغ من العمر اثني عشر عاما . وقعت على قدمي وصرخت باكية : « ايها الحكيم الشهير اشفق علي واشف ابني . في داخله العديد من الشياطين » طلبت من الابوين ان يخرجوا وظللت وحيدا . مع يسوع . ربت على كتفه وسألته : « ما الامر يا بني ؟ اين تشكو الالم ؟ » فأجاب وهو يشير الى قلبه : « هنا . هنا » .

- وماذا أصابك ؟

- لا استطيع النوم او الاكل او العمل . انني اجوب الشوارع وانا

أتصارع .

- ومع من تتصارع ؟

- مع الله . مع من غيره تتوقع مني ان اتصارع ؟

أبقيته قربي شهرا . كلمته بلطف دائم . واعطيته اعشابا تنومه . وضعته في حانوت نجار لكي يتعلم صنعة . وكنا نخرج لنتمشى معا فاكلمه عن الله وكان الله صديق او جار يأتي الينا في المساء ويجلس معنا على عتبة بيتنا لتحدث . لم يكن هناك شيء صعب او مؤثر في احاديثنا . كنا نتحدث عن الطقس وحقول القمح وكروم العنب والفتيات اللواتي يذهبن الى النبع . وفي نهاية الشهر شفي يسوع تماما . لم يعد يتصارع مع الله صار رجلا مثل غيره من البشر . ورحل الى الجليل ثم علمت فيما بعد انه صار نجارا عظيما ، افضل نجار في الناصرة » .

ونظر الراهب الي ثم سألني : « هل تفهم ؟ يسوع قد شفي . وبدلا من ان ينقذ العالم صار افضل نجار في الناصر . فما معنى المرض والعافية اذن ؟ » . طيب . يكفيننا من هذا كله - فلنغير الموضوع ! تبدو متعبا . اجلس » .

جلست على الكرسي تحت الايقونة ورحت احدق الى قدمي الراهب الحافيتين على الحجارة المرصوفة ، وعظامهما الدقيقة ، وكاحليه النحيلين والابهامين الطويلين الانيقين . كان الضوء قد جعل ابهاميه يلتمغان مثل الرخام العتيق الذي صار اشقر محمرا بسبب الشمس .

تراجع خطوتين ثم عاد ووقف قبالتي شادا ذراعيه على صدره وقال لي بصوت حنون وكأنه يحدث طفلا صغيرا : « تطلع . انظر الي جيدا . الا تتذكرني ؟ » .

اجبته مندهشا : « لم يسبق ان وقعت عيني عليك » .

- لا شيء يموت في ذاكرة الطفل . لا بد ان وجهي ما يزال موجودا في مكان عميق من ذاكرتك . اسع : لقد قضيت صيفا في كريت حين لم تكن قد بلغت الخامسة بعد . كنت بائعا بالجملة في تلك الايام اتعامل بالكباد والخروب والزبيب . كان والدك احد زبائني . اما يزال حيا ؟

- نعم . لكنه عجوز محني لا أسنان له الان . انه يجلس على الاريكة طوال النهار وهو يقرأ كتاب الصلوات .

فصرخ الراهب وهو يرفع يده : « ظلم ! اجساد مثل جسده يجب ان لا تتهدل . يجب ان تموت موتا فجائيا وهي تمشي والارض تهتز من تحتها . الموت فعل الله ، اسم النقطة التي عليها يلمس الله الانسان . لكن انهيار الجسد فعل شيطاني غادر خسيس يمكن ان يكون صحيحا ان الكابتن ميكائيل عجوز ومقعذ ؟

ظل صامتا قليلا وصارت عيناه ضاريتين لكنه سرعان ما تنفس بعمق وتابع : « اعتاد والدك ان يشتري الزبيب والكباد والخروب لحسابي . وكنت احمل السفن وارسلها الى تريست . كنت اشتغل جيدا واكسب الكثير ثم ابدد بالكثرة نفسها . كنت حيوانا متوحشا لا يمكن ان يكتفي من الطعام والشراب والزني . بعث روحي للشيطان وظل جسدي دون قيادة ودون كايح . ورحت اسخر من الله واسميه البعبع والفزاعة ، وانه لا يستطيع ان يفعل شيئا اكثر من إخافة العصافير التي لا عقل لديها وابعادها من ان تنقّر في الحدائق . وكل مساء بعد ان انهي عملي كنت اكرس نفسي للسكر بلا خجل حتى الفجر .

والان . حاول ان تتذكر : ذات صباح كنت تقف باكرا امام حانوت والدك حين سمعت بشكل مفاجيء غناء وضحكا وعربة بأربع عجلات منطلقة بأقصى سرعتها . التفت فرأيت ست نساء مخمورات - من مغنيات المقاهي - وكلهن يصرخن ويقهقهن ملء حناجرهن وهن يلقين بالجوز والتين على الناس في الشارع . وكان النسائق شخصا مهيبا بقبعة رسمية صقيلة ، يسوط الجياد مهبوسا وهي تصلح مستثارة وتجمع . عندها احسست بالخوف ، ظننت انهم قادمون نحوك مباشرة ، فصرخت وركضت لتختبئ وراء سترة ابيك هل تذكر ؟ هل عادت الحادثة اليك الان ؟ الحوذني السكران كان انا . كنت اعتمر قبعة رسمية ، واقول لك - هي قبعة حريرية - ولكي اثريك وجهت السوط اليك مباشرة وفرقته في الهواء . هل تتذكر الان ؟ »

انحنى ووضع يده على كتفي ودفعني : « هل تذكر ؟ »
كنت قد اغمضت عيني . وبينما انا اصغي اليه كنت اجاهد لاريح استار الذاكرة الحكومة على سنوات طفولتي واحدة بعد الاخرى . وبالتدريج

خُفَّت الظلّمة • وبغّة عادت الجياد الاربعة والمغنّيات السكرانات والقبّعة
المخيّفة وفرقعة السوط فوق رأسي ، كلها حية من اعماق الذاكرة • صرخت :
« نعم ، نعم ، اذكّر • اكان ذلك انت يا ابانا ؟ انت ؟ » •
لكن الراهب العجوز لم يسمعني • كان قد انحنى على الجدار وأغمض
عينيه • وبهذه الحالة وبعينين مطرقتين تابع :

« ذات صباح احسست بالكفاية • الجولة اللّحمية ليست كبيرة جدا •
انها تنتهي بسرعة • تأكل وتشرب وتقبّل وتاكل ثانية وتشرب ثانية وتقبّل
ثانية - وليس هناك مكان اخر تذهب اليه • اقول في النهاية وجدت انني
اكتفيت • تذكرت روعي فركبت عربة وذهبت الى دير في جبل اثوس •
بقيت هناك ثلاثة أشهر • صلاة وصيام وصلاة صبح وقربان مقدس ،
تفاصيل عمل ، خبز شعير ، زيتون فاسد ، حبوب محمّصة - فقررت سريعا
من ذلك كله • ولكن ما الذي لدي لافعله في العالم الان ؟ لم تعد لديه متعة
واحدة اضافية يقدمها الي ، ولا خطيئة واحدة لم اتذوقها • عدت الى الدير
ولكنني طلبت من الحوذي ان يظل هذه المرة على مقربة ، ان ينتظر في اقرب
قرية لعلي احتاج اليه • وبالفعل قبل مضي وقت طويل احتجت اليه • ومرة
اخرى فررت من الدير •

انحطت حياتي حتى صارت غير محتفلة • وصرت معلقا بسنين الارض
والسماء متارجحا من ارجاهما الى الاخرى رافضا الاتنتين • ذهبت الى ناسك
عجوز يعيش ، بعيدا عن الاديبة ، في كهف محفور في صخور منحدر مطل
على البحر وجعلته يتلقى اعترافي •

- ما الذي افعله يا ابانا المقدس ؟ اتنصحنى ؟
وضع الناسك العجوز يده على رأسي وقال : « اصبر يا ولدي ، ولا
تتسرع • السرعة احدى احابيل الشيطان ، انتظر بهدوء ومع الايمان » •
- الى متى ؟
- الى ان ينضج الخلاص فيك • امنح الحصرم وقتا لكي يتحول الى
عسل •
- وكيف سأعرف يا ابانا متى يتحول الحصرم الى عسل ؟

- ستستيقظ ذات صباح وترى ان العالم قد تغير ولكن انت الذي تكون
قد تغيرت يا بني وليس العالم • سيكون الخلاص قد نضج فيك • في ذلك
الوقت سلم نفسك لله وبعدها لن تخونه •

وهذا ما حدث بالضبط • فتحت نافذتي ذات صباح • كان الفجر يبزغ
لحظتوا ونجمة الصباح ما تزال تلتمع في السماء وكان البحر الهاديء يتنهد

بهدهوء ولطف وهو يتكسر على الشاطيء • كنا ما نزال في عز الشتاء لكن شجرة مشحلة امام نافذتي كانت مزهرة ، وكان عبرها لاذعا وحلوا كالعسل • كان المطر قد هطل خلال الليل والاوراق كانت ما تزال تقطر الماء والارض باكملها تلتهم راضية • تمتمت : « يا رب ، يا رب ، اية معجزة هذه ا » ثم بدأت أبكي • وعندها فهمت • لقد وصل الخلاص • جئت هنا الى الصحراء ودفنت نفسي داخل هذه الحجرة بسريرها المتواضع وجرة الماء فيها وكُرسيتها الصغيرين • وانا الان انتظر • انتظر ماذا ؟ فليسامحني الله • لا اعرف بالفعل ماذا انتظر • ولكن هذا لا يزعجني • اهلا بكل ما يأتي • اعتقد انني سأبرز في الطليعة عند اي حادث • وان كانت الاخرة موجودة فعلا اكون قد دبرت امري للتوبة في اخر لحظة • (ألم يعدنا المسيح بأن التوبة قبل ثانية من الموت تؤمن الخلاص ؟) ومن جهة اخرى ان لم تكن الاخرة موجودة اكون قد استمتعت بهذه الحياة واعتصرتها ثم القيتها ورائي مثل قشرة الليمون ••• هل تفهم ؟ ما الذي تفكر به ؟

• كنت اتساءل لماذا دعوتني الى حجرتك الليلة يا ابانا ؟ لا بد انك ترغب في ان تخبرني بشيء اخر الى جانب هذا •
أمال الجرة وملاً كأساً من الماء ثم اخذ رشنة • اذ لانه لم يكن متعودا على الكلام منذ سنوات عديدة فان حلقه قد جف •
• بالطبع كنت اريد ان اخبرك بشيء اخر ولكن عليك ان تعرف اولاً من انا ومن كنت • بهذا فقط تستطيع ان تفهم ما اريد ان اقله لك وتسدرك ان من حقي ان اخبرك به •
صمت للحظة ، وبعد ان انتقى كلماته اضاف بصوت مليء بالانفعال :
« ليس الحق فقط بل الواجب » •

رفعت نظري لأتطلع اليه • كان يقف في وسط الغرفة منتصباً ومتمشجاً مثل عمود • تطلعت اليه ودهشت • اي متع واي ذل عرف هذا الرجل واي صلف ابدى في تحدي الله القدير • وتعجبت كيف دخل الى الصحراء دون ان يقبل النسيان ، وكيف سمح ، بشجاعة ، لقافلة خطاياها ان تتبعه بحيث تمشي معه ، وهو مليء بالثقة ، نحو الله •

ظل صامتا • وكان من الواضح انه يجهد لاختيار ما سيقوله وكيفيه قوله دون ان يحرجنني • ذلك انه قد رأني اتلوى بعصبية على كرسي •

واخيراً اعلن : « اريد منك ان تعرف ان بين متع العالم كلها - ولديه متع كثيرة عليه اللعنة - الشباب هو ما احترمه اكثر من البقية • حين ارى شاباً في خطر أحسن ان طليعة الله ، او الحياة كلها ، في خطر • امرع لتقديم العون قدر ما استطيع - اعانة الشباب • على ان لا يفنى ، وبمعنى اخر ان لا

يضل ، وتتساقط زهوره ويشيخ قبل اوانسه . لهذا دعوتك الليلة الى هجرتي » .

اضطربت وسألته : « ماذا ، أنا في خطر ؟ » دون ان اعرف ما اذا كان علي ان اغضب ام أضحك .

لوح العجوز يده ببطء الى الامام والخلف ليهدئني وقال : « اغضب ، اضحك اخرج عن طورك - ولكن اصغ بعناية . انني احدثك منطلقا من تجربة شخصية مريرة وان من واجبك ان تستمع . لقد راقبتك سبعة ايام وانت تدور حول لهب الله مثل فراشة ليلية . وانا لا اريد ان اتركك تهلك . لا . ليس انت ، اكرر ، بل الشباب . انني اشفق على خديك اللذين ما زال الزغب يغطيها ، وعلى شفتيك اللتين لم تشبعا من القبل او من الكفر . وروحك البريئة التي تندفع نحو الهلاك تحاول ان تسترق ومضة من الضوء . لكنني لن اتركك . انك على حافة الهاوية ولن اتركك تسقط .

- اية هاوية ؟

- هاوية الله .

اهتزت الحجرة حين لفظ تلك الكلمة الرهيبية . دخل كائن غير مرئي . لم يسبق لهذه الكلمة التي طالما نطقت بها بامتهان ان اثارته في خوفا كهذا . الخوف . انبعثت في داخلي مخاوف الطفولة التي كنت احس بها وانا اسمع كلمة « يهوه » وكأنها تخرج من كهف مظلم مليء بالضجيج ، المخاوف ذاتها التي اثارته في كلمة « مذبحه » منذ ايام طفولتي . نهضت عن الكرسي وانزويت في ركن . وتمتمت : « لا تتوقف يا أبي . انني مصغ » .

- في اعماقك اهتمام عظيم مهلك . انني اراه في عينيك المحترقتين وفي حاجبيك المرتعشتين بلا توقف ويديك اللتين تتلمسان الهواء وكأنك أعمى او كأن الهواء جسد وانت تلمسه . انتبه . هذا القلق اما ان يقودك الى الجنون او الى الكمال .

احسست بنظرتيه تخترقني وتخطب احشائي :

- اي قلق ؟ لا اعرف اي قلق تعني يا أبي .

- القلق حول القدسية . لا تخف . انت نفسك لا تعيه لانك تعيشه . لماذا اقول لك ذلك ؟ لا يمكنك من معرفة الطريق الذي تسلكه والاتجاه الذي اخترته ، لأبعدك عن الضلال . فعلى الرغم من انك انتهيت من اصعب صعود فانك في عجلة من امرك للوصول الى القمة بحيث انك تظن نفسك قادرا على تحقيق ذلك قبل تجاوز سفح الجبل وجوانبه وكانك تفترض نفسك نسرا . لكنك انسان . لا تنس ذلك . انسان - لا اكثر ولا اقل . لك ساقان وليس لك جناحان . نعم . اعرف ان رغبة الانسان السامية هي في القداسة . جميل

وحسن لكن علينا اولاً ان نتجاوز الرغبات الاقل سموا . يجب ان نتعلم احتقار اللحم وكذلك التعطش للسلطة والذهب والعصيان . ما اعنيه هو ان علينا ان نعيش شبابنا وكل عواطفنا البشرية كاملة . يجب ان نفرغ هذه الاصنام من محتوياتها وان نكتشف انها محشوة بالتين والهواء ، يجب ان نفرغ انفسنا وننظفها لكي لا نرغب في النظر الى الورا . عند ذلك ، وعند ذلك فقط ، نقدم انفسنا امام الله . . . هكذا يتصرف المجاهد الحقيقي .

اجبته : لا أستطيع التوقف عن الصراع مع الله . سأظل اتصارع معه حتى اللحظة الاخيرة التي اقدم نفسي فيها امامه . اعتقد ان هذا قدرتي ، ان لا اصل الى غايتي - هذا ما لن افعله - بل ان اصارع .
اقرب مني وطبب بلطف على كتفي .

- لا تتوقف عن الصراع مع الله . ليس هناك مبدأ افضل من ذلك . ولكن لا تفترض انك لكي تصارع بثقة اكبر عليك ان تقتلع الجذور المظلمة من اعماقك - اعني الغرائز . ان رؤية امرأة تخيفك حتى الموت تسميها المغوية - « ابعد ورائي يا شيطان » . نعم انها المغوية . ولكن ان كنت ترغب في التغلب على الغواية فهناك طريقة واحدة فقط ، عانقها . تذوقها وتعلم كيف تحتقرها . عندها تعجز عن اغوائك مرة اخرى . والا ، حتى لو عشت مئة عام ، ان كنت لم تستمتع بالنساء ، فسياتين سيان كنت نائماً او ناشطاً ويمرغن احلامك وروحك . لقد قلتها مرة وانا اعيدها ثانية : كل من يقتلع غرائزه يقتلع قوته . فمع الزمن والشعب والمبدأ يمكن ان تتحول هذه المادة المظلمة الى روح .

تطلع حواليه ثم خطا نحو النافذة وكأنه يخشى ان يسمعنا احد ثم عاد مقترباً مني وهمس لي بصوت اجش : « ما زال لدي شيء اخر اقوله لك . نحن وحيدان ولا يستطيع ان يسمعنا احد .

قلت : الله يستطيع .
- انا اخاف البشر ولا اخاف الله . الله يفهم ويغفر اما هم فلا - ولا اريد ، تحت اية ظروف ، ان افقد السكينة التي وجدتتها هنا في الصحراء . فاستمع اذن واحفظ جيداً ما ساقوله لك . وانا متأكد انه سيساعدك .

توقف للحظة ونظر الي بعينين نصف مغمضتين من خلال جفنيه وكأنه يقدر وزني .

تمتم : اتساءل ان كنت تستطيع تحمله .
اجبته وقد فقدت صبري : استطيع . استطيع . تكلم على حريتك يا ابناً .

خفض صوته اكثر وقال : « ليس الملائكة اكثر من - اتسمع ؟ - ليسوا

اكثر من شياطين مصفأة • وسيأتي اليوم - آه لو انني استطيع ان اعيش حتى أراه - الذي يفهم فيه الناس ذلك وعندها ... »

وانحنى مقتربا من اذني ، وللمرة الاولى كان صوته يرتعش وهو يقول : « وعندها يتقدم دين المسيح خطوة اخرى على الارض • سيشمل الانسان كله وليس نصفه كما هو الان باحتوائه للروح فقط • ستتسع رحمة المسيح • سيحتوي الجسد ويطهره مثلما يفعل للروح • وسيرى - وسيعظ - بأنهما ليسا عدوين بل زميلي عمل • اما الان • ما الذي يحدث ؟ ان بعنا أنفسنا للشيطان فإنه يدفعنا لانكار الروح ، وان بعنا أنفسنا لله يدفعنا لانكار الجسد • متى ينمو قلب المسيح بما لا يكفي لمواساة الروح فقط ، بل لمواساة الجسد ايضا ويصالح بين هذين الوحشين المفترسين ؟ »

تأثرت بعمق وقلت : شكرا يا ابي للهبه العظيمة التي وهبتي اياها - الى الان وانا ابحت عن شاب استطيع ان أآتمنه على هذا قبل ان اموت • الحمد لله الان انت اتيت • خذه • انه ثمرة تمهتي الكامل للروح واللحم •
- انك تقدم لهب حياتك كلها • هل سأستطيع حمله ابعد من ذلك وتحويله الى نور ؟

- يجب ان لا تسأل ان كنت ستنجح ام ستفشل • ليس هذا ما يهم • ما يهم هو كفاحك من اجل حمله ابعد من ذلك • والله يقدر ذلك - الهجوم - على حسابنا وليس على حساب احد غيرنا • اما اذا كنا سننتصر او ننهزم فهذا شأنه وليس شأننا •

لوقت لا بأس به لم يتكلم اي منا • ومر ليل الصحراء بأصواته اللامتناهية المقلقة من خارج نافذة الحجرة الصغيرة • وكان من الممكن سماع الثعالب وهي تعوي من بعيد ؟ هي الاخرى كانت تعاني من الالم والحب والجوع •
تمتم العجوز وهو يرسم شارة الصليب : « انها الصحراء • الضوع (1) والثعالب وبعيدا الاسود • اما داخل الدير فالرهبان نائمون يحلمون وفي السماء فوقنا النجوم • والله في كل مكان »

ومد لي يده قائلا : « لم يعد لدي ما اقوله لك يا بني » •
عدت الى غرفتي بخطوات خفيفة • كان ذهني واضحا وقلبي يخفق بهدوء • كانت كلمات الاب جواكيم كاسا من الماء العذب • ولقد كنت ظامئا • وامتدت البرودة الى نقى عظامي •

- جمعت امتعتي وربطتها في رزمة ووضعتها على ظهري وفتحت الباب
- لا بد ان النهار قد بدأ لأن السماء صارت حلبيية وبدأ اصغر النجوم يغيب
وفي اسفل الوادي بدأ حجل يقوقي •
- بعمق استنشقت الفجر المبارك ورسمت شارة الصليب وهمست :
« باسم الله » •
- تقدمت في الممر مرة اخرى • كان الضوء ما يزال مشعا في حجرة العجوز
- قرعتها وسمعت قدميه الحافيتين تنزلقان على الحجارة المرصوفة • فتح
الباب وتطلع الي • وحين رأى الرزمة على ظهري ابتسم •
- قلت له : « انني راحل يا ابي » وانحنيت اقبل يده : « امنحني بركتك » •
وضع راحة كفه على شعري وقال :
« باركك الله يا بني • ارحل • وليكن الله معك ! » •

مذکرات کازنتواکي

٢
تفريدي
عريكو



٢٢ - كريت

ارهقت . لقد كنت شابا ، قبل اي شيء آخر ، وقلق الشباب
عبء مرهق لن يتنازل للاعتراف بحدود طاقة الانسان . انه يبحث
عن الكثير ولا يستطيع الا القليل . بعد ان كافحت للوصول الى هذه
الحدود ، وبعد ان تعبت من الكفاح عدت الى ارض آبائي . كنت
راغبا في الالتقاء بجبالنا وفي رؤية حملة الالوية بطرابيشهم المائلة
وضحكاتهم الواسعة وفي الاستماع ، مرة أخرى ، الى حروب الحرية .
كنت أريد أن أمشي على تراب الوطن لكي أستمد منه القوة .

سألني والدي : من أين أنت قادم ؟

فأجبته : « من مكان بعيد جدا » دون أن أذكر كلمة واحدة عن
مغامرتي التي كادت أن تنتهي بأداء القسم في سيناء .

تلك كانت المرة الثانية التي تجهض فيها محاولتي للوصول
الى القداسة . المرة الاولى ، كما تذكرون ، كانت في طفولتي حين
ذهبت الى الميناء وركضت الى قبطان كان يستعد لرفع مرساته ،
ورجوته ان يأخذني معه الى جبل آثوس حيث أستطيع أن أصبح
راهبا . وطقت خالصتا القبطان من الضحك وصرخ بي : « الى
البيت ! الى البيت ! » وراح يصفق بيديه ليبعدني وكأنني دجاجة
صغيرة ، وتكرر الامر ثانية الآن . صاح بي الاب جواكيم : « عد الى
العالم . في أيام كهذه ، وسن كهذه ، العالم هو الدير الحقيقي الذي
ستصير فيه قديسا » .

رجعت الى ارض الوطن لكي استجمع قواي • غادرت كاسترو
ماشيا الى القرى حيث كنت أكل وأشرب مع الرعاة والفلاحين •
وأحسست بالخجل حين رأيت كيف تتعارض الحياة الكسول المخادعة
في الدير مع أرض كريت كلها ، تلك الارض التي تتصارع ، دون
توقف ، ان لم يكن مع الفيضانات والجفاف فمع الفقر والمرض أو
الاتراك • وأنا كنت أحاول أن أسير بعكس رغبتها وأن أخونها
بتحولي الى راهب • كان الاب جواكيم على حق • العالم هو ديرنا •
والراهب الحقيقي هو ذلك الذي يعيش مع البشر ويعمل هنا مع الله
ملتصقا بالتراب • فالله ليس جالسا على عرش فوق الغيوم • انه
يصارع هنا على الارض والى جانبنا • لم تعد العزلة طريق الانسان
المكافح ، والصلاة الحقيقية ، الصلاة التي تسلك طريقها الى بيت
الرب وتدخله ، هي العمل النبيل بهذه الطريقة يصلي ، اليوم ،
المحارب الحقيقي •

ذات مرة قال لي كريتي : « حين تقف أمام الابواب السماوية
ولا تفتح لك لا تمسك بالمطرقة لتدق الباب ! بل أنزل البندقية عن
كتفك وأطلق ! »

- أعتقد ، فعلا أن الله سيخاف ويضطر لفتح الابواب ؟
- لا يا بني • لن يخاف • لكنه سيفتحها لأنه سيعرف أنك عائد
من المعركة •

لم يسبق لي ، أبدا ، أن سمعت كلمات رجل مثقف بهذا العمق
الذي اتسمت به الكلمات التي كنت أسمعها من الفلاحين ، وخاصة
منهم العجائز الذين أتمو الكفاح • لقد خدمت عواطفهم في أعماقهم
وراحوا يقفون على عتبة الموت وهم يلقون بحنان نظرة أخيرة هادئة
الى الوراء •

بعد ظهر أحد الايام التقيت بعجوز على منحدر جبلي • كان نحिला
ذاويا بشعر أبيض كالثلج و « شروال » (1) مرقع وحذائين مليئين

(1) هو الشروال التقليدي الذي يلبسه الفلاحون ويمتاز باتساع شديد
بين الفخذين • وقد استخدمت كلمة « الشروال » لتمييزه •

بالثقوب • وكما هي عادة الرعاة الكريتيين كان يعلق عصاه بين
كتفيه • كان يتابع صعوده البطيء من حجر الى حجر ويقف بين حين
 وآخر ليتطعم مستغرقا الى الجبال والسهل البعيد وفسحة البحر
الظاهرة عن بعد من بين ضفتي الوادي •

هتفت اليه من بعد : « يعطيك العافية يا جدي • ما الذي تفعله
هنا وحدك ؟ »

- أودع يا ابني • أودع •
- في هذا المكان المهجور ؟ لا أرى أحدا هنا • من تودع ؟

هز العجوز رأسه غاضبا وقال : « أي مكان مهجور ؟ ألا ترى
الجبال والبحر ؟ لماذا منحنا الله العيون ؟ ألا تسمع العصافير من
فوقك ؟ لماذا منحنا الله آذاننا ؟ تقول ان هذا المكان مهجور ؟ هؤلاء
هم أصدقائي • اننا نتبادل الاحاديث • أناديهم فيجبونني • أنا
راع • لقد تجولت خلال جبلين برفقتهم • ولكن وقت الفراق قد حان •
لقد حل المساء • »

قلت وقد خيل الي ان بصره منحسر بسبب السن : « ولكن ما
يزال الوقت باكرا • نحن في الاصيل يا جدي • لم يحل المساء بعد • »
هز رأسه : « أعرف ما الذي أتحدث عنه ، انه المساء كما أقول
لك • المساء • • وداعا • »
قلت لأشجعه : « ستسجن حتى كيرون ★ يا جدي • »

فضحك : لقد حققت ذلك • لعنه الله • نعم • لا تقلق • لقد
سجنته ، هذا المخاتل العجوز • كيف ؟ بعدم خوفي منه • • • وداعا •
أنت أيضا تسجنه يا فتاي الجميل وستنال بركتي • »

لم أستطع احتمال تركه يذهب •
- قل لي اسمك يا جدي • لا أريد أن أنساك •

★ ناقل ارواح الموتى الى هيدس •

- حسن اذن • انحن والتقط حجرا • سلها وستجيبك •
مانوسوس العجوز من كافوهوري • هذا ما ستقوله لك • حسن • يكفي
الآن • اعذرني • كما تستطيع أن ترى • انني على عجلة ••• رحلة
موفقة •

بعد ان قال ذلك استأنف صعوده وهو يتعثر لضعف بصره •

صحيح اننا لا نستطيع ان نقهر الموت ، الا اننا نستطيع ان
نقهر خوفنا من الموت • كان هذا الجبلي العجوز يواجه النهاية بصفاء •
لقد وسعت التلال روحه وحصنتها ، فهو لن يتنازل بالركوع أمام
كيرون • وما كان يريد منه هو ، ببساطة ، التأجيل لأيام قليلة ريثما
يودع مرافقيه السابقين : الهواء المنعش والزعتر والحجارة •

ولكنني فيما كنت أمشي ذات يوم قرب فايستوس ، على
سهل ميسارا الواطىء ، رأيت عجوزا آخر مئويا (١) • كان يجلس
على عتبة كوخه المتواضع ليتشمس • وكانت عيناه مثل جرحين
أحمرين وأنفه يشر ، وريقه يسيل من فمه ورائحة التبغ والبول
تفوح منه •

عند دخولي الى القرية كان أحد أحفاد هذا الرجل قد حدثني
ضاحكا عن جده • وقد قيل لي أن أذهب وأراه لأنه كان قد عاد طفلا
من جديد ، ظاهريا كان يجلس عند مورد القرية كل مساء ينتظر
الصبايا أن يأتين ملء جرارهن • وقد قال لي الحفيد : « انه يمتط
عنقه عند سماعه قرقعة قباقيبهن (٢) • انه نصف أعمى • وهو
غير قادر على تمييزهن جيدا ولذلك فانه يمد ذراعيه وينادي :
(انت يا من هناك • من أنت ؟ تعالي هنا يا طفلاتي ان كنت راغبة
في مباركتي • اقتربي ودعيني أراك) • وتذهب الفتاة اليه ضاحكة ،
ويمد هذا العجوز الشاذ كفه الى وجهها • يمد كفه بشراهة - حتى
ليخيل اليك انه سيلتهمه - يتحسس الانف والفم والذقن بنهم ثم

(١) اي أن عمره في حدود المئة عام •

(٢) الققباب : تسمية شعبية لحذاء خشبي بسر جلدي في المقدمة مقط •
وهو يصدر صوتا عند السير به •

يحاول ان ينزل الى الرقبة . لكن الفتاة لا تريد أن تسمح له . تطلق صرخة وتركض وسط الضحك الصاخب . ويترك العجوز وهو يتنهد وراحته ما تزال مفتوحة . وهو الآن يتنهد ! ان عليك ان تسمعه . تنهده شبيه بالثور . لقد سألته ذات يوم : (ولكن لماذا تنهد يا جداه ؟ ما مشكلتك ؟) فأجابني بدموع مدرارة : (ما الذي تظن أنها مشكلتي ؟ عليها اللعنة ! أليس في رأسك عينان ؟ انني أغرق في القبر تاركا بنات جميلات كهؤلاء ورائي ! أه لو أنني كنت ملكا لكي أذبهن جميعا بحيث أستطيع أخذهن معي) . ثم ، وبعد ان يحس انه مليء بالخزي ، يبدأ في غناء المانتينا (1) ، والمقطع ذاته دائما ، بصوته المحشرج :

وا أسفاه ! مرت الايام ، الايام الغالية
أه على استعادتها ، ولو من كل عام يوم .

لقد جعلني استماعي للحفيد متشوقا للذهاب وابداء الاعجاب بهذه السنديانة المثوية . دللت على كوخه ، حيث وجدته جالسا يستدقء بالشمس . قلت له وأنا أتقدم منه : « طيب ، طيب ، يا جدي . سمعت انك في المائة من عمرك . قل لي كيف بدت لك الحياة خلال هذه الاعوام المئة ؟ »

تطلع الي بعينين خابيتين لا أجفان لهما وقال : « انها مثل كأس من الماء البارد يا بني » .
- أو ما تزال ظمأنا يا جدي ؟
رفع كفه عاليا وكأنه يستنزل لعنة وقال : « اللعنة على كل من ليس ظمأنا ! »



قضيت ثلاثة أيام في دير وأنا أتطلع الى البحر الليبي . كنت

(1) مأخوذة من الكلمة الايطالية مانتيناتا . وهي في الاصل أغنية عاشق يغنيها تحت نافذة حبيبته ، وفي كريت تأخذ المانتيناتا دائما صيغة الدوبيت (بيتين من الشعر) . . وهي أغنية ضحلة ولم تعد محددة بموضوع .

دائما أحب الحياة الفوضوية في الدير - الايقاع القديم الذي يسودها ، والقساوسة بعيونهم الماكرة أو الناعسة وكروشهم المنتفخة أو الفارغة واكفهم الضخمة الممسكة بمنجل التشذيب أو الفأس حيناً وبالقربان المقدس أو الطبق حيناً آخر . كنت أحب رائحة البخور دائما ، وصلاة الصبح في الهيكل فجرا وبعد ذلك توجه الجميع معا الى الملعف الكبير ، غرفة الطعام ، التي تعبق بالفضلات وبزيت الزيتون الزنخ . والمحادثات الهادئة في الامسيات على شرفة الدير وفترات الصمت الثقيلة المليئة بأصداء العالم البعيدة . نادرا جدا ما كنا نتحدث عن المسيح . كان مثل سيد صارم لكنه غائب ، ذهب الى السماء وترك خدمه وحدهم في قلعتهم حيث قاموا دون خجل باقتحام مخزن الطعام وبالنزول الى مستودع الخمر وبالتمدد على الاسرة الناعمة - أي قاموا بالرقص بعد غياب الهر . ولكن آه لو أنه ظهر بالباب بغتة كيف كانت الموائد ستقلب وأية صرخات كان هؤلاء المترهبون ادعاء سيطلقونها وكيف كان قوس المولى سيرن" !

ذات يوم بينما كنت جالسا على شرفة الدير مع أحد القسس حولت الحديث الى القديس الذي أحبه كثيرا ، فرانسيس أسيسي . لم يكن القس قد سمع به من قبل . تجهم وجهه (كان فرانسيس قديسا كاثوليكيًا ، أي كان مهرطقا) . غير أن الفضول اليوناني هو الذي انتصر أخيرا .

- « جميل وحسن . أنت تحكي وأنا أستمع » ولف ذراعيه حول بطنه مستعدا لادانة كل ما سأقوله .

وبدأت : اعتاد هذا القديس أن يقول لله في صلواته : كيف أستطيع أن أتمتع بالجنة يا مولاي وأنا أعرف ان الجحيم موجود ؟ يا الهي العزيز ارحم الملعونين وضعهم في الفردوس أو فلتدعني أنزل الى جهنم لأواسي المعبذين . سأقيم نظاما يهدف الى النزول الى جهنم لمواساة الملعونين ، فان لم نستطع التخفيف من الامهم سنبقى نحن في الجحيم لنتعذب معهم » .

وانفجر القس ضاحكا وقال : « دعني أقص عليك الآن قصة جميلة . ذات يوم دعا أحد الباشاوات معوزا الى العشاء . وضع

امامه صحن زيتون وصحنا من الكافيار الاسود . ودون أن يتطلع الى الزيتون كثيرا هجم المعوز على الكافيار بشراهة وأتى عليه . وقال له الباشا : كل بعض الزيتون أيضا يا أخي . فأجابته الآخر : لماذا يا باشا أفندي ؟ ما الغلط في الكافيار ؟

« أفهم ؟ الفردوس هو الكافيار الاسود . آسف . ولكن بمقدار ما يعينني الامر فان صديقك فرانسيس - كيف تقول اسمه ؟ - ليس الا كاثوليكيًا أبله آخر » .

يوم مغادرتي نهضت قبل الفجر وذهبت لصلاة الصبح متشوقا لسماع الترنيمة المرتعشة الرتيبة التي يرددها القسس لله والكلمات المؤثرة المليئة بالندم التي ابتكرها مؤمنو الازمنة القديمة ليصبغوا بها على الله قبل طلوع النهار : « الهي يا الهي ! أقف أمامك صباحا . روعي ظامئة اليك واللحم يتوق اليك في الارض الجافة الظامئة التي لا ماء فيها » وقفت فوق مقعد في جوار النافذة التي كنت أرى البحر تحتي من خلالها ، متسعا بلا حدود وغير مطروق ، ما يزال أبيض في ضباب الصباح وممتدا الى رمال أفريقيا الحارة . كانت العصافير قد استيقظت مع القسس وبدأت أنغامها لتحية النور . وسط الغناء كانت ذروة شجرة السرور قد أضيئت بينما كانت أوراق شجرة البرتقال المجاورة لها ما تزال غارقة في قتامة خضراء معتمة . كان عازف السيمانترون قد أكمل جولته على الحجرات لايقاظ القسس ، وقد دخل الآن الى الهيكل نصف المضاء وأزاح وشاحه (1) المتدلي ثم علق السيمانترون الخشبي قرب الباب . وفيما كان يقف في المدخل نصف مظل ، كان للحيته المجددة القاتمة وشعره المتدلي على كتفيه بريق أخاذ . بطوله وتقاطيعه السوداء كان يتدفق شابا . كم من المخجل ان جسدا كجسده لم يقدر له أن يعانق امرأة وينجب أطفالا . لا بد أن أبنائه وبناته كانوا سيجمگون العالم .

(1) Kahymmaflac : غطاء من قماش أسود يوضع فوق قلنسوة القسس الارثوذكس ويتدلى من الخلف حتى الخصر . ويجمع أحيانا بشكل هرمي فوق الرأس . وهو يشبه الخمار في استخدامه : انه يمنع القس من رؤية العالم .

وفيما كنت أفكر في كيف أن خسارة العالم قد فشلت في تحقيق كسب لله ظهرت بهدوء امرأة متشحة بخمار أسود في المدخل وعلى ذراعها طفل . كان رئيس الدير قد حذرني في اليوم السابق ، تحذيرا مصحوبا بابتسامة مأكرة ، بأن لا أصدم ان جاءت امرأة حديثة الزواج من قرية مجاورة في الصباح طالبة البركة لوليدها الجديد . فقد كانت تريد ان تحميه من العين الشريرة كان من الواضح انه جميل جدا وكانت عيناه المحاطتان بحاجبين كثيفين تشكلان تعويذة له .

وقفت قرب الباب وانتظرت برأس محني ان تنتهي صلاة الصبح لكي يقترب منها رئيس الدير بمنضخة الماء المقدس . وبدا أن الجو يتغير ، وان الانفاس الرهبانية الثقيلة تمتزج بأنفاس المرأة ، ومن الكنيسة تفوح رائحة زيت الغار من شعر العروس المغسول منذ قليل . ودبت الحياة في صوت الرئيس الرتيب ، تماما في اللحظة التي كان ينشد فيها الترنيمة المرحية : « انه الرب الاله ولقد تجلى لنا ، مبارك القادم باسم الرب . . . » ومال الرهبان بمقاعدهم الى الامام والتفتوا وألقوا نظرات جانبية نحو الباب وبدأ اثنان أو ثلاثة منهم بالسعال واتجه عازف السماترون الى المرأة وهمس لها بشيء ما . ودون أن ترفع رأسها تقدمت خطوتين الى الامام وجلست على الكرسي القريب من الباب . كنت تستطيع ان تحس بأن كلا منهم قد فقد هدوءه وان الرهبان كلهم الآن ، وأنا بينهم ، لم يعودوا قادرين على الانتظار لانتهاى الصلاة .

كانت الشمس في ذلك الوقت قد أشرقت . وامتلات الباحة بالضوء وراحت الاشعة المائلة تدخل الكنيسة جاعلة الايقونات المقدسة وكذلك وجوه الرهبان وأيديهم تشع متلامعة . ونزل الرهبان عن مقاعدهم وهم يتنهدون جميعا « حمدا لله ! حمدا لله ! » لقد انتهت الصلاة .

ارتدى رئيس الدير بطرشيله وامسك بالمنضخة ، ووقف عازف السماترون خلفه ومعه وعاء القربان المليء بالماء المقدس . ووضعت المرأة نفسها بالباب وجسدها كله في الضوء . كانت الآن قد أقلت

عنها خمارها كاهفة عن وجهها كله . رفعت عينيها وتطلعت الى رئيس الدير الذي كان قد وضع راحته على رأس الطفل الصغير وبدأ يتلو المباركة . ثم ثبتت نظرها على عازف السمانترون . وذكرتني عيناها الواسعتان السوداوان الحزبتان بحلاوتهما المعجزة . عن الوصف بعيني بورتايتيسا في دير ايفيرون - الحلاوة ذاتها وقلق الام ذاته على الابن .

وبغثة بدأ الطفل يرفس بقدميه الصغيرتين ويزعق . ولكي تسكته فكت الام أزرار صدرها وأخرجت ثديها . وتلقف الطفل الحلمة وهذا . كانت لحظة لن أنساها ما حييت : صدر العروس الملتع باستدارته الناصعة ورائحة الحليب تفوح في الجو وتزداد قوة مع القليل من العرق والبحر اللببي ممتد في الخارج ، أزرق قاتما الآن ، خلف كتفي المرأة . ولجم لسان رئيس الدير ولكن لوهلة فقط . تغلب الاله في داخله فأكمل الصلاة دون أن يخزي نفسه .

وحثني الشيطان على التحدث الى عازف السمانترون . توجهت اليه في الغناء على الرغم من انني لا أعرف ماذا سأقول .

وبدأت : أب نيكو ديموس ١٠٠٠

لكنه وسع خطاه ودخل حجرته .

بعد ساعة عدت الى تطوافي على قدمي كما كنت أفضل .

كم من السنوات مرت منذ ذلك الحين ؟ أربعون ؟ خمسون ؟ لقد تلاشى الدير من ذاكرتي ولم يبق ، بديلا عنه ، الا ثدي الام الخالد الابيض المدور متلامعا فوق البحر اللببي .

★ ★ ★

باغتني الليل في اليوم التالي وأنا أقترب من قرية . كنت جائعا ومتعبا من السير طوال النهار على الارض القاحلة الصخرية ، الا انني على الرغم من عدم معرفتي بأحد في القرية ومن عدم وجود أدنى فكرة عما يمكن أن يكون اسمها فقد أحسست بالراحة كنت أعرف أنه لا يهم أن تطرق أي باب في قرية كريتية فان الباب

سيفتح لك • وستعد وجبة على شرفك وستنام بين أفضل ملاءتين
في المنزل • وفي كريت ما يزال الغريب هو الاله المجهول • وأمامه تفتح
الابواب كلها والقلوب كلها •

كان الليل قد بدأ يهبط حين دخلت القرية • الابواب كلها مغلقة
والكلاب في الدور ، وقد شمت رائحة الدخيل ، بدأت بالنباح • أين
سأذهب وأي باب سأدق ؟ الى بيت القس حيث يجد الغرباء كلهم
الملجأ • ان القسس في قرانا غير مهذبين وثقاقتهم ضحلة • وهم
عاجزون عن أية مناقشة نظرية حول المبدأ المسيحي • غير ان
المسيح يعيش في قلوبهم وأحيانا يرونه بعيونهم ان لم يكن على
وسادة مصيبة الحرب فانهم يرونه جالسا تحت شجرة لوز مزهرة
في الربيع •

فتح باب • وخرجت امرأة عجوز صغيرة وبيدها مصباح لكي
ترى من هذا الغريب الذي دخل القرية في ساعة كهذه • توقفت
وقلت : « أطال الله عمرك يا سيدتي » وقد نعمت صوتي لئلا
أخيفها • « أنا غريب وليس لدي مكان أنام فيه فهل تتلطفين بأن
ترشدينني الى منزل القس ؟ »

- بكل سرور • سأرفع المصباح لكي لا تتعثري • فالله - تبارك
اسمه - قد منح التراب للبعض والحجارة للبعض الآخر • لقد كانت
الحجارة من نصيبنا • انتبه لخطواتك واتبعني » •

سارت أمامي بالمصباح • انعطفنا عند زاوية ووصلنا الى باب
ذي قنطرة • وكان هناك مصباح معلق عليه • قالت العجوز : « ..
بيت القس » •

رفعت المصباح فوق وقع الضوء على وجهي وتنهدت • كانت على
وشك ان تقول شيئاً ما لكنها غيرت رأيها •

قلت : شكرا لك يا سيدتي اللطيفة • .. جزعاجك • تصبحين
على خير •
ظلت تتطلع الي دون أن تبتعد •

- ان كنت لا تنزعج من بيت فقير تستطيع ان تأتي وتبيت عندي .

لكني كنت قد طرقت باب القس . سمعت خطوات ثقيلة في الدار . وفتح الباب ورأيت رجلا عجوزا يقف أمامي بلحية ناصعة البياض وشعر طويل منسدل على كتفيه . ودون ان يسألني من أنا وما أريد مد يده :

- أهلا . هل أنت غريب ؟ ادخل .

وأنا أدخل سمعت أصواتا . فتحت أبواب وأغلقت ثم انسلت عدة نساء مسرعات الى غرفة مجاورة واختفين . وأجلسني القس على الأريكة .

- زوجتي ، البابا ديا ، متوعدة قليلا . عليك ان تعذرها . لكن أنا نفسي سأطبخ لك وأعد المائدة لعشائك وأهيء السرير لنومك .

كان صوته مثقلا ومتألما . تطلعت اليه . كان شاحبا جدا وكانت عيناه منتفختين وملتهبتين بتأثير البكاء . ولكن لم تخطر لي أية فكرة عن مصيبة . أكلت ونمت . وفي الصباح جاء القس وجلب لي صينية فيها خبز وجبن وحليب . مددت له يدي وشكرته وودعته .

قال : باركك الله يا بني . وليكن المسيح معك . ذهبت . وفي طرف القرية ظهر رجل عجوز . وضع يده على صدره وحياني . ثم سألني :

- أين قضيت الليل يا بني ؟

- في بيت القس .

تنهد العجوز : أه . المسكين . وانت لم تشم رائحة أي شيء ؟

- ما الذي كان هناك لأشم رائحته ؟

- لقد مات ابنه صباح الامس . ابنه الوحيد . ألم تسمع

النسوة يندبن ؟

- لم أسمع شيئا . لا شيء .

- لقد نقلناه الى الغرفة الداخلية . لا بد أنهن كبحن ندبهن لكي

لا تسمع وتنزعج .

٠٠٠ مع السلامة ، رحلة موفقة !

كانت عيناى قد امتلأنا بالدموع . وهتف العجوز مستغربا :
« ما الذي يبكيك ؟ آه . عرفت . انت شاب . انك لم تتعود على
الموت بعد . رحلة موفقة ! »



جميل أن تكون في كريت ولكن من أجل أن تستمد منها العزم
فقط . بعد أشهر قليلة أحسست بالضيق من جديد . ضاقت الطرق ،
وتقلص بيت أسرتي وفقد الحبق والقطيف أريجهما . وبعد أن رأيت
كيف استقر أصدقائي القدامى تملكني الرعب . أقسمت أن لا أحبس
نفسى أبدا ضمن الجدران الاربعة لمكتب وأن لا أنسجم مع حياة
الدعة وأن لا أوقع على اتفاقية مع الضرورة . تعودت أن أنزل الى
المرفأ واتطلع الى البحر . كان يبدو بابا للحرية . اه ما أحلى أن
تفتحه وتهرب .

بدأت أسير جيئة وذهابا في المنزل بصمت مطبق . وكان والدى
يراقبني وقد قطب حاجبيه . وذات يوم سمعته يقول لأمي : ما الذي
حدث لابنك هذا ؟ أية أفكار حمقاء تتأكله ؟ بدل أن يتطلع أمامه
ليقبض على ما هو في متناول يده يتطلع الى ما لا يمكن الحصول
عليه . انه يرى ان عصفورين على الشجرة أحسن من عصفور في
اليد . قولى عني اننى كاذب ان لم يكن ابنا مثل أولئك المجذوبين
الذين قرأت عنهم في قصص الجنيات ، أولئك الذين يذهبون الى
أطراف الارض مفترضين أنهم سيجدون نبع الشباب .

لكنه كان يبكي على حليب مراق . كان يتوقع منى أن أفتح
مكتبا وأبدأ العمل عرابا في حفلات التعميد في القرية وفي الاعراس
لكى أكسب أصدقاء سينتخبوننى الى الهيئة التشريعية ، وأن
اكتب المقالات في الصحيفة المحلية وأن أصدر كراسا يقول ان المنطقة
تسير الى الهلاك وانه من الضروري ، بأية طريقة ، أن يظهر بشر
جدد ويتسلموا الدفة .

وذات يوم لم يستطع تمالك نفسه فسألنى : « لم تبق تتجول

هكذا دون أن تقوم بشيء ؟ متى تنوي أن تفتح مكتبا وتبدأ العمل ؟

- لم أتھيا لذلك بعد .
● ما الذي تحتاج اليه أيضا ؟

لم أكن احتاج لشيء وفي الوقت نفسه كنت احتاج الى كل شيء . كنت ما أزال أتعذب تحت وطأة صلف الشباب وشراھته . كان نساك طيبة بتوقھم الى المطلق ینغلون في أعماقي (وربما أنهم ما يزالون) كما كان أيضا الرھل العظام الذين وسعوا الارض بترحالھم .

استجمعت شجاعتي وأعدت القول : « لم أزل غير مستعد . ان جامعة أثينا غير كافية . علي أن أتابع الدراسات العليا » .
- وهذا يعني ؟

ترددت . كان أبي يجلس على الاريكة في ركنه المعتاد قرب نافذة الدار . تابع درج لفافته وفلشها دون ان يتطلع الي . كان عصر يوم أحد ، وأشعة الشمس تتخلل الالواح ملقية ضوءها على وجهه الصارم الذي حرقتة الشمس وعلى شاربيه الكثيفين وعلى الندبة في جبينه التي لا بد أن سیفا تركيا قد خلفها فيه .

- وهذا يعني ؟ أعاد السؤال رافعا رأسه الآن لينظر الي .
« هل تريد ان ترحل الى الخارج ؟ »

- نعم .

● الى أين ؟

أظن ان صوتي كان يرتجف : الى باريس .
ظل أبي صامتا لحظات قليلة . وأخيرا قال : طيب . اذهب .

كان أبي وحشيا وغير مثقف الا انه لم يمنع عني أبدا أي شيء له علاقة بتطوري الفكري . وقد سمعته ذات يوم يقول لأحد أصدقائه وقد كان مزاجه طيبا : « من يسأل عن الكروم اللعينة أو الزبيب والخمر وزيت الزيتون ! فلنتحول مواسمي كلها الى ورق

وحبر لابني • انني مؤمن به ! » كان يقوم بأية تضحية معلقا علي
كما يبدو أماله كلها في خلاصه الشخصي ، لأنني ان نجوت نجا معي
وكذلك نجت معنا ذريتنا المجهولة كلها •

حين كنت ما أزال طفلا قلت له مرة إنني أريد أن أتعلم العبرية
لكي أقرأ التوراة بلغتها الاصلية • وكان هناك يهود في ميغالو كاسترو
في ذلك الحين ، فقام والدي باستدعاء الحاخام واتفقا على أن أذهب
اليه ثلاث مرات في الاسبوع نتلقي دروس العبرية • ولكن ما أن
سمع اقرباؤنا وأصدقاءنا بالامر حتى وقفت شعور رؤوسهم وركضوا
الى أبي صارخين : « ما هذا الذي تفعله ؟ أليست لديك مشاعر تجاه
ابنك ؟ ألا تعرف ان هؤلاء الصالبين يضعون الاطفال المسيحيين يوم
الجمعة الحزينة في جرن مليء بالمسامير ويشربون دماءهم » وأرهق
والدي من صرخاتهم ومن بكاء أمي • فقال لي ذات يوم : « لقد
أوقعنا أنفسنا في التباس طريف • انس مسألة العبرية ، ستتعلمها
حين تكبر » •

كلما كنت أقول له أنني أريد أن أتعلم لغة أجنبية كان يقول :
« جميل هيا • تعلمها • ولكن بشرط واحد فقط : ان تلبس قميصا
داخليا آخر » • يبدو انني كنت نحيفا ولا بد انه كان خائفا علي •
تعلمت ثلاث لغات أجنبية قبل أن أغادر كريت وكان علي نتيجة
لذلك أن أرتدي قميصانا داخلية اضافية • وحين ذهبت الى الجامعة
في اثينا خلعتها •

- طيب • اذهب • قال ذلك مرة أخرى

لم أستطع استيعاب فرحتي • انحنيت للامسك بيده وتقبيلا •
ولكنه سبقني وسحبها قائلا : « لست قسا » •

في اليوم التالي قبلت يد أمي • انحنيت علي ومنحتني بركتها
وطلبت الي حبا بالله أن لا أتحول الى كاثوليكي • ثم علقت حول
رقبتي تميمة وكانت تحتوي على قطعة من (الصليب الحقيقي) •
يبدو ان جدي كان يلبسها في الحروب فلم تلمسه رصاصة واحدة •

رافقني والدي الى المرفأ وهو يتطلع الي بقلق وفضول من

وقت لآخر من زاوية عينه • لم يستطع ان يفهم من أنا وماذا كنت
أريد ولماذا كنت أتنقل من مكان الى آخر بدل المكوث والاستقرار
في كريت •

وبغثة قال لي حين وصلنا الى الواجهة المائية : « اظن انك
تشبه جدك • لا أعني والد أمك بل والدي • القرصان » •

وبعد لحظة صمت تابع : « ولكنه كان يسطو على السفن ويقتل
ويسلب ويزيد أملاكه • فما شأنك أنت ا أية سفن تسطو عليها ؟ »

وصلنا الى الميناء فشد على يدي : « وداعا • وحظا سعيدا
وانتبه لما أنت فيه » ثم هز رأسه غير راض أبدا عن ابنه الوحيد •

وبالفعل ، أية سفن أسطو عليها ؟

٢٢ - باريس - نيتشه

الشهيد العظيم

الفجر • كان هناك رذاذ خفيف ولطيف يرز • الصقت وجهي بنافذة العربة فاستطعت رؤية باريس تمر من وراء شبكة المطر الشفافة ، تمر ضاحكة وسط دموعها وهي ترحب بي • رأيت الجسور تمر قربي والمباني متعددة الطوابق والمغطاة بالسخام والحدائق والكنائس ، وأشجار الكستناء القوية العارية من أوراقها والناس يسرون مسرعين في الشوارع العريضة المضاعة • من خلال خيوط المطر المتدلّية استطعت أن أرى وجه باريس للعبوب الفاتن كله وهو يبتسم ويتلألأ تماما كما نرى الحائك خلف خيطان النول •

سألت نفسي عما يمكن ان يكون مخبأ لي في هذه المدينة التي طال اشتهائي لها • ولت روح الانسان لعجزها عن التنبؤ بالمستقبل ولو بساعة واحدة قادمة • أفلا تستطيع الروح ان تفعل شيئا لرؤية ما سيأتي الا انتظار ولادة ما لم يولد ؟ فهل الروح كئيبة وهشة مثل اللحم ؟ كنت أتساءل عما اذا كنت سأجد في هذه المدينة الكبيرة ما كنت أبحث عنه • ولكن ما الذي كنت أبحث عنه ؟ ما الذي كنت أرغب في أن أجده ؟ أكان هذا يعني ان الدليل ذا اكليل الشوك لم يكن كافيا لي ، الدليل الذي كان يقف كمعلم ، على قمة جبل عالية ، مصنوع من الحجارة والدم وكان يدلني على الطريق ؟ أم ان الاب

جواكيم كان على حق في دفعي لعبور الجحيم والمطهر الارضيين ان كنت أرغب في الوصول الى الفردوس - أن أجرب المتعة والالم والخطيئة وبعدها اتجاوز المتعة والالم والخطيئة ا ان كنت أرغب في الخلاص ؟

كان الضوء قد رفع رأسه قليلا ، شمس ملساء علقت نفسها في هذه السماء الغريبة المؤلفة من الضباب والكآبة واللفظ العصي على التعبير . كم يبدو سائق معجلة * اليونان المؤمنس مقتلعا من جذوره في هذه الاراضي الغريبة . بعيدا في وطنه كان يعري كل شيء ويكسوه من جديد بضوئه جاعلا الروح تتألق صريحة ومرئية مثل الجسد . ان الشياطين تهجر حجرتها المظلمة هناك فيتغلغل الضوء الى نقي عظامها الاسود ويحولها الى مخلوقات طاهرة حلوة الكلام مثل البشر . ولكن الشمس هنا مختلفة الامر الذي يعني القول بأن وجهي الارض والروح مختلفان . كان علينا ان نتعلم محبة الجبين نصف المضاء للجمال الجديد والابتسامة الكتوم والبهاء الخفي .

هذه ملامح الله الجديدة ، هكذا رحمت أفكر وأنا أحقق بشرامة الى الاشجار والبيوت والنساء المتبرجات ~~بهم~~ والكنائس الكئيبة . هذه هي ملامح الله الجديدة . انني أسقط وأصلي لمجده .

كان احتكاكي الاول بهذه الملامح الارضية الجديدة نشوة دامت عدة أيام ، بل عدة أسابيع . الشوارع والحدائق والمكتبات والمتاحف والكنائس القوطية والرجال والنساء في المسارح وفي الشوارع والثلج الجميل الذي بدأ يهطل - كل منها كان ثملا أيضا وراحت كلها تتقلب أمام روحي المبتهجة الى أن زالت السكرة أخيرا وهذا العالم نفسه مرة أخرى وثبت .

وذاث يوم بينما كنت منكبا على كتاب في مكتبة سانت جنفياف

* يتصد الشمس .

~~بهم~~ mascaraed أي اللواتي يستخدمن السكرة وهي مستحضر تجميلى لصبغ الاهداب والواجب .

جاءت الي فتاة • كانت تمسك بكتاب يحتوي على صورة رجل وقد غطت أسفل الصفحة بكفها لكي تخفي اسمه • انحنيت فوقي وتطلعت الي بدهشة ثم أشارت الى الصورة • وسألتنى :

- من هو ؟

هزرت كتفي : كيف لي أن أعرف ؟

- ولكنه انت - الصورة ! انظر الى الجبين والى الحاجبين

الكثيفين والعينين الغائرتين •

ونظرت الى الصورة مضطربا •

- طيب • من هو ؟ قلت وأنا أحاول أن أزيح يد الفتاة جانبا

لكي أرى اسمه •

- ألا تعرفه ؟ أهي المرة الاولى التي تراه فيها ؟ انه نيتشه !

نيتشه ! لقد سمعت عنه لكنني لم أكن قد قرأت أيا من

كتبه بعد •

- ألم تقرأ « ولادة التراجيديا » أو « زرادشت » ؟ عن العود

الازلي أو الانسان المتفوق (السوبرمان) ؟

- لا شيء • لا شيء • أجب الفتاة بخجل •

- انتظر لحظة ! هتفت وغابت على عجل •

خلال دقائق قليلة عادت ومعها زرادشت : « هاك » قالت

ضاحكة • « ها هنا غذاء قوي أسدي لعقلك - ان كان لديك عقل وان

كان جائعا » •

★ ★ ★

كانت تلك واحدة من اللحظات الحاسمة في حياتي • فبفضل

تدخل طالبة جامعية مجهولة كان قدرتي ينصب لي كميناً في مكتبة

سانت جنيفاف • كان المسيح الدجال ينتظرني هنا، ذلك

المحارب الناري العظيم المضرج بالدماء •

في البدء أرعبني تماما • لم يكن ينقصه شيء • برائن ليو سيفر

وأنيابه وأجنحته كانت كلها ظاهرة اضافة الى الصفاقة والغرسة

والعقل العاصي والرغبة الجامحة في التدمير والسخرية والشك

والضحكة العاقبة • لكن طيشه وكبريائه حرراني من قدمي ، وأثملني

الخطر ففرقت في كتابه بخوف وتوق وكأنني أدخل غابة صاخبة

ملیئة بالوحوش الضارية والنباتات المدوخة •

كل يوم كنت أعجز عن انتظار انتهاء دروسي في السوربون وهبوط الليل . كنت اتشوق للذهاب الى البيت وللطلب الى صاحبة المنزل أن تشعل لي النار لكي أفتح كتبه - كانت كلها مكومة على مكتبي - وأبدأ في مشاركته كفاحه . تعودت شيئا فشيئا على صوته ، ونفسه اللاهث وصرخاته المتألمة . لم أكن أعرف ان المسيح الدجال - لقد اكتشفت هذا لتوي - يكافح ويتألم تماما كما يكافح المسيح ويتألم وأنهما أحيانا ، في لحظات الكارثة ، كان وجههما يبدوان متشابهين .

كانت أقواله تبدو لي تجديفات عاصية والسوبرمان عنده قاتل لله . الا ان لهذا العاصي سحرا غامضا . كانت كلماته رقية مغوية تدوخ وتسكر ، انها تجعل قلبك يرقص والحقيقة ان فكره كان رقصة ديونيسية (عربية) ، وأغنية نشوانة قائمة بانتصار في أكثر اللحظات ياسا من مأساة الانسان والانسان المتفوق . ورغما عني أعجبت بألمه وجلده وطهارته كما أعجبت بقطرات الدم التي لطخت حاجبيه وكانما هو أيضا ، المسيح الدجال ، كان يضع على رأسه اكليلًا من الشوك .

وعلى الرغم من انني لم أكن قد توصلت الى هذه الفكرة بوعي الا ان الشخصين ، المسيح والمسيح الدجال ، بدأ يظهران بالتدرج . أكان صحيحا ، إذن ، ان هذين الاثنين لم يكونا عدوين أبيين وأن ليوسيفر لم يكن عدو الله ؟ وهل سيتمكن الشر ، أخيرا ، من الدخول في خدمة الخير ويتعاون معه ؟ ومع مرور الايام وفيما كنت أدرس أعمال هذا النبي المعادي لله كنت أصعد درجة بعد أخرى للوصول الى وحدة صوفية حمقاء . كانت الخطوة الاولى في الاستهلال ، كما قلت لنفسي ، هي : الخير والشر عدوان . الدرجة الثانية والاعلى هي : الخير والشر زميلا عمل . الخطوة الاعلى ، أعلى ما أستطيع الوصول اليه الآن هي : الخير والشر متطابقان (هما الشيء ذاته) . عند هذه الدرجة توقفت مرتعدا من الشك الرهيب الذي لمع في عقلي : ربما ان هذا الكافر القديس كان يحثني على الانضمام اليه في كفره !

قضيت الشتاء كله منشغلا بهذه المعركة . صار النزاع أكثر عنادا ودقة مع مرور الزمن ، استنشقت لهات الخصم ، لهثات عميقة

متألّمة من بعد متزايد الى أن بدأت الكراهية تتحول وتتغير ، ودون أن أدري تحول الصراع الى عناق • لم يسبق لي في حياتي كلها أن أحسست ، بمادية ملموسة كهذه وبدهشة كهذه ، ان الكراهية ، بعبورها بنجاح عبر الادراك والشفقة والتعاطف ، يمكن ان تتحول الى حب • وخطر لي أن الامر ذاته يمكن ان يحدث حين يتصارع الخير مع الشر • كان الامر يبدو وكأنهما كانا ، فيما مضى ، متحدّين ثم تفرقا وهما يكافحان ! لأن للالتقاء من جديد • لكن وقت المصالحة التامة لم يحن بعد • واذا كان في وسعي أن أحكم من خلال تجربتي فلا بد أن وقتا كهذا سيحين ، أي انه سيأتي اليوم الذي يعترف فيه بالخصم وبمساهمته الحرة في المركب العظيم الذي يسمى « الكون المتناسق » - كوسموس - وبتعبير آخر « التوافق والانسجام » - هارموني •

ما أثر في أكثر من أي شيء آخر ، أيها (الشهيد العظيم) هو حياتك المأساوية المقدسة • كان المرض ألد أعدائك وأوفى أصدقائك ، الوحيد الذي ظل وفيا حتى الموت • لم يكن يسمح لك أبدا أن تسترخي أو ان تبقى حيث أنت ولم يسمح لك أن تعلن : انني مسرور هنا ولن أذهب أبعد من ذلك • كنت لها تاجبت ثم ذويت تاركا رمادك خلفك ثم رحلت •

نعم ، أعرف من أين أتيت •
مضطربا كاللهيب
أحترق وأتلف •
كل ما ألمسه يتحول الى ضوء
وكل ما أغادره يتحول الى فحم •
لا شك انني ملتهب •

حين جاء الربيع وصار الطقس أكثر دفئا بقليل انطلقت في رحلة حج لكي أعثر على قطرات دمك الذي ما يزال قارا وأتابغها على كل مرتقيات كفاحك واستشهادك البطوليين •

ذات صباح ماطر كنت أتجول عبر الضباب باحثا عنك في الازقة الضيقة الموحلة في قريتك - مسقط رأسك • ثم وجدت بيت

أمك في المدينة الصغيرة المجاورة ذات الكنيسة القوطية الفخمة .
خلال نوبات الحمى الشديدة كنت تلجأ الى هناك لكي تجد الراحة في
ان تعود ابنها من جديد . ثم أتت الشوارع المقدسة على كورنيش
جنوه حيث كنت تجد متعة كبيرة في البحر وحلاوة في السماء والناس
المتواضعين . كنت لطيفا وحليما فقيرا جدا ومرحا جدا الى درجة ان
سمتك نسوة الجوار بالقديس . وأنت تذكر انك قد خططت للبدء
بحياة على غاية من الهدوء والبساطة : « إنني أعتزم أن أكون
مستقلا بطريقة لا يؤدي فيها استقلالي أحدا ، أن يكون لدي كبرياء
خبثة رخيصة الصوت ، أن أنام دون هموم وأن أتجنب الشراب وأن
أعد وجباتي الخاصة المتواضعة : أن لا يكون لدي أصدقاء لامعون
يفرضون أنفسهم ، وأن لا أتطلع الى النساء أو أقرأ الصحف أو أبحث
عن امتيازات ، وأن اختلط مع الصفوة المختارة فقط فان لم أجد
الصفوة فأختلط مع الناس العاديين » .

كم تأثرت حين كنت أبحث تحت شمس الربيع في انغادين بين
سيلز ماريا وسيلفابلانا عن الصخرة الهرمية حيث هيمنت عليك
للمرة الاولى رؤيا (العود الازلي) ! لقد صرخت وسط البكاء والنواح :
« مع ان حياتي كانت مريرة ولا تطاق فلتحل عليها البركة ولتتكرر
مرة بعد أخرى مرات لا تحصى » . ذلك لأنك كنت تتذوق فرح الابطال
المريز ، الفرغ الذي كان يبدو للنفوس الحقيرة استشهادا : أن ترى
الهاوية أمامك وأن تتقدم اليها دون أن تتنازل للاحساس بالخوف .

كانت القمم المحيطة بي تطلق بخارا أزرق في ضوء الشمس .
سمعت ضجة عن بعد ورأيت جبلا من الثلج ينهار بغثة فتذكرت
ما كتبه اليك صديقك : « يبدو لي كأنني أسمع في كتبك صوت
الشلال البعيد » .

في طريقي داخل سيلز ماريا التفت الى اليمين مرتعشا بينما
كنت أعبر جسر المشاة الصغير الذي تليه المقبرة المتواضعة ،
ارتعشت ، فمثلما أحسست أنت بغثة بوجود زرادشت الى جانبك ،
كذلك فانني رأيت ظلي تحتي ينقسم الى اثنين وأنا أنظر اليه
- وكنت أنت هناك تسير الى جانبي .

أيها الشهيد العظيم مآثرك ومحنك كلها تبرز في عقلي . حين كنت ما تزال مليئًا بالشباب والحماس كنت تستجوب باصرار كل بطل لكي تختار ذلك الذي سيخضع قلبك . لقد جاء اليوم الذي التقيت فيه بشوبنهاور (برهمي الشمال) . جلست عند قدميه واكتشفت الرؤية البطولية واليائسة للحياة : العالم من خلفي . وكل شيء ، المرئي وغير المرئي ، حلم خادع . لا شيء موجود الا الارادة - وهي عمياء دون بداية أو نهاية لا هدف لها ، مستهتره ، ليست عقلية أو لا عقلية ، هائلة بشكل لا عقلاني . حيث تنحشر في الزمان والمكان وتتفتت الى أشكال لا نهائية . وتمحوها . ثم تخلق أشكالًا جديدة وتسحقها من جديد . وتستمر الى الأبد على هذا المنوال . ليس هناك شيء اسمه التقدم . فالقدر لا يحكمه العقل ، والدين والأخلاق والأفكار العظيمة عزاء لا قيمة لها ولا تصلح للجناء والحمقى . الانسان القوي ، الذي يعرف ذلك يواجه سلسلة الاوهام في العالم (فاننا سماروجيا) هذه التي لا غاية لها ، بهدوء ، ويفرح لتفسخ قناع مايا * ذي الاشكال المتعددة والعمر القصير .

كل ما تنبأت به في الماضي ، آه يا نبي انسان المستقبل المتفوق ، قد نظم الآن في نظرية صارمة ومحبوكة وتسامى الى مستوى الرؤيا البطولية . فالشاعر والفيلسوف والمحارب الذين كانوا متخاصمين في قلبك قد أصبحوا أخوة . وصار الزاهد الشاب أمام الموسيقى والعزلة والمشيات الطويلة يستمتع بالسعادة لفترة معينة .

ذات يوم حين فاجأك المطر الغزير في الجبال كتبت : « ما الذي يعنيني من المبادئ الاخلاقية - افعال هذا ولا تفعل ذاك ؟ كم يختلف عنها البرق والعاصفة والبرد - القوى الحرة الخالية من التعاليم الاخلاقية ! كم هي سعيدة وقوية تلك القوى التي لا يزعجها الفكر ! »

كانت نفسك تفيض بمرارة بطولية حين قيض لك القدر ،

* قوة سحرية ، عند الهنود ، فيها قدرات الالهة والشياطين .

ذات يوم في زهو شبابك ، أن تلتقي وجها لوجه بدليك الثاني بعد شو بنهور ، ذلك الانسان الذي منحك أعظم متعة في حياتك :
فاغنر .

كانت لحظة عظيمة . كان عمرك خمسة وعشرين عاما ، متوهجا بالحماس ومنكمشا على نفسك ، بطباع هادئة ولطيفة وعينين غائرتين عميقتين . وكان فاغنر في التاسعة والخمسين ، في أوج قوته ، مليئا بالأحلام والمآثر ، قوة طبيعية متفجرة فوق رؤوس الجيل الجديد . وكان يقول للشبان « أريد مسرحا أستطيع أن أخلق فيه بحرية . تعالوا وامنحوني اياه . أريد شعبا يفهمني ، وأنتم ستكونون شعبي ! ساعدوني ! - انه واجبكم . ساعدوني وسأمجدكم ! »

كان الفن هو المتنفس الوحيد . لقد كتب فاغنر الى الملك لويس الثاني : « بتقديم الحياة على أنها لعبة يحول الفن أكثر وجوه الحياة لإخافة الى صور جميلة وبهذا فانه يسمو بنا ويعزينا » .

كنت تستمع باهتمام وتحول كلمات المعلم الى لحم ودم يقاتلان الى جانبه . ألقيت بنظرك الى الفلاسفة ما قبل السقراطيين . وبغثة انبثقت أمامك حقبة عظيمة ويطولية ، حقبة مليئة بومضات نادرة من البصيرة والخرافات المخيفة والافكار المأساوية والنفوس المعذبة التي انتصرت على الهاوية بأن غطتها بالاساطير البهيجة . ولم تعد أمامنا اليونان الرعوية التي صورها لنا أساتذة المدارس ، الارض المتوازنة السعيدة التي كانت تواجه الحياة والموت بهدوء باسم ساذج . انتهى هذا الهدوء ، وكان هذا ثمرة الشجرة المتوهجة المزدهرة التي بدأت تذبل . وجأرت الفوضى تحت الاثداء اليونانية قبل أن يصل الانسجام وقام اله غير مروض ، هوديو نيزوس ، بقيادة الرجال والنساء في رقصات مسعورة بين الجبال والكهوف وقامت اليونان بأسرها ترقص مثل ميناة (1) .

(1) امرأة تشارك في مهرجانات باخوس او امرأة شديدة الاهتياج مخالطة في عقلها .

وفي حمى الحكمة المأساوية رحمت تكدح لتجمع أجزاء رؤياك في كل موحد . كان أبولو وديونيزوس هما الازدواج المقدس الذي ولد المأساة . أبولو يحلم بتوافق العالم وجماله وهو يراه في صيغ منسجمة . راسخا في تفردته وسكونه كان يقف وسط بحر الظواهر المتلاطمة وهو مستمتع بالامواج التي كانت تغيظه في أحلامه . نظرتة مليئة بالنور ، وحتى حين كان الحزن أو الغضب يهيمنان عليه لم يستطيعا تمزيق التناغم الوجدوي المقدس .

ديونيزوس يمزق التفرد ، ويلقي بنفسه في بحر الظواهر ويلحق بالامواج الرهيبة المتلاثلة المتقلبة . وتأخي البشر مع الوحوش . وصار الموت ذاته يرى كأحد أقنعة الحياة . وينقسم الوهم متعدد الصيغ والمنتشر باطراد الى قسمين ونرى أنفسنا وجها لوجه مع الحقيقة . أية حقيقة ؟ حقيقة أننا جميعا واحد ، وأننا جميعا ومعا نخلق لها ، وان الله ليس سلف الانسان بل حفيده .

كان اليونانيون ، وهم محصنون في حصن أبولو ، يكافحون في البدء لاقامة حاجز في وجه هذه القوى الديو نيزوسية المنفلتة من عقالها والتي كانت تأتي عبر الطرق البحرية والبرية لتلقي بنفسها على الارض اليونانية . لكنهم كانوا عاجزين عن ترويض ديونيزوس ترويضاً كاملاً . والتقى الالهان في منازلة دون ان يتمكن أحدهما من اخضاع الآخر فأصبحا صديقين وخلقاً المأساة .

تحررت الطقوس الديو نيزوسية من وحشيتها وغسلتها رقة الحلم المضبوطة وكثلتها بالبهاء . غير ان ديو نيزوس ظل البطل الدائم والوحيد للمأساة . ان أبطال المأساة وبطلاتها جميعا هم ببساطة أقنعة للاله - هم ابتسامات ودموع ملطفة تتألق بالعظمة الابولونية .

ثم تلاشت المأساة اليونانية بفترة . اغتالها التحليل المنطقي . قام سقراط ، بجدياته ، بقتل الرصانة الأبولونية والثمالة الديو نيزوسية . وانحطت المأساة على يدي يوربيديس الى مستوى بشري بدلا من العاطفة الالهية والى موعظة سوفسطائية للدعاوة للأفكار الجديدة . فقدت جوهرها المأساوي وتبددت .

غير ان الثمالة الديو نيزوسية بقيت ، وخلدت نفسها في مذاهب سرية وفي لحظات الفرحة العظيمة في حياة الانسان . وكنت تتسائل عما اذا كانت ستستطيع ان تكسو نفسها مرة أخرى بلحم الفن المقدس . وهل ستبقي الروح السقراطية - بتعبير آخر : العلم - ديو نيزوس في قيوده الى الابد ؟ أم لعله بعد ان أدرك العقل البشري حدوده يمكن لحضارة جديدة ان تظهر ويكون سقراط رمزها - سقراط الذي تعلم الموسيقى أخيرا ؟

حتى ذلك الحين كان المثل الاعلى لحضارتنا هو الباحث الاسكندراني غير ان التاج الذي على رأس العلم بدأ يتقلقل فالروح الديو نيزوسية كانت دائما تعود الى الاستيقاظ . وأعلنت الموسيقى الألمانية من باخ الى فاغنر عن مجيئها . بدأ فجر « حضارة مأساوية » جديدة بالبزوغ وبدأت المأساة تعاني بعثها . فكيف تم تحول عالم الوهم هذا ، صحراء شوبنهاور المعتمدة ؟ وكيف وقع كل ما هو ميت وساكن في عصف دوامة النقد الألماني ! وهتف النبي الشاب : « نعم يا أصدقائي ! تعلموا أن تؤمنوا ، كما أؤمن ، بالحياة الديونيزوسية وبعث المأساة الديونيزوسية . لقد انتهت العصر السقراطي أمسكوا بالترسوس * في أيديكم وتوجوا أنفسكم باللبلاب . تجرأوا على أن تكونوا كائنات مأساوية وهيئوا أنفسكم لمعارك عظيمة وثقوا بالهكم ديو نيزوس » .

هكذا ، يا نيتشه ، كانت الآمال الخلاقة الشاملة التي علقته على عمل فاغنر . فالحضارة المأساوية الجديدة كانت ستنبع من ألمانيا . كان اسخيلوس الجديد حيا وهو يقاتل أمام عيوننا . انه يخلق وهو يتمنى أن نعيه .

غير ان تنبؤاتك لم توقظ أية استجابة . احتقرك الباحثون وظل الجيل الجديد غير مهتم . تألمت وتولدت الشكوك في أعماقك حتى بدأت تشك في امكانية تسامي الانسان المعاصر . مرضت وتخلت عنك تلاميذك في الجامعة .

* الصولجان : وهو أيضا رمح متوج بحلية على شكل كوز صنوبر ويلف احيانا بأعواد الكرمة كان يحمله باخوس واتباعه - المورد .

الم يعتصر القلب • قام الشاعر الذي فيك بتغطية الهاوية بزهور الفن ، ولكن الفيلسوف الذي فيك ، والذي كان راغباً في أن يتعلم مهما بلغت التكاليف ، كان يحتقر كل راحة وحتى راحة الفن • كان الاول - الشاعر - يخلق ويبعث الامل بينما كان الثاني - الفيلسوف - يحلل ويشرح ويبعث اليأس • قام عقلك النقدي بتحطيم الاصنام • فأية قيمة لفن فاغنز ؟ هكذا كنت تسأل نفسك ، لقد كان فنا بلا شكل وبلا ايمان ، لا شيء أكثر من التلفظ ببلاغة خاوية من الثمالة والنبل القديسين - تماما مثل فن يوريبيديس • انه فن صالح للسيدات المهسترات وللمنافقين وللعجزة • وانحط نصف الهك الآن وتحول الى منافق • لقد خدعك ولم يحافظ على وعده • انه يعمل الآن في مضامين مسيحية ويكتب « بارسيفال » • لقد اندحر البطل وتحطم عند أسفل الصليب - الرجل ذاته الذي كان قد وعد بخلق أساطير جديدة وأن يشد فهد العقل الى العربة الديونيزوسية •

ان الفن يغطي الحقيقة الرهيبة بصورة جميلة ولذا فانه عزاء للجنباء • كانت تلك صرختك الجديدة • أما نحن فلنكتشف الحقيقة حتى لو دمر العالم خلال ذلك •

كانت هذه الصرخة الجديدة متناقضة في بدايتها • لقد انتصر الناقد فيك على الشاعر وانتصرت الحقيقة على الجمال • ولكن حتى شو بنهور الآن لم يستطع ان يلبي حاجات عقلك المتزايدة • فالحياة ليست مجرد ارادة العيش بل هي شيء أكثر حدة - هي ارادة السيطرة • والحياة لا ترضى بمجرد الحفاظ على الذات ، انها ترغب في التوسع والسيطرة •

ولم يعد الفن غاية الحياة ، بل هو استراحة قصيرة في معركة الحياة • ان المعرفة أسمى من الشعر وسقراط أعظم من اسخيلوس • وعلى الرغم من ان الحقيقة مميتة الا أنها أسمى من أجمل الكذبات وأغناها •

انشطر قلبك الى نصفين وأنت تنتقل في مرضك من مكان الى مكان • كانت الحرارة نشك والثلج يجرح عينيك والريح تسلخ

اعصابك ولعجزك عن النوم بدأت تتعاطى المهدئات . كنت تعيش في غرف غير مدفأة وغير مريحة ومعدمة . ولكنك ظلت تقول انه ليس من حق المريض أن يعلن الحياة . وانبثقت من الامك أنشودة الفرحة والصحة صافية ومقاومة .

أحسست ببذرة عظيمة تنتش في أعماقك وتلتهم أحشائك . وذات يوم بينما كنت تتمشى في انغادين توقفت بغتة . لجمك الرعب وأنت تفكر في ان الزمن لا يحد بينما المادة محدودة . ولذا فلا بد أن تأتي لحظة جديدة تعود فيها تركيبات المادة هذه الى الحياة كما كانت من قبل . بعد الاف من القرون سيقف شخص مثلك ، والحقيقة أنه انت بالذات ، على هذه الصخرة ذاتها ويعيد اكتشاف الفكرة ذاتها . ولن يتكرر هذا مرة واحدة فقط بل عددا لا يحصى من المرات . ولذا فلا أمل في مستقبل أفضل . لا خلاص . سنظل ندور الى الابد على عجلة الزمن ذاتها . وبهذه الطريقة يصبح لأكثر الأمور عرضة للفناء خلودها ويصبح لأكبر أعمالنا أهمية لا تقاس .

غرقت في نشوة الالم . فهذا كله كان يعني ان معاناتك لا حدود لها . وان معاناة العالم لا شفاء منها . ولكن كبرياء الزاهد فيك جعلتك تستقبل الشهادة بفرح .

وقلت لنفسك ان عملا جيدا يجب أن يخلق وان من واجبي أن أخلقه وذلك لطرح انجيل جديد على البشرية . ولكن بأية صيغة ؟ النهج الفلسفي ؟ لا . يجب أن ينسكب الفكر غنائيا . ملحمة ؟ نبوءات ؟ وبغته أبرق في ذهنك زرادشت .

ووسط هذا الالم الممتع وجدتك لوسالوم ، السلافية النارية ذات الفكر المتوقد المليئة بالاثارة والفضول والتي انحنت أمامك ، أيها الشهيد العظيم ، وراحت تستمع اليك باهتمام . بذلت نفسك لها فاستنزفتها وهي لا تعرف الشبع حتى جففتها . كم من السنوات قد مرت منذ أن فتحت قلبك بمثل تلك الثقة ، واستمعت بالتوهج والاهتياج والانتاجية التي تثيرها فينا النساء ، وأحسست بقلبك يذوب تحت درعك الحربي الثقيل ! في ذلك المساء حين دخلت حجرة تصوفك ، كان هواء حياتك عبقا لأول مرة برائحة امرأة ورحت تستنشقه بعمق .

تحقيق السوبرمان • وكان العود الازلي يخنقك • كان السوبرمان هو شيميرا * الجديد الذي يستطيع القضاء على رعب الحياة • ليس الفن ، بعد ، بل القدرة • اعتبرت الاله طاحونة هوائية ، يا دون كيشوت ، ورحت تدكه •

اعلنت « مات الله » وأوصلتنا الى حافة الهاوية • هناك أمل وحيد • على الانسان ان يتخطى طبيعته ويخلق السوبرمان • وسيقع على عاتقه عبء الادارة الكاملة والتنظيم الشامل للكون (كوسموس) وستكون لديه القدرة على تحمل هذه المسؤولية • الله ميت وعرشه خال • وستتوج أنفسنا مكانه • هل نظل وحدنا تماما في العالم ؟ وهل رحل السيد ؟ يكفي هذا • منذ الآن لن نعمل لأنه يأمرنا بذلك وليس لأننا نخاف أو نطمح بل لاننا نحن أنفسنا نريد ان نعمل •

ان العود الازلي خاو من الأمل والسوبرمان هو الامل العظيم • كيف يمكن تحقيق المصالحة بين هاتين النظرتين المتناقضتين للعالم ؟ ألم لا يوصف • منذ ذلك الحين وروحك ترفرف أجنحتها فوق هاوية الجنون • وظل زاردرشت مجرد صرخة • تركت تلك القصيدة المأساوية في حالة نصف اكتمال ورحت تكافح الآن لتثبت ان جوهر الحياة هو الرغبة في السيطرة •

صرخت ان أوربا تنهار وعليها ان تنصاع لمبدأ الزعماء الصارم • ان الاخلاقية المسيطرة اليوم هي من صنع العبيد ، مؤامرة دبرها الضعفاء ضد الاقوياء ، دبرها القطيع ضد الراعي • لقد قام العبيد ، بأنانية داهية ، بقلب القيم رأسا على عقب • صار القوي سيئا و صار المريض والضعيف طيبا • هؤلاء العبيد لا يستطيعون تحمل الألم • انهم خيرون ومسيحيون واشتراكيون • السوبرمان وحده ، الذي يقسو على نفسه باديء ذي بدء ، هو القادر على طرح وصايا جديدة واعطاء الجماهير أهدافا سامية جديدة •

* بين اغوال العواصف يكفي ذكر شيميرا وهاربيس للحماية • شيميرا الهة العواصف • لها راس اسد وجسم ماعز وذيل غول •

ولحقت بك أحلى الرعشات تلك الى الجبال ، أيها الزاهد ،
حيث كنت قد أقمت ملجأك • كنت تنتظر رسالة المرأة متقطع
الانفاس • وذات يم أرسلت اليك ثمانية أبيات • خفق قلبك وكأنك
فتى في العشرين من العمر ورحت ترتلها تحت أشجار التوب
المنعزلة :

من ذا الذي يستطيع الهرب ان قبضت عليه
ان حولت نحوه عينك القاسية ؟
لن أرغب في الهرب ان أمسكت بي
ولن أصدق أنك تستطع الاكتفاء بالتدمير
أعرف انك تمر عبر كل كائن أرضي
ولا شيء على الارض يظل دون ان تلمسه
الحياة من دونك ستكون جميلة
ولكنك جدير جدا بأن تحيا •

ثم جاءت ، فورا ، أيام الفراق المشؤومة • أخفتُ المرأة • كنت
مثل غابة داهمها الليل ، وفي عمتك لم تستطع المرأة ان ترى الاله
الصغير يبتسم لها واصبعه على شفثيه • وبدأ من جديد استشهادك:
المرض والعزلة والصمت • كنت تحس احساس الشجرة التي
اثقلتها ثمارها فأحنتها وكنت تتوق الى أيد تأتي وتجنني محصولها •
وعلى الرغم من انك كنت تقف في نهاية الطريق وتطل على مدن
البشر تحتك فان أحدا لم يأت • أليس هناك من يحبني ؟ رحمت تصرخ
في عزلتك ، أليس هناك من يهينني أو يسخر مني ؟ أين الكنيسة
لتنزل لعناتها علي ؟ وأين الدولة لتقطع رأسي ؟ انني أصرخ
وأصرخ • ألا يسمعي أحد ؟

وانبثق في حناياك أمل جديد - بذرة جديدة ، السوبرمان • كان
السوبرمان يشكل غاية العالم • وهو الذي يمسك بالخلاص بين
يديه ويحدد الجواب لسؤالك القديم عما اذا كان من الممكن السمو
بالانسان المعاصر • نعم • ممكن • وليس عن طريق المسيح كما كان
ذلك المرتد فاغنز يعظ في عمله الجديد بل عن طريق الانسان نفسه ،
بفضائل أرستقراطية جديدة وبكفاحاتها • كان الانسان قادرا. على

طبيعة هذه الاهداف ، والتنظيم الملائم للنخبة وللدهماء ، ودور الحرب في هذه الحقبة الأساسية من التاريخ الاوربي ، تلك كانت المشكلات التي أرهقتك في السنوات الأخيرة من وضوح الفكري . ولما لم تكن قادرا على حلها وراح عقلك يتداعى ، انصرفت من جديد تكرس نفسك لقصائدك الديونيزوسية القديمة . وغنيت أغنية البجعة الخاصة بك بتشاؤم مثير :

الشمس تغيب
سرعان ما ستتوقف عن الظمأ
يا قلبي المحترق
في الهواء عذوبة
أحس بأنفاس من أفواه مجهولة -
البرودة العظيمة تقترب ...
الهواء غريب ونقي
ألم تلق هذه الليلة
نظرة ساخرة ومغوية علي ؟
فلتتماسك يا قلبي الجريء
ولا تسأل لماذا
انه مساء حياتي !
والشمس تغرب

رأيت ما لم يكن مسموحا للانسان أن يراه فانخطف بصرك
رقصت خارج حدود الاحتمال البشري على حافة الهاوية ثم غرقت
في الهاوية .

سيطرت الظلمة على عقلك بسرعة . ودامت هذه الظلمة أحد عشر عاما حتى موتك . كنت أحيانا تمسك بين يديك كتابا وتسال : « أنا أيضا كتبت كتابا رائعة . ألم أفلح ؟ » وحين كانت تقدم اليك صورة فاغمر كنت تقول : « لقد أحببت هذا الرجل كثيرا » .

لم يسبق لصرخة أكثر تمزيقا للقلب ان انطلقت من صدر انسان ، ولم يسبق لي أن عشت حياة قديس بهذه الصرامة ، حتى حين كنت أقرأ الاساطير المقدسة في طفولتي . أعتقد بعد انتهاء

حجى الى الجلجلة وعودتي الى باريس ان قلبي (وليس عقلي)
قد تغير . الى هذا الحد عانيت الام هذا الشهيد الملحد العظيم ،
وبقسوة كبيرة بدأت جراحي القديمة تلتهب وأنا انتتبع هذه الآثار
الدائمة الى درجة انني صرت أشعر بالخجل من حياتي الجبان المنظمة
الرصينة التي لم تجرؤ على تهديم جسورها وراعها لتتدخل وحدها
تماما مملكة اليأس والشجاعة الكاملين . ما الذي قام به هذا النبي ؟
وما الذي طلب منا أن نفعله بالدرجة الاولى ؟ طلب اليانا ان نرفض
العزائم كلها - الآلهة والاطوان والاخلاق والحقائق - وان نظل
منعزلين دون أصحاب ومرافقين وان لا نستخدم الا قوتنا وان نبدأ في
صياغة عالم لا يخجل قلوبنا . أي الطرق أكثرها خطرا ؟ ذلك هو
الطريق الذي أريده . أين هي الهاوية ؟ تلك هي التي أتوجه اليها ،
أي المتع أكثرها شجاعة ؟ انها تحمل المسؤولية الكاملة .

كنت أحس أحيانا ، وبشكل مفاجيء ، بظله الى جانبي وأنا
أتمشى تحت أشجار الكستناء الباريسية أو على ضفة نهرها
الشهير . كنا نسير جنبا الى جنب صامتين الى ان تغيب الشمس .
كان دائما متقطع الانفاس يلهث عابقا برائحة الكبريت . خطر لي
انه كان حتما عائدا من الجحيم - توقف نفسي في حلقي وبدأت
الهمث . لكننا لم نكن نتصارع الآن . لقد صرنا صديقين . تطلع الي
ورأيت نفسي في بؤبؤي عينيه . ان الالم سار على أية حال . لقد
نقل الي مشاكله كلها . والى جانبه بدأت معركتي لمجاراة ما لا
يجارى - لمصالحة الأمل المطلق مع اليأس المطلق ولفتح باب الى
ما وراء العقل واليقين .

ذات مساء وعندما كانت الشمس تغرب وكنا على وشك ان
نفترق التفت الي ، وهو الذي لم يكن يكلمني من قبل ، وقال :
« أنا أدونيس المصلوب - أنا وليس هو » . كان صوته مشبعا
بالحسد والكراهية والحب .

كان الهدوء يعود الى قلبي دائما حين أذهب في اليوم التالي
وأستمع الى صوت برغسون السخري . كلماته تعويذة سحرية تفتح
بابا صغيرا في أعماق الظلمة وتسمح للضوء ان يتدفق . ولكن الجرح

والدم والتنهيدة الجبارة - تلك العناصر التي تأخذ بألباب الشباب - كانت قد ضاعت . وتعودت أن أخرج وأمشي مرة أخرى تحت أشجار الكستناء للقاء الآخر الذي يجرح .

لم يخترقني الجرح عميقا في تلك الايام . كنت أشاركه أوجاعه ولكن بشكل سطحي فقط . ومثل القديس فرانسيس وسمت بوصمة بينما كان النبي الصلب يحمل جرحا دافقا ، تحول جلدي الى أسود وأزرق . وهذا كل شيء . فيما بعد ، حينما هبطت الملائكة الرؤيوية التي رآها ببصيرته ، على البشر بدأت جراحي تتفتح . كان ذلك في لندن ، كما أذكر ، وبعد سنوات عديدة . كان الخريف قد عاد من جديد . وكنت جالسا على مقعد في احدى الحدائق . وكان الجو مرعبا . لقد ولد السوبرمان في مكان ما . في مكان ما تخيل نمر متعطش للدماء انه السوبرمان . ولعجزه عن التواؤم في عرينه أكثر من ذلك سيطرت عليه الرغبة في التسلط . لقد لبس جنكيزخان طوقا حديديا نقشت عليه كلمتان « راستي روستي » أي « القوة هي الحق » . ان عصرنا قد قدم هذا الطوق الحديدي ذاته . كان شيطان عصرنا مثل ذلك الملك الافريقي الذي تسلق أعلى أبراجه ومعه اثنتا عشرة امرأة واثنا عشر مغنيا وأربعة وعشرون جلدا من جلود الماعز مليئة بالخمير . كان طويلا مثل برج وبدينا شاحما كالزبدة وكان جسمه مغطى بالشعر . كانت المدينة تهتز بالرقص والغناء فانهارت الاكواخ القديمة على الارض . في البداية رقص الملك . ثم وبعد أن تعب جلس على حجر وراح يضحك . ثم تعب من الضحك وبدأ يتثائب ولكي يقضي الوقت ألقى بالنساء في البدء عن البرج ثم المغنين وأخيرا الجلود الفارغة من الخمر . لكن قلبه لم يرتح فبدأ يندب معاناة الملوك التي لا عزاء لها .

جاء بائع صحف يعلن آخر بلاغات الحرب . توقف الناس في الشارع وكان قلوبهم قد توقفت عن الخفقان . وركض بعضهم بسرعة الى البيوت كان يبدو عليهم وكأنهم يريدون أن يتأكدوا مما اذا كان أطفالهم ما زالوا على قيد الحياة .

اقترب ظل وجلس على المقعد الى جانبي . التفت اليه

فارتعشت • كان هو • من كان ذلك الذي أعلن ان جوهر الحياة هو التوق الى التوسع والسيطرة وان القوة وحدها جديرة بأن تنال الحقوق ؟ من كان ذلك الذي تنبأ بالسوبرمان ، وعند التنبؤ به جلبه ؟ لقد وصل السوبرمان وما هو نبيه المرتعد المنكمش يجاهد ان يختبىء تحت شجرة خريفية !

كانت تلك هي المرة الاولى التي أحس فيها بتعاطف مأساوي كهذا معه • لأنها كانت المرة الاولى التي أرى فيها بهذا الوضوح أننا جميعا مزامير راع غير مرئي ، وأننا نعزف أية نغمة ينفخها فينا ولا نعزف النغمة التي نرغب فيها نحن •

حدقت الى العينين الغائرتين والحاجب المقفل والشاربين المتدليين •

همست له : « لقد جاء السوبرمان • أهذا ما كنت تريده ؟ »
انكمش أكثر مما كان منكمشا مثل وحش جريح مطارد يحاول ان يختبىء ورن صوته من الضفة الاخرى فخورا أو متألما : « نعم » •
كنت أستطيع أن أحس بقلبه ينشطر الى نصفين •
- انت زرعت • انظر ما الذي حصد • هل يعجبك ذلك ؟
ومرة أخرى جاءت من الضفة الأخرى صرخة يائسة تجرح القلب : « نعم ا » •

وحيدا مرة أخرى نهضت عن مقعد الحديقة لأرجل • في تلك اللحظة أرعدت قاذفة قنابل فوق المدينة المعتمة • كانت الطائرة ، التي تخيلها ليوناردو دافنتشي طائرا صناعيا لطيفا يحمل الثلج من قمم الجبال الشاهقة في الصيف ليرشه على المدن من أجل تبريدها ، تمر فوقنا الآن محملة بالقنابل •

بالطريقة ذاتها بدأت أفكر - وأنا ما أزال محتفظا بنبي الحرب المسالم في ذهني - بالطريقة ذاتها تنبثق الافكار من العقل الانساني مثل القبرات فجرا ، ولكن ما ان تقع عليها نظرة الانسان الجشعة حتى تتحول الى عقبان نهممة أكلة للحوم • ويصرخ رئيسها التعس ويحتج يائسا : « ليس هذا ما كنت أريده ا ليس هذا ما كنت أريده آ » ولكن العقبان تمر من فوقه زاعقة وهي تلعنه •

كان الغذاء الذي غذاني به نيتشه في تلك المرحلة الحاسمة
 • المهمة من شبابي غذاء قويا كغذاء الاسود • كنت قد كبرت بسخاء •
 وأجد نفسي الآن أتقلص من خلال الانسان المعاصر في الحالة التي أنزل
 نفسه اليها ، ومن خلال المسيح في الحالة التي أنزله اليها الانسان •
 أه كم كان دهاء من الدين ، قلت لنفسي غاضبا ، ان يستبدل الثواب
 والعقاب بحياة أخرى في المستقبل ليريح الجبناء المستعبدين والحزاني
 فيمكنهم من ان يحنوا رقابهم بصبر أمام أسيادهم ، ومن ان
 يتحملوا هذه الحياة الدنيا دون تذمر (وهي الحياة الوحيدة التي يمكن
 لنا أن نتأكد منها) ! وكلم هذا الدين مساومة يهودية على (مائدة
 الاله) حيث تلقي بفارذنج ★ في هذه الحياة ثم تجمع في الحياة
 الأخرى الملايين المهلدة ! لا • الانسان الذي يأمل في الجنة أو يخاف
 من الجحيم لا يستطيع ان يكون حرا • أية سذاجة وأي دهاء وأي
 ربا ! ويا لخجلنا لو أننا نستمر سكارى في حانات الامل أو في أقبية
 الخوف • كم من السنوات قد عشت من دون أن أعي ذلك ! كان من
 الضروري ان يأتي النبي القاسي ويفتح عيني •

حتى الآن كنا قد عهدنا الى الله بالادارة الكاملة للعالم •
 يمكن أن يكون قد جاء دور الانسان لتحمل المسؤولية - دورنا لخلق
 عالم ، عالمنا الخاص ، وبعرق الجبين ؟ هب نسيم شيطاني من
 الغطرسة بين صدغي • وأعلنت بوقاحة انه قد آن الاوان لأن يتلقى
 الانسان في حنايا صدره الكفاحات كلها والامال كلها ، وان عليه ان
 يستخرج النظام من الفوضى دون ان ينتظر معونة الاله - ان يحول
 الفوضى الى كون متناسق • ان علينا ان نحافظ على استقلالنا
 الشخصي وان نبقي عليه متينا متماسكا بحيث يمكن ان نكون
 واقفين على أقدامنا وسط الهيجان المعاصر الذي يعم العالم حين
 يؤون الأوان بالنسبة لنا لتحويل الصرخات غير الواضحة الى رسالة
 بسيطة وحقيقية - الى انجيل •

سمعت هذا الانجيل في داخلي كصداح بعيد ، كأول نسيمات
 الربيع • كان قلبي شبيها بشجرة اللوز • فحينما كان الشتاء مهيمنا

★ عملة بريطانية قليلة القيمة وهي دلالة على كل شيء تافه لا قيمة له .

حولها وكانت السماء من فوقها معتمة فان تلك الشجرة ، وقد تلتقت الابعازات اللغظية السرية ، تظهر أمام عيوننا بغطاة بالزهور - مغطاة بالزهور في عز كانون الثاني على الرغم من انها تقف مرتعشة أمام الريح القارسة . وكذلك كان قلبي المزدهر تماما يرتعش . قد تهب ريح قوية وتعريه . ولكن لا يهم . لقد قام بواجبه . صرخ بأعلى صوته بأنه قد رأى الربيع .

ذات ليلة حلمت حلما ، خلال حياتي كانت الاحلام دائما أدلة لا تخطيء . وجميع المشاكل التي كانت تعذب عقلي الأرق ، وهي تزدوج وتتداخل في جهد يائس لاكتشاف حل بسيط ومؤكد ، كانت تصفى في أحلامي . انها تتخلص من الزيادات فيها وتعود الى الجوهر البسيط . وهذا الجوهر يتحرر . خلال تلك الفترة كلها كنت مثل القديس سيباستيان تخترقني وتعود الى اختراقي السهام التي أطلقها علي النبي المأساوي للعود الأزلي . وكان عقلي يجهد عبثا ، وسط الظلمة التي تحيط بنا وتخنقنا ، لاكتشاف ما يشكل أساس واجب الانسان . ثم في ليلة من الليالي رأيت حلما . بدا لي انني كنت واقفا على الطرف الاقصى من الشاطئ محدقا الى البعيد . كان المحيط أسود حالكا هائجا ومرعبا وكانت السماء فوقه سوداء مثله وثقيلة ومنذرة بالخطر . لانسمة . كان الصمت والركود مخيفين . كنت أختنق وأنا عاجز عن التنفس وبغثة لمع شراع أبيض مضاء في الفرجة الضيقة التي ما تزال موجودة بين البحر والسماء . كان مركبا صغيرا متألقا بين القمتين يتقدم بسرعة جنونية وسط الهدوء الخانق ، وشراعه منتفخ موشك على التمزق . مددت ذراعي نحوه وصرخت : « قلبي ! » ثم أفقت .

كان الحلم عوننا كبيرا لي في حياتي . يا لخجلي من أنني لا أستطيع أن أركض للعثور على الأب اليائس القانط للأمل لأخبره بالمعنى الكامن الذي جاءني في نومي . ألم يكن في هذا حل لمتاعبه كلها ؟ ألم يكن هو الذي أثار القارب الصغير الجسور ، وسط اليأس المطبق الذي يبحر بريحه الذاتية ويشع بضوئه الخاص دون حاجة منه لأحد ؟

كم من مرة ، في لحظات الحرج والمتاعب ، حين يعتم كل ما

حولي ويتخلى عني اعز اصدقائي واعز امالي ، اغمضت عيني ورأيت ذلك القارب الصغير بين اجفاني ؟ ويكتسب قلبي الشجاعة فيقفز على قدميه صارخا : « أمسك بالدفة ولا تخف » ثم يمخر عباب الظلمة !

كانت الجراح التي أصابني بها نيتشه عميقة ومقدسة لا تقوى علامات بيرغسون الصوفية على شفائها • انها تهدئها مؤقتا ولكنها سرعان ما تنكأ وتنزف من جديد - ذلك انني طوال فترة شبابي كان ما أرغب فيه أكثر من غيره هو الجرح وليس العلاج •
في تلك المرحلة صارت معركتي مع اللامرئي واعية وعديمة الرحمة •

كانت النعمة قد هيمنت علي في تلك السنوات الباكرة • أتذكر أنني لم أكن أستطيع تحمل استعراضات الوجود الانساني : كيف كانت الحياة تتوهج لوهلة ثم تنفجر في الهواء بعدد هائل من الومضات الملونة ثم تتلاشى تماما وفورا • من الذي أشعلها ؟ ومن الذي منحها هذا السحر والجمال ثم بغتة ودون رحمة أطفالها ؟ صرخت : « لا • لن أقبل بذلك • لن أقره ، سأجد وسيلة ما تمنع الحياة من الانطفاء » • ذلك لأنني كنت أشفق على روح الانسان وأعجب بانجازاتها • كيف كانت دودة الحرير البطيئة هذه قادرة على استخراج حرير قدسي كهذا من أحشائها ؟

دودة الحرير أكثر الديدان طموحا • لا شيء الا البطن والفم • تجر نفسها وهي تأكل وتبرز وتاكل من جديد ، أنبوبة قدرة بفوهتين • وبغتة يتحول الطعام كله الى حرير • الانسان هكذا • تتوهج السماء والارض ، والافكار تتوهج بأثمن أنواع الحرير التي كساها بها ، ثم تأتي قدم جبارة بشكل مباغت فتدوس على الدودة صانعة المعجزة •

لقد ذهبت دعة الطفولة الساذجة والمبسطة الى الابد • عرفت الآن ان السماوات هيولى سوداء مليئة بالصمت واللامبالاة • رأيت ما يحدث للجمال والشباب حين يغيبان في القبر : ولم تعد روحي تقبل التنازل لترضى بالعزاء الذي تقدمه الآمال المقبولة الجبانة •

تدرجيا وبخطى مترددة كنت أقرب من الهاوية • لكن بصري كان ما يزال غير متعود ولم أجرؤ على التحديق الى عينيها • روي ما تزال قلقة ومضطربة • كانت ، أحيانا ، تنهض وتتحدى قدر الانسان بثقة الشباب وأحيانا أخرى تتقلص متراجعة وتهيمن عليها سوداوية رومانسية •

بعد ذلك بكثير ، بكثير جدا ، استطعت أن أقف وركبتي ثابتتان على حافة الجرف وأتطلع الى الهاوية دون خوف ودون أي أثر للتبجح •



أية ليال هادئة قدسية قضيتها في العمل والدراسة في تلك الغرفة الصغيرة بعيدا عن وطني ا كنت أسمع أحيانا صرخات وضحكات في الشارع تحتي وأغاني حب في منتصف الليل ، وأحيانا كان الثلج الهاديء الابيض يتكوم على الأسطحه • المصباح يحترق حتى أواخر الليل والنار في الموقد وأنا منكب على كتبي أعيد احياء المآثر العقلية للبشرية •

بأفكار مسبقة كهذه ، أفكار مسبقة مستمدة في الوقت ذاته من الشباب ومن العصر بشكل ظاهر ، قضيت سنواتي في باريس • بدأت صاحبة البيت تشك بشيء ما وظهر الانزعاج عليها • كانت تلقي بنظرات جانبية تنم عن عدم رضاها علي وتحيني بشيء من البرود • وذات يوم لم تعد فيه قادرة على ضبط نفسها • صرخت : « وأخيرا يا مسيو • الى متى ستستمر هذه الحالة ؟ »

– أية حالة ؟

– أية حالة ! لم تعود باكرا كل مساء ، ولا يأتيك زوار ، لا رجال ولا نساء ، ويظل ضوءك حتى ما بعد منتصف الليل • اعتقد أنك ترى هذا طبيعيا ؟

– لكنني أحضر دروسا طوال النهار في الجامعة وفي الليل أدرس وأكتب • أليس هذا مسموحا ؟

- لا • ليس مسموحا • انني أتلقى احتجاجات من المستأجرين الآخرين • انك تخفي شيئا ما • هذه الكياسة وهذه العزلة وهذا الصمت - دون امرأة ، ولبق ودون صديق ا لا بد انك مريض • نعم • لا بد أنك مريض • والا فمع احترامي الشديد انت تهيء شيئا ما في الخفاء • أنا آسفة • ولكن ببساطة هذا لا يمكن أن يستمر •

في البداية كنت على وشك أن أغضب ولكنني سرعان ما أدركت ان صاحبة المنزل على حق • حين يكون شخص كبيرا وطبيعيًا في مجتمع عنيد لا أخلاقي وصاحب ولا يستقبل رجالا أو نساء في غرفته فانه يتخطى الحدود • لا يغفر له ذلك ولا يمكن ان يغفر له • وبما ان حياتي كانت غاية في البساطة فقد اعتبرها الناس معقدة بشكل خطر • ومهما كان ما أقوله أو أفعله فانهم يكسبونه معنى مختلفا ، ويحاولون دائما ان يتكهنوا بما هو مختلف وكامن •

فيما بعد حتى أفضل أصدقائي لم يستطيع ان يصدق بساطة كهذه ، ثم رأى انها لا تحتل حين صدقها • ذات ليلة كنت جالسا في الدار أحرق الى النجوم • كانت السماء المليئة بالنجوم بالنسبة لي دائما أكثر المشاهد اثارا واعتصارا للقلب • ولم تكن تمنحني أية غبطة ، لا شيء الا الرهبة • لم أكن أستطيع أن أتطلع اليها دون أن يغزو الألم قلبي ، جاء صديقي الى الدار وسألني مستغربا : « ما الذي تفعله هنا ؟ » ثم « آه • انك لا تتكلم ؟ لماذا ؟ » واقترب مني وانحنى فوقني ورأى الدموع التي تنسكب من عيني فانفجر في قهقهة صاخبة وصرخ : « كذاب ا منافق ا افترض أنك ستقول لي انك تبكي لأن النظر الى النجوم مؤثر • لكنك لا تستطيع ان تستغفني ، أيها اليسوعي ا لا بد أنك تفكر في واحدة من تلك النساء ذوات الازديال المتأرجحة اللواتي يحمن حولك » •

وفي مناسبة أخرى أيضا ، بعد هذه ، عندما عرفت بانيت استرايتي في روسيا وكنا عائدتين معا الى اليونان ، ظل بانيت يحدق الي طوال الرحلة كلها • ظل يتفحصني دون أن أعرف ما هي النتيجة التي توصل اليها • وفي أثينا سأل صحفيا أجابه : « ماذا أستطيع أن أقول ؟ انه انسان غير طبيعي » وسأل بانيت المسكين وهو مليء

بالتوجس « ماذا يفعل ؟ » فجاءه الجواب : « هذا هو الامر بالضبط : لا شيء ، حتى انه لا يدخن » .

هكذا كانت حياتي في باريس خلال ثلاث سنوات من اقامتي فيها - مسالم ومتقد الحماس ، ومن دون مغامرة خارجية واحدة ، ودون مسائل حب الطلبة أو سكر الطلبة ودون مؤامرات سياسية أو ثقافية . وفي النهاية حتى صاحبة المنزل تعودت علي . فبعد ان اعتقدت انها سبرت أسراري استطاعت أخيرا ان تغفر لي طهارتي ولياقة حياتي ، التي كانت فيما مضى غير مفهومة بالنسبة لها .

« لا بد انه منخرط في نظام ديني ما في بلده » سمعتها من وراء ظهري تقول لاحدى الجارات ، وهي امرأة كانت ترقبني صباحا ومساء بعين متوجسة . « انه يريد أن ينخرط . نعم انه يريد . لكنه لم يقبل » .

وسألت الجارة مفتاظة : « ان كان هذا هو النظام الذي ينخرط فيه فلم لا ينسحب ؟ »

وأجابت صاحبة المنزل بتسامح : « طيب ، انها حيلته الوحيدة » .

وحين أعددت حقائبي وكنت على وشك الرحيل جاءت الى غرفتي مع ابنتها سوزان وقالت وهي مستميتة لاغوائي : « طيب . قبل ابنتي الآن طالما انك راحل » . وحين رأته الفتاة أقترب منها قالت محتجة « ولكن ليس على الجبين . ليس على الجبين » .

- اين اذن ؟

- في أي مكان آخر تريده أيها الشيطان المسكين .
- على الفم . زعقت الأم وهي تتقصف من الضحك .
- انحنيت عليها وقبلتها على خدها .

★ ★ ★

قبل مغادرتي باريس ذهبت عصر أحد الايام لتوديع نوتردام . ساظل دائما ممتنا لهذه الكاتدرائية لأنها أثرت في بهذا القدر حين رأيته لأول مرة . في كنائسنا تصدم القبة المرء كائتلاف بهي بين

المحدود واللامحدود ، بين الانسان والله . ويتسامق الهيكل وكأنه طامح في الوصول الى السماء ، ولكن بعد ذلك ، باستسلام ورع يخضع زخمة بغتة لـ « الشرط » المقدس وينحني بخضوع ويلتوي داخل نفسه أمام المطلق المستحيل ويصبح قبة ساحبا البانتوكريتر ★ الى قمته .

لقد صدمني الاندفاع المتهور في الكاتدرائية القوطية على انه اكثر تقديرا لنفسه . تنبثق نوتردام من الارض وكأنها قد جمعت حجارة الارض كلها لترتيبها بحيث تنتهي الى سهم حاد جريء يندفع في السماء مثل قضيب من البرق . كل شيء في هذه المعمارية القدسية يجاهد للاندفاع نحو القمة ويتحول الى سهم . هنا لم يعد لدينا المنطق المستقيم والمربع للاسلوب اليوناني الذي يضع النظام البشري على رأس الهيولى موازنا موازنة كاملة بين الجمال والحاجة ، ومدشنا تألفا معقولا بين الانسان والله . بدلا من ذلك لدينا شيء توي ولا عقلاني . سعار ذو منبع قدسي ينقل الناس نقلا مباغتا ويحثهم على القيام بهجوم على البرية الزرقاء الخطرة لانزال (ومضة البرق) العظيمة - الله - الى الارض .

ربما كانت الصلاة والروح البشرية شيئا كهذا - من يدري ؟
بعد تجميع آمالنا البشرية ومخاوفنا علينا ان نقذف بها كالسهام نحو الذرى فوق البشرية التي لا تطال . ان الروح البشرية زخم وكبرياء ، صرخة وسط الصمت الجبان الذي لا يحتمل ، رمح يقف منتصبا لا ينحني ويمنع السماء من ان تسقط على رؤوسنا .

أحرق الى هذا السهم المشربب ، دون خوف ، الى السماء وأحس بروحي تزداد متانة وتمدد نفسها ثم تصبح سهما .

بغثة أطلقت صرخة غبطة . ألم تكن صرخة نيتشه مثل هذه الصرخة تماما ؟ ألم تكن هي الاخرى سهما في الجو ، قضيبا من البرق متوجها للقبض على الاله لانزاله عن عرشه ؟

كم كنت سعيدا وأنا أتجول بهذه الطريقة تحت الاقواس

★ ضابط الكل : المسيح الذي يبارك العالم مسكا بيده اليسرى الكرة الارضية في الكنائس الشرقية .

القوطية ساعة الغروب وأنا مغمور بهذه الروح الزرادشتية المؤلفة
من الحجارة والحديد والزخرفة الملونة الصافية ، والتموجات العميقة
للأرغن اللامرئي ذي البهجة القدسية .

بهذه الطريقة ودعت باريس على مهلي وقلبي مفعم بالاسئلة
وبيأس وأمل هائجين .

كنت راحلا وقد فقد قلبي يقينه وهدوءه . من كان ذلك الزاهد
الذي أعلن « انك تجلس بهدوء وقلبك مرتاح ولكن لو انك سمعت
زقزقات السنونو كثيرا لما بقي قلبك في هدوئه السابق » ؟ وأنا - انا
الذي استمع الى الزعقة الحادة للصقر المتوحش ؟

كنت أغادر باريس ، الجراح على كفي وقدمي وجانبي - جراح
الصلب كلها - قد شفيت ولكن مكانها كانت روحي تؤلني ألما
رهيبا وهي تقفز في داخلي دموية متمرده .

دائما ، وكلما توصلت الى يقين تصبح راحتي وهدوئي قصيري
العمر . تنبع شكوك ومقلقات جديدة من هذا اليقين وأجد نفسي
مجبرا على البدء بكفاح جديد لتخليص نفسي من اليقين السابق
وللبحث عن يقين جديد - الى ان ينضج هذا اليقين الجديد أخيرا
ويتحول بدوره الى شك . . . فكيف اذن نستطيع تحديد الشك ؟ شك ؟
أم يقين جديد ؟

علمني نيتشه ان لا أثق بكل نظرية متفائلة . كنت أعرف ان
القلب المخنث للانسان يحتاج دائما الى العزاء ، حاجة يكون العقل
ذلك الصوفي المتفوق في قسوته مستعدا دائما لتقديم العون فيها .
وبدأت أحس ان كل دين يعد بتحقيق الرغبات البشرية هو ببساطة
ملجأ للجناء ولا يليق بالانسان الحقيقي . سأنت نفسي عما اذا
كان طريق المسيح هو الطريق المؤدي الى خلاص الانسان أم انه
مجرد خرافة محكمة الصنع تعد بالجنة وبالخلود بمهارة وبراعة
فائقتين ، وبحيث ان المؤمن لن يستطيع أبدا ان يعرف ما اذا كان
هذا الفردوس ليس أكثر من انعكاس لتعطشه الخاص . فنحن لا
نستطيع التحقق من ذلك حتى الموت ، وما من أحد قد عاد ، أو سوف
يعود ، من أرض الموتى ليخبرنا .

لذلك علينا ان نختار أكثر الآراء بعثا للأمل ، واذا صدف ان كنا نخدع أنفسنا وكان الامل غير موجود فهذا أفضل بكثير . بهذه الطريقة ، وفي الاحداث كلها ، لا تهان روح الانسان . ولن يستطيع الاله أو الشيطان أن يسخر منها بالقول انها كانت مخدرة كمدخن الحشيش وانها قد خلقت فردوسا وهميا من خلال سذاجتها وجبنها - بغية تغطية الهاوية . ولا يبدو لي الايمان الخالي من الامل على انه الاصح بل هو بالتأكيد الاكثر شجاعة . كنت أعتبر الامل الميتافيزيقي طعما مغريا لا يتنازل الناس الحقيقيون لقصمه . كنت أريد كل ما هو أكثر صعوبة ، وبتعبير آخر ، ما هو لائق بالانسان أكثر ، الانسان الذي لا يتن ولا يتراجع ولا يمضي متسولا راجيا . نعم . هذا ما كنت أريده . ثلاث تحيات لنيته ، قاتل الله . فهو الذي مدّني بالشجاعة للقول : ان هذا ما أريد .

وبدت لي كنيسة المسيح في الحالة التي أوصلها اليها رجال الدين حظيرة فيها آلاف الاغنام المذعورة تثغو ليلا ونهارا يتكئ كل منها على الاخر وهي الى الابد في النيران المتأججة بينما لا يستطيع البعض الآخر انتظار الذبح لأنها تأمل في ان ترعى الى الابد عشبا ربيعيا خالدا .

لكن الانسان الحقيقي ليس غنمة . وليس كلب حراسة أو ذئبا أو راعيا . انه ملك يحمل مملكته معه ويتقدم . ولأنه يعرف الى أين يذهب فانه يصل الى حافة الهاوية وينزل التاج الكرتوني عن رأسه ويلقيه . ثم يتعري من مملكته . يتعري تماما كقواص ، يضم كفيه ويضم قدميه أيضا ويلقي بنفسه على رأسه في الهاوية فيفنى . وكنت أتساءل عما اذا كنت سأستطيع ذات يوم مواجهة الهاوية بهذه النظرة الهادئة الجسور .

وانني لأتساءل عما اذا كان قد سبق ان سمعت صرخة كهذه على الارض من قبل ، صرخة فيها من الكبرياء ما يكفي لاحتقار الامل . حتى نيته استسلم للرعب لوهلة . لقد صدمه (العود الازلي) بأنه استشهد لا متناه . ومن خوفه صاغ أملا عظيما ، منقذا للمستقبل ، السوبرمان . ولكن السوبرمان ليس الا فردوسا آخر ، سرايا آخر يخدع الانسان التعيس المسكين ويمكنه من تحمل الحياة والموت .

٢٤ - فيينا - مرضي

كان جسدي منهكا وروحي في حالة من التوتر الزائد فأغلقت عيني في عربة القطار ولم أحاول أن أفتح جفني لأرى البلدان التي اجتازها . كان القوس مشدودا جدا حتى أنني كنت أسمع تمزق الحبل الممدود بين صدغي في داخلي ، لقد وصل الى حد الانقطاع .

صدغان يرنان ، والاعصاب في رقبتي تخفق . أحسست بقواي تتسرب من دماغي وحقوي ورسغي - وتتلاشى . ورحت أفكر مع نفسي . اذن فهكذا هو الموت - هادىء وشفوق ، شبيه بدخولك الى حمام دافىء وقطع شرايينك . فتحت الباب امرأة بين ذراعيها طفل لتدخل المقصورة التي كنت أتمدد فيها وحيدا بطولي كله . حين رأته أغلقت الباب بسرعة وفرت مذعورة . لا بد أن رأسي قد أصبح الآن جمجمة . هكذا فكرت . ولهذا ذعرت المرأة . جميل أن الموت لم يصبني في عقلي كما فعل بك يا سيدي .

حين وصلنا الى فيينا استجمعت قواي كلها لمغادرة القطار وشراء صحيفة من الكشك على الرصيف . لكنني انزلت واصطدمت بعمود حديدي ، فسقطت على الارض فاقد الوعي .

لا أذكر شيئا بعد ذلك . حين فتحت عيني وجدت نفسي في بهو واسع فيه صفوف من الأسرة . كان الوقت ليلا . ومصباح أزرق صغير يحترق فوقى . كان رأسي ملفوفا بقطن وشاش . وكان شعب

أبيض بجناحين كبيرين ، على كل صدغ جناح ، يرفرف بخفة بين الأسرة . جاء الي ووضعه يده الباردة اللطيفة على نبضي وكان أجنحه روعي تخفق هناك .

كان النوم العميق هو كل ما تبدى لي من مكوثي في سرير المرض . أيام عديدة وأنا أرفض أن أفتح فمي للأكل . ذبلت وصرت عاجزا عن رفع نفسي للحركة . كل يوم كنت أحس بنفسي أغرق باستمرار أعماق فأعماق في البدء حتى الخصر ثم الى الصدر ثم الى الرقبة - في وحل ناعم فاتر تفوح منه رائحة الاوراق المنتنة . وخمنت انه لا بد ان يكون الموت .

بين حين وآخر كنت أرفع رأسي من خدره . ومع عودة وعيي الى النور استدعيت الممرضة . وجاءت بجناحيها البارزين من صدغيها وقد عرفت ما أريد فحملت في يدها قلما وورقة مستعدة للكتابة . كان ذهني يعمل ويقاوم ويحاول أن يمنع نفسه من الغرق في الوحل مع ما تبقى مني . وكنت قد عودت الممرضة على المجيء لكي أقول بعض الكلمات لها - هاي كاي * أو أي شيء يبرز من هذه الهيولى - وأجعلها تكتبها لي . كثير من هذه الهاي كاي كانت لا شيء . بينما أدخلت فيما بعد ، أخريات منها في كتاباتي بعد خروجي من مستشفى الموت .

« أنا مستعدة » قالت الاخت وهي تمسك بيدي وتبتسم . كانت دائما تكتب والورقة مستقرة على ركبتيها - أتذكر يديها النحيلتين ناصعتي البياض . أغمضت عيني وأملت عليها : « مرحبا أيها الانسان ، أيها الديك الصغير المنتوف ذو الساقين ! صحيح - ولا أهمية لما يقوله الناس - ان الشمس لن تشرق ما لم تَصْخ » .

ضحكت الممرضة وقالت : أية أمور تخرعها في حماك ! - اكتبني : دودة تنام في قلب الاله وتحلم ان الاله غير موجود . اكتبني : لو فتحتم قلبي لوجدتم جبلا شاهقا منيعا ورجلا وحيدا يتسلقه .

واكتبني هذا أيضا : لو أزهرت الآن وسط الشتاء يا شجرة اللوز

★ هايكو شكل شعري ياباني من ثلاثة أبيات دون قافية .

المبعثرة فسيأتي الذبح ويذكر ، رحيب شجرة اللوز في كل ربيع : دعه يفعل .

- يكفي . يكفي لهذا اليوم . قالت الاخت وهي ترى ان لوني قد صار شاحبا .

- لا . لا . هذه أيضا : انني استمتع برؤية العقل وهو يدق باب السماء ويتوسل والله يرفض ان يفتح الابواب ويعطيه كسرة من الخبز .

وأصرت الاخت : يكفي ا يكفي !

- لا . لا . هذه أيضا لكي يعرفوا هناك في اليونان اذا ما مت : اينما ذهبت وحيثما حللت فانني أمسك باليونان بين أسناني كورقة من الغار .

أغمضت عيني ، لقد أفرغ دماغي . تمتمت : « تعبت يا أخت . . . » وغرقت من جديد في المستنقع .

كانت متع حياتي وتقلباتها ، الناس الذين أحببت ، والبلدان التي رأيت ، كلها تعوم في رأسي مثل الغيوم ، تتماسك قليلا ثم تتبعثر وتتلاشى بينما تبرز غيوم أخرى ، أحيانا من صدغي الأيمن ، ومن الأيسر أحيانا أخرى حسب الجهة التي تهب منها الريح .

ذات يوم ووسط الحمى تذكرت (عذراء الخطى الذهبية) وهو دير كريتي مطل على البحر الليبي . يا لهذا اليوم الذي كان ويا لها من شمس ربيعية لطيفة ، وكيف كان البحر يتلامع وهو يندفع نحو الشاطئ المغربي ! ورئيس الدير ، العجوز المربوع العريض المفعم بالحياة بلحيته البيضاء المدببة وشاربيه المفتولين كالجندي كم كان مفعما بالمزاج الطيب وكم كان عقله متألقا ! أخذني لنتمشى ونفرج على مقبرة الدير حيث أراني قبور الرهبان محفورة في الصخور فوق المياه . كان البحر يبيل الصلبان الخشبية السوداء كلما هبت عاصفة فتمحي كافة الاسماء المكتوبة عليها . أردت أن أعود اذ انني أجد التمشي بين القبور أمرا مزعجا جدا . لكن رئيس

الدير أمسك بذراعي وضغط عليه حتى المنى • قال وهو يضحك .
« تعال • تعال أيها الفتى الشجاع • لا تخف • يقال ان الانسان هو
الحيوان الذي يفكر في الموت • لكنني أخالف هذا الرأي • لا • الانسان
هو الحيوان الذي يفكر في ديمومة الحياة • تعال وانظر ا » وتوقف
عند قبر فارغ مكشوف • « انظر • هذا قبوري • لا تخف يا فتى ا
اقترب • انه ما يزال فارغا • لكنه سوف يمتلئ » وانفجر في عاصفة
من الضحك • هو نفسه كان قد حفر القبر في الصخور بمعمل كما هيا
الشاهدة • قال لي : « انظر ما الذي كتبته عليها • طيب • لم لا
تنحني وتقرأ ؟ كفاك خوفا • أقول لك » ركع ومسح الغبار عن
الحروف المكتوبة وقرا : « ايه أيها الموت • انني لا أخافك ا » تطلع
الي ، حتى أذناه كانتا تضحكان « ولم علي أن أخاف منه ذلك الافاك
العجوز ا انه بغل ، سوف أمتطيه وأجعله يأخذني الى الله • »

أعتقد ان بعض أغنى ساعات الانسان وأكثرها حرية والاكثر
تحررا من الزمان والمكان والعقلانية هي ساعات الحمى •

كنا في أيار • وقد صرت أخير قادرا على مغادرة المصح والخروج
الى الضوء • كان الليلك مزهرا في الحدائق والنساء يرتدين ملابس
شفافة بألوان زهرية ، والصبايا والشباب يتبادلون الهمسات تحت
أشجار حديثة الخضرة وكان لديهم أسرار عظيمة يحكونها • في
عصر اليوم الذي خرجت فيه كان نسيم لطيف يهب حاملا معه
الروائح من شعر النساء ووجوههن المطلية بالمساحيق • رحت أردد
لنفسي ان هذه هي الارض ، العالم العلوي • ما أجمل أن تكون
حيا ومعك حواسك الخمس - الابواب الخمسة التي يدخل العالم
منها - وهي تعمل بشكل جيد • وما أجمل أن تقول ان العالم جميل
وانا أحبه •

لقد أثارت الارض المغتسلة بالشمس في " احساسا بالرقعة أثارني
الى حد كبير • شعرت أنني قد ولدت لتوي وقد نزلت الى العالم
السفلي لوهلة وانني حين رأيت الرعب قفزت وفتحت عيني فوجدت
نفسي مرة أخرى في الضوء القدسي المألوف أسير تحت الاشجار
وأصغي الى الضحكات والاحاديث البشرية •

رحت أتمشى ببطء . كانت ركبتاي ما تزالان ترتجفان ، وكان
دوار زاهي الالوان حلو وناعم كضباب الصباح يلف عقلي . وراء
الضباب كنت أرى العالم نصفه صلب ونصفه مصنوع من الاحلام .
تذكرت أيقونة رأيتها ذات مرة في كنيسة ما لا أذكرها . كان
الرسم مقسوما الى مستويين . في المستوى السفلي القديس جورج
الاشقر القوي يمتطي حصانا هائجا وهو يفرز رمحه في الوحش المزبد
المتلوي الرهيب ، الذي فتح فمه القرمزي استعدادا لأكله . وكان
الصراع المماثل المثار على الجزء العلوي بعيدا عن القديس جورج
والحصان والوحش مؤلغا من غيمة رقيقة على وشك التبعر
والتلاشي في الهواء . وفيما كنت أتمشى بركبتين مرتعشتين عبر
حدائق فيينا وشوارعها كان هذا المستوى العلوي المرسوم في لوحة
العالم هو الجانب الذي أراه . وكنت أرتعد خشية أن تهب ريح ما
وتبددها .

كيف لي أن أعرف انه في غضون أيام قليلة ستهب هذه الريح
ذاتها وتبعثرها فعلا !

فيينا مدينة فاتنة مغرية ، يتذكرها المرء دائما كعشيقة .
جميلة متقلبة متبرجة تعرف كيف تلبس وكيف تتعري ، كيف تسلم
نفسها وكيف تخون ، ليس بدافع الحب أو الكراهية ، بل من خلال
المرح . انها لا تمشي بل ترقص ولا تنادي بل تغني . المطر يبيلها
والثلج يغطيها والشمس تدفئها . تراها - ليس لديها ما تخفيه -
فتهتف : تاليا ، أغليا ، يوفروسين - فيينا - ربات الحسن
الاربع ★ !

خلال الايام القليلة الاولى من عودتي الى الحياة استمتعت بهذه
المدينة الضاحكة استمتعت بالضوء وبعبير الارض وأحاديث الناس
واستمتعت أكثر من ذلك بالماء العذب والخبز الطري والفاكهة .

★ هن ثلاث ربات للحسن ، شقيقات كان اليونانيون يعتبرونهن متاحات
للفتنة والجمال . كن وصيفات لأنروبيت يعنين بزینتها . أضاف لهن
المؤلف اسم فيينا .

كنت أغمض عيني على شرفة غرفتي وأصغي لصخب العالم ،
العالم يبدو مثل خلية نحل تعج بالعاملات واليعاسيب والعسل ؛
ونسيم الربيع مثل يد رقيقة باردة على وجهي .

ولكن بعد ان أتخم جسدي واستلمت روعي الزمام من جديد بدا
ذلك الفرح كله يصدمني اذ يبدو لي غاية في الضحالة والتفاهة ،
فهو متعارض مع أعماق حاجاتي ، يحس المرء ان هناك من يدغدغ
الرجال والنساء - وهذا ما يفسر ضحكهم الدائم . لكنني كنت أعتبر
الانسان حيوانا ميتافيزيقيا وهكذا كان يبدو لي في ذلك الحين ،
فالضحك والاستهتار والمرح خيانة وصفاقاة . تذكرت والذي الذي
كان يرى الضحك وقاحة دون ان يعرف لماذا . الا انني كنت أعرف
لماذا . وتلك هي الخطوة الوحيدة التي نجح الابن في تجاوز أبيه
فيها .

بدأ الصوت الصارم القاسي للنبي المأساوي الذي أحبه يبرز
في أعماقي بوضوح متزايد . « يا للخجل ! » جأر الصوت الداخلي :
« أهذا هو العقل الاسدي المتماسك الذي غذيتك به ؟ ألم أمرك بعدم
الانحناء للعزاءات ؟ العبيد والجناء وحدهم لديهم آمال - من
الافضل لك أن تستسلم لهذه الحقيقة . العالم مصيدة أعددها
الله . لا تتنازل لقضم الطعام . مت جوعا بدلا من ذلك ! » ثم بثقة
وبصوت أكثر نعومة : « أنا جبننت وفشلت . أما انت فلتنجح ! » .

في أحيان أخرى كان هذا الصوت يعلو مهسهسا مستهجنا
وساخرا : « ما الذي تعنيه بتباهيك وادعائك انك تريد ما هو أكثر
صعوبة ، وأنت تثق بالايمان الذي لا ينحني للعزاءات في الوقت
الذي تقضي وقتك كله خلسة وتسكر في حانات الامل هذه ، في
الكنائس ، منحنيا لعبادة الناصري ومتسولا « ساعدني يا مولاي »
بيد ممدودة ؟ شق طريقك - وحيدا ! تقدم ! توصل الى النهاية
وهناك ستجد الهاوية . تطلع اليها - هذا كل ما أطلبه منك ان تتطلع
الى الهاوية دون أن تصاب بالذعر . هذا ولا شيء غيره . أنا نفسي
قمت بذلك . لكن عقلي انهار . اجعل عقلك متماسكا وثابتا .
تجاوزني » .

قلب الانسان لغز قاتم لا يحل . انه جرة مثقوبة وفمها مفتوح
أبدا . وعلى الرغم من أن أنهار الارض كلها تصب فيها فانها
ستظل فارغة عطشى . ان أعظم الآمال لم تستطع ملأها . فهل
ستملىء الآن بأعظم اليأس ؟

هذا هو الاتجاه الذي ظل الصوت عديم الرحمة يدفعني
سلوكه . تكهنت بمن كان يدفعني لاقتفاء أثره ، الخطوات التي
سبقتني بثبات ودون تردد نحو الهاوية دون ابطاء ولا اسراع بل
بانظام نبيل عظيم . كان الصوت يقول لي دائما : « انه المخلص
النهائي ، يخلص الانسان من الامل والخوف والآلهة . اتبعه ! أنا
نفسي فشلت في القيام بذلك في الوقت المناسب لأن السوبرمان جاء
حاملا معه أملا عظيما لي فضلت . لم أجد الفرصة لتنحيته جانبا .
ولكن أنت ! ادفع بسوبرمانك الناصري ، جانبا وحقق ما لم أجد
الفرصة لتحقيقه - الحرية القصوى » .

ظل الصوت المزعج يحثني بعناد لا يرحم وشيئا فشيئا بدأ نبي
الفداء الكلي المطلق ينهض صامتا في داخلي . صارت أحشائي زهرة
لوتس جلس عليها متربعا ، وعجلتان غامضتان محفورتان على
باطني قدميه ، أصابعه مضمفورة بمهارة ، ولولب أسود بين حاجبيه
مثل عين ثالثة . كانت ابتسامته المغلقة المؤذية تمتد من شفثيه
الصغيرتين الى أذنيه الكبيرتين ومنهما الى الجبين ثم تنزل كالعسل
من هذا المطل العالي لتغزو جسده كله ولتصل بوضوح الى باطني
قدميه حيث تتحرك العجلتان وكأنهما متشوقتان للانطلاق .

بوذا ! كنت قد قرأت عن حياته وعن رسالة الكبرياء اليائسة
منذ سنوات عديدة لكنني كنت قد نسيت كل شيء . من الواضح
انني كنت لم أنضح بعد ولهذا لم أستطع أن أنتبه . ثم صدمني
صوته كنداء ساحر غريب صادر من أعماق آسيا ، من غابة معتمة
مليئة بالافاعي وبالسحليات المدوخة . وظل صوت آخر ، صوت أليف
ذو حلاوة مطلقة ، ينبعث من أعماقي ، ورحت أتقدم بثقة للالتقاء
به . ولكن الآن في وسط عربدة هذه المدينة ، هنا أيضا جاء صوت
ذلك المزمار الساحر الغريب . كيف أغمضت عيني وتلقيته ! كان

الصوت أكثر الفة الآن وكما لو أنه لم يسبق له ان صمت في داخلي بل كان ، ببساطة ، قد طغى عليه البوق المسيحي ليوم القيامة .

لا شك انني قد قويت بالطعام الاسدي للنبي الشيطاني لأنني بدأت أحس بالخجل من محاولاتى لتغطية الهاوية بستارة مبهرجة . كنت ما أزال لا أجرؤ على مواجهتها مباشرة كما هي : عارية وبغيضة . لقد حل المسيح ، وهو يمد ذراعه بشفقة ، بيني وبين الهاوية ليمنعني من رؤيتها ومن الخوف منها .

بدأت أثير روحي وأعذبها . وعلى الرغم من أنها كانت تود ان تظل متورطة باللحم وان توهب فما ويدين لتقبل العالم وتلمسه ، وعلى الرغم من أنها لم تعد ترغب في اعتبار غلافها ، الجسد ، عدوا بل انها صارت ترغب في مصادفته لكي يستطيعا أن يسيرا معا ، يدا بيد ، وبحيث لا يفترقان حتى القبر - على الرغم من ان الروح كانت ترغب في ذلك كله فقد وقفت في طريقها . أي « أنا » ؟ شيطان في داخلي ، شيطان جديد - بوذا . كان هذا الشيطان يظل يصرخ ، الرغبة لهب ، والحب لهب ، الفضيلة والامل و « أنا » و « أنت » والجنة والجحيم كلها لهب . شيء واحد ، وشيء واحد فقط ، من نور ، هو نكران اللهب . خذ اللهب المتأجج الذي يحرقك ، خذه وحوله الى نور . ثم أطفئ النور .

حين ينتهي عمل النهار في الهند وتسقط الظلال على الاسطحة وأزقة القرية وصدور الناس يترك أحد السحرة * كوخه ليقوم بجولات في القرية . ينتقل من باب الى باب والقصة السحرية بين شفثيه يعزف عليها نغمة حلوة ومهدئة كالسحر الذي يشفي الارواح . وقد سميت هذه النغمة بـ « نغمة النمر » ويقال انها تشفي جراح النهار . تلك هي النغمة التي كنت أرغب في سماعها بوضوح ، ولكي يتحقق لي ذلك أقفلت غرفتي على نفسي وانكبت ليلا ونهارا على كتب ضخمة لدراسة طقوس بوذا وتعاليمه .

« في زهرة شبابي ، وبشعري الاسود الاجعد ، في أوج متعني

★ طارد الارواح الشريرة .

بشبابي ، وعند أول اعتزاز بقوة الرجال ، حلقت شعري حتى الجلد
وارتديت الثوب الاصفر وفتحت باب بيتي ودخلت الصحراء ٠٠٠٠ »

هنا تبدأ معارك المبدأ الزاهد « صار ذراعاي أشبه بقصبتين
جافتين • وكغذاء كنت أتناول حبة أرز واحدة من شروق الشمس
حتى غروبها ، ولا يخطرن لك ان الارز كان أكبر مما هو عليه الآن ،
بل كان كما هو الآن تماما • صارت مؤخرتي مثل خف الجمل وظهري
مثل السبحة وصارت عظامي بارزة مثل هيكل كوخ خشبي نصف
متهدم • ومثلما يتلامع الماء في قاع بئر عميقة كذلك كانت عيناي
تلتمعان • ومثل اليقطين الذي يتيبس في الشمس ويتفسخ كذلك
كان رأسي » •

غير ان الخلاص لم يأت من هذا الطريق القاسي للمبدأ التصوفي •
عاد الى قريته وراح بوذا يأكل ويشرب • وجلس تحت شجرة بهدوء
غير سعيد ولا حزين وقال : « لن أنهض من تحت هذه الشجرة لن
أنهض من تحت هذه الشجرة ، لن أنهض من تحت هذه الشجرة
حتى أجد الخلاص » •

بنظره الصافي وروح الطاهرة رأى التقاهة ، رأى الحياة تخرج
من الارض ثم تختفي ورأى الآلهة تتناثر كتناثر الغيوم في السماء
ورأى الدورة الكاملة فاستند الى شجرته • وحين فعل ذلك بدأت
أزهار الشجرة تتساقط على شعره وركبتيه ، والرسالة السامية على
عقله •

تلقت يمناً ويسرة ، أمامه ووراءه • كان هو نفسه الذي يجار في
الوحوش ويجار في البشر وفي الآلهة • تملكه الحب ، الحب والشفقة
على نفسه التي كانت موزعة تكافح خلال العالم • عذابات الارض
كلها وعذابات السموات كانت عذابته • « كيف يمكن لأحد أن
يكون سعيدا في هذا الجسد المسكين وفي هذا الخليط من الدماء
والعظام والدماغ واللحم والمخاط والمنى والعرق والدموع والبراز ؟
كيف يمكن لأحد أن يكون سعيدا في هذا الجسد المحكوم بالحسد
والكراهية والكذب والخوف والالام والجوع والعطش والمرض
والشيخوخة والموت ؟ الاشياء كلها - النباتات والحشرات والوحوش

والبشر ، تتقدم نحو العناء ، ابظر خلفك الى أولئك الذين لم يعودوا موجودين وانظر أمامك الى أولئك الذين لم يولدوا بعد . ينضج الناس مثل القمح ويتساقطون كالقمح وينبتون من جديد . المحيطات التي لا حدود لها تجف والجبال تمحي ، يرتعش نجم القطب والآلهة تتلاشى ٠٠٠٠ »

الشفقة - هذا هو الدليل الذي لا يخطئ في الرحلة البوذية . بالشفقة نخلص أنفسنا من أجسادنا نقضي على التجزئة ونذوب في اللاشيئية . « نحن جميعا واحد ، وهذا الواحد يتألم - يجب أن نخلصه . حتى لو تألمت قطرة مرتعشة من الماء فقط فأنني أتألم » .

« تبزغ (الحقائق النبيلة الاربع) في عقلي . العالم شبكة وقعنا فيها . الموت لا يخلصنا لأننا سنولد من جديد . فلنتغلب على الظمأ ولنقتلع الرغبة من جذورها ولنفرغ أحشاءنا ! لا تقل : أريد أن أموت أو : لا أريد أن أموت . بل قل : أنا لا أريد شيئا . اسم بعقلك فوق الرغبة والأمل - وعندها ، حتى وأنت ما تزال في هذه الحياة ، ستكون قادرا على الدخول في غبطة انعدام الوجود . وبيدك توقف (عجلة البعث) » .

لم يسبق ان سما شكل بوذا أمامي فستحما بضوء ساطع كهذا . في الماضي حين كنت أعتبر النيرفانا ★ مساوية للخلود كنت أرى بوذا جنرالاً آخر من جنرالات الأمل يقود جيشه بعكس اندفاع العالم . والآن فقط أدركت ان بوذا يحث الانسان على الرضى بالموت وعلى حب المقدور وان يوائم بين قلبه والدفق الشامل ، وحين يرى المادة والعقل يطارد كل منهما الآخر يتحدان ويلدان ويفنيان. وكان يقول : « هذا ما أريد » .

بين الناس الذين ولدتهم الارض جميعا يقف بوذا متألقا في الذروة ، روحا نقية خالصة . دون خوف أو ألم ، مليئا بالرحمة

★ مرحلة النشوة والسعادة التصوى التي تتحقق عن طريق قتل الحواس والشهوات في البوذية .

والحكمة كان يمد يده ويفتح الصريق الى الخلاص وهو يبتسم بوقار •
والكائنات كلها تتبعه دون تفكير ، وبالخضوع ، بحرية ، لما لا يمكن
تجنبه ، تقفز مثل الجداء الذاهبة للرضاعة • ليس البشر وحدهم
بل الكائنات كلها ، البشر والوحوش والاشجار • وعلى خلاف المسيح
لا يخصص بوذا البشر وحدهم. انه يشفق على كل شيء ويخلص
كل شيء •

كان يحس في قلبه بالكون يتشكل ويفنى - رحده دون معونة
القوى اللامرئية • كان الاثير يتكثف في جمجمته المقمرة بالشمس
ويصبح سديبا ، والسديم يصبح نجما ، والنجم ، كالبذرة ، يشكل
قشرة ويولد أشجارا أو حيوانات ريشا والهة ، ثم تشب النار في
رأسه ويتحول كل شيء الى دخان ثم يتلاشى •

عشت أياما وأسابيع عديدة وأنا مندفع في هذه المغامرة
الجديدة • أية هاوية هو القلب البشري ! وكيف تتحول خفقات القلب
الى وجيب فيسلك طرقا غير متوقعة • أيمن أن شوقي وتوقي كله
للخود يقودني الى الفناء المطلق ؟ أم أنه من الممكن ان يكون الخلود
والفناء هما الشيء ذاته ؟

حين نهض بوذا من تحت الشجرة حيث ظل يكافح سبع سنوات
بحثا عن الخلاص ، مضى وقد وصل الى الخلاص حتى الآن وجلس
متربعا في ساحة مدينة كبيرة • وهناك بدأ يتكلم وهو محاط باللوردات
والتجار والمحاربين ، ويعظهم عن الخلاص • في البدء سخر منه هؤلاء
الكفرة كلهم لكنهم بالتدريج بدأوا يحسون أن أحشاءهم قد فرغت
وأحسوا بأنفسهم وقد تطهروا من الرغبة ، وشيئا فشيئا تحولت
أثوابهم المبهرجة بالابيض والاحمر والازرق الى صفراء مثل ثوب
بوذا • وأنا ، بطريقتي الخاصة ، أحسست أن أحشائي قد فرغت
وان عقلي قد ارتدى الثوب الاصفر •

ذات يوم بينما كنت أتمشى في براتر ، وهي حديقة فيينا
الكبيرة ، توجهت الى تحت الاشجار فتاة من الجماعة المتبرجة •
وسعت خطاي خائفا لكنها لحقت بي وأمسكت بذراعي • كانت

تفوح منها رائحة البنفسج القوية . وفي الضوء استوضحت عينيها
الزرقاوين وشفيتها المدهونتين وئديها نصف العاريين .
همست وهي تغمز بعينيها : تعال معي ...
- لا . لا . صرخت وكأنني في خطر .
- تركت ذراعي وسالت : « ولم لا ؟ »
- آسف . ليس لدي وقت .
- هل أنت معتوه ؟ قالت الفتاة وهي تنظر الي باشفاق . ما
أنت ؟ راهب ؟ لا أحد يرانا .

كنت على وشك أن أجيب ان بوذا يرانا لكنني أمسكت نفسي،
وكانت عينا الفتاة ، في الوقت ذاته ، قد وقعتا على متسع وحيد
آخر فهرعت اليه لتحدثه . تنفست الصعداء وأنا أحس كما لو انني
قد نجوت من خطر كبير ورجعت بأقصى سرعة الى غرفتي .

كنت قد غرقت في بوذا . عقلي عباد شمس أصفر وبوذا هو
الشمس . كنت أتبعه وهو يشرق ثم وهو يصل الى ذروة سمته
ثم وهو يختفي . قال لي ذات مرة عجوز روملي « الماء ينام لكن
الارواح لا تنام » الا انه بدا لي خلال تلك الايام ان روعي قد غرقت
في نوم مبهج . وغمرتها السكينة البوذية . ومثلما تحلم وتعرف
انك تحلم ، وحين لا يثير فيك كل ما تراه في نومك ، سيان كان خيرا أم
شرا ، لا فرحا ولا حزنا ولا خوفا لأنك تعرف انك ستستيقظ وسيمحي
كل شيء ، بهذه الطريقة ذاتها ، ودون أن أحس بفرح أو خوف كنت
بسكينة تامة أراقب مرور أشباح العالم أمام عيني .

ولكي أمنع هذه الرؤيا من التبدد بسرعة كبيرة ، ولكي أزيد من
صلابة الخلاص الكامل بالكلمات لتستطيع روعي أن تحسه بشكل
ملموس بدأت أكتب حوارا بين بوذا وحواريه الاثير لديه أناندا ★ .

★ ★ ★

★ ولد في اليوم ذاته الذي ولد فيه بوذا وكذلك زوجته وحصاته وشجرته
ومرافقه . كان متزوجا من امرأة جميلة وكان قلبه ممتلئا بها ولذلك احتاج
بوذا الى مجموعة من التجارب (اتخذه الى الجنة والجحيم) لكي يقنعه
بالزهد وبالمبدأ البوذي . ثم أصبح افضل اتباعه .

نزل المتوحشون من الجبال وهدموا المدينة • وجلس بوذا باسمه
تحت شجرة مزهرة • وكان أناندا يحي رأسه على ركبتي بوذا
ويغمض عينيه ليمنع سلسلة اشباح العالم (فاننا سماغوريا) من
تضليل أفكاره • وحولهما كان يقف حشد من المستمعين الذين يتوقون
لأن يصبحوا حواريين كانوا يريدون أن يسمعو كلمات الخلاص ، ولكن
ما أن سمعوا بأن الهمج المتوحشين يشنون حربا حتى صاروا
يضطرمون • صرخوا : « انهض أيها المولى ! قدنا لصد الهمج •
فيما بعد تستطيع ان تقول لنا سر الخلاص » •

وهز بوذا رأسه : « لا • أرفض أن آتي » •
وصرخ الآخرون بغضب : « هل أنت متعب ؟ هل أنت خائف ؟ »
وأجاب بوذا : « لقد أكملت الرحلة » وصوته يتجاوز التعب
والخوف ويتجاوز الحماس الوطني •
فصرخ البقية : « طيب • اذن • فلنذهب نحن ولدافع عن أرض
آبائنا ! » وعادوا باتجاه المدينة •

قال بوذا وهو يرفع يده ليباركهم : « اذهبوا ومعكم بركتي •
لقد ذهبت الى حيث أنتم ذاهبون • ذهبت ورجعت • سأظل جالسا
هنا تحت هذه الشجرة المزهرة منتظرا عودتكم • وعند ذلك فقط ،
حين نجلس جميعا تحت الشجرة المزهرة ذاتها يصبح لكل كلمة
أقولها ولكل كلمة تقولونها المعنى ذاته لنا جميعا • أما الان فما
يزال الوقت باكرا جدا • انني أقول شيئا وتفهمون شيئا آخر •
اننا لا نتكلم اللغة ذاتها • ولذا أرجو لكم رحلة مريحة ••• والى
اللقاء ! »

قال ساريبوتا : « أنا لا أفهم يا مولاي • هل عدت تتحدث الينا
بالألغاز ؟ »

- ستفهم حين تعود يا ساريبوتا • كما قلت لك • ما يزال
الوقت باكرا • لقد عشت سنوات حياة البشر وعذابهم ، سنوات
وأنا أمتلىء وأنضج • قبل ذلك لم أكن أتمتع بهذه الحرية الكاملة
يا رفقائي • ولماذا حققت هذه الحرية ؟ لأنني أتخذت قرارا عظيما •

- قرار عظيم ؟ سال أناندا • ورفع رأسه ثم انحنى ليقبل باطن قدم بوذا المقدسة • « أي قرار يا مولاي ؟ »

- لا أريد أن أبيع روحي لله ، لذلك الذي ، انتم الآخرين كلكم ، تسمونه الله • ولا أريد أن أبيع روحي للشيطان ، اذك الذي انتم كلكم ، تسمونه الشيطان • لا أريد أن أبيع نفسي لأحد • أنا حر ا سعيد هو الانسان الذي ينجو من مخالف الله والشيطان • هو ، وهو وحده ، الذي يجد الخلاص •

وسأل ساريبوتا والعرق يتصبب من جبينه : « الخلاص مم ؟ الخلاص مم ؟ هناك كلمات ما تزال على شفتيك يا مولاي • انها تحرقك •

- لا يا ساريبوتا • انها لا تحرقني • انها تبردني • اعذرني • ولكنني لا أعرف ان كنت تملك الاحتمال ، ان كنت تستطيع ان تسمعها دون أن يصيبك الذعر •

- مولاي • قال ساريبوتا • « نحن ماضون الى الحرب وقد لا نعود • قد لا نراك بعد الآن • فاكشف لنا عن هذه الكلمات الختامية ، كلماتك الاخيرة ••• الخلاص مم ؟

ببطء وثناقل ، مثل جسد يهوي في الهاوية ، تساقطت الكلمات عن شفتي بوذا المشدودتين : « من الخلاص ا »

وهتف ساريبوتا : من الخلاص ؟ الخلاص من الخلاص ؟ لا أفهم يا مولاي ا

- هذا أفضل يا ساريبوتا • لو فهمت لخت • ومع ذلك أريد ، أيها الزملاء ، أن تعرفوا ان هذا هو شكل حريتي • لقد نجوت من الخلاص •

وصمت • الا انه لم يعد قادرا على كبح جماح نفسه :

- أريدكم أن تعرفوا ان أي شكل آخر للحرية هو عبودية • ولو انني ولدت ثانية لقاتلت من أجل هذه الحرية العظيمة ، من أجل

• الخلاص من الخلاص ... ولكن هذا كاف • لم يكن الأوان لحديثنا •
• سنقول كل شيء حين تعودون من الحرب - إذا عدتم • وداعا •

• وتنفس بعمق • وحين رأى حواريه مترددين ابتسم وسألهم :
« فيم بقاؤكم ؟ ما تزال الحرب واجبا عليكم • هيا اذن • هيا الى
الحرب • وداعا ! »

• قال ساريبوتا : « الى اللقاء يا مولاي ... هيا بنا فلنذهب •
• وليكن الله معنا » •

• لم يتحرك أناندا • ونظر اليه بوذا راضيا بطرف عينه •
• قال الحواري وهو يتلون بشدة : « سأبقى معك هنا يا مولاي » •
- خوفا يا عزيزي أناندا ؟

• بل حبا يا مولاي •
• لم يعد الحب كافيا يا رفيقي الوفي •
• أعرف ذلك يا مولاي • حين كنت تتكلم رأيت اللهب يلحق
فمك •

- لم يكن لهبا يا أناندا • بل تلك كلماتي • هل تفهم هذه
الكلمات فوق البشرية يا صديقي المخلص الفتى ؟
• أظن أنني أفهمها • ولهذا بقيت معك •
- ما الذي تفهمه ؟

• كل من يقول ان الخلاص موجود هو عبد لأنه يظل يزن كل
كلمة من كلماته وكل عمل من أعماله في كل لحظة • انه يتساءل
مرتعدا ، هل سأجوا أم ستحل علي اللعنة ؟ وهل سأذهب الى الجنة
أم الى الجحيم ؟ كيف يمكن لروح أن تكون حرة وهي تأمل ؟ كل من
يأمل يخاف من حياته ومن الحياة القادمة معا • انه سيتعلق في الهواء
متشككا وهو ينتظر الحظ أو رحمة الله •

• وضع بوذا يده على شعر أناندا الاسود وقال له : ابق •
ظلا صامتين بعض الوقت تحت الشجرة المزهرة وبوذا يداعب
شعر حواريه الحبيب بهدوء ومحبة •

- الخلاص يعني التخلص من المخلصين كلهم • تلك هي الحرية
السامية ، أسمى حرة ، حيث لا يتنفس الانسان الا بصعوبة •
هل تستطيع الاحتمال ؟

أحنى أناندا رأسه ولم يتكلم .

— بمعنى آخر ، أنت تفهم الآن من هو المخلص الكامل . . .

صمت للحظة ، ثم قال وهو يفرك بين أصابعه زهرة سقطت

من الشجرة : « انه المخلص الذي سيخلص البشر من الخلاص » .



بأحرف الابدجية الستة والعشرين (الحجارة الوحيدة والاسمنت الوحيد الذي لدي) شققت الطريق المؤدي الى الخلاص . أنا أعرف الآن . ولأنني أعرف كنت أنظر الى العالم بهدوء ، دون خوف ، لأنه لم يعد يستطيع أن يخدعني الآن . كنت أنحني من نافذتي وأنظر الى الرجال والنساء والسيارات والمخازن المعبأة باللحوم والبقالة والمشروبات والفاكهة والكتب - وابتسم . هذه كلها ليست الا غيوما ملونة ، تهب عليها نسمة لطيفة فتتشبت وتتبدد . لقد أنجبتها قوة المغوي ، ويتعلق الآن بها الظمأ والجوع البشريان لساعة أو ساعتين ، قدر الامكان قبل أن تهب النسمة وتبدها .

أخرج الى الشارع وأنخرط في موج الناس الذين يركضون كلهم بسرعة كبيرة . كنت أركض معهم . لم يعد لدي ما أخافه . وكنت أقول لنفسي انهم أطياف ، ضباب تشكل من قطرات ندى . لم أخاف منهم ؟ لم لا أذهب وأرى ما يفعلونه ؟ وصلنا الى دار سينما ملونة بأضواء حمراء وزرقاء وخضراء ودخلنا وتبوانا مقاعد مغطاة بالمخمل . في الطرف الأقصى كانت هناك شاشة متألقة تمر عليها بسرعة ظلال قلقة . ما الذي كانوا يفعلونه ؟ يقتلون ويقتلون ثم يقتلون . الى جانبي كانت تجلس فتاة . وكانت رائحة أنفاسها عابقة بالقرفة . أحسست بصدرها يعلو وهي تتنفس . بين حين وآخر كانت ركبتها تلمس ركبتي ، ارتعشت لكنني لم أبتعد ، التفتت وتطلعت الى لوهلة ، وفي شبه الظلمة المخيمة على الصالة خيل الي انني رأيت ابتسامتها .

سرعان ما أحسست بالاكْتفاء من مراقبة تلك الظلال فنهضت لأخرج . ونهضت الفتاة أيضا . عند المخرج التفتت مرة أخرى وابتسمت . وبدأنا حديثا . كان القمر يسطع فوقنا فتوجهنا الى

الحديقة وجلسنا على مقعد صغير . كان الوقت ربيعاً وكان الليل
 حلوا كالعسل والليل عابقاً . كان الأزواج ★ يمرون باستمرار ، وكان
 آخرون يتعانقون ويتمددون على العشب . وبدأ بلبل مختبئ بين
 الليلك يغرد فوق رؤوسنا . وتوقف قلبي . لم يكن طائراً ، لا بد أنه
 جنني داهية . أعتقد أنني كنت قد سمعت هذا الصوت ذاته من قبل
 - عندما تسلقت جبل بسيلوريتي - وعرفت ما كان يقوله . مددت
 يدي ووضعتها على شعر الفتاة . سألتها : « ما اسمك ؟ » فأجابت
 ضاحكة : « فريدة . لم تسأل ؟ اسمي : امرأة » .

عند هذا الحد انفلت شيء رهيب من فمي . لم تكن الكلمات
 التي قلتها كلماتي . لا بد أنها تخص واحداً من أسلافي - ليس أبي
 الذي كان يحتقر النساء بل هو شخص آخر . وفي اللحظة التي
 نطقت بها أحسست أن الرعب يهيمن علي . ولكن بعد فوات
 الأوان .

- فريدة . هل تقضين الليلة معي ؟
 أجابت الفتاة بهدوء : ليس الليلة . لا أستطيع . غدا .
 أحسست بالارتياح فنهضت بسرعة كبيرة . افترقنا . وعدت
 متعجلاً إلى غرفتي .

وعند ذلك حدث شيء لا يصدق ، شيء يجعلني أرتجف
 حتى الآن حين أتذكره . إن روح الإنسان غير قابلة للتلف فعلاً ، أنها
 فعلاً نبيلة وجليلة القدر ، ولكن لأنها مضغوطة على قلبها فإنها تحمل
 جسداً يزداد تعفنًا كل يوم . في طريق عودتي إلى البيت سمعت
 الدم يصعد إلى رأسي . ثارت نائفة روشي حين أحسست أن
 جسدي كان على وشك الوقوع في الخطيئة ، قفزت على قدميها ،
 مترعة بالاحتقار والغضب ، ورفضت أن تمنح الأذن . وتابع الدم
 تدفقه إلى الأعلى وتجمع في وجهي إلى أن أدركت شيئاً فشيئاً أن
 شفتي وخدي وجهتي قد تورمت ، وصغرت عيناها إلى درجة أن
 لم يبق منهما إلا شقان صغيران ، وبصعوبة فائقة صرت أستطيع أن
 أرى أي شيء .

★ المقصود الأزواج من شباب وفتاة وليس بالضرورة من زوج وزوجة .

وأنا أتعثر في مشيتي رحمت أوسع خطاي وأركض متلن متلن في ناد
البيت لكي أتطلع الى المرأة وأرى الحالة التي كنت فيها .

وأخيرا حين وصلت وأشعلت الضوء وتطلعت أطلق عرصة
ذعر . كان وجهي كله متورما ومشوها بشكل مخيف . بالكاد كانت
عيناى تظهران بين كتلتين مندفعتين من اللحم الوردي ، وفمي
أصبح شقا طوليا عاجزا عن الانفتاح . وبغته تذكرت الفتاة فريدة .
كيف أستطيع أن أراها في اليوم التالي وأنا في هذه الحالة المقرفة ؟
كتبت برقية : « لا أستطيع المجيء غدا . سأتي بعد غد . » ثم
سقطت على سريري يائسا ، أي مرض يمكن ان يكون هذا ؟
سألت نفسي . أهو الجذام ؟ حين كنت طفلا في كريت كنت كثيرا
ما أرى المجذومين بوجوههم المنتفخة القانية المتقشرة دائما ، وتذكرت
الآن أي رعب كانت تثير في - الى درجة انني قلت ذات يوم : « لو
انني ملك لأخذت كافة المجذومين وعلقت على رقابهم حجارة وألقيت
بهم في البحر . » هل من الممكن ان يكون (اللامرئي) - أحد
اللامرئيين - قد تذكر كلماتي اللانسانية فأرسل علي هذا المرص
المربع عقوبة ؟

لم أنم لحظة واحدة تلك الليلة . كنت متشوقا لمجيء الفجر
لأنني قلت لنفسي ان المشكلة قد تنتهي في الصباح ، وكنت أستمر
في تلمس وجهي لأرى ما اذا كان الانتفاخ قد بدأ يخف .
عند الفجر قفزت من السرير وركضت الى المرأة . كان
هناك قناع مرعب من اللحم يكسو وجهي . وكان الجلد قد بدأ يتفجر
وينزف سائلا أبيض مصفرا . لم أكن انسانا بل كنت شيطانا .

استدعيت الخادم لأعطيها البرقية . زعقت وخبأت وجهها
براحتها في اللحظة التي فتحت فيها الباب ورات وجهي . ودون أن
تجرؤ على الاقتراب مني اختطفت البرقية وذهبت . مر يوم ويومان
وثلاثة وأسبوع وأسبوعان . وكل يوم ، وخشية أن تأتي الفتاة الى
غرفتي وتراني ، كنت أبعث بالبرقية ذاتها « لا أستطيع أن آتي
اليوم . سأتي غدا » . لم أكن أحس بأي ألم لكنني لم أكن أستطيع
أن أفتح فمي لكي أكل ، كان طعامي الوحيد الحليب وعصير الليمون

وكنت امتصهما بمصاصة • وأخيرا لم أعد أستطيع التحمل • كنت قد قرأت كتبا عديدة في التحليل النفسي كتبها فلهلم ستاكل ، التلميذ الشهير لفرويد فذهبت أبحث عنه • ان نفسي هي التي أوقعت بي هذا المرض دون أن أعرف السبب • وتكهننت : ان نفسي هي المسؤولة •

بدأ البروفسور العالم يستمع لاعترافي • حكيت قصة حياتي : كيف كنت أبحث عن طريق للخلاص منذ بلوغي ، وكيف تبعت المسيح سنوات عديدة وكيف وجدت دينه في النهاية مبسطا جدا ومتفائلا جدا ، وكيف تركته لأسير في طريق بوذا •

وابتسم البروفسور • قال لي : « ان البحث لايجاد بداية العالم ونهايته هو مَرَضِي • الانسان الطبيعي يعيش ويكافح ويجرب الفرح والحزن ويتزوج وينجب أطفالا ولا يضيع وقته في التساؤل : من أين ؟ والى أين ؟ ولماذا ؟ الا انك لم تنه قصتك • ما تزال تخفي عني شيئا ما • اعترف بكل شيء •

حكيت له كيف قابلت فريدة وقلت له اننا قد رتبنا موعدا •

وانفجر البروفسور في ضحكة قوية ساخرة • تطلعت اليه مستثارا • كنت قد بدأت أكره هذا الرجل لأنه كان يتفحص أسراري تحت عدسته المكبرة الحمقاء ، ويضغط ليفتح كافة الابواب الموصدة والمرتجة في داخلي •

« يكفي ! يكفي ! » قال وقد بدأ يضحك بطريقته الساخرة • « سيظل هذا القناع على وجهك طالما انت في فيينا - المرض الذي أصابك يسمى مرض الزهاد • انه مرض نادر جدا في أيامنا لأنه ما من جسد ، اليوم ، يطيع روجه • هل سبق لك أن قرأت أساطير القديسين ؟ هل تتذكر الناسك الذي هجر صحراء طيبة وركض الى اقرب مدينة لأن شيطان الزنا قد ركبه فأحس انه مجبور على أن ينام مع امرأة ؟ ركض وركض ولكن حين كان على وشك أن يعبر بوابات المدينة تطلع فرأى برعب ان الجذام يغطي جسده • ولكنه لم يكن الجذام • كان هذا المرض • المرض ذاته الذي أصابك • كيف

يستطيع أن يعف أمام ... دوجه مصر ... هذا آ واية امرأة
سترى انها تستطيع لمسه ؟ وهكذا ركض عائدا الى صومعته في
الصحراء وقدم الشكر لله الذي أنقذه من الخطيئة بينما غفر له
الله وأزال الجذام عن جسده ... هل تفهم الآن ؟ ان روحك المنغمسة
في الفلسفة البوذية - أو بالاحرى ما تسميها روحك - تعتقد ان النوم
مع امرأة خطيئة مميتة . ولهذا فهي ترفض ان تسمح لجسدها
باقتراف هذه الخطيئة ، أن أرواحا كهذه ، قادرة على ان ترفض
نفسها الى هذه الدرجة على اللحم ، هي أرواح نادرة في عصرنا .
طوال عملي العلمي لم أواجه الا حالة واحدة أخرى مشابهة وهي
حالة سيدة من فيينا تقيّة ومستقيمة وفاضلة الى أبعد الحدود .
كانت تحب زوجها حبا شديدا لكنه كان في الجبهة ، وصدف لها ان
قابلت شابا وعشيقته . وذات ليلة كانت مستعدة لتسليم نفسها
لكن روحها ثارت وعارضتها . صار وجهها متورما بشكل كريه
تماما كوجهك الآن . فبحثت عني يائسة . فهدأتها وقلت لها :
ستشفين حين يعود زوجك من الحرب ، وبالفعل حالما رجع زوجها ،
بمعنى انه حالما زال خطر الخطيئة عاد وجهها الى جماله الاصلي .
حالتك مشابهة تماما . ستشفى حالما تغادر فيينا وتترك فريدة
وراعك .

لم أصدق . خرافات علمية . هكذا قلت لنفسي وأنا اغادره في
حالة من الهيجان العنيد . سابقى في فيينا . سابقى وسأتحسن ...
بقيت شهرا آخر لكن القناع لم يزل . وتابعت ارسال البرقية اليومية
الى فريدة : « لا أستطيع أن آتي اليوم ، سأتي غدا » لكن هذا الغد
لم يأت أبدا . وذات صباح وقد أنهكني الامر كله نهضت من فراشي
مصمما على السفر . أخذت حقيبتي ونزلت الدرج وصلت الى
الشارع وتوجهت الى المحطة . كان الصباح باكرا وكانت نسمة باردة
تهب علي . كان رجال الطبقة العاملة ونساءؤها مسرعين الى أعمالهم
في مجموعات مرحة وهم ما يزالون يمضغون لقمات من الخبز . لم تكن
الشمس قد وصلت الى الشوارع بعد . كانت عدة نوافذ قد فتحت ،
والمدينة كانت تستيقظ . مشيت بخطوات خفيفة وبمزاج حسن ،
كنت استيقظ مثل المدينة . وأحسست بوجهي يفقد ثقله فيما كنت
أتقدم . كانت عيناى قد تحررتا وصار بوسعهما ان تتفتحا . وبدأ

التورم في شفتي يخف فرحت أصفر مثل طفل • مر النسيم البارد على وجهي مثل يد رحيمة ، مثل المداعبة • وحين وصلت أخيرا الى المحطة وأخرجت مرآة جيبي لأتطلع الى نفسي ، يا لفرحتي اأي حظ طيب • كان التورم في وجهي قد اختفى تماما • ملامحي السابقة ، الانف ، والفم والخدان ، عادت • هرب الشيطان وعدت مرة أخرى انسانا •

منذ ذلك اليوم أدركت ان روح الانسان منبع رهيب وخطر للاضطرابات ، دون ان ندري نحمل كلنا قوة متفجرة ملفوفة بلحمنا وشحمنا • والأسوأ من ذلك اننا لا نريد ان نعرفها لأننا عندها نفقد مبررات النذالة والجبن والكذب ، لا يعود في وسعنا الاختباء وراء عجز الانسان المفترض وفسادة • نحن أنفسنا يجب أن نتحمل المسؤولية حين نكون سفلة أو جبناء أو كذابين ذلك لأنه على الرغم من اننا نمتلك قوة كلية القدرة في أعماقنا فاننا لا نجرؤ على استخدامها خشية ان تدمرنا • لكننا نفضل الطريق السهل المريح ونسمح لها بأن تصرف طاقتها شيئاً فشيئاً الى ان تنحط هي بدورها وتتحول الى لحم وشحم • ما أرهب ان لا نعرف اننا نمتلك هذه القوة لو أننا كنا نعرف لكننا فخورين بأرواحنا • في السموات والارض كلها لا شيء يشبه الله هذا الشبه مثل روح الانسان •

٢٥ - برلين

قفزت من فيينا الى برلين . وعلى الرغم من ان بوذا كان قد روى الكثير من ظمئي الا انه لم يستطع ان يطفئ ظمئي لرؤية مناطق كثيرة من الارض وبحار كثيرة وبالقدر الذي أستطيعه . لقد منحني ما كان هو يسميه « عين الفيل » - القدرة على رؤية الاشياء كلها وكأنما للمرة الاخيرة وتوديعها

ظلت أقول لنفسي ان العالم شبح وان الناس اطياف ، وكائنات ندية ، وأبناء للندى سريعو الزوال . لقد بزغ بوذا ، الشمس السوداء ، فذابوا وصاروا لا شيء . لكن الشفقة هيمنت على روحي ، الشفقة والحب . لو انني أستطيع ، فقط ، ان أبقى هذه الاشباح على حافة رؤيائي لحظة أخرى وأمنعها من التلاشي اأحسست أن آخر نبضة من قلبي لم تتلفع بالرداء الاصفر . لقد ظلت خفقة حمراء قانية ، تخفق بعناد ، رافضة ان تسمح لبوذا بالاستحواذ علي كاملا . كان في أعماقي كريتبي يرفع يده احتجاجا ، رافضا ان يدفع فاردنغ * نحاسيا كجزية للفاتح المسالم .

في برلين أدركت ذلك كله . وحينما أغمض عيني الآن لأتذكر خطايي في تلك المدينة الكريهة (خطايا قاتلة لشخص من أتباع بوذا) تفيض ذاكرتي بالضحك وبالكلمات المشتعلة والليالي الدافئة

* تلمعة نقد ضئيلة وتستخدم للدلالة على كل ما هو ضئيل القيمة .

المدهشة التي انقضت دون تفكير بالنوم ، وبأشجار الكستناء
والكرز المزهرة وبالعيون اليهودية النهمة ، وبالرائحة الواخزة
للأطباء الانثويين - واعجز عن وضع الامور في نصابها .

أقلب دفاتر صفراء في محاولة لمعرفة ما حدث أولا وما حدث
بعده وأية أيمان أقسمناها ، وما سبب الفراق ٠٠٠٠ عظيمة فعلا
قدرة حروف الابجدية ، تلك الجند الصغيرة الستة والعشرين ، التي
تقف على حافة المهوى لتدافع عن قلب الانسان ، لوقت ما على
الاقبل ، وتمنعه من السقوط والغرق في عين بوذا السوداء التي لا قاع
لها .

٢ اكتوبر :

كنت اتجول خلال ثلاثة أيام في شوارع برلين الرتيبة التي لا
تنتهي . لقد فقدت أشجار الكستناء أوراقها وكانت هناك ريح
قارسة وكان قلبي قد تجلد . دخلت اليوم بابا كبيرا كتب عليه
بأحرف كبيرة : « مؤتمر الاصلاح التربوي » . كان الثلج يهطل وكنت
بردانا فدخلت . كانت القاعة مليئة بالاساتذة ، وكان حشد الرجال
والنساء كبيرا . بحثت عن مكان اجلس فيه . وبغته رأيت بلوزة
برتقالية تتلامع بين السترات السوداء والرمادية . تماما كما تنجذب
الحشرة بلون الزهرة كذلك فأنني ، بالطريقة ذاتها ، تحركت نحو
الفتاة ذات البلوزة البرتقالية . كان المقعد المجاور لها خاليا
فجلست . وكان أحد المعلمين يؤشر بطريقة مضحكة - كان قد أبح
صوته فشرب قليلا من الماء وهذا لبعض الوقت ثم أجهد نفسه من
جديد وذلك كله حول الكيفية التي سيغير بها المنهاج المدرسي ويصنع
جيلا ألمانيا جديدا يستخف بكل من الحياة والموت . ها هنا أيضا
مخلص آخر ، كان يجاهد لانقاذ العالم بتحطيمه .

التفت الى جارتي . كان شعرها أسود داكنا وعيناها الواسعتان
كانتا سوداوين ولوزيتين وانفها كان معقوفا قليلا . كانت بشرتها
داكنة ، بلون الكهرمان القديم ، مع بقع خفيفة على الوجه . انحنيت
صوبها وسألتها :

- من أين تظنينني ؟

أجابت وقد تضرجت بشدة: من بلاد الشمس •
- صحيح • من بلاد الشمس • انني اختنق هنا • هل نخرج
ونتمشى قليلا ؟

• نعم • هيا بنا •
ما أن أصبحت في الشارع حتى راحت تقفز وتضحك وتصرخ مثل
طفل أعطي لعبة جديدة •
« اسمي ساريتا وأنا يهودية واكتب قصائد » •

دخلنا الى حديقة • كانت الاوراق الصفراء المتراكمة على
الارض تنسحق تحت أقدامنا • وضعت يدي على شعرها كان دافئا
وناعما كالحرير • ودون كلام توقفت الفتاة ومدت عنقها وكأنها
تنصت باهتمام لشيء ما •

قالت : يدك تمنح القوة • أحس كأنني جرة ملئت من النبع •
كان الوقت قبيل الظهر • فاقترحت : « فلنذهب ونأكل • حساء
مكثف • ظريف وساخن ليدفئنا » •

- هذا يوم صيام عند اليهود • الاكل فيه خطيئة • انني جائعة
وبردانة مثلك • لكنها خطيئة •

- فلنقترف الخطيئة اذن لكي نستطيع ان نندم فيما بعد ويغفر
لنا الهك يهوه الرهيب •
بدأ عليها الانزعاج عندما سمعتني ألمح الى الهها بهذه
الطريقة المازحة •
- ومن هو الهك ؟

جعلني سؤالها أجفل • أحسست فورا أنني كنت ارتكب خطيئة
بحق الهي • طوال ذلك الوقت كنت قد نسيت ان هاتين العينين وهذا
الشعر وهذه البشرة الكهربائية ليست الا شبعا ، وانني لم أنفخ
ولم أكن أريد أن أنفخ لطرده •

- « ديونيزوس ؟ » سألت الفتاة ضاحكة • « السكير
العظيم ؟ »

- لا • لا • واحد غيره • واحد رهيب أكثر من الهك يهوه •••
لا تسألني !

كان علي في تلك اللحظة أن انهض وأنصرف لكنني أشفقت
على جسدي وأشفقت على جسدها فبقيت •

- اقرئي واحدة من قصائدك • قلت ذلك لأحول أفكارني •
- أشع وجهها بهجة • وصار صوتها أكثر مهددة ومرارة :
- أيها المنفيون الذين لم يدركوا بعد
• ان المنفى وطن •
- حين ندخل مدنا جديدة
- يسير الوطن لاحقا بنا مثل أخت •
- أيها المنفيون الذين لم يدركوا بعد
• انه في قلوبنا المنفية ،
• يبدأ نشيد الانشاد
• حين نمح ابتسامة •

امتلأت عيناها بالدموع وسألتها : « هل تبكين ؟ » وانحنيت
عليها • فأجابت : « أينما لمست اليهودي فانك تجد جرحا » •

٣ أكتوبر :

اه لو كان الانسان قادرا على الاحتفاظ بالنشوة ! لو ان
ديونيزوس كان الها كلي الابداع وشمولي الخلق ! لكن النشوة تتبدد
بسرعة ، والذهن يصفو ويتحول اللحم المتماسك الحار الى شبح من
جديد • في اليوم التالي استيقظ عقلي • نظر الي باحتقار وتجهم
وصرخ : كافر ، خائن ، غدار ، متقلب ! انني أخجل من أن أعيش
وأسافر معك • ربما ان بوذا يستطيع ان يغفر لك لكن أنا لا أستطيع •
• اياك أن تخطو مرة أخرى الى الشرك ذي اللون البرتقالي •

الا ان أول شيء فعلته في الصباح ، رغم ذلك ، هو انني سلكت
الطريق ذاته وعدت الى المؤتمر • تطلعت لكنني لم أر اللون البرتقالي
في أي مكان • وعلى الرغم من انني كنت أريد أن أبنهج الا أنني
لم أستطع • ومرة أخرى سمعت الكلام المنمق المفخم • كان كثير من
المستمعين يأكلون التفاح ليهدئوا جوعهم وكان آخرون منكبين
يسجلون ملاحظات ورؤوس أقلام ودون أن يضيعوا كلمة واحدة •

وبغثة شعرت بشيء كالانفاس الدافئة ورائي : وجه يبحث عني ويثب عينيه علي ، التفت فرأيتها في الطرف الاقصى من القاعة ، كانت تلبس شالا رثا ذا لون زيتي غامق ، وقد ردت قبتها ذات الفرو المنزوع الوبر لأن الغرفة كانت باردة ، ابتسمت لي وأشع وجهها مثل تمثال رخامي في ضوء الشمس .

لم التفت للنظر اليها مرة ثانية ، حاولت أن أخرج لكنها لحقت بي في الردهة وأعطتني مجموعة صغيرة من قصائدها . ضحكت وقفزت . لم تكن نشوتها من اليوم السابق قد تلاشت . لكنني كنت تواقا لمفارقتها وللانصراف . وفي اللحظة التي بدأت فيها أنحني لتقديم يدي اليها رأيت عينيها تتطلعان الي متسائلتين ومتشككتين وظل من الخوف يخيم عليهما . كان جسدها قد ازداد صفرا وصار اكثر انحناء ، لقد تقلصت داخل نفسها . وانفطر قلبي شفقة ، أمسكت بها من أعلى ظهرها وفركت كتفيها النحيلين .

– لماذا تؤذيني ؟ سألت وهي تحاول الفرار .

– لأنك مصنوعة من طينة مختلفة ، ولأن لديك الها مختلفا ولأنني كنت أفكر فيك طوال الليل . كنت أريد أن أسالك بعض الاسئلة . ولكن يجب أن تقولي الحقيقة .

– ولم لا أقول الحقيقة ؟ أنا لا أخافها . أنا يهودية .

– ما الذي يأمرك به الهك ؟ أي واجب يفرضه عليك ؟ هذا ما يجب أن أعرفه قبل أن نتقدم أكثر من ذلك .

– الكراهية – هذا هو الواجب الأول . هل ارتحت ؟

بغثة تشنجت قسماتها . وعلى الرغم من ان شفيتها السميكتين لم تعودا تتكلمان فانهما قد ظلتا ترتعشان . عينان صفراوان وشدق؛ فاغر لنمرة صارت واضحة وراء الوجه الجميل ذي الملامح القاتمة .

– هل ارتحت ؟ همست مرّة أخرى باستفزاز .

تذكرت قول بوذا : « اذا رددنا على الكراهية بالكراهية فلن يتحرر العالم من الكراهية » .

أجبتها : « الكراهية هي الخادم الذي يسير في الامام وينظف الطريق لكي يمر السيد » .
- ومن هو السيد ؟
• الحـب •

ضحكت اليهودية ساخرة : « هذا ما يثغو به مسيحك • أما بالنسبة لنا فالهنا يهوه يأمرنا قائلا اذا لكمك أحدهم فأسقط لك سنا فحطم فكه كله بالمقابل • أنت حمل أما أنا فذئبة جريح • لا نستطيع ان نختلط • جميل اننا أدركنا ذلك قبل ان نجتمع شفاهنا » •

- ما الذي لديك ضد العالم ؟ لم تريدين أن تدمريه ؟

• أشك في ان تكون قد سبق لك ان جعت • أبدا • ليس أنت • انك لم يسبق لك ان نمت تحت جسر ولم تقتل أمك في مذبحه منظمة • باختصار ليس لك الحق في أن تسأل • هذا العالم - عالمك - ظالم وفساد لكن قلوبنا ليست كذلك • أريد أن أساعد رفاقي على تدميره وبناء عالم جديد ، عالم لا يجعل قلوبنا تحس بالخجل •

تمشينا تحت الاشجار العارية • كانت بعض الاوراق ما تزال عالقة في الاعالي لكن هبة قارسة جاءت لتهزها فارتمت على رأسينا وأكتافنا • كانت اليهودية ترتعش وكان قفازها مليئين بالثقوب وكانت بلوزتها قطنية وحذاؤها بالي الكعبين • كان ممزقا رثا • نظرت نظرة جانبية الى عينيها للحظة ورأيت مذعورا أنهما مثبتتان علي وتشعان بكراهية تملأهما •

ما الذي مرت به هذه الفتاة لكي تتحدث بهذه الكراهية اقلت لنفسي ربما لأنها كانت تخشى ان تقع في حب رجل من المعسكر المعادي •

كانت شفتاها قد ازرقتا من البرد وكانت أسنانها تصطك • خجلت فخلعت معطفتي الفرو وألقيته بسرعة على كتفها قبل أن تجد الوقت للهرب ، هزت نفسها غاضبة محاولة ان تلقيه عنها لكنني أمسكت به عليها بثبات ورجوتها ان تبقى •

توقفت وكأنها صارت عاجزة عن التقاط أنفاسها • لقد توقفت
عن المقاومة • وشعرت بحرارة جسدي تخرج من معطفي وتتغلغل
ببطء وعمق داخل جسدها • عادت شفتها الى احمرارهما من جديد •
وشيئا فشيئا بدأ وجهها يستعيد جماله • واتكات بذراعها علي •
لا بد ان ركبتها قد تراختا •

تمتت : جميل أن تدفأ • تبدو الحياة وكأنها تتغير •
اغرورقت عيناى بالدموع وأنا أفكر بأن قليلا من الدفء وقليلا
من الخبز وسقفا فوق رأسك وكلمة لطيفة وعندها تمحي الكراهية •
وصلنا الى بيتها •
سألتها : متى سأراك مرة أخرى ؟

قالت : خذ معطفك • لقد فهمت الآن لماذا يتحدث كل من لديه
معطف من الفرو بالطريقة التي تحدث بها • خذه لأن قلبي على
وشك ان يضعف •

– ليس قلبك يا ساريتا بل كراهيتك •
– انها الشيء ذاته • بارك الله بالبرد والجوع • لولاهما لانغمرت
بالراحة • بمعنى آخر لكننت ميتة وجثة • وداعا •
لم تمد يدها • فتحت حقيبتها وأخرجت مفتاحها لتفتح الباب •
وكررت سؤالي : متى سأراك مرة أخرى ؟
لكن وجهها كان قد عاد وأصبح قناعا أصغر من الكراهية ،
ودون أن تجيب فتحت الباب وغابت في العتمة •
ولم أرها بعد ذلك أبدا •

اعتزلت في غرفتي • لقد تحول قلبي الى كيس مليء باليرقات •
بغثة كان العالم قد اكتسبى باللحم والعظم من جديد وبدا أنه موجود
فعلا • وانفتحت التعطشات الخمسة في جسدي وبدأت أنادي بوذا
ليأتي ويطرده المغوي • ذات مرة كان هناك قديس عظيم عجز ، بعد
اربعين سنة من التمسك بالزهد ، عن ان يصل الى الله • كان هناك
شيء يقف في طريقه ويصده • وفي نهاية السنوات الاربعين فهم •
كان الشيء جرة صغيرة كان يحبها كثيرا لأنها تبرد ماء الشرب الذي
يحفظه فيها • حطم الجرة فاتحد بالله فورا •

★ هذه القصة رويت عن المتصوف المسلم السري السقطي

عرفت - عرفت ان الجرة في حالتي هي جسد الفتاة الصغير الذي لا يقاوم . فان كنت بدوري راغبا في التوحد بالله ، فان علي أن أمحو هذا الجسد الذي يقف في طريقي . حين يتسلل دبور وحشي الى خلية نحل ليسرق العسل ، تندفع العاملات اليه وتقمط جسده كله بشبكة من الشمع الارج فتخنقه . كانت شبكتي الشمعية مؤلفة من الكلمات والاشعار والاوزان . بهذه الحبال المتلوية المقدسة سالف ساريتا وأمنعها من سرقة عسلي .

بدأ الدم يندفع الى صدغي . جمعت أفكارى المبعثرة التائهة . وجهدت لكي أركز قوتي على جسد واحد وصوت واحد وعينين سوداوين قلقتين . كنت أريد طرد هذه الاشياء لأنها كانت تفصلني عن بوذا .

حشدت الكلمات ووقفت في مقدمتها ثم انطلقت الى الحب . بدأت أكتب . ولكن كلما أكثر من الكتابة ابتعد هدفي عني وازداد توقي . راحت ساريتا تبتعد أكثر فأكثر ، وازدادت صغرا الى أن تلاشت ، ولع أمامي مرتقى ، مرتقى صخري عليه أثر أحمر ورجل يتسلق - حرف هيروغليفي بسيط مرسوم بأقل قدر من الضربات . وعرفت فيه حياتي . حللت لغزه فرأيت بكم من السذاجة وبكم من الآمال كنت قد انطلقت ، ورأيت اين كانت محطات الطريق المختلفة التي توقفت فيها مؤقتا لالتقاط أنفاسي ولاستجماع زخم جديد - النفس ، العرق ، الجنس البشري ، الله ، وكيف بغتة توضحت القمة السامية من فوقى - الصمت ، بوذا . وأخيرا رأيت التوق الذي بدأ يتأجج في أعماقي ، التوق لتحرير نفسي الى الابد من الخدع كلها ، الارضية والسماوية ، وللنجاح في الوصول الى القمة المنعزلة المهجورة . . . حين جمعت الصفحات التي كتبتها وقرأتها - كانت مبعثرة على الارض - تملكني الرعب . كنت أريد أن أكتب تعويذة للتخلص من ساريتا لكنني بدلا من ذلك كتبت تعويذة للخلاص من الكون كله . كان بوذا يجلس ساكنا واثقا من نفسه على القمة يراقب كفاحي في سفح المرتقى وهو يبتسم بمودة ولطف .

بعد أن نظمت الاسئلة القديمة ، وبعد أن وجدت الكلمات وشكلت الجواب شعرت بالراحة . نهضت لأخرج وأحرك تنمل جسدى

الذي كان معتزلا منذ عدة أيام . كان الليل قد حل ، لا بد ان الناس قد أنهوا عشاءهم . ولأنها لم تكن تمطر ولم يكن الثلج يهطل فقد تدفقوا الى الشوارع . رأيت أضواء ملونة على مدخل كبير ، واعلانات ملونة تقول « رقصات من جاوة » . ومن الداخل سمعت موسيقى رزينة مليئة بالعاطفة ، كان الرجال والنساء يدخلون فدخلت أيضا .

بين المشاهد التي كانت روحي تستمتع بها يقف في ذروتها دائما الرقص والسماء المليئة بالنجوم . لم تستطع الخمرة أو النساء ولا حتى الافكار أن تضعني في حالة هياج تام - جسدا وعقلا وروحا - كما يفعل هذان الشيطان . ولهذا فقد كنت مسرورا لأنني في هذه الليلة ، وبعد هذه الايام العديدة من الصيام الزاهد ، لن أكتفي بأن أجعل لحمي ينفض عنه حذره وأن أمتع نفسي ، بل سيستمتع معي عقلي وروحي - هؤلاء الرحالة الثلاثة المترافعون .

حين دخلت الصالة كان الرقص قائما . الاضواء مطفأة باستثناء البقعة الخضراء المزرقعة الغامضة التي كانت تضيء المسرح وتجعله يبدو مثل قاع بحر شرق أقصوي . كان هناك يافع دقيق الاطراف داكن البشرة يرتدي حلى غريبة ساحرة وبذلة خضراء ذهبية - مثل حشرة ذكر في حالته النزوية الصيفية - يرقص ويرقص مستعرضا رشاقته أمام الانثى ، وكم كان لديه من القوة ومن اللدانة ، وكم كان يستحق - هو ولا أحد غيره - ان ينتقى للتزاوج معها وانجاب ابن بحيث تنتقل هذه المزايا من الرشاقة والقوة واللدانة الى هذا الابن ولا تغنى . كانت الانثى تقف بلا حراك وهي تتطلع اليه وتزنه بنظرها محاولة أن تتخذ قرارها . وبغته قررت . وألقت بنفسها الى الرقص ولخوفه انتحى الرجل جانبا . لقد جاء دوره الآن لكي يقف مستغرقا بلا حراك وهو يتطلع الى المرأة . راحت ترقص وترقص أمام الرجل المذعور . فتحت ذراعيها ونحت عنها أستارها حتى التمع جسدها أخضر مزرقا لوهلة ثم انطفأ . في اللحظة التالية اقتربت منه متظاهرة بأنها ستلقي بنفسها في حضنه . أطلق صرخة انتصار وفتح ذراعيه لكن المرأة كانت تفر منه في كل مرة مع هسهسة وترقص بعيدا عن متناول يده .

سواء كانت حيوانات أم طيوراً أم بشراً ، فإن الاقنعة في كل دورة رقص كانت تلقى ، ووراءها كلها يظهر الوجه ذاته ، الوجه الخالد للحب . وفيما كنت أرقب الثنائي الجاوي سألت نفسي عما إذا كانت رقصة أخرى أبعد من ذلك ، ولنقل أنها رقصة الله ستستطيع في دورانها أن تخلع قناع الحب هذا أيضاً . وخطر لي أن أتساءل: أي وجه مرعب سيظهر عندها ؟ كنت أجاهد أن أستحوذ على الوجه النهائي خلف كل قناع ولكنني لم أستطع . وتساءلت عما إذا كان سيكون هواء فارغاً - وجه بوذا ؟ كان الراقصان ، الرجل والمرأة ، قد اندمجا هذه المرة . كانا يرقصان متشابكي الذراعين في حالة من النشوة وهما يقفزان في الهواء ويسقطان ليندفعوا الى الأعلى من جديد محاولين وسط لهات الرغبة ان يتخطيا الحدود الانسانية .

خرجت وتجولت في الشوارع حتى ما بعد منتصف الليل . بدأت كسفات ثلجية متفرقة تتساقط واستقبلتها بشعور من الارتياح لأنها بردت شفتي المحترقتين . كانت أسئلة جديدة تبرز في أعماقي . لقد فتح رقص هذا المساء الينابيع القديمة في أحشائي ، الينابيع التي كنت قد ظننت أنها نضبت . وأدركت ان حشايا الكريتي لا تفرغ بسهولة . كان في داخلي أسلاف رهيبون لم يأكلوا من اللحم أو يشربوا من الخمر قدر ما كانوا يحتاجون ولم يقبلوا من النساء قدر ما كانوا يشتهون وما هم الآن ينتفضون بشراسة ليمنعوني - ويمنعوا أنفسهم - من الموت . وفي الحقيقة ما الذي كان لبوذا في كريت ؟ وما الذي يمكن أن يأمل فيه في كريت ؟

تطلعت الى كسفات الثلج الهائمة في ضوء مصابيح الشارع فذكرتني بالرجل والمرأة الجاويين اللذين رأيتهما ذلك المساء ، وبعده لا يحصى من الرجال والنساء الذين يمثلون الرقصة - المطاردة والمعركة والرغبة - وفي النهاية يشكلان وحدة لكي ينجبا ابناء . ويضمنا خلودهما . ان الظمأ للخلود أصعب ارواء من الظمأ للموت .

استلقيت ، منهكا تماما ، لأنام . وكعادة حظي الحسن ، حين يتعذب عقلي المتيقظ بالأسئلة ويعجز عن التخلص منها ، يأتي

النوم ليبسطها ويحولها الى حكاية • هكذا هي ذروة المادة الساكنة
للحقيقة حين تزهر •

حلمت انني اتسلق جبلا • كنت أحمل عصاي على كتفي كعادة
الرعاة الكريتيين وكنت أغني • وأتذكر أنها كانت أغنية شعبية كنت
أحبها كثيرا •

بذرت بذرة فلفل على شفتي ماراغارو
فنمت بكثافة وصارت نبتة عملاقة •
الآن يجنيها اليونانيون وينقلها الاتراك
وماراغارو تدرسها بانفراج ساقها وهي تصعد •

وبغته اندفع عجوز من كهف • كان قد شمر أكامه ويدها كأننا
مغطاتين بالوحل • وضع اصبعه على شفتيه ليسكتني ثم أمرني
بصوت صارم « توقف عن الغناء • أريد الهدوء ! ألا ترى انني
أشتغل ؟ » (هنا أشار الى يديه) •

سألته : ما الذي تشتغله ؟

- ألا تستطيع ان ترى بنفسك ؟ داخل هذا الكهف أنا أصنع
المفتدى •

صرخت وقد بدأت الجراح القديمة تنز في أعماقي من جديد :
« المفتدى ؟ من الذي يفتدى » ؟

أجاب العجوز بسرعة وهو يدخل من جديد الى كهفه : « ذلك
الذي يعي الكلية ويحبها ويعيشها ! »

« ذلك الذي يعي الكلية ويحبها ويعيشها ••• » طوال اليوم
الثاني وأنا أردد هذه الكلمات التي جاءتني من حلمي دون أن أتعب
منها • أكان هذا صوت الله ، الصوت الذي لا يمكن أن يسمع الا
ليلا وذلك حين يكون العقل الثرثار قد أغلق فمه ؟ هكذا رحلت أسأل
نفسي • كنت دائما أوّمن بالنصح الذي تقدمه لنا ساعات الظلمة •
لا شك ان الليل أكثر عمقا وقداسة من ذلك الساذج النهار • الليل
يشفق على الانسان •

مرت عدة أيام • كثيرا ما حدث في حياتي ان هذين الشيطانين ،
شيطان النعم وشيطان اللا ، يتصارعان ويتعاركان في داخلي • وفي
كل مرة كنت فيها اجد جوابا على الاسئلة التي تعذبني ، كنت
أقبله دون ارتياح لأنني كنت أعرف أن هذا الجواب سوف يفسد ،
حتما ، أسئلة جديدة • ولذا فان المطاردة التي يقوم بها الشيطانان
في داخلي هي مطاردة لا نهاية لها • ويبدو ان كل جواب يخفي أسئلة
مستقبلية في طيات يقينه المؤقت • ولهذا كنت دائما لا أنظر الى
مجيئه بارتياح بل بقلق دفين •

كان المسيح يخفي بذرة بوذا في أعماقه الدفينة • وتساءلت :
الذي كان بوذا يخفيه ملفوفا في رداءه الاصفر ؟

ذات أحد ماظر كنت أتجول على مهلي في متحف أفرج فيه على
أقنعة أفريقية قوية مصنوعة من الخشب وجلود الحيوانات والجماجم
البشرية • وفي محاولتي لحل لغز الاقنعة قلت لنفسي ان الفساع هو
وجهنا الحقيقي ونحن هذه الاغوال ذات الافواه الدامية والشفاه
المتدللية والعيون المرعبة • ان هناك قناعا كريها يعوي وراء الملامح
الجميلة للمرأة التي نحب ، وهيولى وراء العالم المرئي ، وبوذا وراء
وجه المسيح اللطيف • وأحيانا في لحظات الحب والكراهية والموت
تتلاشى الفتنة والسحر ونرى الملامح المخيفة للحقيقة • وتذكرت
وأنا أرتعش الصبية الايرلندية داخل تلك الكنيسة الصغيرة على
قمة الجبل الكريتي • ما ان لمستها شفتاي حتى بدا ان وجهها قد
تهرا وتلاشى كاشفا عن قردة مخيفة متعذبة منتشية ملأتني بالقرع
والخوف • منذ ذلك الحين كنت أضبط نفسي ، بصعوبة ، عن تعرية
الوجوه الحقيقية للبشر لأن الحب والغزل والتفاهم المتبادل سوف
تختفي كلها ، عندها يبدو انني أتظاهر بتصديق وجوه البشر وبهذه
الطريقة أستطيع أن أعيش مع رفقائي البشر •

كل يوم قبل طلوع النهار كان هؤلاء الاروميون * الذين بنحتون
الاقنعة يتسابقون الى أعلى أقرب تل لينادوا الشمس - لتوسوا

* سكان البلاد الاصليون .

اليها - لكي تظهر وهم يرتعدون خشية انها بصدفة ما قد لا تأتي ثانية . كان المطر بالنسبة اليهم مليئا بأرواح الذكور التي تدخل الارض وتخصبها . وكانت ومضات البرق هي النظرات الغاضبة للرئيس غير المرئي . كانت الاوراق على الاشجار تتكلم ، مثل شفاه البشر تماما ، وكانت عجائز عديدات يفهمن ما نقوله . وحينما كان هؤلاء الاروميون يعبرون نهرا فان النهر هو الذي يسحبهم اليه ليفرقهم الا أنهم كانوا يستجمعون قواهم ويمرون عبر التيار دون سرعة كبيرة ثم يتلوون ضحكا حين يصلون الى الضفة المقابلة لأنهم اجتازوه بأمان . كانت الاشياء كلها تتكلم وتجع وتسمع ولها جنسها وتزواج . كان الهواء مليئا بكثافة بأرواح الموتى ، ومن أجل ازاحتها جانبا كان هؤلاء الناس يتفرقون ويحركون أذرعهم حين يسيرون وكأنهم يسبحون . لهذا استطاعوا رؤية الحقيقي بهذا الوضوح خلف الظاهر ، وعروا القناع الأزلي المتخفي وراء الوجه الزائل .

جاءت فتاة ووقفت الى جانبي وبدأت تتفرج ، مثلي ، على الأقنعة . لوهلة كنت على وشك الخروج لأنني أحس دائما بانزعاج معين حين أكون وحيدا أو أتفرج على شيء يؤثر فيّ ثم يأتي شخص ما ليتفرج عليه أيضا . كانت قصيرة وبدينة ولها صدر بارز وذقن قوية وأنف صقري وعينان برموش كبيرة .

التفتت وألقت علي نظرة متأملة طويلة وكأنني كنت أنا الآخر قناعا .

سألتنني : هل أنت أفريقي ؟
 فضحكت ، وأجبت : لست أفريقيا كاملا . قلبي فقط .
 قالت : ووجهك أيضا . ويداك ... أنا يهودية .
 قلت لأثيرها : شعب مرعب . خطر . يتظاهر انه يريد ان ينقذ العالم ... أما زلتم تنتظرون المسيح ؟
 - لا . لقد جاء .
 . المسيح ؟
 - نعم المسيح .

ضحكت ثانية : متى ؟ وأين ؟ ما اسمه ؟

- لينين •

• كان صوتها قد أصبح بغتة عميقا وأصبحت عيناها كئيبتين •

لينين ! للحظة بدا لي ان الاقنعة كلها امامي قد تحركت
وقضقت بفكوكها الكبيرة المفتوحة • ودون كلام راحت الفتاة
تتطلع عبر النافذة الى السماء القاتمة •

نعم ، قلت لنفسي ، كان لينين مخلصا جديدا آخر ، مخلصا
جديدا آخر خلقه المستعبدون والجائعون والمضطهدون ليمكنهم من
تحمل العبوية والجوع والاضطهاد - قناعا جديدا آخر لياس البشر
وأملهم •

- أعرف مسيحا آخر يخلص الانسان من الجوع ومن التخمة
أيضا ، من الظلم ومن العدل أيضا ، و - وهذا هو الهم - من كل
المسيحات •

• واسمه

- بوذا !

ابتسمت بازدياء ثم قالت بصوت غاضب « سمعت عنه • انه
شبح • أما مسيحي فمصنوع من لحم ودم » •

لقد تفجرت • وتصاعدت الرائحة الواخزة لجسدها المتعرق من
بلوزتها المفتوحة • وثاقلت عيناها لوهلة •

قلت وأنا ألمس ذراعها : « لا تغضبي • انت امرأة وأنا رجل •
نستطيع ان نصل الى حيث يفهم كل منا الآخر •
تطلعت الي بعينيها نصف المغمضتين وحاجباها يرتعشان •

- « هذا المكان مقبرة » قالت ذلك وهي تتطلع الآن الى الأقنعة
والى الآلهة الخشبية والاسلحة الغريبة التي تحيط بنا « مقبرة ،
انني أختنق هنا • المطر يتساقط في الخارج • تعال • دعنا نتبلل » •

قضينا ساعات في المطر ونحن نسير تحت أشجار الحديقة

الواسعة • كانت عائدة من روسيا منذ عدة أيام - من الفردوس
وكان كيائها كله يشع حبا وكراهية ضارية • وكان اسمها ايتكا •

استمعت اليها • في البدء كنت أقدم احتجاجات لكنني سرعان
ما أدركت ان الايمان يسيطر ويتحكم من مكان سام أعلى من رأس
الانسان وان العقل عاجز عن لمسه • تركتها لذلك تسترسل في
حديثها • وتركتها تهدم العالم وتعيد بناءه •

اقرب المساء • وقل عدد المتسكعين وأضيئت الانوار • وبدا بغتة
ان الناس والبيوت والاشجار قد غرقت في المطر المضيء •

« تعبت » قالت الفتاة وهي تميل على ذراعي • « دعنا نذهب
الى غرفتي » •

تركنا الحديقة وسرنا في الازقة الضيقة ووصلنا الى هي
العمال •

- ستلتقي بثلاث من صديقاتي • سنتناول الشاي معا هذا
المساء • الاولى رسامة • انها تتصارع مع الالوان • تصنع شيئا ثم
تمحوه • انها تبحث لكنها لا تعرف عم تبحث • وهي تقول (عندما
أجده سأعرف ما الذي أبحث عنه) اسمها دينا وهي يهودية •
ال اخرى ممثلة ، وهي تبحث مثل دينا تماما • انها تتقمص كل
شخصية تمثلها ولكن حين تنتهي وتخرج منها فانها تمزق نفسها
اربا • اسمها ليا وهي يهودية أيضا • الثالثة جميلة جدا لكنها
مفسدة ومتكلفة • والدها الغني يواصل مدها بالمال وهي تنتقي
فساتين سهرة وتشتري العطور وتختار الرجال الذين تريدهم وتنام
معهم • اسمها روزا • وهي ليست يهودية بل من فيينا • انني
أحبها ولا أعرف لماذا ••

صمتت للحظة ثم أضافت : « ربما لأنني أحب أن أتشبه بها •
من يدري ؟

تظاهرت انني لم أسمع ، ولكنني في أعماقي سررت سرا لأن
اسمع صوت الانثى الابدية يعلو على الافكار والنظريات حول تدمير
العالم واعادة بنائه •

كانت الصديقات قد وصلن • روزا اشترت الحلويات والفاكهة •
وقد أعدت المائدة وكن ينتظرن ، وروزا تضع أحمر الشفاه وقد تمددت
على أريكة بينما كانت الاثنتان الاخريان تقرأن بشغف في صحيفة
مددتها أمامهما • كان الناس مهتاجين مرة أخرى والعالم في نوبة
حمى •

فيما كنت أراقب الارواح الاربعة المتوحشة المحيطة بي رحمت
أفكر : بورك حظي الذي يلقي بي دائما بين اليهود • أظن أنهم
يلائمونني أكثر من المسيحيين •
أطلقت الفتيات الثلاث صرخة حين دخلنا • لم يكن يتوقعن
رجلا •

قالت ايتكا ضاحكة : « انني حتى لا أعرف اسمه • وجدته في
المتحف الاثنولوجي * • انه قناع • »

عدلت روزا جلستها وامتلأ الجو بالشذى • لقد جعلتني رائحة
الانفاس الدافئة والشباب المتعجل أمرض فوراً • لا أعرف لماذا •
ولكن حين وجدت نفسي بين هذا العدد من الصدور الانثوية وهذا
العدد من العيون القلقة والشفاه المتبرجة فانني امتلأت بالخجل
والخوف • كنت أفضل أن أنصرف ولكن الشاي جلب فجلسنا على
وسائد على الارض وركبنا متلاصقة • الآن ، وبعد سنوات طويلة ،
لا أتذكر من هذه الأمسية كلها - تلك الأمسية التي أثقلت علي
كثيراً - الا ايتكا وهي تتحدث بحماس عن موسكو ، عاصمة العالم
الحمراء ، وروزا تضحك وتعيد صبغ شفثيها بعد ان شربت الشاي ،
والبنتين الأخريين تحدقان بعيون جاحظة ولا تقولان شيئاً •

حل الليل • ونهضت الفتيات الثلاث لينصرفن • نهضت معهن
لكن ايتكا شدت على ذراعي وأشارت لي بالبقاء • بقيت • وفي تلك
الليلة بدأ بوذا يشحب في داخلي • أدركت في تلك الليلة ان العالم
ليس طيفا وان جسد المرأة حار ومليء بمياه الخلود وان الموت غير
موجود •

* الاثنولوجيا : علم الاتوام والاجناس البشرية .

بقيت معها عدة ليال . لم تقل كلمة واحدة عن الحب ، ولم
يجرؤ القلب على افساد العابنا العارية المقدسة بتنهدياته وتعهداته .
لا شيء الآن الا الاجساد ، مثل الحيوانات ، كنا نتعارك ثم نفرق في
نوم عميق منهكين وفرحين . أه | بوذا | بوذا | كنت أفكر وأضحك .

أية راحة تتحقق حينما لا يتورط اللحم في الاهتمامات الروحية
بل يبقى على الارض نقيا ونظيفا مثل حيوان . لقد مرغت المسيحية
اتحاد الرجل بالمرأة حينما وصمته بالخطيئة . وبعد ان كان في
الماضي عملا قدسيا ، وخضوعا مفرحا لارادة الله ، حطت المسيحية
من قيمته وجعلته تجاوزا . قبل المسيح كان الجنس تفاعلة حمراء
ثم جاء المسيح فدخلت دودة الى تلك التفاعلة وبدأت تأكلها .

كنت أتطلع باعجاب الى هذه الفتاة المتأججة . طوال الليل
تكون وحشا نهما أكلا للذكر وكل ذرة في روحها قد تحولت الى لحم ،
بينما تظل طوال النهار لهبا من النقاء الخالص . ذكرتني بامرأة
استثنائية أخرى ، كانت مثلها اما ان تكون كلها جسدا واما ان
تكون كلها روحا ، انها القديسة تيريسا . ذات يوم رأتها راهبات
ديرها وهي تلتهم بنهم حجلا محمرا . روعت الراهبات الساذجات
لكن القديسة تيريسا ضحكت . وقالت « عند الصلاة صلاة . وعند
الحجل حجل ! » كانت تمنح نفسها بكليتها الى كل من العاملين
لتغذي جسدها وروحها بالنهم ذاته .

كانت ايتكا تلعب معي طوال الليل ولكن حين يأتي النهار كانت
تقطب حاجبيها وتنظر الي بكراهية . وتسالني دائما : « ألسنت خجلا
من كونك مرتاحا وغنيا ؟ دون أن تجوع أو ترتجف بردا في الشتاء
ودون ان يكون لديك حذاء مهترىء ؟ ألا تخجل من التسكع في الشوارع
وأنت تقول لنفسك : العالم جميل وأنا أحبه ؟ »

وأقول لها : أنا لا أقول ان العالم جميل وأنا أحبه . أقول ان
العالم سلسلة أطيايف . الجوع والبرد والحذاء (المثقوب أو ما هو
دون ثقوب) هي أطيايف . ستهب عليها نسمة وتبددها كلها .
هذا ما أقوله .

هاجمتني بعنف وأغلقت فمي براحتها : « اسكت ! اسكت !
لا أريد أن أسمع أية كلمة أخرى • أيمن ان يكون صحيحا اذن انكم
أنتم الاثرياء ، كلكم لا قلوب لديكم تحسّون فيها بالعطف ؟ أليس،
لدى أي منكم عينان يرى بهما ؟ تعال انظر ! »

أخذتني وقادتني عبر الحي البروليتاري • كان كل شخص
يعرفها • دخلت الى الاكواخ البائسة وجعلتني أرى الاطفال الجائعين
والامهات الباقيات والرجال العاطلين عن العمل جالسين بصمت وهم
يعضون شفاههم • وحين كنت أطرح عليهم أسئلة كانوا يتأملونني
من رأسي الى قدمي ثم يحولون وجوههم عني •

سألت ايتكا : « لماذا لا يتكلمون ؟ لماذا ؟ »

- « انهم يتكلمون فعلا • انهم يجارون - ولكن كيف لمثلك ان
يسمعهم ؟ ولكن لا تخف ذات يوم ستسمعهم بوضوح تام • » وثبتت
عينها علي أملة ان ترى معاناة البشر وقد تغلغت في ..

لكنني أجبته ساخرا : « يا للخجل انني أنا أيضا لا أمتص أي
نوع من السكاكر أحلي به رريقي ، أحد تلك المنتجات اللذيذة للفن
الانساني الحلواني : الله ، وأرض الوطن ، وصديقك المفضل كارل
ماركس • ذات يوم التقيت بأسعد انسان في العالم • كان يمتص
سكرتين في أن معا : المسيح وماركس • فلكونه مسيحيا متعصبا
وشيوعيا متعصبا أيضا استطاع ان يحل كافة الاشكالات في الحياة ،
الارضية والسماوية •

كنت قد بدأت ممازحا ولكن وأنا أتكلم أحسست بالعطف والحرارة
يثقلان روحي • ومن باب الاحساس الكاذب باحترام النفس لم أشأ
أن أكشف عنهما وأصررت على معارضتها والمفاخرة برفض استقاء
العزاء من امتصاص السكاكر •

« أنا لا أريد أيا من هذه المريحات • كل ايمان يعد بالجزاء
وبالسعادة يبدو لي عزاء جبانا لا يصلح الا للمخرفين والضعفاء
والنباتيين » •

- « انا لست خرفة ولست كسيحة أو نباتية » • ردت رفيقتي غاضبة • « توقف عن تبجحك • بوذا الذي لديك سكرة أخرى مثل البقية • وأكثر من ذلك أريد أن تعرف أنني لا أريد أن أراك أو أسمعك بعد الآن » •

نفضت رأسها بغضب وتركت ذراعي ثم دخلت في أول شارع صادفناه وتركتني •

ولكن عند المساء تبتسم شفتاها اليهوديتان المليئتان : « كل ما قلناه خلال النهار - ماء فوق السد » هكذا اعتادت ان تهتف ضاحكة كل مساء « الآن انه الليل ! » •

كنا نفترق كل صباح • هي تذهب الى المعمل حيث تشتغل وأنا تعودت المشي وحيدا في الاحياء الفقيرة • لم أكن أشاء ان أذهب الى هناك مرة أخرى في وجود ايتكا لانني حين أكون معها كانت كبريائي تجعلني أقاوم وأغلق قلبي • ولكن حين أكون وحيدا لا تعود معاناة البشر سلسلة من الاطياف • لم تعد ظلا بل حقيقة ، انها جسد جائع يتألم وينزف •

يا رب لا تنزل على الانسان كل ما يستطيع تحمله ! لم أكن أعرف ان هذا القدر من الالم ومن الجوع والظلم موجود في العالم • لم يسبق لي حتى الان ان التقيت بهذا الوجه الرهيب للحاجة بهذا القدر من القرب • ان قائمة أخرى من القوانين هي التي تتحكم هنا ، والكراهية في الدرجة الاولى • لا بد ان تتغير الوصايا العشر هنا - بل لقد تغيرت • لقد صار للحب والكرهية والحرب والاخلاق معاني جديدة • ذات يوم رايت امرأة هزيلة ممددة على الرصيف • وكانت اسمالها قد انحسرت فكشفت عورتها • ولأنني أشفقت عليها توقفت لأقول لها ان تسحب ثوبها • قلت : « انت غير محتشمة » • فهزت كتفيها وارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة « انا جائعة وانت تتحدث عن الاحتشام • الحياء للأغنياء » •

لم أستطع تحمل هذا القدر من الرعب - خدان غائران من الجوع ، اطفال هزيلون ينقبون في أكوام النفايات لكي يعثروا على الفتات الذي لم يؤكل ، بطونهم خضراء ومنتفخة ، وأرجلهم ليست أكثر

من عظام ملفوفة بصباغ أصفر • بعضهم يتكئون على عكازات لأن أرجلهم لم تعد قادرة على حملهم وبعضهم كانت لديه لحي نامية على خدودهم الطرية •

ولعجزي عن تحمل الامر أكثر من ذلك حولت عيني لكي لا أرى لأنني أحسست بالخلج •

أذكر ذلك جيدا : قبل العطف على البشر أحسست بذلك الخجل الداخلي • خجلت لرؤيتي العذاب الانساني في الوقت الذي كنت فيه أجهد لتحويل هذا الرعب كله الى مشهد زائل وعبثي • كنت أقول لنفسي ان لا شيء من هذا حقيقي • وانني يجب أن لا أضل بحيث أومن ، مثلما يفعل أي شخص بسيط وساذج • لا • ان الجوع والتخمة ، الفرح والحزن ، الحياة والموت - كلها أطياف ! كنت أقول هذا وأكرره ، ولكنني حين رأيت الاطفال الجائعين الباكين والنساء بخدودهن الغائرة وعيونهن المليئة بالكراهية والالام بدأ قلبي يذوب تدريجيا • وبانفعال شديد صرت ألاحظ هذا التغير المفاجيء في داخلي • في البدء خفق الخجل في قلبي وبعده العطف • بدأت أحس بعذابات الآخرين كما أحس بعذاباتي • ثم جاء بعده السخط والنقمة ، ثم التوق الى العدالة ، وفوق كل شيء آخر ، الاحساس بالمسؤولية • انني المسؤول عن كل ما في العالم من جوع وظلم وقلت لنفسني : هذه مسؤوليتي •

ماذا علي أن أفعل ؟ رأيت واجبي يتحول • كان العالم يتوسع : والحاجة أكبر من ان يسيطر عليها ، والواجب الذي يحس مسجون ومخنوق في جسد صغير واحد ، في روح صغيرة واحدة • ما الذي علي أن أقوم به ؟ وأية وجهة أسلك ؟ في أعماقي كنت قد عرفت ما علي ان أفعله لكنني لم أجرؤ على الكشف عنه • بدا ان هذا الطريق ضد طبيعتي • ولم أكن واثقا مما اذا كان الانسان ، بالحب والجهد ، قادرا على تجاوز نزعته الطبيعية • لكنني فكرت في الامر • تساءلت ما اذا كان لديه الكثير من القوة الخلاقة ؟ ان كان لديه فانه اذن بلا تبرير مقبول ان لم يسع في اللحظات الحاسمة لتحطيم حدوده • خلال تلك الأيام الصعبة ، حين كنت أجاهد ضد طبيعتي من أجل تجاوز نفسي الكريهة ومن أجل تحمل الآلام للتخفيف من العذاب

الانساني ورد الى ذهني نموذج للتضحية والحب استثنائي في نبهه -
كان يبدو كأنه راغب في ان يدلني على طريقي . وتذكرت ما قاله
لي ذات يوم : « علينا ان نهتم دائما بصرخة انسان يطلب العون » .

حين دخلت اول مرة ازقة أسيسي الضيقة خلال جولتي في
ايطاليا وسمعت الاجراس تقرر بمرح (كانت صلاة
المساء) من برج الاجراس في كنيسة القديس فرانسيس
ومن رجل الله المسكين ، ومن دير القديسة كلير الصغير
أحسست بسعادة لا توصف ، وعندما أقممت في قصر الكونتيسة
العجوز ايريشيتا ، ظلت في تلك المدينة المقدسة أشهرا عديدة
غير راغب في مغادرتها . والآن في هذه الايام الصعبة التي كانت
فيها روحي تحاول ان تكافح لكي تسمو أعلى قليلا انفتح قلبي
واندفعت منه أسيسي . برز ابن برناردون الاشعث الحافي الى
الضوء في تلك الايام العصيبة ، وخطا الى المقدمة ثم أشار الى
طريقي بيده . لم يكن طريقا بل مرتقى صخريا شديد الانحدار .
لكن الهواء من حوله كان محملا بأريج القدسية الحلو .

تذكرت اليوم الغائم الذي تسلقت فيه ديلا فيرنا جبل استشهاد
فرانسيس ومجده . كانت ريح جليدية عنيفة تهب وكانت الصخور
شهباء وعارية ، خالية من العشب . والاشجار العارية كانت كلها
سوداء . المنطقة كلها تئن متعذبة وقاسية - لا شيء الا الفقر
والقفر والعزلة . كانت الظلمة تقترب ، والضوء كان خافتا دون
اللق ، وكانت القمة ما تزال تلوح من فوقي . حاولت دون جدوى ان
أركز رغبتي وأن استثير قوتي كلها وأنا أحس بالم يسيطر على
جسدي المتجدد الجائع ، الذي كان على وشك ان يداهمه الليل في
هذا القفر . وبغته حدثت المعجزة . بدا ان هذه المنطقة للانسانية
لللامزهرة من حولي قد انتقلت من مكانها ، صعدت الخطوة السرية
التي يتوق الواقع كله سرا لصعودها ، وأحسست ان من حولي هنا
كان الفقر - الفقر الفرانسيسي - قاسيا على الجسد ، عديم
الرحمة بعبادات الانسان المقبولة وبمتعة الكسول المسفة .

لقد كان هذا القديس هو ذاته الذي أمات لحمه ، وانكر متع
الحواس الخمس وألقى بالرماد على طعامه حينما أحس بالشيطان
الداخلي الشره يلحق شرائح اللحم أمامه . كان يلقي بنفسه في جداول

جليدية في عز الشتاء ويبقى طوال الليل سهرانا ويظل جائعا وبردانا -
عذب جسده الطيني بهذه الكثرة وحين أشفق عليه على فراش
الموت التفت وقال : « اغفر لي يا أخي الحمار فلقد عذبتك كثيرا » .

لكن هذا الفقر كان فرانسيسيا . أي انه كان واثقا من غناه ،
ومن الربيع السري الذي كان يهيئه ومن الصيف الدافئ المحمل
بalthar الذي يختفي في داخله . وبغته تفتح في ذهني جبل فيرنا
المقفر الاجرد في ذلك المساء وتحول الى مشهد ساحر من فردوسنا
الداخلي ، مشهد مخوضر شذي مغطى في ضواحيه كلها بالنحل
والفراش وبدأت الآن أتسلق الجبل المعاد خلقه من جديد وأنا أصرخ
« بوركت يا أخت لافيرنا ، أيتها الأخت الفقير » .

جاء الربيع . كيف لي أن أغادر ؟ كنت أعيش سعيدا في مواجهة
دير القديسة كلير الصغير في قصر الكونتيسة ايريشيتا العجوز
التي كانت مشبعة بالمتعة والبهاء الفرنسيين . لم يسبق لي
ان تعرفت على هذا التطابق بين القديس فرانسيس وبين الربيع
بهذا العمق ، ذلك انه بين المقولات الفرنسيية العظيمة الثلاث
عن الفقر والطهارة والطاعة ، لم يكن بينها ما يتلاءم كليا مع روح
فرانسيس النقية المبعوثة أبدا مثل مقولة الربيع العظيمة عن
الطهارة . في أية منطقة أخرى كان حريا بالربيع ان يوقظ روح
الانسان المفتونة التواقفة الى ذكرى الشباب والمرأة التي أحب ،
وابنته الصغيرة : وان يبعث على الاستياء : لم تكون الطبيعة متجددة
الانبعاث الى هذا الحد بينما يعجز الناس عن استعادة شبابهم !!
انه لا بد ان يجعل روح الانسان تحسد الجبال والوديان لأنها
« لا تنتظر الموت ولا تعرف الشيخوخة » الا ان الربيع في أسيسي
يأخذ بالضرورة ويفرح هيئة فرانسيس هذه التربة الامبرية * ،
التربة التي كان لها حسن حظ انتاج فاكهة كهذه ، تزداد اتساعا
وغنى ، انها تبشر بزريع مزدوج أو ثلاثي فيه كل زهرة أسيسية
تسمو ، دون أن تفقد بأي شكل مصيرها السعيد ، لتصبح رمزا
قدسيا لازدهار روح الانسان .

★ نسبة الى « امبريا » المقاطعة الايطالية .

كان فرنسيس واحدا من الاوائل ، كان الزهرة المكتملة الاولى التي تنبعث من شتاء العصور الوسطى المحروث بأشكال عديدة . كان قلبه بسيطا وسعيدا وطاهرا . وكانت عيناه ، مثل عيون الاطفال والشعراء العظام ، تريان العالم دائما للمرة الاولى . لا بد ان فرانسيس كان كثيرا ما يتحدق الى حشرة ، أو زهرة بسيطة أو ينبوع ماء ثم يجد عينيه مليئين بالدموع . ولا بد انه فكر بينه وبين نفسه : أي منظر هذا ؟ وأي متعة ؟ وأي أسرار قدسية هي الزهور والمياه والحشرات ؟! بعد قرون عديدة كان فرانسيس أول من يرى العالم بعينين عذراوين . لقد سقط درع العصور الوسطى السكولاستي * الثقيل غير العملي ، وظل الجسد والروح عاريين معرضين لرجفات الربيع كلها .

زرت أسيسي بعد عدة شهور عاجزا عن البقاء بعيدا عنها . كان السهل المدني بكرومه العديدة وكروم التين وغابات الزيتون محملا بالثمار الآن . عبرته وحيدا متنقلا من قرية الى أخرى مستمتعا بالتربة الخصبة الباهرة بهدوء صامت : الارض المقدسة الولود التي تحملت الام الحراثة والعزق باستسلام صامت وما هي الآن تضطجع مسترخية مغنبطة وحضنها يفيض بالثمار . تحس أنها راضية ورخية لأنها أدت واجبها ، فبانصياعها للقوانين الأزلية وبمرورها الواثق الصبور عبر مراحل التأمل والمعاناة كلها ، استطاعت ان تنجز هذا الجنى الخريفي الثري الخاص بها .

بغثة ، ومن دون أي جهد مقصود ، وجدت نفسي أتعرف مرة أخرى على المعنى العميق للطاعة ، المبدأ الفرانسيسي الاساسي الثالث . اطاعة الاشارة الصارمة ونكران أنفسنا لثقتنا بالقوى السامية التي تحيط بنا والتي فينا ، القوى المرئية والخفية ، ونحن راسخون في ايماننا بأنها تعرف كل شيء بينما نحن لا نعرف شيئا - هذا هو الطريق الوحيد الى انماء . الطرق الأخرى كلها مجدبة وخادعة لأنها لا تؤدي الى أي مكان ، بل تكتفي بأن تعيدنا الى النفس البائسة اللعينة بعد الخواء والتهيه الصلف .

* فلسفة سائدة في العصور الوسطى اتصفت باخضاع الفلسفة للاهوت . من أبرز ممثليها توما الاكوييني .

وهكذا حدث ان نهض فرانسيس ثانية من هذه الارض التي كان مفتونا بها . لقد رأيتة مستلقيا على الارض تماما مثلما حدث في ذلك الصباح الباكر الذي وجده فيه الرهبان مفترشا أرض حديقة القديسة كلير وهو يغني تمجيداته للشمس والنار والماء . . . ويموت . لقد كان سعيدا . ولقد ألزم نفسه بقوانين أزلية . وملأ يديه بالثمار ، ومثل عامل طيب كان عائدا الى مولاه .

خلال تلك الشهور التي كنت فيها اتجول في أزقة أسيسي وفي الحقول النائية أو أتأمل لوحات القصر العظيم لـ (الرجل المسكين) أتذكر أنني ظلت أجاهد لكي أتعرف بنفسي على ربيع كهذا أو خريف مثله قدر ما أستطيع . أية سنوات شباب نهمة مستعصية كانت !! في كل صباح كنت أنطلق ، سعيدا ويائسا ، مع بزوغ الفجر للتطواف في تلك المنطقة المقدسة وكنت أشعر بما لا بد ان يشعر به أي شاب وبما أحس به ذلك الاسبارطي الشاب الذي رأى الثعلب قريبا من لحمه العاري فلم يتكلم ولم يصرخ على الرغم من ان جسده كان ممزقا - لقد كان يتألم فخورا لمعرفته بأنه نجح في السيطرة على الهه .

ودون أن أكون راغبا في الامر لا بد أن وجهي قد كشف عن كفاحي وألمي لأنني ذات صباح وأنا أغادر المدينة من بوابة القديسة كلير أوقفني رجل نحيل طويل بدأ شعره الاشقر يشيب . ورغم انني كثيرا ما كنت أراه يتجول مثلي في تلك المنطقة التي كانت تجتذب الكثير من الحجاج الا اننا لم يسبق ان تبادلنا أية كلمة . كنا نكتفي بأن يبتسم كل منا للآخر بأدب كلما تقاطعت دروبنا ثم نتابع سيرنا دون كلام - كنا نمشي بالمزيد من الخفة ، كطريقة في الكلام ، وكان كلا منا كان يرغب في أن لا يفسد على الآخر عزلته وهدوءه .

ولكن في ذلك الصباح توقف هذا الغريب المجهول وتطلع الي وبعد لحظة من التردد سألتني : « هل تحب ان نتمشى قليلا معا ؟ »
- نعم . أحب .

وبعد ان سرنا عدة خطوات قلت له : « أنا من اليونان . لقد جئت الى أسيسي ووقعت في هوى القديس فرانسيس » .

وأجاب الغريب : « أنا من الطرف الآخر من أوروبا • من
الدانمرك • أنا الآخر وقعت في هوى القديس فرانسيس • لقد عشت
هنا في أسيسي سنوات عاجزا عن الرحيل • اسمي جورجسن » •

أجفت : « أنت الذي كتب الكتاب الرائع عن فرانسيس ؟ »

ابتسم جورجسن بمرارة وهز رأسه : « من ذا الذي يستطيع
ان ينصف القديس فرانسيس ؟ حتى دانتي لا يستطيع • هل
تعرف الفصل الحادي عشر من باراديزو ★ ؟ »

فرحت • في تلك الايام ذاتها كنت قد أحببت هذا الفصل جدا
جارفا وفيما كنت أقوم بمشاويري وحيدا أعبر شوارع أسيسي أو
في الريف المحيط بها كثيرا ما كنت أتمتم بأبيات مطلعها :

يا علاج الفانين الاحمق

ما أكذب الحجج التي

تجعلك تتحدر وأنت تضرب جناحك !

وبدانا ، معا ، نستظهر الايطالي المدهش ، وقد توحدنا ، بغتة
في أخوة تحت جناح الشعر العظيم • سلطنا الطريق العالي المطل
على الوهد بكرومه وغابات زيتونه الوافرة • كانت الشمس قد
أشرقت الآن وأضاعت العالم فملأته بظلال مديدة • صمتنا لبعض
الوقت • وأخيرا التفت الي مرافقي وسألني : « لماذا تحب القديس
فرانسيس ؟ »

لكنه أسف فورا لما فعل فقال : « اعذرني • لقد كنت مشتتا » •

أجبتة : « أحبه لسببين : الاول لأنه شاعر ، واحد من أعظم
شعراء ما قبل النهضة • وبانكبابه على أتفه مخلوقات الله سمع
العنصر الخالد الذي تحتويه في أعماقها : الاتساق •

« والثاني ؟ » سأل جورجسن •

★ الجنة — فصل من الكوميديا الالهية .

- ثانياً أحبه لأنه بالحب وبمبدأ الزهد استطاعت روحه ان تقهر الواقع - الجوع والبرد والمرض والصنف والظلم والبشاعة (ما يسميه الناس الذين لا أجنحة لهم واقعا) - ونجحت في ان تحول هذا الواقع الى حلم مفرح محسوس أكثر حقيقة من الحقيقة ذاتها .
لقد اكتشف السر الذي كان كيميائيو العصور الوسطى يبحثون عنه بشغف : كيف تحول حتى أحقر المعادن الى ذهب ؟ لماذا ؟ لأن « حجر الفيلسوف » بالنسبة لفرانسيس لم تكن شيئاً مستحيلاً أو خارجاً عن الانسان لا يمكن العثور عليه الا ببلبلة القوانين الطبيعية ، ان الحجر قلب الانسان . وهكذا ، ومن خلال هذه المعجزة في الكيمياء السرية استطاع ان يخضع الواقع ، ان يحرر الانسان من الضرورة ، وان يحول ، داخليا ، لحمه كله الى روح ، ان القديس فرانسيس بالنسبة لي هو الجنرال العظيم الذي غود الرعايا البشرية الى نصر غير مشروط . »

- اليس هناك شيء آخر ؟

أجبتة : أنا أعرف ما الذي تريد أن تسألني عنه . لا . لا شيء آخر . جنرال وشاعر - لا شيء غير هذا .

صمتنا من جديد لكن سرعان ما قال جو رجنسن : « هذا لا يكفي » . وعلى الرغم من انه بدأ يرفع يده وكأنه يرغب في لمس كتفي وفي استرضائي لصالح اعلائه البليد هذا الا انه أبقاها في الجو وكرر بمزيد من الصرامة هذه المرة : « لا . هذا لا يكفي » .

كنت سأرد ولكنني ضبطت نفسي خشية أن أقول شيئاً فظا .
قال جورجنسن وكأنه يكمل فكرة صامته « لهذا يبدو وجهك متعباً جداً . انك ما تزال تكافح . لم تحقق خلاصك بعد . وهذا الكفاح يهكك يوماً بعد الاخر . هذا هو السبب الذي جعلني أوقفك هذا الصباح وتحدث اليك . »

- « على فرض انك تستطيع ان تساعدني في كفاحي ؟ » سألته بصوت جاء ، رغماً عني ، مليئاً بالغضب والسخرية .

ذابت . اننا نتكلم أحياناً قبل ان تجد أرواحنا الفرصة للسيطرة على الجسد .

قال جورجيسن « اضبط نفسك . أنا لا أستطيع أن أساعدك .
على كل انسان أن يجد طريقه الخاص به وان ينقذ نفسه . مم ؟
من الآني . ينقذ نفسه من الآني ويعثر على الآلي » .

قلت ، وأنا ما أزال مغتاضا : « من وجهك الصافي ومن مشيتك
الهائلة الواثقة ولهجتك اللطيفة دائما يبدو انك قد عثرت على
طريقك . ولا شك انك تنظر الينا ، نحن انبقيّة ، بشفقة بل وربما
بتعطف - نحن البقية التي ما تزال تكاهج ، ربما كنت قد ولدت
متميزا بمواصفات متوازنة ولم تعر أي كفاح في حياتك » .

توقف جورجيسن ونظر الي لوهلة . مد يده بتصميم هذه المرة ،
وكانه يمهدها الى غريق ، وأمسكني من ذراعي . قال : « ما تزال
شابا . لقد كنت ذات مرة شابا وأنا أعرف انك عديم الصبر . ما
يزال ينقصك التواضع وما تزال ترفض ان تتنازل لطلب المساعدة .
اسمح لي أن أقول لك شيئا . انني لم أولد متميزا . لقد عرفت معنى
الام والكفاح والعجرفة جيدا . حين كنت شابا مثلك كانت لدي
مطامح شيطانية عظيمة . كنبت روايات مليئة بالفجور والعواطف
وانسغرية . ومع الأيام صار الفن ينساقي كثيرا . وحين كرست
نفسي للعلم تحولت الى داعية متعصب للداروينية ولكل فكرة
عادية للمسيحية . كنت أريد أن أعظم الكنيسة والدولة والاخلاق
- الاغلال كلها . تربعت على عرشي في 'ة' ب الحياة وأعلنت « الحرب
على العدو التقليدي » وكان العدو لتقليدي هو تسميتي لله . كتبت
والقبت الخطابات في كل مكان . ركضت وركضت والراية في يدي .
لكذني بغتة توقفت وسكت . بدأ ضيق مفاجيء وغير مفهوم يقلق
فؤادي . غادرت الدانمرك لكي أهرب من أصدقائي ومن عاداتي
القديمية ورحلت الى ألمانيا ثم توجهت الى ايطاليا وجئت الى
أسيسي » وابتسم « كان ذلك منذ ثلاثين عاما . لقد قضيت الاعوام
الثلاثين الفائتة هنا في أسيسي تحت ظل فرانسيس . الحمد لله » .

قلت وقد تأثرت بعمق : « ثم ؟ انني لم أقرأ أيا من كتبك
باستثناء القديس فرانسيس » ؟

« هذا أحسن . لقد نشرت كتاب رحلات تحدثت فيه (أو بالاحرى حاولت أن أتحدث) عن الشعور الذي شعرت به عند رؤيتي المدين القديمة بقلعها وكنائسها ولوحاتها ٠٠٠ كنت قد ذهبت من قبل الى دير بنديكتين لكنه أخافني فغادرته فوراً صباح اليوم التالي . وعلى الرغم من ان عشاء الرهبان الهادىء المبهج كان يبدو لي جميلاً وجذاباً ، ومتناقضاً تماماً مع الحياة التي كنت أعيشها ، وعلى الرغم من انه مكنتني للمرة الاولى أن أرى الطريق الذي يؤدي الى السعادة الا أنني ترددت في سلوك هذا الطريق » .

والتفت جورجسن وأشار بفرح متوقد الى أسيسي المقدسة بجدرانها القديمة والاكروبولوس ★ المتهدم - روعا غراند - وكنيسة القديس فرانسيس الشبيهة بالحصن والمبنية على ثلاث مستويات . وسألني : « هل سنعود لرؤيتها ؟ »

سلكنا الطريق الذي يعود بنا الى أسيسي . كان الفلاحون النحيلون ذوو العيون المتوقدة يعبرون بنا تسبقهم أزواج الثيران ، ثيران أومبريا البيضاء الشهيرة ، وهي تسير متناقلة تحت النير ، وقرونها المعقوفة مكللة بسنابل القمح الناضجة . وحيثنا فلاحه صبية ذات شعر حالك السواد وبصوت جلي : « pax et bonum » رد جورجسن على قولها : «صباح الخير» وعلى الطريقة الفرانسيسية أشار الى البراسيليقا ★★ الكبيرة عند سفح أسيسي . في داخلها توجد كنيسة فرانسيس الصغيرة « بورزيونكولا » . قال : « هناك في بورزيونكولا ركعت على ركبتى لأول مرة مجبراً وذلك حين نظرت الى القديس والجروح الخمسة في جسده ، لكنني خجلت فنهضت وخرجت . ما الذي جعلني أركع؟ ما الذي حدث لي؟ وتابعت أسأل نفسي غاضباً . ولكن في الوقت ذاته غمر كياني الداخلي العميق احساس بالراحة لا يوصف . وسألت نفسي من جديد : لماذا ؟ لماذا ؟ لم أحس بهذا الارتياح ؟ والحقيقة ان هذه السعادة قد تجاوزت أي شيء تذوقته في حياتي حتى تلك اللحظة ، ولكن على الرغم من ذلك كان

★ الجزء الاعلى المحصن من مدينة اغريقية .
★★ كنيسة مبنية على شكل مستطيل في احد طرفيه جزء ناتئ نصف دائري .

في داخلي شيء لا يريد ان يؤمن . كان هذا الشيء يحتقر كل ما هو فوق الطبيعة وكان يضع ثقته وايمانه في شيء واحد فقط . في العقل البشري وفي كل ما يقوله العقل . وهذا ما وقف على باب قلبي ومنع المعجزة من الدخول » .

« طيب ، وبعد ذلك ؟ » سألت نافذاً الصبر ، وقد رأيت مرافقي يفرق في الصمت من جديد . « كيف جاءك الخلاص ؟ »

- بهدوء ودون ضجيج كما يأتي في معظم الاحيان . تماما كما تنضج الثمرة وتصبح حلوة ريانة كذلك نضج قلبي وصار حلوا ريانا . بغتة بدا كل شيء بسيطا ومؤكدا أمامي . وتوقفت الآلام والترددات والمعارك كلها . جلست عند قدمي فرانسيس ودخلت السماء . وفرانسيس ، فرانسيس نفسه ، هو (الاخ البواب) الذي فتح لي الباب .

اقتربنا أخيرا من أسيسي . كانت الشمس تشع على قلعة المدينة الملوثة بالدم ونصف المنهارة ، وكان جرس القديسة كلير المصفر ذو الصوت الفضي قد بدأ يقرع مرحا مهذارا مثل جبل الجبال

قال جورجسن « يجب أن تعذرني لأنني تحدثت عن نفسي كثيرا . اعتبره اعترافا . انني أكبر منك سنا وأنا أستمتع بالاعتراف لمن هم أصغر مني - لأن هذا هو النوع الوحيد من الاعتراف الذي ربما كانت له أية فائدة » .

ولكي أخفي انفعالي قلت ضاحكا : آه لو أن فرانسيس كان فعلا بواب السماء - أية فرحة انه كان سيدخل اليها القديسين والخاطئين ، المؤمنين والكفرة وحتى أصحاب الملايين . نعم وحتى أشنع أنواع الحيوانات ، الفئران والديدان والضباع » .

قال جورجسن دون ان يبتسم : « ستكون هذه فوضى . ليست فوضى فقط بل ستكون ظلما » .

مرزنا تحت بوابة الحصن • كان دير القديسة كلير على يسارنا
والبيت الذي أقيم فيه على يميننا •

قال مرافقي : « سأتي معك للحظة لكي أسلم على الكونتيسة
العجوز • أتذكرها في أول مجيئي • انها أجمل نبيلة في أسيسي •
لقد تزلزلت وهي فتية ولم تتزوج بعدها أبدا وأذكر أنها اعتادت أن
تمتطي جوادا أبيض لتفقد أملاكها - غابات الزيتون والكروم •
لو انها عاشت في أيام القديس فرانسيس لربما أصبحت قديسته
كلير » •

- أتساءل ان كانت تشاركك اعتقادك الديني

أجاب جورجسنن : « ألا ترى وجهها ؟ انه منور » •

صعدنا الدرجات • كان الطقس باردا في القصر الكبير وكانت
نار تتأجج في غرفة الكونتيسة • خادمتها ايرميلاندا بدأت تعد
المائدة الصغيرة الواطئة وتجلب القهوة والحليب وخبز الحنطة
لسيدها • وحين رأتنا أضافت قدحين اضافيين • وجلسنا •

نعم • لقد كان الوجه الارستقراطي المسن منورا فعلا • لقد
ظلت العينان المخمليتان الواسعتان حالكتي السواد دون أن يمسهما
الزمن • فتح الباب الموصل الى الحديقة وتلاأت شجيرة ورد مزدهرة
تحت ضوء الشمس •

« الى أين ذهبتما في هذا الصباح الباكر ؟ » سألت الكونتيسة
« أنا واثقة انكما كنتما تتحدثان عن القديس فرانسيس » •
« كيف عرفت ؟ » سأل جورجسنن وهو يتطلع الي مبتسما •

ضحكت الكونتيسة : « لأنني منذ لحظة ، حين خرجت الى
الحديقة ، رأيتهما من بعيد تتجهان الى هنا • وكنتما ، الاثنين ،
ملفعين باللهب ا »



بكم من الوضوح تعود الي تلك الايام في اسيسي بكل تفصيلها . انني لم اطلب معونة فرانسيس ولكن ها هو يركض ليريني الطريق . لو انني اجد القوة فقط . حين رأته يعانق المجذومين من بعيد هيمن علي القرف والخوف ، وحين رأته يتجول حافيا من أجل أن يعظ ، ووجهه مشع بالغبطة فيما الناس يسخرون منه ويضربونه ويلقون عليه الحجارة ، صار قلبي عاجزا عن المقاومة ، وعلى الرغم من انني كنت أعني ضعفتي فقد ظلت أقول لنفسي ، كل شيء الا هذا ! الافضل هو الموت فجأة في استشهاد فوري . . ان مواجهة الهزء والسخرية يوما بيوم مسألة تفوق احتمالي .

كنت دائما أجد الصلة المباشرة بالبشر مثيرة للضيق . لقد كنت تواقا لمساعدتهم قدر ما أستطيع ولكن عن بعد . وكنت أقوم بذلك بمتعة كبيرة . لقد أحببتهم كلهم وتعاطفت معهم كلهم ولكن عن بعد . وكلما اقتربت منهم كنت أجد انه من المستحيل علي ان اتسامح معهم طويلا - وكانوا يحسون الاحساس ذاته نحوي فنفترق . لدي حب جارف للعزلة والصمت . انني أستطيع أن أقضي ساعات وأنا أهدق الى النار أو البحر دون أن أحس بالحاجة لأية رفقة اضافية . . لقد كان هذان دائما أعز رفاقي وأحبهم ، وكلما أحببت امرأة أو فكرة فذلك لأنني كنت أجد فيهما الصفات الرئيسية للنار والبحر .

الاكثر من ذلك (قلت ذلك لنفسي لكي أبرر عجزتي عن انتهاج طريق فرانسيس الصاعد) كيف يمكن (لرجل الله المسكين) - دون كيشوت علوي آخر ببساطة ساذجة مشابهة ، ونقاء وحب مشابهيين - كيف يمكن لانسان كهذا ان يظهر ثانية على الارض في هذه الايام التي نعيش فيها أيام مامون ومولوخ ؟

قلت ذلك مرارا وتكرارا علي أعزني نفسي . ولم أكن أعرف ان (رجل الله المسكين) الجديد قد ظهر الآن على الارض ، وكان

★ مامون : شيطان الجشع وحب المال - مولوخ : اله سامي كانت عبادته تتطلب التضحية بالاطفال وذبهم .

المجدومون الذين يحيطون به هم الزنوج • ولو انني علمت به خلال تلك الايام التقليدية الحاسمة في برلين التي كانت تدفعني للتخلص من الكسل البوذي وتدفعني الى الفعل الثوري ، لشعرت بالمزيد من الخجل من جنبي • لقد علمت بعد ذلك بكثير ، - بكثير جدا - حين لم يعد من الممكن وربما لم يعد من المستحسن ، ان اغير حياتي ، حين كنت قد قررت نهائيا سلوك طريق مختلف كلياً من أجل أداء واجبي •

لقد سيطر علي الانفعال في ذلك الاصيل من آب حين سلكت ذلك الطريق الضيق الى قرية غونسباخ الصغيرة في الغابات الالزاسية • وحين قرعت الباب فتح لي القديس فرانسيس ، الذي هو ابن عصرنا ، الباب بنفسه ومد لي يده • كان صوته عميقاً ومريحاً • تطلع الي وهو يبتسم تحت شاربيه الكثيفين الشائبين • لقد سبق ان رأيت محاربين كريتيين عجائز مثله تماما - هليئين باللطف وبالارادة الصلبة •

كانت لحظة قد باركها القدر • انفتح قلب كل منا على الآخر • جلسنا معا حتى حلول الليل ونحن نتحدث عن المسيح وهوميروس وأفريقيا والجدام وباخ ، وقبيل المغرب ذهبنا الى الكنيسة الصغيرة في القرية •

« فلنبق صامتين » قال لي في الطريق وقد غمر وجهه القاسي انفعال عميق •

كان ذاهبا من أجل الارغن ليعزف عليه باخ • جلس ١٠٠٠ اعتقد ان تلك اللحظة واحدة من أسعد لحظات حياتي •

في طريق عودتنا ، حين رأيت زهرة برية على جانب الطريق توقعت لأقطفها •

« لا تفعل » قال وهو يمسك بيدي « هذه الزهرة حية ، يجب ان يكون لديك احترام للحياة » •

كانت نملة صغيرة تمشي على قبة سترته • أمسكها بلطف لا يوصف ووضعها على الارض وعلى جانب بعيد من الطريق لكي

لا يدوسها أحد • وعلى الرغم من انه لم يقل شيئا الا ان كلمتي « أختي النملة » كانتا على طرف لسانه ، من بين الكلمات اللطيفة الموروثة عن جده الاول في أسيسي •

افترقنا أخيرا حين حل الليل • عدت الى عزلتي • لكن ذلك اليوم من أب لم يغب ابداً تحت أفق ذاكرتي • لم أعد وحيدا • بثقة لا تتزعزع كان هذا المكافح يسلك طريقه بخطوات فتية ثابتة الى جانبي. و على الرغم من أن طريقه لم يكن طريقي فقد كان من المريح لي جدا وكان درسا قاسيا لي أن أراه يصعد مرتقاه بهذه القناعة وذلك العناد • منذ ذلك اليوم صرت مقتنعا بأن حياة القديس فرانسيس لم تكن خرافة • أحسست باليقين فيما بعد بأن الانسان ما يزال قادرا على انزال المعجزات على الارض • لقد رأيت المعجزة ولمستها وتحدثت اليها • ولقد ضحكنا معا وصمتنا معا •

بعد ذلك اليوم لم يعد قلبي قادرا على التمييز بين هذين الشخصين المغربيين اللذين أزيحا من الزمن الفاني واتحدا اتحادا لا انفصام له في الابدية ، أي في خطى الله ، كل منهما يشبه الآخر كأخوين : القديس فرانسيس من أسيسي والبرت شفيتزر ★ •

الحب القوي الرفيق للطبيعة • والترنيمة للأخ الشمس وللأخوات القمر والبحر والنار تتردد أصداؤها كل يوم وكل ليلة في قلبيهما • كل منهما كان يمسك بورقة شجرة برؤوس أصابعه ، وعند رفعها الى الضوء يرى فيها معجزة الكون المخلوق كله •

الاحساس الرقيق المليء بالاحترام وبالرفقة للناس وللإفاعي والجمال - لكل شيء يعيش ويتنفس • كل منهما يرى الحياة مقدسة ويرتعش فرحا حين ينحني على عيني أي شيء حي ويرى الخالق منعكسا فيهما بكل كماله • بالتحديق الى النملة والافعى والانسان كانا يكتشفان الاكتشاف المفرح بأن الاشياء كلها أخوة •

★ طبيب وموسيقي ورجل دين فرنسي أسس مستشفى في غابون ونال جائزة نوبل عام ١٩٥٢ • ولد عام ١٨٧٥ وتوفي ١٩٦٥ •

العطف ذاته واللطف ذاته (المعبر عنه بالفعل) نحو كل شيء يتعذب . اختار كل منهما المجذومين ، أعمق هاوية للبؤس والالتم وأكثرها رهبة . اختار الاول المجذومين البيض والآخر المجذومين السود في أفريقيا . لقد قلت العطف واللطف وكان علي أن أقول ميتا metta ، هذه الكلمة البوذية وحدها تستطيع أن تعبر بأمانة عن الاحساس الذي يولده العذاب الانساني في هذين الاخوين . في اللطف والعطف هناك اثنان : المعذب ومن يتعاطف معه . أما في (ميتا) فهناك تطابق مطلق . حين أرى مجذوما أحس أنني أنا نفسي المجذوم . لقد عبر عن ذلك بأتم وجه الصوفي المسلم في القرن التاسع السري السقطي بقوله : « لا يوجد الحب الكامل بين اثنين الا حين يخاطب كل منهما الآخر بقوله : يا أنا »

الحق المقدس ذاته - هجر ملذات الحياة ، والتضحية بالجواهر الصغيرة من أجل الحصول على (الجوهرة الكبيرة) والابتعاد عن الطريق المستوي الذي يؤدي الى السعادة السهلة وسلوك الطريق الجبلي البدائي الذي يصعد بين هاويتين نحو الحق المقدس . حمق الاختيار الحر للمستحيل .

المرح ذاته الخالي من المكر يرى في كل منهما : تندفع الضحكة من أعماق القلب الخير ، والفرح الابنة الغالية لروح تفيض بالنعم ، والقدرة على رؤية ملامح الحقيقة اليومية وقبولها بعطف وتفهم . لقد أقام الاسبارطيون المتجهمون مذبحا لاله الضحك .

فلقد كانت الصرامة المطلقة تثير الضحك دائما. هذا وحده ما يمكن روحا عميقة من تحمل الحياة . . . لقد وهب الله هذين الاخوين قلبين مرحين ، ولأنه فعل ذلك فانهما يرحلان مرحين نحو ذروة مساهما ، نحو الله .

الحب الانفعالي ذاته للموسيقى . وما قاله توماس من سيلانو عن أحدهما ينطبق تماما على الآخر : « هناك حاجز رقيق جدا يفصل

الاح فرانسيس عن الابدية ، ولهذا كان دائما يسمع النغم الالهي -
عبر هذا الحاجز الدقيق » . وبالاستماع الى هذا النغم كان كل منهما
يحس ببهجة قريبة من النشوة : « لو أن الملائكة التي تعزف على
الفيول * في أحلامي قد جرت أقواسها على الاوتار مرة أخرى فقط
لانتزعت روحي نفسها من جسدي . الى هذه الدرجة كانت الغبطة
لا تحتمل » . هكذا قال الاول . ولا بد ان الثاني ، وأنا واثق من
ذلك ، يحس بالحد الاقصى ذاته من الغبطة عندما يعزف باخ .

كان كل منهما يمسك في قبضته حجر الفيلسوف الذي يحول أحقر
المعادن الى ذهب ، والذهب الى جوهر روحي . كانا يأخذان المرض
والجوع والبرد والظلم والبشاعة - الحقيقة بأرهب وجوهها -
ويحولانها الى حقيقة ولكن أكثر واقعية حين تهب ريح النفس .
لا ليست ريح النفس بل ريح الحب . وفي قلبيهما ، مثل الشمس
فوق الامبراطوريات الكبيرة ، لا يغرب الحب أبدا .



لكنني تعلمت ذلك كله بعد فوات الاوان ، لم أكن أعرفه في
تلك الايام العصيبة في برلين . حين رأيت المعجزة الانسانية في هذه
القرية الالزاسية الصغيرة كانت أصابعي قد تلطخت بالحبر . لقد
نقلني الحس العميق الى حيث أحول الحياة الى كلمات وتشابيه
وأوزان وانحدرت (ما أزال أجهل كيف) الى دافع قلم . ما حدث
لي هو بالذات ما كنت أحتقره جدا : أن أسد جوعي بالورق مثل
معزاة .

كان رجلا الله المسكينان هذان قادرين على مساعدتي في مجال
واحد فقط ، المجال الذي لا يقدر بثمن والمتمثل في التبيان لي ان
الانسان قادر على الوصول الى أبعد نقطة في الطريق الذي اختاره
وان من واجبه ان يحقق ذلك (ومن يدري لعل المجاهدين كلهم على
اختلافهم يلتقون في نهاية الطريق) . وهكذا صاروا نموذجين لي ،

★ نوع من الكمان .

مثالين محبين عن الاصرار والصبر والامل . باركهما الله . لأن هذين البطلين للمائة قد علماني انه بالامل وحده فقط نستطيع تحقيق ما يتجاوز الامل

بتشجيع منهما حاولت أن أقهر طبيعتي ، فتابعت في الطريق الذي أملاه علي حنو ايتكا ونقمتها وكلماتها اللاذعة . لقد قمت بذلك بعضا من الوقت ولست أسفا . وحين عدت الى طريقي الطبيعي أحسست أن قلبي قد أصبح مترعا بالعذاب الانساني وان الطريق الوحيد لانقاذ النفس هو انقاذ الآخرين . أو الكفاح لانقاذ الآخرين - حتى هذا يكفي . وتعلمت أيضا ان العالم حقيقي وليس طيفا وان روح الانسان مكسوة باللحم - وليس بالريح كما شرح لي بوذا .

ولكن فيما كنت أجهد لاتخاذ قراري أتذكر ان عقلي قد قاوم مقاومة شديدة . كان ما يزال متلفعا برداء بوذا الاصفر . وكان يظل يقول لقلبي لا طائل مما تنوي القيام به . العالم كما تطلبه ، حيث لا يعاني فيه أحد من الجوع أو البرد أو الظلم ، غير موجود ولن يوجد . لكنني كنت أسمع قلبي يجيب من أعماقي : على الرغم من انه غير موجود فانه سيوجد لانني أريده ان يوجد . انني أرغب فيه وأريده بكل خفقة من خفقات قلبي . انني أؤمن بعالم غير موجود ولكن بايماني فيه أخلقه . اننا نسمي كل ما لم نرغب فيه بالقوة الكافية « غير موجود » .

لقد بلبلني جواب قلبي . ان كان كل ما قاله صحيحا فانه مسؤولية مخيفة يحملها الانسان تجاه ظلم العالم كله وعاره كله ا



تسارع ايقاع الاحداث قبل ان تمر أيام كثيرة ، وربما لان روحي كانت قد استعدت أخيرا . تتالت الاحداث ، واحدا بعد الآخر ، تدفعني . في أي وقت آخر كان من الممكن أن أعتبرها مجرد مشاهد ، أما الآن فقد أصبحت لحمنا من لحمي .

ذات صباح ، وقبل ان ننهض ، سمعنا جلبة غامضة غير

محددة ، خوارا بعيدا ، كأنما كان في البعيد قطيع من المواشي يساق الى المسلخ وقد أحست الماشية بالاربطة الحمراء على رقابها فبدأت تخور .

قفزت اتيكا من السرير ، ولفت نفسها بمعطفها البالي ، ودون أن تلتفت لتتطلع الي اندفعت تنزل السلالم . كان الخوار يقترب شيئا فشيئا . أسرعت الى النافذة وفتحتها . كانت نتف خفيفة من الثلج تتساقط . لو كانت اليونان لتلامعت الجبال والشواطىء تحت شمس الصباح أما هنا فقد كان الضوء الذي يزحف فوق الاسفلت المغطى بالثلج مريضا وموحلا .

لا شخص ولا كلب . كان الشارع خاليا تماما . ولكن في البعيد ، ومن كل مكان في الجو ، كان هذا الخوار العميق الذي يقترب أكثر فأكثر . انتظرت ، بالتدريج صار الشارع مضاء أكثر . جاء غرابان وحطا على شجرة مغطاة بالجليد دون ان يصدر عنهما أي صوت . كانا ينتظران أيضا .

وبغته رأيت امرأة طويلة نحيلة بجديلة شعر محلولة في الطرف الاقصى من الشارع . لم تكن تمشي بل كانت تقفز ، وكأنها في رقصة ، وفوق رأسها تخفق راية سوداء . ووراءها مباشرة ظهر جيش من الرجال والنساء والاطفال يخوض الثلج بتشكيل منظم ، يتقدمه أربعة يشقون الطريق . فاجأهم الضوء الموحل . فلم تعد ترى سوى الوجوه الشاحبة الساخطة التي فيها ثقوب سوداء بدل العيون ، وكان جيشا لجبا من العميان بجماجم أكلتها الديدان قد نهض من القبور .

صار الضوء أقوى قليلا الآن ، وصرت قادرا على أن أرى بوضوح أكثر . عبر الشارع كان عدد من أصحاب الحوانيت يخرجون مفاتيحهم لفتح حوانيتهم ، ولكن ما ان رأوا الحيش المتوحش حتى أعادوا المفاتيح الى جيوبهم والتصقوا بالجدران . رأتهم المرأة ، فعبرت رصيف المشاة واتجهت اليهم ولوحت بالراية السوداء بقوة فوق رؤوسهم . وشقّ الاجواء صوت أجش : « نحن جائعون » .

في تلك اللحظة رفعت نظرها باتجاه نافذتي وفتحت فمها • ولتكهني بالكلمات التي كانت على وشك التفوه بها ارتعبت ، ومن دون أن أعي تماما ما كنت أقوله بدأت أصرخ : « هذوعا ! هذوعا ! »

صفقت النافذة وألصقت نفسي بجدار الغرفة - كنت مثل أصحاب الحوانيت تماما • وتمتمت وأنا مشئت تماما : « انهم جائعون ••• انهم جائعون ! جيش الجوع ••• »

طوال النهار لم أستطع - ولم أجرؤ - أن أخرج خوفا من أن التقي في طريقي بالمرأة التي تحمل راية الجوع السوداء • ففي حالة كهذه ستكون من السرعة بحيث انها ستلقي الي بالكلمات الموجعة التي لا تطاق • كنت أعرف ما ستكون عليه هذه الكلمات ولهذا كنت أحس بالخوف وبالخجل •

عادت ايتكا قبيل الظهر شاحبة ومتقطعة الانفاس • ألقت بمعطفها البالي على الارض وبدأت تمشي جيئة وذهابا في الغرفة الضيقة • كنت قابعا في الزاوية أنتظر • وكنت قادرا على سماع أنفاسها الثقيلة • التفتت بغتة وأشارت نحوي وزعقت : « أنت الملوم ! أنت ! أنت وكل من هو مثلك : كل من هو حسن النية وحسن التغذية ولا مبال • انك تحتاج الى أن تعرف الجوع والبرد وان ترزق بأبناء جائعين وبردانين ، وان تطلب العمل دون ان يمنح لك ! هذا ما أتوقعه منك وليس هذا التسكع من مدينة الى مدينة لتقف مشدوها أمام المتاحف والكنائس القديمة ولتبكي حين تتطلع الى النجوم لأنها تبدو جميلة ومخيفة جدا • أيها الاحمق المسكين • أخفض نظرك فقط وتطلع الى الطفل الذي يموت عند قدميك ! » •

صمتت لوهلة ثم أضافت : « انك تكتب قصائد • وتتكلم بدورك - لديك من الوقاحة ما يسمح لك بأن تتكلم - عن الفقر والاضطهاد والجريمة • بتحويل الامنا الى جمال تخرجها من جسدك • اللعنة على الجمال حين يجعل انسانا ينسى الالم البشري ! » •

سقطت من عينيها دمعتان • اقتربت منها • كنت أريد أن ألمسها وأن أهدئها بوضع يدي على شعرها • لكنها أجفلت ودفعتني

بعيدا عنها ثم صرخت : « أبعد يديك عني ! » ولم تكن النظرة التي وجهتها الي مليئة بالازدراء والاحتقار فقط بل وبالكرهية .

وصعد الدم الى رأسي فصرخت غاضبا : « ماذا تتوقعين مني أن أفعل ؟ ماذا أستطيع أن أفعل ... دعيني وشأني ! »

– لا . لن أدعك وشأنك ! انك تفضل ان أدعك وشأنك . تود أن تهرب . لكنني لن أفعل . انك لا تستطيع ان تكره . أهذه هي المسألة ؟ طيب . أنا سأعلمك . لا تستطيع ان تقا تل أنا سأعلمك » .

وطاف بوجهها مشروع ابتسامة . لم تكن ضاحكة بل كانت تشنجات في اللحم غير محتملة . اقتربت مني : « هل تعرف المثل الشرقي الذي يقول : من يمتطي ظهر النمر لا يستطيع ان يترجل عنه ؟ لقد امتطيت نمرا – أنا – ولن أدعك تترجل أبدا ! »

فتحت خزانة صغيرة وأخرجت بعض الخبز وقليلًا من الزبدة وعددا من التفاحات ، أشعلت طباخ الكاز وأعدت الشاي . ودون أن نبس بكلمة جلسنا على كرسيين (كل ما في الغرفة) وقربنا الينا طاولة صغيرة وبدأنا نأكل . نظرت الى حاجبيها المرتعشين . كانت ترفع كأسها لتشرب ثم تنسى نفسها ويظل ذراعها معلقا في الهواء . كان عقلها في مكان آخر . وكانت فكرة ما تعذبها . رحلت أمضغ طعامي ورأسي محني وأنا خجل جدا ، وذلك لأنني أحسست بتواضع ان هذه المرأة كانت أقوى مني .

أنهينا وجبتنا . فرفعت رأسها ونظرت الي . كانت عيناها الآن تلتمعان وقد احمرت شفثاها .

– « اعذرني لتحدثني بهذا الاسلوب القذر . ولكنني قد عدت لتوي من جيش الجوع » .

نهضت واتجهت الى النافذة ثم أغلقت الستائر الممزقة . انسكب ضوء هاديء حنون في الغرفة . دفعت بالطاولة الصغيرة جانبا لتفسح مجالا . ثم اتجهت الى الاريكة ورددت الاغطية . تبعتها بطرف عيني . حين كانت تفك أزرار بلوزتها التفتت لتتطلع الي .

سألته ضاحكا : هل أنت نعسانة ؟
 « لا ! » أجابت • وكان صوتها قد صار غائما : « تعال ا »
 في اليوم التالي نهضت قبل الفجر وأعدت بسرعة حقيبتها
 الصغيرة • جاءت الى الاريكة وأيقظتني • قالت : « أنا ذاهبة » •
 ارتعشت : ذاهبة ؟ الى أين ؟ •
 - بعيدا • لا تسأل • وداعا • الى اللقاء •
 - متى ؟

هزت كتفيها • وبمנדيل ملفوف بشدة على شعرها انحنت
 ورفعت حقيبتها الصغيرة ثم تطلعت الي • كانت عيناها الزرقاوان
 قاسيتين وجافتين وشفتاها المليئتان تبتسمان • قالت : « شكرا •
 على الليلي كلها • لقد أدينا واجبنا تجاه اللحم بكمال • لقد تحقق
 بوذا وانتهى • نحن طردناه •••• لم تنظر الي هكذا ؟ هل أنت
 آسف ؟ »

لم أقل شيئا • لقد استقرت حلاوة مريرة جدا في أحشائي •
 تلك الليلي والايام كلها امتزجت في داخلي وملأت أحشائي بالمتعة
 والألم •

وسألته من جديد : « هل أنت آسف ؟ »
 كانت قد وصلت الى الباب ومدت يدها لتفتحه •
 أجبت باستفزاز : « نعم • أنا آسف • لقد دمرت لي بوذا ، ان
 قلبي خاو » •
 ضحكت ساخرة : « انك تحتاج الى سيد • اليس كذلك ؟ »

- نعم • احتاج • سيد أفضل من الفوضى • بوذا وضع ايقاعا
 لحياتي : هدفا • لقد لجم الشياطين التي في داخلي • أما الآن ••• »

قطبت حاجبها • لم تعد تضحك • قالت : « يا رفيق » - كانت
 تلك المرة الاولى التي تدعوني فيها رفيقا - « لقد أفرغ قلبك ونظف •
 انه الآن جاهز • هذا ما كنت أريده • انني أومن بك - لا تهتم لما
 أقول حين أكون غاضبة • أنت رجل شريف وانسان ليس سهلا •
 انني أومن بك ••• »

- فكرت قليلا ثم اضافت : « لا • ليس بك بل بشعار عصرنا • اهدأ وستسمعه • وداعا » •
- فتحت الباب وسمعت خطواتها المسرعة وهي تنزل السلالم •



« اهدأ وستسمعه • » رافقتني كلمات ايتكا هذه عدة أيام وعدة ليال • هدأت نفسي ورحت أصغي بانتباه محاولا أن أسمع • حضرت محاضرات يلقيها أصدقاء لروسيا وقرأت كتبهم ومنشوراتهم • وصرت أتجول آخر الليل في أحياء العمال في برلين • رأيت الفقر والعري ، واستمعت الى محادثات بذيئة ، واستنشقت هواء مشبعا بالنقمة • سيطر علي الحزن والعطف في البداية ثم استولى علي الغضب وأخيرا اليقين المرير بأنني أنا نفسي المسؤول ، وان اليهودية المضطربة كانت على حق • الخطأ خطئي • لماذا ؟ لأنني لم أنهض لأصرخ ، لأنني كنت أرى وأشفق ثم أنسى فورا ، لانني كنت استلقي ليلا وأنام في فراش دافئ دون أن أفكر بأولئك الذين ليس فوق رؤوسهم سقف •

ذات ليلة رأى واحد من تلامذة فرانسيس من أسيسي سيده المرتعش يسير عاريا في عز الشتاء • قال له مستغربا : « لم تسير عاريا في هذا البرد يا أب فرانسيس ؟ » فأجاب : « لأن الأفا فوق آلاف من الاخوة والاخوات بردانون في هذه اللحظة يا أخي • ليست لدي بطانيات لأعطيهم وأدفئهم ولهذا فأنا أشاركهم بردهم » •

تذكرت كلمات (رجل الله المسكين) ولكن الآن فقط أدركت أن مشاركة الآخرين بردهم لاتكفي • على المرء أن يهتف : « الى الامام جميعا ، كل من هو جائع وكل من هو بردان • هناك كميات لا تحصى من البطانيات • خذوها واستروا عريكم ! »

شيئا فشيئا بدأت أحمّن الاهمية الشاملة والانسانية للتجربة الدموية التي تتم في أرض روسيا الشاسعة وروحها الشاسعة • بدأ عقلي يتسامح ويقبل الشعارات الثورية التي كانت : فيما مضى ،

تبدو لي غاية في السذاجة والطوباوية • وفيما كنت أتطلع الى الوجوه الجائعة والخدود الغائرة والقبضات المشدودة بدأت أحس بميزة الانسان القدسية : بايمانه بأسطورة ورغبته فيها وتضميخها بالدم والعرق والدموع (الدموع وحدها لا تكفي ولا الدم وحده ولا العرق) يحول الانسان تلك الاسطورة الى واقع •

خفت • للمرة الاولى أرى كم هو مبدع تدخل الانسان وكم هي عظيمة مسؤوليته • نحن الملامون ان لم يأخذ الواقع الشكل الذي نرغب فيه • كل ما لم نرغب فيه بالقوة الكافية هو الذي نسميه غير موجود • ارغب فيه ، وضمتّه بدمك وعرقك ودموعك وسيتجسد • الواقع ليس أكثر من وهم خاضع لرغبتنا ومعاناتنا •

بدأ قلبي يخفق للجائعين والمضطهدين • لقد نفذ صبرهم ، وبدأوا هجومهم • بدأ أن دمي الكريتي كله يستشعر الثورة وبدأ يغلي • من جديد رأيت أمامي الحرية والعبودية - الخصمين الازليين - ونهضت في داخلي كريت وأطلقت صرختها •

أيمكن ان تكون تلك هي (الصرخة) التي أنتظر سماعها ؟ ربما • في اللحظات الحاسمة من حياتي لم يحدث أبدا أن كريت لم تنهض في داخلي وتطلق صرختها •

وذات مساء ، كنت متعبا من مشاهد النهار المرهقة ، انكبت على مكتبي وبدأت أقلب كتابا عن فن عصر النهضة محاولا أن أنسى كل ما رأيته وسمعته وغانيته وأنا أتجول منذ الصباح الباكر • أكثر من الخمرة والحب ، أكثر خداعا من الافكار ، هي قدرة الفن على اغراء الانسان وجعله ينسى • يحل الفن محل الواجب ، بكفاحه لتحويل الزائل الى أزلي ولتحويل معاناة الانسان الى جمال • ماذا يهم اذا كانت طروادة قد انتهت الى رماد واذا كان بريام وأبناؤه قد قتلوا ؟ بآية طريقة كان العالم سيستفيد ، وكم كانت روح الانسان ستزداد فقرا لو ان طروادة استمرت في الحياة السعيدة ولو ان هوميروس لم يأت لتحويل المذبحة الى أبيات ✪ خالدة ؟ تمثال ، بيت

★ ميكسامتر : أبيات ذات ست تفعيلات .

شعر ، مأساة ، لوحة - تلك هي النصب التذكارية السامية التي أقامها الانسان على الارض .

سامية ولكنها أيضا الاكثر خطرا على المعاناة الانسانية اليومية . الفن يجعلنا نحتقر الاهتمام اليومي الصغير بالطعام وحتى بالعدل ، اننا ننسى ان هذا هو الجذر الذي يغذي الزهرة الخالدة .

لقد كان المسيحيون الاوائل على حق في ان يريدوا من فنانيهم ان لا يجعلوا العذراء جميلة في لوحاتهم الدينية . جمالها يغويننا فننسى أنها أم الله .

بغته سمعت نقرة على الباب . فتحته . برقية من موسكو اقرأتها مرة بعد أخرى وأنا أفرك عيني غير مصدق . قربتها من المصباح وتفحصتها وكأنها تخفي سرا خطيرا كنت أرغب في استجلائه في الضوء قبل أن أتخذ قرارا . هذه الورقة الصغيرة يمكن ان تكون رسالة من القدر جاءت لتغير حياتي . هكذا فكرت . لمصلحتي أم ضدها ؟ من ذا الذي يستطيع ان يثق بالقدر ! انه ليس أعمى لكنه يعمي .

هل أذهب أم لا ؟ كانت البرقية تدعوني لزيارة موسكو لأمثل المثقفين اليونانيين في الذكرى العاشرة العظيمة للثورة . سيتدفق الحجاج الى مكة الحمراء من أنحاء العالم كافة . من ذا الذي جعل هذه الدعوة ممكنة بذكر اسمي ؟ لم تم اختياري ؟ بعد ثلاثة أيام فهمت . تلقيت رسالة قصيرة من موسكو . كانت دعوة استفزازية من ايتكا :

« سلاما أيها البودي المزيف يا ذا المعدة الممتلئة ! أيها الارستقراطي ! أيها المعذب الهاوي ! حتى الآن كنت تبحث عن ملامح الله وأنت تتخلى عن اله مزيف لتنتقل الى اله مزيف آخر . تعال هنا ، يا صديقي المسكين ، لكي تعثر على ملامح الله الحقيقي ، ملامح الانسان . تعال اذا كنت راغبا في الخلاص . ما يزال العالم الذي نبنيه مجرد هيكل . فانحن بدورك وأصف حجرا . ابن . ان بودا جميل ، جميل حقا - للحى البيضاء ! »

كان الليل قد حل . نهضت وفتحت النافذة . كان كل شيء في الخارج هادئا . توقف الثلج . ومن جرس برج ما دقت ساعة بحلاوة في الهواء البارد . كانت الاشجار تحتي في الشارع تتلامع وهي مغطاة بالمتدليات الجليدية . وفيما كانت نظرتي تتوه في السديم الليلي تجلت روسيا أمامي شاسعة مكفنة بالبياض وبيوتها الدافئة المضاءة ، وزحافاتنا الجليدية تنزلق على الثلج . كان البخار يتصاعد من خياشيم الخيول ، حتى أنني سمعت الاجراس الصغيرة المرحة ترن على أعناقها . وبعيدا على طرف الثلج ، كانت قباب لامعة تتلألأ وهي ليست متوجة بصلبان بل بأعلام حمراء كالخريق . تذكرت راهبا أتينيا نصف مجنون اعتاد ان يقول لي : « كل انسان وكل شيء متوج بعنقود من اللهب . فاذا انطفأ هذا اللهب يفنى الانسان والشيء » . لقد كان محقا . وفكرت ان روسيا أيضا متوجة بعنقود من اللهب . فاذا انطفأ هذا اللهب تفنى روسيا .

أغلقت نافذتي بسرعة كبيرة . لقد قررت أن أرحل الى موسكو .

٢٦ - روسيا

تناطح المعجزة الواقع ، تفتح فيه ثغرة وتدخل . حين أن
الوان جمع لينين خرقة وأسماله ، وجمع مخطوطاته في رزمة كبيرة ،
وربط كل ممتلكاته الدنيوية في صرة ، وودع صاحب منزله ، الاسكافي
السويسري الذي كان قد أجره غرفة في بيته في سويسرا .

قال المالك وهو يمسك بيد لينين ويتطلع اليه باشفاق :
« الى أين تذهب يا فلاديمير اليتش ؟ أي جنون يجعلك ترغب في
العودة الى روسيا ؟ ما الذي ستفعله هناك ؟ هل تعتقد انك ستجد
غرفة في روسيا - أو عملا ؟ خذ بنصيحتي يا فلاديمير اليتش وعش
بسلام هنا » .

أجاب لينين : يجب أن أذهب أنا مضطر .
- مضطر ؟ لماذا ؟

• مضطر . كرر لينين بهدوء .
- لكنك دفعت ايجارك كله والشهر لم ينته بعد . انت تعرف
طبعاً أنني لن أعيد لك الفرق .

أجابه لينين : لا يهم . أبق الفرق لك . أنا مضطر للرحيل .

ورحل . وضع قدمه على الارض الروسية وهو يرتدي قبعته
الصغيرة وقميصه النظيف المهترىء وسترته البالية - جيش مؤلف
من شخص قصير شاحب وأعزل . وكان يقف ضده الارض الروسية

الشاسعة والموجيك الاشرار والارستقراطيون المعربدون والكهنوت ذو القوة الطاغية ، والحصون والقصور والسجون والبراكات والقوانين القديمة والاخلاق القديمة والسوط ، الامبراطورية الرهيبة المدججة بالسلاح . هناك وقف بقبعته الصغيرة ، وبعينيه المنغوليتين الدقيقتين اللتين تحددان بثبات في الجو بينما كان في داخله شيطان يرقص ويصفر وهو يصر بأسنانه ويتكلم : « هذا كله لك يا فلاديمير اليتش . انني أهبك اياه مجانا . يكفي ان تقول عبارة واحدة . قل العبارة السحرية التي كنت أمليها عليك طوال تلك السنين الطويلة : « يا عمال العالم اتحدوا ! » قلها وعندها فان القياصرة والقسس ذوي اللصى العنزية والجداول الذهبية والكروش المتخمة والانيقة ، بنفخة واحدة سيتساقطون على أقفيتهم . امش على جنثهم يا فلاديمير اليتش . الى الامام يا فتى ، دس على جنثهم واصعد . ركز العلم الاحمر على الكرملين . حطم جماجمهم بالمطرقة واقطع أعناقهم بالمنجل ! »

وراح لينين يسأل وهو يصغي الى شيطانه الداخلي بقبضتين مشدودتين ، « من أنت ؟ قل لي اسمك . أريد أن أعرف من أنت » .
« أنا المعجزة » . أجاب الشيطان ونطح روسيا بقرنيه .

قلة هم الذين استطاعوا حتى الآن ان ينظروا الى روسيا بعيون نزيهة صافية وكانوا عاجزين عن رؤية ملامحها متعددة الوجوه ذات الظلال والاضواء الوفيرة كونا موحدا . ان هناك هوة كبيرة تفصل الروح السلافية عن الروح الغربية . الروسي قادر على التاليف بين المتناقضات الداخلية التي هي بالنسبة للعقلية الاوربية غير متجانسة . يضع الاوربي الاستدلال المنطقي فوق كل اعتبار ، الاستدلال الواضح والخاضع لمقياس عقلي من القيم . الروسي يضع الروح فوق كل شيء آخر ، القوة القائمة الغنية المتناقضة المعقدة التي تدفع بالانسان خارج حدود العقل الى العاطفة العنيفة اللامسؤولة . لم تتجسد فيه بعد القوى العمياء الخلاقة في تسلسل عقلي . ما يزال الروسي ملتصقا بالارض بقوة ، انه مليء بالارض وبالعممة المولدة للعالم .

تأملت وجه لينين ، كان هذا الوجه مليئا بالضوء واللهب ،

رأيت أمامي العجينة المعتمة - الموجيه - التي تعهد هذا العقل العنيد ان يجبلها • كنت تواقا بعنف متعاطم لأن أرى العدوين والحليفيين الاصليين الحقودين ، الروح والمادة ، يتصارعان داخل حلبة الكرملين الدموية المغلقة •

كان الثلج يهطل بكثافة ويغطي السهل المحروث كله • تحت الثلج كان القمح المبدور يتغذى • وكان الفلاحون الروس - الموجيه - يتحركون بهدوء ، دون تعجل وكأنهم خالدون • بين حين وآخر كان غراب حالك السواد يرفرف عابرا متجها الى مسكن البشر لكي يأكل •

انتظرت القطار عدة ساعات وأنا محاط بوجوه مغولية في المحطة ، وبعيون مائلة ولحي معبأة بقشور بذور البطيخ ، وببصارتين تفرشان ورقهما وموجيه عجوز يصب الشاي في صحن صغير ويشرقه بصوت راعد وباستمتاع حيواني وأمهات صينيات متلفعات بلحف قذرة ، وأبناؤهن مربوطون على ظهورهم أو متدلون عند أعناقهن كالكنغر - حشد انساني دافىء كان يتعرق ويعبق • كان للهواء في كل مكان رائحة اصطبلى ، ربما مثل اصطبلى بيت لحم •

انتصف النهار وبدأ المساء يهبط ونحن ننتظر • كانت الوجوه من حولي وقورة ومسالمة • لم يخرج أحد ليرى ان كان القطار آتيا أم لا • كان كل انسان ينتظر واثقا من أن القطار سيظهر دون شك اليوم أو غدا • لم يكونوا يحسبون الساعات بساعات اليد • كانوا يعرفون ان الزمن رجل نبيل ، دوق عظيم ، وكانوا يخافون من معارضته •

قبيل الفجر سمعنا صفير القطار من بعد • نهض الناس كلهم وجمعوا صررهم ، ومرة أخرى دون تعجل • عجوز كان متمددا الى جانبي وهو يشخر طوال الليل ، تطلع الي الآن وغمز باحساس بالانتصار وكأنه يقول : حسن يا عجوزي الصغير كم كان سخيفا منك ان تستثار لأن القطار لم يأت وان تتذمر ولا يغمض لك جفن طوال الليل • انظر • ها هوذا • لقد جاء •

الثلج من جديد • قرى صغيرة ، كنائس صغيرة بقباب خضراء

محدبة ، ودخان عديم الحركة فوق الاسطحة • المزيد من الغريبان ،
سماء تنخفض ، ثلج • تطلعت وتطلعت ، عيناي تعودتا على العمق
الازرق البعيد مثل عيون كل الذين يعيشون في سهول فسيحة •
تطلعت وبغته ظهرت قباب لامعة مدورة في الافق البعيد باهته أمام
السماء الشهباء •

كان الوقت قبيل الظهر ، أخيرا نحن نقترّب ، ونصل الى
القدس الجديدة للاله الجديد ، العامل ، في قلب روسيا - وربما قلب
عالم اليوم • موسكو !

كانت اتيك انتظرتني في المحطة • وحين رأني ضحكت :
« لقد وقعت في الفخ • ولكن لا تخف • انها مصيدة كبيرة ، مهما
مشيت فيها لن تصل الى قضبانها • وهذا هو معنى ان تكون حرا •
أهلا ! » •



كنت أتجول من الفجر الى المغيب وأنا أحرق بعينين نهمتين
الى هذه الهيولى متعددة الالوان متعددة الاصول - موسكو • كان
الشرق كله منسكبا على الثلج • الباعة الاناضوليون يرتدون العمائم
الثقيلة • صينيون ببشرات جلدية أشبه ببشرات القرود يبيعون
أحزمة من جلود الثيران ولعبا صغيرة من الخشب والورق • كل انش
من رصيف المشاة يحتله رجال ونساء يبيعون بصخب شديد فاكهة
وسمكا مدخنا وصدريات أطفال وطيورا مرسومة وتمائيل للينين •
الصبايا يعلقن صحفا ، والسجائر في أفواههن ، العلامات يعبرن
وعلى رؤوسهن مناديل حمراء ، نساء بدينات خشنات بوجنات
وعيون مغولية • أطفال نصف عراة يعتمرون قبعات مقببة من
الاستراخان • مشلولون يجرون أنفسهم على الارصفة بأيديهم ممدودة
وهم يزحفون أمام كل عابر • فلاحون يمرون حاملين جلود بقر برتقالية
اللون ولحاهم كثيفة متلبدة كالذرة ، والهواء من حولهم عابق كأنما
يمر قطيع من البقر •

★ فرو الحملان الصغيرة •

كنائس بقباب خضراء لامعة . ناطحات سحاب . « يا عمال العالم اتحدوا » مكتوبة على الشوارع والكنائس والحافلات ، وبخط أحمر على جدران كنيسة كبيرة : « الدين أفيون الشعوب » . وقبيل المساء وفوق كل هذه الضجة الفوضوية ، تفرغ الاجراس الروسية بغتة بعذوبة فائقة ، أجراس صلاة المساء التي تصر على البقاء حية
فوضى - هذا اول انطباع يخرج به المرء عن موسكو .

الانطباع الثاني هو الرهبة . لا تستطيع ان ترى في أية مدينة أخرى من العالم هذه الوجوه القاسية المصممة النكدة ، والعيون المتألقة ، والشفاه المشدودة والنشاط المتوتر العنيف . تحس وكأنك قد انتقلت الى مدينة قروسطية * كئيبة مليئة بالابراج والشرفات المفرجة حيث الفرسان يرتدون دروعهم وراء أبواب ممترسة بينما العدو يقترب . الجو مشحون باستعداد وحشي للحرب . خطر كبير وأمل كبير معلق فوق كل رأس . . . : شيء ما يكمن في الجو هنا ويولد الخوف . ملائكة نارية في كل العيون وسيف معلق على أبراج الكرملين مثل كميز ** من العصور الوسطى فوق برج قوطي يراقب بعين يقظة من فوق موسكو بألاف العيون وآلاف السيوف .

بغتة اندفعت ثلة من الجنود الحمر في الشارع قادمة من زاوية منعطف بوجوههم القاسية الجذلة . اهتز الرصيف وتسابق المشاة ليخلوا الطريق . امرأة صغيرة بدينة تحمل سلة من التفاح زعقت من الخوف وتساقطت التفاحات وتدرجت على الارض حمراء براقية . كان الجنود يسيرون بخطى ثقيلة وكانوا يعتمرون القبعات المنغولية المحدبة ويلبسون معاطف شهباء تصل الى أقدامهم . كان الضابط الذي يسير في المقدمة أول من بدأ الغناء . رأيته حين مر من أمامي . كان فمه في تشنج المصروع ، وقد انتفخت أوداجه حتى الانفجار والعرق يتصبب على خديه . ظل يغني وحده بعضا من الوقت ، وكان يبدو وهو يسير كأنما كان يرقص ، الى هذه الدرجة من النشوة المنفلتة كان ايقاع جسده . كان يغني وحده وبغتة تلقف

* من القرون الوسطى .

** الكميز : كائن خرافي له رأس اسد وجسم شاة وذناب أنمي .

الجنود الاغنية ، وتفجر الشارع المتجلد في كل مكان باللهب وترددت
الاصداء كأنما في ميدان معركة . ومرت رعشة خفيفة في ظهري .
حقيقة المستقبل - من يدري ؟ اخترقتني مثل ومضة البرق . لقد
ظهر الروس في مدينة كبيرة ، لندن أو باريس ، وبدأوا ينهبونها .
أي الوحوش أكثرها تعطشا للدم وشرها للحم ؟ الايمان الجديد .
وأياها أكثرها عشبية ؟ الايمان الذي صار قديما . لقد دخلنا الآن
بين شدقي الايمان الجديد .

في ذلك المساء التقيت بأكثر شعراء الموجيك غموضا وشهوانية ،
نيكولاي كيلوييف . لحية شقراء خفيفة ، وخط شعر متراجع ، لا بد
انه في الاربعين لكنه يبدو في السبعين من عمره . كان صوته هادئا
مريحا .

قال لي بكبرياء خفية : « أنا لست واحدا من أولئك الروس
الذين يشغلون أنفسهم بالسياسة والمدافع ، أنا جزء من العرق
الذهبي الذي يصنع الايقونات والخرافات . ان روسيا الحقيقية
تعتمد علينا » .

توقف وبدا عليه انه أسف لتحذته بهذه الصراحة . لكن كبرياءه
الداخلية قد نقلته بعيدا . ولعجزه عن ضبط نفسه تابع : « ان
الثيران والدببة لا تستطيع ان تحطم باب القدر ولكن قلب حمامة
يستطيع ذلك » .

ملاً كأسه بالفودكا وبدأ يشرب ، رشفه وهو يفرقع لسانه
مستطيبا . ومرة أخرى أسف لكلماته . أغمض عينيه نصف اغماضة
ونظر الي ثم قال : « لا تستمع لما أقول . أنا لا أعرف عم أتحدث .
انني شاعر . »



مساء اليوم العظيم ، كانت الثورة الروسية تحتفل بميلادها
المثير . لقد جاء حجاج بيض وسود وصفر من أنحاء العالم كافة . في
العصور القديمة كانت شعوب الشرق السمراء تنزل بطريقة مشابهة

الى مكة ، وكانت الشعوب الصفراء تجتمع بطريقة متشابهة في بينارييس في حشود صامته كالنمال . لقد انتقلت مراكز الارض . العيون كلها ، عيون الاعداء والاصدقاء ، راضية أم مكرهة ، وبحب أو ببغضاء ، مثبتة ، اليوم ، على موسكو .

في وسط الساحة الحمراء كان (الضريح المقدس) في القدس الجديدة مغطى بالثلج . كان آلاف الحجاج في أرتال رباعية مزدحمة ينتظرون أن يفتح الباب الصغير . رجال ونساء وأطفال ، جاؤوا من أطراف الارض ليروا القيصر الاحمر الذي يستلقي حيا تماما تحت الارض وليقدموا له فروض الاحترام . ولقد جئت معهم . لم يكن أحد يتكلم . انتظرنا ساعات في الثلج والبرد وعيوننا معلقة على (الضريح المقدس) وبغثة تحرك هيكل ضخم لرجل أمام الباب الصغير ، لقد فتح الحرس الاحمر باب القبر .

ببطء ، ودون كلام كان الحشد ، كل أربعة معا ، يدخل من المدخل الاسود ويغيب . غبت معهم . ورحنا ننزل تدريجيا في الارض . الجو مثقل بأنفاس الناس ورائحتهم . وبغثة تألق الوجهان الاسمران البليدان للفلاحين اللذين كانا يسبقانني وكانما فاجأتها شمس خفية . مددت عنقي . بعيدا ، في الاسفل ، صار من الممكن رؤية الزجاج الكبير الذي يغطي الجثة المقدسة ، وتحتة كان يلتمع رأس لينين الاصلع الشاحب .

كان يتمدد حيا تماما في سترته العمالية الرمادية مغطى من خصره وما تحت بعلم أحمر ، قبضته اليمنى مطبقة واليسرى مفتوحة فوق صدره . كان وجهه ورديا وباسما ولحيته القصيرة شقراء متوهجة . وكانت مسحة من الصفاء تملأ القفص الزجاجي المحمي . كانت الجماهير الروسية تحمق منتشية ، بالنظرة المتفحصة التي كانوا يتطلعون بها قبل سنوات قليلة الى الوجه الوردي الاشقر ليسوع على شاشات الصلب المذهبة . لقد كان هذا الرجل أيضا مسيحا ، مسيحا أحمر . الجوهر واحد : جوهر البشر الخالد ، المصنوع من الامل والخوف . لم يتغير الا الاسماء .

خرجت الى الساحة المغطاة بالثلج مستغرقا في التفكير . كنت

أفكر وأنا مليء بالاعجاب ، كم كافح هذا الرجل !! وكم تحمل في منفاه - الفقر والخianات والافتراء - وكم من المرات تولى عنه أقرب أصدقائه وقد أخافهم إيمانه وعناده . داخل ذلك الرأس الاصلع الذي رأيته ، تحت ، في القفص الزجاجي ، وخلف تينك العينين الصغيرتين ، المطفأتين الآن ، كانت روسيا ، بقراها ومدنها وسهولها الفسيحة التي لا تحد وبأنهارها العريضة البطيئة وسهوبها القطبية القفراء ، تصرخ وتطالب بالحرية .

ولأنه كان روح روسيا الأقوى ، وبالتالي ، الأكثر مسؤولية أمن انها كانت تناديه وتلقي عليه مسؤولية تخليصها . لماذا اذن صنعت هذه الروح القوية من كفاحاتها ودمايتها ودموعها ان لم يكن لكي تلزمها بهذه المهمة المصرية الرهيبة ؟

بينما كنت أتمشى جيئة وذهابا في الساحة الحمراء ، وأنا أفكر ، كانت ايتكا ، التي عينت دليلا لي ، مستمرة في التحدث الي وأنا أعجب لشبابها وإيمانها . وفيما كانت تتكلم كان جسدها كله يلتهب تماما مثل قديسي الـغريكو .

قالت محتجة : « لا تسألني عن لينين . ماذا أستطيع أن أقول ؟ ومن أين أبدأ ؟ لم يعد رجلا . انه شعار . لقد فقد صفاته البشرية وصار أسطورة . الاطفال الذين ولدوا في السنوات الثورية يسمون أبناء لينين . والعجوز الغامض الذي يأتي في عيد رأس السنة محملا بالهدايا التي يوزعها على الاطفال لم يعد القديس نيكولاس ولا القديس باسيل . انه لينين . الفلاحون - الموهبيك - والنساء العجائز الصغيرات بين الجماهير ، كلهم ، يحتاجون الى روح قدس مواسية وحامية ، فوق طبيعية ، النساء يعلقن هيكل لينين المقدس على الفاصل الايقوني الجديد ويشعلن الشموع له . وفي القرى في أقاصي روسيا ، في كل مكان من المحيط القطبي الى المستوطنات المدارية في آسيا الوسطى ، يقضي الشعب البسيط - الصيادون والفلاحون والرعاة - لياليهم ينحتون صورة لينين وهم يتحدثون ويضحكون ويتنهدون . تكسوه النساء بكافة أنواع الحرير بينما ينجره الرجال

من الخشب ، ويرسم الاطفال صورته على الجدران بقطع من اقلام
الفحم . ذات مرة جاءت صورة له من قرية صغيرة في اوكرانيا -
موزاييك من حبوب القمح مع شفتين من الفلفل الاحمر .

« لقد صار لينين شعارا لنا جميعا ، مثقفين وجملة . بالنسبة
لنا لا يقف الرجل العظيم ليطل من فوق الجماهير التي ولدته ، انه
يخرج من أحشاء الجماهير مع فارق وحيد هو ان ما تهتف به الجماهير
بشكل غير واضح يصوغه هو في رسالة متكاملة . وفي اللحظة التي
تصاغ فيها هذه الرسالة لا تعود هناك أية امكانية لتبديدها
وتضييعها . تصبح شعارا . والشعار يعني العمل »

- « وماذا عن ستالين ؟ » سألتها وانا تواق لأن أسمع عن
الشخص الوحشي المشورب ذي الجسد الصلب البليد ، والعينين
الداهيتين والملاح المدروسة الزريرة . من أي جنس من الغيلان
المقدسة كان ستالين ؟

ظلت ايتكا صامته للحظة وكأنها تحسب كلماتها لئلا تهرب
منها كلمة فائضة.تستطيع ان تحس انها قد دخلت منطقة محرمة .
وأخيرا وجدت ما تقوله فتكلمت :

« لينين هو الضوء وتروتسكي هو اللهب لكن ستالين هو
التراب ، الارض الروسية الثقيلة . لقد تلقى البذرة ، حبة من
القمح . الآن ومهما حدث ، ومهما كانت كمية المطر أو الثلج ، ومهما
قل المطر أو الثلج ، فانه سوف يظل ممسكا بالبذرة ، لن يتخلى
عنها الى ان يتمكن في النهاية من تحويلها الى سنبله من القمح .
انه صبور وعنيد ولديه قدرة لا تصدق على الاحتمال . ساحكي لك
حادثة واحدة جرت أيام شبابه حين كان عاملا في تيفليس وستفهم
ما أعنيه .

« في تلك الايام - انها تبدو لنا مثل خرافة - كان كبار الدوقات ،
حين يسكرون ، يصفون الموجيه في حدائقهم ويستخدمونهم

★ جمع دوق وهو النبيل .

دريئات • لكن العمال كانوا قد بدأوا ينظمون أنفسهم ، وكان البوليس القيصري يقوم باعتقال قادة الطبقة العاملة في فترات متقطعة ، ويسجنهم أو ينفيهم الى سيبيريا أو يقتلهم • ذات يوم قام العمال الذين يفرغون الشاحنات باعلان الاضراب في تيفليس وقالوا : اما ان تحسنوا شروط معيشتنا بحيث نستطيع ان نعيش بشرا واما ان نتوقف عن العمل • ونزل اليهم البوليس واعتقل منهم قرابة خمسين شخصا وصفهم في حقل تيفليس ، واصطف جنود القيصر وكل منهم يمسك بسوط مزود بمسامير » •

« كان العمال ، واحدا بعد الآخر ، يعرون ظهورهم ويمرون أمام صف الجنود بينما يضرب كل جندي بالسوط بأقصى ما يستطيع من قوة • كان الدم يتفجر وكان الألم أقسى من أن يحتمل • كثيرون عجزوا عن المرور أمام صف الجنود كله فتهاكوا • بعضهم مات » •

« وجاء دور زعيم العمال • خلع قميصه وعرى ظهره ولكن قبل ان يبدأ نوبته انحنى الى الارض وقطف ورقة من العشب الطري وضعها بين أسنانه • ثم تقدم ليمر أما صف الجنود بطيئا ولكن منتصبا • وراحت السياط تنزل عليه بجنون ، وتدفق الدم من جروحه لكنه لم يفتح فمه ولم يصدر عنه أي صوت • وصمم الجنود الساخطون على القضاء عليه • كان كل منهم يضربه ضربتين أو ثلاث ضربات • ولكن لم يصدر عنه أي صوت • مر أمام الصف كله دون أن ينحني أو يئن حين وصل الى آخر الجنود اخرج ورقة العشب من بين أسنانه وأعطاهما للجندي • وقال له : خذ هذه لتذكركني بها • انظر • انني حتى لم أعضض عليها • اسمي ستالين » •

تطلعت ايتكا الي وابتسمت :

« ان كل روسي يمسك بورقة العشب الخضراء بين أسنانه منذ سنوات ويجهد ان لا يعضها ••• هل تفهم الآن ؟ »

« نعم » أجبته مرتعشا : « الحياة عنيفة ، عنيفة جدا »

وقالت ايتكا : « ولكن الروح الانسانية ما تزال أكثر عنفا » • وضغطت على ذراعي وكأنها تريد ان تشجعني •

- رفعت رأسي عاليا وأنا استمع الى كلمات ايتكا الحارة .
- وأحسست كأن الانفاس البعيدة العنيفة للسهب تهبّ من فوقى .
- ريح شرقية مليئة بالدمار والخلق جعلت عقلي في دوامة .

كان ما أثر في أكثر من غيره وبدرجة متزايدة كل يوم هو : انني في حياتي كلها لم يسبق لي أن رأيت اللامرئي مرثيا كما هو هنا في روسيا الصاخبة وعلى سهولها المغطاة بالثلوج . وحين أقول (اللامرئي) لا أعني أية نسخة كهنوتية عن الله ، أو الوعي الميتافيزيقي أو الكائن المكتمل تماما بل أعني القوة السرية التي تستخدم الناس - وقد استخدمت الحيوانات والنباتات والمعادن قبلنا - كحاملين لها وبهائم للأعباء ، والتي تسرع الخطى وكأن لها هدفا وكأنها تسلك طريقا محددًا . تحس هنا بأنك محاط بالقوى العمياء التي تخلق البصر والضوء .

فيما وراء كل عقلنة ، وفيما وراء المشاحنة المتعلمة ، والحاجات الاقتصادية والبرامج السياسية ، وفوق السوفيتيات والمفوضين ، انها روح عصرنا التي تعمل وتوجه هنا ، الروح الكئيبة السكرى القاسية لعصرنا . والجميع ، من الموجيك البهيمي الى شخصية لينين القدسية ، هم المتعاونون معها بوعي أو بلا وعي . هذه الروح أسمى من البرامج وأسمى من القادة وأسمى من روسيا . انها تهب فوقهم وتخليهم وراءها وتحرك العالم .

حين أتيت الى هذا المختبر الرهيب ، طرحت أسئلة فلسفية على المؤمنين الذين كانوا يبنون روسيا الجديدة . كنت ما أزال محكوما بالاهتمامات المتكلفة والعبثية لابن المدينة الذي أكل حتى الشبع ولديه الفراغ للمناقشة واللعب . لم أكن أرى العالم الملموس : كنت أريد رؤية العالم اللامرئي . ومن الواضح انني كنت قادما من مروج بوذا المغطاة بالنرجس الاصفر .

يحكى ان سقراط العجوز كان يتمشى ذات صباح في الاغورا ★
منتظرا أول شاب يأتي لكي يوقفه ويشغله في محادثة ويحرك روحه .

★ اسم الساحة العامة في المدن الاغريقية .

ولكن في ذلك الصباح رأى ، بدلا من الشاب ، حكيما هنديا عجوزا يظهر له من الشرق . كان هذا الحكيم قد سار على قدميه منذ سنوات لكي يرى سقراط . وفي اللحظة التي رآه فيها ألقى بنفسه على قدميه وأمسك بركبتيه وقال : « بوذا ! أيها الحكيم المرسل من الدنيا ، يا قاهر الحياة والمسوخية ، المسيطر على الآلهة ، أيها الفيل الأبيض الذي يخطو ويمزق الغرور المغوي الصلف أربا ، أيها الجسد خارج حدود العين والأذن ، وخارج حدود الشم والتذوق واللمس أملُ طاس الصدقات الذي تمسك به وأسفحني مثل قطرة في بحر الوجود . مد يدك يا سيدي ودلني على طريق المصيبة الأتلية » .

وأخفى سقراط ، بأدب ، الابتسامة الساخرة التي بعثتها هذه الكلمات الهمجية وأجابه : « أيها الغريب ، اذا كنت قد فهمتك بشكل صحيح فانك تتحدث عن الآلهة والخلود . سأأخذك الى صديق لي ، الهيرفنت ★★ اليوزيس . انه يعرف كيف انوجد العالم ومن أين جئنا والى أين نذهب ويعرف ان النجوم أكبر من بيلوبونيزوس ويعرف اضافة الى ذلك ان الله بيضة تلتمع في ايريبوس وسوف يعلمك تعويذة السرو الأبيض . . . أما أنا فيؤسفني انني أشغل نفسي بهذا العالم وبالانسان فقط » .

وخطر لي كم كان ستالين سيضحك لو انني دخلت الى الكرملين في اليوم التالي وطرحت عليه أسئلة الهندي العجوز .

★ ★ ★

الفجر . أنحني على نافذتي . كواكب غريبة - مطارق ومناجل ونجوم حمراء - تومض كالفسفور في الفجر المعتم ببصيلاتها الضوئية متعددة الالوان. أجاهد لتمييز حروف الكتابات الحمراء التي تطوق الشوارع . يتزايد الضوء تدريجيا فاتهجي : « عمال . . . سبع ساعات . . . ليّتين . . . الثورة العالمية . . . » أردتي ملابسي بسرعة وألتقي بشعوب الارض كلها في أروقة الفندق وأنا أنزل

★★ الهيرفنت : كاهن اغريقي قديم .

من طابق الى طابق - حشد من العمال المدعويين ، يدويين ، وفكرين . أُنحني كثيرا عند لقائي بالكتاب اليابانيين ، والوفود من فارس وأفغانستان ، حاجين من الجزيرة العربية ، ثلاثة طلاب جامعة هنود وهنديتين فاتنتين بشالين كشميريين برتقاليي اللون . في الطابق الاول تبادلت التحيات مع مغوليين عملاقين وثلاثة جنرالات صينيين صغيرين في غاية التهذيب أحس في كلماتهم وعيونهم هياج آسيا الخطر المضطرم .

نسرع للوصول في الوقت المناسب لبدء الاحتفال . برد شديد وسماء رمادية وبخار يتصاعد من الافواه والانوف . كانت الساحة الحمراء قد امتلأت . مسؤولو الحكومة يقفون في صف فوق ضريح لينين المقدس وبمواجهتهم يجلس المدعوون من كافة أنحاء العالم على مقاعد مرتبة بشكل مدرج في صفوف متصاعدة . الوحدات العسكرية في صفوف منظمة ثابتة ، والجماهير وراءها تثير ضجة كثيفة مكتومة مثل هزة أرضية بعيدة تحت الارض . الأرض تهتز تحت أقدامنا . وفي الخلفية كاتدرائية ايفان الرهيب الرائعة بقبابها العديدة والوانها الكثيرة بارزة مثل شبح في ضباب الصباح .

الجنرالات الصينيون الصغار متراصون حولي والوسمة على صدورهم ، وكذلك بعض الرجال والنساء الهنود والمتقفون اليابانيون وزنجي ذو حجم مدار وحلقة ذهبية في أذنه . يتطلع كل منا الى الآخر بلطف ، نبتسم ونعبر عن انفعالنا بصمت وسرية . يشد شاعر ياباني على يدي . لا أعرف الا كلمة يابانية واحدة هي « كوكورو » وتعني « القلب » ولذا أضع يدي على قلبي وأميل على أذنه وأقول : « كوكورو » يطلق على أثرها صرنة فرح ويرتمي بين ذراعي .

بغثة - ابواق عسكرية . نقفز على أقدامنا بوجوه مشرقة . وحدات فرسان شركس وقوقاز ومغول وقلموق ★ تمر أمامنا ، القائد في المقدمة بسيف مسلول ومشرع والفرسان يتبعونه بأزيائهم

★ قبائل القلموق المغولية القاطنة في المنطقة الممتدة بين غربي الصين ووادي نهر الغولما الادنى - المورد .

الوطنية وهم يحملون الرماح والرايات • يحيون ضريح لينين ويختفون • وتتالى في موجات متلاحقة وحدات المشاة والمدفعية وبحارة البلطيق والبحر الاسود والقوى الجوية وحرس موسكو والمنظمات الحزبية والعمال بستراتهم الجلدية وبنادقهم القصيرة والعملات بمناديلهن الحمراء والبنادق على أكتافهن • ثم العرض الشعبي المذهل اللامتناهي • ثلاثة أنهار حمراء بطيئة الحركة تتدفق من الاتجاهات الثلاثة للساحة الجبارة • مر الطلاب ثم الطلائع ، فالشبيبة الشيوعية فالفلاحون ، الآسيويون على الجمال والصينيون على تنين قماشى هائل يفتح شذقيه ويغلقهما • وعلى عربة ذات منصة كرة ضخمة مربوطة بسلاسل وطفل يضرب السلاسل بمطرقة ويحطمها ، وبعدها سلسلة من العربات ذات المنصة وعليها محاربون قداماء عجة يلوحون بعكازاتهم في الهواء ويهتفون • وتمر الامهات حاملات أطفالهن ، وتمر الساعات • وبغثة تخترق الشمس الضباب وتشرق الوجوه الغفيرة وتلتمع العيون وتهتز الساحة كلها بالهتافات وبخطى المشاة الثقيلة • وتنزع الهنديتان أمامي شاليهما البرتقاليين وتلقيان بهما في الهواء •

أتطلع حولي • كل انسان يبكي • أتطلع مرة أخرى ولا أرى شيئا ، عيناى غائمتان بالدموع مثل البقية • أسقط على الجنرال الصيني النحيل الذي بجانبى وأشدّه بأقوى ما أستطيع ونبكي معا • يندفع الزنجي الى الامام ويحتضننا معا بين ذراعيه • انه يبكي أيضا ويضحك • كم من الساعات دامت هذه النشوة الالهية ؟ كم من القرون ؟ كان هذا هو ثاني يوم عظيم في حياتي وأعلاها شأنًا • فالأول هو اليوم الذي وضع فيه الامير جورج اليوناني قدمه على الارض الكريتيّة • وفيما كنت أشد على الجنرال الصيني بين ذراعي والزنجي يشد علينا معا أحسست ان الحدود تتهاوى وان الاسماء والبلدان والاعراق تزول • كان الانسان ببكائه وضحكه وعناقه يتوحد بالانسان الاخر • لقد نورت عقولهم ومضة برق فأوا : ان البشر كلهم أخوة !

أنا الآخر أحسست ان قلبي ينادي ، مثل أرض روسيا الشاسعة • واقسمت على ان حياتي ستأخذ أخيرا بوحدة الهدف وانني سوف أحرر نفسي من الاشكال العديدة للعبودية وأن انتصر

على الخوف والكذب وأساعد الآخرين على ان يحرروا أنفسهم من الخوف والكذب . لقد مارس البشر الظلم بما فيه الكفاية ولن أتسامح معه بعد الآن . يجب أن نقدم الهواء النظيف والالعاب والتعليم لأطفال الارض جميعا ، والحرية والحب للنساء ، والود واللفظ للرجال ، وحببة من القمح لهذه الفرس المنهكة التي تهز ذيلها : قلب الانسان .

قلت لنفسي ان هذا هو صوت روسيا وأقسمت على أن أتبعه حتى الموت .

أيها العاشق . نقد كنت أعني ما أقول : كنت مصمما على التخلي عن حياتي . فهمت لأول مرة أي فرح لا بد أن يشعر به أولئك الذين يرحمون أو يحرقون أو يصلبون لأجل فكرة . كانت تلك أول مرة أمارس فيها معنى الاخوة بهذا العمق ، ومعنى ان « البشر كلهم واحد » . وأدركت ان هناك هبة أسمى من الحياة وقوة تقهر الموت .

★ ★ ★

كنت أعرف بمحن حياة بانيت استراتي البطولية وكنت قد قرأت قصصه المليئة بالسحر الشرقي لكنني لم أكن قد رأيته من قبل . ذات يوم تلقيت ورقة مجمدة ملطخة عليها حروف كبيرة مكتوبة بسرعة : « تعال لتراني . كان أبي يونانيا وأمي رومانية . أنا بانيت استراتي » .

دققت باب غرفته في فندق الانتقال في موسكو وكنت مسرورا فعلا لامكانية رؤية الرجل الذي كان قد عرف معنى النضال . لقد تغلبت على الشك الذي يعتريني في كل مرة أواجه فيها مسألة التعرف بشخص جديد وذهبت الى هذا الرجل ، السى استراتي ، مليئا بالثقة . كان مستلقيا في فراش المرض . وفي اللحظة التي رأيته فيها جلس وصاح باليونانية مرحا : « جميل أن أراك ، قسما بالله جميل أن أراك ! »

الصلة الداخلية ، الصلة الوثيقة ، صلة حارة . تطلع كل منا الآخر وكأنه يحاول ان يتلهم بشيء ما - مثل نملتين تتلامسان

بلوامسهما • كان وجهه استراتيجي المجهد نحيلًا مفضنا وشعره
الاشيب اللامع يتدلى مشعثا على جبينه مثل شعر طفل • وكانت
عيناه تلتمعان مليئتتين بالخبت والعذوبة ، وشفته مدلاة بشهوانية •

قال لي : « لقد قرأت الخطاب الذي ألقيته في المؤتمر ذلك اليوم
وأحبته • لقد وضعتها عندهم ، عند أولئك الغربيين الحمقى •
يظنون أنهم سيمنعون الحرب بالقلة من حملة أقلامهم المسلمين ! أو
إذا ما نشبت الحرب فإنهم يظنون ان العمال سيثورون ويلقون
بأسلحتهم • يا للحمق • أنا أعرف العمال معرفة جيدة • سيجرون
أنفسهم الى المجزرة من جديد ويبدأون القتل • نعم • لقد وضعتها
عندهم بشكل ممتاز كما أقول لك • ان حربا عالمية أخرى ستنشعب
أردنا ذلك أم لم نرد ولذا فان علينا أن نستعد ! »

تطلع الى عيني مباشرة ومد يده النحيلة وشد على ركبتي
وقال لي ضاحكا :

« قالوا لي انك من المفترض ان تكون متصوفا لكنني أستطيع
ان أرى أنك تمتلك عينا ثاقبة مفتوحة وان صدرك ليس مليئا
بالهواء النقي وحده • هذا ما يعنيه كون المرء صوفيا أليس كذلك ؟
المهم • ماذا أعرف عن الامر ؟ كلمات • كلمات • أعطني يدك » •

• تماسكنا بالايدي ونحن نضحك • ونهض من فراشه قافزا
• كان في حركات هذا الرجل المفاجئة الرشيقة شيء من القط البري
• أشعل طباخ الكيروسين ووضع عليه « الركوة » ثم صاح بلهجة
النادل الغنائية « واحد سكر وسط » •

• استيقظت فيه ذكريات اليونان وبدأ دمه السيفالوني يغلي
• راح يغني بعض الاغنيات القديمة التي كان قد سمعها في الحي
اليوناني في برايلا :

لو أكون فراشة ،

وأطير قربك •

كانت اليونان تبرز من بين حناياه • لقدِ حنَّ الابن الضال الآن
للعودة الى ارض آبائه • وبغته اتخذ قراره وقد امتلأ بالانفعال
« سأعود الى اليونان » •

تعب فسعل وعاد الى فراشه وراح يرتشف قهوته •

جلس في سريره وهو يشعل لفافة بعد الاخرى وبدأ يتحدث
بتشتت عاطفي عن روسيا ثم عن كتابه وعن بطله الرئيسي ،
أدريان زوغرافي ، الذي يتألم لأنه يبحث طوال حياته عن صديق ولا
يجده • ان رغباته غير ممنهجة وقلبه متمرّد وعقله عاجز عن تنظيم
الفوضى •

تطلعت الى استراتي بكثير من الحب والعاطفة • وأحسست
ان حياته تواجه تغييرا جذريا وانه لم يقرر لنفسه الطريق الذي
سيسلكه • ظل يتطلع الي بعينيه الصغيرتين اللامعتين وكأنه يطلب
مسي العون •

قلت له ضاحكا : « ان ادريان ، بطل أعمالك ، هو أنت • أنتما
متشابهان • انك لست الثوري الذي تظن نفسك • انت الانسان
الثائر • للثوري منهج ونظام وانسجام في نشاطه ولجام على
قلبه • انت متمرّد وتجد صعوبة في البقاء متمسكا بفكرة واحدة •
الآن وقد حلت في روسيا يجب ان تنظم الامور في داخلك وتصل الى
قرار • ان عليك مسؤولية تحقيق ذلك » •

صرخ وكأنني أمسكت برقبته : « دعني وشأني » ولكنه بعد
لحظة سألني بصوت متألم : « هل انت واثق ؟ »

« أدريان زوغرافي الروماني مات » هتفت وأنا أمسك بذراع
استراتي النحيل وكأنني راغب في تعزيتة • « عاش أدريان زوغرافي
الروسي ! لقد مر وقت طويل منذ خرجت من احياء برايلا الضيقة •
قلق العالم وأمله قد توسعا وأدريان أيضا قد تضخم • دع الايقاع
الشخصي غير المنظم في حياته يتحد بإيقاع روسيا العالمي لكي
يحصل في النهاية على الانسجام والايمان • لقد أن الاوان لجعل توازن
ادريان اللطيف فعالا وكذلك وتوازن بانيت الذي كنت تبحث عنه منذ

سنوات عديدة لأن هذا التوازن الآن يستطيع أن يركز نفسه لا على
المصير المتقلب لفرد واحد بل على الجماهير المكافحة في شعب
جبار » .

« يكفي » صرخ استراتي مغتاظا . « يكفي ! أي شيطان جاء
بك الى هنا ؟ كنت أفكر ليلا ونهارا بما تقوله وأنا مستقل على
سريري . لكنك لا تسأل عما اذا كنت أستطيع . انك تصرخ بي ا
اقفز ! لكنك لا تسأل عما اذا كنت أستطيع » .

أجبتة : « سنرى يا بانتي تاكي ! لا تثر . اقفز وسنرى الى
أي مدى ستصل » !

- يا الله . هذه ليست لعبة . كيف تستطيع ان تتحدث هكذا ؟
انها مسألة حياة أو موت .

قلت وأنا أنهض : الحياة لعبة وكذلك هو الموت . لعبة - وربحنا
وخسارتنا يعتمدان على لحظة كهذه تماما .

- لماذا نهضت ؟

. من الافضل أن اذهب . أخشى أن أكون قد أتعبتك .
- لن تذهب الى أي مكان . ستبقى . سناكل . وبعد الظهر
تخرج معنا الى مكان ما .
الى أين ؟

- لرؤية غوركي . لقد أرسل لي رسالة وهو ينتظرني . سأرى
اليوم هذا الاستراتي الاوربي الشهير لأول مرة .
وكشف صوته الثائر عن حسد طفولي للنموذج العظيم .
قفز عن سريره وارثدى ملابسه ثم خرجنا وهو يمسك ذراعي
بشدة .

وراح يقول لي : « سنصبح أصدقاء . نعم . سنصبح أصدقاء
لأنني الآن بدأت أحس بالحاجة الى ضربك على أنفك . من الافضل
لك ان تعرف انني لا أستطيع أن أحس بالصدافة دون لكلمات . لا بد
لنا ان نتشاجر بين حين وآخر وان يحطم كل منا جمجمة الآخر - هل
تسمع ؟ هذا هو معنى الحب » .

دخلنا مطعما وجلسنا • وتناول قارورة صغيرة مليئة بزيت الزيتون كانت مربوطة الى رقبتة مثل تعويذة وسكب الزيت على حساء اللحم الكثيف ثم رش الكثير من الفلفل على الحساء من علبة صغيرة أخرجها من جيب صدره •

« زيت وفلفل » قال ذلك وهو يلحق شفتيه « تماما كما في برايلا » •

أكلنا بشهية • وراح استراتي يتذكر لغته اليونانية شيئا فشيئا ، وفي كل مرة تبرز في ذاكرته كلمة يصفق مثل طفل • وعند كل كلمة كان يهتف : « كيف أنت ؟ كيف أنت ؟ وكيف حالك اليوم ؟ » •

لكنه ظل حاضر الذهن وكل فترة كان ينظر الى ساعته • وبغثة نهض وقال : « آن الاوان • فلنذهب » •

نادى النادل واشترى أربع زجاجات من الخمر الارمني الممتاز وعبأ جيوب سترته برزم صغيرة من المازة ، وعبأ علبة سجائره ثم انطلقنا •

كان استراتي مستثارا ، لقد كان على وشك ان يرى غوركي العظيم للمرة الاولى • لا شك انه كان يتوقع عناقا ومائدة عامرة بالطعام ودموعا وضحكا وأحاديث تتلو أحاديث ثم عناقا ثم المزيد من العناق الى ما لا نهاية •

قلت له : « أنت متوتر يا بانيت » •

لم يجب • أسرع الخطى غاضبا •

وصلنا بناء ضخما وصعدنا الدرج • وظللت أتطلع الى مرافقي بطرف عيني • كنت أستمتع بمراقبة جسده النحيل الدقيق ، ويدي العامل اللتين لديه واللتين عرفتا الكثير من العمل ، وعينييه النهمتين •

سألته : « هل تستطيع ان تضبط نفسك الآن وقد أوشتك على رؤية غوركي ؟ هل تستطيع ان تمنع نفسك عن العناق والبصراخ ؟ »

أجابني غاضبا : « لا . ماذا تظنني ؟ انكليزي ؟ كم مرة علي أن أقول لك انني يوناني . سيغالوني . أنا أصرخ وأعانق وأعطي نفسي . تستطيع ، فضيلتك ، ان تمثل دور الانكليزي اذا شئت . » وأضاف بعد ثانية « واذا كان لا بد أن تعرف فأنا أفضل أن أكون وحدي . انني أرى وجودك مزعجا » .

ما كادت الكلمات تخرج من فمه جيدا حتى كان غوركي بغتة على عتبة السلم وعقب لفافة يلمع بين شفثيه . كان ضخما ذا عظام كبيرة وفكين غائرين وعظام بارزة في الوجنتين وعينين زرقاوين صغيرتين تتطلعان بقلق وحزن وفم مشدود بشكل لا يوصف .

راح استراتي يقفز الدرج كل ثلاث درجات بقفزة منذ ان رآه حتى أمسك بيده .

« بانيت استراتي » صرخ وهو يتهيأ للوقوع على كتفي غوركي العريضتين .

مد غوركي يده بهدوء ودون كلام . وتطلع الى استراتي بنظرة لم تفصح عن أية اشارة لفرح أو فضول .
بعد لحظة قال : ادخلا ؛

ومشى أمامنا بخطى هادئة . واستراتي يسير وراءه بعصبية والمآزة وزجاجات الخمر الاربع بارزة من جيوب معطفه .

جلسنا في غرفة مكتب صغيرة مليئة بالناس . لم يكن غوركي يتحدث الا بالروسية وصار من الصعب بدء الحديث . وراح استراتي يهذر باثارة كبيرة . لا أذكر ما قاله . لكنني لن أنسى حرارة حديثه ونبرة صوته وتشبيراته الكبيرة وعينيه المتقدتين .

وكان غوركي يجيب بهدوء وايجاز وبصوت لطيف عذب دون أن يتوقف عن اشعال سجائره . وكانت بسمته المريرة تعطي حديثه الهادىء جوا تراجيديا عميقا ومركزا . انك تحس فيه رجلا تحمل الكثير ، وهو مستمر في تحمل الكثير ، رجلا رأى مشاهد مرعبة الى

درجة انه ما من شيء ، ولا حتى الاحتفالات والتهنئات السوفياتية ،
ولا المجد والتكريم اللذان نالهما، يمكن أن يؤثر فيه بعد ذلك . كان
هناك حزن هادىء لا يعرف الشفاء يتدفق من وراء عينيه الزرقاوين .

قال : « كان بلزك أعظم أساتذتي . أذكر أنني حين قرأته
كنت أرفع الصفحات الى الضوء وأتطلع اليها ثم أهتف منزعجا : أين
يستطيع المرء ان يجد قوة كهذه ؟ أين يستطيع ان يجد السر
العظيم ؟ » .

سألته : « وماذا عن دوستويفسكي وغوغول ؟

- لا . لا . من الروس هناك واحد فقط . ليسكوف .

وصمت لوهلة . ثم أضاف : « ولكن فوق الجميع - الحياة . لقد
قاسيت الكثير وأنا أكن حبا عظيما لكل من يقاسي ويتألم . لا شيء
غير هذا » .

وصمت وهو يتابع بعينين نصف مغمضتين دخان لفافته الازرق .

أخرج بانيت الزجاجات ووضعها على المائدة . ثم أخرج صرر
المازة ولفاتها . لكنه لم يجد الشجاعة لفتحها . لقد أدرك انه ليس
الوقت للملائم . لم يتحقق الجو الذي توقعه . كان ينتظر شيئا
مختلفا تماما . كان يظن ان بطلي التجربة المعذبين سيشربان
ويصرخان ويلقيان خطابات مجيدة ويغنيان ويرقصان الى ان ترعد
الارض ذاتها . لكن غوركي كان ما يزال غارقا في تجربته ، وكان ما
يزال ، تقريبا ، بلا أمل . نهض . كان عدد من الشبان الموجودين
قد دعوه فانعزل معهم في المكتب المجاور .

« حسن يا بانيت » سألته حين ذهب « ما رأيك بالاستاذ ؟ »

فتح استراتي زجاجة بحركة متشنجة . وقال : « ليس لدينا
كؤوس . هل تستطيع أن تشرب من الزجاجة ؟ »

- « نعم » وأخذت الخمر . وقلت : « نخبا . الانسان حيوان
في صحراء يا بانيت . كل انسان محاط بهواية وليست هناك جسور
في أي مكان . لا تنزعج يا بانتيياكي . ألم تكن تعرف ذلك ؟ »

« اسرع وأشرب لكي آخذ دوري » • قال ذلك بقرف • « أنا عطشان » •

مسح شفتيه : « كنت أعرف • لكنني اظل أنسى » •

- تلك فضيلتك العظيمة يا بانيت • المؤسف هو ان تكون لا تعرف - ستكون عندها معنوها • وعند معرفتك المؤسف ان لا تظل تنسى - ستكون عندها باردا عديم الحساسية • بينما انت الآن انسان حقيقي - حار مليء بالسخافات ، شلة من الآمال والاحباطات - حتى الموت •

- حسن • لقد رأينا غوركي الآن • وهذا هو الامر • أعاد الزجاجات الى جيوبه وجمع الصرر والرزم • وخرجنا •

في طريق عودتنا قال لي : انني أرى أن غوركي بارد جدا • وأنت ؟

- أنا أرى انه مليء جدا بالهارة • شخص لا عزاء له •

ودمدم بانيت مغتاظا : كان عليه ان يصرخ ويسكر ويبيكي ليخفف العبء عن نفسه •

- ذات مرة حين قتل أعزاء أمير مسلم في احدى الحروب وجه الامير أمرا الى رجال قبيلته يقول : « لا تبكوا ولا تصرخوا لئلا تخف أحزانكم » هذا يا بانيت أكثر المبادئ التي يفرضها المرء على نفسه اثاره للاعتزاز وهذا ما يجعلني أحب غوركي كثيرا •

★★★

في اليوم التالي مررت بكاتدرائية موسكو الكبيرة ودخلتها • كان هذا المعبد اللامحدود في اتساعه والذي كان مثار افتخار روسيا القيصرية خاويا ومعتما وغير مدفا ، وكانت الاشياء الوفيرة المرافقة للقديسين المحاطين بالهالات تتجمد في عتمة الشتاء المهجورة • وكانت السيدة العجوز الصغيرة، التي تناوب على مائدة جمع الصدقات والمنكبة على صحن فارغ لا يحتوي على كوبيك واحد، غير كافية لتدفئة هذه الرعية المقدسة المرتعشة بردا بأنفاسها التي كانت تخرج كالدخان من فمها وأنفها •

وبغثة سمعت أصواتا ملائكية لرجال ونساء ينشدون الترانيم
في جناح النساء في الطابق العلوي • بحثت فوجدت الدرج الرخامي
الحلزوني وبدأت أصعد • واستطعت ان أميز فوقني - اثنين أو
ثلاثة من الرجال والنساء العجائز الصغار في العتمة • كانوا يصعدون
بدورهم وقد لفوا شالاتهم عليهم وراحوا يلهثون •

حين وصلت أعلى الدرج وجدت نفسي في مختلى دافىء ، معبد
كله من الذهب فيه شموع مضاعة وأناس راكعون ، والحرم مليء
بالشماسين والقسس والمطارنة اللابسين الذهب والحريير •

لن أنسى دفاء هذا المختلى وحلاوته • كان الرجال في معظمهم
عجائز بسبلات ★ جانبية. كان يبدو عليهم أنهم نبلاء سابقون
أو بوابون في بيوت نبلاء • وكانت شعور مقلنسة بخمارات ناصعة
البياض • وكان المسيح يلتمع على حاملة الايقونات حسن التغذية
متورد الوجه وصدرة مغطى بالاوسمة - يدان بشريتان وعينان وقلب
من الفضة والذهب •

ظلمت واقفا وسط الجمع الراكع • وجدت من المستحيل علي أن
أضبط مشاعري • بدا لي هذا الحشد وداعا يقطع نياط القلب ، كأنما
كان هناك شخص عزيز جدا يرحل الى مكان بعيد ، في رحلة خطيرة ،
وأصدقائه هنا يودعونهم • كان آخر المؤمنين يودعون بمرارة صورة
الههم الحبيبة ، بينما كان المؤمنون الاوائل في الصورة الجديدة
لـ « السر » الجديد يندفعون دون رحمة ويحطمون الاصنام القديمة
الهشة ••••• اننا نعيش لحظة حاسمة قاسية يموت فيها دين قديم
ويولد فيها دين جديد مضرج بالدم •

ان الازمنة التي نمر بها ، والازمنة التي هي أكثر رهبة والتي
سيمر بها أبناءنا وأحفادنا هي أزمنة صعبة • غير ان الصعوبة كانت
دائما منشطا للحياة ، توقظ دوافعنا وتثيرها كلها ، الخيرة منها
والشريرة لتجعلنا نتجاوز العقابيل التي تبرز أمامنا بشكل مفاجيء •

★ السبلة : ذلك الجزء من اللحية الذي ينمو على جانبي الوجه .

وبهذا نصل أحيانا الى نقطة أبعد بكثير مما كنا نأمل : بحشد قوانا كلها ، التي كانت لولا ذلك ستظل نائمة أو ستظل تعمل على مضض ومن دون تركيز . وذلك لأن هذه القوى المحتشدة ليست قوانا وحدنا وليست أيضا قوى بشرية فقط . القوى التي تتحرر فينا عند الدافع الاول الذي يعمل فينا من أجل ان نقفز هي وحدة من قوى ثلاثية : قوى شخصية وقوى انسانية وقوى قبل انسانية . وفي اللحظة التي يتحفز فيها الانسان المتحفز من أجل القيام بالقفزة ، تتحفز في أعماقنا الحياة في الدنيا كلها وتنمي دوافعها . وهذا ما يحدث حين نحس بوضوح بأبسط الحقائق التي غالبا ما ننساها في لحظات الاسترخاء المريحة والعقيمة : وهي ان الانسان ليس خالدا لكنه يخدم شيئا ما أو شخصا ما خالدا .

حين انتهت طقوس الصلاة وبدأ آخر المؤمنين ينزلون الدرج الرخامي ببطء اقترب مني شاب هزيل شاحب . كانت له لحية قصيرة شقراء وعينان زرقاوان متعبتان وكان دائم السعال . وبادرني بالحديث .

سألني مستثارا : « هل أنت واحد منا ؟ ألم تكن المسيح ؟ »

أجبته : « أنا لا أخونه ان لم يخني » .

قال الشاب . مستغربا كماأتي : « المسيح لا يخون أبدا . انه لا يخون . هو يخان فقط . ولكن تعال . الطقس بارد في الخارج . دعنا نذهب الى بيتي ونتناول بعض الشاي الساخن » .

كان والده نبيلًا سابقًا يمتلك منزلا كبيرا ، حشر الآن في غرفتين وملئت الغرف الاخرى بعائلات الطبقة العاملة - وقد أعطي أقل الغرف شمسا لأنه ، على خلاف العمال ، ليس لديه أطفال بينما أبناء العمال يريدون أن يستمتعوا بالشمس . وكان الشاب يعمل في معمل لكي يكسب عيشه لكنه كان شاعرا وهو يكتب الاشعار كلما اتاحت له فرصة صغيرة .

قال : « أنا الآن بصدد كتابة قصيدة طويلة . حوار : المسيح يتحدث مع عامل . الوقت صباح وصفارات المعمل تنطلق ، والثلج

منهمر في الخارج والطقس بارد جدا • الرجال والنساء يهرعون الى معاملهم ، مرتجفين بردا ، وأجسادهم مشوهة من التعب • العامل الذي لدي يمسك بيد المسيح ويقوم معه بجولة على المصانع ومناجم الفحم والموانئ • والمسيح يتنهد ويسأل :

- لم هؤلاء الملعونون كلهم ؟ ما الذي فعلوه ؟

ويجيبه العامل : لا أعرف • قل لي أنت •

ويأخذه بعد ذلك الى كوخه الرطب بموقده المطفا وأطفاله الجائعين الباكين • يغلق العامل الباب • ويمسك بذراع المسيح ويصرخ : يا ربان ! كيف نتصرف ازاء القيصر ؟ ما الذي لقيصر نعطيه اياه وما الذي لنا لناخذه ؟ « •

وتوقف الشاب وهو يلثت وراح يحرك يديه الى الوراء والى الامام بقوة وقلق •

سألته : وبعد ؟ بماذا اجاب المسيح ؟

- « لا أعرف » اجاب آخر المؤمنين وهو يتطلع حوله خائفا :
« لم أعرف بعد او بالاحرى وبدقة اكبر لم أعد أعرف » •

وتهاوى الشاب على كنبه ممزقة ووجهه بين يديه وهو يئن :
« لماذا ؟ لماذا ؟ »

وخطر لي انه هو الآخر يسأل • يسأل ولا يجد جوابا • وانني اتساءل ما اذا كان المسيح قادرا على الجواب • لم لا يسأل لينين ؟

سألته : لم لا تسأل لينين ؟ وكنت أتكلم رغما عني بغضب •

- لقد فعلت •

• وماذا كان جوابه ؟

- « يا عمال العالم اتحدوا » فقفزت مهتاجا وصرخت : ولكنني أسأل عن الروح ، يا فلاديمير اليتش ، عن الله ، عن الابدية !

- ثم ؟

- رفع لينين كتفيه وضحك متمتما : « بورجوازي ••• » • ثم سحق عقب لفافته تحت كعبه :

الغابة كبيرة والريح مواتية

هيا يا بي كو اعمل قوسك !
 من هنا ، من هنا ، من هنا ، ومن هناك !
 خنزير ! من يقتل الخنزير
 يا بي كو المسكين ؟ بي كو !
 ولكن من يأكله يا بي كو المسكين ؟
 هيا ! قطعه • ستأكل الاحشاء •
 بام ! تدرج فيل على الارض !
 من قتله ؟ بي كو •
 من سيأخذ النابن الثمينين يا بي كو المسكين ؟
 صبرا يا بي كو • سيعطونك الذنب
 (أغنية قزمية)

كلما مرت الايام احسست بسحر روسيا السري يتغلغل أعمق
 فأعمق الى داخلي • لم تكن المسألة ببساطة مسألة المنظر الغريب
 للشتاء القطبي الذي أذهلني ، ولا رؤيتي الاولى للحياة السلافية -
 أو الشعب أو القصور أو الكنائس أو التريوكات ★ أو البالالايا ★
 أو الرقصات من حولي في كل مكان • كان شيئاً آخر ، شيئاً أكثر
 غموضاً وعمقاً • هنا في الجو الروسي احسست بالقوتين الاصليتين
 المولدتين للعالم ، بوضوح أكبر وبشكل محسوس تقريبا ، وهما
 تتصادمان • الى هذا الحد يتغلغل جو الحرب المحيط بك الى أعماقك
 بحيث أنك أردت أم لم ترد تلقي بنفسك في غمار الكفاح الى جانب
 احدي هاتين القوتين المولدتين للعالم أو مع الاخرى وتحارب • وما
 تذوقته في وجودي القصير هذا فقد رأيتة هنا قاسيا ورهيبا في جسد
 روسيا الكبير • لقد كان الكفاح ذاته ، وتحديد المعركة المشابهة ،
 بين الخصمين الازليين نفسيهما ، الضوء والظلمة • وهكذا توحد
 تدريجيا كفاحي مع كفاح روسيا ، سيكون خلاص روسيا هو خلاص
 أيضا فالضوء واحد لا يتجزأ وحيثما أنتصر أو هزم فانه ينتصر
 أو ينهزم في داخلك •

★ الترويقة : عربة روسية تجرها ثلاثة جياد .
 ★★ آلة موسيقية روسية شبيهة بالفيثار .

من اللحظة التي وصلت فيها أخيرا ، في أعماقي ، الى هذا التناظر صار مصير روسيا هو مصريي . لقد كنت أكافح وأناضل الى جانبها . ولاحساسي بضيق موسكو انطلقت لرؤية الحبة الواسعة بأكملها أولا - من مورمانسك على القطب الشمالي الى بخارى وسمرقند ومن لينينغراد الى فلاديفوستوك - وفي كل مكان كان الاعداء والحلفاء الجذريون يتصارعون .

كل انسان يحمل صليبه وكذلك كل شعب . الاغلبية تحمله على اكتافها حتى الموت ، ليس هناك من يصلبها . سعيد هو الانسان الذي يصلب لأنه وحده الذي سيستمتع بالقيامة وروسيا قد صلبت . فيما كنت أتجول بين جمهورياتها وقراها كنت أرتجف من الرهبة المقدسة . لم يسبق لي أن رأيت كفاحا كهذا وألما كهذا على الصليب وأمالا كثيرة كهذه . أدركت لأول مرة كم يصعب على الانسان ان يقرر القيام بخطوة الى الامام لكي يقهر حبه السابق ، والهه السابق ، وعاداته القديمة . وعلى الرغم من ان هذه الاشياء كلها كانت ذات مرة روحا تحته على الصعود فانها تتحول الى مادة رصاصية مرهقة مع مرور الزمن وتتساقط في منتصف طريق الرحلة - وهي الآن تمنع النفس الخلاق الجديد من المرور .

كان ملايين المويك يقاومون . لم يفهموا ولم يشاؤوا أن يخلصوا . أمسكوا بالمسامير ودقوها في « الام » . بعملهم في التراب جيلا بعد جيلا تحولوا الى تراب وصاروا يكرهون الذهب . العمال الجائعون الجرحى - وكلهم لهب - كانوا يدفعون الجماهير البسيطة لكي تلتحق بطريق الخلاص باللفظ حينما وبالغف حينما آخر .

وكانت شعوب العالم تقف ، هادئة شبعانة ، حول الحبة الروسية التي كان يتصارع فيها الضوء مع الظلام . وكانت تفهقه : « انتهت ! روسيا انتهت ! » لأن المتعلقين الشبعانين لا يستطيعون أبدا أن يفهموا القوى الانبعائية اللامرئية للصلب . ولكن كما قال المسيح ، انه لكي تصبح حبة القمح سنبله قمح ، يجب أن تنزل الى الارض وتموت . كانت روسيا تعاني أمرا مشابها - مثل حبة من القمح ، مثل فكرة عظيمة .

يروى أحد الاسفار الابوكريفاوية * كيف ان الحوارى المحبوب
يوحنا قد رأى رؤيا مذهلة وهو يقف باكيا امام المصلوب . لم يكن
الصليب من خشب بل من نور ولم يكن مصلوبا عليه رجل واحد بل
الاف الرجال والنساء والاطفال والكل يتوجعون ويموتون . ارتعد
الحوارى المحبوب وهو عاجز عن تحديد أو تثبيت أي من الاشخاص
العديدين . كان الجميع يتغيرون باستمرار ويركضون ويختفون .
كان بعضهم يعود مرة أخرى . وبغثة تلاشى الجميع ولم يبق على
الصليب أي شيء ، الا (صرخة) مصلوبة .

هذه الرؤيا تتماوج اماننا اليوم . لكن مخلص اليوم ليس رجلا
واحدا بل هو شعب بأسره . روسيا كلها ، ملايين الرجال والنساء
والاطفال مصلوبون ويتألون . انهم يختفون ويفيضون ولا تستطيع
ان تميز شخصا محدا واحدا ، ولكن من هذه الميئات الوفيرة كلها
من المؤكد ان « الصرخة » سوف تبقى .

لا حاجة لأي شيء آخر . هذه هي الطريقة التي سيتم فيها
خلاص العالم مجددا . وماذا يعني « الخلاص » ؟ يعني ايجاد مبرر
جديد للحياة لأن المبرر القديم قد استنزف قواه ولم يعد قادرا على
دعم الصرح الانساني ، سعيد هو الانسان الذي يسمع (صرخة)
عصره (لكل حقبة صرختها الخاصة بها) ويعمل بالتعاون معها .
هو وحده الذي يجد الخلاص .

اننا نعيش حقبتنا وبالتالي لا نراها . ولكن ان حدث مع الايام
ان أضرمت الفكرة الجديدة ، التي تصلب اليوم ، العالم وجددته ،
فاننا نكون قد دخلنا الحلقة الاولى من النار . بعد قرون ربما سميت
هذه الحقبة عصرا وسيطا وليس نهضة . العصر الوسيط - وبتعبير
آخر فترة توقف . تخمد حضارة ما وتفقد قوتها الخلاقة وتنهار ،
ويجهد (نفس) جديد تحمله طبقة ، جديدة من البشر ، بحب
وصرامة وايمان ، لخلق حضارة جديدة .

* الابوكريفا : أربعة عشر سفرا تلحق احيانا بالمعهد القديم من الكتاب
القدس لا يعترف البروتستانت بصحتها - المورد .

وليس خلق هذه الحضارة الجديدة أمرا مؤكدا . لا شيء مؤكد مسبقا في أي عمل ابداعي . قد يكون المستقبل كارثة شاملة ، وقد يكون حلا وسطا جبانا . لكنه قد يكون أيضا انتصارا لـ « النفس » الخلاق . وفي هذه الحالة تكون مرحلتنا الانتقالية هي المرحلة التي نعاني فيها الام العمل الشديدة لحضارة في طور الولادة .

لا شيء مؤكد . ولهذا السبب ذاته على كل شعب ، وكل فرد ، مسؤولية جسيمة في عصرنا هذا غير المبتوت أمره وغير المتبلور ، وهي مسؤولية أكبر بكثير من أية مسؤولية سابقة . وفي عصر غير مبتوت فيه ومليء بالاحتمالات يكون لاسهام شعب أو فرد قيمة لا تقدر .

ما هو واجبنا اذن ؟ أن نميز بدقة اللحظة التاريخية التي نعيشها وأن نزع بقدراتنا الصغيرة في معركة محددة . وكلما كنا على هيئة التيار الذي يدل على الطريق استطعنا أن نعين الانسان في ارتقائه الصعب غير المؤكد والمحفوف بالخطار نحو الخلاص .



حين أنهيت حجي ومكنت في بخارى عدة أيام أحسست بالشمس اللطيفة تقع علي أخيرا وتدفع جسدي وروحي بعد برودة سيبيريا اللاانسانية . وصلت اليها قبل الظهر بقليل . حرارة لاهية ، لكن الشوارع كانت قد رشت بالماء وكان الهواء عابقا برائحة الياسمين . وكان المسلمون بعماماتهم الملونة جالسين تحت ظلات من القش وهم يضيفون الحصر ويشربون المرطبات ★ المنعشة ، وكان شبان بدينون بقمصان مفتوحة يغنون الاغاني ★★ الشرقية العاطفية وهم يجلسون على كراس مرتفعة في المقاهي . كنت جائعا وطمأنا جدا فاشترت بطيخة وجلست في الظل الذي يلقيه جامع كوكبة Kok - Kouba الشهير . وضعت البطيخة على ركبتي وقطعتها وبدأت أكل .

★ sherbet الشربات .. عصر الفواكه .
★★ amanèdhes اغان عاطفية تكرر فيها كلمة (امان)

وتغلغل شذاها وحلاوتها الى عظامي . لقد كنت مثل زهرة اريحا
الذابلة ، غطست في برودة هذه البطيخة وحيتت من جديد .

مرت بي فتاة صغيرة ، يقترب عمرها من السابعة ، وظهرها
مغطى بعدد كبير من الاشرطة الصغيرة جدا وفي كل منها صدفة أو
خرزة زرقاء أو هلال لدفع أذى العين الشريرة . حين مرت من أمامي
كان ردفاها يهتزان مثل ردفى امرأة ناضجة وعبق الجو برائحة
المسك .

عند الظهر صعد المؤذن ذو اللحية البيضاء . والعمامة الخضراء
الى المئذنة المواجهة لي ووضع راحتيه على أذنيه ثم تطلع الى السماء
وبدا يدعو المؤمنين الى الصلاة بصوت عذب جهوري . وفيما كان
يؤذن عبر الجو اللاهب طائر لقلق حتى وصل الى رأس المئذنة فحط
عليها برجل واحدة .

جلست أستمتع ملء أذني وأتطلع ملء عيني . ورحت أستمتع
بالفاكهة العبقة الاحلى من الحلاوة . كنت سعيدا . أغمضت عيني
ولكنني لخشيتي من أن أنام وأفقد هذه السعادة كلها فتحتهما من
جديد . كانت ساحة بخارى الشهيرة ، الريجستان ، خالية أمامي .
في الماضي كان الحجاج المهووسون يأتون في كل ربيع من كل أرض
اسلامية ليندبوا الحسن والحسين ، ابني علي المقتولين ظلما . كانت
القوافل تصل محملة بالطيب والتفاح والبلح والعاشرات المقدسات ،
وكان الشبان يأتون على جياد بيضاء وبأيديهم حمامات بيضاء ،
ورؤوسهم الحليقة مدهونة بالرماد والتبن ، وخلفهم المؤمنون
المسعودون بجلابيبهم البيضاء البراقة وهم يضربون رؤوسهم
بسيوفهم حتى يسيل الدم على شواربهم المعقوفة ولحاهم
وجلابيبهم البيضاء . كانوا يعينشون الحداد أربعين يوما وأربعين
ليلة وهم يندبون : حسن ! حسين ! حسن ! حسين ! وبعد ذلك ، وهم
ما زالوا في حدادهم ، وما زالوا مخرجين بالدماء ، يستلقون تحت
الاشجار المزهرة ويضاجعون المومسات المقدسات .

ولكن ساحة ريجستان الآن خالية ، والمسجد الملون العجيب نصف
مهدم . لقد كانوا أطيفا ، صاح الديك فاختلفوا .

نحو ماذا كان الناس يوجهون هذا الهوس القدسي وهذا الصخب وهذا النواح ؟ وماذا كان هدفه ؟

هيمنت المرارة على روحي . لقد تعبت من بعث الموتى . ولكي انام وأهرب منهم أغمضت عيني . حلمت حلما . شفتان عاصفتان ، شفتا امرأة ، معلقتان في الهواء دون وجه . تحركتا وسمعت صوتا : « من هو ربك ؟ » قلت دون تردد « بوذا ! » ولكن الشفتين تحركتا من جديد : « لا . لا . لا . ايبافوس * ! » .

قفزت على قدمي . لقد انكشف العمل الخبيء كله الذي كان يتم خلال الاشهر الثلاثة الماضية في حنايا عقلي . لقد انفتح باب المصيدة المؤدي الى أعماقي ورأيت . خلال هذا الوقت كله كنت أتألم وأكافح مثل أفعى بين الاشواك ، أجاهد لخلع جلد ، وارتداء جلد جديد . كنت أتألم دون أن أعرف السبب . والآن جاء هذا اللحم : بوذا هو الجلد القديم وايبافوس هو الجديد .

ايبافوس ، اله اللمس ، الذي يفضل اللحم على الظلال وكالذئب في الامثال لا ينتظر تحقق وعود الآخرين حين يتعلق الامر باملاء بطنه . انه لا يثق بعين ولا بأذن انه يريد ان يلامس ، أن يقبض على الانسان والتراب وأن يحس بحرارتها تمتزج بحرارته ويحس بهما يتحدان به . حتى انه يريد ان يحول التراب الى جسد لكي يستطيع ملامسته . الاله الذي يعتمد عليه أكثر من الالهة كلها والعملية أكثر منهم كلهم ، هو ذلك الذي يمشي على الارض ويحب الارض ويتمنى ان يعيد خلقها « على صورته ومشابهة له » - هذا هو الهى .

لقد أنجزت روسيا معجزتها دون ضجيج ودون كلمات . ومثل الافعى التي لم ينم جلدها الجديد بعد والتي تحس بالبرد فتزحف تحت الشمس لتتفياً ، كذلك كانت روحي تزحف تحت الشمس

* اعدا زيوس بلمسة منه « ايو » الى بشر وولدها ايبافوس فهو « ابن اللمسة » .

الجديدة . حين استيقظت لم أعد الشخص ذاته لأنني في السابق لم
أكن أعرف وقد عرفت الآن . انني اظل أسأل نفسي : كيف يمكن
لحلم أن يغير حياة انسان ؟ انه لا يغيرها . هكذا أجيب . انه فقط
يعلن ان تغييرا قد حدث .

بأي اتجاه يوجه الناس جهودهم المسعورة التي يحسون أن
عليهم أن يقوموا بها ؟ ما الهدف ؟ في الماضي كنت ابتسم بسعادة
وأجيب : « سلسلة أوهام . العالم غير موجود . الظلم والجوع والفرح
والحزن والجهد كلها غير موجودة . كل شيء طيف . نفخة ويتلاشى
كل شيء » .

الا انني قفزت الآن واقفا ولدي شعور بالارتياح . كان الظلام
قد بدأ يهبط على ساحة ريجستان . رفعت رأسي : « ما الهدف ؟
لا تسأل . لا أحد يعرف حتى الله ، لأنه يتقدم معنا . فهو أيضا ،
يبحث ويتعرض للخطر ، هو أيضا قد تكرر للنضال . الجوع والظلم
موجودان في القلب مثلما توجد تلك الوفرة من الظلام . وهذه الاشياء
التي تراها ليست أطيافا . ومهما نفخت فلن تختفي . انها لحم
وعظم . المسها ، انها موجودة . ألا تسمع صرخة في الهواء ؟ انها
تصرخ . ما الذي تقوله في صراخها ؟ النجدة ! ولن تصرخ ؟ لك أنت .
لكل انسان . انهض . ليس واجبنا أن نطرح أسئلة بل ان يشد كل
منا يد الآخر ، كلنا معا ، وان نصعد المرتقى » .

★ ★ ★

كان العالم قد تغير حين توقفت في برلين مرة ثانية ثم في فيينا
في طريق عودتي الى اليونان عند نهاية هذه الأشهر الثلاثة . لا ،
ليس العالم - بل عيناى ، الرقصات الصفيقة ، الموسيقى الهمجية
الحديثة ، النساء المتبرجات والرجال المتبرجون ، الابتسامة
الساخرة الجارحة ، الشره للذهب وللقلبات - كل ما كان يبدو سابقا
غربيا ومغويا لي صار الآن يثير في القرف والرعب . صرت أرى أنها
نذر النهاية . رائحة كريهة معلقة في الجو وكأن العالم يتعفن . لا بد
ان سدوم وعمورة كان لهما الرائحة ذاتها .

ولا بد ان بومباي كانت كذلك قبل ان تتحول الى رماد . ذات ليلة احسست ان مدينة اللذة الملعونة تنهض من جديد في افكاري وأنا اجوب شوارع فيينا المضاعة التي تعج بالنساء والضحك . كنت ما ازال فتيا جدا حين رايت بومباي اول مرة ، وغير قادر في حينها على اكتشاف الرسالة الرهيبة التي تحملها لنا . ولم أبحث عن هذه الرسالة . لم يدخل عقلي أبدا في ذلك الحين ان مصير بومباي يمكن ذات يوم ان يكون مصيرنا أيضا ، كان العالم في حينها ما يزال بالنسبة لي متينا متشبثا بحذر بكتفي المسيح والآن ؟ قررت ان اجري تعديلا طفيفا على رحلة عودتي من أجل رؤية بومباي مرة أخرى .

كانت السماء غائمة قليلا وعشب الربيع قد غطى العتبات ، والدور والشوارع مهجورة خالية كما أحبها . تجولت وحدي في المدينة الفارغة وأنا أصفر .

كانت البيوت مفتوحة ، دون أبواب ، ودون مالكين . الحانات والمعابد والمسارح والحمامات كلها مهجورة . وكانت ما تزال على الجدران ، بألوان باهتة ، صور راقصات عاريات وملائكة حب تبدو عليهم البلاهة وديوك وكلاب وصور بذئنة لعلاقات جنسية بين البشر والحيوانات .

ورن ، بغتة ، في أذني صوت : « فليمكنني الله من أن أمشي في باريس ولندن وأنا أتحدث بالروسية الى الرفاق » ارتعشت ، وعبر جسدي نذير رهيب .

لقد كانت خزائن بومباي مليئة ، نساؤها صفيقات ، حديثات الاستحمام وعقيمات ، ورجالها عديمو الايمان ساخرون ومنهكون ، وكل الآلهة المتنكرة للاله - أفريقية وأفريقية وأسيوية - كانت هناك في حشد وضيع متجمعة في مجموعة شر متواضعة . كانت تبتسم بدهاء وهي تتقاسم الهبات والبشر . والمدينة كلها ممددة على ظهرها عند سفح فيزوفوس وهي تفهقه باستهتار .

صعدت مرتفعا وتطلعت . الآن بعد هذه السنوات الكثيرة

وهذا الكفاح الكبير فهمت ، بوركت هذه المدينة الخاطئة لأنها نقلت
الينا رسالة ان العالم كله هو بومباي قبل الهلاك بقليل . ما فائدة
عالم كهذا بنسائه الصفيقات ورجاله الكفرة ، بسفالته وظلمه
ومرضه ؟ هؤلاء التجار الدهاة ، والقناصة آكلة لحوم البشر ،
والقسس يتاجرون بالله بالمفرق ، وهؤلاء القوادون والخصيان لم
يعيشون ؟ ولم يجب أن يكبر هؤلاء الاطفال كلهم ليشغلوا الأماكن
التي شغلها أبائهم في الحانات والمعامل والمباغي ؟ هذه المادة كلها
تعيق الروح عن المرور . ومهما كانت الروح التي كان العالم يمتلكها
ذات مرة فقد أنفقها في خلق حضارة باهرة من الافكار والاديان
والفنون والحرف والعلوم والانجازات . والآن يستنزف هذا العالم
قواه . فليات الهمج لفتح هذا الطريق المسدود ولشق مجرى جديد
للروح .

أرى أعدادا غفيرة من المضطهدين والجائعين يخدمون الموائد
العامة التي يجلس عليها السادة متبلدين من التخمة والافراط في
الشراب . الحلم يثير أولئك الذين يقومون بالهجوم ، بينما
الآخرون ، أولئك الجالسون ، يسمعون الضجة بغتة . يلتفتون . في
البداية يضحكون ثم تشحب وجوههم ويتطلعون بقلق فيدركون ،
يدركون ان عبيدهم وخادمتهم ومزارعيهم والعمال والحفاة قد
ثاروا . لحظة قدسية ! ان أعظم انجازات الفكر والفن والعمل قد
تحققت خلال أزمنة صعود الانسان الخطر .

يتجمع السادة معا ليقاوموا ويقاومون . لكن زخم ازماتنا كله
ضدهم . لقد أكلوا وشربوا وخلقوا حضارة وفقدوا طاقتهم ، وجاءت
اللحظة لتحقق الصيغة الاخيرة لواجبهم . يجب أن يفنوا .

حانما تصبح الموائد عامرة سيبدأ العبيد بأن يسمنوا ويتبدلوا
بدورهم . جماهير مظلومة أخرى ستنهض من التراب ومعها الجوع
والحلم ، جنرالا الروح ، وتشق الطريق مرة أخرى . وسيستمر هذا
الايقاع الى الأبد دون توقف .

هذا هو القانون ، بهذه الطريقة وحدها تستطيع الحياة ان تجد
نفسها وتتقدم . العضويات الحية كلها (والأفكار والحضارات

عضويات حية) تحس بهذه الحاجة الداخلية التي لا تقاوم ، ومن ورائها الالتزام ، بأخذ ما تستطيعه مما يحيط بها وتمثله بحيث تجعله لها ومنها - لكي تحكم العالم اذا استطاعت . والفكرة الجديدة هي أشد الوحوش جوعا وتشبثا .

ولكن في الوقت ذاته يبدأ قانون جديد بالعمل ، القانون القاسي والقائل بأنه بمقدار ما تؤدي العضوية الحية واجبها من أجل التوسع والتحكم فانها بالمقدار ذاته ، وأكثر ، تقترب من سقوطها .

وربما كان الصلف الخطيئة الوحيدة التي يعتبرها التوافق الشامل خطيئة مميتة فلا يغفرها . ان تكامل سلطة العضوية مقدر له ان يولد دمارها .

وهناك أيضا هذه الحقيقة غير المفهومة : لأن العضوية الحية قد أتمت واجبها ، تحديدا ، فهذا هو سبب افنائها . ولو أنها لم تتم هذا الواجب لعاشت - متبلدة - لوقت أطول بكثير . دون ازعاج للآخرين ودون أن تنزعج هي نفسها .

ويبدو ان هذا الواجب المدمر محتوى في قلب العضوية لكي يساعدها على الاختفاء حالما تكمل مهمتها في التفوق والسيطرة . يساعدها على الاختفاء لئلا تقف في طريق عضوية أخرى تكون قد بدأت ترفع يدها ثائرة ، وترغب في أن تحكم العالم بدورها . ويبدو ان هناك فعالية مدمرة عظيمة موجودة في كل ذرة من ذرات الحياة ، وكأنما كل ذرة منها قد كشفت فيها زخم الحياة بشموليتها ، وهي جاهزة للتفجر عند أية صدمة . ان الحياة تحرر توقها الداخلي بهذه الطريقة وتتقدم .

ولا يعرف قادة البلشفيك ذلك ويجب أن لا يعرفوه . ان القدر يعصب عيونهم ليمنعهم من رؤية الى أين هم ذاهبون . فلو رأوا لتناقص زخمهم .

انني أجاهد للاحاطة بالدائرة الكاملة للنشاط الانساني بأقصى طاقتي وللتكهن بالريح التي تثير هذه الامواج البشرية كلها . أنكب

على العصر الذي أعيش فيه ، ذلك القوس الصغير ، الذي لا يدرك بالحواس ، من الدائرة الكبيرة وأجهد للحصول على رؤية واضحة للواجب الحالي . ربما كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع فيها انسان ان يحمل شيئا خالدا في اللحظة الزائلة من حياته ، خالدا لأنه منسجم مع ايقاع خالد .

وأحس بعمق أكبر ان انسانا مكرسا للكفاح يسمو من المعادن الى النباتات ثم من النباتات الى الحيوانات ومن الحيوانات الى الانسان ثم يكافح من أجل الحرية . ويأخذ المكافح مظهرا جديدا في كل عصر حاسم . انه اليوم قائد البروليتاريا الناهضة يطلب العدالة ، والسعادة والحرية ويقدم للرفاق شعارات ويشجعهم بينما ليس لدى أحد ذلك السر الرهيب في ان العدالة والسعادة والحرية تظل تبتعد أكثر فأكثر .

وانه لمن المفيد والصحيح ، على أية حال ، ان يؤمن الذين يكافحون من أجل مثل أعلى بأنهم سوف يحققونه وانهم حالما يصلون الى ذلك فان السعادة ستطفي على العالم كله . بهذه الطريقة تتزود الروح بقلب قوي وتستجمع الشجاعة للارتقاء الامتنامي والامر مشابه تماما لسائق العربة الذي يضع كمشة من العلف أمام فم حصانه . ويمد الحصان ، الذي يجر العربة المحملة الثقيلة ، عنقه ويأكل عشبة لكن العلف يبتعد أكثر ، ويتبعه الحصان ويجاهد للوصول اليه وهكذا . يتقدم ويصعد المرتقى .

انني خاضع للاحترام . وسط هذه الحشود الغامضة أميز بوضوح (صرخة اللامرئي) الذي يصعد ويحث البشرية على الصعود معه . ولو انني عشت في زمن آخر لميزت هذه الصرخة بين النبلاء والمواطنين والحرفيين والتجار الذين كانوا ثائرين في ذلك الحين ولكنك تحالفت معهم . البشر منجرفون في هجمة أزلية أقوى منهم ، اندفاعة تجرفهم الى الاعلى وتتركهم حين ينهكون في النهاية ، ثم تتوجه الى مادة خام أخرى لم تفقد قوتها .

ان من واجبنا ان نتبع هذه الهجمة ونعنيها في عصرنا وان نعمل بالتنسيق معها . ولقد تملك اليوم الحشود التي جاعت واستعبدت .

هذه الحشود الآن هي مادتها الخام ، ولا تستطيع الجماهير ان تفهم هذه الاندفاعة التي لا ترحم ، ويطلقون عليها أسماء صغيرة لتمكنهم من جعلها مفهومة بعقولهم الضيقة وملائمة لحاجاتهم اليومية .

يسمونها السعادة والمساواة والسلام ، ولكن (المكافح) اللامرئي يترك هذه الاوهام الخادعة لتشجع الجماهير ويقاقل بشدة وبلا رحمة ليتجاوز العقول والاجساد وليبدع رسالة الحرية من صرخات النقمة والجوع المعاصرة كلها .

انه لفي غاية الخطورة ان تنحني لترى ، قد يتملكك الرعب عندها لأنك ستكتشف سرا مروعا : فـ (المكافح) ليسن مهتما بالبشر ، انه مهتم باللهب الذي يشعل الناس ، ومضماره خط أحمر يثقب البشر وكانهم سبحة من الجماجم ، انني أتبع هذا الخط الأحمر فهو وحده بين الأشياء في العالم كلها ما يثير اهتمامي على الرغم من أنني أحس به يمر في مجتمتي ذاتها ، يخرقها ويحطمها . بارادتي الحرة أقبل الضرورة .

ولكن فلنتوقف عند الحدود الانسانية ، ففي داخلها فقط نستطيع ان نعمل وأن نؤدي واجبنا ، دعنا لا نتجاوزها الى الحافة ، لأن الهاوية تفغر فاهها عند الحافة وقد نمتلىء رعبا ، ان بوذا يقف على الحافة بابتسامته الهادئة الحاقدة ، ذلك المشعوذ العظيم الذي ينفخ فيخفي العالم ، لكننا لا نريد للعالم ان يختفي ولا نريد من المسيح ان يحمله على كتفيه وينقله الى السماء ، نريد ان يبقى العالم لكي يعيش ويكافح معنا هنا ، ونحن نحبه تماما كما يحب الخزاف فخاره ويرغب فيه ، فليست لدينا مادة خام أخرى لنعمل بها ، ولا حقل متماسك فوق الهيولى لنبذر ونحصن فيه .

٢٧ - القوقاز

كنت ما أزال في ايطاليا حين تلقيت برقية من وزارة الشؤون الاجتماعية في اثينا تسألني ما اذا كنت موافقا على تسلم المديرية العامة في الوزارة ، مع مهمة محددة هي الذهاب الى القوقاز حيث يعيش مئات الآلاف من اليونانيين في خطر . وكان علي أن أحاول ايجاد طريقة ينتقلون بها الى اليونان وينجون .

كانت المرة الأولى في حياتي التي تتاح لي فيها فرصة الانخراط في عمل مع أناس أحياء ، من لحم ودم بدلا من الصراع أكثر من ذلك مع النظريات والأفكار والمسيحات والبوذات . سررت ، لقد تعبت من الملاكمة الوهمية ، ومن التجول من مكان الى مكان حاملا معي أسئلة وباحثا عن أجوبة . ظلت الأسئلة تجدد نفسها وظل الجواب ينتقل دائما . وصار سؤال يتراكم فوق سؤال ، ثعبان فوق ثعبان ، وهي تخنقني . ولقد آن الأوان لاختبار ما اذا كان الفعل ، حين يضرب سيفه في عقد التأمل التي لا تحل ، هو وحده القادر على تقديم جواب .

ووافقت لسبب آخر أيضا ، كنت أشفق على شعبي المصلوب أبدا ، والذي يتعرض مرة أخرى للخطر في جبال بروميثيوس ، القوقاز . مرة أخرى لا تقوم (الدولة) و (العنف) بدق المسامير في بروميثيوس بل في اليونان كلها وتصلبها على جبال القوقاز . كان هذا صليبها وهي تنادي ، ولا تنادي الآلهة بل البشر ، أبناءها ،

لينقذوها • وهكذا ، وبالتحديد بلايا الحاضر في معاناة اليونان الابدية ،
وبرفع الثقبات المأساوية المعاصرة الى مستوى الرموز ،
وافقت •

غادرت ايطاليا وتوقفت في اثينا ، وأخذت عشرة مرافقين
مختارين معي (معظمهم كريتيون) وانطلقت الى القوقاز لأرى أولا
كيف يمكن انقاذ هؤلاء الآلاف من البشر . في الجنوب كان الاكراد
يدقون حدود الجياد بالمسامير على كل يوناني يمسون به • وفي
الشمال كان البلشفيك نازلين بالنار والفاوس • وفي الوسط كان
يونانيو باتوم وسوخومي وتيفليس وكارس يقفون عراة جائعين
مرضى ينتظرون الموت والأنشطة تضيق حول أعناقهم • مرة أخرى
الدولة من جهة والعنف من جهة أخرى - الحليفان الأزليان •

ما أمتع أن تنطلق من أجل مهمة صعبة وأنت محاط برفاق
متحمسين ومخلصين • خلفنا وراءنا الشاطئ اليوناني ، وذات
صباح ظهرت القسطنطينية شاحبة في الأفق المظلل •

كان مطر لطيف يهطل والمآذن البيضاء والسرو الاسود يخترقان
الضباب مثل صواري مدينة غارقة • القديسة صوفيا والقصور
والجدران الملكية نصف المهدمة كانت كلها غارقة في المطر الصامت
القائط • تجمعا عند مقدم السفينة ورحنا نجهدان تخترق نظراتنا
الضباب الكثيف لكي نرى •

شتم واحد من رفاقي : « عليها اللعنة ! العاهرة ! تنام مع
الأتراك » وعيناه مليئتان بالدموع •

وتتمم آخر : « عبر السنين سيأتي وقت تعود فيه إلينا مرة
أخرى » •

لكن قلبي لم يتأثر • لو انني مخرت هذه المياه الأسطورية
في مناسبة أخرى لالتهب عقلي بالخرافات والأغاني الشعبية مع
الرغبات القوية ولأحسست بدموع حارة كبيرة تذرف من ايقونة
العذراء المباركة على راحتي • لكن المدينة الاسطورية كلها في هذا

اليوم بدت مثل صورة للرغبة بعيدة جدا ومستحيلة جدا ، مثل مخلوق مصنوع من الضباب والخيال .

ظللنا يومين نحدق الى القسطنطينية عن بعد ، منتظرين أن يهدأ البحر لكي ننتقل . وكنت مسرورا لأن المطر منعني من رؤيتها ، ومسرورا لأن الحراس الاتراك الضخام منعونا من مغادرة السفينة ووضع أقدامنا على الارض المقدسة المتتركة * . لقد توافق هذا كله مع مزاجي العنيد الممتعض ومع قلبي الأبله المدعي الذي لم يكن يرغب في الكشف عن آلامه .

المزيد من المطر . وظلت القسطنطينية تغرق ، ولكن بعد ذلك صار البحر أخضر لامعا وخفت الأمواج تدريجيا وأخيرا في صباح اليوم الثالث انطلقنا . مررنا عبر البوسفور . صارت الحدايق الكثيفة تتقطع باستمرار والبيوت تتناقص . شواطئ أوروبا على يسارنا وآسيا على يميننا وقد صار لها مظهر أكثر وحشية . دخلنا البحر الأسود الرهيب : وهبت ريح عنيفة من جديد ، وجاءتنا رائحة البحر المالحة . وصارت الامواج تندفع الى الأمام مقوسة ظهورها مزبدة معرودة مثل جياذ هوميروس البيضاء المطهمة ، اجتمعنا في حجرتي وتحدثنا عن اليونان - اليونان الخالدة المعذبة ذات الألف جرح - وعن واجبنا في أن لا نخزيها في المناطق البعيدة التي كنا ذاهبين اليها .

لن أسجل هنا تقلبات بعثتنا ومراحلها . قضينا ، أنا ومرافقيّ ، شهرا ونحن نزور المدن والقرى التي انتشر فيها اليونانيون . عبرنا جورجيا ودخلنا أرمينيا . في تلك الأيام ذاتها كان الأكراد قد قبضوا على بعض اليونانيين ، وهم ثلاثة هذه المرة ، وركبوا لهم حدوات مثل البغال . كانوا قد وصلوا الى جوار كارس وصرنا نسمع مدافعهم ليلا ونهارا .

قلت : « يجب أن يبقى واحد منا في كارس ليجمع اليونانيين كلهم - رجالا ونساء وأطفالا اضافة الى مواشيهم ومعداتهم - وان

★ أى التى جعلت تركية .

يتصرف كقائد لكي ينقلهم الى مرفأ باتوم . كنت قد أرسلت في تقريرى أطلب مجيء الزوارق مع شحنات من المواد الغذائية والملابس والأدوية . وهذه القوارب ستأخذ الناس في رحلة عودتها . من يريد البقاء في كارس ؟ يجب أن لا تحدث خطيئة - ستكون مهمته خطرة » .

كان وجهاء كارس اليونانيون مجتمعين حولنا يستمعون وعيونهم معلقة على شفاهنا .

تقدم المرافقون العشرة كلهم الى الأمام . كلهم يريدون البقاء . انتقيت أكثرهم تأثيرا في مظهره ، زميل صف سابق عزيز علي وأثير لدي ، سبق له ان جرح في حروب الماضي . كان مقداما لا مباليا وحيويا وكان يستمتع بممازحة الخطر .

قلت : « اتت تبقى يا هيراكليس . وليكن اله اليونان معك » .
أجاب ضاحكا : « يجب أن تسامحوني كلكم اذا قلبت الدلو - أي اذا مت . وليسامحكم الله » .

شددنا على يده وتركناه . بعد عدة أسابيع ظهر في باتوم مغبرا أسود كالفحم وثيابه ممزقة . كان يمشي في المقدمة ووراءه جيش كبير من يونانيي كارس مع ثيرانهم وخيولهم وأدواتهم وفي وسطهم القس مع الأناجيل المغلفة بالفضة جلبها من الكنيسة والعجائز يحملون الايقونات المقدسة على أذرعهم . لقد اقتلعوا جذورهم وتوجهوا أخيرا الى اليونان الحرة ليمدوا جذورا جديدة .

ونحن ، خلال هذا الوقت ، كنا قد جمعنا يونانيي جيورجيا كلهم . وذات صباح سمعت صرخات وهتافات الفرح وطلقات بنادق . ركضت الى المرفأ . كانت أولى السفن اليونانية قد وصلت لنقل الناس .

كان كفاحا صعبا . وقد أضعفنا التعب والقلق وقضاء الليالي دون نوم . كنت أحيانا اختلس نظرة سريعة الى الجبال الاسطورية القفرء والى السهول الساكنة ، وجمع البشر البهي بعيونهم الشرقية

الواسعة وعذوبتهم التي لا تقاوم والأرواح المرححة المبتهجة • كانوا يشربون ويرقصون ، يتعانقون ويقتل كل منهم الآخر بنبل مجيد مثل حشرات ملونة •

لم يكن لدي الوقت ولم أرغب في تحويل تفكيري عن الواجب الجسيم الذي جثت الى هنا بسببه • رأيت رجالا ونساء وأطفالا صفارا جائعين ويائسين يتجمعون حولي ويحدقون الى عيني • كانوا ينتظرون مني أن أجلب لهم الخلاص • فكيف يمكنني أن أخونهم ؟ كنت أفول لهم دائما : « لا تخافوا يا أخوتي • نحن جميعا في هذه المشكلة معا • اما أن أنجو معكم أو أضيع معكم » وكنت أحدثهم أحيانا عن شعبنا المعذب الذي حاصره الهمج والجوع والفقر والهزات الارضية والنزاعات قرونا عديدة • ولقد كانت هذه القوى تريد ان تضع نهاية لليونان ولكنها كانت خالدة ، انظروا كيف عاشت وازدهرت آلاف السنين ••• وهكذا استطاعت هذه الأرواح البائسة ان تستمر بحملها اليونان في أذهانها •

كان هناك مساء وحيد فقط كنت فيه قيد شعرة من خيانتهم • وأتذكر الأمر بخجل : ذات مساء على البحر في باتوم في حديقة لطيفة مغطاة بحصى بيضاء خشنة ومحاطة بالروطان ★ الذي تفتحت عليه أزهار قرمزية اللون متماوجة • كان يعذبني قلق لا يمكن احتماله • في تلك الايام لم تكن هناك دلائل على زوارق اضافية • هل ستأتي أم لا ؟ وهل ستنجو هذه الارواح المعلقة برقبتي كلها ؟ قبل عدة ايام كنت قد تعرفت الى جورجينا باربارا نيكولا ييفنا ، وقد دعنتني هذا المساء الى تلك الحديقة اللطيفة لأنها رأت كم كنت متوترا بعمق وقد أحست بالأسف نحوي • كانت أجمل امرأة قابلتها في حياتي • لا • ليست جميلة ، بل هي شيء لا يمكن ان تحتويه الكلمات - عينان خضراوان ساحرتان بشكل خطر مثل عيني أفعى ، وصوت أجش متكتم ، كله وعد ورفض وعذوبة • حين تطلعت اليها طاش صوابي • وانطلق من صليبي قباع ★★ ما قبل انساني ، وانفتحت في

★ نبات تصنع منه السلال •

★★ صوت الخنزير •

داخلي كهوف عميقة سوداء ، وبدأ أسلاف مهجورون بدائيون
يخورون وهم يحدقون الى بربارا نيكولايفنا .

وحدقت اليها مثلهم وأنا أقول لنفسي لن تتكرر هذه اللحظة ،
ولن يعثر على هذه المرأة مرة أخرى . لقد عملت أعداداً لا تحصى من
المغامرات والمصادفات والاحداث العارضة والاقدار ، ملايين السنين
لكي يولد هذا الرجل وهذه المرأة ويتضاجعا على شاطئ قوقازي
داخل هذه الحديقة ذات الروطان المزدهر ، فهل سنترك هذه اللحظة
القدسية تغلت منا ؟

التفتت المرأة وهي تغمض عينيها نصف اغماضة : « نيكولاي
ميخايلوفتش ، هل جئت لتأخذني من هنا ؟ » .
تملكني الرعب . لقد تجرأت المرأة على قول ما كنت اتوق ولا
أجرؤ .

– أأخذك من هنا ؟ الى أين ؟

– بعيدا عن هنا . لقد مللت زوجي . انني أختنق هنا وأذبل .
انني أشفق على جسدي ، يا نيكولاي ميخايلوفتش ، أشفق على
جسدي . تعال . خذني بعيدا » .

تشبثت بالكرسي الذي كنت اجلس عليه . كان كيك * قد ألقى
مرساته أمامنا وخفت أن أقفز وأمسك بها من خصرها وأصعد بها
الى القارب لكي نتمكن من الفرار . وصارعت لكي أقاوم .

– وماذا عن واجبي يا بربارا نيكولايفنا ؟ وماذا عن آلاف الارواح
التي تنتظر مني أن أنقذها ؟

بحركة سريعة فكت المرأة الشريط الحريري الذي تلف به
رأسها ، وانسكب شعرها المزرق على كتفيها ، زمتمت شفيتها مفتاة
وهتفت ساخرة « واجب ! اسمح لي أن أقول لك ان هناك واجبا واحدا

★ زورق طويل .

فقط ! واجب وحيد : هو ان لا تترك السعادة تهرب منك - ان تمسك بها من شعرها . أمسك بي من شعري يا نيكولاي ميخايلوفتش . لا أحد يرانا » .

تطلعت الى البحر . كانت الشياطين كلها تتصارع في داخلي وليس بينها ملاك واحد . وكان القدر يقف أمامي منتظرا . ومرت لحظة طويلة . وبغثة قفزت المرأة شاحبة .

قالت : فات الأوان . لم تستطع أن تقبل فورا ، فشلت في الامسك بشعري . إنك تحسب الريح والخسارة . فات الأوان . حتى لو قبلت الآن فلن أقبل ، في صحتك يا نيكولاي ميخايلوفتش ! برافو ! انك تافه صغير شريف ، ما يعرف بأنه دعامة حقيقية للمجتمع . بصحتك وبسعادتك » .

وهي تقول ذلك كانت قد أفرغت كأسها المليئة بالخمرة الارمنية اللاذعة .

الآن ، بعد آلاف السنوات في شيخوختي ، أغمض عيني فيزدهر الروطان من جديد ويدق البحر الاسود صدغي وتأتي بربارا نيكولايفنا وتجلس أمامي ، ولكن ليس على كرسي هذه المرة بل متربعة على الحصى الابيض . أتطلع اليها وأسأل نفسي هل اخطأت في عدم الامسك باللحظة القدسية من شعرها ؟

أتنهد وأجيب : لا . ولم آسف على شيء .

★ ★ ★

غادرت القوقاز بعد أسبوعين . كانت الأيام الأخيرة قاسية جدا . كانت السفن قد بدأت فعلا في التحرك ناقلة الناس . ورأيت انخراطي في مملكة الفعل يثمر ، واستطعت منذ ذلك الحين أن أتخيل اليونانيين الكادحين يمدون جذورهم في مكدونيا وتريس ، اراضينا القديمة التي تمزقت تحت العقب الهمجية . سوف يغطونها بالقمح والتبغ واليونانيين الصغار . لا بد انني كنت راضيا . لكن

دودة خبيثة كانت تنغل في قلبي وتثقبه شيئا فشيئا - وبما انني لم أكن قد تمكنت بعد من التعرف على ملامح قلبي الجديد بوضوح فقد اكتفيت بالاحساس بالمرارة .

وفيما كنت على وشك الصعود الى السفينة جاءني عجوز من بونتوس .

- قيل لي انك مثقف يا ريس . وأحب ان أسالك سؤالا ان لم يكن لديك مانع . هل كان الليديون الذين شاركوا في حرب طروادة يونانيين ؟

صعقت . لم أحلم أبدا ان يكون هذا الأمر بين الأمور كلها مشكلة تعذب الرجل .

أجبت : « يونانيين ؟ لا . أبدا . كانوا ليديين من آسيا الوسطى » .

هزّ العجوز رأسه : « كان الآخرون على حق اذن حين أخبروني انك تتنكر لتراثنا القومي . وداعا ! » .



كان هذا آخر صوت سمعته في القوقاز .

كثيرا ما فكرت ، فيما بعد ، في هذا العجوز من بونتوس . وبدأت بالتدريج أفهم انه ليس مهما ما هي المشكلة ، وسيان كانت صغيرة أم كبيرة ، تلك التي تعذبنا ، الشيء المهم الوحيد هو أننا نتعذب وأننا نجد أساسا لعذابنا . بتعبير آخر اننا نعمل أذهاننا لكي لا نسمح لليقين بتحويلنا الى حمقى ، واننا نجاهد لفتح كل باب مغلق نجده أمامنا . « لا أستطيع العيش دون يقين » يقول الشخص المتعجل للاستقرار لكي يجد أرضا ثابتة يقف عليها ، ولكي يأكل دون ان يرى ما لا يحصى من الجائعين وهم يفغرون أفواههم ويتابعون الطعام الذي يلتهمه . « لا أريد العيش دون شك ولا أستطيع » يصرخ آخرون ممن لا يأكلون بضمير مرتاح ولا ينامون دون كوابيس ، ولا يقولون ان هذا العالم خال من العيوب فليبق كما هو الى الأبد .

هؤلاء الآخرون ، باركهم الله ، هم ملح المولى ، هم الذين يحمون الروح من التعفن . لقد ضحكت وسخرت حين سمعت العجوز من بونتوس بقلقه المضحك . أما الآن يا أخي ، ويا رفيقي في الكفاح ، لو انني أستطيع أن أراك ثانية لألقي بنفسي بين ذراعيك !

كانت السفينة مليئة ببشر مقتلعين من أرضهم وكننت في طريقي لغرسهم في اليونان ، بشر وخيول وثيران وقصعات عجيب وأسرّة أطفال وفزشات وأيقونات مقدسة وأنجيل ومعاول ومجارف - كل شيء كان يهرب من البلشفيك والأكراد ويرحل باتجاه اليونان الحرة . وليس من المخجل أبدا أن أقول أنني كنت متأثرا من أعماقي . كنت أحس كما لو انني قنطور * وان هذه السفينة بحشدها الهائل هي جسدي من الرقبة وما دون .

كان هناك انتفاخ بسيط في البحر الاسود وكان للموجة النيلية القاتمة رائحة الجبس (البطبخ الاحمر) . عن يسارنا شواطئ بونتوس وجبالها التي كانت ذات يوم لنا وعن يميننا البحر الشاسع المتلألئ . غابت القوقاز في الضوء لكن العجائز جلسوا عند مؤخرة السفينة وأداروا ظهورهم وقد عجزوا عن تحويل عيونهم عن الافق الحبيب . اختفت القوقاز وصارت طيفا ذهب بددا ، ولكن في أعماق حدقات العجائز بقيت راسخة لا تعرف الغياب . انه لمن الصعب ، والصعب الى أبعد الحدود على الروح أن تقتلع نفسها من موطنها ، من الجبال والبحار ، من الناس الذين أحببتهم ومن البيت الحبيب الصغير الفقير . الروح أخطبوط وهذه الأشياء كلها أطرافها .

جلست في المقدمة على حبل ملفوف . وكان يحتشد حولي رجال ونساء ، بعضهم من كارس وبعض من سوخومي ويونانيون مضطهدون آخرون من تايغان . لم يكن لعذابهم من نهاية وكان كل منهم مندفعاً في سرد حكايته للتخفيف عن نفسه . وكننت أستمع وأنا معجب سرا بقدرة الشعب اليوناني على التحمل ، ذلك أنهم وسط حدادهم وندبهم للأحباء الذين ماتوا والبيوت التي احترقت ،

* القنطور كائن خرافي نصفه الاعلى بشر ونصفه الاسفل حصان .

والجوع والخوف اللذين عانوهما ، يطلق أحدهم بغتة نكتة بذئنة ينتهي معها بؤسهم كله وترتفع رؤوسهم علينا من جديد . فبينما كانت صبية مشعثة تبكي زوجها الذي قتل مد عملاق ضخم ذو شاربين فاحمين متدليين مخلبه الضخم ولمسها على كتفها . قال « يكفي بكاء يا ماريوريتسا . حتى لو بقي شخصان فقط في العالم كله - ولنقل أنا وأنت - فان الارض اليونانية ستمتلىء بالاطفال من جديد » . ونقل عينيه على الباخرة « هل تعلمون يا اخوتي أين يكمن أمل العالم ؟ هل ستقولون في الرأس ؟ لا تحت ذلك » ثم ألقى نظرة سريعة على المرأة « اي قسما بالله لولا انني أخجل أمام السيدات لأريتك أين يكمن أمل العالم ! . . . فلتتوقفي عن البكاء . هيا ! » .

احمرت المرأة خجلة وضحك الرجال وهتفوا : « تودوريس ، لا أحد يقترب منك انت . بوركت لأنك تجعلنا نضحك . »

وكان هناك رجل وحيد يجلس جانبا ولا يتكلم . هذا الرجل لم يضحك ولم يحك معاناته كان يبدو غير راغب في التخفيف عن نفسه . وكان له جسد ضخم ورقبة عجل ويدان طويلتان ضخمتان لا بد أنهما تصلان الى ركبتيه . وقميصه المفتوح يكشف عن صدر مغطى بالشعر . لم يسبق لي أن رأيت قبل ذلك انسانا يشبه الدب الى هذا الحد .

حين تفرق الآخرون واضطجعوا على أسماهم ليناموا بقي هذا الرجل يحدق الى البحر ورقبته الغليظة ممدودة الى الامام . توجهت اليه مدركا أن هناك قوة مقلقة تنبت من هذا الثور البشري الذي لا يتحرك .

« أنت لم تتكلم » بدأت لكي أفتح معه محادثة . التفت وتطلع الي ثم مد يده فطقطقت عظامه .

« اتحدث ؟ لأقول ماذا ؟ لأصف ألمي وأجد الراحة ؟ أنا لا أريد أن أجد الراحة » .

صمت ونهض وكأنه راغب في الابتعاد ولكنه عاد وجلس من جديد . أحسست به يصارع شيئا في داخله . ولم يكن يريد ان يتكلم . لكن قلبه قد فاض . اضافة الى ان الليل كان قد هبط واننا كنا وحيدين ، فلان قليلا .

« لقد رأيت الجبال والغابات في القوقاز . ألم ترها ؟ لقد تجولت وحدي فيها سنين . كانوا يسمونني الخنزير البري لأنني لم أكن أرافق أحدا . لم أكن أذهب الى المقهى أبدا ولا الى الكنيسة ، كما قلت لك ، كنت أجوب الجبال والغابات وحيدا . لقد التهمت الجبال حجرا حجرا . كنت حجارا وحطابا وفحاما ، وكنت عاريا وفقيرا . لكنني كنت شابا وقويا مثل ثور ولم أكن في حاجة لأحد . وذات يوم أحسست بقوتي تخنقني وأنا أتسلق جبلا . ولكي أمنع نفسي من الانفجار بدأت أعزق الجبل وأقطع عوارض خشبية من أكبر الصنوبرات وأبني بيتا . بنيته قريبا من نبع ماء ، وأكملت الباب والنوافذ وكل شيء . صار كاملا . وجاء رجال ونساء من قرية مجاورة لرؤيته . جلبوا معهم خمرا وطعاما . لكنني اكتفيت بالجلوس على حجر والتطلع اليه . وجاءت فتاة وجلست الى جانبي . وراحت تتطلع اليه أيضا . وفيما كنا نتطلع اليه معا دخت . وفي صباح اليوم التالي وجدت نفسي متزوجا » .

تنهد : « وجدت نفسي متزوجا . وانتهى الدوار . وعاد الي عقلي من الجبال العالية » .

قلت لها : « ما الذي سناكله يا زوجتي ؟ أنا لا أستطيع ان اطعم واحدا فكيف سأطعم اثنين ؟ ثم ماذا عن الاطفال ؟ » .

- قالت : لا تقلق . دعنا نذهب الى الكنيسة .
- وماذا تتوقعين مني ان أفعل في الكنيسة ؟ لن أذهب .
- قلت لك دعنا نذهب .
- ذهبنا وصلبنا أنفسنا وتشجعنا .
- قالت زوجتي : والآن هيا بنا نذهب ونعمل في حقنا .
- حقل ؟ أي حقل أيتها الحمقاء ؟ أنك تقصدين الحجارة .
- سنكسر الحجارة ونسحقها ونصنع ترابا .

- ذهبنا وسحقنا الحجارة وصنعنا ترابا وزرعنا محصولنا .
- وقالت لي هذه المرة زوجتي : « فلنذهب الآن لتقليم زيتوناتنا » .
- آية زيتونات ؟ هذه العصي اليابسة ؟
- أقول لك دعنا نذهب .

ذهبنا وقلمنا العصي اليابسة . زرعنا وقلمنا وملأنا أنفسنا بالخبز وحشونا أمعانا بزيت الزيتون . فليقدس الله عظام جدي . لقد اعتاد ان يقول لي : « لا حاجة لأن تخاف الفقر والعري اذا كانت لك زوجة صالحة » .

وصمت مرة أخرى . أمسك بطرف الحبل وبدأ ينسل خيوطه مثل قط بري . وكنت أستطيع أن أسمع أسنانه تصر في الظلام .

- وبعد ذلك ؟ سألته وأنا مضطرب .
- يكفي . هل تتوقع مني أن أصف معاناتي مثل الآخرين ؟
- ماذا عن زوجتك ؟
- قلت لك يكفي !
- طمر رأسه بين ركبتيه ولم يتكلم بعدها .



« تستطيع دموع البشر أن تدير طواحين العالم كلها ، ولكنها لا تدير طاحونة الله » قال لي ذلك رجل في المئة من عمره، في قرية مكدونية ، كان يقرفص أمام عتبة كوخه الفقير لكي يدفء نفسه في الشمس . ان الحب والعطف من نبات الانسان وليس من نبات الله . آية الام لا تحتمل كانت هذه السفينة تحمل وتجلب الى اليونان ! لكن الزمن ، عليه رحمة الله ، يشفق علينا . الزمن اسفنجة تمحو . ان المحصول الجديد من عشب الربيع يغطي حجارة القبور بسرعة وتستأنف الحياة صعودها لاهثة .

كانت السماء مليئة بالنجوم . وخرج برجى ، العقرب ، من البحر غاضبا بعين حمراء وذنب معقوف . كان يحيط بي ألم الانسان ومن فوقى السماء المليئة بالنجوم ، خرساء ولا انسانية ، ومليئة

بالوعيد • لا بد ان لهذه النقاط النيرة معنى خبيثا • ولا بد ان هذا
الارغوس * ذا الالف عين يقوم على حراسة سر رهيب • ولكن أي
سر ؟ لم أكن أعرف • الشيء الوحيد الذي كنت أحس به في أعماقي
هو انه ليس لهذا السر أية علاقة بقلب الانسان • كان يبدو أن في
الكون المنظم مملكتين منفصلتين : هما مملكة الانسان ومملكة الله •

بأحاديث كهذه وتأملات كهذه عبرنا البحر الاسود • ومن جديد
رأينا القسطنطينية عن بعد وكانت هذه المرة تستحم بضوء الشمس
وهي مليئة بالحدائق والمآذن والخرائب • رسم الركاب الذين معي
الصلبان على أنفسهم بشكل عاطفي وانحنوا احتراماً لها ، وانحنى
رجل على مقدم السفينة وصاح : « تشجعي يا أماه ! تشجعي ! »
وحين صرنا في مواجهة الشاطئ اليوناني نهض القس القادم من
سوخومي ، وكان بين من يسافرون معنا ، ولف عليه بطرشييه ورفع
يديه العجوزين الى السماء وصرخت بصوت عال لكي يسمعه الله :
« مولاي ! مولاي ! أنقذ شعبك ! ساعده على مد جذوره في أرض
جديدة ، لكي يحول الحجارة والاشخاب الى كنائس ومدارس ولكي
يمجد اسمك باللغة التي تحبها ! » •

طفنا حول شواطئ تريس ومكدونيا وساقطنا الريح الى
الجبل المقدس ثم دخلنا ميناء سالونيك • لقد استغرقت مهمتي
أحد عشر شهرا • وراحت حمولات السفن من البشر والماشية تصل
تباعاً من القوقاز ، وكان دم جديد يدخل في عروق الانسان • طفت
تريس ومكدونيا لأختار الحقول والقرى من بين ما خلفه الاتراك حين
رحلوا • تملك المالكون الجدد وبدأوا الحراثة والزرع والبناء • أعتقد
ان من أكثر متع الانسان شرعية أن يتعب وأن يرى تعبهُ يثمر •
ذات مرة أخذني وإستراتي مهندس زراعي الى امتداد صحراوي
قرب استراخان • مد ذراعيه ، وبحس انتصار عائق الرمال
اللامتناهية • قال : « لدي آلاف العمال • انهم يزرعون نوعاً من
الأعشاب ذات الجذور الطويلة التي تمسك المطر والتراب • خلال

* عملاق نو مئة عين مكلف بحراسة العجلة ايبو وقد حولت عيونه بعد
موته الى ذيل للطاووس •

سنوات قليلة ستكون هذه الصحراء كلها بستانا « كانت عيناه تلتمعان » انظر اهل ترى القرى والبساتين والمياه في كل مكان حولك ؟ « وصرخ استراتي مندهشا : « أين ؟ أين ؟ اننا لا نرى شيئا » . ابتسم المهندس الزراعي وقال : « خلال سنوات قليلة سترى ذلك كله » . وغرز عصاه في الرمل وكأنه يقسم .

الآن رأيت انه كان على حق . تطلعت حولي بطريقة مشابهة الى الارض الخراب التي كان زملائي الركاب يتقاسمونها فيما بينهم ورأيتها مليئة بالبشر والبساتين والمياه . وسمعت الاجراس من كنائس المستقبل ، والاطفال يلعبون ويضحكون في باحات المدارس . وهنا كانت شجرة لوز مزهرة أمامي : يجب أن أصل اليها وأقطف منها غصنا مزهرا . ذلك لأننا بايماننا العاطفي بشيء لم يوجد بعد انما نخلقه . وما لا يوجد هو ما لم نرغب فيه بالقدر الكافي، وهو ما لم نروّه بدمائنا الى حيث يصبح قويا الى درجة تجعله يخط متجاوزا عتبة الوجود المعتمة .

اخيرا ، وحين انتهى كل شيء ، أحسست فجأة كم كنت متعبا . لم أكن أستطيع الوقوف على قدمي ، ولم أكن أستطيع أن أكل أو أنام أو أقرأ . كنت منهكا . لقد حشدت قواي كلها من أجل هذا الوقت ، وطالما ان الحاجة قائمة ، ولقد ساندت الروح الجسد ومنعته من ان يسقط . ولكن المعركة انتهت فورا ، وانحل الحشد الداخلي ولكن ليس قبل الانتهاء من المهمة الموكولة الي . أنا الآن حر . قدمت استقالتي . ووجهت وجهي فورا الى كريت . كنت أريد أن أسير على ترابها والامس جبالها ثانية لكي أستمد منها القوة .

٢٨ - عودة الابن الضال

حين يعود انسان الى بلده بعد سنوات عديدة من التجوال والكفاح في الخارج وينحني على حجارة الاسلاف ويطوف بنظره على المناطق الاليفة المحتشدة بالأرواح البلدية وبذكريات الطفولة وأشواق الشباب ، يتصعب منه عرق بارد .

ان العودة الى تراب الاسلاف تجعل قلوبنا تضطرب . وكأنما كنا عائدين من مغامرات لا يمكن ذكرها وداخلين في مناطق جديدة محرمة ، وبغثة ، هناك في اقامتنا المؤقتة في الخارج ، أحسنا بثقل يسقط على قلوبنا . أي شغل لنا هنا مع الخنازير التي تأكل البلوط ؟ نتطلع وراعنا الى الارض التي غادرناها ونتنهد وعند تذكر الدفء والسلام والحياة الرغدة نعود مثل الابن الضال الى صدر الامومة . في داخلي تتسبب هذه العودة دائما في رعشة سرية ، ودلالة منذرة كأنما بالموت . بدا لي وكأنني أعود الى طين الاسلاف الذي طال شوقي اليه بعد مثاقفات الحياة وتبذيراتها ، وكأنما قوى خفية قاتمة متحكمة قد أوكلت لانسان تنفيذ مهمة والآن عند عودته يبرز صوت قاس من حنايا أرضه يسأله : هل نفذت مهمتك ؟ قدم تقريرا عن نفسك !

هذه الرحم الأرضية تعرف بدقة قيمة كل من أبنائها وكلما سمت الروح التي صنعتها صعبت الوصايا التي تفرضها عليها - انقاذ نفسها أو شعبها أو العالم . ان مرتبة روح الانسان تتحدد بأي من هذه الوصايا تلتزم ، الأولى أم الثانية أم الثالثة .

ومن الطبيعي ان يرى كل انسان هذا الارتقاء ، الارتقاء الذي تكون روحه ملزمة بالقيام به ، محفورا بعمق أكبر على الارض التي ولد فيها . ان هناك تعاقدًا وتفاهما غامضين بين هذه الارض التي صنعنا وبين أرواحنا . وتامًا كما ترسل الجذور أمرا سريا الى الشجرة لكي تزهر وتحمل الثمار بحيث تجد هذه الجذور مبرر وجودها وتصل الى الهدف من رحلتها ، كذلك فان الارض الاسلاف بالطريقة ذاتها تفرض وصايا صعبة على الارواح التي ولدتها . ويبدو ان الارض والروح مصنوعتان من المادة ذاتها ، وتقومان بالهجوم ذاته ، والروح هي التي تحقق الانتصار الأكمل .

ان ترفض أبدا التنكر لشبابك ، حتى أقصى مراحل شيخوختك ، وأن تصارع طوال حياتك لتحويل أزهار نضجك الى شجرة محملة بالثمار - هذا ، كما أعتقد ، هو الطريق الوحيد للانسان المتحقق .

فالروح تعرف معرفة تامة (وعلى الرغم من انها تتظاهر بالنسيان كثيرا من المرات) ان عليها ان تقدم الحساب للأرض الوالدية . ولا أقول « أرض الآباء » بل أقول الارض الوالدية . فالأرض الوالدية شيء أكثر عمقا وأكثر تواضعا وأكثر تحفظا وهي مؤلفة من عظام عتيقة مطحونة .

هذا هو يوم القيامة الارضي - والوحيد - الذي توزن فيها حياتك داخل أحشائك التي ما تزال حية . وتستمع الى الصمت الحاسم الحاكم بالعدل يطلع من أرض أسلافك فترتجف . أي جواب تستطيع ان تقدمه له ؟ تعض على شفتك وتفكر ، أه لو انني أستطيع أن أعيش حياتي من جديد ! ولكن فات الأوان . . تعطى الفرصة مرة واحدة فقط ، مرة واحدة الى الأبد . ولا تعاد ثانية .

وذكريات الطفولة التي تتفجر من كل اتجاه تساعد على زيادة الألم أكثر . لقد أحاطت بأرواحنا المندفعة الى الأعالي قشرة سميكة فجمدتها في شكل حذبات وتجاعيد وعادات مخزية . وتلك الروح التي كانت في لهيب الشباب المتأجج تتوق للسيطرة على العالم ،

والتي كانت تحس أنها محدودة جدا في قلعة بلوغها الرائع ، تقضي الآن راجفة في زاوية واحدة من جسد كله ذابل وكله جلد . وعبثا تحثها الحكمة القديمة والجديدة للخضوع بفهم وصبر لقانون الضرورة . وتقول لها هذه الحكمة من خلال المواساة الجبانة ان النباتات والحيوانات والالهة كلها تندفع الى الأمام تنتصر وتهزم وتنهار بالطريقة ذاتها تماما . ولكن روحا مطلبية لن تتنازل بقبول عزاءات كهذه . وكيف تستطيع ذلك ؟ لقد ولدت تحديدا من أجل أن تشن الحرب على قانون الضرورة .

ان العودة الى الموطن حادث حاسم . تتفجر القشرة المريحة والخائنة وينفتح باب المصيدة ، فتنبعث الكيانات التي كانت ممكنة ذات مرة والتي قتلناها - النفوس الأفضل كلها التي كان من الممكن ان نصيرها ثم فشلنا في ذلك بسبب الكسل وسوء الطالع والجبن - مثل أشباح كريهة وتقفز الى وعينا .

وهذا الامتحان يصبح غير ممكن احتماله حين تكون أرض الشخص الوالدية حروفا وغير ممكن تدبيرها وحين لا تسمح له جبالها وبحارها - والارواح المصنوعة من هذه الصخور والمياه المالحة - أن يستقر في راحة مدبرة حتى لو للحظة ، أو ان يحس بالرضى العذب وان يقول « يكفي ! » . ان في كريت هذه شيئا قاسيا بشكل لا انساني . وأنا لا أعرف ما اذا كانت تحب اولادها ولذلك فهي تعذبهم ، فكل ما أعرفه هو انها تظل تجلدتهم حتى يتدفق الدم منهم .

ذات يوم سئل الشيخ جليان ، ابن هاراسا ، « ما الذي يجب أن يفعله العرب لكي يتجنبوا الانهيار ؟ » فأجاب « كل شيء سيكون على ما يرام طالما أنهم يغيرون على خيولهم والسيوف في أيديهم والعمامة على رؤوسهم » . وحينما استنشقت الهواء الكريتي وهدقت الى الكريتيين لم أستطع أن أفكر في أي شعب على الأرض استطاع أن ينفذ هذه الوصية العربية الشامخة باخلاص أكبر .

في أكثر لحظات الحياة حسما - حين يدفع الشاب جانبا بحشد من الاحتمالات المتاحة له ثم يختار واحدا ، واحدا فقط ، ويربط

مصيره به ثم يدخل النضوج - في تلك اللحظة قامت ثلاثة أحداث كريتية بانقاذ (لا لم تنقذ بل حاولت ان تنقذ) روجي . وربما انها سوف تنقذ ارواحا أخرى وهذا ما يغفر لي ذكرها . انها بسيطة جدا بقشرة فلاحية سميكة ، ولكن كل من يستطيع كسر هذه القشرة فانه سيتذوق ثلاث لقمات من الأدمغة الاسدية الصلبة .



(ا) راع من أنوغيا وهي قرية يحضره قفراء على منحدرات بسيلوريتي . اعتاد هذا الراعي ان يسمع أبناء قريته يحكون غرائب وعجائب عن ميغالو كاسترو . ففي هذه المدينة ، كما تقول الروايات ، تستطيع أن تجد بضائع العالم كلها ، الفول أكوام ، وأكياس من سمك القديد المملح وبراميل عديدة من السردين والرنة المدخنة ، وأكثر من ذلك حوانيت طافحة بالاحذية ، وحوانيت أخرى مليئة ببنادق المسكيت للبيع قدر ما تشاء وبارود وسكاكين جيب وخناجر ، وحوانيت أخرى أيضا أفرانها تنتج مخبازا بعد مخباز من الخبز كل صباح ، خبز أبيض على شكل أرغفة طويلة رقيقة . واطافة الى ذلك ، تقول الروايات ، هناك في الليل نساء لا يقتلنك ، كما تفعل الفتيات الكريتيات ، اذا لمستهن وللمهن أبيض ولذيذ مثل تلك الأرغفة الطويلة الرقيقة .

سال لعاب الراعي ، وهو يستمع الى هذه المعجزات كلها ، وصارت ميغالو كاسترز نضيء في خياله على أنها الفردوس الكريتي المليء بسمك القديد والمسكيت والنساء . راح يستمع ويستمتع . وفي عصر أحد الايام كان عاجزا عن المقاومة أطول من ذلك ، شد كمره بقوة حول خصره . وقذف بكيس الزوادة ، الزوادة المطرزة ، على كتفه وأمسك بعصاه ثم انحدر عن بسيلوريتي . خلال عدة ساعات كان يقف وجها لوجه أمام كاسترو . كان الوقت ما يزال نهارا وكانت بؤبة السور ما تزال مفتوحة . وتوقف الراعي عند القبة . خطوة واحدة ويكون في الفردوس . ولكن بغتة قفرت روحه واقفة . بدا وكأنها تحس بنفسها مخنوقة بالرغبة ، انها لم تعد تفعل ما تشاء ولم تعد حرة . خجل الكريتي وقطب حاجبيه . يجب ان يدافع عن احترامه لنفسه .

قال . « اذا شئت دخلت واذا لم اشأ لم ادخل . لن ادخل »
ادار ظهره لميغالو كاسترو وتوجه مرة اخرى الى الجبل .

(٢) مات شاب قوي ووسيم في قرية كريتية اخرى ، في الجبال
البيضاء . قام اربعة من خيرة اصدقائه وقالوا : « هل سنذهب
ونسهر على فراش موته لكي نريح النساء من ندهنهن ؟ »
« نعم . » وافق الجميع باصوات مخنوقة .

لقد كان الشاب المييت افضل « قبضاي * » في القرية ، في
العشرين من عمره وقد طعنهم موته في الصميم .

قال أحد الاصدقاء : « لقد جلب لي أحدهم بعض الراكي اليوم .
انه راكي التوت الاسود . وهذا يستطيع حتى أن يعيد المييت
للحياة . ما قولكم يا شباب ؟ هل أعبىء زجاجة وأخذها معي ؟

- وأمي خبزت اليوم . فهل أجلب رغيفين من خبز الشعير ؟
- ولقد تبقى لدي بعض سجق الخنزير . فهل أجلب حبلا
منه ؟

- أما أنا فسأجلب الكؤوس . قال الرابع . وخيارتين طازجتين .
أخذ كل منهم زوادته ووضعها تحت سترته الرعوية المصنوعة
من صوف الفريز . هبط الليل وجاء الاربعة فدخلوا بيت المييت .

كان المييت محاضاً بالحبق والعترة ، ممدداً في تابوته على حوامل
في وسط المنزل . كانت قدماه تواجهان الباب . وحوله كانت النسوة
يندبنه مغنيات .

قال الاصدقاء ، بعد أن حيوهن تحية المساء : « اذهبن أيتها
السيدات ونمن قليلا . نحن سنسهر معه . »

* Pallikari . الكلمة يونانية وقد شرحها مترجم الكتب الى الانكليزية
(ب . ا . بين) كما يلي : الرجل الحقيقي . شجاع وقوي وقادر على
مقاومة الالم . كانت تستخدم اصلا للجنود المشاة الذين يرافقون الفرسان
وفيها بعد لاي جندي . اما الآن فتستخدم لوصف اي شاب له صفات
الجندي . وفي اليونان الآن فهي تعبير لا نظير له في المديح .

انسحبت النسوة الى غرفة داخلية وأوصدن الابواب . توجه
الاصدقاء الى المقاعد فوضعوا الراكي والمازوات عند قدميه وراحوا
يحدثون الى الفقيد بعيون مليئة بالدموع . مرت نصف ساعة ثم
ساعة . وأخيرا رفع أحدهم عينيه عن الجثة .

- ما قولكم يا شباب هل نشرب ؟

أجابوا : طبعاً . نحن لسنا سكرانين . هل سكرنا ؟ فلنشرب .
انحنوا وتناولوا الطعام . وأشعل أحدهم ورقة وشوى السجق .
وملأت غرفة الميت رائحة لذيذة . عباوا الكؤوس ولفوها بأكفهم
لكي لا تصدر صوتا وقرعوها بقوة .

« فليسامحه الله ... نخب دورنا »
« نخب دورنا ... فليسامحه الله »

أفرغوا كأس راكي واثنين وثلاثة وأكلوا المازة وأفرغوا الزجاجه
وبدأوا يحسون بالغبطة . نظروا الى الجثة من جديد . وبغته قفز
أحدهم واقفا .

- « ما قولكم يا شباب ؟ » ونظر الى الجثة نظرة جانبية .
« ألن ندفنه ؟ »

- هيا بنا . رفعوا شراويلهم العريضة الواسعة ووضعوا
نهاياتها في أكمارهم لكي لا تعيقهم في الركض . ثم نقلوا التابوت
الى العتبة وفتحوا الباب المؤدي الى أرض الدار .

بفت !! بفت !! بصقوا في راحتهم . انطلقوا راكضين وبدأوا
يدفنون الجثة .

(٣) وهذا الحدث الاخير .

أحد الفصح ، قبل الفجر بقليل . ينطلق الأب كافاتوس بأقصى
سرعته من قرية الى أخرى في جبال كريت ليقدم المسيح بسرعة
فائقة لأن هناك قرى عديدة وليس لها الا هذا القس الوحيد ويجب
أن يتم القيامة فيها كلها قبل الفجر . كمّاه مرفوعان ، وهو مثقل
بثوبه الكهنوتي وانجيله المفضض الثقيل ، يتسلق الجبال الصخرية
المغطاة بالجولق (نبات شوكي) ويركض طوال تلك الليلة المقدسة

متقطع الانفاس • يصل الى قرية ويصرخ : « كريستو اينسنى »
- أي المسيح قام - ثم ينطلق الى القرية التالية ولسانه متدل
من فمه •

في القرية الاخيرة ، وهي قرية صغيرة بين جرفين كان الناس
محتشدين في الكنيسة الصغيرة • كانوا قد أشعلوا المشاعل وزينوا
الأيقونات والحامل بالغار والريحان الذي جلبوه من الوادي • بينما
ظلت شموعهم في أيديهم دون اشعال • كانوا بانتظار مجيء
(الكلمة العظيمة) لكي يستطيعوا اشعالها •

في تلك اللحظة سمعوا طقطقة الحصى في الصمت وكان حصانا
كان يتسلق سفح الجبل والحجارة تتساقط من تحته •

« لقد جاء ! لقد جاء ! »

انطلق الجميع خارجا • كان الافق الشرقي قد صار وريداً
والسموات تضحك • سمعت أنفاس ثقيلة وراحت كلاب الرعاة
تنبح فرحة ثم بغتة ومن وراء سنديانة مائلة - بقميص مفتوح
الازرار ، وبجسد مبلل بالعرق ، وبوجه محمر من الركض ،
وباستغراق منهك في المسيحات التي أقامها - برز الأب كافاتوس
العجوز الاسود القزم وشعره المشعث متدل •

كانت الشمس في تلك اللحظة تشرق من طرف الجبل • قفز
القس فصار أمام أبناء القرية ومد ذراعيه وصرخ « كريستوس
اينستاكاس يا شباب ! » كانت كلمة أنيستي المؤلف المبتذلة قد
صارت تبدو له صغيرة ورخيصة وبائسة ، انها عاجزة عن احتواء
(انبا العظيم) • فتوسعت الكلمة وتوالدت على شفتي القس •
تراجعت القواعد اللغوية وتحطمت أمام زخم الروح العظيم وخلقت
قواعد جديدة وهكذا كان ! ففي خلق الكلمة الجديدة ، هذا الصباح ،
أحس الكريتي العجوز للمرة الاولى أنه فعلا يحقق قيامة المسيح -
المسيح كله وبكل انش في قامته العظيمة •

★ ★ ★

حبك للحرية ، ورفضك قبول استعباد الروح حتى مقابل الجنة ، وممارستك للالعاب الشجاعة فوق الحب والالم وعليهما وفوق الموت وعليه ، وتحسينك أقدس الاصنام القديمة حين تعجز عن احتوائك بعد ذلك تلك هي صرخات كريت الثلاث العظيمة .

ان ما يملأ الروح بغبطة نقية خالصة ، في هذه الحوادث ، هو حقيقة ان من يتكلم هنا ليس الفلاسفة والاخلاقيين ، أولئك الذين يصنّعون نظريات رفيعة صعبة ويعلنونها من خلال أوقات فراغهم وبعيدا عن أي خطر . لدينا هنا بدلا من ذلك أرواح بسيطة ، فلاحون كريتيون ، يطعمون الدوافع الداخلية فيهم ، ومن دون أن تتقطع أنفاسهم يرتقون أعلى القمم التي يستطيع أن يصل اليها الانسان : الحرية واحتقار الموت وخلق القواعد الجديدة . يتكشف أمام عيوننا الاصل الثلاثي النبيل للانسان ، اذ أننا نرى كيف أن هذا الوحش ذا الساقين في اتباعه طرقا غير الطرق الذهنية استطاع أن يصبح انسانا . وبهذا تصبح رحلتنا الى الجلجلة الذهنية المصرية مثقلة أكثر بالمسؤولية لأننا الآن ، وبرؤيتنا للكريتيين ، نعرف اننا ان فشلنا في أن نصبح بشرا فهذا خطؤنا نحن ونحن فقط . ومن أجل ذلك وجد هذا النوع اللطيف - الانسان - وظهر على الارض ولم يعد هناك أي مبرر لانحطاطنا وجبننا .

والشخص الذي لا يحاول خداع نفسه أو الآخرين ، في كريت ، يجد نفسه وجها لوجه ، وبدرجة ليست موجودة في أي مكان آخر ، أمام الربة ذات الثدي الواحد ، الامازونية * ، التي لا تفضل أحدا ولا تجلس على ركبة أحد من الآلهة أو البشر ، الربة : المسئولية .

★ ★ ★

قذيت عدة أيام وأنا أتجول في المخابىء الحبيبة التي قضيت فيها شبابي . مشاوير على شاطئ البحر . في الأمسيات كان

★ اسم الشعب الاسطوري في مملكة كلها نساء محاييات . قيل ان النساء فيها يستاصلن الثدي الايمن لكي يسهل عليهن شد القوس .

النسيم البارد ذاته يهب ، ذلك النسيم الذي اعتاد أن يداعب شعري حين كان شعري أسود ، والرائحة ذاتها من الياسمين والحبق والعنبرة كانت تفوح حين أمر في الأرقعة الضيقة عند الغسق ، والابواب مفتوحة والفتيات في المنازل يبدأن بسقاية الاصص في الدور .

لقد ظل للنسيم والرائحة العطرية والبحر شباب دائم . البيوت وحدها قد شاخت وكذلك أصدقائي القدامى . كثيرون منهم لم أستطع التعرف اليهم وكثيرون لم يعرفوني . كانوا يحدقون الي للحصة - كنت أذكرهم بشخص ما ولكن من هو ؟ وحين كانوا يتعبون من محاولة التذكر كانوا يعبرون بي . واحد منهم فقط رفع ذراعه مندهشا حين رأي وتوقف ثم صاح : « أهذا أنت يا صديقي القديم ؟ انظر الي نفسك - ما الذي حدث ؟ »

كان صديقي الحميم السابق ، ثالث الجماعة التي أسست جمعية الصداقة ، كان يبدو منعما وجليون فارغ في فمه لكي يستنشق النكهة ويخدع نفسه فيتوقف عن التدخين . تطلع الي وتفحصني ثم شدني بقوة بين ذراعيه .

- كم أصبحت هزيلا وأسود ! ان خديك غائران وجبينك مغطى بالتجاعيد والاخاديد . وتكاثف حاجباك مثل الاشواك بينما عيناك تنفثان النار . ما الذي حدث لك ؟ الى متى ستظل تحترق ؟ والى متى ستظل تجوب العالم ؟

- طالما أنا حي - وحتى أصبح عاجزا عن التغير فأقف ميتا منعما ومعني غليون مطلقاً في فمي مستظرفا العيش .

« أنا عجوز . هل أنا كذلك ؟ هل أنا ميت ؟ » تسأل صديقي وهو ينفجر في ضحكة مهسهسة ساخرة .

لم أقل شيئاً . لقد ملأني التفكير في صديقي القديم بغثة بالحزن والسخط . كيف أحببته في تلك الايام من غطرسة الشباب القدسية والمضحكة حين كنا نجوب شوارع كاسترو حتى الفجر . بأية قناعة وبأية قوة كنا ندمر العالم ونعيد بناءه ! كانت أسوار مدينتنا

الصغيرة تضيق علينا ، والافكار التي نتعلمها من أساتذتنا كانت تضيق علينا ، وكنا نجد انه من المستحيل ان نخضع بارتياح داخل متع الانسان وطموحاته الاعتيادية . وكنا نقول دائما : « فلنحطم الحدود » . ولم نكن نعرف أية حدود هي . كنا نظل نفتح أذرعنا ببساطة وكأننا كنا نختنق .

الآن يرخي صديقي ذراعيه الى جانبه ولم يعد يواجه مشكلة في التنفس وان ظلت لديه أية رغبة مؤلمة فانه يجاهد لاغراقها بتدخين غليون دون تبغ .



« لماذا ذهبت الى روسيا ؟ ما الذي فعلته ؟ » هكذا سألني والدي ليلة وصولي . ونظر الي حانقا وهو لا يستطيع كبح غضبه الا بالقوة . انه يتوقع مني منذ سنوات أن أفتح مكتبا وأن أبدأ التطواف في القرى لأعمل عربا للمعمودية والأعراس . سيتزايد أصدقائي وبعدها أعلن ترشيحي وأنتخب للمجلس النيابي . ولكن ، بدلا من ذلك ها هو يراني الآن أطوف العالم . وأكثر من ذلك فقد نقلت الاشاعات انني قد كتبت كتبا . وآخر مرة رأيته فيها كان قد سألني : « أي نوع من الكتب ؟ حكايات ؟ رسائل عشق ؟ أغنيات ؟ يا للخجل ! الخصيان والرهبان هم وحدهم الذين يكتبون . فلتستقر أخيرا في بلدك ، أنت انسان فلتعمل عمل الانسان ! »

أما الآن فهو ينظر الي من طرف عينيه ويقول : « ربما انك انقلبت علي الى بلشعيك . هل الامر هكذا ؟ لا ربولا وطن ولا شرف . تقدموا ايها الكلاب دون سيطرة من أحد عليكم » .

قلت لنفسي ان هذا هو الوقت الملائم لشرح ما يحدث في روسيا ونوع العالم الجديد الذي يبني . وهكذا بدأت أحكي بكلمات بسيطة كيف انه لم يعد يوجد في روسيا أغنياء أو فقراء . كل انسان يعمل وكل انسان يأكل . ليس هناك أسياد وعبيد الآن . كل انسان سيد . لقد وجدت انسانية جديدة هناك ، وأخلاقية أسمى ، وشرف أكثر مدعاة للاحترام ، وأسرة جديدة : ان روسيا في موقع القيادة

وهي تدل على الطريق والعالم كله سيتبعها الى أن تسيطر السعادة والعدالة على العالم .

توترت وبدأت أخطب . وكان والدي يستمع بصمت . وظل يلف لفافته ويفلتها ثم يلفها ويفلتها من جديد دون أن يقرر اشعالها . قلت لنفسي انه يفهمني والحمد لله . وبغثة رفع ذراعه غاضبا فسكت .

قال وهو يهز رأسه : « كل ما تقوله حسن وممتاز . ولكن ماذا يعني اذا كان قد حدث فعلا ؟ »

بتعبير آخر : استمر . تحدث وتحدث اذا كنت ترى ان الامر يستحق . ليس هناك الا الكلمات - الثرثرة - انها لا تؤذي . ولكن انتبه أيها التعيس . انك لا تحولها الى فعل .

كم كنت أتمنى لو انني حولت هذه الكلمات الى أفعال ! ولكنني كنت أخشى أن لا أستطيع . لقد تبخرت من أعماقي قوة شعبي الكبيرة وغرقت سفينة قراصنة جدي . وانحط العمل الى كلمات وتحول الدم الى حبر ، وبدلا من اشهار الرمح وشن الحرب فانني أمسك بريشة صغيرة وأكتب . كان الاحتكاك بالناس يزعجني ، ويحط من قواي وحيي . وحين أكون وحدي فقط وأتأمل في مصير الانسان يفيض قلبي بالعطف والأمل .

وبعودتي من المشغل السوفياتي المولد للعالم استجمعت شجاعتي . وقلت لنفسي ان الانسان يستطيع الآن ان يتغلب على عجزه ونواقصه . الا يستطيع ؟ يستطيع بالتأكيد . فكم هو مخجل لي أن أجلس بهذه السلبية وأتقبل ما منحتني اياه الطبيعة . سوف أتمرد !

وفي اللحظة التي كنت فيها أحتاج اليه تماما جاء عم غني لي ومنحني مبلغا من المال لكي أتوقف عن التطواف دون جدوى حول العالم ، كما قال ، ولكي أكرس نفسي لعملية بحمية وأفتح مكتب محاماة ثم انتخب الى المجلس النيابي وربما طلب الي ذات يوم أن أترأس وزارة وبهذا أمجد اسم عائلتي . فأنا ، في النهاية ،

أول واحد من هذه السلالة يصبح متعلما وأول من يفتح كتابا ويقرأ .
ولذا فان علي أن أقوم بهذا الواجب .

قلبت الأمر في عقلي مرارا وتكرارا . لا . ما أزال عاجزا عن
الانغلاق في مكتب - كنت أختنق . سأجد طريقة أخرى لدخول
الحياة العملية . أية طريقة ؟ لم تكن لدي فكرة . حشدت العمال في
خيالي . سنرتبط معا بعمل ونأكل الطعام ذاته ونرتدي الملابس ذاتها
التي لي .

بعودتي من روسيا كنت أيضا راغبا أن أجري هذه المحاولة
المصغرة للخروج من برج العاجي والعمل مع البشر .

وعندها تماما - وكأنما كان القدر راغبا في اللعب - تعرفت
على عامل مناجم عجوز اسمه الكسيس زوربا .

٢٩ - زوربا

لقد كانت اعلامي واسفاري هي اهم الامور المفيدة في حياتي .
لم يساعدني في كفاحي الا القلة من الناس (الاحياء والاموات) .
ولو انني حاولت أن احدد الناس الذين تركوا آثارا عميقة في نفسي ،
لحددت هوميروس وبوذا ونييتشه وبيרגسون وزوربا . فالاول ،
بالنسبة لي ، هو العين الاخاذة ، مثل قرص الشمس الذي ينير
الكون ببهائه الشافي ، وبوذا هو العين القاتمة عميقة الغور التي
غرق العالم فيها ثم نجا . وساعدني بيرغسون على الخلاص من
العديد من الاشكالات الفلسفية التي حيرتني والتي كانت تقص
مضجعي في ايام الشباب . اما نييتشه فقد اغناني بعذابات جديدة ،
وعلمني كيف احول الفشل والمهارة والشك الى كبرياء . اما زوربا
فهو الذي علمني ان احب الحياة وان لا اخاف من الموت .

ولو ان سؤال العمر كان مطروحا امامي حول اختيار دليل روحي ،
او غورو GURU كما يسميه الهندوس ، او اب كما يسميه كهنة
جبل آتوس ، فلا شك انني كنت سأختار زوربا . لانه كان يتمتع
بكل ما يحتاج اليه الموجه للخلاص : النظرة الاولية التي تصل الى
هدفها كالسهم من عل ، والانعدام المبدع للفنية ، والتجدد كل
صباح ، الامر الذي كان يساعده على ان يرى كل شيء باستمرار وكأنه
يراه للمرة الاولى وان يمنح العذرية الى العناصر اليومية والابدية :
الهواء والبحر والنار والمرأة والخبز ، كما كان يتمتع بيد واثقة
وبقلب طازج وعذب ، والتصدي الجريء الذي يمكنه من اثاره نفسه

وكانما هو في اعماقه يملك قوة اكبر من نفسه ، واخيرا تلك الضحكة الهمجية المفرقة التي تنبع من الاعماق الغائرة الى ما هو اعرق من اعماق الانسان : ضحكة كانت تنفجر منعشة في اللحظات الحرجة من صدر زوربا العجوز ، تنفجر وهي تملك القدرة (وتحققها) على تحطيم الحواجز كلها : الاخلاق والدين والوطن ، تلك الحواجز التي نصبها الانسان الجبان التعيس حول نفسه لكي تحيطه بالامان الكامل عبر حياته البائسة .

وحين اتذكر أي غداء قدمه المعلمون والكتب ، عبر سنوات طويلة ، لنفسى الجائعة ، ثم اتذكر أي عقل أسدي صلب منحني زوربا خلال عدة أشهر فقط ، عندها أجد صعوبة فائقة في تحمل المرارة والغضب اللذين احس بهما .

كيف استطيع تجنب الاثارة التي تفعم القلب كلما تذكرت الكلمات التي قالها لي ، او الرقصات التي رقصها امامي ، أو (السانتير) الذي كان يعزف لي عليه ونحن على شواطئ (كريت) حيث قضينا ستة اشهر ونحن نحفر ، مع مجموعة من العمال مدعين اننا سوف نجد الغرانيت ؟ كنا وحدنا ، ندرك ان هذا الهدف الشكلي ليس الا غبارا وظيفته ان يضلل اعين الناس . كنا ننتظر بفارغ الصبر ان تغرب الشمس وان يتوقف العمال عن العمل لكي نستطيع ، انا وزوربا ، ان نذهب معا فنضع طعامنا على الشاطئ و نلتهم وجبتنا الريفية اللذيذة ونحتسي خمرتنا الكريمية .. ثم نبدا الحديث .

نادرا ما كنت افتح فمي للحديث . اذ ما الذي يستطيع ان يقوله « مثقف » لغول ؟ كنت اصغي اليه وهو يحدثني عن قريته الواقعة الى جانب جبل الأولمب ، عن الثلج والذئب والقديسة صوفيا والفحم والنساء والله والوطنية والموت . وحين تضيق الكلمات عليه ويقترب من الاختناق ، كان يقفز على قدميه ويبدأ الرقص على حصى الشاطئ ، ممشوقا بجسد طويل ، قويا منتصبا بعينين مدورتين كعيني الطائر ، كان يرقص برأس محني ثم يرتعش ويضرب قدمه الغليظة على الماء فيبذل وجهي بمياه البحر .

ولو انني استمعت الى صوته (لم يكن صوتا بل نداء)
لاكتسبت حياتي قيمة فعلية . لكنك تعرفت بدمي ولحمي وعظمي
على ما أتخيله الآن كالحشاش ثم أسكبه حبرا على ورق . لكنني لم
اجرؤ . كنت ارقب زوربا يرقص ويصهل في اعماق الليل ، اسمعه
يدعوني ان اقفز بدوري خارجا من ملاجيء التعقل والتعود وان ارحل
معه عبر سفر عظيم لا عودة منه لكنني كنت أبقى في مكاني
جالسا مرتجفا .

كم احسست بالخجل فيما بعد لانني منعت نفسي فلم اجرؤ
على القيام بما كان يدعوني اليه الضعف السامي (جوهر الحياة) .
الا انني لم يسبق لي أن شعرت بالخزي الذي كنت اشعر به وأنا
أمام زوربا .

لقد ذهب مشروع الغرائب الى الجحيم . بالضحك واللعب
والحكي قمت ، وزوربا ، بأقصى ما نستطيع لكي نصل الى الفجيرة .
لم نكن نحفر لكي نجد الغرائب . كان هذا قناعا لخداع السذج
والمتعقلين . « لكي نمنعهم من اعاقتنا بجذوع الليمون » كما كان
يقول زوربا دائما وهو ينفجر ضاحكا . « اما بالنسبة لنا يا ريس
- اعتاد ان يدعوني هكذا وهو يضحك - فان لدينا اهدافا اخرى :
اهدافا عظيمة » .

- وما هي هذه الاهداف يا زوربا ؟

- يبدو اننا نحفر لكي نكتشف اية شياطين تختبئ في
اعماقنا .

في اقل ما يمكن من الوقت استطعنا تبديد ما زودني به عمي
لكي افتح به مكتبا (كما كان مفترضا) . طردنا العمال وشوينا
خروفا ثم عبأنا برميلا صغيرا من النبيذ ، وبعد ذلك مددنا مائدتنا
قرب الماء . وامام موقع المقلع بدأنا نأكل ونشرب . وتناول زوربا
(السانتير) ، وبحنجرته العجوز التي اعطاها مداها بدأ بـ
« أمانيه » . اكلنا وشربنا . لم يسبق ان كانت معنوياتي عالية
مثلما كانت في ذلك الحين .

وهتفنا معا : « غفر الله للاعزاء الراحلين • غفر الله لمشروعنا
المرحوم • ولتعش انفسنا وليذهب الغرائت الى الشيطان » •
وافترقنا عند الفجر •

عدت الى الورق والحبر مرة اخرى وفي اعماقي ندبة لا تشفى ،
في مكان لا أعرف اين هو فأسميه الروح •

اتجه زوربا شمالا واستقر في الصرب قرب (سكوبي) حيث
يبدو انه استطاع اكتشاف عرق من المنغنيز • جمع حول اصبعه
الصغيرة عددا من الاثرياء ، فاشترى أدوات عمل واستأجر عمالا
ثم بدأ يفتح انفاقا جديدة في الارض • نسف الصخور بالديناميت
وشق طرقا ونقل الماء وبنى بيتا • وبما انه كان عجوزا مليئا
بالحيوية فقد تزوج أرملة جميلة تحب المرح اسمها « ليوبا » ورزق
منها بطفل •

وذات يوم تلقيت برقية : « وجدت حجرا اخضر على غاية من
الجمال • تعال فورا • زوربا » •

كان هذا في الفترة التي بدأت ضوضاء الحرب العالمية الثانية
تصل الى الاسماع ، منذرة بعاصفة هوجاء ستجتاح الارض كلها •
وكان ملايين من الناس يرتعدون وهم يرقبون نذر المجاعات والمذابح
والجنون • لقد استفاقت في الناس شياطينهم كلها • وكلها كانت
متعطشة للدماء •

في تلك الايام العصبية تلقيت برقية زوربا • وقد اغضبتني
البرقية في البدء • العالم على ابواب الغناء • الشرف وروح
الانسان والحياة ذاتها في خطر • ومن هذا كله امامي برقية تطلب
مني ان انطلق في رحلة الف ميل للتفرج على حجر اخضر جميل •
اللجنة على الجمال (قلت لنفسي) هذا أمر لا يدل على وجود قلب
متعاطف مع الآخرين ولا يدل الا على استهتار بالأم البشر •

لكنني ، بغتة ، احسست بالخوف • لقد تلاشى غضبي • وتبقى
لدي ذلك الاحساس الرهيب بأن نداء زوربا للانساني هذا يتواصل

مع نداء آخر لا انساني في اعماقي . وبدأ صقر متوحش يضرب
بجانحيه في اعماقي ويدفع بي الى الرحيل .

لكنني لم افعل . مرة اخرى لم اجرؤ . لم اقم بالرحلة ولم
الرب النداء الداخلي المتوحش القدسي : لم انجز ذلك العمل العفوي
المجيد ، بل استمعت للصوت الانساني البارد النابع من العقل .
فتناولت قلمي وكتبت اشرح لزوريا . . .

واجابني كما يلي : « سامحني لاقتراحي يا ريس . انت لست
اكثر من حامل قلم . كانت امامك فرصة العمر لكي ترى حجرا اخضر
جميلا . لكنك لم تره .

اقسم بالله انني احيانا ، حين لا يكون لدي ما افعله ، اجلس
واسأل نفسي : أهناك جهنم أم لا ؟ لكنني البارحة ، حين استلمت
رسالتك ، قلت لنفسي لا بد من وجود جهنم لاستقبال حملة
الاقلام » .

ومرت السنوات طويلة . سنوات رهيبه جمع فيها الزمن
طاقاته وحن جنونه . تلك السنوات التي تتراقص فيها الحدود
الجغرافية وتتمدد فيها الدول وتتصادم مثل الاوكورديون .

انقطع الاتصال بيني وبين زوريا في هذه العاصفة . لكنني بين
حين وآخر كنت اتلقى بطاقة موجزة منه : « لم ازل حيا . البرد
قارس هنا بشكل جنوني ولذا تزوجت . اقلب البطاقة لترى وجهها
الصغير . قطعة ممتازة أليس كذلك ؟ أن بطنها منتفخ قليلا لانها
تعد لي فيه زوريا داكي صغيرا . اسمها ليوبا . والمعطف المصنوع من
جلد الثعالب الذي ارتديه هو من مهر زوجتي . سلالة غريبة
هؤلاء النساء . لقد اعطتني ، ايضا ، سلسلة فيها سبعة
خنازير . حبي وقلباتي . . الكسي زوريا : الارمل سابقا » .

ومرة اخرى أرسل لي قبعة مزركشة كانت تحتوي على
جرس في رأسها . « البسها يا ريس حين تكتب الهراء الذي تكتبه .
انني البس قبعة مشابهة حين اعمل . والتأس يضحكون مني

ويسألونني : هل انت مجنون يا زوربا ؟ لماذا تحمل هذا الجرس ؟
لكنني ارفض ان اجيبهم • نحن ، كلانا ، فقط ، نعرف لماذا نلبس
الجرس يا ريس » •

في ذلك الحين كنت قد قيدت نفسي ، مرة اخرى ، الى الورق
والحبر • لقد جاء لقائي بزوربا متأخرا • ففي مسألة كهذه لم يكن
لي أي خلاص • لقد انحدرت الى حامل قلم لا شفاء له •

بدأت اكتب • ومهما كان الشيء الذي اكتبه - قصائد ام
مسرحيات ام روايات - فقد كان العمل يتطلب دائما ، دون جهد واع
من قبلي ، حمية واندفاعا ممتلئين بالقوى المتنازعة وبالكفاح
والغضب والثورة والبحث عن التوازن المفقود : ممتلئين بالندم
وبالشراشات التي تأتي من العاصفة المقبلة • ومهما كان كفاحي
للوصول الى شكل لما اكتبه فقد كان يأخذ ايقاعا متوازنا وقويا •
ورغم نواياي فان الصوت المسالم الذي كنت أرغب في اطلاقه كان
يتحول الى نداء صارخ • ولهذا كنت استمر في انجاز عمل ما وانا
اكتشف انه لا يخفف عني العبء ، ثم انتقل الى عمل آخر أملا
باستمرار انني سوف اكون قادرا على تحقيق التوافق بين القوى
القاتمة والقوى المضيئة التي كانت في ذلك الحين في حالة صراع
وكانت تتخذ الشكل الذي يلائمها لتحقيق التوازن فيما بينها •

فالشكل الدرامي يجعل من الممكن للادب المبدع ان يؤطر القوى
الجامحة في عصرنا وفي انفسنا ، وذلك بتجسيدها من خلال ابطال
العمل الادبي • ولقد حاولت بقدر ما استطعت من اخلاص ودقة
ان اقدم خبرتي بهذا العصر الهام الذي صدف انني ولدت فيه •

لدى الصينيين شتيمة غريبة : « العنك ، وادعو ان تولد في
عصر هام » • ولقد ولدنا في عصر هام مليء بالتجارب المتكررة
والمخاطرات والاصطدامات : ليس فقط بين الفضائل والرزائل كما
كان الامر في الماضي ، بل - وهذا هو الجانب المأساوي - بين الفضائل
ذاتها • فالفضائل القديمة المعترف بها اخذت تفقد سلطتها ، منذ ان
عجزت عن تلبية المتطلبات الدينية والخلقية والثقافية والاجتماعية
التي تطمح اليها النفس المعاصرة • يبدو ان نفس الانسان قد
كبرت • ولم تعد قادرة على التواؤم مع الانماط القديمة •

ان حربا اهلية ضارية قد نشبت بين مقومات عصرنا . وقد
نشبت ، بوعي او بلا وعي ، بين مقومات كل انسان في مواجهة
عصره : حرب اهلية بين الاسطورة القديمة التي كان لها السلطة
المطلقة بعد ان تلاشت قواها ، الا انها تقاتل بضراوة للاحتفاظ
بسيطرتها على حياتنا وبدورها في تنظيم هذه الحياة ، وبين
الاسطورة الجديدة التي تكافح ، وما تزال تكافح بعفوية ودون
تنظيم ، للتحكم بنا . وهذا ما يجعل كل انسان حي انسانا معذبا
بفعل هذا المصير الدرامي لزمانه . والفنان المبدع قبل ذلك كله .

هناك بعض الشفاه او رؤوس الاصابع التي تحس بوخر خاص
عند اقتراب العاصفة ، كما لو انها تتعرض لوخر الاف الابر . ان
شفتي المبدع ورؤوس اصابعه من هذا النوع . وحين يتحدث المبدع
بهذا الوثوق عن العاصفة التي تندفع نحونا فان الذي يتحدث ليس
خياله ، بل شفاته واصابعه التي بدأت تتلقى الشرارات الاولى
من العاصفة .

ان علينا ان نتواعم ، ببطولة ، مع فكرة ان السلام والفرح وما
يسمى بالسعادة ، امور تعود الى عصور اخرى : في الماضي او في
المستقبل ولكنها ليست في عصرنا . لقد دخل عصرنا ، منذ آمد
طويل ، مدار العذاب .

وبوضع صيغة لهذا العذاب كنت اكافح بجهد واضح لتجاوزه
ولايجاد (او خلق) شكل للخلاص . وفي كل ما كتبت كنت أفرش
الارضية من الاساطير أو العصور القديمة الا ان المادة كانت حديثة
وحية تعاني من مشاكل معاصرة ومن عذابات أيامنا .

لكن هذه العذابات لم تقلقني او تشغلني بالقدر الذي كانت
تؤرقني فيه تلك الآمال المتذبذبة وغير المحددة بعد ، والتي كنت
احاول ان اثبت ملامحها . انها الآمال العظيمة التي تمكنا من
الوقوف بثبات ومن التحديق بثقة الى الامام عبر العاصفة ، الى
مصير الانسان .

وليس انسان العصر الحالي ، بحالته المنفلتة ، هو ما كان

يثير اهتمامي وقلقي ، بل - وهذا قبل أي شيء آخر - انسان المستقبل
في حالة التكون المنظم والواعد .

وكنت أرى ، دائما ، ان فنان اليوم المبدع اذا قام بالتعبير عن
أعمق توجساته الداخلية تعبيرا صادقا ومتكاملا فانه ، بعمله هذا ،
يساعد انسان المستقبل على ان يولد قبل ساعة من مواعده وان
يكون هذا الانسان اكثر قربا من الكمال .

لهذا ظللت ، بوضوح متزايد ، اقدس مسؤولية الفنان المبدع .
وكنت اقول لنفسي ان الحقيقة لا توجد مستقلة عن الانسان كاملة
وجاهزة ، بل هي تأتي بالتعاون مع الانسان وبفضل مشاركته .
وهذه الحقيقة نسبية حسب قيمة الانسان .

وحين تفتح ، بالكتابة او بالعمل ، مجرى نهر ، فان الحقيقة
تجري فيه وتتخذ مسارا لم تكن لتتخذ لولا تدخلنا ومساهمتنا .
ونحن بالطبع لا نتحمل المسؤولية كاملة . الا اننا ، بالتاكيد
نتحمل قسطا كبيرا من هذه المسؤولية .

ربما كانت الكتابة لعبا في عصور اخرى : أيام التوازن
والانسجام . لكنها اليوم مهمة جسيمة . لم يعد الغرض منها
تسليّة العقول بالقصص الخرافية أو مساعدة هذه العقول على
النسيان . بل الغرض منها تحقيق حالة من التوحد بين كافة القوى
الوضاعة التي ما تزال قادرة على الحياة حتى ايامنا الانتقالية هذه .
والغرض ، ايضا ، تحريض الانسان على بذل قصارى جهوده ،
لتجاوز الوحش الكامن في اعماقه .

ان ابطال المآسي اليونانية القديمة لم يكونوا اكثر من اعضاء
ادونيس المبعثرة وهي تصطدم فيما بينها . وكان اصطدامها يحدث
لانها اجزاء . لا يعبر كل منها الا عن جزء من الالهية . بمعنى ان
ايا منها لم يكن لها متكامل . وكان ادونيس ، الاله المتكامل ،
يقف غير مرئي في جوهر المأساة متحكما في ميلاد القصة وتطورها
ولحظة الذروة والتطهير (الكاثارسيس) فيها . وكانت اعضاء الاله
المبعثرة ، بالنسبة للمتفرج البدائي ، على الرغم من انها تتصارع

فيما بينها ، الا انها كانت ، في السر ، متوحدة ومتصالحة في اعماق هذا المتفرج . فهو يعرف ان هذه الاعضاء تشكل جسد الاله المتكامل ، وانها ، فيما بينها ، منسجمة انسجاما حقيقيا .

وهكذا كنت ارى دائما الطريقة الوحيدة التي يظهر من خلالها توافق المستقبل وانسجامه من خلال مأساة الحاضر ، هذا التوافق الذي يرتفع على عداء اليوم وصدامه ، متكاملا وسط الابطال المجزئين المتعادين .

انها مهمة صعبة جدا . بل ربما كانت غير ممكنة التحقيق بعد . اننا نرى انفسنا في لحظة من الانهيار الكوتي والخلق الكوتي . وفي لحظة من هذا النوع لا يقدر لاعظم الجهود الفردية الا الاجهاض والاحباط . لكن هذه الاجهاضات ذاتها تحمل خصبها ، ان لم يكن لنا فللائين بالتأكيد . انها تفتح الطريق وتعين المستقبل على ان يسلك هذا الطريق .

هذه المسؤولية الرهيبة لم تكن تبارح ذهني وانا اكتب محاطا بسلام العائلة وغارقا في حميتي للكتابة . في البدء كانت الكلمة فعلا . قبل العمل . الابن . الابن فقط ، ابن الله . الكلمة المنوية الجوهريّة التي تخلق العالم المرئي والعالم اللامرئي معا .

بالتدرج ، وبمزيد من الحماس ، وجدت نفسي غارقا في الحبر . وراحت ظلال كبيرة تحوم حول قلبي بلحثة عن فرصة لشرب الدم الحار الذي كان سيعيدها الى الحياة - جوليان الخائن ، تيسيفروس فوكاس ، كونستانتين باليلوغوس وبروميثيوس . نفوس عظيمة معذبة واجهت العناء والحب في حياتها ووقفت ضد الله والقدر بصلابة . ولقد كافحت طويلا لكي اقتلع هذه الارواح من العالم الاخر من اجل تمجيد معاناتها ونضالها - معاناة الانسان ونضاله - وتبريرها أمام الاحياء . من اجل أن استمد ، لنفسي ، الشجاعة .

كنت اعرف أن ما اكتبه لن يكون كاملا من الوجهة الفنية ذلك لانني كنت اتعمد تخطي حدود الفن وبهذا فان الهارموني - جوهر الجمال - قد تحطم .

وكلما كتبت اكثر ، تعمق احساسني بالكتابة كنت اكافح ليس من اجل الجمال ، بل من اجل الخلاص . وعلى عكس الكاتب الحقيقي لم استطع ان اتمتع من خلال ابتكار عبارة جميلة او قافية ذات ايحاء . كنت انسانا يكافح متألماً ، انسانا يبحث عن الخلاص . كنت اريد الخلاص من عتمتي الداخلية العميقة ، وتحويلها الى نور . كنت اريد الخلاص من الاسلاف الذين يزأرون في اعماقي وتحويلهم الى كائنات حية . وهذا هو السبب الذي كان يدعوني الى اثاره العظماء الذي نجحوا في عبور اقسى الامتحانات واصعبها . وكنت اطمح الى استقاء الشجاعة من خلال رؤية قدرة النفس الانسانية على الانتصار على أي شيء . كان هذا ما رأيته وما عرفته : المعركة الابدية ذاتها التي نشبت امام عيني منذ ان كنت طفلاً ما تزال مضطربة دون انقطاع في اعماقي ومضطربة ايضاً في العالم الخارجي . كانت المعركة تشكل الدافع الذي لا يهدأ لحياتي كلها . وهذا ما يجعل ذينك المتصارعين ، وهما وحدهما ، طرفي الصراع في كافة اعمالي . واذا كنت اكتب ، فلان كتابتي ، للأسف ، كانت سندي الوحيد في كفاحي . كريت وتركيا ، الخير والشر ، النور والعتمة ، كان بين كل منهما والآخر صراع لا ينقطع في اعماقي . وكان غرضي من الكتابة ، الغرض الذي لم أكن أعياه في البدء ثم صرت اعياه ، هو ان اقدم العون الى كريت والخير والنور لكسب المعركة . لم يكن هدفي من الكتابة الوصول الى الجمال بل الى الخلاص .

لقد صدف انني ولدت في عصر كان فيه هذا الصراع حاداً وكانت الحاجة لتقديم العون ملحاً الى درجة انني سرعان ما استطعت ان أرى العلاقة الوثيقة بين كفاحي الشخصي ، والكفاح في العالم المعاصر . كنا متشابهين في معركتنا نحو الخلاص ، خلاصني من اسلافي المعتمين ، وخلاص العالم من العالم القديم الغاشم ، خلاصنا من العتم .

اعلنت الحرب العالمية الثانية ، وجن جنون الارض بأسرها . انني أرى الآن ان لكل عصر شيطانه . وهذا الشيطان هو الذي يحكم وليس نحن . وشيطان عصرنا من ذلك النوع المتعطش للدماء ، كما هو الحال دائماً حين يتعفن العالم ويصبح من الواجب ان يزول .

يبدو ان هناك عقلا لا انسانيًا ، عقلا علويا ، يساعد الروح على تخليص نفسها من الانسان المتفسخ ثم الانطلاق صاعدة ، وحين ترى الروح ان العالم يمشي أمامها ويسد عليها الطريق فانها تطلق ذلك الشيطان المتعطش للدم لكي يفني هذا العالم ويفتح لها الطريق ، الطريق الدموي ، بحيث تستطيع ان تمر بسلام .

ولقد كنت ارى العالم من حولي واسمعه وهو يفنى . وكان كل انسان يراه وهو يفنى . ولقد حاولت النفوس النقية ان تقاوم لكن الشيطان نفخ عليها وافقدها اجنتها .

مضيت ، مرة اخرى ، الى جبال كريت حين اعلنت الحرب ، مضيت وانا اعرف انني هناك فقط استطيع ان اتقي ، ليس بالسلام او بالعزاء ، بل بالكبرياء التي يحتاج اليها المرء في اللحظات العصبية لكي تبقيه ذاقيمة وشأن . ورأيت ذات مرة داعية عجوزا يجلس امام الكنيسة في يوم احد بعد الصلاة وهو يعظ الشباب ليبت فيهم الشجاعة : « حدقوا في الخوف ، في عينيه تماما اذا استطعتم وعندها فان الخوف سوف يخاف ويولي هاربا » هيات امتعتي وحملت حقيبتي على كتفي وتوجهت نحو الجبال . كان ذلك في الوقت الذي كان الالمان يقتحمون فيه النروج ويحاولون اخضاعها .

وذات يوم عند الظهر سمعت صوتا فظا يناديني بينما كنت اجتاز سفوح بسيلوريتي . « هيه . يا جار . انتظر لحظة . أريد أن أسالك عن امر » .

رفعت رأسي فرأيت رجلا يخرج من تحت صخرة ويتجه هابطا . كان ينزل بخطوات عملاقة من صخرة الى صخرة . وكانت الحجارة تتدحرج تحت قدميه . وصدر عن ذلك هدير عظيم فبدا كأن الجبل كله يتحرك وينزل معه . واستطعت ان ارى انه كان راعيا عجوزا عملاقا . وقفت انتظره . ما الذي يمكن ان يريده مني ؟ سألت نفسي : وفيم هذه اللفهة كلها ؟

اقترب مني ووقف على صخرة . كان صدره العاري يلهث ويتعرق .

« يا جار • كيف تسير الامور في النروج ؟ » سألني بنفس يقطعة
• اللهاث •

لقد سمع ان بلادا ما تعيش في خطر الاستعباد • ولا شك انه لا
يعرف ما هي النروج او اين تقع او اي نوع من البشر يعيش فيها •
الشيء الوحيد الذي كان يفهمه بوضوح هو ان الحرية في خطر •

اجبته : « يا جدي • الامور تتحسن • لا داعي لان تقلق »
- « الحمد لله » • زار الراعي العجوز وهو يرسم علامة الصليب •
سألته : أتريد سيجارة ؟

- « لا • ماذا أريد من السيجارة ؟ أنا لا أريد شيئاً • طالما ان
النروج على ما يرام فهذا يكفيني » •

وما ان انهى كلامه حتى لوح بعصاه وقفل صاعدا للبحث عن
قطيعه •

لا شك ان الهواء اليوناني مقدس • لا شك ان الحرية قد ولدت
هنا • هكذا رحت أقول لنفسي • ولا أعرف ان كان هناك امتحان لأية
أرض مجهولة وبعيدة تكافح من أجل حريتها يمكن أن يؤثر بهذا
الحجم من العذاب والقلق على أي فلاح أو راع آخر في العالم • لقد
أصبح نضال النروج هو نضال هذا الراعي اليوناني ذاته ذلك ان
الحرية بالنسبة اليه مثل ابنته •

ولهذا رحت اجري هذا التحول الجريء في واجبي فيما كنت اكتب
في هدوء البيت ، محاولا أن أساهم بدوري في هذه المعركة الخالدة •
لكنني بين حين وآخر كنت اهجر القلم والورق لأتجول في الطريق
المحاط بالزيتون والكرمة والذي يؤدي الى كتوسوس • وحين تبدت
هذه المعجزة الكريمية المفاجئة كما يتفجر الربيع من الارض ،
وحين طالعنتني الطرق الصخرية المتدرجة والاعمدة والباحات
واللوحات سيطر علي سرور وأسى ، يعجز التعبير عنهما ، لهذا
العالم الاستثنائي المتلاشي ، ولمصير كل مآثرة انسانية : ان تشق
لنفسها مكانا في النور لثانية واحدة ثم تنغمر بالفناء الى الابد •
الى درجة انني اعدت في خيالي بناء القصر الملكي وهو يستحم

مرة اخرى بنور الشمس ، وصراع الثيران والنساء ذوات النهود البارزة العارية والشفاه المزينة والجدائل المجددة ٠٠ كلها عادت الى الحياة مرة اخرى على بقايا الجدران المتهدمة ، الى درجة ان يوم القيامة ذاته تبدي لي ، ونهض من التراب اسلاف مجهولون من أعماق العصور ٠ رجال صامتون ومرحون ودهاة ، ونساء يرتدين تنورات تزينها نجوم السماء ونجوم البحر وزهور من الارض ، وافاعي الله السامة تتلوى على اذرعهن ٠

الا انني ، ذات يوم ، وبينما كنت أسير على ذلك الطريق المظلل بالخضرة ، ووصلت الى هضبة القيامة ورحت اتمشى ساعات بين المعجزات المتناثرة ٠٠ يومها لوحة محددة بينها كلها هزتني اكثر من البقية ٠ وكأنني كنت اراها للمرة الاولى ٠ لا شك ان هذه اللوحة قد تواصلت مع الاهتمامات والامال الحالية التي كانت تشغلني ٠ وكان ذلك هو السبب الذي مكنني من فهم معناها المخبوء في ذلك اليوم للمرة الاولى ٠ اسماك متعددة تبرعط في الماء بذيلها المشرعة بينما سمكة طائرة من بينها نشرت زعانفها بغتة وقفزت خارجة من ماء البحر لكي تتنفس الهواء ٠ كانت بطبيعتها السمكية اكبر بكثير من ان تعيش عمرها كله في الماء ٠ بغتة تاقت لان تتخطى قدرها وان تتنفس الهواء النقي وان تصبح عصفورا ولو لوهلة وبقدر ما تستطيع الاحتمال ٠ لكن هذا كان كافيا ٠ هذه الوهلة هي الابدية : وذلك هو معنى الابدية ٠

لقد شعرت بعناء عظيم ومشاعر اخرى وانا احدق الى هذه السمكة الطائرة كما لو انني كنت أرى روعي على هذه اللوحة الجدارية التي ترجع الى آلاف السنين ٠ وتمتمت هامسا لنفسي : « هذه سمكة كريت المقدسة ٠ السمكة التي تقفز لكي تتجاوز الضرورة وتتنفس الحرية » ٠ ألم يبحث المسيح عن الشيء ذاته ؟ ألم يحاول أن يتخطى قدر الانسان ويوحّد نفسه بالله او بالحرية المطلقة ؟ الا تبحث نفسي مكافحة عن الشيء ذاته : تحطيم الحواجز والحدود ؟ يا للحظ السعيد ان تكون كريت ، ربما ، أول مكان على الارض يرى ميلاد هذا الرمز المتعلق بالنفس التي تكافح وتموت من اجل الحرية ٠ السمكة الطائرة - تطلع الى الروح المكافحة ايها الانسان المستعصي !

راقبت السمكة الطائرة وهي تغامر بقفرتها المصيرية خارج الماء وراقبت المرأة والرجل النحيلين ، ضيقي الخصرين وهما يلعبان سعيدين مع الثور على الحلبات المرصوفة بالحجارة ، راقبت اللبوة التي تنام بسلام بين ازهار الليلك وجاهدت لكشف معانيها الغامضة . ما مصدر هذه الغبطة وهذه الفروسية ؟ أية صلاة كانت تؤديها المرأة بذراعيها ؟ ولمن ؟ بذراعيها المزدوجتين مع الافاعي ؟ هذا الظمأ اللامتناهي للحياة وهذه البسمة الجيسور في البطولة مواجهة الخطر والموت . هذا كله ايقظ في التحدي المتلائم مع أرواح الاجداد لمواجهة طالما تقف اليها مع الموت . الثور والرجل ، الموت والروح . كل منهما صار صديق الآخر . كل منهما عار . كل منهما كالرياضي ، مدهون بزيت فواح . يلعبان ساعة او ساعتين حتى تغيب الشمس . ولأنني كنت مثارا ومضطربا خطر لي انه هنا ، في لحظة المواجهة هذه بين كريت والهاوية ، يكمن سر كريت . علي ان اكشف عن هذا السر .

وشحب المسيح وبودا ولينين في اعماقي . لقد جرفتني تربة كريت . ودون ان التفت ، رفعت عيني للتحديق بتوق ورهبة الى قمة لامرئية ، ما تزال تحف بها الغيوم ، قمة سيناء التي تجلى فوقها الله وحيث حقق الله مشيئته وهو مسلح بالصواعق والوصايا (كما يقول لي قلبي) .

احسست بقوة جديدة وبمسؤولية جديدة تملآن عروقي . وبدا ان روحي تفتني بالتراب الكريتي ، وبدا انها عجيبة مؤلفة من دموع وضحكات عمرها عصور . ومرة اخرى ادركت الحدة والثقة الداخلية التي تتواصل بها التربة الكريتيية مع النفس . ولا شك ان لدي الزهرة ، بالطريقة ذاتها ، ذلك الوعي الداخلي بالطين الذي يبدأ من جذورها ثم يتحول الى عبر وألوان .

رأيت روحي تتمدد في دمي كتيمية كريتيية . وكان لها شكل شرع مثلث الحواف ، كانت تعيش العصور ذاتها ، المخاوف والافراح ذاتها وهي تمر بين القارات الثلاث - والرياح العنيفة الخصبة الثلاث - لآسيا القدسية وافريقيا اللاهبة واوروبا العاقلة . وتيقظ

التوق الواعي - أو اللاواعي - الذي كنت أكنه منذ سنين وأصبح أكثر تحكما في أعماقي ، التوق للتوفيق بين هذه الرغبات الثلاث للوصول الى المآثرة العظمى - التركيب : المونادا المقدسة المثلثة العناصر .

وفي أعماقي تحول الثالث المقدس ، الرمز الديني المعروف عالميا الى مستوى آخر أقل رمزية . لقد أصبح واقعا محرقا مهيبا وواجبا علويا حتميا . وفي لحظة من النشوة أقسمت بيني وبين نفسي « هذا أو لا شيء » . وهذا الثالث لم يأتني جاهزا بأمر مخلوي . لقد خلقتة بنفسي . هذا واجبي . هذا ولا شيء غيره . وقلت لنفسي ان كريت لم تكن عبثا واقعة في وسط هذه الانفاس الثلاثة ، وليس عبثا ان روحي اخذت شكل كريت ومصيرها . كان واجبي ان اتلقى نداء كريت عبر العصور بشعبها وبجبالها وبالبحار المحيطة بها ، بجسدها وروحها وبساعات نومها ويقظتها .

ان اتلقى ذلك كله وأحوله الى رسالة واحدة . ألم أكن ابنها ؟ ألسنت من ترابها ؟ أليست هي التي وجهتني لاكتشاف المعاني الكامنة في كفاحها ، والسبب الذي كان وراء ندائها المتواصل عبر العصور ، والامر الذي كانت تريد ان توصله الى الجنس البشري ؟

عدت الى بيتي . متى أجتاز غابات الزيتون وكروم العنب ؟ متى أدخل ميغالو كاسترو وأصل الى البيت ؟ لم أر شيئا . ظلت السمكة الطائرة تقفز أمام عيني . وخطر لي : كم بوذي لو أصور نفسا قادرة على أن تقفز وتحطم الحدود البشرية ولو لثانية ، قادرة على التخلص من الضرورة ولو لثانية ، ان تهجر المتع والاحزان والافكار والالهة ، وان تتنفس الهواء النقي الذي لم يمس ارضا ولم يمسه بشر .

كانت هناك رسالة وعليها اشارة عزاء تنتظرنني . كانت تحمل ختم الصرب . وفهمت . أمسكت بها بين يدي المرتعشتين . لم افتحها ؟ لقد أدركت النبأ الأليم فورا . « لقد مات . لقد مات » تمتت لنفسي بهذه الكلمات ، وأظلم العالم .

رحت احدق فترة طويلة عبر النافذة وانا أراقب هبوط الليل .

كان يجب ان اسقي اصص الحديقة هذا المساء فالتربة مشققة .
وأظهر نجم المساء نفسه من بين الاغصان الشائكة لشجرة الاكاسيا
كقطرة من الندى . كان المساء لطيفا وبدت الحياة حلوة . ونسيت ،
لوهلة ، الرسالة المؤلمة التي أمسك بها بين يدي .

وادركت ، بغتة ، انني في محاولتي لتأمل جمال العالم كنت
احاول أن انسى الموت . أحسست بالخلج . فتحت المظروف بحركة
عنيفة . وتراقصت الحروف امام عيني . ثم تركزت تدريجيا حتى
اصبحت قادرا على القراءة :

« انا استاذ القرية . وانني اكتب لاخبرك بالنبا المؤسف وهو
ان الكسي زوريا ، الذي كان يدير منجم منغنيز هنا، قد توفي يوم
الاحد الماضي في الساعة السادسة مساء . دعاني في نزعه الاخير وقال
لي : « تعال قربني يا استاذ . لدي صديق في اليونان . حين اموت
اكتب اليه واخبره بموتي . وبأنني ظلت مالكا لقواي العقلية حتى
النهاية وانني كنت افكر فيه . وانني مهما كان ما فعلته فانني
لست آسفا على شيء . قل له انني ارجو له الخير وانه قد أن الاوان
له ان يضع عقله في رأسه واذا جاء أي قس ليستمع الى
اعترافي ويمنحني الغفران قل لذاك القس انه يستطيع ان يكون فريد
زمانه وانه يستطيع ان يمنحني لعنته . لقد فعلت هذا الشيء أو
ذاك واشياء اخرى في حياتي لكنني لم أفعل الا القليل . الناس الذين
يشبهونني يجب ان يعيشوا الف سنة . عمت مساء » .

اغمضت عيني واحسست بالدموع تتدرج بطيئة ودافئة على
خدي . « مات . مات . . . » ورحت اتمتم لنفسي . « راح زوريا . راح
الى الابد . ماتت الضحكة . وانقطعت الاغنية . وتحطم الساندير .
وتوقفت الرقصة على حصي الشاطيء . والفم الذي كان لا يهدأ عن
طرح الاسئلة اصبح الان مليئا بالتراب ولن توجد أبدا بعد اليوم
يد تلاطف الحجارة والبحر والخبز والنساء »

واستطردت بعيدا . لا بفعل الحزن بل بتأثير الغضب « ظلم .
ظلم » ورحت اصرخ : « أرواح كهذه يجب ان لا تموت . هل في وسع
الارض والماء والنار والحظ ان تعيد تشكيل زوريا آخر ؟ »

وعلى الرغم من انني لم اكن قد تلقيت منه أخبارا منذ أشهر عديدة • فأنني لم اكن أقلق • كما لو انني كنت اعتقد انه خالد • وسألت نفسي : كيف يمكن لنبح كهذا ان ينضب ؟ وكيف يستطيع كارون ان يجبر روحا مشاكسة كهذه على ان تعض التراب ؟ ألم يجد في آخر لحظة ضحكة ما او رقصة ما او أية مناورة يخدع بها كارون ويهرب منه ؟

لم استطع ان أغمض عيني طوال الليل • وراحت الذكريات تتلاحق كل منها تزحم الاخرى فيتصاعد القلق والاعياء الى رأسي كأنما في محاولة لتجميع زوربا من جديد من الهواء والتراب والحفاظ عليه من الضياع • حتى أصغر الحوادث المتعلقة به بدأت تتوهج وتتسارع وتزداد مكانتها في الذاكرة مثل سمكة ملونة في محيط شفاف تخترقه أضواء الصيف • لم يمت منه شيء في اعماقي • وبدا كما لو ان كل شيء لمسه زوربا قد اصبح خالدا •

طوال الليل ظللت افكر • ماذا استطيع ان افعل لكي أطرده الموت - موته مني ؟

وانفتح الباب في أعماقي وتفاقرت منه الذكريات تدفع احداها الاخرى مسرعة لكي تغف على قلبي • وبدأت تحرك شفاهها لتدعوني ان اجمع زوربا من التراب والبحر والهواء وان اعيدته للحياة • ألم يكن هذا واجب القلب ؟ ألم يخلق الله القلب لهذا الغرض بالذات : ان يبعث الاعزاء ويعيد اليهم الحياة ؟

ابعثه !

لا شك ان قلب الانسان عميق ومغلق ومليء بالدم • لكنه حين ينفتح تهجم عليه الظلال التي لم تجد عزاءها وكل ظمأ في النفس لكي يشرب وينتعش ويبعث من جديد • وتزداد كثافتها حولنا حتى يسودّ الهواء • لماذا تتراكم للشرب من دماء القلوب ؟ لأنها تدرك ان هذا هو بعثها الوحيد ولا قيامة الا فيه • في ذلك اليوم كان زوربا يركض أمام الجميع بخطواته المديدة وهو يدفع الظلال الاخرى وبعدها لانه كان يعرف تماما انني احبه اكثر من اولئك الذين احببتهم كلهم •

عند الصباح كنت قد صممت على رأي . وهكذا استعدت
هدوئي . كأنما القيامة قد بدأت في اعماقي وكان المجدلية كانت
تسرع الخطا الى القبر لكي ترى القيامة .

ظلت في الفراش حتى ساعة متأخرة ودخلت شمس الربيع
الحارة المرححة الى غرفتي ونورت المنحوتة النافرة المعلقة فوق
رأسي . تلك المنحوتة كان والدي قد وجدها وعلقها فوق سريري منذ
ان كنت صغيرا . انني لا اؤمن بالحظ لكنني اؤمن بالقدر والمصير .
وهذه المنحوتة قد كشفت لي سر حياتي ببساطة مذهشة وربما انها
كشفت لي سر زوربا ايضا . كانت نسخة من حجر منحوت على قبر
تحتوي على محارب عار لم يتخل عن خوذته حتى وهو يموت . وكان
المحارب راكعا على ركبته اليمنى وهو يعتصر صدره بكفيه بينما
ترفرف بسمة هادئة على شفثيه المطبقتين . كانت الحركة البهية
لهذا الجسد المتين من نوع يجعلك تحار فيما اذا كانت الحركة حركة
استسلام للموت ام حركة في رقصة . ام لعلها رقصة وموت معا ؟

حتى لو كان الموت يجب ان نحوله الى رقصة ، وقد شجعتني
الشمس المشعة على المحارب أن أتمسك بهذا الرأي وأنا اراه يتحول
تحتها الى انسان حي . انا وانت ، أيها القلب ، دعنا نعطه دما
لعله يعود الى الحياة دعنا نبذل قصارى جهودنا لكي نجعل هذا
الاكل ، الشارب ، الشغيل ، مطارد النساء ، المتشرد يعيش لحظة
اخرى زيادة - يا لهذا الراقص المحارب ذي النفس العظيمة والجسد
المتمكن والنداء المنطلق الذي لم أر ولم أعرف له شبيها في حياتي
كلها .

٣٠ - حين اثمرت في داخلي بذرة الأوديسة

بدأت أسطورة زوربا تتبلور في داخلي . كانت في البداية اثاره موسيقية ، ايقاعا جديدا ، وكأنما الدم قد صار يدور بسرعة أكبر في وتيني . أحسست بالحمى والدوار ، بمزيج من الغبطة والغيظ يصعب فصلهما ، وكان جسما غريبا غير مرغوب فيه قد دخل دورتي الدموية . واستثيرت عضويتي كلها من أجل أن تهجم وتطرده لكن الجسم الغريب كان يقاوم ويستعطف ويمد الجذور وهو يتمسك بعضو ثم بأخر غير راغب في الرحيل . لقد صار بذرة ، حبة قاسية من القمح ، بدت وكأنها تحس بأن السنابل والارغفة المسجونة فيها في خطر ولذا فهي تكافح كفاحا يائسا لكي تحافظ على نفسها - وعليها - من الفناء .

خرجت وتمشيت ساعات في الحقول . سبحت في البحر وعدت الى كنوسوس مرة بعد أخرى . ومثل الحصان الذي يهز نفسه ويجاهد للتخلص من نعرة * نهمة حطت عليه ، كذلك رحت أهز نفسي وأرفس . ولكن عبثا . كانت البذرة مستمرة في مد جذورها الجديدة والتحكم .

في هذه الآونة بدأت عملية سرية ثانية في داخلي . بتغذية هذه البذرة وسقايتها من دمي سأجعلها جزءا من أحشائي ، وبذلك

* نناية تعض الخيل .

أخضعها من خلال تمثيلها • كان هذا أملي الوحيد في التخلص *
البذرة التي اقتصمتني كالفتاح يجب أن تتوحد بي بحيث يصبح
كل منا منتصرا ومغلوبا •

وبدأت الكلمات والايقاعات والتشبيهات فورا بالدوران حول
البذرة الدخيلة للاحاطة بها وتغذيتها مثل جنين • انبعثت ذكريات
خافتة وتصاعدت أفراح وأحزان وضحكات ومحادثات متفجرة دفيئة •
عبرت أمامي أيامنا المشتركة الطويلة مثل حمامات بيضاء جميلة
مليئة بالهديل • وتصاعدت الذكريات قصة أسمى من الحقيقة ،
قصتين أسمى من الكذب • لقد مسخ زوربا بالتدريج وتحول الى
خرافة •

في الليل لم أكن أجد الشجاعة للتوجه الى السرير ، كنت أحس
أن البذرة تواصل عملها في نومي • وفي هداة الليل المهيبه كنت أصغي
اليها باهتمام وهي تقرض وتقرض أوراق سويداء قلبي ، مثل دودة
الحرير ، أملة أن تحولها الى حرير •

كنت أتجول في شوارع كاسترو الضيقة ليلا • وراحت الذكريات
القديمة تقفز من كل ركن • قابلت نفسي طفلا يسير وحده ولا يرغب
في اللعب مع بقية الاطفال ، ثم يافعا يتنزّه مع أصدقائه على
الاسوار الفينيسية المطلة على البحر - كانت ساعة الغسق وكان
هناك نسيم لطيف مثقل بملح البحر ، والياسمين من حدائق الجوار
الصغيرة ، والعطر من الفتيات اللواتي يتنزهن وهن يضحكن ويلمننا
لأنهن كن يرغبن في ان نلتفت ونتطلع اليهن فيما كنا نناقش موضوع
الله وما اذا كانت الروح خالدة أم لا ••• وكلما اكتمل القمر
وصفا كانت تهيمن علي حالة ثمل ساحرة عميقة •• وكانت الابواب
وقرميدات أسطحة البيوت تتمثل هي الاخرى • وكانت الحجارة
والغابات والينابيع وأبراج الاجراس تخلع عنها أجسادها الكثيفة
لتريح نفسها من العبء الذي كان يرهقها اثناء النهار • وما هي
أرواحها الآن تتلألا عارية في ضوء القمر •

جاءت أول أمطار الخريف • نزلت السماء الى الارض ورفعت
البذور رؤوسها من الاخاديد وراحت تتطلع فرحة الى الاعالي • ولما

وجدت بيت أسرتي ضيقا جدا علي الآن ، هربت وحيدا الى بيت صغير مهجور يخص واحدا من أصدقائي . كان يقوم على حافة الماء خارج المدينة : دار مغلقة مربعة بجدران عالية فيها شجرتا ليمون وسروة وعدة أصص من الحبق والعترة ، وباب دار ثقيل مصنوع من ثلاثة ألواح خشبية على ثلاث طبقات وكأنه باب حصن ، وتاج هائل ثقيل تحتاج من أجل سحبه لاستخدام يديك معا وقوتك كلها . كم كانت سعادتي عميقة حين سحبتة وأرتجت الباب وبقيت وحيدا لا يستطيع أحد أن يدخل الى معتزلي . قلت للرتاج « سأمسك بك جيدا تحت ذراعي حين أدخل السماء وستدخلها معي » . وكنت أتطلع اليه بامتنان . سيمسك بعض الناس بالأدوات التي كانوا يعملون بها ليكسبوا عيشهم وآخرون سيمسكون بالرماح التي قاتلوا بها وآخرون الأقلام التي كتبوا بها وآخرون يمسكون بحبيباتهم . أما أنا فسامسك بهذا الرتاج .

ما أجمل أن تكون وحيدا وأن تسمع البحر يتنهد وراء عتبتك وأن تنزل القطرات الأولى من المطر على شجرات الليمون والسرو في دارك ، وأنت تحس ببذرة تنهشك في أعماق أحشائك .

استوطن زوربا في داخلي مثل خادرة * ملفوفة في صدفة قاسية شغافة . لم يكن يتحرك . لكنني كنت أحس بعملية مبهمة غامضة رهيبية مستمرة ليلا ونهارا بسر* وبصمت داخل تلك الخادرة الخرساء . كانت عروقها الواهنة تمتلئ ، بالتدريج ولحمها الجاف ينعم - كانت الصدفة على وشك أن تنشق في أية لحظة عند الكتفين وكان الجناحان الطريان الأجعدان العاجزان على وشك ان يظهر ، كانت دويذة ممددة داخل الخادرة ، وكانت قد انجرفت بفعل جنون قدسي مبالغت ورغبت في أن تتحول الى فراشة . وحين سمعت أول الأمطار سمعت الأرض تتشقق وتتلقى الهطول وسمعت بذار القمح يشرب وينتفخ في الأرض ، وسمعته يمد كلابات خضراء قوية لكي يتمسك ، بالتراب ثم ليرفع الأرض بعدها ويظهر الى الضوء من أجل أن يصبح قمحا وخبزا يأكله الناس لكي يظلوا أحياء ويمنعوا الرب من الموت .

ـ الحشرة في الطور الذي يعقب اليرقة - المورد .

وأنا أصغي باهتمام كنت أسمع الروح التي تقف على كل وريقة
عشب لتساعدنا على النمو وأداء واجبها على الأرض . وهنا في
عزلتي المحصنة أحسست أنه حتى أخط مخلوقات الله - حبة قمح
أو ذودة أو نملة - تذكر بغتة أصلها ويتملكها مس منزل من الله
فترغب في الارتقاء درجة بعد درجة من أجل أن تلمس المولى ، ترغب
الحبة أو النملة أو الذودة في ان تلمسه وان تقف الى جانبه مع الملائكة
والملائكة المقربين ، وأن تكون هي أيضا ملاكا أو ملاكا مقربا .

حين التقيت بزوربا ، وكان ما يزال يلقي بظله على الأرض ،
وهين عرفت انه لا جسده ولا أغنيته ولا حتى رقصته كانت قادرة
على استيعابه تساءلت بتوقع كبير عن أي نوع من وحوش البرية
سيتفجر حين تأتي ساعته ويقطع القيود الشفافة المحيطة به والتي
تكبله ساكنا في أحشائي . أي وحش وأي خراب نهم وأي لهب متاجج
لا يعرف الخمود ؟ وقلت لنفسني ان كانت الذودة ، الذودة التافهة ،
ترغب في أن تصبح فراشة فما الذي كان زوربا يرغب ان يكونه ؟

كانت تلك أياما لا تنسى من التأمل القدسي . الأمطار تهطل
والغيوم تذوب وتظهر الشمس مستحمة . كانت زهور الليمون قد
تشكلت ثمرها وراحت الليمونات الخضراء المقدسة تتلامع على
الاشجار . كانت النجوم تظهر ليلا وتدور فرق رأسي ثم تسقط
غربا . وكان الزمن يمر مثل مياه خالدة وأحسست برأسي يبحر
فوق الزمن والفيضان بثقة وشجاعة ، مثل الفلك * ، محملا بكل نوع
من البذار ، الحيوانات والبشر والآلهة . حشدت ذكرياتي كلها ،
وسافرت من جديد في رحلاتي كلها معيدا الى الذهن الأرواح العظيمة
كلها التي سبق أن أشعلت لها الشموع في حياتي وأنا أقدم موجة
بعد موجة من دمي لتغذية البذرة التي في داخلي ورحلت أنتظر .
أطعمت هذه البذرة عسلا غاليا جنيته في عمر من التنقيب بين أطيب
الزهور شذى وأقتلها سما . للمرة الاولى أحسست بطعم الحب
الأبوي وعرفت أي منبع للخلود هو الابن . تماما كما ان اللؤلؤ
مرض وهو في الوقت ذاته الانجاز الاسمي للمحار ، كذلك فقد بدأت

★ التصود نك نوح .

أحس بالاضطراب والحمى في دمي ، وفي الوقت ذاته كنت أحس برسالة نابذة من المصادر العميقة التي وصلت إليها - أو كنت على وشك أن أصل - في أهم لحظة من حياتي . على أساس هذه البذرة ، هذا الابن ، سيتقرر مصيري .



مضى الخريف وجاء الشتاء . كنت أتمشى في الحقول المحروثة حول مخبئي ، وأنا مندهش كيف تستعيد الأرض الخالية من العشب بذورها وتنتظر بصبر مجيء الربيع . أنا الآخر رحت أنتظر بصبر مع التراب . وأحسست أنني بدلت جنسي ، كأنني تحولت إلى امرأة ، مثل الأرض ، وأنني أغذي بذرتي ، الكلمة ، وأنتظر . قلت لنفسني : آه لو أنني أستطيع أن أجسد الآمي وآمالي كلها في هذه الكلمة لأخلي هذا الابن من بعدي حين أفتح باب الأرض لأغادرها .

تذكرت ناسكا التقيت به ذات يوم على جبل أثوس . كان يمسك بورقة حور يعرضها للنور ويتطلع إليها والدموع تنهمر من عينيه . توقفت عنده مندهشا وسألته « ما الذي تراه في هذه الورقة يا أبانا المحترم بحيث يجعلك تبكي ؟ »

أجابني : « أرى المسيح مصلوبا » . ثم قلب الورقة وقد أشرق وجهه غبطة . وسألته هذه المرة : « وما الذي تراه الآن فيجعلك سعيدا ؟ »

- أرى المسيح مبعوثا يا بني .

لو ان المبدع يستطيع بالطريقة ذاتها ان يرى الآمه وآماله كلها حتى في أحط التفاصيل من العالم ، في حشرة أو صدفة أو قطرة ماء ، وليس فقط أن يرى الآمه وآماله هو بل أن يرى آمال الكون كله والآمه . لو انه فقط يستطيع ان يرى الانسان مصلوبا والانسان مبعوثا في كل خفقة قلب وأن يحس بأن النمال والنجوم والاشباح والافكار تخرج كلها من الام ذاتها مثلما نخرج نحن وبأننا نقاسي

كلنا ونأمل كلنا أن يأتي اليوم الذي ستفتح فيه عيوننا فنرى اننا
كلنا واحد - ونصل الى الخلاص .

لن أنسى ما حييت شهور الانتظار الباطنية هذه . حفيف
أوراق الليمون ، طيران نحلة ، البحر الذي لا يهدأ بل يظل يتهدد
ويدق بابي ، غراب يمر فوق سطح البيت - كل شيء كان يؤذيني
ويجعلني أبكي . كأنما قام اله ما بسخ جسدي فلم أعد أستطيع
تحمل حتى هبوب النسيم عليه .

الى أن كان ، أخيرا ، ذات يوم لم أعد أستطيع المقاومة . لقد
عرفت جيدا ومنذ سنوات ان الطريقة الوحيدة لتخليصي من الألم
الشديد أو الغبطة الشديدة ولاستعادتي حريتي هي أن أسحر هذا
الألم أو هذا الفرح بفتنة الكلمات السحرية . في البلدان المدارية
تخترق حشرة دقيقة كالخيط جلد الانسان وتأكله . ثم يأتي طارد
الارواح فيعزف بمزمارة السحري الطويل . وتظهر الدودة المسحورة .
تسترخي شيئا فشيئا وتخرج . وهكذا هو مزار الفن .

جاءت أيام كانون الثاني الهادئة المغتسلة بأشعة الشمس ،
الأيام التي ربما كان الله بفضله العميم قد حشرها في قلب الشتاء
لكي تستطيع طيور البحر البائسة المسكينة ان تضع بيوضها واثقة
فوق الصخور . وفي يوم من تلك الايام الهادئة ذهبت الى البحر
وسبحت ثم حميت نفسي وخرجت ثم جففت نفسي في الشمس . لم
يسبق لي أن أحسست في حياتي بهذه الراحة الجسدية وبهذه
السعادة الروحية . عدت الى البيت وأمسكت بريشتي (هذا هو
مزماري) وبارتعاشة خفيفة انكبت على الورق .

صرت أكتب وأشطب . لم أكن أستطيع أن أجد الكلمات الملائمة .
أحيانا كانت سخيفة بلا روح وأحيانا مبهرجة بشكل غير لائق وأحيانا
أخرى مجردة وملئية بالهواء ينقصها الجسد الحار . كنت أعرف
ما كنت قد خطت لقوله حين ابتدأت غير ان الكلمات الكسول
الطليقة نقلتني الى مكان آخر . وأزهر مخططي بوفرة كبيرة فوسع
الهيكل الذي كنت وضعته فيه وصار بوقاحة يغزو المزيد من المكان
والزمان . كان يتغير ثم يتغير من جديد . لم أكن أستطيع أن أحدد

ملاحمه • وكانت روعي تتغير معه ثم تتغير من جديد ولم أكن أستطيع
أن أحدد ملامحها هي الأخرى •

عبثا كنت أجهد لأعثر على مصطلح بسيط دون رقعة تزيينية ،
المصطلح الذي لا يثقل على عواطفى بغناه فيحطمها • من كان ذلك
المتصوف المسلم العطشان الذي أنزل الوعاء في بئر لكي يسحب
الماء ويشرب ؟ رفع الوعاء فراه مليئا بالذهب • أفرغه وأنزله من
جديد ثم سحبه فكان مليئا بالفضة • أفرغه وقال : « أعرف أنك
مليء بالكنوز يا مولاي • ولكن أعطني فقط بعض الماء لأشرب •
أنا عطشان » أنزل الوعاء ثانية وسحب الماء ثم شرب • هكذا يجب
أن تكون الكلمة : دون زينات •

ولادراكي بأن الوقت لم يحن بعد ، وان التحول السري داخل
البذرة لم يكتمل بعد ، توقفت •

أتذكر ذات مرة أنني أخذت خادرة من جذع شجرة زيتون
ووضعتها في راحتي • وداخل الغلاف الشفاف ميزت شيئا حيا •
كان يتحرك • لا بد أن العملية السرية قد وصلت الى نهايتها • وكانت
فراشة المستقبل ، التي ما تزال سجيئة ، تنتظر بارتعاشات
صامتة مجيء الساعة المقدسة التي تخرج فيها الى ضوء الشمس •
لم تكن على عجلة، كانت تنتظر وهي واثقة بالضوء وبالهبوط
الدافاء وبقانونه الأزلي •

لكنني كنت على عجلة • كنت أريد أن أرى المعجزة تحدث
أمامي بأسرع ما يمكن ، كنت أريد أن أرى كيف ينبعث الجسد من
قبره وكفنه ليصبح روحا • انحنيت وبدأت أنفخ أنفاسي الحارة على
الخادرة وإذا بشق يرتسم على ظهر الخادرة وانشق الغلاف كله
تدرجيا من أعلاه الى أسفله وظهرت الفراشة الخضراء الزاهية غير
المكتملة وهي ما تزال منطبقة على نفسها قليلا وأجنحتها ملتوية
وأرجلها ملتصقة الى بطنها • تلوت بهدوء وراحت تتقدم نحو الحياة
شيئا فشيئا تحت نفسي الحار المستمر • أحد أجنحتها ، أصفر
مثل ورقة حور متبرعمة ، أبعد نفسه عن الجسد وبدأ يتخبط محاولا
أن يتمدد بطوله الكامل • ولكن عبثا • ظل واهنا نصف مفتوح •

وسرعان ما تحرك الجناح الآخر مثله وصار يجهد بدوره لكي يتمدد وعجز عن ذلك وظل مرتعشا ونصف مفتوح . وأنا ثابت ، بوقاحتي البشرية ، على الانحناء والنفخ بنفسي الحار على الاجنحة المشوهة لكنها توقفت عن الحركة الآن وسقطت جامدة لا حياة فيها مثل حجر .

امتلاً قلبي غما . فبسبب تسرعني ، ولأنني تجرأت على تخطي قانون أزلي قتلت الفراشة . كنت أمسك في يدي جثة . لقد مرت سنوات وسنوات وظلت جثة هذه الفراشة تثقل على ضميري منذ ذلك الحين .

يتسرع الانسان أما الله فلا يتسرع . ولهذا تكون أعمال الانسان مشوهة وملتبسة ، بينما أعمال الله راسخة ومتماسكة . امتلأت عيناى بالدموع وأنا أقسم على أن لا أتخطى بعدها هذا القانون الأزلي . كالشجرة ستهب علي الريح ويسقط علي المطر والشمس وسأظل انتظر بثقة ، فساعة الازدهار والاثمار التي يطول انتظارها لا بد أن تأتي .

ولكن هأنذا في اللحظة ذاتها أحنث بقسمي . فعلى الرغم من ان خادرة زوربا لم تنضج بعد فلقد كنت على عجلة من أمرى لفتح كفنها ، ولخجلي من نفسي مزقت كل ما خربشته على الورق وخرجت لكي أتمدد قرب البحر .

تذكرت شيئاً قاله لي زوربا ذات مرة : « انني أتصرف دائماً وكأنني خالد » . ذاك هو أسلوب الله ، الا ان علينا ، نحن الفنانين ، ان نحذو حذوه وليس من خلال جنون العظمة والصفافة بل من خلال توق الروح الخفي الى ما هو أسمى . ان محاولة تقليد الله هي وسيلتنا الوحيدة لتجاوز الحدود الانسانية حتى ولو تم التجاوز بشعرة ، وحتى لو تم للحظة (تذكر السمكة الطائرة) . فطالما أننا مسجونون في أجسادنا وطالما اننا خادرات فان أهم الاوامر التي تلقى علينا من قبل الله هي : اصبر ، تأمل ، ثق .

راقبت الشمس وهي تغرب ، والتمعت الجزيرة المهجورة المقابلة

لي وردية وسعيدة مثل خد بعد قبلة • وسمعت الطيور الغريفة الصغيرة تعود نعسانة الى النوم ، متعبة بعد يوم كامل من الصيد والغناء • سرعان ما ستظهر النجوم لتحتل أمكنتها واحدة بعد الأخرى وستبدأ عجلة الليل بالدوران • سيأتي منتصف الليل ، وسيأتي الفجر ولا بد أن تشرق الشمس وستبدأ عجلة النهار دورتها •

ايقاع قدسي ، بذور في الأرض ، وطيور ونجوم - كلها تطيع ، الانسان وحده يرفع يده احتجاجا ويرغب في تخطي القانون ويحول الخضوع الى حرية • ولهذا فهو وحده بين مخلوقات الله كلها قادر على اقتراف الخطيئة • الخطيئة - ما معنى هذا ؟ معناه تدمير التوافق والانسجام (هارموني) •



ولاحساسي بأن رحلة ما ستمنحني القدرة على الصبر ركبت متن قارب كان متجها الى الجزر الايجية البهية ، سانتورين ، وناكسوس وباروس وميكونوس • لقد قلت ذلك وانني أقوله من جديد : ان من أعظم المتع التي يمكن ان يمنحها الانسان في هذا العالم هي الابحار في بحر ايجة ربيعا حين يكون النسيم العليل موجودا • لم أستطع ، أبدا ، أن أتصور كيف يمكن أن تختلف الجنة عن ذلك بأي شكل كان • أية غبطة سماوية أو أرضية يمكن أن تكون أكثر اكتمالا في توافمها مع جسد الانسان وروحه ؟ هذه الغبطة تصل حد الثمالة لكنها لا تتجاوزه - والحمد لله - ولهذا لا يتلاشى العالم المرئي • بل على العكس من ذلك يصبح الامرئي مرثيا • وما نسميه الله والخلود والنعمى يستقل قاربنا ويبحر معنا • أغمض عينيك في ساعة الموت الرهيبة ، فان رأيت سانتورين وناكسوس وباروس وميكونوس فانك ستدخل الجنة فورا ودون تدخل التراب • وما هو حضن ابراهيم والأشباح اللامادية في الجنة المسيحية بالمقارنة مع هذا الأزل اليوناني المؤلف من الماء والصخور والريح الشمالية المنعشة ؟

فرحت لأنني انسان ، انسان ويوناني • بهذا أستطيع أن

احس بأن بحر ايجة لي ، وارثي الشخصي من أسلافي - غريزيا ودون أي تدخل مشوه من قبل الفكر المجرد - وانني أستطيع الابحار بين الجزر متنقلا من سعادة الى أخرى دون تجاوز حدود روعي . كانت تلك الجزر المقدسة تتلامع مثل الصدر الأملس لحجل ، كانت تتماوج وتغير ألوانها كل لحظة في الظل وتحت الشمس أحيانا ، رمادية قاتمة وملتمعة بغبار ذهبي أحيانا أخرى ، محتشدة بالزهور صباحا وبالليالك النقية ظهرا وبالبنفسج الدافئ في الساعة التي تقرر فيها الشمس ان تغرب .

دامت هذه الرحلة الشبيهة بشهر العسل أسبوعين . وحين رجعت الى المنزل الصغير على الشاطئ كان عقلي قد عاد الى مكانه وقلبي صار يخفق بهدوء . ولم يختف المسيح وبوذا ولينين ، القراصنة العظام المحببون ، بل تفسفروا * على غسق الذاكرة مثل رموز هيروغليفية تزيينية ببهاء صاف تم تجاوزه .

لم يلهني أي اهتمام ذهني خلال مجريات رحلتي كلها ، ولم يجيء حلم واحد الى نومي ليذكرني بأن ادى اشكالات ابداعية علي أن أحلها ولم أستطع . كنت أرى العالم وأسمعه وأشمه ببساطة بهيجة وكان روعي قد تحولت هي الأخرى الى جسد ، وكأنما هي أيضا كانت ترى العالم وتسمعه وتشمه في حالة من الراحة والدعة .

من كان الرسامان ، في العصور القديمة ، اللذان تباريا ليريا من منهما يستطيع ان يرسم العالم المرئي بدقة أكبر ؟ قال الأول : « سأثبت لك الآن أنني الأفضل » وهو يريه ستارة كان قد رسمها . وقال الخصم : « طيب . افتح الستارة ودعنا نر اللوحة » وأجاب الأول ضاحكا : « الستارة هي اللوحة » .

خلال رحلتي هذه كلها في بحر ايجة أحسست بعمق أن الستارة هي اللوحة فعلا . ومسكين ذلك الذي يفتح الستارة لكي يرى اللوحة . لن يرى الا العدم .

* تلامعوا كالفسفور .

ظللت غارقا في صمت عزلتي الصارم عدة ايام اخرى . كان الوقت ربيعا . وكنت اجلس تحت شجرة الليمون المزهرة في الدار وانا اقلب في ذاكرتي مستمتعا قصيدة كنت قد سمعتها في جبل اثوس : « حديثني عن الله يا اختي يا شجرة اللوز . فازهرت شجرة اللوز » .

ان الستارة مطرزة فعلا بالأزهار والعصافير والبشر - ولا بد انها الله . وهذا العالم ليس رداءه ، كما كنت أعتقد ذات مرة ، انه هو ذاته . الشكل والجوهر متطابقان . لقد عدت من حجي الايجي وأنا أمسك بهذا اليقين ، هذه الغنيمة الثمينة . كان زوربا يعرف ذلك لكنه لم يستطع ان يقوله . كان يرقصه ، وفكرت بيني وبين نفسي ، آه لو انني أستطيع تحويل هذه الرقصة الى كلمات .

وبينما أنا أفكر في ذلك توضح ذهني . وأدركت أنني كنت أبحث عن الله طوال هذه السنوات دون ان انتبه الى انه يقف أمامي مباشرة ، تماما مثل الخطيب الذي يظن أنه قد ضيع خاتم الخطبة ، ثم يبحث عنه قلقا في كل مكان ولا يجده لأنه يلبسه في اصبعه . كانت العزلة والصمت وايجة تتعاون معي سريرا وبعطف . وكان الزمن يمر من فوقني ، هو الآخر أحد أعواني ، وينضج البذرة في أحشائي . وجنبا اني جنب مع النجوم والطيور ربطت نفسي الى العجلة الأبدية وللمرة الأولى في حياتي ، كما أعتقد ، أحسست ما هي الحرية : أن يضع المرء نفسه تحت نير الله - أي تحت نير الهارموني .

الابداع ، مثل الحب ، متابعة اغوائية مليئة بعدم الثقة وبالخفقات المرتبكة . وكل صباح حين كنت أخرج الى هذه المتابعة الباطنية كان قلبي ينفق كربا وفضولا مع غطرسة شيطانية غريبة (لا أعرف كيف ولا لماذا) تشبه مذلة عميقة لا توصف . ذلك لأنني دون أن تكون لدي أية فكرة مسبقة ، ومنذ الأيام الاولى كنت أدرك خائفا ما هو الطير اللامرئي - وربما اللاموجود - الذي كنت أطارده لاصطياده . كانت الجبال مليئة بالحجال ، والشعاب مليئة بالقمري والبحيرات بالببط البري ، ولكنني ، وأنا أعبر متجاوزا باحتقار هذا

اللحم اللذيذ كله ، كنت أطارد الطائر الذي لا يمسك والذي كنت أسمعه بين حين وآخر يصفق بجناحيه في سويداء قلبي ، الطائر المصنوع ، حتى الآن ، من جانحين وحسب . كنت أجاهد لمنح هذا الطائر جسما صلبا لكي أتمكن من الإمساك به .

في البدء لم أكن أستطيع أن أطلق على هذا الطائر اسما ، وربما لم أكن أريد ذلك ، لأنني كنت أعرف تماما ان الاسم يسجن الروح ويقيدها لكي تتلاءم مع كلمة ، ويجبرها على التخلي عن أي شيء لديها مما لا يعبر عنه ، كل المواصفات الغالية التي لا يمكن ايجاد بديل لها ، والقائما خارج حدود الاسم .

ولكنني سرعان ما فهمت أن غفلية * كهذه تجعل الصيد أكثر صعوبة . لم أكن قادرا على تحديد مكان فريستي في أي مكان لنصب فخ لها . كان الحضور اللامرئي يحوم في الجو في كل مكان ، في كل مكان وفي لا مكان . لا يستطيع الانسان ان يعتمد الحرية المطلقة ، حرية كهذه تؤدي به الى الفوضى . فاذا كان من الممكن لانسان أن يولد مع حرية كاملة فان واجبه الأول ، ان كان يرغب في ان يكون ذا نفع على هذه الأرض ، هو ان يعين حدودا لهذه الحرية . الانسان لا يستطيع أن يتحمل العمل الا في حلبة ثابتة محددة . وعلي أن اخضع لهذا العجز الانساني ان كنت أرغب في تجاوزه . وهكذا بادراك كامل ومرير بأنني أضيق حدود رغبتني صرت أحتاج الى أن أطلق اسما على الطائر الغامض الذي انطلقت لاصطياده ، اسما ذا حدود مرنة قدر الامكان ، ذا أطر شفافة قدر الامكان بحيث أستطيع أن أرى ، حتى بشكل غير واضح ، ما الذي يجري وراءه وحوله .

كانت هذه الحاجة تعتمل في* سرا ليلا ونهارا . ولحسن الحظ ان عقلي لم يكن مدركا لذلك ، كان هذا كله يجري من وراء ظهره . وذات صباح نهضت واسم الطائر يلمع مفاجئا ورهيبا في الهواء . لم يكن طائرا بل صرخة من أفواه لا تحصى . أدركت ذلك مباغطة .

* ترك الشيء غفلا بلا اسم .

هذه الصرخة هي ما كنت أطارد لأصطاد - صرخة المستقبل . لقد كنت أعذب نفسي وأشن حربي من أجلها بل لقد ولدت من أجلها . وما تبقى كله - أفراحي وأحزاني ورحلاتي وفضائلي ووذائلي - لم يكن الا تقدمي نحو هذه الصرخة . وكان المسيح وبوذا ولينين محطات في الطريق . كان علي أن أمرّ بهم ، فهم الذين كانوا دلائل على مرور الطائر السري ، هم الذين كانت مهمتهم ان يثيروا الطريدة لكي أتمكن من تجفيلها .

ألم يضع أي شيء هباء اذن ؟ بالنظر الى توهاناتي الفكرية والى تعرجاتي الجانبية كل واحدة منها على حدة فستبدو وقتا مبددا ، ونتيجة عقل غير متبلور وغير منظم . ولكنني كنت أرى الآن أنها ، بالنظر اليها كلها مجتمعة ، تشكل خطأ مستقيما سديدا كان يعرف معرفة تامة انه بالتعرجات الجانبية فقط يستطيع أن يتقدم فوق هذه الارض الفانية . وخياناتي للأفكار العظيمة - لقد تخليت عنها بعد ان كانت تذهلني ثم تفقد ايهامها بالتتالي - اذا أخذت خياناتي هذه معا فانها تشكل ايمانا راسخا بالجوهر . كان يبدو أن الحظ (كيف نسّميه ؟ ليس الحظ بل القدر) له عينان وعطف ، لقد أخذني من يدي وأرشدني . والآن فقط أدركت الى أين يرشدني وماذا يتوقع مني ان أفعل . كان ينتظر مني أن أسمع صرخة المستقبل وأن أبذل كل جهد ممكن للتنبؤ بما كانت الصرخة تريده ولماذا تنادي والى أين تدعونا أن نذهب .

تصاعد دمي الى رأسي وهو يخرخر فرحا . أخذت قلمي وكتبت في أعلى الصفحة الموضوع البهيج للعمل النهائي المحدد الذي كنت أبدأه :

« تحياتي أيها الانسان ، أيها الذيك الصغير المنتوف ذو الساقين ! انه صحيح فعلا - ولا تستمع لما يقوله الآخرون - انك ان لم تصبح في الصباح فان الشمس لا تشرق ! »

حط لهب بارد لعوب في رأسي ، وأحسنت به يتماوج مثل ريشة همراء في الريح . كان طائرا غامضا مسقسقا ، خوذة نارية ذات

قدرة سحرية على زيادة بسالة المحارب وأمله • كان قلبي وهو يخفق
بنفاذ صبر على وشك أن يستجمع قواه ، ولكنه حين رأى الهاوية
أمامه (الهاوية ؟ أم الله ؟) جبن • اللحم التعيس ليست لديه أية
قابلية للمغامرة • باقامته المريحة في ذلك المنزل الصغير الهادئ
مع شجرتي الليمون والبحر والرتاج القوي ظل يتراجع الى السوراء
ويقلص خائفا • ولكن سموا غير مرئي أعلى وأكثر حقيقية من
جسدي الحقيقي ، راح يحوم فوق رأسي ويتحكم بي • لقد أصبحت
سفينة وكنت أستعد للابحار • وعلى قيدومي سمرت حورية بحر
واحدى يديها مرخية على صدرها بينما الاخرى ممدودة بصيفة
أمره الى الامام • لم تكن نايكي ★ بل كانت صرخة عظيمة وكانت
تشير الى طريقي بين السماء والبحر •

الكلمات والحكايات والطرف التي كنت أعرفها كلها دخلت الى
السفينة • لقد أدخلت اليها أعز أصدقائي ، وأكثر الانصار الشجعان
تناقضا ممن كان خيالي يملكهم ، واحتياطات وافرة ، واكياسا من
جلد الماعز مليئة بالخمر وعدداً لا بأس به من الآلهة القدامى المنحوتة
في الخشب دون عناية لمساعدتي على تمضية الوقت • انتفخت
الأشربة وانطلقنا الى البحر •

الى أين نتوجه ؟ لم يكن هناك شيء في ذهني ، كان صدغاي
مفتوحين والرياح من الجهات الأربع كلها كانت تهب علي بقوة
متشابهة ، بين أصابعي كنت أمسك بقطعة قاسية من الطين ،
المستقبل • رحمت أعجنها وأعطيها شكلا - انسانا ، الها ،
شيطانا - ثم أخربها وأصوغ منها آخر • وكانت الاشكال تفر من
رؤوس أصابعي وتتجمد في الهواء لوهلة ثم تقوم عائدة الى العدم •
لا تقل انني كنت أعب • لم أكن أعب • كنت أناضل - أجاهد أن
انقل ملامح روحي الى الطين •

وبما انني لم أكن أعرف ما هي ملامح روحي ولا كيف تبدو فقد
كان الكفاح صعبا ومستميئا ، وكنت أصارع للعثور على هذه الملامح

★ الهة النصر عند الاغريق •

بتشكيل الطين • لم تكن لدي ثقة في العقل لأنه لا يستطيع ان يميز
الا الجسد ، والخطوط الأولية للجسد • انه لا يري اللهب الذي يومض
حول الجسد ويقفز من فروة الرأس والذي يرهرف في الريح مثل
الراية • هذه هي الروح بالتحديد • ولذلك لم أكن أسمح الا لقوى
غامضة بأن ترشد أصابعي •

بالتركيز ثلاثة أيام صامتا ودون حركة مثل الفقير الهندي
عشت حياتي مرة أخرى ، لم يضع منها شيء حتى أقل التفاصيل
أهمية - شجرة رمان مزهرة قرب كالاتا ، بطيخة سانترودية ذات
رائحة قوية ، كبيرة الى درجة انني لم أستطع أن أحيطها بذراعي
الا بصعوبة ، فتاة صغيرة شعثناء تبيع الياسمين في نابلس ، جلبة
مرحة بهيجة تصدر عن قبقاب خشبي لأرملة ترقص في عرس في
دارها ، قوسان عظيمان يشكلهما حاجبا امرأة شركسية في موسكو ،
كلها ، كلها خرجت من باب الذاكرة المسحور وملاأتني بالسعادة •
وحين كنت أنزل في فراشي ليلا كنت أتابع رحلاتي في نومي ، مع
فارق وحيد هو ان هذه الرحلات ذاتها كانت تحوم في الهواء ليلا متحررة
من ثقل الحقيقة ومؤلفة من مادة أكثر بهجة وأثمن فقط •

أهناك ما هو حقيقي أكثر من الحقيقة ؟ نعم • الاسطورة •
هي التي تعطي معنى أزليا للحقيقة العابرة • تجوالاتي كلها كانت
تتجمع في توافق وانسجام الآن مضغوطة في رحلة واحدة قيمة كانت
تعرف بدقة متى بدأت ولماذا والى أين هي ذاهبة • ولم تكن كل
نقطة توقف نزوة تافهة من الحظ بل كانت تنفيذا لمخطط القدر ،
صارت رحلاتي كلها خطأ أحمر يبدأ من الانسان ويصعد لكي يصل
الى الله ، أي أعلى ذرى الأمل •

في اليوم الرابع كنت أجاهد لرؤية المدى الذي وصل اليه الخط
الأحمر لصعودي حتى الآن وهيمن عليّ غم قدسي مفاجيء • لم يكن
هذا الخط الأحمر مرسوما بدمي ، كان هناك شخص آخر يصعد ،
ودم شخص آخر ينزف من جروحه راسما مضمارا أحمر على الارض
والبحر - شخص أسمى مني بما لا يقاس ، سلف عملاق ، مقاتل
بحري ومتسلق جبال • ولم أكن أكثر من ظل له ، الظل الأمين الذي

يتبعه • لم أستطع تبينه بل كنت أسمع نهدته فقط أو أسمع ضحكته المدوية بين حين وآخر • وكنت أتلفت حولي ولا أرى أحدا • غير انني كنت أحس بالنفس القوي معلقا فوقي •

وعينا مليئتان بحضوره (ليستا عينيّ الطينيتين بل الاخريين) انكبت على أوراق غير ان الورقة البيضاء لم تكن مرآة نعكس وجهي كما كانت سابقا • رأيت وجهها آخر لأول مرة ، وجه الرحالة العظيم وتعرفت اليه فورا • كان يعتمر قبعة بحار مدببة ، وله نظرة الصقر النافذة ولحية قصيرة مخعدة وعينان صغيرتان سريعتا التحرك ومغويتان كعيني أفعى وحاجبان مغضنان قليلا وكأنه يزن بعينه خروفا ينوي ان يسرقه أو يتأمل غيمة محمولة على الريح ظهرت من البحر بغتة ، أو انه يوازن بين قوته وقوى الخالدين قبل أن يقرر ما اذا كانت فرصته المثلئ ان يظهر شجاعته أم أن يظهر مكره •

كانت القوة تكمن منتظرة على وجهه ، صامته وساكنة ، ومتهيئة للانقضاض • انه مصارع يحترم الموت ويتصارع معه بمهارة وحذر دون صراخ أو شتائم بل وهو ينظر اليه في عينيه • كان كل منهما مدهونا بالزيت وكل منهما عاريا تماما وكانا يتصارعان في الضوء مراعيين قواعد النزال الدقيقة • وعلى الرغم من ان الرحالة العظيم يعرف من هو خصمه الا انه لا يسقط فريسة للألم • يرفع عينيه ويتطلع الى وجه الموت وهو يتموج ويتخذ أشكال وجوه عديدة - مرة امرأة على الشاطئ الرملي تمسك بثديها وتغني ، ومرة وجه اله يثير العواصف ويرغب في اغراقه ، ومرة شكل عمود رفيع من الدخان فوق سقف بيته • يلعق شفثيه ويستمتع بوجوه الموت كلها ويتصارع معها كلها ويعانقها كلها باشتهاء •

لقد كان أنت - أنت ! كيف يمكن أن أفعل شيئا قبل ان أتعرف اليك فورا ، يا قبطان سفينة اليونان - أيها الجد والسلف الحبيب ! أنت بقبعتك المدببة وعقلك النهم الماكر أبدا الذي يخلق الأساطير ويطلق الأكاذيب مثل أعمال فنية ، المغتصب العنيد ، المزيج المتميز

من الحصافة البشرية والحمافة الالهية انت الواقف منتصبا بكبرياء
على سفينة اليونان ودون أن تخلع الخوذة آفا متعددة من السنوات
وكم من الآلاف التي ستأتي !

أراك في كل اتجاه ويدور عقلي • تبدو ، أحيانا ، مثل أب و صل
عمره مئة عام ، وأحيانا قويا وطويلا بشعر أزرق مجعد مرشوش
بملح البحر ، وأحيانا طفلا متمسكا بذيبي الأرض والبحر ترضع •
أراك في كل اتجاه وأجاهد لكي أضغطك في كلمة ، ولكي أجمد ملامحك
وأعلن « لقد أمسكت بك ! ولن تغفل ! » لكنك تسحق الكلمة (كيف
يمكن لك أن تنسجم داخلها !) وتنزلق من قبضتي وأسمعك تضحك
في الهواء من فوقني •

أية أسماء لم أطلقها كالأفخاخ للامسك بك ! ناديتك خادع
الإله ، ومقاتل الإله وماحق الإله ومراوغ الإله • الحيوانات السبع ،
العقل المركب ، عقل الثعلب العقل المتشعب ، العقل ذا القمم
العديدة ، العقل اليميني اليساري ، خداع القلب ، مقاتل القلب ،
عارف القلب ، مغلق البيت ، خاطف الروح ، دليل الروح ،
الأكرايت ★ ، جواب العالم ، وجاني العالم ، وعقل القوس ، وباني
الحصون ، ومدمر الحصون ، مقاتل البحر ، وصدر المحيط ، والدلفين ،
والانسان ذا العقول الخمسة ، والارادة السداسية ، القائد ، الوحيد ،
صياد الطيور ، سكونة ★★ الأمل ذات الصواري الثلاثة •

وذات مرة في البدايات الاولى حين لم أكن أعرفك ، ولكي أمنعك
من الابتعاد ، ألقيت في طريقك ما كنت أظن أنه أكثر المصائد
حذقا - ايثاكا • لكنك انفجرت ضاحكا ثم أخذت نفسا عميقا
فاستحالت ايثاكا الى ألف قطعة • وعندها فهمت - بفضلك يا مدمر
الوطن - أن ايثاكا غير موجودة • الشيء الموجود الوحيد هو البحر ،

★ في العصر البيزنطي كان الاكرايت يحرسون الحدود من غارات
البرابرة ، ثم اصبحوا رموز البطولة والتفاني في سبيل الوطن وقد
خلدت مآثرهم ، التي ضخمت كثيرا ، في الملاحم والاغاني •
★★ نوع من القوارب ذات الاشرعة المتعددة .

ومركب صغير بحجم جسم الانسان والعقل قبطنه • يقف هذا القبطان في حجرته العظيمة • يبذر الذكر والأنثى ويولدهما ، يولد أحزان العالم وأفراحه ، محاسنه وفضائله ومغامراته وكل سلاسل أشباحه الدموية الحبيبة • يقف دون حراك وعيناه مثبتتان باتجاه شلال الموت الذي يجتذب قاربه الصغير اليه وهو يلقي بنهم مجساته الخمسة الجائعة على البر والبحر • ويصرخ : « كل ما ظل لدينا وقت من أجله ، سواء كان كأسا من الماء البارد ، أو نسمة على أصداعنا أو نفس امرأة دافئ أو فكرة ، كل ما يقع في طريقنا ، دعونا نعمل بسرعة أيها الفتیان - فنحن لا نستطيع ان نفقده ا » •

لقد جاهدت طوال عمري لكي أوسع عقلي، إلى أن تشقق عند حد التمزق، من أجل أن أستحضر فكرة عظيمة قادرة على اعطاء معنى جديد للموت وراحة للبشر •

وهأنذا الآن • بمعونة الوقت والعزلة وشجرة الليمون المزهرة تحولت لدي الفكرة إلى حكاية • يا للفرحة ! لقد حلت الساعة المباركة وتحولت الدويذة إلى فراشة •

علمني حاخام من الأيام القديمة ، الحاخام نعمان ، قبل سنوات كيف أعرف بحلول الساعة التي أستطيع فيها أن أفتح فمي وأتكلم وأن آخذ قلمي وأكتب • كان رجلا ورعا بسيطا ومرحا اعتاد أن يعظ تلامذته ويعلمهم كيف يستطيعون هم أيضا أن يصبحوا بسيطين ومرحين وورعين • ولكنهم وقعوا ذات يوم على قدميه وهم يشكون « يا حاخامنا العزيز ، لم لا نتحدث مثل الحاخام صادق ؟ لم لا تجمع أفكارا عظيمة وتؤلف نظريات عظيمة بحيث يستمع اليك الناس بنشوة وأفواههم فاغرة ؟ ألا تستطيع أن تفعل شيئا آخر غير التحدث بكلمات بسيطة وسرد الحكايات مثل الجدة العجوز ؟ »

وابتسم الحاخام الطيب • مر وقت لا بأس به قبل أن يجيب وأخيرا فتح فمه : « ذات يوم سألت نباتات القراص ★ شجيرة

★ نبات شوكي •

الورد : ألا تعلميننا سر ك يا مدام شجرة الورد ؟ كيف تصنعين الوردة ؟ وأجابت شجيرة الورد « سري بسيط يا أخواتي القراصات • انني أعمل طوال الشتاء في التراب بصبر وثقة وحب وشيء واحد يستولي على ذهني : الوردة • يلسعني المطر وتعريني الريح من أوراقى ويسحقني الثلج ولكن شيئاً واحداً يظل مستولياً على ذهني : الوردة • هذا هو سري يا أخواتي ! »

وقال التلاميذ : اننا لا نفهم يا سيدنا !

وضحك الحاخام : أنا نفسي لا أفهم جيداً •

– فاذن يا سيدنا ؟

– أظن أنني كنت أريد أن أقول شيئاً ما مثل : حين تستولي علي فكرة فإنني أعمل فيها وقتاً طويلاً بصمت وبصبر وثقة وحب • وحين أفتح فمي (ما هذا السر يا أبنائي ؟) حين أفتح فمي تخرج الفكرة كحكاية •

وضحك مرة أخرى وقال : نحن البشر نسميها حكاية وشجيرة الورد تسميها وردة •

★ ★ ★

لم يسبق لي أن واجهت أبي بمودة • فالخوف الذي كان يبعثه فيّ كان كبيراً الى درجة ان البقية كلها – الحب والاحترام والالفة – تتلاشى • كانت كلماته قاسية وصمته أكثر قسوة • نادراً ما كان يتحدث وحين يفعل كان يفتح فمه وكلماته محسوبة وموزونة بدقة فلا تستطيع ان تجد أساساً لمعارضته • كان محققاً دائماً • مما كان يبدو انه يجعله حصيناً • ولقد تعودت أن أقول لنفسي : آه كم أتمنى أن يخطيء مرة واحدة فلربما غافلت قلبي عندها وعارضته • الا انه لم يمنحني فرصة كهذه أبداً • وهذا شيء لا يسامحه عليه المرء أبداً • كان شجرة سنديان ، بجذع صلب ، وأوراق خشنة وثمر مر وبلا أزهار • كان دائماً يلتهم القوة المحيطة به وكانت كل شجرة تذبل في ظله • وأنا الآخر كنت أذبل في ظله • لم أكن أحب أن أعيش تحت

انفاسه • حين كنت شابا كانت تتفجر في أعماقي ثورات مسعورة ،
وكنت مستعدا للقاء نفسي في مغامرات خطرة لكنني ، في كل مرة ،
كنت أفكر في والذي فيجبن قلبي • ولهذا كنت مجبرا على كتابة كل
ما كنت أرغب في فعله وذلك بدلا من أن أصبح مكافحا عظيما في
مملكة الفعل - بسبب خوفي من والذي • لقد كان هو الذي حول دمي
الى حبر •



حين رجعت الى البيت الصغير على شاطئ البحر بعد ثلاثة
أيام كنت أحس احساسا عميقا لا يوصف بالراحة • لقد أزيح عن
كاهلي ثقل أو ظل • وانقطع الخيط الغامض اللامرئي الذي كان
يربطني الى الخضوع والخوف • أستطيع الآن أن أقول وأكتب وأفعل
ما أشاء ، لم أعد ملزما بتقديم الحساب لأحد • لقد ذهب الحارس ،
وأغمضت العين التي كانت ترى ولا تغفر ، وانشطر صك العبودية
الى نصفين • لقد أصبحت الآن حرا طليقا •

فات الأوان على أية حال • فلقد سلكت طريقا • لم اختره
بل هو الذي اختارني • وسدّت الطرق كلها التي ورائي والتي أمامي •
لقد قرر قراري في عادات ثابتة وتعاطفات وكراهيات ثابتة ، فات
الأوان الآن على القيام بتغيير مفاجيء وبتبديل في الجبهات • علي
أن أكمل شوطي في الطريق الذي سلكته وأصل الى النهاية • هذا
ولا شيء غيره • الا ان لدي الآن فرصة عظيمة • لقد تخففت •
وها أنا ذا قادر أخيرا على السير بارتياح وبالطريقة التي اخترتها
بنفسي : مغنيا ، ضاحكا ، متوقفا ولاعبا • لم أعد أشعر بالخجل
أو بالخوف من أي انسان • كنت أخاف من شخص واحد فقط طوال
حياتي : وهو أبي • فممن أخاف الآن ؟ حين كنت أرفع نظري اليه
وأنا طفل كنت أراه عملاقا • وعندما كبرت تقلص كل شيء من
حولي : البشر والبيوت والاشجار • وظل هو وحده كما كنت أراه
في طفولتي : عملاقا • كان ينتصب أمامي ويحجب عني نصيبي من
الشمس ، وعبثا كنت أحاول أن لا أمكث في بيت أبي ، في عرين
الأسد • وعلى الرغم من أنني صرت كسولا ، وسافرت وألقيت

بنعسي في مغامرات ذهنية صعبة فقد بقي ظله بيني وبين الشمس دائما • وكنت أسافر في كسوف شمسي لا ينتهي •

ان في عتما كثيرا ، الكثير من أبي ، وطوال حياتي كنت أجاهد لاستبدال هذه العتمة وتحويلها الى ضوء ، قطرة واحدة صغيرة من الضوء • وكان صراعا قاسيا لا رحمة فيه ولا راحة ، ولو انني حاولت لوهلة وسمحت لانقطاع صغير في العداء لفنيت • واذا كنت أبدو منتصرا أحيانا فكم من الجراح كان يورثني ذلك وكم من الآلام ! لم أولد نقياً لكنني كنت أجاهد لكي أصبح كذلك • وليست الفضيلة بالنسبة لي من ثمار طبيعتي بل هي من ثمار كفاهي • لم يمنحني اياها الله بل كان علي أن أسعى لقهرها بالسيف • زهرة الفضيلة بالنسبة لي كومة من الروث المصنع •

ولم تنته هذه الحرب أبدا • ولم أهزم حتى الآن كما انني لم انتصر تماما • في أية لحظة قد أتلاشى كلية وفي أية لحظة قد أنجو كلية • ما أزال أسير على الصراط ★ الذي يهتز فوق الهاوية •

تعريت وألقيت نفسي في البحر وسبحت • وأحسست بالسر المقدس للعماد ببساطته الخالدة في ذلك اليوم ، وفهمت لماذا تعتبر الكثير من الأديان الماء والاستحمام ، بمعنى آخر العماد ، الشرط المسبق والحتمي للطقوس التي يبدأ بها المهتدي حياته الجديدة • ان برودة الماء تتغلغل الى نقي عظامه ، الى أعماق أعماقه ، تلتقي بالروح ، وحين ترى الروح الماء تخفق بأجنحتها سعيدة مثل نورس بحري صغير فتغتسل وتغتبط وتنتعش • وهكذا يتحول الماء اليومي البسيط ، يصبح ماء الحياة الخالدة ويجدد الانسان • وحين يخرج المهتدي من الماء يبدو له العالم وقد تغير ، ان العالم لم يتغير فهو دائما مذهش ورهيب ، ظالم ومليء بالجمال • أما الآن ، وبعد التعميد ، فلقد تغيرت العيون التي ترى العالم •

حين خرجت من البحر كانت الشمس تغرب • وتوردت الجزيرتان المهجورتان في مواجهتي كما لو ان النهار يطلع • كانت الموجات

★ الجسر — الشعرة: Hair Bridge .

اللطيفة تتمم بمودة فوق الحصى البيضاء وكان الشاطئ القديم كله يبتسم راضيا . ومركب صعيد صغير بمجاذيف لامعة كانت تثير موجات من الذهب السائل حيثما كانت تضرب وتجرح الماء . في داخل المركب كان الصياد يتنهد بقوة وكانت نهدهته تتجاوب في صمت المساء مليئة بالشكوى وبالعاطفة الشهوانية . فلأنه شاب وبلا رفقة كما يجب أن يكون وجد جمال البحر غير محتمل بحيث أن « الآه » فقط يمكن أن تحتويه .

صارت الجزيرتان الصغيرتان ، الآن ، بنفسجيتين وزادت عتمة البحر وفتحت طيور الليل عيونها وهي تحس بالعذوبة الليلية على أجفانها ، فقد كانت جائعة . ورفرف خفاشان فوقني بصمت ، بمنقارين مفتوحين يطاردان فريسة . لقد كانا ذات يوم فارتين (الخبراء لم يعرفوا بذلك لكن الفلاحين يعرفون) ولكنهما دخلتا كنيسة وقضمتا جسد المسيح في خبز الوقف فصارت لهما أجنحة . وفيما أنا أرقب جسديهما الفأريين في الغسق هيمن علي ، مرة أخرى ، الاعجاب بتوازن العالم . فالناس والحيوانات محكومون بالقوانين البسيطة ذاتها . ومغامرات الروح البشرية والاخت الخفاش متشابهة . الروح البشرية كانت أيضا فأرة ذات يوم . ولقد قضمت جسد المسيح وشاركت الله على العشاء الرباني وصارت لها أجنحة .

لا أعرف حيوانا أكثر اثارة للقرف من الفأرة ، أو طائرا أكثر اثارة للقرف من الخفاش ، ولا أعرف هيكلا من اللحم والشعر والعظام أكثر اثارة للقرف من الجسم البشري . ولكن فكر في كيفية تحوّل هذا السماد كله وتألّفه حين احتوى الله في داخله - البذرة التي تحولت الى أجنحة .

عدت الى البيت . لقد أراحتني هذه الفكرة طوال الليل . وعند الفجر جاءني والذي في نومي ووجهه الساكن متلامع ومليء باللفظ . وقف أمامي وسط مرج أخضر ، عاليا جدا وشفافا جدا وكأنه مصنوع من الغيم . وفيما كنت أحدق اليه وبدأت أفتح فمي فرحا للفظ الكلمة اللطيفة التي لم أنطق بها حين كان حيا هبت نسمة لطيفة (أكانت نسمة أم أنها كانت أنفاسي أنا ؟) فتحرّكت الغيمة ورفقت وفقدت

شلكها الانساني السابق وتبددت في كل اتجاه فوق العشب مثل صقيع الصباح .

حينما استيقظت وجدت الشمس في غرفتي تملأ سريري . استندت على ذراعيّ لأطلع من النافذة . فرأيت البحر يضحك وتبرز أنداؤه الصغيرة لكي تتمكن الأشعة الدافئة من مداعبتها . هذا يوم جميل الهي آخر . كل صباح يكتشف العالم عذريته ، ويبدو كأنه خرج طازجا من بين يدي الله في تلك اللحظة . لا ذاكرة له ولهذا فان التجاعيد لا تظهر على وجهه . انه لا يتذكر ما فعله في اليوم السابق ولا يقلق لما سيقوم به في اليوم اللاحق . يتعامل مع اللحظة الحاضرة وكأنها الأبد . لا لحظة أخرى موجودة . قبل هذه اللحظة وبعدها لا شيء .

جلست أمام النافذة لأستقبل الشمس على صدري مباشرة وانكبتت على الصفحة البيضاء . لم تكن صفحة بيضاء بل كانت مرآة رأيت فيها وجهي . وعرفت أن كل ما سأكتبه ، مهما يكن ، سيكون اعترافا . الآن هي اللحظة الحاسمة في القيامة . تقف أمام الحاكم غير المرئي ويبدأ قلبك في الاعلان عن خطاياك دون خجل ، اقد سرقت وقتلت وكذبت واشتهيت زوجة جاري وصنعت مجموعة كاملة من الآلهة وعبدتها ثم حطمتها وصنعت غيرها . كانت لدي وقاحة الرغبة في تجاوز الكائن البشري للقيام بما لم تستطع أنت أن تفعله أو لم تكن ترغب في أن تفعله . لقد تأمرت مع القوى النيرة والمعتمة كلها التي كانت تحت تصرفي لازاحتك عن عرشك ، والجلوسعليهبنفسي لاقامة نظام جديد في العالم - نظام أقل جورا وجوعا ، وفضيلة الطف نبرة وحب أكثر كفاحية .

أحسست بقلبي يصرخ في داخلي . كانت لديه شكاوى كثيرة اذ انه لم يكن على وفاق مع الله ولقد أن الأوان لكي يهيء تقريرا ، دون ان يلفظ كلمة الآن ، ليخبره بألمه وسخطه . كانت السنون تترى وأنا معها وعلى الطين ان لا يغلق فمي قبل أن أدلي بكلامي . ان لكل انسان صرخة ، صرخته الخاصة ، ترتفع في الجو قبل ان يموت . لذا علينا ان لا نضيع وقتنا لئلا يفوتنا الأوان . صحيح ان هذه الصرخة لا بد ان تتعثر دون جدوى في الهواء وانه لا أذن تسمعها هنا ، تحت ، على الأرض أو هناك ، فوق ، في السماء . ولكن لا

يهم ، • أنت لست غنمة • أنت انسان • وهذا يعني انك شيء
قلق وصارخ • فلتصرخ اذن •

لا تجبن ! هكذا قلت لنفسي • ولا يخطر ببالك أنه بما انك
حيوان فان فانك لا تستطيع ان تتدخل في ادارة الكون •
يا للأسف ! آه لو انك فقط عرفت قوتك لكنك الآن قد تخليت الحدود
البشرية !!



جاء الربيع ووجدني ما أزال أصارع وأكدح لترويض هذه
الحياد الجامحة : الكلمات • على الرغم من مرو الآف ، بل ملايين ،
السنوات منذ الظهور الأول للانسان فان تكنيك اغراء اللامرئي قد
ظل على حاله منذ الأزل ولم تتغير قوانين المطاردة • ما نزال نستخدم
الحيلة ذاتها ، الصلوات المهتمة بالنفس ذاتها - فللروح المثقلة
بالجسد لا تستطيع ان تفرد أجنحتها لكنها تجبر على سلوك طرق
اللحم ، على قدميها •

كان البدائيون في الكهوف يكافحون لرسم الوحوش البرية التي
يتمنون الامسك بها • كانوا يفعلون ذلك لأنهم كانوا جائعين • ولم
يكن لديهم أي قصد في انتاج الفن أو الجمال الفريد • وكانت الخطوط
العريضة للوحش التي يرسمونها بالألوان أو بالخطوط على الصخرة
فتنة أسرة بالنسبة لهم ، وقصيدة غامضة ستجتذب اليها الوحش
الذي سيدخل اليها ويمسك • لهذا كان من الضروري جدا ان يكون
الشكل دقيقا قدر الامكان وذلك لكي يتم خداع الوحش المطلوب
بسهولة أكبر •

بالطريقة ذاتها كنت أضع الكلمات مثل المصائد ، أرتبها بكل
الدهاء الذي لدي ، لكي أقبض على الصرخة المعجزة التي تظل تتقدم
أمامي •

وبغثة تهدم بصمت جدار الاستطلاع والجهد المشروخ • وكما
يتمكن المتوحشون عند اكتشاف اسم الاله أو الشيطان الذي
يعذبهم ، من وضع شكيمة بين فكيه اعتلائه وتهيئة المهاميز لجعله
يحملهم الى حيث يرغبون ، كذلك فأنني باطلاقي على بطلي اسما

أحسست بقوته تخترقني مثلما تخترق قوة الجواد فارسه وبدأت
أتقمم بتهور الى الامام •

تكشف كل شيء أمام عيني - ظلال خاوية تتعلق بي لاعطائها
دمي لكي تستطيع أن تتشكل أجسادا ، رحلات البطل ومغامراته ،
الحروب والمذابح والحرائق شؤون الحب والمواجهات الغامضة مع
الأرواح العظيمة وأخيرا عند نهاية الرحلة مركب صغير كالتابوت
وداخله بخاران مسنان ، محاربان عجوزان ، بطلي وكارون • وأمواج
أواسط البحر الكريتي العالية تتلامع وتضطخب تحت الشمس وهي
تتدحرج واحدة بعد الأخرى وتندفع كالمقطعان لتتكسر بهمهمة فوق
حصى الشاطيء ، هذه الأمواج صارت أبياتا ثمانية التفعيلات ،
وكانت حواف عقلي المغتسلة بالشمس تتلقاها وتضحك مثل شاطيء
كريتي •

مع مرور الأيام والأسابيع تزايد توقي لقدوم الفجر من أجل
أن أتمكن من الانكباب على الورقة البيضاء من جديد لأرى ما
سيفعله بطلي اليوم وأين سيذهب وكيف سيتصارع مع القوى النيرة
والحالكة التي تهب من قوس الأفق الشامل وتملاً أشرعه • حتى أنا
لم أكن أعرف المخبوء • كنت أنتظر وأنا أنشر الاسطورة من داخلي
لكي أتعلم • كنت أكتب دون مخطط عقلائي • قوى أخرى تتحكم بي ،
قوى ليست متمركزة في الرأس بل حول العانة • هذه هي التي كانت
تهدي يدي وتجبر العقل على المتابعة والتنظيم •

لم يسبق لي ان جربت ألم دودة الحرير وارتياحها الصامتين
بهذا الاحساس بالتشابه • عندما تتحول أوراق التوت التي أكلتها
كلها في داخلها الى حرير تبدأ عندها عملية الخلق • تهز رأسها من
جانب الى جانب فتنتزع أحشائها برعشة تشنجية ، وتستخرج
الحرير ، خيطا رفيعا بعد خيط رفيع وتغزل بصبر وبحكمة غامضة
كفنها أبيض ذهبيا وكله من المادة الثمينة •

ليس هناك أحلى من هذا الألم على ما أعتقد ، ولا من واجب
ملح أكثر من واجب أن تتحول الدودة كلها الى حرير ، واللحم كله الى
روح • ولا التزام أكبر من العمل طبقا للقوانين السائدة في مشغل
الله •

النظرة الكريمية

طوال الوقت الذي يبدع فيه الانسان يستولي عليه المرض الصباحي الذي يستولي على امرأة تغذي ابنها بأحشائها . وجدت من المستحيل علي أن ألتقي بأحد . كانت أقل ضجة تجعل جسدي كله يرتعد ، وكنت كما لو أن ابولو قد سلخ جلدي وصارت أعصابي العارية تنجرح بمجرد ملامسة الهواء لها .

كانت الأبيات الثمانية تتدفق صاحبة بيتا بعد الآخر وتنتشر على الورق انتشار البحر . وأنا على كرسي كنت أعيش تجربة مآثر أوليس ومحنه . لقد رفع المرساة استعدادا للرحلة العظمى التي لا عودة منها . وكانت جزيرته الصغيرة وزوجته الصغيرة التافهة وابنه الساذج طيب القلب خانقين له الآن . انتزع نفسه قرفا ورحل . توقف في اسبارطة واختطف هيلين التي كانت تختنق من حقها في الحياة الوادعة . نزل الى كريت وانضم الى البرابرة وأحرق القصر المتهاوي . الا انه كان يخنق . حتى هذه الجزيرة الهامة كانت ضيقة عليه فاتخذ طريقه جنوباً من جديد . أنا نفسي صعدت الى سفينته وكنت اتجول معه تمثال حورية بحرية على مقدم السفينة . صار عقلي كونا متكاملا ، كرة أرضية كنت أرسم عليها ، بالحبر الأحمر ، الموانئ المتبقية - حتى نهاية الارض . كنت أعرف كل شيء ، كل شيء تماما . وكنت أرى كل شيء وأدل على الطريق . كان الطريق الرهيب يلتمع ولامضا وضوحا تاما في

داخلي . ولكن ما أصعب الكفاح للاقفال على هذه الرؤيا الشاملة داخل كلمات دون السماح بهدر نقطة واحدة منها .

ان المبدع يتصارع مع مادة قاسية غير مرئية ، مادة أسمى منه بكثير . وحتى أعظم المنتصرين يظهر مهزوما ، ذلك لأن أعماق أسرارنا ، السر الوحيد الذي يستحق ان يعبر عنه يظل دون افصاح . ولا يخضع هذا السر للاطار المادي للفن . اننا نختنق داخل كلمة . وعند رؤية شجرة مزهرة أو بطل أو امرأة أو نجمة الصبح نطلق « آه ! » . لا شيء غيرها يمكن ان يتلاءم مع غبظتنا . وعند تحليل هذه الآه نتمنى لو نعيدها الى فكر وفن لكي نمسحها للبشر وننقذها من فئائنا الشخصي . فكم ترخص عندها وتصبح كلمات صفيقة متبرجة مليئة بالهواء والخيال .

ولكن ، للأسف ، ليست هناك طريقة أخرى لنقل هذه الآه - الجزء الوحيد من الخلود فينا - الى البشر . الكلمات ، الكلمات ا لم يكن لدي ، وأسفاه ، خلاص آخر . اذ لا سلطة لي على شيء الا على ستة وعشرين جنديا مقداما ، على الحروف الستة والعشرين في الابدجية . قلت لنفسي سأعلن نفيرا عاما وأعد جيشا وأقاتل ضد الموت .

أعرف تمام المعرفة أن الموت لا مرئي . الا ان قيمة الانسان لا تكمن في النصر بل في الكفاح من أجل النصر . وأعرف كذلك هذا الامر الذي هو أكثر صعوبة : انها لا تكمن حتى في الكفاح من أجل النصر . ان قيمة الانسان كامنة في شيء واحد فقط وهو : ان يعيش ويموت بشجاعة دون التنازل بقبول أي جزاء . وأعرف كذلك هذا الشرط الثالث ، والذي هو أكثرها صعوبة : ان التيقن من عدم وجود جزاء يجب أن لا يفزعنا بل يجب أن يملأنا بالغبطة والكبرياء والشجاعة الرجولية .

وفيما كنت اكتب رأيت كلمتين تلحان على الظهور وترفضان الابتعاد على الرغم من انني لم أكن أريد ذلك بل الحقيقة انني حاولت تجنبه . والكلمتان هما (الله) و (الارتقاء) . ما هو الله ؟ أهو الوهم الاعظم ؟ أم الامل الاعظم ؟ أم اليقين الاعظم ؟

أم لعله الشك الأعظم ؟ على الرغم من انني كنت أكافح منذ سنين
فانني ما زلت لا أستطيع أن أجيب على هذا السؤال الفاجع بشكل
محدد . ظل الجواب يتغير في أعماقي طبقا للشجاعة أو الثقة أو
الجبين الذي كانت روحي تحس به خلال تأملاتها حول الله . ولم أكن
متيقظا تماما عند أي من هذه السيرانات * - أهو الوهم ** أم
الأمل أم اليقين - يجب أن أتوقف وأسلم روحي . كانت الأغنيات
الثلاث الصادرة عنها تفتنني بالمقدار ذاته . وكلما ازداد سماعي
لأي من هذه الأغنيات قلت رغبتني في التقدم للغناء أكثر من ذلك .

الا انني نوال حياتي كنت واثقا من أمر واحد هو ان هناك طريقا
واحدا ، و طريقا واحدا فقط ، يؤدي الى الله - هو الارتقاء . لا النزول
ولا الطريق الأفقي بل الارتقاء فقط . ولقد جعلني عجزني عن تمييز
مضامين كلمة (الله) تلك بوضوح ، تلك الكلمة التي مرغت وبولغ
في استعمالها من قبل البشر ، أتردد كثيرا ، الا انني لم أتردد أبدا
في ما يتعلق بالطريق المؤدي الى الله ، بمعنى آخر الى الذروة السامية
لرغبة الانسان .

وهناك أيضا هذا الامر : كنت مفتونا بثلاثة من مخلوقات الله
- الدودة التي تصير فراشة ، والسمكة الطائرة التي تقفز من الماء
محاولة تجاوز طبيعتها ، ودودة الحرير التي تحول أحشاءها الى
حرير . وكنت أحس دائما بتوحد غامض معها ، لأنني كنت أتخيلها
دائما رموزا ترمز الى طريق روحي . ومن المستحيل علي أن أعبر
عن الغبطة التي اعترتني حين رأيت لأول مرة يرقة محفورة في كفة
الميزان الذهبي الدقيق المكتشف في قبور مسينا وفراشة في الكفة
الأخرى - انهما رمزان مأخوذان حتما من كريت . ان توق اليرقة ،
بالنسبة لي ، للتحويل الى فراشة هو رمز لواجبها - وواجب الانسان -
الأكثر الزاما والأكثر شرعية في الوقت نفسه . ان الله يصنعنا يرقات
ونحن ، بجهودنا ذاتها ، يجب ان نصير فراشات .

★ السيرانة : كائن اسطوري له راس امرأة وجسم طائر كانت تغوي
البحارة بغنائها فتقودهم الى الهلاك .
★ الكلمة المستخدمة تقيد الوهم وتفيد « الكبر » وهو كائن اسطوري له
راس اسد وجسم شاة وذناب أنمي .

وقد اعترتني غبطة واثارة مشابهتان عند رؤية السمكة الطائرة على اللوحات الجصية في كنوسوس ، وهي تحلق فوق البحر بأجنحتها التي صنعتها ، أحسست بتمائلي مع أسلافي القصيين ، الآن ، بعد آلاف السنوات ، أسير بأمانة على خطاهم : أنا أيضا كنت أحول الأرض الكريتية الى أجنحة .

وذات يوم في قرية صغيرة على جزيرة يونانية رأيت (رأيت ؟ أم انني حلمت بأنني رأيت ؟) أيقونة للعدراء أحاطها المؤمنون بأطار من الشوك ، ونثروا بيوض دود الحرير على الاطار ، كانت البيوض قد فقست وصارت الدودات الصغيرة ، صانعة المعجزات ، التي ظهرت منها تغذى يوميا بورق التوت ، كانت الدودات قد أنجزت مهمتها يوم رأيت الأيقونة ، لقد حولت ورق التوت الى حرير ، وصارت العدراء مؤطرة بالشرانق البيضاء ، وقلت لنفسي : أه لو انني أستطيع البقاء أمامها حتى الربيع لأرى الشرانق تفتح والفرشات البيضاء المتجمدة - الأرواح كما يسميها الفلاحون - تطوق ام الله بعيونها اللامعة الصغيرة .

وكان مسيحي مؤمن سيقول لي : « لم يكن ما رأيته حلما ، انك لم تر الدودات * بل رأيتنا - نحن البشر ، فحالمًا ننجز مهمتنا على الأرض سندخل القبر ثم نخرج منه أرواحا لنخفق بأجنحتنا حول أم الله الى الأبد . لقد منحنا الله عيوننا وبهذه العيون نرى انه قد أرسل لنا دودة الحرير لتدلنا على طريقنا ، ان الرموز المقدسة النبوية تربك قلوبنا لوهلة الا اننا لا نجرؤ على اتخاذ الخطوة التالية : ان نؤمن ونحول الأمل الى يقين » .



عند الصباح كان العالم متألقا والبخار يتصاعد منه ، كانت قد هبت عاصفة هوجاء أثناء الليل وتلقت الأرض الظمأى المياه

* في هذا المقطع كله فضلت جمع دودة على دودات لتبميزها عن غيره من الديدان .

السماوية فانتعشت • حين توجهت الى نافذتي وجدت البحر والأرض أرجين بحلاوة والسماء حديثة الاستحمام ولامعة ، وبيضاء ناصعة من أشعة الشمس • وكان صدري منتعشا كقطعة أرض أيضا • وكتراب ظامىء تلقى عاصفة الليل كلها • كانت الغبطة التي شعرت بها عظيمة الى درجة انني رأيت من المستحيل علي أن أنكب على أوراقى في ذلك اليوم لأحول العالم الى أبيات ثمانية التفعيلات • فتحت الباب وخرجت •

كان شهر آب ، أسخى الشهور وأحبها ، مثل رب أسرة نشيط يتجول في حقول البطيخ والكروم وقبضتاه مليئتان بالثمار الريانة ، وهو ملوث بالتفالة من التعريق (صنع العرق) - ساتير مقدس ذو ذقنين وثلاثة كروش وذنب منتصب • جلت قدرته ا ذلك الذي يتمتع بكرمه ، اليونان ، وبخمره •

تلك هي الهتنا المحلية ، الالهة الحقيقية ، الخالدة • تحت شمس كهذه وأمام بحر كهذا وبين جبال كهذه كيف لآلهة أخرى - دون كروش ودون متعة ودون أوراق دوالي على أصداعها - أن تولد ؟ وكيف لها ان تنمو قوية ؟ وكيف كان لأبناء اليونان وبناتها أن يؤمنوا بجنة تختلف عن هذه الجنة الأرضية ؟

دخلت الكروم • كانت الصبايا يقطعن العنب ووجوههن ملفوفة باحكام بمناديل بيضاء لترد عنهن أشعة الشمس المحرقة • يرفعن رؤوسهن حين يمر بهن شخص فلا ترى منهن الا العيون الفاحمة المتلامعة في ضوء الشمس والمليئة بأطياف الرجال •

سمحت لجسدى أن يختار الطريق الذي يشاء • ولقد سرتني فكرة انه هو الذي يقودني وليس أنا الذي أقوده • ان الجسد لا يكون مادة عمياء صماء حين يستحم بالنور اليوناني ، انه يمتلىء بروح هائلة تجعله فوسفوريا ، فاذا ترك لحرите يستطيع أن يتوصل الى قراراته وان يجد الطريق الصحيح دون تدخل من قبل العقل • وعلى العكس من ذلك ليست الروح شبها هوائيا غير مرئي • انها تستخدم بعضا من يقين الجسد ودفئه بطريقتها الخاصة ، وتتذوق العالم

باستمتاع سهواني ، وكأنما لها فم ومنخران ويدان تداعب بهما العالم . كثيرا ما ينقص الانسان الصبر اللازم للحفاظ على انسانيته كلها . فيشوه نفسه . يرغب ، أحيانا ، في التحرر من روحه وأحيانا من جسده . ويبدو ان استمتاعهما معا حكم قاس . ولكن هذين العنصرين المجيدين الخالدين ، هنا في اليونان ، يستطيعان ان يتمازجا تمازج الماء الحار بالماء البارد ، فتأخذ الروح شيئا من الجسد ويأخذ الجسد شيئا من الروح . يصبحان صديقين وبهذا يتمكن الانسان ، على الأرضية اليونانية المدروسة المقدسة ، من العيش والتطواف وهو سليم ودون تشوه .

توقفت حين عثرت على مشرب عام . كان هناك قدح من النحاس مربوطا الى سلسلة دقيقة . كنت ظمأنا . أنعشني الماء كلية حتى أسفل قدمي ، فطقطقت عظامي.وقفت قليلا تحت شجرة زيتون . كانت الجنادب قد ألصقت بطونها الى جذعها وراحت تغني . صمتت بغتة وقد أخافتها رؤية هذا الجندب الجبار . ومر بي فلاحان وقد حملا حماريهما الصغيرين بالعنب . وحياني قائلين : « لك طول العمر » وهما يضعان كفيهما على صدريهما . وكانت سويقات العناقيد تتدلى من لحيتيهما . كان الطريق كله عابقا برائحة الخمر . وبمواجهتي رأيت أشجار سرو وصلبانا سوداء بارزة من فوق سياج ناصع البياض . كان هذا هو المعتزل الهادي الذي يرتاح فيه الموتى وبينهم والدي . قطفت ورقة زيتون ووضعتها بين أسناني وعضضت عليها فامتلاً فمي بالحرارة .

غادرت ظل الزيتون وانطلقت من جديد وأنا أغد الخطى . عندها عرفت الى أين يأخذني جسدي ، الى الاسلاف القدامى بعيونهم اللوزية وشفاهم الشهوانية وخصورهم الدقيقة كالخواتم، الاسلاف الذين كانوا ، قبل الاف السنوات ، يلعبون مع الاله القوي القادر ، الثور .

لا يمكن للانسان ، على ما أعتقد ، أن يحس برهبة أعمق وأكثر جذرية من الرهبة التي يحس بها وهو يمشي على الأرض التي يتمدد فيها اسلافه - جذوره . ان قدميك تمدان جذورا تنزل في

أعماق الأرض ثم تفتش من أجل أن تختلط بجذور الموتى الخالدة العظيمة . ويملاً عبير التراب والبابونج الواخر أحشاءك بالاسترخاء وبالرغبة في الخضوع الحر للقوانين الأزلية . أما إذا كانت ثمرة الموت الحلوة لم تنضج في أعماقك بعد فانك تستثار وتتمرد رافضاً حرمانك من النور والكفاح ومشكلات الحياة العظيمة في هذا الوقت المبكر . في حالة كهذه تسير بسرعة فائقة على هذا التراب المؤلف من عظام الأسلاف وأدمغتهم ولا تترك لتقديمك فرصة مد جذورهما ، وتطير من جديد الى الملعب ذي الهالة ، الى النور .

كانت العاطفة التي شعرت بها وأنا أسير على الأرض القديمة في كنوسوس غنية الى درجة الترف ، ومعبأة بالموت والحياة ، الى درجة أنني أحسست بالعجز عن فهمها بوضوح . بدلا من الحزن والموت وبدلا من الاسترخاء ، انطلقت من الأفواه البالية وصايا صارمة . أحسست بالموتى يتعلقون بقدمي بشكل سلاسل طويلة ، ليس لانزالي الى عمتهم الباردة بل من أجل التمسك بشيء ما والخروج معي الى النور لتجديد المعركة .

غبطة لا تكبح وظماً لا يروى ، اضافة الى الثيران التي تخور في مروج العالم العلوي مع ملح البحر ورائحة العشب ، كلها ، تغلغت عبر قشرة الأرض منذ آلاف السنين ومنعت الموتى من الموت .

تطلعت الى صراع الثيران المرسوم على الجدران : رشاقة المرأة وبهاؤها وقوة الرجل التي لا تخطيء ، كيف كانت تلعب مع الثور الهائج وتواجهه بنظرات جريئة . لم يقتلاه حبا به ولكن لكي يتوحدا به ، كما في الأديان الشرقية ، أو لأنهما قد استولى عليهما الخوف منه فلم يجروا على التطلع اليه . بدلا من ذلك كانا يلعبان معه ، باصرار وباحترام ودون كراهية وربما حتى بامتنان . وذلك لان هذه المعركة المقدسة مع الثور كانت تشحذ قوة الكريتي وتنمي لياقته البدنية وجماله الجسدي ، والدقة النارية والباردة - معا - في الحركة وقوة الارادة والشحاعة - التي يصعب الحصول عليها - ل طرح قوته أمام قوة الوحش المخيفة دون أن يسيطر عليه الذعر . وهكذا حوّل الكريتيون الخوف وصنعوا منه لعبة مثيرة تتعرض فيها فضيلة الانسان ، عند احتكاكها المباشر بالقوة التي لا عقل لها ،

الى التحريض فتنتصر - تنتصر على الثور دون أن تقضي عليه لأنها لا تعتبره عدوا بل زميل عمل . فمن دونه ما كان للجسد ان يكون بهذه المرونة والقوة وما كانت الروح ستكون بهذه البسالة .

لا شك ان الانسان يحتاج الى تدريب كبير لكل من جسده وروحه ان كان عليه أن يتحمل رؤية الوحش واللعب معه في هذه اللعبة الخطرة . ولكنه ما ان ينهي تدريبه ويتمك الاحساس باللعبة حتى تصبح كل حركة من حركاته بسيطة وواثقة وتلقائية فيتطلع الى الخوف بجسارة .

وبينما كنت أفرج على المعركة المحفورة على الجدران ، المعركة المفترقة في القدم بين الانسان والثور (الذي نسميه اليوم الاله) قلت لنفسي : هكذا كانت النظرة الكريتية .

وبغثة استولى الجواب على عقلي ، وليس على عقلي فقط بل على قلبي وأحشائي أيضا . هذا ما كنت أبحث عنه وما كنت أريده . علي أن أملاً عيني أوليسي الخاص بي بهذه النظرة الكريتية . لقد كان عصرنا ضاريا . والثور - القوى المظلمة الخفية - قد أفلت من عقاله . وكانت قشرة الارض تتفتت وتطققق . الكياسة والانسجام والتوازن والسعادة وحلاوة الحياة ، هذه كلها فضائل ومتع علينا أن نتحلى بالشجاعة الكافية لتوديعها . انها من عصور أخرى في الماضي أو في المستقبل . لكل عصر ملامحه الخاصة به . وملامح عصرنا شرسة ولذا فان الأرواح الدقيقة لم تجرؤ على النظر الى عينيه مباشرة .

ولا بد لأوليس ، الذي كان يبحر على الأبيات الشعرية التي أكتبها ، من ان تتاح له فرصة النظر الى الهاوية بنظرة يونانية كهذه - دون أمل أو خوف ولكن دون صفاقة أيضا - وهو يقف شامخا على شفاة الجرف .

لقد تغيرت حياتي ابتداء من ذلك اليوم ، يوم النظرة الكريتية ، كما كنت أسميه . واكتشفت روعي المكان الذي تقف فيه وأين تلقي بنظرتها . هدأت المشكلات الرهيبة التي كانت تعذبني ، وابتسمت

وكان الربيع قد جاء ، وتغطت الارباقات الهمجية ، مثل الاشواك
التضرة ، بالزهور . كانت عودة متأخرة للشباب وغير متوقعة .
ومثل الحكيم الصيني القديم بدوت وكانني ولدت أشيب ، عجوزا
مقعدا بلحية بيضاء كالثلج . ومع مرور السنين صارت اللحية شهباء
ثم راحت تسود تدريجيا ثم تساقطت ، وفي سنوات شيخوختي
انتشر زغب ناعم دقيق على خدي .

لم يكن شبابي الا مجموعة من المقلقات والكوابيس
والتساؤلات ، وسنوات نضجي لم تكن الا اجابات متعثرة . كنت
اتطلع الى النجوم والى البشر والى الافكار - أية فوضى ا وأي
كرب أن تلاحق الله ، ذلك الطائر الأزرق ذا المخالب الحمراء ، في
وسطها . سلكت طريقا ووصلت الى نهايته - هاوية . عدت مذعورا
وسلكت طريقا آخر ولكن الهاوية كانت مرة أخرى في نهايته .
انسحاب جديد ورحلة جديدة وبغته الهاوية ذاتها تفرغ فاما أمامي
من جديد . طرق العقل كلها كانت تؤدي الى الهاوية . كان شبابي
ورجولتي يدوران حول قطبي الألم والأمل ، ولكنني الآن في
شيخوختي أقف أمام الهاوية هادئا ودون خوف . لم أعد أهرب ولم
أعد أذل نفسي ، لا . ليس أنا . بل أوليس الذي كنت أكوته .
خلقته لكي يواجه الهاوية بهذوء ، وخلال خلقه كنت أجاهد لكي
أتشبه به . أنا نفسي كنت أخلق . لقد وهبت أشواقي كلها لهذا
الأوليس ، لقد كان هو القالب الذي أحفره لكي يتمكن انسان
المستقبل من الانسكاب فيه . كل ما كنت أتوق اليه وأعجز عن
تحقيقه ، سيحققه هو . انه الفتنة التي ستسحر القوى النيرة
والمظلمة التي تخلق المستقبل . الايمان يحرك الجبال . آمن به
وسياتي . من الذي سياتي ؟ الأوليس الذي خلقته انه الاركييتيب
(النموذج الاصلي) .

مسؤولية الخالق جسيمة ، انه يفتح طريقا يمكن ان يموت
المستقبل ويجبره على اتخاذ قراره .

تطلعت الى البحر الكريتي ، الى الأمواج التي كانت ترتفع
شامخة ، فتلتمع للحظة تحت الشمس ثم تسرع لالقاء الشبح على
حصى الشاطئ بهسهسة . أحسست بدمي يجري على منوالها

وهو يغادر قلبي وينتشر حتى أطراف أصابعي وجذور شعري • كنت
أتحول الى بحر ، الى رحلة لا نهاية لها مليئة بالمغامرات القصية ،
الى قضيدة فخورة مئسمة مبحرة بأشعة حمراء وسوداء فوق
الهاوية وفي ذروة القصيدة قبة بحار وتحت القبة جبين قاس
لوحته أشمس وعينان سوداوان وفم مبقع برذاذ الملح ، وتحت
كفان ضخمتان متصلبتان كالبرائن تمسكان بالخوذة •

لم يعد يستطيع - أي لم نعد نستطيع - التلاؤم أكثر من ذلك
داخل أرض الوطن الضيقة • اخترنا أكثر الأرواح رفضا للخضوع
في الجزيرة وحملنا ما استطعنا من بيوتنا واعتلينا سفينة وارتحلنا •
الى أين ؟ ستهب الريح وترينا طريقنا • جنوبا ! الى هيلين التي
كانت مسمرة على صفتي يوروتاس ، ضيقة مثلنا بالحياة الآمنة
الفاضلة المريحة ، والى جزيرة كريت الأصلية العظيمة التي كانت
تذوي ، لأن القدرة قد فارقت أصلاب حكامها ، كانت ترفع ذراعها
وسط البحر وتنادي البرابرة لعلها تنجب منهم أطفالا • الى
أفريقيا ، الى نهايات الأرض ، الى الثلوج الأزلية ، والى الموت !

في البدء كان الطائر الأزرق ذو المخالب الحمراء يسير في
المقدمة لكنه سرعان ما تعب فخلفناه وراعنا ، وظللنا متحررين في
الهواء الخاوي دون دليل طائر • بين حين وآخر كانت أرواح عظيمة
خالدة تنشب مخالبها في حبال أشعة سفينتنا وتغني بغية اغوائنا
ولكننا كنا ننفجر ضاحكين فتخاف وتهرب • وكنا أحيانا نسمع
صرخة رهيبة تنطلق من أعماق البحر : « توقفوا ! أين تذهبون :
يكفي ! » وكنا نتكئ على شفير السفينة ونرد صارخين : « لا • لا • لا
يكفي • لا يكفي • اهدأوا ! » وذات مساء جاء الموت والتف على
القيدوم • كان يلبس مثلنا ، جلد ثعلب ، وقبة زرقاء مدببة تتوجها
بمبونة ★ حمراء ، كانت له لحية بيضاء كالثلج وكان وجهه وصدره
وذراعاه وفخذه ممددة بندوب جراح • ابتسم لنا بلطف • وفهمنا •
لقد وصلنا أخيرا الى نهاية رحلتنا •

★ الببونة : كتلة أو كرة من ريش أو حرير للزينة .

استلقينا باسترخاء على أرض السفينة وأغمضنا أعيننا
 فرأينا : فوق القارات والبحار التي عبرناها وفوق الرجال الذين
 اصطدمننا بهم والنساء اللواتي قبلناهن فوق الأرض والماء والنار
 واللحم، كانت هناك رحلة أخرى قابها مصنوع من الغيوم والقارات
 والبحور. والناس فيها مصنوعون من خيوط حريرية مسحوبة من
 أحشائنا . وفوقها ، في أعلى مستوى بينها كلها ، تحطم قاربنا
 الغيمي وتقطعت خيوطنا الحريرية . تلاشت مظاهر العالم كلها ولم
 يتبق على ذلك السطح السامق الا شمس خرساء عمياء ساكنة أكثر
 سوادا من السواد . قلنا لأنفسنا لعلها الله . من يدري ؟ لعلها الله
 . . . حاولنا أن نرفع أيدينا لتحيته لكننا لم نستطع .



بينما كنت أكتب هذه (الأوديسة) على شاطئ الكريتي
 كانت القوى الشيطانية تستعد للحرب العظمى الثانية . هبت ريح
 من الجنون على الجنس البشري وتشققت أسس الأرض ، وأنا
 منكب على أوراقى أصغى الى الضجيج الصادر عن الأمواج والبشر
 والقوى الشيطانية مبقياً لروحي حياة غالية لئلا يهيمن علي الذعر .
 جاهدت للتكهن بالانسان ، ولاغرائه بكلمات منظمة ومنغمة ،
 ذلك الانسان الواقع وراء المذابح والدموع ، وراء انسان اليوم القرد .
 وعلى الرغم من انه ظل شبها معلقا وسط الهواء فانني كنت أحس
 انني ، حين أنكب وأكتب ، أنقل اليه دمي . لقد أفرغت وهو امتلاً
 وبدأ جسده يصلب شيئاً فشيئاً ويتحرك ويأتي .

دخلت حلما عميقا . لقد فني أعمق مستويات الحقيقة ،
 المستوى الصلب الذي تركز مساحته كلها على الأرض ، وتصاعد
 عاليا في الجو ، مثل نار تهب عليها ريح قوية ، أسمى مستويات
 الحقيقة ، روح الانسان .

كنت أشتغل طوال النهار وأنام الليل كله . في حياتي كلها لم
 يسبق لي أن اشتغلت ليلا . أنا مثل الساعة الشمسية ، من دون
 شمس أصمت Sine Sole Sileo . فالليل ، بأحلامه وصحته
 وبالأبواب المعتمة التي يفتحها في ، يهيء لي عملي لليوم التالي .

الفائدة الأسمى في هذا الموضوع هي الوقت . حين أرى الناس خارجين للنزهة أو يتمشون دون هدف أو يبددون الوقت في مناقشات لا طائل منها ، أحس بالرغبة في الذهاب الى ناصية الشارع لمد يدي مثل شحاذ وأطلب منهم : « صدقة ! ، أيها المسيحيون الطيبون امنحوني القليل من الوقت الذي تضيعونه ، ساعة ، ساعتين ، اي شيء تحبون » .



بدأ النهار يأفل . عقدت ذراعي وأسندت رأسي الى الوراء على الجدار ورحت أراقب الشمس الغاربة . لم أكن أحس بفرح أو بحزن أو بتعب . احساس بالراحة فقط وكان أحشائي قد أفرغت ، وكأنني قد نزفت دمي كله ، وكأنني قشرة شفافة قاسية تركها الجندب على جذع شجرة الزيتون حين فقس . كان مركب شراعي صغير بشراع أحمر عائدا من الصيد وكنت أستطيع تمييز السمك المتلامع في قاعه . جزيرة صغيرة في مواجهتي مليئة بالبنفسج . وكنيسة المصلوب المهجورة الصغيرة تلمع بيضاء على قمة الجبل مثل بيضة . والضوء متشبثا بجدرانها البيضاء الناصعة ولا يرغب في مغادرتها .

كنت أستمع الى خشخشة الحصى عن يميني ، وكان شخص يسير مسرعا على الحصى ويقترب . التفت . فلمعت قبعة مدببة في الغسق الأرجواني وعبقت في الهواء الرائحة الواخزة للعرق البشري . انتقلت الى طرف المقعد الحجري الذي كنت أجلس عليه فأفسحت له مجالا ليجلس قريبا مني . قلت : « أهلا . كنت أنتظرك » .

انحنى والتقط بعضا من أعشاب البحر التي قذفت بها الأمواج ووضعها بين شفتيه وقال : « هأنذا . انني مسرور لرؤيتك » .

كان الليل الأزرق الرقيق يهبط من السماء ويصعد من البحر . وعلى اليابسة وراعنا كانت طيور الليل تطير بين أشجار الزيتون ، وكانت صرختا الحب والجوع الخالدتان العظيمتان تتجاوبان في الصمت

الأسود • الحيوانات الصغيرة المختبئة بين الشجيرات القصيرة
جائعة هي الأخرى ، وهي في حاجة الى الحب أيضا • وتصاعدت
نغمة حزينة من الأرض •

ظلنا صامتين • وكان في وسع كل منا أن يسمع قلبه يخفق
بهدهوء • كان يبدو ان هذه الأشواق الليلية كلها • وأن هذه الأصوات
المتصادمة كلها كانت تتناغم بمرورها في أحشائنا •

كانت العذوبة والغبطة عظيمتين الى درجة ان الدموع بدأت
تنسكب من عيني ، وانبعثت من أعماقي كلمات قديمة غامضة
وتوقفت على شفتي :

يتساوى الموت والميلاد أيها الفتيان
ويتساوى وجع القلب والغبطة
ويتساوى ان تبحر وأن ترسو
كما تتساوى المرحبا والتوديع •

التفت الى الرفيق الصامت الى يميني وسألته : « هل نتحرك
يا كابتن أوليس ؟ هل وصلنا ؟ يبدو ان الزمن قد توقف وكأنه قد
تحول الى أزل • والخواء في كفي مثل مخطوطة رسمت عليها البحار
والأراضي • والفرج - ما نسميه فرجا ونمد أيدينا بلهفة نحو
السماء لكي نصل اليه - قد صار قطعة حبق وراء أذني • ألا تشم
رائحة عبيره في الهواء ؟

تنشق رفيقي بعمق وابتسم •

قال : « لقد أفرج عنك من الفرج » • كانت رياح البحر قد جعلت
صوته قاسيا وأجش • « لقد أفرج عنك من الفرج ، وهذه أسمى
مآثر الانسان • وشرطك في خدمة الأمل والخوف قد انتهى • لقد
انحنيت فوق الهاوية ورأيت ظهورات العالم تنقلب رأسا على عقب
ولم تخف • انحنينا معا فوق الهاوية يا رفيقي الغالي ولم نخف •
هل تتذكر ؟ »

وقفزت الى ذهني الرحلة الرهيبة وراح البحر يرعد من صدغ

الى صدغ ، واتسعت ذاكرتي فرايت وعاودت الرؤية واستعدت الاستمتاع بالطريقة التي اقتلنا أنفسنا بها من الابن والزوجة وأرض الآباء والحياة الوادعة وكيف خلفنا وراءنا الفضيلة والحقيقة وكيف مررنا بين سيلا وكارديس ★ الله دون ان نخسر سفينتنا وكيف انطلقنا الى اتساع البحر بأشعة مملوءة وشققنا طريقنا ببسالة نحو الهاوية .

- كانت رحلة جميلة . قلت ذلك وأنا ألمس ركبة رفيقي بمحبة حقيقية . ولقد وصلنا الآن .

- وصلنا ؟ سألني مندهشا . ما الذي يعنيه هذا ؟

- أعرف . يعني اننا نرحل الآن .

- نعم . اننا نرحل الآن . دون قارب ودون بحر ودون جسد .

- أصرار .

- لا . أحرار من الحرية . ما بعد .

- ما بعد الحرية يا رفيقي . تشجع .

- ما بعد ؟ أين ؟ عقلي عاجز عن استيعاب ذلك .

- أخاف من اللحاق بك . ان قوتي لا تصل الا الى هنا . لا

أستطيع الذهاب أبعد من ذلك .

- لا يهم يا أبي . لقد أدبت واجبك . ولقد أنجبت ولدا أسمى

منك . أنت تبقى هنا كالطافية ★ أما أنا فساذهب الى ما هو

أبعد .

نهض وشد حزامه ونظر بعيدا عبر الظلمة . وسقط نجم مثل

دمعة على خذ الليل . وهبت ريح من الأرض فصهلت الأمواج في

الصمت مثل جياذ تستيقظ . مد لي يده . فصرخت ، وكان روحي

تفارقني ، « أنت راحل ؟ » .

★ سيلا صخرة جنوبي الشاطئ الايطالي وكارديس تيار خضر في مضيق

مسينا . ومن الاسمين جاء الاسمان الاسطوريان عن غولنين تشكلان

خطرا على البحارة . والمرور بين سيلا وكارديس عبر يعني الخيار

بين خطرين .

★ عوامة لارشاد السفن .

انحنى علي وقبل كتفي اليمنى ثم كتفي اليسرى ثم عيني
الاثنتين • وغطتني شفتاه بمياه مالحة • ابتسم وخرج صوته
لعوبا وعطوفا •

« من كان ذلك الزاهد الذي بحث عن الله أربعين عاما ولم
يستطع أن يجده ؟ كان شيء معتم يلوح في الوسط ويعيقة • الا
انه ذات صباح رأى : كان ثوبا من الفرو يحبه كثيرا ولم يكن قلبه
يطاوعه للتخلي عنه • ألقاه بعيدا وبغنة رأى الله أمامه • أنت
فروتي القديمة يا رفيقي العزيز • وداعا » •

ارتعبت • كانت كلماته الأخيرة تبدو وكأنها قادمة من البعيد
البعيد من الضفة الأخرى • قفزت واقفا وفتشت في الظلمة •

لا أحد •

خاتمة

أقبل يدك يا جدي بحبيب . أقبل كتفك اليمنى وأقبل كتفك اليسرى . لقد انتهى اعترافي و عليك أن تحكم الآن . انني لم أسرد تفاصيل الحياة اليومية . فلقد كانت قشورا . كنت تلقيها في لجة الهاوية ولقد فعلت مثلك . كانت الحياة ، بأحزانها الكبيرة والصغيرة ، وبأفراحها الكبيرة والصغيرة ، تجرحني أحيانا وتلاطفني أحيانا . لقد هجرتنا تلك الشؤون اليومية الاعتيادية وهجرناها . لم تكن جديدة بعناء الالتفات الى الوراء وانتشالها من الهاوية . لن يخسر العالم شيئا اذا ما ظل الناس الذين عرفتهم غارقين في النسيان . فالاتصال مع معاصري لم يؤثر على حياتي كثيرا . لم احب أناسا كثيرين ، اما لأنني فشلت في أن أفهمهم واما لأنني كنت أنظر اليهم باحتقار . وربما أيضا لأنني لم يصدق لي أن التقيت بالكثيرين ممن يستحقون أن يحبوا : الا انني لم أكن أكره أحدا وذلك على الرغم من أنني قد آذيت العديد من الناس دون أن أكون راغبا في ذلك . لقد كانوا عصافير دوري وأنا كنت أرغب في تحويلهم الى نسور . انطلقت بغية تخليصهم من الاعتدال ومن التكرار فدفعت بهم دون أن أخذ قدرتهم على الاحتمال بعين الاعتبار فتحطموا على الأرض . لم يكن يثيرني الا الموتى الخالدون ، السيرينات العظيمة : المسيح وبودا ولينين . منذ سنوات عمري الأولى كنت أجلس عند أقدامهم وأصغي باهتمام الى أغنيتهم المغوية المليئة بالحب . ولقد كافحت طوال حياتي لأنقذ نفسي من كل من هذه السيرينات دون

★ سيتضح في هذا الفصل ان الجد الذي يكله ويتخذه رمزا هو الفنان

الاسباني الكريتي الاصل الى غريكو (١٥٤١ - ١٦١٤) .

التنكر لأي منها ، كافحت لتوحيد هذه الأصوات المتصارعة الثلاثة
وتحويلها الى نغم منسجم .

ولقد أحببت نساء . كنت محظوظا في الالتقاء بنساء فذات
في طريقي ، لم يسبق لأي رجل ان قدم لي معروفا أو عوناً في كفاحي
بالقدر العظيم الذي فعلته هذه النساء ، وواحدة منهن أكثر من
الجميع : الأخيرة . ولكنني أقي على هذا الجسد المبتلى بالحسب
الوشاح الذي ألقاه أبناء نوح على أبيهم السكران . انني أحب
أسطورة أسلافنا عن ايروس وبسيثه * ولا بد أنك قد أحببتها
أيضا . يا جدي . انه لمن المخجل والخطر معا أن تشعل قنديلا فتبدد
الظلمة وترى جسدين مشتبكين في عناق . كنت تعرف ذلك ، انت
الذي خبات زوجتك الحبيبة جيرونيما دولاس كويغاس في غموض
الحب القدسي . انني أفعل الشيء ذاته مع جيرونيماي . رياضية
رفيقة وجسور ، نبع بارد في وحشتنا اللانسانية ، وراحة عظيمة
الفقر والعري - نعم لقد كان الكريتيون على حق حين قالوا ان الفقر
والعري لا أهمية لهما اذا قيضت لك زوجة صالحة . ان لدينا زوجتين
صالحتين : زوجتك جيرونيما وزوجتي هيلن . أي حظ عظيم هذا يا
جدي ! كم من المرات لم نقل فيها لأنفسنا ونحن ننظر اليهما : بورك
اليوم الذي ولدنا فيه !

الا اننا لم نكن نسمح للنساء ، وحتى لأعزهن ، بأن يضللنا .
لم نسلك طريقهن المفروش بالزهور بل أخذناهن معنا . لا . لم
نأخذهن بل ان هاته الرفيقات الباسلات تابعننا في ارتقائنا بملء
ارادتهن .

شيء واحد كنا نلاحقه طوال حياتنا : رؤيا قاسية لاحمة
صامدة - الجوهر . ومن أجله كم من السموم قدمها لنا الالهة والبشر
لكي نشربها وكم من الدموع ذرفنا . وكم من الدماء وكم من العرق

* تزوج ايروس من بسيثه وصار يزورها كل ليلة ويرحل فجرا وقد
أوصاها ان لا تحاول رؤية وجهه . ولكنها ذات يوم اشعلت شمعة
وقربتها من وجهه نسقطت عليه قطرة ابتظته واختنى .

الغزير ا طوال حياتنا كان هناك شيطان (اشيطان أم ملك ؟)
يرفض ان يدعنا في سلام . كان ينحني فوقنا ويلتصق بنا ويهمس
في آذاننا : « عبثا . عبثا . عبثا » كان يظن انه سيجعلنا نتجمد
في دروبنا . الا اننا صددناه بهزة من رؤوسنا ، وصررنا على
أسناننا وأجبنا : « هذا ما نريده بالضبط . اننا لا نعمل لقاء أجر
ولا رغبة بأجرة يومية . اننا نقاتل في الجو الخالي ما وراء الأمل
ووراء الفردوس ! » .

كان للجوهر أسماء عدة : كان يظل يغير ألقنته طالما نحن
نتابعه . أحيانا كنا نسميه الأمل الأسمى وأحيانا اليأس الاسمى ،
أحيانا ذروة الروح البشرية وأحيانا شراب صحراء ، أحيانا الطائر
الأزرق والحرية . وأحيانا ، أخيرا ، كان يبدو لنا مثل دائرة مغلقة ،
القلب البشري مركزها والخلود محيطها ، دائرة أطلقنا عليها
اعتباطا اسما ثقيلًا محملا بآمال العالم ودموعه كلها : « الله » .

في داخل كل رجل متكامل ، في سويداء قلبه ، مركز غامض يدور
حوله كل شيء آخر وهذا الدوران الغامض يوحد بين أفكاره وأفعاله ،
ويساعده على العثور على الانسجام الكوني أو اختراعه . هذا
المركز بالنسبة للبعض هو الحب ولآخرين اللطف أو الجمال وغيرهم
التعطش للمعرفة أو التوق للذهب وللسلطة . انهم يتفحصون القيمة
النسبية لكل شيء آخر ويلحقونها بهذه العاطفة المركزية . ويا
لتعاسة الانسان الذي لا يحس بنفسه محكوما في داخله من قبل
سلطان مطلق . فحياته غير المحكومة والمشوشة تبعثرها الرياح
الأربع .

ومركزنا ، يا جدي ، المركز الذي اجتاح العالم المرثي في
عصفه والذي كافح للسمو به الى أعلى درجات البسالة والمسؤولية
كان المعركة مع الله . أي اله ؟ الذروة القاسية لروح الانسان ، الذروة
التي نحن دائما على وشك الوصول اليها والتي تقفز دائما على
قدميها وتصعد أعلى فأعلى . « وهل يتقاتل الانسان مع الله ؟ »
سألني بعض المعارف ساخرين ذات يوم . وأجبتهم : « ومع من غيره
توقعون من الانسان ان يتقاتل ؟ فعلا . مع من غيره ؟ »

لهذا ، يا جدي ، كانت حياتنا كلها ارتقاء ، ارتقاء وجرفا وعزلة . لقد انطلقنا مع العديد من رفاق الكفاح والعديد من الأفكار في موكب عظيم . ولكن فيما كنا نصعد وفيما كانت الذروة تنتقل وتصبح أبعد فأبعد كان رفاق الكفاح والأفكار والأمال مواظبين على توديعنا ، تتقطع أنفاسهم فلا يعودون راغبين أو قادرين على الصعود أعلى من ذلك . وظللنا وحيدين وغيوننا مثبتة على (الجوهرة المتحرك) * ، الذروة المتحركة . ولم يتسلط علينا الصلف ولا اليقين الساذج بأن تقف الذروة ذات يوم وتثبت وبأننا سنصلها ، ولا حتى الاعتقاد بأننا إذا ما وصلناها سنجد هناك في الأعالي السعادة والخلاص والفرح . كنا نرتقي لأن فعل الارتقاء ذاته بالنسبة لنا هو السعادة والخلاص والفرح .

انني أعجب للروح البشرية : ما من قوة في السماء أو الأرض لها عظمتها . دون وعي بالأمر نحمل في داخلنا هذه الطاقة الجبارة . الا اننا نرهق أرواحنا بأثقال من اللحم والشحم ونموت دون ان نعلم ما نحن وما نستطيع انجازها . أهنك قوة أخرى على الأرض تستطيع أن تنظر الى بدء العالم ونهايته مباشرة دون ان يصيبها العمى ؟ في البدء لم تكن الكلمة (كما تعظنا الأرواح الراضحة تحت الشحم واللحم) ولم يكن الفعل ولا يد الخالق المليئة بالطين المتلقي للحياة . في البدء كانت النار . وفي الختام ليس هناك خلود ولا جزاء ، لا نعيم ولا جحيم . في الختام النار . وبين هاتين النارين ، يا جدي العزيز ، نحن نرهل ، ولقد كافحنا ، بأمرة النار وبالعامل معها ، من أجل ان نحول اللحم الى لهب والفكر الى لهب ، والأمل واليأس والشرف والعار والمجد الى لهب . كنت تسير في المقدمة وأنا أتبعك . ولقد علمتني ان لهبنا الداخلي ، المتناقض مع طبيعة اللحم ، قادر على التآجج بحدّة تتزايد أبدا مع مر السنين . لهذا كنت تزداد قسوة باستمرار وأنت تشيخ (كنت أرى ذلك فيك وأعجب بك لأجله) وتزداد شجاعة كلما اقتربت من الهاوية . ألقىت بأجساد القديسين والحاكمين والرهبان في بوتقة نظرتك وذوبتها كما تذوب المعادن فأزلت عنها صداها وصفيت منها الذهب الخالص : روحها . أية

روح ؟ اللهب • ووحدت ذلك بالحريق الذي ولدنا وبالحريق الذي
سيلتهمنا •

كان المتعلقون يتهموننا بأننا نكبر الأجنحة الملائكية كثيرا وبأن
لدينا صفاقة الرغبة في اطلاق السهم الى ما وراء الحدود البشرية ،
ان شيطاننا في داخلنا - ولنسمه لوسيفر لأنه يجلب النور - هو الذي
يظل يحثنا على ذلك • فهو الذي كان يرغب في تخطي الحدود لكي
يذهب الى حيث لا ندري • كل ما نعرفه أنه يذهب أعلى • ومثل
القديس جورج ، الذي كان يحمل على كفل جواده الأميرة الشابة
التي كان التنين يرغب في التهامها ، كان الشيطان يحمل الحياة ،
الحياة التي كانت تختفي وتتعرض للخطر داخل كل شيء حي ، والتي
كانت ترغب في الهرب لانقاذ نفسها ، لا بد ان القروء قد أحسنت
بزخم الكون فيها ، بالطريقة ذاتها ، يحرضها على ان تقف على
أرجلها الخلفية ، وعلى الرغم من ان الألم كان يجعلها تعول ، وعلى
ان تحك عودين معا لتوليد شرارة على الرغم من ان القروء الأخرى
كانت تسخر منها • وهكذا ولد الانسان القرد وولد الانسان • وهكذا ،
يا جدي ، كانت القوة التي لا تفنى ولا ترحم ترفس صدورنا أيضا :
لكي تنقذ نفسها من الانسان وان تتابع طريقها بعده • لم تظن اننا
كنا نذوي ونقاسي بين البشر ؟ كانوا يصرخون : « نرفض الذهب
أبعد من ذلك • أطبقا أجنحتكما ولا تطلقا السهم الى هذا القدر
من العلو • أنكما لا تخافان الله ولا تستمعان لصوت العقل •
اجلسا ! » الا اننا لم نكن نتكلم بل كنا نعمل • كنا نعمل بأجنحتنا
ونشد قوسنا • فتحنا أحشاءنا لنسمح للشيطان بالخروج •

لقد وبخك المفتش العام في توليدو * ذات يوم قائلا : « لا أحب
الملائكة التي ترسمها ولا القديسين • فبدل من أن تجعل الناس
يصلون انها تجعلهم يندهشون • الجمال يزج نفسه عائقا بين
أرواحنا والله » •

وضحكت وأنت تفكر بصمت : انني لا أريد أن أجعل الناس

☆ هي طليطلة .

يصلون • من قال لك انني كنت أريد أن أجعل الناس يصلون ؟
• الا انك لم تتكلم •

وشخص آخر ، هذه المرة رسام وصديق شخصي ، هز رأسه
حين رأى « توليدو في العاصفة » وأعلن : « انك تدوس القواعد
• هذا ليس فنا • لقد تخطيت حدود العقل ودخلت مملكة الجنون » •

وابتسمت (كيف حدث انك لم تنفجر غضبا ؟) وأجبتته :
« من قال لك انني أنتج فنا ؟ أنا لا أنتج فنا ولا أهتم للجمال
• العقل مقيد خانق لي وكذلك القواعد • أنا ، مثل السمك الطائر ،
أقفز خارجا من المياه الآمنة المطمئنة وأدخل جوا أكثر إثيرة مليئا
بالجنون » •

صمت لحظة وتطلعت الى توليدو التي رسمتها : ملفعة بغيوم
سوداء ومهدمة بالصواعق ، وأبراجها وكنائسها وقصورها التي
تحررت من أجسادها الحجرية لتظهر من وسط السواد مثل أشباح
ملفعة ببهاء مقلق • تطلعت اليها وبدأ منخراك يرتعشان وأنت
تتنشق رائحة الكبريت • وبعد التأمل لحظة في صمت هتفت متألما
وأنت تنشب أظافرك في صدرك : « أي شيطان في داخلي ؟ من
أضرم النار في توليدو ؟ انني ، فعلا ، أستنشق ريحا مليئة بالجنون
والموت ، أعني انها مليئة بالحرية » •

الوحيد الذي كان قادرا على فهم السعار القدسي كان شاعرا
(ولا أهمية لكونه راهبا أيضا) ، الأب هورتنسيو فيلكس
بارافيسينو • رأى الظلمة المخيفة ، والصواعق الوحشية والالجنة
الكبيرة والقديسين الذين ذابت أجسادهم عنهم وتحولوا الى شموع
ملتهبة وأمسك يدك الملطخة بالألوان ذات يوم وقبلها • قال :
« لقد جعلت الثلج ذاته يتفجر باللهب • لقد تخطيت الطبيعة • وان
الروح لتبقى متشككة في دهشتها : أي من الاثنين - مخلوق الله أم
مخلوقك - يستحق ان يحيا » • وعند نهاية هذه الكلمات بدأ صوته
يرتجف •

كنت تسمع باسمها هادئا للاهانات وللمدائح • واذا حدث بين

حين وآخر ان تظاهرت بالغضب ، فان الغضب يكون عندها عاصفة سطحية على وجهك بينما تبقى الأعماق التحتية ساكنة . ولأنك كنت تعي السر العظيم فانك لم تكن تحمل أملا أو خوفا أو خداعا عبثيا للنفس . ان البشر يتصارعون مع هذين الشبحين العظيمين الخير والشر (من يدري ربما كانا وجهين لله) . ويقول الأكثر جهلا ان الخير والشر عدوان . ويصعد آخرون خطوة أخرى أعلى من ذلك ويقولون ان الخير والشر حليفان . بينما آخرون غيرهم ، وهم يشملون لعبة الحياة والموت على هذه القشرة الارضية بنظرة شاملة ، فيفرحون للانسجام ويقولون : الخير والشر (واحد) .

الا أننا ، يا جدي ، واعيان للسر العظيم . اننا نكشفه ومن يهتم ان لم يصدقنا أحد . الأفضل أن لا يصدقونا . الانسان عاجز وهو في حاجة الى العزاءات . واذا صدق فان دمه سيجمد رعبا . أي سر ؟ ان هذا الـ (واحد) غير موجود .

ذهبت ذات يوم الى بيتك في توليدو ، يا جدي ، لكي أستطيع اننا أيضا ان أرى القديسين والحواريين والنبلاء الذين رسمتهم . كم خفت عنهم من عبء اللحم وجعلتهم على وشك ان يتحولوا الى لهب . لم يسبق لي في حياتي كلها ان رأيت لها أكثر اضطرابا . قلت لنفسي : هكذا يهزم اللحم وهكذا يتم الحفاظ على الجوهر الثمين من التفسخ ، ليس أقدامنا أو أيدينا المصنوعة من الطين ولا شعرنا الأشقر أو الاسود ، بل الجوهر الثمين الذي يكافح داخل هذا الكيس الجلدي والذي يسميه بعضهم روحا ويسميه آخرون لها .

لو كنت ، يا جدي ، ما تزال مكتسبا لحكم لجلبت لك بعض العسل والميزاثيرا ★ والبرتقال هدية من كريت ولجلبت لك أيضا هاريديموس ، عازف الربابة الطريف الذي يضع قطعة الحبق وراء أذنه ، لكي يعني لك المانتينادات التي كنت مولعا بها :

★ نوع من الجبنة شبيه بالجبنة الطوم .

أدر الدفة وعانق عهدك وليأت ما يمكن أن يأتي
من يهتم إذا نجح المشروع أم مات .



أمامك عمل ، أبحر ولا تخف
وادفع شبابك من أجله دون أن تذرف دمعة .



أنا ابن البرق وحفيد هزيم الرعد
على راحتى أبرق وأرعد ، وعلى راحتى أسقط البَرَد .

الا انك قد تحولت الى لهب . أين أستطيع أن أجرك ؟ وكيف
أستطيع أن أراك ؟ وأية هدية أستطيع أن أجلبها لك لأجعلك تتذكر
كربت وتنهض من القبر ؟ للهب وحده قيمة في نظرك . أه لو انني
أستطيع أن أتحول الى لهب وأنضم اليك !

منذ سبعة وثلاثين عاما كنت تجثم على هذا المطل الذي اسمه
توليدو . ومنذ سبعة وثلاثين عاما لا بد انك قد خطوت على هذه
الشرفة التي أقف عليها الآن ورحت ترقب نهر تاغوس الموصل
وهو يجري تحت جسر القنطرة Alcantara ذي القوسين ، ترقبه
يجري ويتقدم ليصب في المحيط ويتلاشى . وكان عقلك يجري معه
وحياتك كانت تجري أيضا ، وتتقدم لتصب في الموت وتتلاشى .
وخرجت من أعماقك صرخات مريرة متمردة . لم أفعل شيئا حتى
الآن ، لا شيء ، هكذا رحمت تفكر بينك وبين نفسك وأنت تشد
قبضتيك (لم تتنهد بل غضبت) . لم أفعل شيئا . ما الذي
تستطيع الروح ان تحققه بالالوان والقماش ؟ أنا لا يلائمني ان
أمكث هنا في نهاية الدنيا لأمزج الالوان وأتلهى بفرشاة وأرسم
القديسين والمسيحيين المصلوبين . هذا النقل للصور لا يخفف عن
روحي . العالم ضيق والحياة ضيقة وضيق هو الله . كان علي أن
التقط النار - النار والبحر والرياح والحجارة - كي أبني العالم
كما كنت أريده : ندا لمكانتي .

بدأت الشمس تغرب ، وصارت الأسطح ذهبية وأعتم النهر وأطل نجم المساء من الجبل . أشعلت المصابيح في بيتك وراحت خادمك المخلصة العجوز ماريا غوميز تعد المائدة . وخطت جيرونيما ، الرفيقة العزيزة لساعات نومك وصحوك ، الى الشرفة ولمست يدك برفق لئلا تخيفك . قالت : « حل الظلام الآن . لقد اشتغلت طوال النهار ولم تاكل شيئا . الا تشفق على جسدك ؟ هيا . . . »

لكنك كنت قد أوقفت خلقك للعالم والتفت الى كريت . كنت تخطو فوق الجبال الكريتيية فلم تسمع الصوت اللطيف ولم تحس باليد البيضاء . لم تكن قد بلغت العشرين من عمرك . وكان الجو عابقا بالزعر . كنت تغني المانتينادات الثلاث التي أنت مغرم بها ، ومندبل ذو أطراف طويلة يطوق شعرك الفاحم وقطيفة وراء أذنك وكنت ذاهبا الى دير فرونديسي الشهير لترسم العرس في قانا * الذي طلبه منك رئيس الدير .

كان عقلك فائضا بالألوان الزرقاء والقرمزية والخضراء . كان العروسان متربعين على مقعدين مرتفعين مزينين بنقوش نسرين مزدوجي الرؤوس . موائد العرس معدة والضيوف يأكلون ويشربون . وكان عازف الربابة يجلس في وسطهم يعزف على آله ويغني أغاني الزفاف المرحية . كان المسيح يقوم - لقد سكر وتوردت وجنتاه - ويضع فلورينا فضا على جبين العازف . . .

وبغثة جاءك الصوت الحبيب وكأنه قادم من بعد . سمعته وأجبت : « انني قادم » . وتبعت المرأة باسمها ، تلك المرأة التي أعادتك بلطف الى الأرض . لكن عرس قانا يتوالد في ذهنك ، وكانت الربابة الكريتيية المرنان ترن وتعول في داخلك . وبغثة بدت الوجبة اليومية مثل وليمة عرس . كنت تحتفظ بعازفين في خدمتك . واستدعيتهما ، أيها العريس ، ليعزفا على المزمار والغيتار وأنت تهلل لكي يستطيع طعامك المتواضع ان يصبح مأدبة عرس قانا .

وحين انتهيت من الأكل نهضت انت الآخر (تذكرت الصورة التي رسمتها في خيالك) وبكرم نبيل وضعت ذوقتين ذهبيتين على جبيني العازفين .

* قانا قرية في الجليل ، قيل ان المسيح حضر عرسا فيها وهناك قام بمعجزة تحويل الماء الى خمر .

لقد كنت تعيش مثل لورد • وبما أنك لم تكن تملك إلا
الاحتقار للاقتصاد فلقد بددت كل ما كنت تكسبه من فنك • كان
الأصدقاء والاعداء يعيبون عليك ذلك ويعنفونك • وكانوا يسألونك :
« ما الذي تفعله ببيت مؤلف من أربع وعشرين غرفة ؟ وماذا تفعل
بالعازفين ؟ لم لا تتنازل بحمل ايقوناتك على ظهرك مثل الآخرين
والتجول على الكنائس والأديرة لبيعها ؟ » •

كانوا يسمونك صاحب النزوات شامخ الأنف المتعجرف • وكنت
تشتعل غضبا اذا ما قيلت في حقك كلمة واحدة ، وكنت تتفجر
غيظا اذا ما سئلت كم دوقية تتوقع ثمننا للوحاتك • كنت تجيب :
« لوحاتي ليست للبيع • انها لا يمكن ان تشتري • ان أعمالا فنية
مثل أعمالى هي خارج منال أية محفظة نقود • اننى ، ببساطة ،
أتركها لديك رهينة • وحينما أشاء سأعيد دوقياتك وأستعيد
لوحاتي » •

سألك القضاة : « من أين أنت ؟ ولماذا جئت الى توليدو ؟ ومن
أنت ؟ » لكنك قاطعتهم وقلت : « لست ملزما بالاجابة • ولن
أجيب » الا أنك حين لم يجبروك نقشت اسمك كبيرا وعريضا على
لوحاتك وفي أسفلها بكبرياء جليل « كريتي » •

وحين ذعر الملك فيليب ذو الأنف الثعباني لرؤية القديس
موريس الذي رسمته له عضضت على شفتيك ولم تتنازل بالتوسل
أو بتخفيف حدة ألوانك • وبدلا من ذلك حملت ، وأنت ملفع باللهب ،
غضبك وكبرياءك وفنك العصي معك وانطلقت هاربا الى توليدو •

كانت لحظة عظيمة • ضمير نقى شريف يقف على كفة ميزان
وامبراطورية على الكفة الأخرى • وكنت أنت ، ضمير الانسان ،
الذي أرجح الكفة • سيكون هذا الضمير قادرا على أن يقف أمام
الله يوم القيامة دون ان يحكم عليه ، بل هو الذي سيحكم لأن
الكرامة الانسانية والنقاء والبسالة تملأ حتى الله بالرعب •

اعذرنى يا جدي لعجزى عن ضبط نفسي • لقد أحسست بأعجاب
كبير باللحظة المفعمة بالنبل التي اجتزت فيها العتبة الملكية ورحلت

رافع الرأس متخليا عن مكاسب العالم الكبيرة والصغيرة ومخلفا ايها
وراءك باحتقار الى درجة انني تجرأت على تثبيت تلك اللحظة في
الشعر والوزن لكي أمنعها من الفرار . لقد كتبت ثنائي بحبر أسود
وبحبر أحمر وعلفته في الهواء :

ملتفا على رف صخري تحت اللهب المتأجج
كان الملك - الدودة - يرقب ،
بنظرته المديدة ، البنائين
يعلون ضريحه المعزول المربع
حولهم من كل الجهات .
حجرة وقصر وقبر ،
كان الغرانيت القاسي ذو الألوان الفجة
يجار فضا وعاريا
على الصخر الأجرد .
كان فمه المزبد يتشقق
وكان الوجه الشمعي الأبيض للقاضي الآثم
والجسد الداوي يتفسخان ببطء -
حينما ، بغتة ، من قمة الجبل
انقض بزعة مغتبطة
عقاب جائع على الهيكل المخدر :
قبل ثلاثين عاما ، كان يفوح نتنا .
ويحس الشاب الوسيم ، الكريتي ،
بالبطائر الصياد ينطلق
من ذهنه لينقض على السلطان .
ما تزال تتردد في صيوان أذنه
لسعة الجلدة المهسهسة المليئة بالنقمة
والتي أخرجته من هيكل أحلامه :
« الملك يرفض القديس موريس ! »
اهتز الهواء ورن -
تعالى اللهب من كل صوب ،
أسلحة وملائكة ،
وتمتد النار الى الصور

مستفرقة في الله ،
 الرماح ليالك مشرعة مفترسة بالشمس ،
 والزهور تنبثق من الحجارة المحماة ،
 والتروس مصقولة زمردية ياقوتية ،
 والضوء يجوس ، كالأسد ، ويلتهم ،
 في السماء كان المحاربون الشجعان ،
 بهياكلهم الضبابية ، يزحفون أرتالا
 مثل أعمدة العصف الباكر .
 ويعجن الشاب ، بأصابع قوية متشنجة ،
 كتلة من البطم الكريتي الحار
 فتعطر كفه الى الأبد .
 الوقت ظهر . والشمس تسطع على الحجارة .
 ويرى حامي الثغور النحيل خلقا جديدا
 يومض في الضوء غير واضح -
 يظهر شكله ساميا وعاريا .
 وكجناح مستقيم ينتشر بقوة محطمة
 فيهز ، وهو سجين ، الدير
 ومعقل البشر الثقيل ، الجسد الواهي
 وتنفث على السماء نافذة لازوردية .
 الطيور الملائكة ، هابطة الى كير العقل ،
 وكالتفاحات الذهبية
 تتدلى أنباء الملك السوداء ،
 ومن أعالي السماء الطاهرة
 يندفع عقاب العقل ،
 هابطا بصمت الى دماغ الكريتي ،
 ملاكا عظيما فمه مليء بالنار .
 يعبر الأطفال ، مثل الجمر بعد مطر المساء ،
 ويعبر الرهبان والعذراوات
 واللوردات بخدود غائرة ،
 والأمهات مكرسات لأبنائهن : الكهتهن .
 تتحرق كفاه للبدء
 رغبات مبهمة تخنقه ،

- وبعضات نهمة كبيرة
- يعاين قماش اللوحة الأثيري في الهواء
 - تسيل الألوان كثيفة وتجيش مرحلة
 - في دماغه قبل ان تتمكن اليد من الامسك بها
 - تندفع الملائكة الباسلة
 - واعشاش من النيازك تتفجر على الرؤوس
 - وكرايات حربية تعود مزقا ،
 - تشتعل الرايات في عقله ،
 - تمسك مفاتيح ونيرانا ، تلك المحبوبة ،
 - الكأس الكبيرة المزخرفة بأفعى
 - ويحس الشاب بالله منحنيا فوقه
 - وينزل مثل كتل من النار ، يزعق
 - وجسده مضحى به على الصليب
 - أرض مهتاجة ، ومثل لسان أسد
 - تعلق الرحمة الالهية الحجارة بنهم
 - ويلتف الجمهور الذي لم يولاد حول خاصرتيه
 - في رقصة مرحلة رجاجة
 - تشتعل أصابعه
 - وواحدة بعد أخرى يشعل الذرى ،
 - رؤوس لهب خافت
 - على شموع حجمها ضعف حجم الانسان
 - وببهاء غير دنيوي ،
 - مثل هالة القمر اللؤلؤية ،
 - تومىء اليه قشرة الأرض العليا :
 - « سأسحب الجسد : دعه يتكسر ا
 - فالله ، المغناطيس العالي بين الغيوم
 - يجذبني الى قاعة الرقص الأثيرية الثلاثية
 - الا ان الملك ذلك العشب الخنزيري السام
 - يطردني من خمّ دجاجه الموحش ،
 - انه يرى الضوء والمخاوف
 - عليك اللعنة ا وداعا ، ولكن اعلم
 - ايها المنخل اللحمي ، ان الفن

ليس خضوعا وقواعد
 بل هو شيطان يحطم القوالب •
 انني اتركك لتزيل شعر العانة
 برساميك الخصيان الأرزال « •
 هكذا تكلم •
 وبمواجهة الشمس ، نحو مخرطة الغرانيت
 ثبت عينيه ، تينك الجوهرتين الثمينتين القاسيتين ،
 على المنحدرات العمودية •
 تشمم البطم
 فتسللت النمرة المدللة ، كريت ،
 وراحت تجوب ظلمة أعماقه الحالكة •
 هموم ثقيلة ، ورغبات طموح ورجولية ،
 تتجاوب في صدره كالطبول
 كطنين النحل في الزعتر المزهري
 وتدخل فروديسي الحبيبة الى عقله •
 ويتصاعد البخار من بسيلوريتي ملتهبا •
 وتسحق المياه الجليدية النبع المرمرى ،
 انتصب الجسر عاليا •
 وتعمل الربابة المرنان برقصتها الرشيقية •
 تنتقع شفتاه بالبحر ، انه ما يزال قادرا على ان يسمع
 - أيها الكنز المخبوء -
 الشماس الزاهد في ميناء كاسترو
 قبل ان يبحر
 والتحذير المبالغ به من مولاة العجوز :
 « يا كيرياكوس
 لقد كنت ملقعا بلهب النبوة
 فلا تسقط في شرك الدعة ،
 لاعق قدور في بلاط ملكي
 اضطرم في دروب لم تسلك وتقدم ا
 أيها القلب النزوي ،
 حين كان الأمل الخداع
 يقدم أحلاما عذبة وخانعة

لماذا اختبأت
 ولم تهمزني بكعبك الغاضب
 لتجعلنا نرحل ؟
 فلنعد يا قلب ! لنعد الى البيت •
 هكذا قال •
 وكانت روحه تثب كالشهد
 نهضت الوحشة - حصنا •
 واضطرم الله كالنجم على حاجبيه ،
 وهو يتبعه ، التفت يريد الهرب •
 وجاءت مانتينادا منعمة
 لتقلب موازين ارادته :
 | أمامك عمل ، أبحر ولا تخف
 وادفع شبابك من أجله دون أن تذرف دمعة |
 أنا ذرفت دموعا من أجل شبابي ؟ لا • ليس أنا
 ان الصبر يعيقني • كفاني •
 لقد خلقنا ، أيها القلب ،
 لننشر جناحي الحرية الأصيلين بعنف
 ونهلك في دروب سامية •
 اننا نحمل في يدنا سيفا | هو النور •
 واجه الشمس متجها نحو كريت ،
 لكي تجد الحرية
 والعزلة المقدسة |
 وبسرعة ينحرف الى اليمين
 نحو منزل والده في المرفأ البعيد ،
 ولوحت قمة بسيلوريتي الشامخة
 مثل منديل فوق عقله ،
 وتمدد سهل ميسارا واسعا ومخوضرا
 بحدائقه الغناء •
 الا انه يقف على قدميه بغتة
 فقد أمسكت به يدان مخيفتان •
 أجنحة ،
 سمع خفق الأجنحة و -

أه يا الالق الساطع -
 أترعت عيناه بالنجوم •
 وراح لهب روجي ، أخضر وذهبي ،
 يلفح بسرعة جلدة رأسه
 ومعه لفحات كبريتية مبرقة لاذعة •
 ويقفز عليه ملاك العرش ، الريح الجنوبية الدافئة ،
 وجناحاه مضمخان بالبطم ، يضم الشاب الى صدره الضخم
 ثم يرفس الأرض وينطلق عاليا
 وهو مندفع عبر الأعماق اللأزوردية ،
 يشحب الشاب في الضوء الهتون القاسي •
 يشد منديله الكريتي بقوة
 وعيناه السوداوان مفتوحتان
 وشفتاه مزمومتان بقوة
 ثم ينظر الى الشمس المتقدة
 التي ذوبت أعمق طبقات الارض •
 جثة تنورّ الضريح
 والنمال ، البناة ، تصقله •
 تصفر الهضاب ، وتتلوى الدروب
 ينحني على القيدوم الملائكي
 ويحصد الضوء ، ذروة الرغبة •
 نهضت قامة الأرض اللامرئية
 لقد ألقاه صدر ملاكه الداخلي
 على القمم العذراء ،
 على الأمل الوحيد للحرية الوحشية ،
 أسمى ما في هذا العالم
 كريت العليا ، الوطن السري •
 ظللت طوال النهار أتجول في أزقة توليدو الضيقة • كنت
 اتنشق رائحة الكبريت في الهواء وكان صاعقة قد نزلت • كانت
 الريح ما تزال لها رائحة الوحش البري بعد أكثر من ثلاثة قرون مرت
 على عبورك ، وكان أسدا قد سار على هذا الطريق • كم هو مخيف
 ومفرح أن تسير وانت تحس بروح عظيمة تخفق بجناحها فوقك
 مهتاجة !

حينما ذهبنا الى فراشي ليلا وأحشائي مليئة بأنفاسك يا هدي
جاء النوم وحملني بعيدا . أكان نوما ؟ أم كان قاربا ذا ثلاثة صوار
بأشعة مرتفعة ؟ اعتليته ، وفي اللحظة التي التفت فيها لأسأل
القبطان أين نحن ذاهبون كنا قد ألقينا المرساة في ميغالو كاسترو ،
في كريت . كانت حجر الأسود الفينيسية المجنحة قد توردت تحت
شمس الأصيل ، وكانت راية القديس مارك تلوح فوق البرج
العظيم . وكان الرصيف عابقا بروائح الخمر وزيت الزيتون والليمون
والبرتقال وإلى جانب بوابة المرفأ كانت خمارة جيرونيمو تعج مليئة
بالفينيسيين السكارى وبالبحارة الجنوبيين وبنساء صفيقات
يترددن على الواجهة المائية . جلسنا ، نحن الأثنيان ، خلف برميل
مائل على جنبه . وجلبت لنا محارات وسرطانات مشوية كمازه ،
ورحنا نفرغ كؤوسنا ونملأها مرة بعد أخرى دون أن نتكلم وكل منا
يحدق في عيني الآخر .

كنا شابين . أنت في العشرين وأنا في السابعة عشرة ، وعلى
الرغم من اننا كنا نحب الفتاة ذاتها فاننا لم نتشاجر لأننا كنا
صديقين لا مثيل لهما . في الليل كان كل منا يغني تحت نافذتها
الموصدة مهدئين قلوبنا بالمواويل ، أنت تحمل زممارا وأنا أحمل
غيتارا . كان صوتانا يمتزجان . صوتك عميق ورجولي ، وصوتي
ما يزال غير ناضج . ثم تركنا للفتاة حرية ان تختار من وراء نافذتها
الموصدة . افترقنا عند الفجر . أنت لكي تأخذ فرشاة دون أن
تنام ولكي ترسم ملائكة كبارا مجنحين تميل خارجه من أطرها كما
هي عادتك ، بينما أنا المهرق اتجهت الى البيت لكي أنام وأحلم
بأن النافذة قد فتحت وان تفاحة حمراء قد سقطت في راحتي .

والآن كان كل منا يحدق في الآخر وسط الحانة دون ان نتكلم
لأنك سترحل فجر اليوم التالي . ورحنا نشرب لننسى ألم الفراق .
كان الوقت قبيل منتصف الليل حين نهضنا لنغادر الحانة .
كنا نشرب خمرة مالقيزية لأذعة وقد تفتح عقلانا وتفرعا فشملا
العالم كله . قلت لك : « العالم لنا يا أخ مينيفي . دعنا نذهب » .
تخاصرنا لكي نتساند فلا نتعثر . وأحسست بأنفاسك على
خدي . سألت نفسي حتى متى ؟ حتى متى ؟ سيأتي الفجر في

غضون ساعات قليلة وسيغادرني النفس الحبيب ولن يقع علي
بعدها أبدا الا أنني كنت شابا فتحملت الألم ولم تمتلئ عيناى
بالدموع .

عبرنا بوابة المرفأ وانعطفنا يمينا ثم تسلقنا الجدران
الفينيسية التي تحيط بالمدينة . كان البدر بحزن معلقا فوقنا
ومكتملا . وأكبر النجوم وحدها التي كانت قادرة على مقاومة
اضاعته ، وكانت تلك تشع في السماء الحليبية الساكنة بينما كان
البحر الكريتي يجأر على يمينا .

توقفت أيها الرفيق الحبيب ومددت ذراعك . ثم قلت لي :
« انظر . انظر الى الماء . انه يهجم لكي يلتهم الجدران ويطرد
الفينيسيين . الا تستطيع أن ترى ؟ أنظر جيدا - هذه ليست أمواجا
يا مينفاكي - كان هذا هو اللقب المغيظ الذي لقبتني به ، انها
خيول ، فرقة فرسان رهيبة ا » .

وضحكت : « انها أمواج يا مينيفي . وليست خيولا » .

هزرت كتفي : « أنك ترى بعينين طينيتين . أما أنا فأرى
بغيرهما . انت ترى الجسد أما أنا فأرى الروح » .

- « ربما فسر لنا ذلك لماذا نحن صديقان عزيزان وغير راغبين
في الافتراق . هل تود الروح ان تغادر الجسد ؟ » .

ذكرنا هذا بالفراق فأحسنا بالارهاق .

قلت لي وأنت تشد على ذراعي : « تعال . لا تتحدث عن
الفراق » .

ومشينا بعضا من الوقت تحت القمر الا ان ذهنينا تركزا على
الفراق . كنا معا نجهد من أجل أن نحول تفكيرنا لثلا نقع فريسة
للمدوع . كنا نخجل من البكاء . لقد قرأ كل منا الاساطير المقدسة
وحسد صمود القديسين أمام الألم - وعيونهم التي كانت تظل جافة
على الرغم من انهم كانوا يفارقون ، والى الأبد ، أعز أحبائهم -
ولقد نذرنا أنفسنا لتقليدهم .

- « ما الذي تفكر به ؟ » سألتني وأنت تحاول ان تبدد الصمت .

- « لا شيء » أجبتك وأنا أحاول اخفاء مشاعري . « صحيح .
كم هو هائج هذا البحر الكريتي . هذا ما كنت أفكر به . أما وقد
ذكرته الآن أحس بالرغبة في النزول الى الشاطئ لقتال الأمواج
حتى لو غرقت » .

وأجبتني : « يظن الشباب نفسه خالدا ولهذا فهو يتحدى
الموت » . وأمسكت بكفي وكأنك كنت تريد ان تمنعني من النزول
الى الشاطئ .

سررت ، بدا لي ضغطك على يدي ودودا جدا . وعلى الرغم
من أن الهى لفقدانك قد تزايدت تظاهرت بعدم الاكتراث واقترحت ان
نحول حديثنا الى المسائل اليومية لكي ننسى للحظة اننا مفترقان .

وسألتك : « كيف ستعيش بعيدا في أراض غريبة يا مينيغي ؟
انك لا تعرف أحدا . لا أحد تعرفه ونجمك لم يتألق بعد . والدوقات
التي أعطاك اياها أخوك مانوزوس ليست كثيرة وأنا أعرف مبلغ
يتمك وحرمانك . ستنفقها في لمح البصر . وماذا بعد ذلك ؟ ألسنت
خائفا ؟ » .

وأجبتني : « لا تزعج نفسك من أجلي . لا يهم كم ان ما
لدي قليل . فهو كاف . و لأهمية ان كان كثيرا ، فهو ليس كافيا .
اتفهم ما أقول ؟ »

- لا -

وضحكت مثل طفل : « ولا انا . المهم . تلك هي المسألة » .

الا انك لاحظت قلقي . وضعت يدك على كتفي وقلت لي
لتريحني : « لا تهتم يا مينيغاكي لن أغرق . ان في ذهني أهدافا
عظيمة وفي يدي قوة عظيمة . ولسوف أتنافس مع أروع القوى
هناك في أوروبا حيث أنا ذاهب لكي أجبر روجي اما على أن تفوز أو
أن تفنى . ستري . ستري ، ستري . وقبل كل شيء سأحسم
المسألة - لا تنصع - مع ميكيل أنجلو ، منذ أيام رأيت نسخة من
(يوم القيامة) التي رسمها في روما . وأنا لا أحبها » .

كانت عينك في ضوء القمر تطلقان شررا ، وصار صوتك
أجش . انحنيت والتقطت حجرا وقذفت به الى البحر وكأنك كنت
تريد ان تدلل على قوتك بمحاجرة الامواج .

- لم تنظر الي هكذا ؟ هل يخيل اليك انني قد شربت الكثير من
الخمرة فسكرت ؟ أنا لست سكرانا . لا . أنا لا احب أن أسكر .
هو (الله) يبعث اللحم ويمتلئ العالم بالأجساد من جديد . أنا لا
اهتم بأي منها . سأرسم قيامة أخرى . سأفعل ذلك . وعلى
مستويين . المستوى الأدنى : القبور ، انها مفتوحة والديدان
بحجم جسم الانسان تخرج منها قلقلة برؤوس مشرعة وكأنها تتنشق
الهواء . والمستوى الاسمى : المسيح . المسيح وحيدا تماما . انه
يطل وينفخ على الديدان فيمتلئ الجو بالفراشات . هذا هو معنى
البعث . يجب ان تتحول الديدان الى فراشات وليس فقط ان تعود
الينا وتتحول الى ديدان فانية » .

رفعت نظري وتطلعت اليك في ضوء القمر السحري . كان الهواء
حول رأسك الملهب معبأ بالفراشات .

كنت أفتح فمي لأتكلم (لقد بدت لي القيامة على غاية من
الهرطقة) لكنك كنت قد استفزرت وكنت تواقا لان تبوح لي
بأسرارك في الوقت الملائم ، كان الفجر يدهمنا وكنا مجبرين على
الافتراق بعد قليل . لم أصدق أنك كنت تخاطبني بعد ذلك ، كنت
تتداعى كما تشاء :

« انهم يرسمون الروح القدس هابطا على رؤوس الحواريين
بشكا . حمامة . يا للعار ! ألم يحسوا ، أبدا ، بالروح القدس
يحدوهم ؟ أين وجدوا ذلك الطير البريء الصالح للأكل ؟ كيف يقدمون
لنا الطائر روحا ؟ لا . الروح القدس ليس حمامة ، بل هو نار
نار ننهم البشر ، وتنشعب مخالباها في أقحاف القديسين والشهداء
والمناضلين العظماء وتحيلهم رمادا . الأرواح الخائفة هي التي تعتبر
الروح القدس حمامة . يتخيلون أنهم يستطيعون أن يقتلوها
ويأكلوها » .

ثم ضحكت . « ذات يوم - اذا شاء الله - سأرسم الروح القدس
فوق رؤس الحواريين وعندها ستري » .

غرقت في الصمت ، ثم حركت يدك بسرعة الى الأعلى والى الأسفل وكانك ترسم العنصرة (عيد الخمسين) في الهواء .

وسألتك : « ألا تستطيع تحويل النار الى نور ؟ » ثم أسفت على كلماتي فوراً لأن وجهك تجهم . « عليك وعلى هوسك بالنور ! » أجبتني وأنت تقطب حاجبيك ، الطريقة التي تطلعت بها الي جعلتني أظن انك غاضب . « فيم عجلتك ؟ هذا ليس من شأنك . هذه أرض وليست غيمة . والأرض مصنوعة من أجساد ذات لحم وشحم وعظام . دعنا نحولها الى لهب . هذا ما نستطيع أن نفعله ولا نستطيع ان نفعل أكثر من ذلك . هذا يكفي ! ان النار تنام حتى في الجذل * وفي ورقة الشجرة وفي أبهى وأنعم الحلل الملكية ، تنام وتنتظر من يوقظها . أيقظ النار ! هذا واجب الانسان . ان اللهب يخرق الحجارة والبشر والملائكة ، هذا اللهب هو ما أريد أن أرسمه . أنا لا أريد أن أرسوم الرماد . أه لو انني أصل في الوقت المناسب ، أنا لا أطلب أكثر من أن أصل في الوقت المناسب . لهذا تراني الهث وأنا مسرع . أريد أن أصل قبل أن تترمد » .

وهتفت : « اهدأ ! » . احسست بجسدك متلفعا باللهب .
« اهدأ يا رفيقي انني خائف » :

— لا تخف يا مينيغاكى . النار هي الأم العذراء . انها تحمل الابن الخالد . أي ابن ؟ النور . الحياة مطهر . ونحن نحترق . ان مهمة الجنة ان تتلقى اللهب الذي هيأناه وأن تحوله الى نور . فلندع الجنة تفعل ذلك .

وصمت ثانية ولكن للحظة . ثم قلت : « أريدك ان تعرف ان البشر ، بهذه الطريقة ، يتعاونون مع الله . ان بعض الناس يقولون عني انني مهترق ، دعمهم . ان لدي كتابي المقدس الخاص بي وهو يقول ما نسيته الكتب الأخرى أو ما لم تجرؤ على قوله . انني أفتحه وأقرأ في سفر التكوين : خلق الله العالم وارتاح في اليوم

* أصل الشجرة — الباتي في الارض بعد تطعما .

السابع • وفي هذه المرحلة دعا مخلوقه الأخير ، الانسان ، وقال له :
استمع الي يا بني ان كنت تريد بركتي • لقد خلقت العالم لكنني
أهملت انهاءه • تركته في نصف اكتماله • انت تتابع الخلق • أحرقت
العالم ، حوله الى نار وأعدته الي وأنا سأحوله الى نور •

مع الهواء النقي والحديث الخطير بدأنا نحس بالصحو • جلسنا
على صخرة ورحنا نحدق الى البحر • من جهة الشمس كانت السماء
قد بدأت تبيض عند حد الأفق • أما تحتنا فكان البحر ما يزال
معتما وصاخبا ، وبدا لي حين التفت للحظة ، يا مينيفي ، أنك ملفع
باللهيب •

قلت : انك محقق لا يرحم • تعذب وتقتل الجسد من أجل ان
تخلص الروح •

وأجبتني : انت تسميها روحا وأنا أسميه لهبا •

- انني أحب الجسد • يبدو لي ان اللحم مقدس فهو أيضا
من الله • ولا تغضب اذا ما قلت لك شيئاً آخر : ان في اللحم بريقا
من الروح وفي الروح زغب لحمي • وهما يعيشان معا في توازن منسجم
مثل صبيتين صديقتين وجارتين • وأنت تحطم التوازن المقدس •

التوازن يعني الركود • والركود يعني الموت •

- ولكن الحياة ، في هذه الحالة ، رفض دائم • انك ترفض ما
نجح في مقاومة التحلل وفي اقامة التوازن • أنت تحطم ذلك الشيء
وتبحث عما هو مشكوك فيه •

- بل أنا أبحث عما هو مؤكد • انني أمزق الأقنعة وأكشط
طبقات اللحم • انني أقول لنفسي ان شيئاً ما خالدا موجود تحت
اللحم ولا يستطيع ان يكون من نوع آخر • هذا ما أبحث عنه وهذا
ما سأرسمه • وما تبقى كله - اللحم والأقنعة والجمال - أقدمه بسرور
الى تيتيان وتنتورييتو * وأرجو أن يستمتعا به •

* رسامان ايطاليان •

- تريد أن تتجاوز تيتيان وتنتورينو ؛ لا تنس المانتينادا
الكريتيية : اذا بنيت عشك عاليا جدا سينكسر الغصن .
وهزرت رأسك : لا . أنا لا أريد أن أتجاوز أحدا . أنا وحيد
ومهجور .

- انك معتز جدا بنفسك يا مينيغي . مثل لوسيفر .
- بل أنا وحيد جدا .

- انتبه يا صديقي العزيز فالله يعاقب الصلف والاعتزال .

ودون أن تجيب ألقيت نظرة على البحر الصاخب ثم نقلت
نظرك الى المدينة التي ما تزال نائمة . كانت أول الديوك تصيح ،
فنهضت . قلت : « تعال . انه الفجر » .

خاصرنتني من جديد وتابعنا سيرنا . كنت تغمغم ببعض الكلمات
وتفتح فمك ثم تغلقه . من الواضح انك كنت ترغب في الكشف عن
شيء ما الا انك كنت مترددا . وأخيرا لم تعد قادرا على السيطرة
على نفسك .

- مينيغاكي . ان ما سأقوله لك محزن . اعذرني . تستطيع
ان تقول انني سكران .

ضحكت : « بما انك سكران فانها فرصتك الكاملة لأن تقول ما
تمتنع عن قوله حين تكون صاحيا . انها الخمرة الماليفيزية وليس
أنت ... حسن ؟ » .

وتجاوب صوتك غاية في العمق والمهارة في ذلك الفجر الشاحب .

- « ذات يوم سألت الله : متى ستغفر للوسيفر يا مولاي ؟
وأجابني الله : حين يغفر لي . هل تفهم يا صديقي الشاب ؟ اذا
سئلت يوما من هو أعظم معاوني الله عليك ان تقول انه لوسيفر .
واذا سئلت من هو أكثر مخلوقات الله حزنا ؟ فقل انه لوسيفر .
وأخيرا اذا سئلت من هو الابن الضال الذي ينتظره أبوه بذراعيه
مفتوحين والذي قتل العجل المعلوف السمين فقل انه لوسيفر .

« انني اكشف لك عن أسراري الخبيثة لأنني أريدك ان تعرفني اذا تأخرت أو عجزت عن انجاز كل ما أنوي انجازه فان عليك ان تتابع النضال • تابعه دون خوف ولا تنس الوصية الوحشية التي يوصي بها الكريتي للكريتي : اسفح شبابك من أجله ولا تذرف دمعة • هذا هو ما يعنيه أن تكون رجلا : ان تكون شجاعا بحق : باليكاري (قبضاي) • وتلك هي الرغبة القصوى للهب المقدس •

« هل تعدني ؟ أتستطيع القيام بذلك ؟ ألن تهن شجاعتك ؟ ألن تتطلع وراءك لتقول : ان الرفاه أمر جميل وكذلك عناق امرأة وكذلك المجد ؟ ••• لم لا تتكلم ؟

- المهمة التي تعهد بها الي ثقيلة يا مينيغي • ألم يكن من الممكن جعل واجب الانسان اقل مرارة بقليل ؟

- نعم • ولكن ليس لك أولي • هناك ثلاثة أنواع من الأرواح ، ثلاثة أنواع من الصلوات : الأولى : أنا قوس في يديك يا مولاي ، شذني لئلا أتفسخ ، والثانية لا تشدني كثيرا يا مولاي لئلا أتحطم • والثالثة : شذني كثيرا فمن سيهتم ان تحطمت • فاختر بينها !



استيقظت • كانت أجراس الكنيسة المجاورة ، سانتو تومي ، تقرر لصلاة الصبح • لقد بدأ النهار • وتجاوبت أصداء الصرخات في الشارع وفرقعت كعوب النساء على حجارة الشارع وصاح ديك فتي بصوت أجش في صحن الدار • كانت توليدو تستيقظ • وكان حلمي ما يزال معلقا على أجفاني • كنت ما أزال قادرا على سماع الكلمة الأخيرة التي لا ترحم تلك التي ملأتني رعبا وهزتني فأيقظتني من نومي : اختر !

كم من الوقت يا جدي الحبيب - ومضة أم ثلاثة قرون - قد مر منذ تلك الليلة التي نمت فيها في توليدو ، وأنت ، حين أحسست بوصول كريتتي الى جوارك ، نهضت من قبرك وتحولت الى حلم وجئت تبحث عني ؟ ومن الذي يستطيع ان يميز في جو الحب بين

اللحظة والأزل ؟ لقد انسلت حياة منذئذ . ابيضّ الشعر الاسود
وغارت الأصداغ ووهنت العيون . ولم أستطع ، أبدا ، أن أقرر
بين يدي من ، الله أم الشيطان ، كان القوس يقطع . لكنني
فرحت لاساسي بقوة ، أعظم وأنقى من قوتي بكثير ، تثابر على
تزويدي بالسهام ومساعدتي على الاطلاق . ان الخشب كله من
الصليب الحقيقي لأن الخشب كله يمكن ان يصنع صليباً . وكذلك
فان الأجساد كلها مقدسة لأن الاجساد كلها يمكن أن تصنع قوساً .
لقد كنت طوال حياتي قوساً بين يدين قاسيتين نهمتين . وكم من
المرات شدتني بها هاتان اليدان الخفيتان وبالغت في شدي حتى
سمعت الطقطقة التي تنذر بالانكسار . وفي كل مرة كنت أصرخ
« فليتكسر ا » . ففي النهاية أنت الذي أمرتني أن أختار يا جدي
ولقد اخترت .

اخترت . الشفق يلقي بسديمه على رؤوس التلال . والظلال قد
استطالت . وامتلاً الهواء بالموتى . ان المعركة توشك على الانتهاء .
هل انتصرت أم هزمت ؟ الشيء الوحيد الذي أعرفه هو : انني مثخن
بالجراح وأنا ما أزال واقفا على قدمي .

مثخن بالجراح وكلها في صدري . لقد فعلت ما استطعت يا
جدي . وأكثر مما كنت أستطيع . تماما كما أمرتني . لم أكن أريد لك
أن تخجل بي . أما وقد انتهت المعركة الآن فانني آتي لأضطجع
الى جانبك ، ولأصبح تراباً الى جانبك ، لكي ننتظر معا يوم
الدينونة .

أقبل يدك يا جدي . أقبل كتفك اليمنى وأقبل كتفك اليسرى .

جدي ا

مرحباً ا

الفهرس

ص ١	
٥	كتابة « تقرير الى غريكو »
١١	تقديم
١٣	تمهيد
٢١	١ - الاسلاف
٢٩	٢ - الأب
٣٣	٣ - الام
٤١	٤ - الابن
٥١	٥ - المدرسة الابتدائية
٦١	٦ - موت حدي
٦٥	٧ - كريت تواجه تركيا
٦٩	٨ - اساطير القديسين
٧٣	٩ - التوق الى الطيران
٨٣	١٠ - مجزة
٩١	١١ - ناكوس
١٠٣	١٢ - الحرية
١٠٩	١٣ - متاعب النضوج
١٢٧	١٤ - الصبية الايرلندية
١٣٣	١٥ - أثينا
١٤١	١٦ - العودة إلى كريت كنوسوس
١٥٥	١٧ - الحج عبر اليونان
١٧٧	١٨ - ايطاليا
١٨٩	١٩ - صديقي الشاعر - جبل آتوس
٢٣٥	٢٠ - القدس
٢٥٧	٢١ - الصحراء - سيناء

فهرس كتاب كازنقراكي

٥	٢٢ - كريت
٢١	٢٣ - باريس - نيتشه - الشهيد العظيم
٤٩	٢٤ - فيينا - مرضى
٧١	٢٥ - برلين
١١٥	٢٦ - روسيا
١٥٣	٢٧ - القوقاز
١٦٧	٢٨ - عودة الابن الضال
١٧٩	٢٩ - زوريا
١٩٧	٣٠ - حين اثمرت في داخلي بفرة الاوديسة
٢٢٣	النظرة الكريتية
٢٣٩	خاتمة